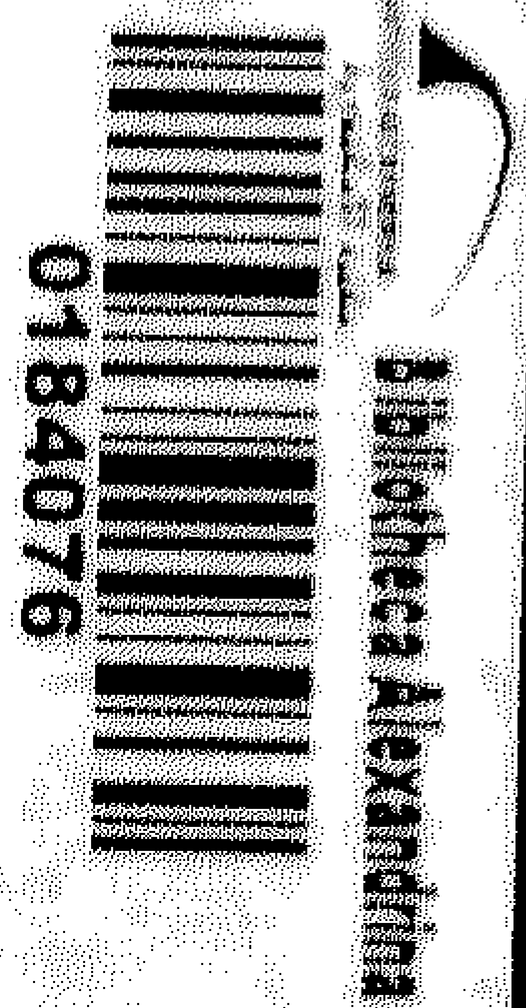

Bibliotheca Alexandrina
0184076

أعلام العرب

٢٩

أحمد زكى
الملقب بشيخ العروبة

بقلم
أنور الجندى

وزارة الثقافة والارشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

أعلام العرب

٢٩

أحمد زكى

الملقب بشيخ العروبة

حياته - آراؤه - آثاره

بقلم

أنور الجندى

وزارة الثقافة والإرشاد القومى

المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

فى رحلة طويلة خلال البحث عن « معالم الأدب العربى المعاصر » منذ فجر النهضـة الفكرية العربيـة التى بدأت قبيل منتصف القرن التاسع عشر حتى أوائل الحرب العالمية الثانية (١٨٤٠ — ١٩٤٠) تبدو معالم شخصيات متعددة من أعلام الفكـر والوطنية والكفاح السياسى والاجتماعى والأدبى .

ومن حق هؤلاء النوابغ علينا أن نكشف عنهم ، ونؤرخ لهم ، وندرس انتاجهم وآثارهم ، ونقدمهم لجيلنا المعاصر المتعطش الى صور البطولة فى مختلف الميـادين ، والى روائع الفكر وبدائع الفنـون الأدبيـة ، من مساجلات وتحقيقات . ولقـد حفـل تاريخنا فى هذه الفترة بأعلام بارعين صادقين فى ايمانهم بأمتهم ، وبلغتهم ، وبتاريخهم ، غير أن بعضهم آثر العمل دون الشـهرة ، وبعضهم لمع لمعانا خاطفا خلال حياته ، فلما قضى غاب فى أعماق الأحداث ، ولم يجد من يؤرخ له ، أو يكشف عن فضله وأثره .

ولقد تابعت خلال بحثى الطويل عـديدا من هؤلاء النوابغ الذين لم يلتفت اليهم حتى الآن أمثال : أحمد تيمور ، وعبد العزيز الثعالبى ، وفريد وجدى ، ومصطفى الغلايينى ، وأحمد شفيق ، ومحمد مسعود ، وداود بركات ، ورشيد رضا ، وشبلى شميل ،

وطاهر الجزائرى ، وعبد العــزيز جاويش ، وأمين الرافعى ، وعبد الحميد بن باديس ، ولطفى جمعـــة ، ومارون عبــود ، ونقولا حداد ، وغيرهم .

ومن بين هؤلاء النوابغ أحمد زكى (باشا) الملقب بشيخ العروبة ، والرائد المصرى الأول لاحياء الآداب العربية ، والبحث عن ذخائر المخطوطات وجمعها أو تصويرها بالفوتغرافيا وتحقيقها، والعلامة الباحث الذى حقق عشرات القضايا والمواقف والمواقع والأعلام وأسماء البلدان وكلمات اللغة .

وهو أول مصرى عربى فى العصر الحديث زار « الأندلس » وأطلق عليها ذلك الاسم الذى اشتهرت به من بعد (الفردوس الاسلامى المفقود) وصاحب المكتبة الزكية التى تضم ١٨ ألف مجلد ، وسكرتير الجامعة المصرية القديمة ، وأول من أدخـــل « الترقيم » فى كتابتنا العربية الحديثة ، واختصر حروف الطباعة، والطوّاف الرحالة من الآستانة الى برلين الى باريس الى لندن من أجل التراث ، وصاحب النسخة الأولى أو الثانية على الأقل من عشرات الكتب العربية المفقودة ، والرجل الذى صعد الى القلاع فى كل بلد ألم بها وزار المساجد والكنائس والمقابر ، وقطع الأرض من طولها والعرض ، محققا للمواقع والآثار ، والذى فتح له قصر «طوب قبو» بعد أربعة قرون وستة أعوام لنقل المخطوطات العربية ، وصديق المستشرقين فى أنحاء المعمورة ، والعالم الصريح الذى لا يتابع ولا يمالىء .

وهو الى ذلك سكرتير مجلس النظار ، والمترجم الأبرع من

الفرنسية ، والمجيد لعديد من اللغات ، وداعية الأمة العربية من أجل الحفاظ على مقومات الفكر العربى ، وجعلها أساسا للنهضة الفكرية المتطورة مع الزمن ، المتصلة بالحضارة العالمية .

والكاتب المنشىء الغزير الانتاج ، الذى آثر الصحافة اليومية على المجلات والتأليف ، وصاحب الأسلوب الجـامع بين العلم والطرافة والفكاهة والسخرية ، والذى فاجأ القراء فى خـلال أربعين سنة بعشرات من الآراء المثيرة التى حققها ، والذى ترك أكثر من ألف مقالة مبعثرة فى بطون الصحف والمجلات .

ومن هنا كانت مشقة البحث ، فان أحمد زكى باشا لم يترك الا كتيبات صغيرة قليلة كتبها مبكرا ، وهى ليست أكثر من تقارير عن بعض أعماله ، أو محاضرات قليلة من آثاره ، لذلك كان لابد من البحث وراء نتاجه وتتبعه فى بطون الصحف اليومية والمجلات.

ولقد ظللت أكثر من خمسة عشر عاما ، وأنا أقرأ آراء متناثرة خلال بحثى فى (معالم الأدب المعاصر) واعداد موسوعتى عنه ، وكان دائما يلفت نظرى ، ويشعرنى بأثره الواضح ، فتحقيقاته دائما جديدة ، وآراؤه مثيرة ، وطريقته فى عرضها تلفت النظر ، وازدهاؤه وثقته بما يقول تترك أثرا فى نفس الباحث لا يذهب ، وهو الى ذلك قد توفى منذ عام ١٩٣٤ فلم تكتب عنه الا كلمات قليلة ، بعد وفاته مباشرة ، ثم مضت هذه السنوات دون أن يذكره ذاكر ، وانطوت آثاره التى لم يستكملها ، فلم يعن بها أحـد أو يبحث عنها ، كل هذا دفعنى الى أن أرفع الركام والتراب عن وجه هذا الباحث العالم ، الذى ظل يكتب ويخطب ويحاضر أكثر

من أربعين عاما ، وكان مرجعا لكل باحث أو سائل ، وكان بيته قبلة كل رائد من العرب أو من أهل الشرق والغرب .

وقد أجهدنى البحث وراء آثاره ، لولا أن لدى فهرسا كاملا لأبحاث الأهرام ، أعاننى على مقالاته بها — وهى أغلب محصوله فى الحقيقة — وتابعت البحث وراءه فى المؤيد والمقطم والبلاغ ، كما تابعته فى مراجعة شاملة للهلال والمقتطف والمشرق والمقتبس ، ومخطوطات الخزانة الزكية وأضابيرها .. حتى تمكنت بحول الله أن أرسم هذه « الصورة » عن حياته وأدبه ، وأنا أعترف بعد أنها ليست الا رسما ضئيلا لنابغة عملاق ، وباحث محقق ، وهب كل حياته لعمله وعلمه ، وما محاولتى لايراد بعض النماذج لكتاباته وآرائه الا محاولة لالقاء الضوء على جانب ضخم غزير عميق من تراثنا الفكرى والتاريخى المعاصر المدفون الجدير بأن يكشف عنه فيجمع ويذاع فى الناس من جديد ، حتى ينتفع به الباحثون فى مجال اللغة العربية ، والتاريخ والجغرافيا والأعلام والآثار .

ولقد عشت أكثر من سبع سنوات أواصل هـذا البحث ، وأنقطع عنه ، وأعود اليه من جديد ، محاولا أن لا يفوتنى قطاع من عمل الرجل ، أو تغيب عنى لمحة من لمحات حياته وتراثه ، ومع ذلك فقد ضاق البحث عن مئات التفاصيل والشرائح والأسانيد ، وان كنا قد حاولنا أن نجمع كل الخطوط والخيوط فى يد القارىء عسى أن يتجه باحث أو أكثر الى دراسة آثار الرجل دراسة موسوعية شاملة ، واستخراج آرائه وتحقيقاته التى أعتقد أنها مازالت تنبض بالحياة ، وهى فى مجموعها تخدم سعى امتنا

العربية اليوم الى العمل من أجل تأكيد دورنا فى الحضارة ، وحقنا فى بناء نهضتنا على أساس من قيمنا ، وابراز هـذه المعـانى ، وكشفها ، لنرد بها عادية خصوم الأمة العربية ودعاة التغريب ، والمخاصمين لأمجادنا وتراثنا .

وليس ثمة عيب يمكن أن يؤخذ على « أحمد زكى باشا » الا ايثاره نشر آرائه وابحاثه فى الصحف اليومية دون جمعهـا ، ولعله كان حريصا على ذلك ليحقق لها الدوى الكبير والصـدى الواسع والوصول السريع الى كل الأيدى فى العالم العربى ، وفى الامكان الآن أن يطبع أكثر من عشر مجلدات من آثاره موزعة على أبواب التحقيق العلمى المختلفة فى مجالات الادب واللغة والتاريخ والآثار .

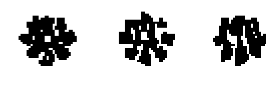
* * *

وقد حدد أحمد زكى هدفه من عمله وحيـاته فى عبـارته المعروفة :

« ولى كل يوم موقف ومقالة »

وأعتقد ان تحقيقات أحمد زكى من العمق والأهمية بحيث تلفت نظر الباحثين المتخصصين ، ولاسيما معجمه اللغوى العربى الكبير الذى أخذ يعمل فيه سنواته الأخيرة ، وتوفى دون أن يتمه ، ومؤلفات أخرى أتمها منها كتابه عن (مدائن الاندلس) و (مجالس المعددات والندابات) ورحلته الى اليمن ومحاضراته المختلفة وخاصة محاضراته بالفرنسية التى ألقاها فى المجمع العلمى المصرى والجمعية الجغرافية .

وقد تردد اسم (أحمد زكى) كثيرا علما على كثير من الناس المشهورين والمغمورين حتى أصبح من الضرورى أن يحدد اسم « أحمد زكى » صاحب هذه الدراسة بعبارتين (باشا) و (شيخ العروبة) . فهناك (أحمد زكى) المترجم الأول من مدرسة رفاعة الطهطاوى ، وأحمد زكى (العدوى) المحقق اللغوى بدار الكتب، وأحمد زكى (الدكتور) رئيس تحرير مجلة العربى والدكتور أحمد زكى (تركى) وزير البحث العلمى .



وحياة أحمد زكى مرتبطة بآثاره الأدبية الى أبعد مدى ، فان يكن عمل موظفا فى الحكومة فان ذلك أعانه على العمل الأدبى ، وحقق له جاها أكبر فى الرحلة والحصـول على ذخائر التراث وفرض الكلمات العربية واقصـاء الدخيلة وتحـرير الدواوين الحكومية من التعابير التركية والأجنبية على السواء ، وفى حياة أحمد زكى وأدبه جوانب القوة ، وجوانب الضعف ، ولكنه كان على كل حال باحثا علامة ، مشرق النفس ، جريئا مؤمنا برسالة ، عاش لها حياته كلها ، وهى ابراز مجد الأمة العربية ، والدفاع عنها وتحقيق تاريخها ، وفضح كل خطأ أو هوى يهدف الى الغض من شأنها أو محاولة لتزييف حقائق لغتها أو آثارها أو تاريخها .

هذه الحياة نقدمها اليوم ، مؤدين بعض الدين لهذا الرجل العظيم بعد أن ظلت مطوية سنوات وسنوات ، معتذرين لعملنا هذا عن عقوق من اتصلوا به ، وجهلوا قدره ، ولم يقوموا على آثاره باحيائها أو الكشف عنها .

ولعلنا نستطيع بعون الله أن نقدم من بعد صورا أخرى لهؤلاء الأعلام ، الأبرار ، الذين خدموا أمتهم وتاريخها ولغتها ، وألقى الزمن على حيواتهم ستارا من الاهمال والنسيان .

وبالله التوفيق ،

أنور الجندى

الهرم فى ٢١ ديسمبر ١٩٦٣ (القاهرة)

ملامح جيل ومطالع حياة

عاش أحمد زكى (باشا) الملقب بشيخ العروبة حياة عريضة تبدت آثارها فى ذلك الانتاج الوافر من الأبحاث التى نشر أقلها فى كتيبات صغيرة فى مطالع حياته ، ونشر أغلبها فى الصحف ، وظل فى بطونها حتى اليوم فى خلال أكثر من خمسين عاما (١٨٩٢ — ١٩٣٤) ، لا سبيل الى التعرف عليها الا بالبحث . حيث لم يترك أى فهارس عامة لهذه المقالات التى نشر أكثرها فى المؤيد والمقطم والأهرام والبلاغ .

ولقد كان فى الامكان أن يكون زكى باشا واحدا من أولئك الموظفين الكبار فى الدولة الذين عملوا فى القصر أو فى مجلس النظار من أمثال عثمان مرتضى (باشا) وحسين عاصم (باشا) وغيرهـــم .

فقد عاش زكى باشا سنوات طويلة فى ظل هذا العمل الحكومى (١٨٨٩ — ١٩٢١) مترجما فى مجلس النظار وسكرتيرا (ثانيا) فسكرتيرا عاما سنة ١٩١١ .

ولكن أحمد زكى باشا كان منذ مطالع حياته (مفكرا) مصريا عربيا قبل أن يكون موظفا حكوميا . يبدو هذا واضحا وبصورة صريحة لأول مرة فى انتدابه لتمثيل الحكومة المصرية فى مؤتمر المستشرقين ١٨٩٢ .

لقد بدأ زكى باشا حياته مترجما ، وكان هـذا العمل من الخطورة بمكان ، فقد كانت مدرسة رفاعة الطهطاوى بعيدة الأثر فى الثقافة المصرية العربية الحديثة بما نقلت الى اللغة العربية من مؤلفات بلغت فى عهد رفاعة نفسه ألفى مؤلف ...

وقد سار زكى باشا شوطا فى مجال الترجمة ، وكان هذا هو عمله الأساسى فى مجلس النظار أول الأمر ، ثم ظل جانبا من عمله فيما بعد ، والى نهاية مدة عمله .

ولكن زكى باشا لم يقف عند هذا الحد — بل تخطاه الى العمل فى مجال احياء التراث العربى وبعثه والتنقيب عنه ، فما الذى لفت نظره الى هذا العمل ؟

الواقع أن زكى باشا كان منذ مطالع شبابه كاتبا وخطيبا ، وأنه فى أيام الطلب كان يترجم بعض الآثار ، وينشر فى الصحف آراءه وملاحظاته ، كانت مكتبة شقيقه (محمد رشاد) القاضى ورئيس المحكمة الأهلية فيما بعد هى التى فتحت أمامه آفاق القراءة والبحث ، وقد أحس أنه كاتب بطبيعته ، فضلا عن تفوقه فى الترجمة تفوقا كان مضرب الأمثال ، فقد كان يقرأ الصحيفة من أى كتاب فرنسى ويترجمها أولا بأول باللغة العربية على نحـو يخلب الألباب .

هذا فضلا أنه بعد أن نال شهادة الحقوق عام ١٨٨٧ عمل محرراً فى الوقائع المصرية ، هذه البيئة التى عرفت من قبـل رفاعة الطهطاوى وفارس الشدياق ومحمد عبده وسعد زغلول وعبد الكريم سليمان .

كما اتصل زكى « باشا » بالمجمع العلمى المصرى ، وعرف مسيو ماسبيرو وزملاءه من رجال الآثار ، وفى جو هذا المجمع اتصل زكى « باشا » بعدد من المستشرقين وطالع أبحاثهم وشهد اهتمامهم بالبحث عن التراث العربى وطبعه فى مطابعهم .

كل هذا كون عنده (نقطة البدء) التى حددت مستقبل حياته كله وهى احياء التراث العربى ، ودراسته ، وبعثه ، وتحقيقه ، وكشف ذخائره ، والدفاع عنه ، والرد على كل من يحاول تحريفه أو تزويره .

وكان زكى باشا المغربى الأصل ، الفلسطينى المنبت ، المصرى الأرومة ، مستعدا استعدادا نفسيا كاملا للدفاع عن مقومات الفكر العربى والأمة العربية .

ولقد كان هذا مجالا جديدا لا نعرف أن أحدا ارتاده قبله ، ولم تظهر آثاره الا بعد وقت طويل ، ربما سنة ١٩١١ فى مشروع احياء الآداب العربية وربما بعد عام ١٩٢١ فى رحلاته الى سوريا والى اليمن والى القدس من أجل الدفاع عن القضية العربية .

وهذا هو الجانب الثانى فى حياة هذا المفكر ، الذى لم يقتصر همه على العمل فى ميدان الفكر وحده ، ولكنه تطلع الى العمل السياسى العربى أيضا ، وخطا فيه خطوات واسعة ، كان أبرز مظاهرها استقباله للعشرات من أعلام العرب والمسلمين ومحادثتهم ومراسلتهم ، وعقد الندوات لهم ، وتكريمهم سواء على طريقة السماط العربى فى بيته بجيزة الفسطاط على ضفاف النيل أو فى جروبى وغيره مما سنتحدث عنه فيما بعد .

ويمكن القول بأن « أحمد زكى » كان منذ مطالع شبابه يتطلع الى عمل كبير له دوى ، فقد كان غاية فى الذكاء والحماسة والتوقد ، كشفته أمامه هذه العوامل المختلفة ، ودفعته اليه حماسته وتطلعه ، وقد شاءت الظروف أن تضعه فى بيئة لها طابعها الذى عرف بها ، وهى بيئة الأمير : عباس حلمى الثانى التى ضمت أحمد شوقى وأحمد شفيق وأحمد حافظ عوض ، والشيخ على يوسف ، وقد امتد حكم ذلك الخديوى من عام ١٨٩٢ الى عام ١٩١٤ .

لاشك كانت هذه البيئة على خلاف مع بيئات أخرى عاصرتها : منها بيئة الشيخ محمد عبده وتلاميذه الذين كانوا على خصومة مع الخديوى عباس واتصال باللورد كرومر .

وبيئة حزب الأمة وعلى رأسها لطفى السيد التى كانت تساير اتجاه اللورد كرومر .

أما بيئة الحزب الوطنى وعلى رأسها مصطفى كامل ومحمد فريد فقد كان الخديوى متضامنا معها منذ تولى الحكم عام ١٨٨٢ الى استقالة كرومر ١٩٠٧ ، وحتى جاء المندوب البريطانى (الدون غورست) بما أطلق عليه سياسة الوفاق ، هنالك اختلف الخديوى مع الحركة الوطنية ، وأطلق عليها رجاله .

وقد شارك فى ذلك أحمد زكى وشوقى وحافظ عوض وعلى يوسف الذى تحول بالمؤيد من موالاة الحركة الوطنية الى موالاة الخديوى ومسايرة الانجليز .

وقد عمل أحمد زكى عام ١٩٠٦ « سر تشريفاتى الخديوى »

وفى عام ١٩٠٧ عين سكرتيرا لمجلس النظار ، وظـل حتى عين سنة ١٩١١ سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء .

وشهد عباس حلمى (١٨٩٢ — ١٩١٤) والسلطان حسين (١٩١٤ — ١٩١٧) وفؤاد (١٩١٧ حتى أحيـل على المعـاش عام ١٩٢١) .

كما عمل مع النظار (رؤساء الوزراء) بطرس غالى ١٩٠٧ — محمد سعيد — حسين رشدى ١٩١٤ — ١٩١٧ يوسف وهبه ١٩١٩ توفيق نسيم (١٩٢٠) عدلى يكن (١٩٢١) .

وهكذا بَعُدَ زكى باشا بطبيعة عمله وتقلباته ، عن مجـال الحركة الوطنية وعُدَّ من رجال الأمير ، ولكنه كان بحكم اتجاهاته الفكرية وكتاباته ومراجعاته معدودا فى طليعة بيئة المفكرين فى هذه الفترة .

هذه البيئة التى كانت تضم : أمين فكرى ومصطفى كامل ومحمد فريد وقاسم أمين وحفنى ناصف وفتحى زغلول ولطفى السيد واسماعيل صبرى وأحمد شوقى وعبد السـلام ذهنى وعبد العزيز جاويش وعمر لطفى وأحمد حافظ عوض ومحمـد عبده ويعقوب صروف وأحمد كمال وداود بركات وفارس نمر وجورجى زيدان وعلى يوسف ورشـيد رضـا وعبد الرحمن الكواكبى وابراهيم المويلحى ومحمد المويلحى وتوفيق البكرى وابراهيم اليازجى وشكيب أرسلان ومحمد كرد على وعبد القادر المغربى وأحمد تيمور وأحمد شفيق وأمين سامى ومحمد لبيب البتانونى .

ولعل اتجاه أحمد زكى قد تحدد فعلا ، ووجد نقطة البدء الحقيقية عندما اختاره الخديوى عباس لتمثيل مصر فى مؤتمر المستشرقين فى لندن (أغسطس ١٨٩٢) فقد عمقت هذه الرحلة جوانب شخصيته الفكرية ، وأعطتها دوافع الانطلاق .

أولا : زيارته لاوروبا وقضاؤه ستة أشهر فى أرجائها .

ثانيا : لقاؤه للمستشرقين ، وأحاديثه معهم ، واستماعه اليهم .

ثالثا : زيارته للمكتبات ، والبحث عن التراث العربى فى مكتبات أوروبا المختلفة .

رابعا : زيارته لاسبانيا ، ومراجعاته المتعددة للأندلس ، بلادها وأسمائها وتاريخها ، واطلاقه اسم « الفردوس الاسلامى المفقود » عليها .

وقد ظلت هذه الأعمال ممتدة طوال حياته ، فقد توالت رحلاته لآوروبا وتوالت مقابلاته للمستشرقين والباحثين وتوالى حضوره لمؤتمرات المستشرقين . وتوالى البحث عن المخطوطات العربية فى مكتبات الشرق والغرب ، وظلت الأندلس أنشودة حياته .

ومنذ هذه السفرة التى نشر فصولها فى الأهرام توثق اتصاله بهذه الصحيفة المعمرة ، فنشر فيها كتاباته حتى آخر سنوات حياته (١٨٩٢ — ١٩٣٤) .

ومن آيات نبوغ أحمد زكى أن أتيح له أن يمثل مصر فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى لندن عام ١٨٩٢ — بعد الاحتلال البريطانى بعشر سنوات — ولم تكن سنه تتجاوز الخامسة والعشرين .

ولعل زيارته للأندلس — ذلك الفردوس الاسلامى المفقود هى التى فتحت أمامه آفاق الحماسة للتراث العربى ، وأوقدت فى نفسه تلك الشعلة الروحية من أجل الدفاع عن أمجاد العرب والاسلام ، فظل يوالى عمله فى ميادين ثلاثة :

١ — احياء التراث العربى بالبحث عن المؤلفات والمخطوطات ونقلها بالفوتوغرافيا .

٢ — الآثار العربية والبحث عن القبور والمواقع والدعوة لتكريم أصحابها .

٣ — تصحيح أسماء الأعلام والبلاد والوقائع والأحداث فى مجال اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا .

وقد عاش زكى باشا مدرها يدافع عن تراث العرب وتاريخهم وأعلامهم ، يقظا لكل ما ينشر عنهم ، متحريا له ، دافعا أخطاء المستشرقين وأوهام الباحثين ، منقبا عن صحيح الآراء .

ويمكن القول بأن حياة زكى باشا قد مرت بمراحل ثلاث :

١ — المرحلة الأولى وهى مرحلة جمع التراث العربى من مكتبات الآستانه وأوروبا والمشرق والمغرب ونقله بالفوتغرافيا ومراجعته والتعليق عليه وطبعه ونشره .

٢ — مراجعة هذا التراث ودراسته واستيعابه ، وتكوين خزانته الزكية والتعليق على ما بها من مؤلفات ، واعداد أضابير وجذاذات فى مختلف فنون الادب والتاريخ والجغرافيا . والاتصال بالباحثين ومراجعتهم .

٣ — وهى المرحلة الأخيرة من حياته ، والتى تبدأ بعد احالته على المعاش سنة ١٩٢١ حتى وفاته سنة ١٩٣٤ ، وهى أخصب فترات حياته ، حيث نشر عشرات المقالات والأبحاث ، وتوسع فى صلاته بزعماء العالم العربى وتوسط فى الخلاف بين اليمن والسعودية وانتدب لتحقيق الخلاف بين العرب واليهود فى شأن حائط المبكى وقضية البراق .

* * *

وأبرز معالم حياة أحمد زكى تتمثل فى :

— عمله من أجل احياء الآداب العربية وتكوين « الخزانة الزكية » .
— رحلاته .
— تحقيقاته ومراجعاته فى الأدب والتاريخ والجغرافيا .
— معاركه ومساجلاته .
— عمله من أجل الكشف عن أمجاد العرب والاسلام .
— اهتمامه البارز بالأندلس .

* * *

ولد أحمد زكى عام ١٨٦٧ م ، فماذا يمثل هـــذا العام فى « تاريخ مصر » .

لقد تولى اسماعيل الحكم ١٨٦٣ م وأمضى فيه ستة عشر عاما حتى عزل ١٨٧٩ وهذه سنوات شباب أحمد زكى ، الذى أحرز شهادة الحقوق (من مدرسة الادارة) عام ١٨٨٧ أى فى خلال حكم توفيق . وعندما وقع الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ ، كان عمره خمسة عشر عاما . وهكذا عاش أحمد زكى حياته كلها فى ظـــل الاستعمار البريطانى لمصر ، وواجه فى مطالع حياته هذا النفوذ .

وفى عام ١٨٩٢ انتعشت الآمال بدعوة مصطفى كامل الى الوطنية .

وقد صدر المؤيد عام ١٨٨٩ ، صحيفة مصرية اسلامية الطابع، لتواجه المقطم الذى صدر قبلها بعام (١٨٨٨) .

ومن دفعة زكى (باشا) من مدرسة الحقوق عمـــر لطفى ومحمد فريد .

وقد شق كل من الثلاثة طريقه على نحو من الأنحاء . فعمر لطفى اتجه نحو التعاون والدعوة اليه كحل اقتصادى لمشاكل الفلاحين ، أما محمد فريد فقد بدأ حياته مؤرخا وكاتبا معنيـــا بالقضايا السياسية الكبرى ، وأهمها مشكلة الاستعمار فى الشرق والقارة الأفريقية ، وكتب عشرات المقالات فى الصحف وفى مجلة (الموسوعات) .

أما زكى (باشا) فقد اتجه ، الى الترجمة وتنبه الى احياء التراث العربى . وأخذ الخط الذى اختطته المدرسة التى اتصلت ببيئات المستشرقين والباحثين الأجانب واكتفت بالعمل الفكرى كوسيلة من وسائل تنوير الأذهان ، ولعل أبرز من مضى فى هذا الاتجاه أحمد تيمور باشا الذى عكف على العمل من أجل جمع واحياء ومراجعة التراث العربى والشيخ طاهر الجزائرى (دمشق) والأب لويس شيخو اليسوعى (بيروت) ثم محمـد كرد على (دمشق) والأب أنستاس الكرملى (بغداد) . فقد عملت هذه المدرسة فى العالم العربى على احياء التراث العربى الاسلامى .

وتيمور باشا المولود ١٨٧١ وزكى باشا المولود ١٨٦٧ كانا فى مصر فرسى رهان فى جمع نوادر المخطوطات ، وكنوز المؤلفات العربية القديمة . وقد اتصلا بمكتبات الآستانة والمغرب والحجاز واليمن . واستحضرا هذه الآثار بالتصوير الفوتغرافى من باريس ولندن وروما .

غير أن تيمور باشا كان ثريا يملك أربعة آلاف فدان من أجود الأطيان ، مما كان يعينه على دفع أى مبلغ ، بينما كان زكى باشا أقل ثروة ، ولكنه أبعد مدى وجرأة فى السفر والترحال والبحث، واسع الحيلة فى الحصول على الكتب والمخطـوطات وقد كان تيمور باشا عاكفا على خزانته يعمل فى أناة وصمت ، بينما كان زكى باشا يوالى صيحاته على صفحات الصحف كلما عثر على كشف جديد ، أو رأى مثير . مع انشغال بالأعمال السياسية ،

وحب للظهور والتبريز ، يقابله تواضع وازورار على الناس عند تيمور باشا .

وقد كان من نتيجة هـذا أن ترك تيمور باشا عشرات من المؤلفات المخطوطة ، ما تزال تطبع حتى الآن ، بينما لم يترك زكى باشا الا مؤلفات قليلة ، وترك كل تراثه وآثاره مدفونة فى بطون الصحف والمجلات خلال أكثر من خمسين عاما .

ولا شك أن زكى باشا رائد فى مجال البعث والاحياء العربى أتاحت له اتصالاته بدوائر الباحثين والمستشرقين فى المجمع العلمى المصرى والجمعية الجغرافية الى اقتناص مكانة بارزة فى هـذا المجال والسير فيه ، على نحو استطاع معه خلال عام ١٩١١ أن يحقق نجاحا كبيرا ، حينما أذعنت (وزارة المعارف) له وأخذت برأيه وقررت اعتمادا لاحياء الآداب العربية ، وتولى زكى (باشا) هذا العمل وكان من قبل قد ساح فى الآستانة وأوروبا باحثا عن المخطوطات ، ناقلا اياها بالفوتوغرافية مما حقق أغناء الأدب العربى بآثاره الدفينة ونفع الأمة بها .

ولقد تأثر زكى باشا بحركات ثلاث سبقته :

الأولى — النهضة التى حمل لواءها رفاعة رافع الطهطاوى فى مجال الترجمة ونقل الآثار الأدبية والفكرية الفرنسية .

ثانيـا — النهضة التى قادها السيد جمال الدين الأفغانى فى تحرير الفكر والايمان بالشرق ، وحقـه فى

الحرية والكرامة ، واستثارة أمجـاده وتراثه وتاريخه المرتبط بالعروبة والاسلام .

ثالثـا — النهضة التى تصدر لها محمد عبده فى تحـرير الأسلوب العربى من التقليد وتوجيه الكتابة الى المضمون والهدف بدون مقـدمات ولا سـجع ولا زخارف أو محسنات لفظية .

وقد بلغت أصداء هذه النهضة زكى (باشا) فى مطالع شبابه فقد نفى جمال الدين من مصر عام ١٨٧٩ ، وظلت آثاره تدوى فى كل مكان ، وكانت الثورة العرابية من آثار صيحته . وقد عاش جمال الدين حتى توفى عام ١٨٩٣ ، ولم تنقطع خلال هذه الفترة أخباره عن مصر ، وهو يتنقل من مصر الى فرنسا الى روسيا الى بريطانيا حتى استقر به المقام فى استانبول .

وكانت آثاره الفكرية واضحة أشد الوضوح فى الصحافة المصرية ، وفى أفكار تلاميذه التى تبلورت فى على يوسف وسعد زغلول ومحمد عبده وابراهيم اللقانى ورشيد رضا وعبد العزيز جاويش وحفنى ناصف واسماعيل صبرى ورفيق العظم وشكيب أرسلان وأحمد تيمور وعبد القادر المغربى ، هذه الأفكار عاشت فى أعماق ، أحمد زكى على نحو ما ، وتبلورت فى هذا العمل الذى توفر عليه ، والذى تكشف من بعد عن اتجاه واضح ، ورسالة صريحة فى الدفاع عن مقدرات الأمـة العربية ، وتراثها وثروتها الأدبية والتاريخية .

ويمكن القول بأن النهضة العربيـــة التى أوقد جـذوتها جمال الدين الأفغانى قد كشفت عن ثلاثة ميادين للعمل :

١ — العمل لتحرير الوطن .

٢ — العمل لتحرير الدين .

٣ — العمل لبعث التراث العربى والتحقيق العلمى فى مجال اللغة العربية والتاريخ ، وقد كان زكى باشا من هذا الفريق .

وقـــائع حيـــاته

١٨٦٧ [1]ولد بمدينة الاسكندرية .

١٨٨٧ نال أجازة الحقوق .

١٨٨٧ عين مترجما بمحافظة السويس .

١٨٨٩ عين مترجما لمجلس النظار .

١٨٩٠ اختير عضوا فى المجمع العلمى المصرى (الجمعية الجغرافية فيما بعد) .

١٨٩٢ حضر مؤتمر المستشرقين فى (لوندره) نائبا عن الحكومة المصرية .

١٨٩٢ زار الأندلس وطاف أوربا .

١٨٩٤ حضر مؤتمر المستشرقين فى جنيف .

١٨٩٧ عمل سكرتيرا ثانيا لمجلس النظار .

١٩٠٠ حضر معرض باريس وألف عنه كتابه «الدنيا فى باريس».

---

(١) ذكر عيسى اسكندر المعلوف (مجلة المجمع العلمى العربى (م ١٣ ــ ص ٣١٨) أنه ولد عام ١٨٦٦ ، وذكر يوسف أسعد داغر فى كتابه (مصادر الدراسة الأدبية) أنه ولد عام ١٨٦٠ والذى عليه اجماع المؤرخين والكتاب انه ولد عام ١٨٦٧ م الموافق ١٢٨٤ هـ

١٩٠٢ حضر مؤتمر المستشرقين فى هامبورج بألمانيا واتفق مع المسابك لاختصار صندوق الحروف العربى .
١٩٠٤ رحلته الى باريس ، ومناقشاته مع المستشرقين (اقرأ تفاصيلها فى فصل رحلاته) .
١٩٠٦ عمل تشريفاتيا للجناب الخديو[٢] .
١٩٠٨ عين سكرتيرا عاما للجامعة المصرية (القديمة) ومدرسا لتاريخ الحضارة الاسلامية .
١٩٠٨ سافر الى الآستانة للبحث عن المخطوطات .
١٩٠٩ اختير عضوا فى المجمع العلمى العربى بدمشق .
١٩١١ عمل سكرتيرا عاما لمجلس النظار .
١٩١١ نقل مكتبته الى دار الكتب (الخزانة الزكية) .
١٩١١ تولى مشروع احياء الآداب العربية .
١٩١٢ حضر مؤتمر المستشرقين فى أثينا رئيسا لوفد مصر .
١٩١٦ أنعم عليه بالباشوية .
١٩٢١ أحيل الى المعاش .
١٩٢٢ نقل مكتبته الى قبة الغورى .
١٩٢٤ زار الشام وحلب ودمشق .

---

(١) لا يذكر كثير من الباحثين هذا العمل فى وقائع حياته . وقد ذكره شفيق باشا فى موسوعته (مذكراتى) جـ ١

١٩٢٤ دعا الى تأليف الرابطة الشرقية .

١٩٢٦ سافر الى اليمن والحجاز مندوبا عن الرابطة الشرقية للسفارة بين ملكيها .

١٩٣٠ زار بيت المقدس .

١٩٣٣ زار فلسطين ومعه مسودة كتاب مسالك الأبصار .

١٩٣٤ توفى .

* * *

تكشف مطالع حياة « أحمد زكى بن ابراهيم بن عبد الله النجـار » عن العوامل التى وجهته ، ودفعته الى هـذا الطريق الذى اختطه لنفسه .

كان أبوه من أهل المغرب الذين نزلوا ثغر يافا أولا ، ثم نزح الى رشيد ، فالاسكندرية فى طلب التجارة . ووالدته من بيت سويدان ، وهى أسرة تسكن جهة سيدى البواب ، من ضواحى مدينة رشيد .

توفى والده وهو صغير ، وكفله شقيقه « محمود رشاد » الذى كان فى آخر عهده رئيسا لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية .

وهو بهذا مغربى فلسطينى من ناحية الأب ، مصرى من ناحية الأم ولأمر ما كان يكتم زكى باشا أنه فلسطينى الأصل .

وتعلم أحمد زكى فى مدرسـة القربية بالقـاهرة ، ثم فى بنى سويف ، ثم فى المدرسة التجهيزية المسماة بالمدرسة الخديوية فى درب الجماميز . والتحق بمدرسة الادارة — التى سميت من بعد مدرسة الحقوق — وتكشف هذه الفترة من حياته عن عوامل كثيرة فى شخصيته ، كانت بعيدة الأثر فى حياته . فقد ظل وفيا لشقيقه « محمود رشاد » لا يذكره الا بالاجلال والاكبار ويعبر عن ذلك بقوله « والدى الشقيق » .

وقد كان محمود رشــاد (المولود ١٨٥٤) والذى يكبر زكى باشا بثلاثة عشر عاما ، باحثا حقوقيا أديبا ، له رحلات وأبحاث عمل أول أمره ضابطا فى الجيش ، ثم مفتشا فى وزارة المعارف وقد اشترك فى مؤتمر المستشرقين الدولى بفينا ، وكان من رجال المحاكم الأهلية ، ترقى الى أن أصبح رئيسا لمحكمة مصر .

وكانت له مكتبة ضخمة ، لعل أحمد زكى قد نظر فيها أول شبابه ، فقد نشأ فى هذا الجو الفكرى فتطلع اليه واتصل به ، ومضى فيه شوطا أطول من شوط شقيقه الوالد .

ولمحمود رشاد كتب متعددة منها بحث فى دار لقمان . وكنوز الذهب فى التربية والأدب ، ورحلة الى روسيا . وله مجموعة مقالات فى الأهرام تحت عنوان « المرسيليات » كتبها وهو فى مرسيليا .

وكان فى حياته العملية مثالا للنزاهة ، حتى أنه آثر الاستقالة فى ظرف أحس أن هنــاك ضغطا على ضمير القــاضى ، وذلك عندما قدمت الحكومة الكاتب الألمعى الشيخ عبد العزيز جاويش رئيس تحرير العلم الى القضاء ، وكانت المعية الخديوية ودار الوكالة البريطانية تنتظران الحكم عليه وسجنه ، ولكن محمود رشاد أصدر حكمه ببراءته ، بناء على حيثيات وأسباب أوردها فى قرار الحكم ، دلت على صلابته فى الحق وشجاعته .

ويبدو أنه أحس عدم الرضا عنه فآثر الاستقالة من منصبه ، غير أن الجهات المسئولة خشيت أن تكشف هذه الاستقالة موقفها

فرجاه سعد زغلول وزير الحقانية — اذ ذاك — أن يرجع الى منصبه فألح فى الرفض .

وأرادت الحكومة استرضاءه بالانعام عليه بالباشوية ، فلما علم بذلك كتب يعتذر عن قبولها ، بل تجاوز الاعتذار الى التهديد، وقال انه اذا أصرت الحكومة على الانعام عليه فانه يغادر البلاد فورا .

وكتب الى داود بركات رئيس تحرير الأهرام فى خطاب خاص يقول كيف أقيد نفسى بهذه الرتبة ، وأتنازل عن حريتى ، فلا أتمكن من ركوب الترام فى الهواء الطلق بين الناس وأضطر الى ركوب الدرجة الأولى التى تضيق الصدر .

ثم ان الباشوية ستحرمنى أكل السمك اللطيف والطعمية اللذيذة بدكان الحاج حسين بشارع كلوت بك ...

وعكف محمود رشاد بعد اعتزاله القضاء على الرحلة . فساح فى الشرق والغرب وكان رحلته الى روسيا والقوقاز دليلا على الجرأة وقوة العزيمة ، وكان ينشر خواطره فى جريدة المؤيد .

ثم ساح بعد الحرب العالمية الأولى فى أوربا ، وأرسل للأهرام فصولا وخواطر وكان الى ذلك راوية لأخبار العرب وأشعارهم ، عالما بتاريخهم ، سميرا لاخوانه ، فكه الحديث .

وقد كان فضله على زكى باشا بالغا ، فقد كفله ورباه وعلمه ، وكان زكى باشا وهو أرفع منصبا من شقيقه ، يجلس منه مجلس الابن من الوالد ، والتلميذ من الأستاذ ، بارا به .

ولا شك أن كل الخطوط العامة لاتجاه أحمد زكى الفكرى

تبدو واضحة فى محمود رشاد ، فهو بلا شك امتداد له على نحو أعمق وأوسع مجالا ، فى ميادين عدة :

١ — مطالعات أخبار العرب وتاريخهم .

٢ — الرحلة والسفر .

٣ — الفكاهة والسخرية .

٤ — الاعتزاز بالنفس ، والجرأة فى ابداء الرأى .

وقد صور أحمد زكى من خلال سطور من أبحاثه وكتاباته « صور العصر » ولون تلك الحياة التى كان يحياها فى هذه الفترة يقول : (١) دخلت الخديوية على أثر مجيئى من بنى سويف وكانت هى المدرسة التجهيزية الوحيدة فى القطر ، أما ذكرياتى عن نفسى فتتلخص فى تفوقى فى اللغة العربية ومهارتى فى حل أعاريبها . وانى لأذكر يوم طلب الى اعراب هذا البيت :

ألف الكتابة وهى بعض حروفها
لما استقام على الجميع تقدما

فأعربته ولكنى مع الأسف لم أعرف المعنى » وتحدث عما أسماه « غلبة الروح العابثة للشباب النزاعة الى اللهو والمجون ، على كل عواطفى » فقال : « كان من أصدقائى فى المدرسة الحاج على لبيب ، والدكتور بيومى فتحى ، وكنا نحن الثلاثة نتساق تحت شجرة « جميزة » ، وكانت فوق ساقية بفناء المدرسة ، وكان يحلو للدكتور بيومى النوم عليها فكنت أنتظره حتى ينام ، ثم

---

(١) فى حديث مع كمال حموده ١٨/٨/١٩٣٤ — الأهرام .

أدفعه فيقع على الأرض ، وقد ضبطنى الضابط محمود أفندى وهبى وأودعت الزنزانة .

... أما الليل فكنا نقضيه فى سماع مطـربى ذلك العصر : يوسف المنيلاوى وألمظ ، ومحمد عثمان ، والشنتورى . وكنا نعرف جميع أماكنهم بالذهاب الى تمثال ابراهيم باشا ، حيث يجلس هناك بائعو اللب والفول ، وهم خير من ينبئونك بأماكن هؤلاء ، عندما تشترى بالقرش ، وكنا نستمر فى الجلوس معجبين بهذا المطرب ، الى أن يقول لهم (الفجر لاح قوموا يا تجار النوم).

وهنا تعجب كيف يمكننا دخول المدرسة فى هذه الآونة ، فقد كنا عند خروجنا من المدرسة قد اتفقنا مع بعض الاخوان الذين سيبكرون فى العودة الى المدرسة حتى يكونوا على استعداد لمساعدتنا عند مجيئنا ، وعند الدخول تدلى الينا الملاءات المربوطة من أطرافها بالحبال، ويجلس فيها الشخص ثم يشد الاخوان الحبل من أعلى فيطلع اليهم سالما وهكذا حتى يطلع الجميع ، وعندما يحضر الضابط النوبتجى يرى الجميع فى أماكنهم .

وقال زكى باشا ان (الزنزانة أكلت منى رات) وأنه تمتع بجميع العقوبات المدرسية : كالعيش الحاف ، والجلوس ديز ، والزنزانة .

وتكشف هذه « الاعترافات » عن ملامح شخصية أحمد زكى التىعرفت فيما بعد بوضوح ، فهو يصف دائما نفسه بأنه «ماكر».

وقد عرف عنه السـخرية والتهكم ، والتطلع الى المرح والفكاهة ، واحداث المقالب لأصدقائه .

وهذه صورة أخرى من مطالع حياته تكشف عن جانب آخر من شخصيته يقول : حكاية وقعت لى سنة ١٨٧٧ (فى سن العاشرة) كنت طفلا يرعانى أخى وسيدى وأستاذى (محمود رشاد بك) ، كنت أسكن معه فى شقة تطل على تحت الربع فاذا جن الليل كان أخى يجتمع مع أصدقائه ، سليم باخوص ، والشيخ محمد دياب ، والشيخ حفنى ناصف ، وأحمد حجازى (الذى عرف بأحمد أفندى سمير) ويحيى ابراهيم .

أما أنا فكنت أبادر بعد تناول العشاء الى قهوة الشاعر (شاعر أبو زيد الهلالى سلامة) ، فأجلس فى مكان بعيد ، أطرب مسامعى بصوت الرباب ، وأشنف آذانى بوقائع الحروب . على أن هذه (العادية) [٢] قد سببت لى لطمة لا أزال أذكرها من يد أخى وولى نعمتى .

ويقول : انه كان يدعى للجلوس مع أصحاب شقيقه الأكرمين على السماط ، وكانوا يدللونه ويعللونه بالمكافأة ، اذا أجاب على أسئلتهم ، فكان (أحمد سمير) يسأل عن معنى بيت من الشعر ، وكان (حفنى ناصف) يطالبه باعراب آية من القرآن ، وكان (الشيخ دياب) يطالبه بحل مسألة هندسية ، أما (سليم باخوس) فكان يمتحنه بترجمة جملة قصيرة من الافرنسية الى العربية ، أما يحيى ابراهيم فقد اختص بالجغرافية » يقول « فاذا أحسنت

---

(١) مجلة مصر الحديثة المصورة ٢١/٥/١٩٣٠ .

(٢) هكذا كتبها وهى العادة .

الاجابة أتحفني شقيقى بقرش صاغ عن كل سؤال وهو شيء كثيرا جدا حتى توفر لدى ١٩ قرشا .

وقد تعرض مرة للحديث عن أبى زيد الهلالى سلامة وانتصر للزناتي خليفة ، يقول : فأخذت أعيد عليهم ما سمعته من الشاعر ، وأظهر تألمى لعدم انصافه (أى الزناتى) ، بينما كان أخى يتململ من الحديث ، وأنا مسترسل فى دفاعى مترنما ببيت من الشعر طالما ردده شاعر القهوة :

دنيا دنيـة لا أرشد الله بغالهـا

بتاخد وتعطى وما لها من يحاسب

واذا بشيء لم يكن فى الحساب ، وهى لعلمة قوية خلت نفسى معها فى يوم الحشر والحساب » .

وتعطى هذه الصورة علامات الذكاء وبوارقه فى مطالع حياة أحمد زكى واتصال ذلك بالتاريخ العربى عن طريق الأسطورة .

* كما كشف أحمد زكى عن جانب آخر من حياته فى مدرسة الادارة يقول :

انهم[1] صححوا اسمها المغلوط سنة ١٨٨٦ فجعلوه مدرسة الحقوق . وفى هذه المدرسة التقى بالشاعر أحمد شوقى وعثمان مرتضى .

وكان أستاذهم الشيخ « محمد البسيونى البيبانى » من علماء

---

(١) ذكر هذه الألقاب على صدر رسالة الرق فى الاسلام التى ترجمها عام ١٨٩٢ ثم أضاف اليها عام ١٨٩٣ كلمة « واحد أعضاء الوفد العلمى المصرى فى المؤتمر التاسع لعلماء المشرقيات بلوندره » .

الأزهر المعدودين ، يدرس لهم فنون البلاغة ، وكان متخصصا فى نظم القصائد فى مدح الخديو توفيق .

والشيخ البسيونى — كما يروى زكى باشا — هو الذى تحدث الى الخديو عن نبوغ شوقى ، ويتصل بهذا نبوغه — أى أحمد زكى — فى الترجمة ، تقدم لامتحان وظيفة مترجم لمحافظة الاسماعيلية عام ١٨٨٧ (فى سن العشرين) ، وعين بمرتب قدره ١٣ جنيها ، ثم تقدم بعد ذلك بعامين (١٨٨٩) الى مسابقة أخرى لوظيفة مترجم فى مجلس النظار ، ففاز بالسبق ، وعين بمرتب قدره عشرون جنيها .

وبدخوله مجلس النظار مترجما امتدت حياته الوظيفية الى أن أصبح سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء حتى عام ١٩٢١ .

وقد جمع الى ذلك تدريس الترجمة فى المدرسة الخديوية ، وعضوية الجمعية الجغرافية ، وأستاذ اللغة العربية فى الارسالية العلمية الفرنساوية .

وكان نبوغه فى الترجمة مضرب الأمثال ، فقد كانوا يدعونه الى الاحتفالات ، حيث يتحدث بعض المستشرقين أو العلماء الغربيين باللغة الفرنسية ويقوم أحمد زكى بالترجمة أولا بأول .

ويشير (أحمد فهمى العمروسى) الى هذه الخلة من خلاله فيقول :

كنت طالبا فى مدرسة المعلمين التوفيقية ، وناظرها اذ ذاك مسيو (بينيه) وكان من دأبه أن يطالعنا من آن لآن بعظيم من عظماء الرجال من مختلف الأجناس ولشد ما كان مغتبطا اذ حضر

لنا ذات يوم ومعه شاب مصرى نشيط الحركة ، قوى البنية ، بهى الطلعة تبدو على ملامحه أمارات النبوغ ، وملامح العبقرية ، فقال ان هذا الشاب آية من آيات النبوغ فى الترجمة ، ويترجم أمامكم قطعة فرنسية الى العربية على البديهة وفى الحق أنه كان آية اعجاب، اذ فتح كتابا فرنسيا كان فى أيدينا ، وأخذ يتلو علينا بمجرد النظر وعلى البديهة ما فيه بلسان عربى مبين .

وأشار العمروسى الى أنه فعـل ذلك فى رثاء المستشرق الفرنسى (كازانوفا) بكنيسة القـديس يوسف بالقـاهرة من بضع سنوات ، اذ نهض بعد أن أتم قومه مراثيهم بالفرنسية من أوراق يتلونها فأبنه .

فى ميـــدان الفكر

عاش أحمد زكى (باشا) فى ميدان الحياة الفكرية والسياسية نيفا وأربعين عاما (١٨٩٢ — ١٩٣٤) واعتقد أن مجال حيـــاته الفكرية قد تحدد بحضوره مؤتمر المستشرقين (التاسع) فى لندره عام ١٨٩٢ فى نفس العام الذى تولى فيه الخديو عباس زمـــام السلطة ، وهو نفس العام الذى انتعشت فيـــه الحياة الفكرية المصرية بظهور عدد كبير من الصحف والمجلات ، كما بدأت فيه مطالع اليقظة السياسية بظهور مصطفى كامل ودعوته الوطنيـــة ذات الطابع الحماسى العاطفى الذى أيقظ النفوس ، ورد اليها الأمل فى كلمات متلألئة مشرقة وجدانية ..

وكان انتداب أحمد زكى لهذا العمل مسبوقا بجولات له فى الميدان ، أعدته لهذه المهمة ، وكان شقيقه (محمود رشاد) قد مثل مصر قبل ذلك بسنوات فى أحد هذه المؤتمرات ، التى كان يختار لها أهل العلم والفضل والقادرون على مواجهة المستشرقين والباحثين الغربيين .

ومن هذه النقطة بدأت صلات زكى (باشا) الواسعة المتعددة مع المستشرقين والباحثين الغربيين فى مختلف أنحـــاء أوروبا ، فأخذ يراسلهم ويباحثهم فى المخطوطات العربية العديدة الموجودة فى مكتبات العالم المختلفة ، ومن هنا بدأ رحلته الطويلة للبحث

عن التراث العربى ، ونقله أو تصويره ، ومنها بدأ تكوينه للخزانة الزكية .

وبالجملة فان هدفه الذى عاش من أجله طوال حياته الفكرية قد تحدد متمثلا فى تحقيقات تاريخية وجغرافية ولغوية للتراث العربى كله ، وجمع ما أمكن الجمع لهذه المخطوطات ومراجعة دقيقة لها .

وقد أخلص زكى باشا الاخلاص كله لهذه الغاية وتجرد لها ، فكانت شغله الشاغل وعمله الأول والأخير ، ولم تحل أعباء العمل الرسمى الذى وكل اليه ، والذى اتسع فيما بعد دون هذه الغاية .

فقد كان يخرج من الديوان فى ساعات الظهر ميمما شطر مكتبته الزكية فى بابها الخاص من دار الكتب ، فيمضى بقية يومه الى المساء ، يتناول طعام غذائه وقهوته ونرجيلته ، وهو قارىء باحث مراجع ، يكتب تعليقاته على هوامش الكتب ، أو ينقل منها فى جذاذاته التى تضخمت وتعددت ، والتى كانت عونه فى الاجابة فى مثل رد الطرف على ما يوجه اليه من أسئلة ، أو يجده مكتوبا فى الصحف من أسئلة وآراء أو برقيات .

وهكذا يمضى يومه حتى يعود منهكا الى داره فى المساء ، ليستقبل عشرات من الأصدقاء والأعلام القادمين من مختلف أنحاء العالمين العربى والاسلامى ، ليسمر معهم طويلا ، وليمتد بعد ذلك سماطه التقليدى بالعشاء .

وفى خلال ذلك لا تتوقف المناقشات ولا الأبحاث

ولا المراجعات حول أدق المسائل فى تاريخ العرب والاسلام ، وأسماء الأعلام والبلدان ، ودقائق اللغة .

فاذا أقبل الصيف كان زكى (باشا) قد أعد عدته لرحلة الى الآستانة أو أوربا بحثا وراء المخطوطات ، ومعه « الفوتغرافية » ينقل بها ما يشاء من هذه المؤلفات ويدفع غاليا فى سبيل الحصول عليها . وليس هو بالرجل الثرى ولكنها الهمة والايمان بالعمل الذى تصدى له ، والذى ظل مكبا عليه ، حتى تحقق له عام ١٩١١ أن تذعن الدولة لرأيه ، وأن يجد فى (أحمد حشمت باشا) وزير المعارف اذ ذاك مجيبا لدعوته الى احياء الآداب العربية ، فيأخذ المشروع طريقه ويحقق نجاحا كبيرا فى طبع عدد كبير من المؤلفات العربيـــة .

ويواصل (زكى باشا) عمله من أجل الأحياء ، فهو متطلع كل صباح الى الأهرام ، يقرأ الوفيات فما أن يعلم بوفاة واحد من الكبار أو الثراة حتى يبحث عن آثاره وكتبه فيشـــتريها بالاشتراك مع صاحب مكتبة الخانجى ، ويضم الصالح منها الى مكتبته التى تضخمت حتى بلغت عام ١٩١٩ أكثر من ألفى مجلد وزادت بعد ذلك حتى بلغت ١٨ ألفا .

وقد شغل هذا العمل (زكى باشا) طوال حياته ، وكان أعظم ما فيه هو مراجعة هذه الآثار الأدبية وقراءتها ، واســتيعابها ، واستخراج النصوص المختلفة فى فنونها وموضوعاتها فى جذاذات بلغت الألوف ، كان يعدها زكى باشا فى أدراج خاصة ويضيف

اليها ، ويجعلها عدته فى مراجعة الباحثين فيبزهم بالجديد والمثير مما لا يصلون اليه ، لأنه لا يوجد الا فى مكتبته هو .

وحقق لزكى باشا الاستمرار فى هذا العمل والانفاق عليه أمران هامان هما ميراثه لتركة شقيقه (محمود رشاد) التى بلغت فيما يقال أكثر من اثنى عشر ألفا من الجنيهات وثروة زوجته التى كانت من أسرة عريقـة ثرية هى أسرة « طوسون زعيم زادة » سر تجار الجيزة .

وقد عنى (زكى باشا) بأن يكشف بين آن وآن جانبا من جوانب هذه الحقائق العلمية التى كان يصل اليها فى مراجعاته ، فى مقالات مثيرة أو محاضرات مستفيضة يكتبها فى الأهرام أو المقطم أو المؤيد أو يلقيها فى الجمعية الجغرافية أو أى ناد آخر .

وهو فى كشفه عن هذه « الجوانب الغامضة » لا يتحرج من أن يقدمها بروح الازدهاء والتفاخر ، ومع قدر كبير من الفكاهة والتشويق والتبسط ، بل يمكن القول أن عمل زكى باشا فى مجال الفكر والتحقيق العلمى كان مرتبطا الى حد كبير بالكشف عن الجوانب الغامضة ، واثارة القضايا الضخمة ذات الدوى العاصف ، والتى ما أن تذاع حتى تحدث ضجة كبرى ، وتعليقات متعددة ، ومراجعات وانتقادات .

ثم لا يلبث زكى باشا بعد أن تهدأ الضجة أن يثير ضـجة أخرى بكشف علمى آخر أو تحقيق آخر .

وهكذا كأنه موكل بأن يذكر الناس به ، ويحدث الضـجة

التى تدور حول ما يستطيع أن يسبق به ويحرزه من علم ونصوص توجد عنده وحده ولا توجد عند غيره .

من أجل هذا استطارت شهرته فى كل مكان ودوى اسمه فى أنحاء العالم الاسلامى والعربى ، وراسله الكثير من الأعلام ، سائلين عما غمض من تاريخ العرب والاسلام ، وكان يجيب هؤلاء وهؤلاء مزدهيا قائلا :

« عنى وعنى وحدى خذوا الخبر الصادق » ..

وقد كان زكى باشا حتى عام ١٩٢١ مقلا فى هذه المراجعات والمساجلات ، حيث كانت تشغله أعباء عمله الوظيفى ، ومطالعاته المتصلة ومراجعاته ، واعداد جذاذاته ونصوصه ، وشراء الكتب ونسخها ونقلها بالفوتغرافيا ، فما أن أتيح له أن يتفرغ بالاحالة على المعاش حتى سفر عن هذا الجانب ، وألقى بكل ثقله فى ميدان البحث العلمى فما تكاد تخلو صحيفة أو مجلة من بحث له أو معه ، ومن قضية مثارة ، أو مسألة له فيها رأى ، وكانت صحيفة الأهرام فى هذه الفترة مجاله الأوسع ، وميدانه الطليق . ففى صفحتها الأولى كانت تنشر مقالاته وتعليقاته التى كان يرسلها الى الجريدة فى أى وقت حتى منتصف الليل .

وعلى صفحات هذه الجريدة — التى كتب فيها منذ عام ١٨٩٢ فصول رحلته الى أوربا والأندلس أول مرة — أثيرت عشرات التحقيقات ، ودقائق الأبحاث .

ومع ذلك فقد كتب (زكى باشا) فى المقطم والبلاغ والمؤيد من قبل فصولا متعددة وفى مجلات الهلال والمقتطف والمعرفة

والشورى والمجمع العلمى العربى (دمشق) والمجلة الجديدة وغيرها عشرات الأبحاث .

وجملة القول أن زكى باشا عالج مئات الموضوعات وصحح عشرات الأخطاء وراجع ألوف أسماء الأعلام والمدن ، ولكنه لم يعالج موضوعا كاملا من موضوعات العلم أو بحثا شاملا من أبحاث التاريخ أو اللغة حتى بلغ من أمره ابان معركة اللغة العربية عام (١٩٠٧ وما بعدها) أنه لم يدل بدلوه أو يتحدث عن هـذه القضية على النحو الذى يدل على أنه مشغول بها فقد كانت تستغرقه فى هذه السنوات أعمال احياء التراث ومراجعة ما أخرجه منه وما أعاد طبعه ، وهو كثير . وقد تكلف جهدا ضخما شهد به كل من عاصره أو قرأه من بعد .

ويمكن القول بأن « همّ » زكى (باشا) كان فى الأغلب هو الكشف عن نوادر الكتب ثم الكشف عن المدفون من الآراء والأفكار والتواريخ والوقائع واعلانها فى ضجة كبرى ، وتأكيد القول بأنه سبق العلماء الى ابرازها وتحقيقها ، وكان فى ابراز هذه الحقائق جريئا لا يبالى اذا ما صدمت هذه الحقائق ما تواضع الناس عليه من معتقدات أو عرف أو تقاليد أو موروثات .

العمل الفكرى

يمكن تقسيم عمل زكى (باشا) الأدبى الى مراحل متصلة بمراحل حياته ذاتها . فقد بدأ عمله الفكرى بالترجمة واحياء التراث والتأليف فيما يتصل بالتحقيق التاريخى واللغوى للأعلام والمدن وغير ذلك . وكان أبرز أعماله فى هذه الفترة اختصار حروف الطباعة وادخال نظام الترقيم الغربى الى الكتابة العربية ، وقد أتيح له أن يحضر فى هذه الفترة عددا من مؤتمرات المستشرقين ، كما توالت رحلاته فى سبيل البحث عن المخطوطات ونقلها بالفوتغرافيا ، واتصل بهذا عمله فى الجامعة المصرية القديمة ، سكرتيرا عاما لها وتدريسه مادة الحضارة الاسلامية عاما واحدا ، وقد كانت هذه هى فرصة تكوين الخزانة الزكية وتنميتها .

ثم توقفت حياة زكى باشا العملية بعد أن بلغ منصب السكرتير العام لمجلس النظار فى عام ١٩٢١ ، فانتهت بهذا المرحلة الأولى من هذه الحياة ، وهى متصلة متماسكة .

وهناك مرحلة أخرى بدأت فى خلال الفترة الأولى ، ولكنها برزت على نحو واضح منذ عام ١٩٢١ حتى آخر حياته ، وهى مرحلة التوسع فى التحقيقات التاريخية واللغوية وأسماء الأعلام ، وتاريخ الأندلس وما يتصل به . وهى مرحلة عريضة خصبة بعيدة المدى ، نشر فيها زكى (باشا) عشرات المقالات فى الأهرام والمقطم ،

وكثير من المجلات الشهرية والأسبوعية فى مصر وفى العالم العربى.

واتسمت هذه المرحلة ببروز جانب المساجلة والمعارك ، فيما يتعلق بالقضايا التى كان يعرض لها ، والزوايا التاريخية التى كان يكشفها ، مما كان يثير ضجة وجدلا كبيرين .

وسنتحدث عن هذه الجوانب من أعماله الفكرية فى أبواب متعددة هى :

١ — الترجمـــة .
٢ — التأليف .
٣ — احياء التراث .
٤ — حروف الطباعة والترقيم .
٥ — اصلاح لغة الدواوين .
٦ — مؤتمرات المستشرقين .
٧ — فى الجامعة .
٨ — الرحـــلة .
٩ — (الفردوس الاسلامى المفقود) .
١٠— المكتبة الزكية .

ثم نفرد بابا كبيرا لعمله فى المرحلة الأخيرة من حياته يتكون من فصلين :

١ — التحقيقات التاريخية واللغوية .
٢ — مساجلاته ومعاركه .

١ — الترجمة

كانت الترجمة من أعمال أحمد زكى الأولى التى استهل بها حياته ، وقد قدم للغة العربية عددا من المؤلفات أهمها :

١ — أربعة عشر يوما سعيدا فى خلافة الأمير عبد الرحمن الأندلسى (عن الفرنسية) مصر سنة ١٨٨٦ .

٢ — نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الاسلام (تأليف محمود باشا الفلكى) ١٨٨٨ .

٣ — رسالة المعــارف العمومية فى الديار المصرية ما يلزم ادخاله من الاصلاحات الضرورية (تأليف محمد سعيد) ١٨٨٨ (مصر ١٣٠٥ هـ) .

٤ — الرق فى الاسلام (تأليف أحمد شفيق) ١٨٩٢ (بولاق ١٣٠٩) هـ .

٥ — مصر الجغرافية (بولاق ١٣١٠ هـ) تأليف الدكتور فريدريك نوبتولا سنة ١٨٩٣ .

٦ — تاريخ المشرق (تأليف ماسبيرو) ١٨٩٧ .

وهذه الأبحاث ترجمها فى الفترة ما بين (١٨٨٦ — ١٨٩٧) ثم أتيح له بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات أن يعود الى الترجمة حين دعى الى تقديم بعض انتاجه الى جريدة (الجريدة) عند صدورها ، فاختار ترجمة قصتين على رفرف الجريدة ، الأولى « السفر الى القمر » لجول فرن ، بدأت الجريدة نشرها فى العدد الأول (٩ مارس سنة ١٩٠٧) .

والأخرى قصة « قبيل الاعدام » لفيكتور هيجو ، بدأ نشرها يوم ١٠ مارس ١٩٠٧ واستمرت القصتان تنشران يوميا .

والمعروف أن أحمد زكى كان يجيد الفرنسية اجادة تامة وأنه بدأ عمله الرسمى مترجما وكانت له براعة فائقة شهد بها الكثيرون وهو يقرأ الصفحة المكتوبة بالفرنسية فينقلها على لسانه باللغة العربية الفصحى .

وقد لقيت ترجماته تقديرا وافرا من النقاد والباحثين ، وتناولتها الصحف والمجلات اذ ذاك ، وعنى بها المقتطف عناية كبرى ، وكان أبرز ما فى هذه الترجمات الدقة والتعليق وتصحيح الأسماء .

وقد أشار أحمد زكى (الذى تدرج خلال هذه الترجمات من مترجم أول فى ادارة الجرائد الرسمية ١٨٨٨ الى مترجم مجلس النظار ١٨٩٢ الى سكرتير ثان لمجلس النظار ١٨٩٩) الى خطته فى الترجمة فى مقدمة كتاب « تاريخ المشرق » حيث قال :

« بذلت فى تعريب الخرط ، وضبط أسماء المواقع الجغرافية عناية وتعبا ، لا يشعر بشىء منهما ، الا من كابد مثل هذا العمل الشاق ، الذى يوجب ضياع الأيام بحثا فى المطولات المتنوعة ، والتراجم المتعددة للوقوف على حقيقة اسم واحد ، خصوصا وان هذه الخرط أغلبها يختص ببلاد الشرق ، وقد نقل الافرنج أسماءها محرفة مشوهة أو تعارفوها مختلة معتلة فكان ارجاعها الى أصلها موجبا لتعب كبير ، قد لا يخلو الخائض عبابة من الزلل والتقصير » .

وفى كتاب « الرق فى الاسلام » تحدث عن عمله فى الترجمة فأبان أنه حافظ على المعنى تمام المحافظة ، مع مراعاة القواعد الانشائية العربية والأساليب القولية الكلامية التى تجعلها أهلا للقبول عند الناطقين بالضاد فى جميع البلاد .

وأبرز ما فى هذه الترجمات اللغة العربية الدقيقة ، فالمؤلف قادر على الأداء باللغة العربية ، وهو فى نفس الوقت قادر على استيعاب النص .

وقد علق على هوامش الكتب بشروح وحواش (تاريخية وجغرافية ولغوية) أضاف بها كثيرا من التفصيلات وجلا بها كثيرا من الغوامض ، وهى حواش « ضمت كثيرا من الفوائد المشتتة فى كتب العرب مما اعتاد الناقلون من ألسنة الأعاجم فى هذا الزمان اهمالها » .

وفى كتاب « الرق فى الاسلام » عنى بمراجعات حول الآيات القرآنية والأحاديث والنصوص الفقهية .

ولم يجد كتاب (تاريخ المشرق) من نقد المقتطف غير أن المؤلف كان قليل التدقيق أحيانا فى الترجمة والتحرير ، وأنه ترك ما كتبه المؤلف من فخر زائد بنسبة الفضل فى البحث عن آثار الشرق الى فرنسا وقال أنه كان يجمل بالذين وقفوا على هذا أن يحذفوه اسوة بما فعلوا عندما حذفوا تاريخ بنى اسرائيل » .

ولم يفت أحمد زكى أن يواصل طريقه فى الهوامش حين ترجم القصتين اللتين نشرتهما الجريدة ، فأخذ يضيف معلومات لغوية وتاريخية على هامش الرفرف ، وفى هذه الهوامش فائدة كبيرة

حيث يعرض المؤلف للكلمة الفرنسية وترجمتها باللغة العربية .

ومما يذكر فى هذا الصدد أن بعض هذه الكتب كانت تترجم لتقرر على الطلاب فى المدارس ، ومن ذلك كتاب تاريخ المشرق الذى ترجمه بتكليف من يعقوب أرتين وكيل نظارة المعارف ، وقد عاد زكى باشا بعد ذلك بسنوات طويلة فأشار الى أن فى هذا الكتاب أخطاء وتحريفا ، وهكذا كان تاريخ مصر يكتبه الأجانب من وجهة نظرهم ، ويفرض على الطلاب دون تصحيح لما يرد فيه من مغالطات الا بعد سنوات طويلة .

٢ — التـــأليف

أما جانب التأليف عند أحمد زكى فهو أكثر اتساعا ، وان كانت مؤلفات أحمد زكى باشا لا تعدو أن تكون أبحاثا صغيرة محدودة ، وهى فى مجموعها أشبه بالتقارير ، وقد توقفت تماما عند ١٩١٢ ، فلم يصدر بعد ذلك مؤلفا ، واكتفى بالفصول التى كان ينشرها فى الصحف .

وقد بلغت هذه المؤلفات — وكلمة مؤلف هنا تســتعمل تجوزا — ٣١ كتابا أحصاها « كرد عــلى » فى مجلة المقتبس عام ١٩١٢ .

وأغلب هذه الأبحاث قطاعات من التاريخ ، أراد أن يكشف بها بعض الجوانب الغامضة ، وقد تعمد أن يؤلف بعضها بالفرنسية كاختراع البارود ، وبلاد الفيوم ، وتسامح المسلمين ، والفنون والصنائع الاسلامية فى مصر ، وعلاقات المصرية بالأندلســية ، وأهل الكهف ، وسراديب الخلفــاء الفــاطميين ، والطيران فى الاسلام ، والتجارة فى الاسلام ، ومواساة العميــان ، والعرب واكتشاف أمريكا ، وبقايا العرب الخالدة فى أوربا .

وبعض هذه الأبحاث محاضرات ألقاها أحمد زكى فى الجمعية الجغرافية التى كان عضوا فيها أو فى مجتمعات أخرى .

وله كتابان عن رحلتين هما : (الســفر الى المؤتمر) وهو قصـــة رحلته الى أوربا وأســبانيا عام ١٨٩٢ لشهــود مؤتمر

المستشرقين فى باريس ، والثانى (الدنيا فى باريس) وهو عن معرض باريس ١٩٠٠ .

وتضم هذه الأبحاث تخطيطا لعمل زكى باشا فى مجال احياء التراث العربى مثل كتبه :

* موسوعات العلوم العربية .
* تقرير عن الكتب التى خلفها العرب بالأندلس .
* الوسائل الموصلة الى احياء الآداب العربية بالديار المصرية .
* الترقيم وعلاماته باللغة العربية .
* قاموس الجغرافية القديمة .

ثم هناك خطبة فى افتتاح الجامعة ، ودروسه عن الحضارة الاسلامية التى ألقاها عام ١٩٠٨ ، وتبدو فى هذه المؤلفات معالم اتجاهات أحمد زكى فى مختلف ميادين الفكر التى خاضها خلال حياته كلها وخلال عشرين عاما بعد هذه الكتب وهى :

* احياء التراث العربى .
* التحقيقات التاريخية والجغرافية واللغوية .
* الرحـلة .

ويعد (قاموس الجغرافية القديمة) الصادر سنة ١٩٠١ من أهم هذه الأعمال وهو علامة على أعماله المتصلة بعد ذلك فى ضبط الأعلام العربية وايراد ما يقابل الأعلام القديمة من أسـماء ، وتصحيح لعشرات من الأعلام التى حرفها الافرنج ومسخوها ، وظل أحمد زكى يعمل على تصحيحها حتى اللحظات الأخيرة من حياته ، وقد رد كثيرا من الكلمات الى أصولها كالمدينة المسماة

عند الافرنج (موبسوبوست) فانها بالعربية (المصيصة) والجهة المسماة (رد كاسين) فانها بالعربية (رأس التين) وجبل (أوارات) فانه فى العربية جبل الحرث ، ومدينة (الأبيد) أو العبيد فانها بالعربية (الأبيض) .

وفى هذا الكتاب أعلن أحمد زكى أنه يعد معجما كبيرا وافيا فى هذا الموضوع (وأنه اذا نال هذا استحسانا فان ذلك سيشدد عزيمتى لابراز المعجم الكبير الوافى الذى جمعته فى هذ الموضوع المعقــد) .

ومع أن الكتاب لقى تقدير مختلف الدوائر فان أحمد زكى لم يخرج معجمه الكبير حتى توفى ، وما زال مدفونا فى غرفة مظلمة فى عيادة الدكتور زكى بدر بجوار وزارة الأوقاف حتى الآن ، وربما الى أمد طويل .

وقد انتقد (حبيب غزالة) اسم الكتاب (المقتطف مجلد ٢٦ سنة ١٩٠١ ص ٥٣٧) وقال انه لا يحسن اطلاقا التسمية بوجه التعميم (ان جميع ما حواه القاموس انما هو أعلام قديمة أصلها مصرى أو فنيقى أو يونانى مكتوبة فقط بالحروف اللاتينيــة التى هى حروف كل اللغات الأوربية ، كما أورد له عــددا من التصحيحات (مقتطف يونيو ١٩٠١) .

وان كان قد أشار الى أن القاموس لا يستغنى عنه عالم أو أديب وأنه من الضروريات وأن اللغة العربية كانت فى حاجة الى قاموس من هذا النوع .

ويمثل كتاب (موسوعات العلوم العربية) الصادر سنة ١٨٩١

خطة أحمد زكى فى العمل من أجل الكتب ، فقد بحث مزايا علم (الببلوغرافيا) وهو علم وصف الكتب واتقان الافرنج له ، وأسماء الذين فتحوا بابه من المؤلفين فى اللغة العربية أمثال صاحب الفهرست ، وصاحب كشف الظنون ، كما عرض كلمة (انسكلوبيديا) وتعريبها وقد اختار لها كلمة (موسوعات العلوم) التى أطلقها من قبل « الملا حسن بن مصطفى » على كتابه « مفتاح السعادة » .

وأفاض أحمد زكى فى التحدث عن الموسوعات العامة ، ووصف كتاب « احصاء العلوم وترتيبها » لأبى نصر الفارابى ، وكتاب وصف العلوم وأنواعها لأبى حاتم البستى وطبقات العلوم للأبيوردى ، وحدائق الأنوار للرازى .

كما تحدث عن الموسوعات الخاصة ، ووصف كثيرا من الكتب الجامعة لأشتات العلوم ، وتطلع الى طبع هذه المؤلفات .

وفى ختام الكتاب تحدث فى فصل مسهب عن رسائل اخوان الصفا ، وقد نفى أنها من تأليف المجريطى ببيان واف .

وقد دعا أحمد زكى باشا فى كتابه الحكومة الى تخصيص مبلغ من المال لطبع ما لم يطبع من هذه الكتب قبل أن يسلب من البلاد الشرقية أو تحل به نكبة أخرى من نكبات الزمن » ، وقد جاءت هذه الدعوة عام ١٨٩١ وتحققت عام ١٩١١ .

وأعتقد أن لأحمد زكى أبحاثا أخرى لم يضمها هذا الثبت منها (ملحق الأغانى) الذى جمع فيه مافات صاحب الأغانى ومن جاء بعده (وهو لم يطبع) .

ورسالته عن مجالس « المعددات والندابات » فى مصر ، وهو الموضوع الذى قدمه الى مؤتمر المستشرقين ...

وقد حاولت الحصول على هذه الرسالة غير أننى لم أجدها فى دار الكتب وقد جمع أحمد زكى أشعارهن ومراثيهن ، وقال : هذا الموضوع محفوف بالهموم والأحــزان ، ولكن البحث فيه يكشف القناع لأرباب الاطلاع من علماء الأخلاقيات على بعض أمور تهمهم ...

ربما كان نساء العامة فى مصر المتفردات بالعمل بهذه المواعظ البالغة ومراعاتها بكل دقة ، كأنما هى فرض من الفروض ، وذلك لأنهن فى كل خميس (وهو يوم تجدد الحداد) يتجمعن زرافات زرافات ويسعين فى بعض أزقة العاصمة ساكنات ساكنات كأنما على رؤوسهن الطير حتى يصلن الى دار صديقتهن التى طرق الموت بابها ، واختطف واحدا من أربابها وكلهن يتدثرن بملابس سوداء، ويضعن على رؤوسهن مناديل زرقاء ، فان ذلك هو اللبس الرسمى المقرر عندهن فى مجالس العزاء » .

وأشار زكى باشا الى أن المعددات والندابات فى مصر طائفة منتظمة ما زالت محافظة على مالها من الحظوة والتأثير ، والمرأة منهن تشابه غيرها من النساء ، ولكنها متى تفرغت لوظيفتها دبت فيها حياة أخرى ، وظهرت فى نشأة ثانية بمظهر جديد .

وقال : ان الذى دعانى للاهتمام بهذا الموضوع ما رأيته من عناية أهل البحث والتدقيق من الافرنج بكل ما له صلة بأحوال المشرق ، ولما كان كثير منهم قد يقع فى الخطأ ويجعل للأمور عللا

وأسبابا يعزوها الى الدين الاسلامى عن قصور فهم أو تتبادر الى مخيلته بحسب ما يصوره له الوهم من غير أن يكون له من المعرفة .

فقد أحببت أن أستوفى فى هـذه النبذة كل ما وصـل اليه علمى من بعض عادات قومى فضلا عن الفائدة الأدبية الجليلة ، وهى المحافظة على الأشعار التى تبوح بها المعددات والندابات أثناء الرثاء ، فان فى كثير منها معانى دقيقـة وأفكارا حكيمة ، قد لا يجدها الباحث فى المراثى الشهيرة التى يعمل الشعراء فيهـا فكرتهم ويمضون الأوقات الطويلة فى سبكها ... » .

وقد جمع أحمد زكى فى هذه الرسالة أكثر من ألفى بيت من مراثيهن ولا تزال هذه الرسالة مخطوطة لم تطبع .

وليس شك فى أن مؤلفات زكى باشا فى هذه الفترة — وهى لا تمثل كل انتاجه ولا تطور تفكيره وآرائه من بعد ، تعطى صورة واضحة لمقدرته الفكرية وتطلعاته العلمية . فهى تمثل جميع الجوانب التى خاضها أحمد زكى بتوسع : تحقيق التراجـم ، والمدن والجغرافيا ، والتوسع فى الدعوة الى أمجاد العـرب والكشف عن تراثهم . وفيها صورة رحلاته وأصدقائه ومعارفه وجوه العلمى كله .

ويمكن القول بأن أسلوبه فى الكتابة فى هذه الفترة قد غلب عليه السجع والزخرف وهو ما لم يتخلص منه أحمد زكى الى آخر أيامه تخلصا نهائيا ، وان تخفف منه كثيرا .

وفى كتابة الرحلة حاول أن يدخل أسلوبا جـديدا لم يكن

معروفا من قبل وهو الفكاهة والسخرية والانطلاق بالقارىء فى أجواء بعيدة عن البحث العلمى الصرف . وتلك سنة سار عليها من بعد . ايمانا منه بأن الأبحاث العلمية الخالصة تزعج القراء فى الكتب أو السامعين فى المحاضرات فتصرفهم عنها . لذلك كان حفيا بأن يضيف شيئا من توابل الفكاهة والسخرية وادخال روح المرح على القارىء والسامع دون أن يتعدى بذلك نطاق العلم أو يؤثر فى منطق الحقائق العلمية ذاتها .

وقد نشأ أحمد زكى فى بيئة السجع والزخرف المعروفة فى أواخر القرن التاسع عشر ، ولكنه لم يكن عبدا لهذا النهج . فقد أعانته ثقافته الفرنسية — بالاضـــافة الى طلوع فجر الأسلوب الجديد الذى عرف به محمد عبده وابراهيم المويلحى وعبد الله فكرى وغيرهم — الى أن يتحرر أسلوبه رويدا وأن يأخذ طابعا خاصا عرف به ، قوامه الدعابة والعاطفة فى طريقة العرض وربما كانت الحماسة غالبة على المضمون دائما ولكن مع ايراد الأسانيد والمصادر العلمية .

ولا شك تعطى مؤلفاته حتى عام ١٩١٢ — وهى فى الأغلب — كل ما طبع له الا النادر القليل مما لم نصل اليه — تعطى صورة العالم الباحث المنطلق الى غاية كبرى قوامها :

* اطلاع علماء الغرب على حقيقة لا شك فيها وهى سبق العرب وفضلهم فى كثير من المجالات ولذلك كانت أغلب هذه المؤلفات بالفرنسية أو بالفرنسية والعربية وكان هدفه من ذلك أن تصل الى هؤلاء العلماء بلغتهم .

* ابراز جانب الاهتمام بالمخطوطات والاحياء الأدبى للتراث العــربى .
* تصحيح أســماء الأعــلام والأماكن والمواقع التاريخية والجغرافيــة .
* العناية بجوانب التاريخ العربى الاسلامى واللغة العربية.
* اصلاح المطبعة وادخال الترقيم .

مؤلفات أحمد زكي

كما أوردها « كرد على » فى مجلة « المقتبس » سنة ١٩١٢

١ — موسوعات العلوم العربية ، وبحث على رسائل اخوان الصفا .

٢ — الدنيا فى باريس (رحلة معرض ١٩٠٠) .

٣ — السفر الى المؤتمر (رحلة أوربا ١٨٩٢) .

٤ — بحث عن اختراع البارود والمدافع وما قاله العرب فى ذلك (بالفرنسية) .

٥ — نقد العهدة النبوية (الموجود صورتها فى دير الطور) بالفرنسية .

٦ — بيان الوسائل الموصلة الى احياء الآداب العربية بالديار المصرية (بالفرنسية) .

٧ — بحث فى طريقة احياء الفنون والصنائع الاسلامية بديار مصر (بالفرنسية) .

٨ — تقرير عن الكتب التى خلفها العرب بالأندلس .

٩ — بحث فى الترجمة العربية لكتاب الفيلسوف بمسطوس الذى حاول تجديد الوثنية وعبادة الأصنام (بالفرنسية).

١٠ — بحث عن الفيوم وبلاده فى أيام الأيوبيين (بالفرنسية) .

١١ — كلمة عن محمد على الكبير بمناسبة عيده المئوى .
١٢ — سيرة فخرى باشا .
١٣ — سيرة رياض باشا .
١٤ — تسامح المسلمين مع أهل الأديان الأخرى (المقتبس) .
١٥ — الترقيم وعلاماته باللغة العربية .
١٦ — غرام العرب بالكتب (المقتبس) .
١٧ — قاموس الجغرافيا القديمة .
١٨ — بحث فى علاقات المصريين مع الأندلسيين (بالفرنسية) .
١٩ — تحقيق جغرافى تاريخى عن أهل الكهف (بالفرنسية) .
٢٠ — دروس فى الحضارة الاسلامية .
٢١ — خطبة افتتاح الجامعة المصرية .
٢٢ — فى الأسباب التى ارتقى بها الأسلام .
٢٣ — تاريخ المشرق فى الأزمان القديمة (بالفرنسية) .
٢٤ — بحث عن سراديب الخلفاء الفاطميين بالقاهرة (بالفرنسية).
٢٥ — الطيران فى الاسلام (بالفرنسية) .
٢٦ — محاضرة ارتجالية عن التجارة فى الاسلام (المقتبس) .
٢٧ — محاضرة عن الشام والحرية (المقتبس) .
٢٨ — بحث عن مؤاساة العميان فى دول الاسلام (بالفرنسية).
٢٩ — مصر والجغرافيا (عن الفرنسية) .
٣٠ — العرب وأمريكا (محاضرة) .
٣١ — بقايا العرب الخالدة فى أدرنة والدلائل اللغوية المؤيدة لذلك .

ومع ضخامة عدد هــذه المؤلفات فانها عبارة عن كتيبات وقطاعات مختلفة من الأبحاث لا تمثل عملا أدبيا ضخما كما كان يتوقع أن يقوم به أحمد زكى غير أن أبحاثه التى نشرها فى الصحف والتى تبلغ أكثر من ألف مقال وبحث يمكن أن تكون موسوعة ضخمة فى تحقيقات التاريخ والجغرافيا واللغة .

٣ ـ إحياء التراث

هذا هو العمل الضخم الذى وهب له أحمد زكى نفسه منذ مطالع حياته ، والذى بذل له من اهتمامه وماله كل ما يملك ، وفوق ما يملك . فقد ظل مدينا من جراء شراء الكتب .

وقد كان هذا العمل متمثلا فى الحصول على المخطوطات العربية من روائع التراث العربى المفقودة ، التى حملها الغربيون معهم من الشرق بعد الحروب الصليبية ، أو من الأندلس بعد اخراج العرب منها ، هذه المخطوطات التى تعد بالألوف ، والتى هربت الى الغرب ، وتجمعت فى مكتبات عواصم أوربا ، والتى سبق المستشرقون والباحثون الغربيون الى تحقيق عدد كبير منها ، وطبعها بعد اعداد فهارس مفصلة لها ، دراسات شاملة عن موضوعها ومؤلفها .

وقد رأى أحمد زكى بعض هذه المخطوطات التى طبعها المستشرقون ، وتطلع الى أن يقوم بمثل هذا العمل ، وامتلأت نفسه بالرغبة فى أن يقوم بالبحث عن هذه المخطوطات ومراجعتها وتنقيحها وطبعها ، كما امتلأت نفسه باحساس صادق بالغيرة على هذا التراث الضخم المفقود ، والمتناثر فى مكتبات الغرب دون أن ينتفع به أصحابه وأحفاد كتابه .

من أجل هذا ملأت نفسه الرغبة فى أن يقوم بجهد فى هذا الاتجاه ، واستهل جهده هذا حين قدم لمؤتمر المستشرقين فى لندره عام ١٨٩٢ عشرة كتب قديمة نقحها وصححها .

وقد أتيح له أن يزور مكتبة الأسكوريال خلال زيارته لأسبانيا (الفردوس الاسلامى المفقود) وأعد تقريرا شاملا عن هذه المؤلفات .

ومضى أحمد زكى يواصل عمله ذلك من خلال رحلاته المتوالية الى عواصم أوربا وحضوره مؤتمرات المستشرقين وزيارة دور الكتب فى باريس ولندن وأثينا ، وينفق من أجل الحصول على نوادر التراث العربى .

وقد استطاع بعد الانقلاب العثمانى عام ١٩٠٩ أن يسافر الى الآستانة وأن يحقق نجاحا كبيرا فى هذا المجال ، كما استطاع بنفوذ صديقه المرحوم حسن حلمى باشا الصدر الأعظم أن يدخل قصر أندرون ، حيث توجد أنفس خزانة للكتب . هذه الخزانة التى كان محظورا على أفراد الشعب أن يدخلوها ولم يدخلها سوى الخليفة ، حيث يوجد ما وصفه أحمد زكى بنوادر الجواهر وغوالى الذخائر بعد أن كانت موصدة فى وجه الجميع ، منذ أربعة قرون وستة أعوام .

وقد أقام أحمد زكى فى هذه الخزانة أربعة شهور متوالية ، ومعه — على حد تعبيره — جيش من المصورين بالفوتغرافية من أتراك وأرامنة وأروام .

وهكذا واصل أحمد زكى عمله فى سبيل البحث عن المخطوطات واحياء التراث ، وهى المهمة التى جرد نفسه لها ووصفها بقوله : « ما كان يرتضى بشىء سوى ما فيه تصديع الدماغ ووجع القلب وتعب العين فى التوفر على مغازلة الكتب المخطوطة » .

وكان اتجاهه الى استخدام التصوير الشمسى فى نقل هذه المؤلفات عملا جديدا خطيرا لم يسبقه اليه سابق من العرب .

ولم يمض الا القليل حتى استطاع أن يقدم مشروع احياء الآداب العربية الى وزير المعارف (أحمد حشمت باشا) الذى كان حفيا بهذا العمل مقدرا له ، كما قدم كشفا بأسماء الكتب التى تتخذ نواة للمشروع .

واستطاع أن يجعل مجلس النظار يعتمد للمشروع ٩٣٩٢ جنيها فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩١٠ ، وذلك لاحـــراز واستنساخ وطبع ٢٧ كتابا من المخطوطات العربية ، على ما جاء فى مذكرة أحمد زكى بك السكرتير العام لمجلس النظار ، التى تقدم بها لرئاسة المجلس والمحالة على وزير المعارف سعادة أحمد حشمت باشا » .

وبرز مشروع احياء الآداب العربية ، وصار من حق المجلس الأعلى لدار الكتب الاشراف عليه ، وفعلا بدأت العمـــل بطبع موسوعتى « نهاية الأرب فى فنون الأدب » للنويرى « ومسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » لابن فضل الله العمرى .

ومضى أحمد زكى يعمل من أجل مشروعه عملا متواصلا ، وتوالت أسفاره ورحلاته الى مكتبات استانبول وباريس ، وقد حقق هذا المشروع طبع أكثر من خمسة وخمسين مؤلفا وتوقف . يقول محمد كرد على « أنه أحب أن ينفرد وحده بهذا العمل ، ولما كان يحب التدقيق ولا يثق بتحقيقات غيره أبطأ بالطبيعة فى اخراج العمل فاسترجع المبلغ .

ولكن زكى باشا مضى فى عمله ، فنقل بضعة عشر ألفا من

الكتب بالتصوير الشمسى ومضى يحقق هذه الكتب ويراجعها ويقدمها للطبع ، بعد التنقيح والاعداد ، مضافا اليها تعليقات وشروح .

وبلغ من اهتمامه أنه سافر الى فلسطين ، ومعه مسودة (مسالك الأبصار لابن فضل الله) فكان يقرؤها على بعض علماء القدس الأثريين ، ويقارن بين ما ورد فيها من وصف آثار القدس وما هو موجود اليوم .

كما أنه أثار فى مؤتمر المستشرقين فى آثينا سنة ١٩١٩ مسألة هامة فى تحقيق التراث ، وهى أمانة النقل عن الأسلاف ، وهل يجوز لطابع كتبهم القديمة أن يتصرف فى نقله بالحذف والاصلاح والتهذيب أو يبقى الأصل كما ورد ، واستقر الرأى على ضرورة بقاء كتب التراث على حالها الأصلى .

وكان زكى باشا قد طبع كتاب (نكت الهميان فى نكت العميان) فأثار ذلك ضجة لما ورد فيه من عبارات اعتبرت مكشوفة لا تلائم آداب العصر ، كما كاشف العلماء فى احدى هذه المؤتمرات بكتاب (الأصنام) لأبى المنذر هشام بن محمد ، وأطلعهم على كتاب مفقود ولا توجد منه الا هذه النسخة .

ومضى زكى باشا فى كل مكان يبحث فوجد فى دمشق كتاب « مثالب العرب » لابن أبى المنذر ، وفى اليمن أحرز كتاب الاكليل للهمذانى .

وقد أثارت مختلف المخطوطات التى أحياها زكى باشا وطبعها اهتمام الباحثين ، فقد قدم لهذه المؤلفات بدراسة عن المؤلف

وسيرته وتآليفه ، وعن الأعلام الذين وردت أسماؤهم فى الكتاب ، وعلق على الكتب تعليقات تاريخية وشروح لغوية .

وكان فى مقدمة هذه الكتب : الأدب الصغير لابن المقفع سنة ١٩١١ م وكان قد نشره نقلا عن مخطوط ظفر به فى احدى مكاتب الآستانة ، كما نشر كتاب الأصنام لأبى المنذر هشام بن محمد بن سائب بن بشر الكلبى ، وكان لبعث هذا الكتاب أهمية كبرى ، وقد ضمنه فهارس وجداول وأتبعه بأسماء الأصنام التى لم يذكرها ابن الكلبى .

ومن هذه المخطوطات التى أثارت مناقشات متعددة ، كتاب التاج فى أخلاق الملوك ، الذى نشره عام ١٩١٤ ونسبه الى الجاحظ ، وخدمه من حيث التعليق على متنه ، وتحقيق رواياته ، واثبات أجدرها بالاعتماد ، وتفسير مبهماته ، مع مقدمة باللغة الفرنسية ذكر فيها فضائل الجاحظ وقال انه فى الأدب العربى كفولتير ورينان فى الأدب الفرنسى .

مخطوطات نقلها بالتصوير الفوتغرافي
كنواة لمشروع إحياء الآداب العربية

* **موسوعات** : نهاية الأرب في فنون العرب (لشهاب الدين النويرى) طبع منه ٦ أجزاء .
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (لأبى فضل الله العمرى) ج ١ .
جوامع العلوم لعريفين تلميذ أبى زيد أحمد بن سهيل البلخى .
* **ادب وبلاغة** : الفاخر : للمفضل الضبى .
ديوان الحماسة الصغرى : المعروف بالوحشيات (لأبى تمام) .
سر الفصاحة : لأبى سنان الخفاجى .
التسهيل بالتمثيل وهو المعروف بتسهيل السبيل الى تسليم الترسيل ، للحميدى .
رسائل وخطب وأشعار السلطان الناصر يوسف صلاح الدين الأيوبى .
مجموعة ترسل القاضى الفاضل عبد الرحمن البيسانى ، معروفة بالدر النظيم فى ترسل عبد الرحيم .

* **حديث** : فنون العجائب (فى الحديث) .
اكرام الضيف .

* **آداب الملوك** : كتاب التاج للجاحظ (طبعه بتحقيقات وصور).
مجلس الملوك للجاحظ .
رسائل الملوك ومن يصلح للسفارة لأبى على الحسن المعروف بابن الفراء .
تنبيه الملوك وسياستهم فى تدبير الأمم والممالك.

* **التاريخ** : المغتالون من الأشراف فى الجاهلية والاسلام لمحمد بن حبيب البصرى .
ذيل تجارب الأمم وتعاقب الهمم فى وقائع العرب والعجم لابن مسكويه ، تأليف أبى شجاع ، أحد وزراء الدولة العباسية .
درر التيجان ، وغرر تواريخ الزمان ، لأبى بكر ابن عبد الله بن أيبك الداودارى المصرى .
كنز الدرر وجامع الغرر (له أيضا) .

* **التراجم** : أنباء الرواة على أنباء النحاة للقاضى الأكرم الوزير القفطى المصرى .
نزهة الألباب فى الألقاب (لابن حجر العسقلانى).
التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر (لابن عريشاه المصرى) .
هدية العبد القاصر ، الى الملك الناصر أبى

السعادات محمد بن السلطان الملك الأشرف ، لعبد الصمد الصالحى .

سبك النضار وكسب المفاخر ونثر الدرر ونظم الجواهر فى سيرة المعز الأشرف السيقى اقباى الأسد الظافر ، لعبد الله بن محمد بن عبد الله الزكى .

* **النسب** : شجرة النسب النبوى الشريف (تأليف السلطان الملك الأشرف أبى النضر قانصوه الغورى المعروفة بسلسلة الأنساب .

* **الجغرافيا** : صور الأقاليم الاسلامية : (لأبى زيد أحمد بن سهل البلخى) بالخرط .

صورة الأرض وصفة أشكالها ، ومقدارها فى الطول والعرض وأقاليم البلدان ، ومحل العامر منها ، والعمران فى جميع بلاد الاسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما تفرد بالأعمال المجموعة اليها هيئة أشكال الأرض مع صورها بالطول والعرض .

نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق : المعروف بكتاب رجار للشريف الادريسى بالخرط .

رحلة الأمير يشبك الظاهرى وهو أحد جنود رحلة للجنود المصرية وفتوحاتهم .

كمال الغرض فى دفع السموم وحفظ الصحة

للقوصونى الطبيب فى عصر السلطان قانصوه .

* **علم طبيعة** : سرور النفس بمدارك الحواس الخمس (لابن المكرم صاحب لسان العرب ابن منظور المصرى.
الباهر فى علم الجواهر .
الجامع بين العلم والعمل النافع فى صناعة الحيل.
الدر المطابق فى علم السوابق فى طب الخيل .
طب الطيور : مستخرج من خزانة الرشيد .

* **المعادن** : الجماهر فى الجواهر لأبى الريحانى البيرونى .
أزهار الأفكار فى جواهر الأحمار للتبفاشى شبح أبى المكرم بن منظور المصرى صاحب لسان العرب .

* **علم الفلك** : التفهيم لصناعة التنجيم لأبى الريحان البيرونى.
علم الساعات والعمل بها لرضوان بن محمد الخراسانى .
كتاب العود والملاهى : (للمفضل الضبى) .
كشف الغموم والكروب بشرح اله الطرب (بالصور) .

* **علم الحرب** : الغزو والمنافع للمجاهدين بآلات البارود والمدافع (لابن غانم الأندلسى) (بالأشكال) .
الأنيق فى المناجيق (بالصور والأشكال) .
التذكرة الهروية فى الحيل الحربية للسائح الهروى .

* **ديانات قديمة :** فلسفة الوثنيين ، وهى قطعـة بقيت من كتاب تمسطس .
كتاب الأصنام لابن الكلبى (حققه أحمد زكى).
* **فنون متنوعة :** لطائف المعارف للنيسابورى .
عين السمع مختصر طرد السبع للصلاح الصفدى.
الالمام بآداب دخول الحمام للقوصونى المصرى.
الكوكب الدرى فى أجوبة السلطان الغورى .
نفائس المجالس السلطانية فى حقائق الأسرار ، لجمعية من العلماء فى عصر السلطان الغورى وهو من جملتهم .
الترقيق فى العطر : للفيلسوف الكندى .
كتاب الأطعمة المستعملة فى عهد سلاطين المماليك لمؤلف عيّن نسبه الى أحد ملوك مصر ، ولم يذكر اسمه .
الوصلة الى الحبيب فى وصف الطيبات والطيب (لم يذكر مؤلفه) .

(٥٥) كتابا

٤ ـ اختصار حروف الطباعة والترقيم

أولى أحمد زكى اهتمامه لجوانب دقيقة ذات أهمية كبرى، فى مجال تحسين المطبعة العربية ، وادخال انماط جديدة من الحروف والعلامات عليها ، وكان له فى ذلك جهد ضخم تمثل فى عمل تاريخى ما زال باقيا الى اليوم . فحروف المطبعة العربية التى كانت ٩٠٥ شكلا استطاع أحمد زكى أن يختصرها الى ١٣٢ شكلا شاملة قواعدها فى الرقعة والثلث ، وذلك على بعض الروايات .

وكان ذلك من المشروعات التى أثارها وأشرك معه فيها حمزة فتح الله ، وأمين سامى بعد أن تبين أن مطبعة بولاق الأميرية ظلت محتفظة حتى أوائل هذا القرن بأشكالها الأولى ، عندما أنشئت فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر .

وقد سافر أحمد زكى (السكرتير الثانى لمجلس النظار اذ ذاك) الى أوربا مع شيلو بك مدير المطبعة الأميرية ، حيث طافا مطابع ومسابك استانبول وفيينا وليبزج وبرلين ولندن وأكسفورد وباريس للنظر فى الوسيلة العملية لاختصار صندوق الطباعة ، وتسهيل جمع الحروف ، وقد قام أحمد زكى بعمل تجارب واختبارات يومية فى مطبعة بولاق استمرت ثلاثة شهور كاملة ، وجاءت نتيجتها كما عبر عنها المقتطف (أبريل ١٩٠٣) ناطقة بأفصح بيان على أن الطريقة التى اختارها — أحمد زكى — تكفى من كل وجه لجمع أى عبارة عربية أو تركية أو فارسية مهما كانت صعوباتها الخطية والمطبعية وقد نشر أحمد زكى مذكرة

ضافية فى هذا الصدد ذكر فيها أنه أمكن الاقتصار على ١٣٢ حرفا و ٤٦ علامة بدلا من الحروف التسعمائة التى تستعمل فى مطبعة بولاق . وأشار الى أن اعتماد الطريقة الجديدة فى مطبعة بولاق سيعود بفوائد كبيرة أقلها حصول وفر فى المصنعية لا يقل عن ٢٥ فى المائة .

علامات الترقيم

وكانت لأحمد زكى جولة أخرى فى هذه الميادين البكر ، هى ادخال علامات الترقيم على الكتابة العربية وفق النسق المستعمل فى كتابة اللغات الأوربية ، وكان القارىء قبل استعمال هـذه العلامات — على حد تعبير الدكتور أحمد عيسى — يعتمد دائما فى حركات القراءة والوقوف على الذهن والقريحة ، وليس أمامه اشارات أو علامات ترشده الى ذلك ، وقد يترتب على ذلك أن يعيد القارىء بعض الجمل حتى تستقيم القراءة .

ومن أجل هذا فكر أحمد زكى فى ادخال هذه العلامات ، وقد فصل ذلك فى رسالة أصدرها عام ١٩١٢ جاء فيها :

« دلت المشاهدة وعززها الاختبار على أن السامع والقارىء يكونان على الدوام فى أشد الاحتياج الى نبرات خاصة فى الصوت أو رموز مرقومة فى الكتابة يحصل بها تسهيل الفهم والادراك .

ولقد شعرت الأمم التى سبقت فى ميادين الحضارة بهـذه الحاجة الماسة فتواضع علماؤها على علامات مخصوصة لفصل الجمل وتقسيمها حتى يستعين القارىء بها عند النظر اليها على تنويع الصوت بما يناسب كل مقام من مقامات الفصل والوصل أو الابتداء الى ما هنالك من المواضع الأخرى التى يجب فيها تمييز القول بما يناسبه من تعجب واستفهام .

وأول من اهتدى الى ذلك رجل من علماء النحو من روم القسطنطينية اسمه (ارسطوفان) من أهل القرن الثانى قبـل

الميلاد . ثم توفرت أمم الافرنج من بعـــده على تحسين هـــذا الاصطلاح واتقانه الى الغاية التى وصلوا اليها فى عهدنا الحاضر » .

❋ وأشار الى أن اللسان العربى لا يزال مضطرا رغم أنفه الى التعثر والتسكع على الدوام والى مراجعة نفسه بنفســه ، ومهما بلغ درجة من العلم لا يتسنى له فى أكثر الأحيان أن يتعرف مواقع فصل الجمل وتقسيم العبارات أو الوقوف على المواضع التى يحسن السكوت عندها .

ورأى أن الوقت قد حان لادخال هذا النظام فى كتابتنا الحالية مطبوعة أو مخطوطة تسهيلا لتناول العلوم .

❋ وأشار الى فضل « أحمد حشمت » (وزير المعارف اذ ذاك) فى تدارك النقص الحاصل فى تلاوة الكتابة العربية ونسب اليه الفضل فى طلب استنباط طريقة لوضع العلامات التى تساعد على فهم الكلام بفصل أجزائه بعضها عن بعض .

فبدأ زكى باشا بمراجعة الكتب العربية التى وضعها النابغون من السلف الصالح فى الوقف والامتداد ورجع الى ما تواضع عليه الافرنج فى هذا المعنى ، وما كتبه العلامة (ده ساسى) فوجد أن الطريقة العربية القديمة التى أشار اليها السرنجاوى والشاطبى لا تختلف عن الطريقة الغربية الا فى جزئيات طفيفة .

واصطلح على تسمية هذا العمل بالترقيم لأن هذه المادة تدل على العلامات والاشارات والنقوش التى توضع فى الكتابة وفى تطريز المنسوجات .

وعلامات الترقيم هى :

الشـولة	،
الشولة المنقوطة	؛
النقطـة	.
علامة الاستفهام	؟
علامة الانفعال	!
النقطتـان	:
نقط الحذف والاضمار	...
الشرطة	—
التضبيب	« ... »
القوسـان	( )

وقال أن (، ؛ . : ؟ !) لا توضع فى أول الكلام .
وأضاف اصطلاحات فى كيفية رسم بعض الحروف ووضع الحركات واختزال بعض الكلمات والجمل الدعائية الشائعة التى يحذف فيها حرف الألف :

الـه	—	الاه
أولئـك	—	أولائك
بسم الله الرحمن الرحيم	—	باسم اللاه الرحمن الرحيم
السموات	—	السماوات
هـذا	—	هـاذا
هـؤلاء	—	هاؤلاء

لـكن	—	لاكن
اللهــم	—	اللاهــم

كما أورد صورة الاختزال فى الكلمات الكثيرة الشيوع :

الــخ	—	الى آخره
انــا	—	أنبــأنا
آه	—	انتهى
ثنــا	—	حدثنــا
رحــه	—	رحمه الله
رضـــه	—	رضى الله عنه
نــا	—	أخبرنا

طريقة الاختزال

وكان من همه أيضا ادخال طريقة الاختزال فى الكتابة العربية للمساعدة فى نقل الخطب وغيرها بالسرعة والدقة لصيانة الأقوال عن الضياع ، ووضع لذلك جائزة قدرها خمسون جنيها لمن ينبغ من المصريين فى هذا الفن .

ولكنه لم يوفق للعثور على من يحسن الاختزال .

٥ ـ إصلاح لغـــة الدواوين

عمل أحمد زكي فى مجلس النظار منذ أن عين مترجما بها عام ١٨٩٢ الى أن أحيل الى المعاش عام ١٩٢٢ ، أى أنه أمضى ثلاثين عاما كاملة فى مجال الرسائل الديوانية ، وقد كان له خلال هذه الفترة أكبر الأثر فى مجالى الترجمة وتهذيب لغة الدواوين وتخليصها من العبارات التركية والاصطلاحات القديمة ، وقد كان عمله هذا بمثابة انقلاب فى اللغة الحكومية ، فقد أدخـــل عشرات من الألفاظ العربية السهلة فى مكان الألفاظ التركية ، أو الألفاظ الأجنبية .

وكان اليه المرجع فى هذه الفترة فى كل ما يتعلق بالرسائل والخطابات الديوانية التى ترد من مختلف الوزارات والمصالح ومشاريع الميزانيات ، ولذلك استطاع أن يؤدى عملا ايجابيا فى مجلس النظار خلال هذه الفترة باشرافه وتصحيحه وكان لا ينى يوجه الكتاب فى النظارات المختلفة الى الانتفاع بأسلوبه ومنهجه فى كتابة رسائلهم .

وقد كون مدرسة فى مختلف النظارات تنهج نهجه فى تنحية اللفظ التركى والعامى والأجنبى ، واحلال اللفظ العربى محله ، وكان الى ذلك يسخر من اللغة العربية المعقدة ، ويتناول طريقة الشيخ حمزة فتح الله وغيره بمزيد من التهكم والنقد .

وكان دائما من المؤمنين بتطوير العبارة العربية ، والبعد عن ما أسماه « قعر القاموس » . وقد حمل حملات نارية على

الكتاب الذين كانوا يسرفون فى استعمال الألفاظ المغربة ، وكان عمله فى تنقيح التراكيب الديوانية جزءا من عمله الكبير فى تصحيح الأعلام العربية وأسماء المدن والبلاد .

وقد اقترح أحمد زكى نصوصا عربية لكثير من الكلمات الأجنبية ومن أهمها كلمة السيارة بدلا من (الأوتوموبيل) وكلمة صحافة لتعريب كلمة (Parsse) دلالة على مجموع الجرائد ، من باب الجنس ، و (صحافى) للقائم بخدمة الجرائد ، ودراجة : للعجلة (البسكليت)[1] .

وكان قد دعا الى اختيار لفظ (السيارة) عام ١٩٠١ لاستعماله بدلا من كلمة (الأوتوموبيل) التى معناها (المتحركة بنفسها) أو (الجارية من نفسها) وقال ان كلمة السيارة قد تجمعت فيها كل المعانى التى يشملها اللفظ الأفرنكى وكافة الدلالات المقصودة[2] .

وقد ذكر زكى باشا فى بعض كتاباته من بعد أنه استطاع أن يفرض كلمة (السيارة) وذلك بادخالها فى نصوص قوانين النقل، وأن يلزم الناس بها بقوة السلطان .

وقد جعل دعوته دائما الغيرة على اللغة العربية ، ووضع الألفاظ العربية بدلا من الكلمات الدخيلة ودعوة الكتاب « للتكاتف لرفع شأن اللغة العربية والسير بها فى طريق التقدم العصرى ، لتكون وافية بحاجاتنا فى التفاهم والبيان » .

---

(١) المقتطف ــ أغسطس ١٩٠١ .
(٢) نفس المصدر .

وجملة ما يقال أنه كان له أثر بعيد فى تهذيب لغة الدواوين وتخليصها من العبارات الركيكة والاصطلاحات القديمة والمسميات الأعجمية وان له الفضل فى الارتقاء بها الى مستوى ممتاز .

وكان لزكى باشا دور هام فى أعمال الوثائق السياسية بحكم عمله سكرتيرا عاما لمجلس النظار ، وقد أشار الدكتور أحمد عيسى الى هذا الدور فقال : انه حين أعلنت الحرب الكبرى عام ١٩١٤ كان أحمد زكى الساعد الأيمن للحكومة فيما تحتاج من وثائق سياسية وأبحاث تاريخية لها اتصال بنظام الحكم ، وترتيب الدواوين ، والرتب والألقاب الديوانية العويصة ، التى لا يمكن أن يقوم بأعبائها الا أحمد زكى ، لفهمه وتدقيقه فى المسائل التاريخية الخاصة بالحكومات الاسلامية(١) .

وقد وصفه مصطفى عبد الرازق بأنه « كاد يعيد لمصر ديوان الانشاء فى عهد الأيوبيين برونقه وجلاله » .

---

(١) نفس المصدر .

٦ ـ عمله فى الجامعة

اشترك أحمد زكى فى مشروع انشاء الجامعة المصرية (القديمة) وأتيح له بحكم عمله سكرتيرا عاما لمجلس النظار ، ولكفايته العلمية أن يلى منصب السكرتير العام للجامعة وأستاذ تاريخ الحضارة الاسلامية فيها . غير أن عمله هذا لم يستمر أكثر من عام واحد .

وقد بدأ عمله فى الجامعة برحلة الى الشام (فلسطين وسوريا) على طريقة العلماء فى التحقيق العلمى ، بالسفر الى حيث الأماكن التاريخية التى تتناولها الدراسة .

وقد ألقى محاضرات على طلبة الجامعة فى العام الأول عن أحوال الأمة العربية قبل الاسلام .

وقد صور الدكتور طه حسين هذه المرحلة من حياة أحمد زكى فقال :

« عرفت زكى باشا منذ نيف وعشرين سنة ، حين افتتحت الجامعة المصرية القديمة سمعت له محاضرته الأولى وأعجبت به حين بدأ المحاضرة قائلا : أحييكم بتحية الاسلام فأقول : السلام عليكم ورحمة الله .

وقد أعجبتنى جدة ما كنت أسمع بالقياس الىّ أنا الأزهرى الذى لم يكن يعرف فى ذلك الوقت الا النحو والصرف والمنطق والتوحيد والفقه والأصول .

ثم يريد الله أن ألقى هذا الرجل بعد افتتاح الجامعة بأيام

فأنصرف عنه مبغضا له أشد البغض ، محنقا عليه أشد الحنق ، ويشير طه حسين الى غلامه الأسود الذى كان يدخل معه قاعة الدرس ، ومنع زكى باشا له ، فلما حدثه فى ذلك قال له :

وماذا تريد من استماع العلم اذا كان الله لم يرد لك أن تسمعه وحدك .

يقول طه حسين : هنالك هززت له كتفى ، وخرجت من غرفته » ، ثم يصور دروس أحمد زكى فى الجامعة فيقول :

« كنت منذ ذلك اليوم أسمع لدروس هذا الرجل راضيا عنها وكارها لصاحبها حتى وقع ذات مساء الى الحديث عن الفتح الاسلامى ، وأن الغرض منه انما كان الاستعمار ، فهممت أن أجادله فى ذلك كما كنا نجادل شيوخنا فى الأزهر . ولكنه ردنى ردا عنيفا ، ونبهنى الى أن الحوار ان كان مباحا فى حلقات الأزهر فهو محظور فى غرفات الجامعة ، فانصرفت الى دارى واجدا عليه أشد الوجد ، ولم أكد أبلغها حتى كتبت له كتابا شديد اللهجة قاسى العبارة ، ثم أرسلت الكتاب من الليل ، ونمت بعد ذلك مستريحا .. » .

وقد أشار الدكتور زكى مبارك — وكان من تلاميذه فى الجامعة المصرية القديمة — الى أنه كان الخطيب الثالث فى حفل افتتاح الجامعة بمحكمة الاستئناف فى ديسمبر ١٩٠٨ ، وقد سبقه فؤاد وثروت .

وأنه أول من اشتغل بالتدريس من بين الأعضاء المؤسسين وقال مبارك انه بدأ محاضراته على هذا النحو :

« جل ما يصيبكم مما أحمله اليكم من العلم بهذه المحاضرات هو ضوء مصباح يضيء لكم مواضع أقدامكم فتبصرون الطريق التى تسلكونها للوصول الى الغـاية المطلوبة ، وما المعلمون الا مرشـدون وهادون ، فعليكم بالبحث والتنقيب والدرس ومساءلة أهل الذكر فان النبوغ فى الفنون لا يكون الا بهذا ، فالمدارس مهما علا شأنها ونمت منزلتها لا يمكنها أن تعلم الناس النبوغ فى الفنون ، وانما منتهى ما تصل اليه الجامعات التى هى أرقى مدارس الهيئة الاجتماعية انما هو هداية الطلاب الى طريق النبوغ » .

وقال مبارك « انه أشار فى محاضرة أخرى الى ضرورة الرجوع الى الصواب اذا ظهر — على حد تعبيره — والذى يفضل به بعض الناس بعضا انما هو قلة الخطأ ، والرجوع الى الصواب متى وضحت محجته ، وأضيئت منارته ، والانسان لا يعلم أنه مخطىء حين يخطىء ، ولابد أن ينبه بعض الناس بعضا الى الخطأ » .

وأشار زكى باشا الى أنه زار الشام قبل أن يحدث الطلبة عن حضارة الأمويين وقال تعليقـا على ذلك « أردت وانى أحـد أساتذة الجامعة المصرية أن أحيى أكبر سنة من سنن سلفنا الصالح وهى الرحلة فى طلب العلم لاقتناص فوائده وجمع شوارده بالبحث والمشاهدة ومشافهة أهل الذكر ، فاغتنمت الفرصة لأضم الى علمى الكتابى الضئيل علما حسيا أشاهده بعينى وأسمعه بأذنى .. » .

ولم يطل عمل أحمد زكى فى الجامعة ، فقد كان للسياسة دورها ، وكان خلافه مع الحزب الوطنى باعتباره أحد رجـال

الخديو فى تلك الفترة كان من عوامل أبعـاده عنها ، ذلك أن أحمد زكى كان قد ألقى كلمة فى المبعوثين المسافرين الى الخارج وطلب اليهم — كما طلب الى أبناء الجامعة — الالتفات الى الدرس وتجنب العمل السياسى كما هاجم الأحزاب السياسية ، مما أغرى به صحف الحزب الوطنى فحملت عليه حملة شعواء اضطرته الى تقديم استقالته من الجامعة ... (١) .

---

(١) الصحف عام ١٩٠٨ وكتاب الشوقيات المجهولة للدكتـور محمد صبرى ص ٢٩٨ جـ ٢

٧ — الرحلة من أجل البحث

لا ريب أن « الرحلة » من أجـل البحث العلمى من أبرز جوانب حياة أحمد زكى ، وقد امتدت خلال حياته كلها منــذ مطالعها حتى آخر رحلاته الى فلسطين قبل وفاته بسنوات قليلة ، وقد أمكن حصر بعض هذه الرحلات ، وان كنا نعتقد أنها ليست كل رحلاته :

١٨٩٢	رحــلة لنــدرة وباريس والأندلس (مؤتمر المستشرقين فى لندره) .
١٨٩٤	رحلة جنيف (مؤتمر المستشرقين) .
١٨٩٩	رحلة باريس .
١٩٠٠	رحلة باريس .
١٩٠٢	رحلة همبورج (ألمانيا) مؤتمر المستشرقين .
١٩٠٤	رحلة الآستانة وباريس .
١٩٠٨	رحلة الشام (لدراسات الجامعة) .
١٩٠٩	رحلة استانبول (تركيا) .
١٩١٢	رحلة أثينا (اليونان) مؤتمـر المستشرقين ومؤتمر العميان .
١٩٢٢	زيارة القدس .
١٩٢٣	الشام وبيت المقدس .
١٩٢٤و١٩٢٥	رحلة الشام .
١٩٢٦	رحلة اليمن ، رحلة باريس .

١٩٢٧ رحلة قبرص .
١٩٣١ رحلة المسجد الأقصى (فلسطين) .

والمعروف أنه سافر الى استانبول مرات عدة ، وأن هدف هذه الرحلات يتمثل فى أعمال ثلاثة :

* حضور مؤتمرات المستشرقين .
* البحث عن المخطوطات والآثار العربية .
* السفارة من أجل قضايا الأمة العربية .

ولا شك كان لهذه الرحلات آثار بعيدة المـدى فى تفكير أحمد زكى وحياته وآرائه ودراساته ، فقد أتيح له خلالها أن يزور عشرات من المكتبات وينقل مئات من المخطوطات ويطلع على عديد من المؤلفات ، ويقابل أعلام الفكر فى الشرق والغرب ، ويتحدث اليهم ويتبادل معهم المعلومات والآراء فى عشرات من المسائل والقضايا فى مجـال تاريخ الأمة العربيـة وجغرافيتها والحضارة العربية والاسلامية واللغة العربية وأسماء الأعـلام والأماكن .

وقد ظل زكى باشا يتناول أدق المسائل خلال حياته الطويلة ، فيواجهها مواجهة الفاحص العارف ، الذى رأى وشاهد وعرف ، فاذا تناولت احدى الصحف اسم احدى مدن الأندلس محرفا رفع صوته بالاسم الصحيح ، واذا ذكر مكان من الأمكنة أو قطر من الأقطار أو نهر من الأنهار مغلوطا ، قدم زكى باشا البيان الصحيح عن شىء يعرفه تمـام المعرفة ، واذا سرق الفرنسيون

محرابا من أحد المساجد أورد بيانات مسهبة عن صفته وتاريخه ، وذكر كل ما يتصل به .

وقد اجتمعت له من هذه الرحـلات حصيلة ضـخمة من المشاهدات للمساجد والمتاحف والقصور والكنائس ، وأتيح له أن يصعد فوق قبة المسجد الأقصى ، وقمة الهـرم الأكبر ، ومسجد أيا صوفيا بالقسطنطينية ، ولأعلى كنائس بطرس برومة ، وبولس بلندرة ، وسيدة العمود بسرقسطة .

واحتمل زكى باشا فى هذه الرحلات جهدا وتعبا ، وأنفق مالا كثيرا ، وصادفته عشرات من العقبات والأزمات .

يقول عن رحلته ١٨٩٢ (لاقيت فيها حر أوروبا وحمارته كأشد ما يكون ، وقاسيت بردها ، وصبارته فوق ما يقدر عليه شرقى مثلى تغرب فى أوربا لأول مرة) .

وفى هذه الرحلة زار خمسا من عواصم أوربا ، وهى رومة وباريس ولوندرة ومدريد ولشبونه ، وزار أكثر من أربعين مدينة زيارة تدقيق وتحقيق ، وتعلم لغة أهل الأندلس حتى توصل الى الكتابة والخطابة بها « على قدر امكان » .

وزار مناجم الفحم فى أوربا وبلاد الأندلس ، كما زار ثلاث مدائن مخصصة لطلبة العلم ، وهى أكسفورد فى انجلترا ، وقلمرية فى البرتغال ، وشلمنقه فى أسبانيا وحضر عيد الميلاد فى مدريد ، ورأس السنة فى لشبونة ، وأكل الفول المدمس ، وحضر جلسات مجلس النواب والشيوخ فى فرنسا ، وشاهد قتال الثـوار فى

أسبانيا ، واعتصاب الخبازين فى مرسيليا . والاحتفال بالكرنفال (المرافع) فى نيقه ، رورميه ، وغير ذلك .

وقد تحدث زكى باشا عن طرائف رحلاته ، من ذلك ما حدث له من غفلة عن فروق العملة : يقول لما جئت بلاد البرتغال ونزلت فى لشبونة ، اكتريت عربة أوصلتنى الى الفندق ، ولما نزلت منها سألت ترجمان الفندق عن الأجرة فقال لى ٦٠٠ ريال ، فقلت فى نفسى هذه الطامة الكبرى ، وكيف أتظاهر الآن بتعارف الجاهل وليس معى ورقة تساوى هذه الثروة الجسيمة ، ومع ذلك تجلدت وصبرت على مضض الأيام ، واتقيت الله لعله يسهل لى سبيل الخلاص من هذه الورطة ، فقلت له بصوت مبحوح : وهو كذلك خذ النقود من صاحب الفندق وصعدت الى غرفتى أضرب أخماسا بأسداس .

ولما أصبح الصباح كان أول شىء طلبته هو الحساب ، فجاءنى بعشرات الآلاف ، فقلت وأنا خائف واجم ، وكم يساوى هذا كله من الفرنكات ؟ فقيل ان الفرنك مائتا ريال فكدت أخر لله ساجدا وصرفت الغلام لأتضرع الى الله بالشكر منفردا » .

وقص من طرائف رحلاته أكلة الفول المدمس فى أسبانيا عندما رأى بعض النساء يحملن شيئا شبيها بطست نحاس (مفرطع)[1]، جدرانه مرتفعة قليلا ، ففرجتنى على ما فى الطست واذا به الفول المدمس ، ففرحت به كثيرا ، ووطنت نفسى على أكلة مصرية فى بلاد أوربا » .

---

(١) هكذا كتبها . وهى مفرطح .

فلما رجع الى الفندق أوصى صاحبه بأن يحضر له مقدارا منه، يقول « وأردت أن تكون الأكلة مصرية محضة ، وعلى الأسلوب المتبع عند عموم المصريين ، فلبثت فى غرفة النوم وأقفلتها بعد أن استحضرت البصل .. » .

أما قصته مع أكلة الضفادع فى باريس فيرويها بأسلوبه على نحو مثير : يقول :

« ... فوسوس الى ابليس بالتجربة . وانضمت اليه النفس الخبيثة (وهى أمارة بالسوء) ولكن طبعى بقى مصرا على العناد والنفور . فاشتبكت المحاورة والمناظرة بين الطرفين ، وأنت تعلم أن « ضعيفين يغلبان قويا » فما بالك اذا كانا من القوة والبأس ، بمكان ابليس والنفس . وكان خصمهما من الضعف بدرجة الطبع، وكان غلابا فهاهو أصبح مغلوبا .

والخلاصة أننى طلبت الخادم وأمرته باحضار هذا الطعام ، نعم نعم . طلبت هذا اللون ، وأعنى به أبا هبيرة ، أو العلجوم ، فأحضر لى طبقا فى وسطه شىء مشتبك مرتبك ، يشبه العقرب ، سوى أنه أبيض عظام دقيقة صغيرة ، تكسو أطرافها لحوم خفيفة مستديرة ، وكلها على شكل مختلط مختبط يزيد فى الكراهة والنفور .

فاصطكت أسنانى ، وانطبقت أجفانى ، وحولت وجهى برعدة فى رأسى ، فجاء أبو مره وقال لى : جرب هذه المرة فى الترك أو معاود الكرة » .

وتآمرت معه نفسى ، فجاءت من الجهة الأخرى تدفعنى ،

وتصيح فى أذنى ، قد وجب عليك الثمن ، فما بالك لا تمتحن وأنت تعلم أنه عند الامتحان يكرم المرء أو يهان وما زالا ينقان على هذا المنوال حتى أعدت صفحة وجهى بالتدريج الى تلك الصفحة ثم أغمضت عينى ، ومددت يدى وأخذت قطعة منها وأنا أفكر فى الألوان الشهية التى أسمع عنها ، ثم رميت بالقطعة من الضفدعة فى فمى ، وصرت آكل قليلا قليلا وأنا أفكر فى أصناف لذيذة ، قرأت أسماءها فى الكتب .

وصرت آكل من الضفدعة بصفتها ضفدعة حتى أتيت على كل ما فى الطبق والحمد لله أولا وآخرا » .

ثم أخذ يعلل أكل الضفادع متسائلا عن المانع الشرعى والعقلى ؟ ويعرض لحالات مشابهة ، البدوى يتلذذ بالتهام الجراد ، الرفاعية بالثعابين ، الرشيدى يتفكه بأكل أم الخلول ، الاسكندرى يهيم غراما ببراغيث البحر (الجمبرى) ، ساكنوا السويس لهم تجارة كبيرة بالسرطان (أبو جلمبو) الفلاح فى الصعيد يصطاد (فأر الغيط) ... » ا . هـ

وقد صور زكى باشا مشاعره ساعات الانفصال عن الوطن ، فوصفها بأنها بعيدة عن اللوعة ، وأنه من ذلك النوع الذى يحب السفر ويهواه ، وقد خصص بعض أسفاره — على حد تعبيره — لذاته ونفسه ، ولمتعته ومسراته . غير أنه ربما انقبض من السفر يوم الجمعة أو يوم ١٣ من الشهر .

يقول فى مقدمة كتابه « الدنيا فى باريس : أو أيامى الثالثة فى أوربا عن رحلته سنة ١٩٠٠ » قد أعلم من نفسى . ويشهد الله

أن هذا الاكتئاب لم يكن مصدره فراق الأوطان والأصحاب ، بل كنت بعيدا عن معاناة هذه اللوعة ، لأن هـذه المرة ليست أول غربة ، فقد بارحت مصر عام ١٨٩٢ ، وعام ١٨٩٤ ، وهذه هى الثالثة .

وقد طبع البارى هذا المخلوق الضعيف القوى على حب الأثرة والميل للأنانية ولذلك لم أتعد الناموس العام ، فخصصت سفرتى الثانية لنفسى وشخصى .

أما اليوم فقد قضى على واجب الجنسية والوطن أن أخـدم الناطقين بالضاد فى هذه الرحلة الثالثة ، وهكذا يكون العهـد بينى وبينهم ، عام لى ، وعام لهم ، فمرة أتعبهم وأتعب نفسى ، ومرة أروح بشرط أن أريح وأستريح » ..

وقد صور فى كتابه معرض باريس مفصلا جوانبه المختلفة ، ومشاعره تجاه باريس وعظمة الفن والحضارة .

وكان معرض باريس دائما ملتقى أعلام الشرق والغرب من ملوك وأمراء وكتاب ، ومن قبل سافر جمال الدين الأفغانى من الشرق ليشـاهد معـرض باريس ، ويلتقى بالملوك والعظمـاء الزائرين له .

وقد وصف أحمد زكى باريس فى رحلته الأولى والثالثـة بأنها (فردوس الفراديس) .

وقد ذكر أحمد شفيق فى كتابه (أعمالى بعـد مذكراتى) رحلات اشترك فيها مع أحمد زكى ، وكانا قديما من رجال الخديو عباس — منها رحلة باريس ١٨٨٩ ، وذكر كيف ذهبا معا لمشاهدة

ساره برنار فى رواية « غادة الكاميليا » ، وأشار الى رحلة سنة ١٩٠٠ حين سافرا معا ومعهم حسن عاصم باشا (وهو أيضا من رجال الخديو عباس) على باخرة خاصة الى أنفرس .

وقد كانت رحلات زكى باشا المتعددة الى أوربا والأستانة واستانبول تجمع بين البحث عن الكتب والمخطوطات العربية والارتياض ولقاء الأصدقاء والعلماء وحضور بعض المؤتمرات ..

وقد أثر عن كل البارزين فى هذه الفترة ضرورة الرحلة فى الصيف خارج مصر ، وقد عرف ذلك عن محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد ولطفى السيد وقاسم أمين وغيرهم ... وكانت رحلاتهم بين استانبول وسويسرا وباريس .

رحلات العالم العربي

أتيح لزكي باشا أن يطوف بالعالم العربى فى رحلات متعددة ، الى الشام (سوريا ولبنان وفلسطين) شمالا ، والى اليمن والحجاز جنوبا .

كان بعض هذه الرحلات من أجل البحث والاستقصاء العلمى ، والبحث عن المخطوطات وبعضها الآخر من أجل العمل السياسى الذى تفرغ له أحمد زكى بعد عام ١٩٢١ وتصدر ، وعوض به مجدا بمجد ، فقد كان سكرتيرا عاما لمجلس النظار ، فلما استقال (أشبه بالاقالة) عوض ذلك بأن أصبح شيخا للعروبة ، وزعيما من زعماء العالم العربى الذين يشركون فى كل قضاياه .

وفى الشام كانت زيارته عام ١٩٠٨ و ١٩٢٤ من أجل الدراسات التاريخية وقد طوف فى مختلف العواصم دمشق ، حمص ، حلب ، وكان كبير الاهتمام بزيارة مرج دابق ، التى انتهت عندها — على حد تعبيره — الامبراطورية المصرية ، والتى قتل فيها صديقه « السلطان الغورى » [1] عام ٩٢٢ و « نصيبين » حيث حقق الموقعة الكبرى بين ابراهيم باشا والجيش التركى عام ١٨٣٩ .

---

(١) لا يذكر احمد زكى (السلطان الغورى) الا بلفظة (صديقى) ومقصده انه نقل مكتبته سنوات طويلة الى قبة الغورى ، فالتمس من ذلك معنى الصداقة .

كما زار صيدا للبحث عن كتاب « نهاية الأرب فى فنون العرب » وقد صور سامى الكيالى رحلته الثانية الى سوريا ، وكيف يطوف بحلب « وكان وهو يسير فى ساحات حلب ويزور جوامعها ومدارسها وأثرياتها كأنما يتفقد عصبة من صحبه الذين عاشرهم على صفحات الكتب ، فكان يذكر المتنبى ، ويسأل عن سيف الدولة ، ويتحدث عن الفارابى وابن خالويه ، وأبى العلاء ، والبحترى ، وأبى فراس ..

« ولن أنسى قط ليلة سحر ، كانت أنغام الموسيقى تتراقص فى نفوسنا عذبة حلوة وأصوات المغنين تهز القلوب ، وتثير فى الأفئدة ذكريات وأحاسيس جميلة ، وكان مرحا شديد الطرب .

وأحب أن يسمع أنغاما بلدية بحتة ، فسمع منها ما أعجبه وأرقصه ، وطلب أن ينشدوه قصيدة أبى فراس الحمدانى (أراك عصى الدمع شيمتك الصبر) فلما لم يجد من المنشدين من استطاع أن يغنيها ، ثارت فى نفس (الباشا) ثورة عاصفة من الحنق ، وتساءل أيجوز أن تخلو عاصمة الحمدانيين ومدينة الموسيقى والغناء من منشد لهذه القصيدة العصماء .

وأسمعنيها كلها أو أكثرها ،وكان رحمه الله يرقص ويدور عند مقاطع القصيدة ويقول هذا أسمى ما ينبض به قلب حى من الشعر الوجدانى .. » [1] .

وقد زار قلعة حلب القديمة ، وتفرج على أسوارها ومخابئها ،

---

(١) مجلة الحديث م ١٩٣٥ .

واستعرض تاريخها القديم ، وكتب الى جنرال الموقع — باعتبار أن القلعة محتلة من الجيش الفرنسى — اذ ذاك — لافتا نظره الى ضرورة صيانة أثريات القلعة .

ولما حاول السفر الى (نصيبين) كان الأمن مضطربا ، والعصابات التركية تشن الغارة على الأطراف ، ولكنه صمم على السفر فى جرأة بالغة وقال : ماذا يعمل رجال الغزو معى ، ليس فى جيبى غير بضع جنيهات وساعة ذات سلسلة ذهبية وثيابى ، وفى سبيل غايتى مستعد أن أتنازل عن أكثر من هذا ، أما الآجال فعند الله .. » .

أما رحلة اليمن والحجاز فتدخل فى عمله السياسى . أما الجانب الفكرى منها فانه حصل على اجازة رواية كتاب « الكامل » لابن الأثير فى التاريخ مع سلسلة من تلقى الامام عنهم ذلك الكتاب الى المؤلف .

وقد جاء فى هذه الاجازة « انه لما قدم علينا الانسان الكامل ، والندب الحلاحل ، فارس الانتقاد ، والمجلى فى مضمار الاطلاع . والعرفان المستجاد ، علامة الأدب والتاريخ ، القاعد على منصة التشييخ ، أحمد زكى باشا المصرى الدار ، أتحفه الله بألطافه وتوفيقه ..

« وقد ألفيناه كبير النفس ، عالى الهمة ، كثير الصبوة بالبحث عن الحقائق التاريخية والآداب المهمة . ذا يد طولى فى الوقوف على الحقائق وحسن التنقيب ، التمس منا — عافاه الله — الاجازة فيما اتصلت لنا روايته من كتب التاريخ وأسفاره

الجليلة الحافلة بأخبار الصلاح والفلاح وعمارة الأرضين .. »[1].

وحصل فى اليمن على كتاب « الاكليل » للهمذانى ، وصوره فى دار الكتب ، كما طوف مدن اليمن ، وراجع تاريخها القديم ، كما استنسخ ما رأى نفسه فى حاجة اليه ، من كتب وجذاذات مفيدة فى أسماء بلاد اليمن وارجاعها الى أصولها القديمة .

وله رحلات الى فلسطين أولاها عام ١٩٢٢ وأهمها عام ١٩٣١ من أجل الدفاع عن البراق الشريف ، قدم فيها تقريرا شاملا دحض به ادعاءات اليهود الى اللجنة التى استقدمتها عصبة الأمم الى بيت المقدس لتتولى التحقيق .

ولنترك رحلته السياسية عام ١٩٣١ الى مكانها فى تاريخ المترجم له ، ولنذهب وراء عمله الفكرى ، حين قام برحلته الأولى ووصل الى أعلى نقطة فوق المسجد الأقصى فوق القبة التى شادها عبد الملك بن مروان على الصخرة ، الى حيث العمود الخارجى الذى يعلوه الهلال .

يقول « جاد لى الزمان بفرصة لم يهتبلها غيرى ، وساعفنى حظ قد لا تتوفر أسبابه لأحد من بعدى ، ذلك أننى كنت فى القدس سنة ١٩٢٢ عندما شرع المجلس الاسلامى الأعلى فى أعمال التجديد والترميم ، لمنع تداعيها المتوالى ، ولحفظها من السقوط النهائى ..

هناك حدثتنى نفسى بالصعود الى أعلى ذروة على هذه القبة

---

(١) مجلة الزهراء م ٣ ص ٣٣٤ .

وكنت قد بلغت من العمر السنة الثانية والخمسين بالحساب الشمسي ، وكاشفت بهذه الأمنية صديقى ، فتفضل الحاج أمين الحسيني فأرصد جماعة من العمال لمرافقتى . أردت أن أرقى رقيا ما رقته الأنبياء ، لأن هذه القبة لم تكن موجودة فى أيام الأنبياء .

أردت أن يكون لى على قدر قيمتى الضئيلة ، وبنسبة همتى الضعيفة ، معراج على متن الأقدام لأعلى صهوة البراق .

سبقت الفجر الصادق ، فتسللت الى أحساء الشدادات [1] ، وتدخلت فى تضاعيف الروابط ، واندسست فى تجاويف (البراطيم) المتشابكة ، والكمرات المتراكبة ثم انقلبت الى خارج القبة ، فازدلفت فى ممشاة ضيقة ، يحف بها درابزين ضئيل من قضبان الحديد الرفيع ، لا يراها الواقف فى ساحة الحرم ، مهما كان حديد البصر ، فكنت على قول شاعر العرب كريشة فى مهب الريح ، مثل دودة من دود على عود كما قال عمرو بن العاص ، لكننى كنت فى لجة من الهواء ، فى سماء الفضاء وفضاء السماء فلم أر — بسبب الارتفاع الشاهق — سوى خليط من أشباح ضئيلة تطيف بقبة الصخرة ، قبة المعراج ، وفيه السلسلة وما اليها ، كانت متضامنة [2] الى الأرض ، هى تلك القباب الأنيقة الرشيقة التى كلها كأعجاز نخل خاوية ، فى قرار الهاوية . وتمتعت بالمطاف حول القبة ، ولكننى لم أقنع بهذه الرتبة ، بل حدثتنى نفسى

---

(١) الشدادات — أى الأخشاب التى تنصب حول المبانى لترميمها .

(٢) هكذا كتبها ، والمعنى قريبة الى الأرض .

باستكمال الصعود الى نهاية الذروة حتى ألمس بيدى ذلك الهلال ، هلال القبة ، لا هلال السماء ، فقد كان دخل فى المحاق وابتلعته السماء » .

واستكمل زكى باشا رحلته حتى صعد الى القبة وأشرف بالفكر على الطور ، وعلى البحر المسحور ، « فكانت مكة على يمينى تناجينى بما يقوى يقينى ، وكانت بغداد أمامى ، ودمشق عن يسارى ، أما البحر فكان من ورائى ، ومن خلفه النيل ، وفى أقصى الأفق لمحت الفردوس الاسلامى المفقود ، وان فى الأندلس لعبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد .. » .

ولم تكن هذه أول مغامرة جريئة لزكى باشا فى رحلاته وأسفاره ، فقد كان شغوفا بصعود المناورات ، لم يغادر فى الاسكندرية ودمياط ورشيد والسويس منارا رفيعا الا صعد اليه ، ولا جبلا شامخا أو مسجدا سامقا أو معبدا شاهقا فى أرض أوربا أو آسيا الا دخله وزاره .

وقد أشار زكى باشا الى هذا فقال « قبل ذلك بأعوام وأعوام صعدت الى قمة أكبر الأهرام ، أيام كنت أرفل فى حلل الشباب ، أيام كنت طالبا فى المدرسة التجهيزية بدرب الجماميز بالقاهرة ، فى تلك السنة المشئومة على مصر ، سنة الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ السوداء ..

حقق أحمد زكى مكاسب كبيرة خلال رحلاته . مكاسب كبيرة فى مجال المخطوطات والآثار ، وفى رحلة اليمن استطاع أن يحصل على عديد من التحف النادرة والدرر الفريدة ، منها رأس

فسقية عجيبة تسمى بالشدروان ، على هيئة هلال المنارة ، يصعد الماء اليها على فروع كهيئة الشمعدان اذ يحركها الماء المتصاعد من فروعها فيدور بسرعة غريبة .

ومنها شيشة (مداعه) قديمة العهد ، وقنديلان موشيان بالذهب ، ومنها سيف متوسط الحجم يرجع الى ٥٥٠ سنة ، وسبعة أحجار حميرية مكتوب عليها باللغة الحميرية القديمة ، وقنديل تتوسطه ٤ شمعدانات ترجع الى ٤٠٠ سنة .

كما حصل على عدد من الكتب القديمة منها ، كتاب العبر والاعتبار للجاحظ وأجزاء من الاكليل فى محامد اليمن للهمذانى ، ومسند الامام ابن عبد الحق وجواهر الاكليل ، وتخريج المهذب .

وحصل كذلك على مجموعة من الدنانير القديمة منذ عهد سليمان القانونى .

وقد عثر هناك على عدد من الكتب النادرة ، وكان يرى أن نقلها يتطلب تصويرها وكانت معه « فوتغرافيا » تركها فى ميناء الحديدة اتقاء الريبة — على حد قوله — ولكنه وفق الى مصور مصرى فى صنعاء رسم له كثيرا من المواقع والخطوط ..

ومن هذه المواقع شباكان فى أحد المساجد قال له أهل صنعاء انهما نقلا من أنقاض (سد مأرب) .

ولم يستطع السفر الى (منطقة مأرب) نظرا لظروف الخلاف ، ولكنه حصل على حجر كان لدى الامام (يسند به الباب) من حجارة سد مأرب ، وابتاع حجرين آخرين كانا فى أحد المساجد ، واستطاع أن يجمع على الجملة سبعة حجارة عليها رسوم وآثار .

وقد نقل هذه الثروة الى مصر لتحقيق الحروف القديمة .

كما أهدى اليه الامام يحيى ألف حبة من العقيق اليمانى ، وبعض أحجار أخرى ذات قيمة وقد زين بها قبلة مسجده .

وقد خاطب أحمد زكى « العقيق » عندما ورد اليه فقال :

« قد تفتحت بسببك الأشداق ، وسالت الأفواه ، واشرأبت الأعناق فلا يرانى انسان دون أن يطالبنى بحجر أو حجرين ، وما أنا راحم ولا وهو رحيم .. » .

ثم أعلن أنه لا يجوز التصرف فى هذه الذخيرة « لغير زينة المنبر والمحراب ، وأن أحجار العقيق التى قاربت الألف وجاءت فوق المرام ووراء الأحلام ، هى أجمل حلية يزدان بها مسجدى الصغير بجيزة الفسطاط ، كما قد تحلى ظاهره بذلك الحجر الوحيد الباقى مرقوما منقوشا من قصر غمدان .. » [1] .

ولم ينس زكى باشا فى هذه المناسبة أن يذكر أن مدينة الجيزة ، بناها بنى همدان ويافع ، من كرام اليمن فى أول الاسلام .

* * *

وقد صور متاعبه فى رحلة اليمن ، ولم ينس التحقيقات التاريخية :

« بعد ساعة نرسو على الحديدة ، وننزل بها لاستئناف الرحلة على متون المطايا فى حزون التهاتم ، ثم فى شعاب الجبال ..

خرجت من جهنم عدن ، وقد أسفت عليها كل الأسف ، فكان

---

(١) الأهرام — ١٩٣٣/١٠/٣ .

فيها الثلج الصناعى وهم يسمونه البرد ، وفيها الماء العـذب الفرات ، وان كانوا انما يعتصرونه بطريق الاستقطار من الملح الأجاج .

أما البويخرة البخراء التى ركبتها ، فقد جعلتنى شديد الأسف على عدن وجهنم عدن .

.. وبالأمس وقفنا أمام (مخا) فاذا هى مدينة بيضاء فيها مبان كثيرة من الحجر ، ولكنها اليوم بلقع .

كان سكانها أيام احتلال المصريين فى عهد محمد على يزيد عن ٢٠ ألف نسمة ، فلما استولى الانجليز على مفتاح البحر الهندى (مدينة عدن) حولوا اليها الحركة والتجارة وكل المياه ، فأخذت (مخا) تتضاءل قليلا قليلا وسكانها لا يزيدون اليوم عن أربعمائة نسمة ، حتى اننا عندما فارقناها بالليل لم ير فيها الا نورا واحدا منبعثا من مصباح واحد ، لعله بيت العامل ..

رحلة الأندلس
(الفردوس الاسلامى المفقود)

كانت رحلته الى أسبانيا لزيارة آثار العرب فى الأندلس ، ذات أثر بعيد بلغ أعماق نفسه فقد عاش حياته كلها يخفق قلبه بذكر الأندلس ، ويجرى قلمه باسمها ، معددا وجوه عظمتها ، وعوامل انهيار مجدها !

وهو يصور مشاعره تجاهها فى عبارة عذبة رائعة :

« قلبى بأندلس مدله ، وعقلى بأطلاله موله ، وهيامى بأهله حديث قديم ، وغرامى بساكنيه مقعد مقيم ، وحنينى اليه متجدد حينا بعد حين ، ونحيبى عليه يحبب لى فيه الأنس والحنين ، فاعذرونى على هذا الهوى العذرى ، فقد خاننى شعرى ولم يساعفنى نثرى ، على أننى أعلل نفسى بأن تستمعوا لهمسى ، وتعاونونى على احياء أندلسى ، فذلك الهوس هوسى ، وقد لازمنى فى حلمى وفى حسى ، واستمكن من عقلى واستولى على نفسى .. » .

وكانت زيارة أحمد زكى للأندلس فى مطالع حياته عام ١٨٩٢، وهو فى سن الخامسة والعشرين تقريبا ، ومع ذلك فقد طوف بجميع أقطار الأندلس ، وابتدع لها اسما ظل علما عليها ، يردده

فى كل مقالاته عن الأندلس ، وهو « الفردوس الاسلامى المفقود » ولا يمكن احصاء كتابات أحمد زكى فيما بعد عن الأندلس فى خلال أربعين عاما أو يزيد ، مصححا أسماء مدنها وأعلامها ، كلما ذكرتها برقيات الصحف خطأ ، أو ترجمها الصحفيون على غير وجهها ، أو تعرض لها كاتب عربى أو مستشرق .

وهو يصور رحلته فى كتابه (السفر الى المؤتمر) بأسلوبه الجزل المشرق المسجوع ، الذى تغير بعد ذلك وتطور فيقول :

لم أصل الى تخـوم أسبانيا الا بعد أن أمضيت فى القطار السريع أربعا وعشرين ساعة لم يكتحل فيها عينى بأثمد الكرى ، حتى أجهدنى السير ، وأضنانى السرى ، ولكنى تجددت فى القوى حينما شممت عبير الأندلس ، واستنشقت نفحاته .

« وحينئذ شطحت مع تيار الأفكار ، ولكنى ما لبثت أن انقبض صدرى وعلتنى الكآبة وتولانى الانزعاج ، اذ أحاطت بى جيوش من اللوعة والأسف ، والحسرة واللهف ، لأنى تفكرت ما ناله الاسلام من العز والاقتدار ، فى هاتيك الديار ، أيام تخفق فوق الأندلس أعلامه ، وتجول فيه أقوامه ، ناشرة ألوية الفخار والحضارة ، أيام كانت المآذن قائمة فى أعاليه وروابيه ، تشق أكباد السحاب ويرتفع منها صوت المؤذن الى عنان السماء .

أيام كانت خلافة المغرب تفوق مناظرتها فى الشرق بما احتاطت به من أسباب البذخ والعظمة والعرفان ، حتى كانت ملوك أوربا تتزلف الى الخلفاء وتلتمس رعايتهم وحمايتهم .

« وكنت وأنا فى باريس درست نحو اللغة الاسبانية ، للاستعانة

على مخاطبة القـوم ، ومبادلة أفكارى معهم مباشرة ، ولكنى لما حضرت وتكلمت ، تحقق لى أن درس النحو شىء ، ومعرفة اللسان شىء آخر .

وأشار (أحمد زكى أفندى) الى أنه اول من زار جميـع الأندلس من المسلمين والمصريين ، خصوصا من أبناء هذا الجيل ، وكتب ما رآه ، وقارن بين حاليها .

وقد اطلع على كتب عربية نادرة جدا ، وتعلم فيها الكلام باللغة الاسبانس (سرقسطة) ، وكان يتحدث معهم بالايطالية أو بالفرنسوية ، فاذا عجزوا عن فهم تحدث معهم باللغة (الاشارية) التى يفهمها جميع بنى آدم .

وزار مدن الأندلس الشهيرة : طليطلة وتسمى عنـد العرب مدينة الأملاك أى الملوك ، وقد ورد اسمها فى بعض كتابات العرب (توليطة) ، ومدريد ، وسرقسطة وزار بلاد البورتقال — وهذا هو اسمها فى كتب العرب (لابورتغال أو بغير واو) . وزار عاصمتها المعروفة باسم (بلسيون) والتى يذكرها العرب باسم لشـبونة أو اشبونة أو الاشبونة كما زار أشبيلية . وغرناطة المعروفة باسـم (اغرناطة) وتسميها العرب دمشق من باب التشبيه .

وفى سرقسطة زار جميع آثارها العربية وغير العربية ، وصعد الى قمة البرج المائل .

وطالع فى مكتبة الدون بابلدخيل كتبا عربية كثـيرة أغلبها باللغـة التى يسـمونها (الخميـادو) (Aljamiado) وهى

اللغة التى اتخذوها بعد أن فرض عليهم اهمال اللغة العربية ، وصارت اللغة القشتالية (أى الأسبانية) ملكة متوارثة فيهم ، فكتبوا علومهم بها ، ولكن بحروف عربية ، وسموها (الخميادو) .

وزار المعرض الأوربى الأسبانى ، وفيه كثير من الآثار العربية الأندلسية (التى تبعث فى النفس فخارا ، وفى القلب أحزانا)[1].

وزار جميع آثار (أشبيلية) وصعد الى قمة المنارة الاسلامية الفخيمة البديعة ، التى كانت فى أحد المساجد ، فأصبحت الآن تقرأ للناقوس ، وزار القصر الذى أنشأه الاسلاميون ، وقال معلقا « أنسانى كل ما رأيته من العمائر الجميلة والآثار الجليلة التى رأيتها فى أعظم مدن أوربا » .

وزار الحمراء (alhambra) ، وقصرها ومساجدها ، ورأى نقوشها ورسومها وزخارفها « التى تذهب بالجنــان ، وتأتى بالجنون ، فوقفت باهتا حائرا فاقد اللب والرشاد ، من هذا الاتفاق الذى لم يكن يخطر على قلبى ، مع ما سمعته عنها من الأوصاف ، وما شدهدته من غرائب المبانى غير هذه الدار » .

وفى رحلته الىأسبانيا والبرتقال ، زار الملكة كريستينا الوصية على ولدها الفونس الثالث عشر ، وأنعمت عليه بوسام ايزابيلا الكاثوليكية .

وقد عاش حياته مفاخرا بهذه الرحلة ، وهذا اللقاء ، متحدثا عنه على نحو من الازدهاء ، مصورا ذلك الفتى المصرى وهــو

---

(١) الأهرام ١٩٢٩/٢/٩ .

يطوف ربوع الفردوس الاسلامى المفقود ويقول [1] « لاطفتنى وتكلمت معى فى أشتات العلوم والأدبيات حتى بهرتنى من كثرة اطلاعها ، دار الحديث مليا على اللغة العربية وآثار العرب فى أسبانيا .

« بربك يا فتى العرب أفلو كان الله ينعم عليك بمثل موقفى مع مثل هذه السيدة الجميلة ، وهذه الملكة الجليلة ، أفلا تكون مغتبطا كل الاغتباط ، بسماع الحديث المعسول والنظر الى الوجه الذى حوت ملامحه والحلاوة والبشر والايناس ، « أكان عجبا للناس أن أتحامل فى اطالة الحديث عن القديم والحديث ؟ وأن أتلمس ذكر العرب فى بواديهم المقفرة ، للاشادة بذكرهم فى نواديهم العامرة بربوع الأندلس الزاهرة ؟ وهكذا توسلت بكل ما فى المقدور والميسور والموسوع للتفنن فى التنقل من موضوع الى موضوع ومن شرق الى غرب ومن عرب الى عجم ..

« وفيما هى تكلمنى عن الأندلس ومآثره ، رأيت الفرصة سانحة فتصديتها ، وعرضت على جلالتها أن تسعى بكل ما لديها من قوة فعلية فى سبيل كشف الغطاء عن بقايا مدينة (الزهراء) التى أنشأها أكبر خليفة اسلامى ، وهو عبد الرحمن الناصر الذى جلس على عرش الأندلس قبلها بسبعة قرون ونصف قرن وثلاث عشرة سنة .

فأجابتنى بما بهرنى بل بما زادنى اعجابا بها من الوجهين ان كان هناك مكان للمزيد .

قالت لى ما معناه : ان الأسبانيين وان كانت لهم فى القرون

الوسطى جنايات على الحضارة العربية فليس لهم يد فى هـدم (الزهراء) ولا فى تدمير الزاهرة التى بناها المنصور بن أبى عامر ، بل الجريمة كلها فى هذا الباب واقعة على ناصية المسلمين من عرب وبربر .

وذلك حق والله ، فان ما وقع بين العرب والبربر من فتن ومحن ، ومن شقاق وانشقاق ، عندما أذن الله بزوال الخلافة من أرض الأندلس ، كان ذلك سببا فى جعل هاتين المدينتين أثرا بعد عين .

وحدثتنى الملكة عن العرب وحضارتهم ، فكأنها ورثت علم ابن رشد ، وابن الطفيل وابن حزم ، وكأنها درست فى جوامع قرطبة وطليطلة وغرناطة ، على أشياخ الاسلام الذين أرسلوا شعاعا وهاجا من الضياء على كل بلاد أوربا .

ثم وضعت يدها الكريمة على صدرى ، وربطت شارة النشان الأسبانى فى عروة السترة التى كنت متشحا بها ، وهكذا أصبح العربى المسلم الشريف فارسا من فرسان ايزابيلا الكاثوليكية ، من يد الملكة كريستينيا ملكة أسبانيا .. » .

مؤتمرات المستشرقين

وفى مؤتمرات المستشرقين كان « أحمد زكى » علما تسلط عليه الأضواء ، فقد مثل الحكومة المصرية فى أربع مؤتمرات :

عام ١٨٩٢ فى لندرة ، و ١٨٩٤ فى جنيف ، و ١٩٠٢ فى همبورج ، و ١٩١٢ فى أثينا [١] ، وفى كل من هذه المؤتمرات كان يخطب ويتحدث ويقدم مخطوطات قديمة وأبحاثا جديدة .

ففى مؤتمر آثينا قدم عشرة كتب قديمة نقحها وصححها ، وستة كتب من تأليفه منها مفتاح القرآن ، وموسوعات العلوم ، معجم الكلمات المقنعة ، معجم الكلمات الكلية ، معجم تحرير وضبط الأعلام الجغرافية (عربى — فرنسى) ، وصف مجالس الندابات ، ومجموعة فيها أكثر من ألفى بيت من مراثيهن .

وكان موضع تقدير العلماء والباحثين فى هـذه المؤتمرات حيث كانوا يحيطـون به ويسألونه عن عشرات من المسـائل والقضايا .

---

(١) عقد مؤتمر أثينا فى ابريل ١٩١٢ ، وقد قرات تفاصيل اعماله يوما بيوم فى المؤيد ويخطىء الكثيرون فى كتابة تاريخه الصحيح ، فيقول محمود ابراهيم انه عام ١٩١٠ (الأهرام ١٩٣٤/٧/١١) ويكرر هذا الخطأ محمد كرد على ، وعيسى اسكندر المعلوف .

وفى مؤتمر عام ١٨٩٢ دعا المستشرقين الى عقد دورتهم فى المشرق :

« أشكر مسعاكم عن ذلك الشرق الذى لم يقدره القوم حق قدره ، حتى جاءت أعمالكم ، وزحزحت عنه ستار الاعتقادات الباطلة ، وأنتم تعلمون أن قومكم كانوا يجهلون قدر ما عندنا ، ويحكمون علينا بما نحن براء منه ، حتى وقعت الألفة العلمية ، وانكشف لكم ما انطوى عليه العالم الاسلامى من جليل الشعائر المنبثقة عن الطوية الخالصة » .

ودعا أن يكون الاجتماع القادم فى احدى مدائن الشرق « حتى يتيسر لعلمائنا أن يروا بأنفسهم مزايا هذه الأعمال ، ويقدروا ما ينجم عنها من الفوائد لبنى الانسان ، فينضم الى هذه العصابة التى هى طليعة الأفكار السامية والمقاصد النبيلة الفاخرة .

وفى مؤتمر أثينا استفتى العلماء فى مسألة أمانة النقل من الأسلاف ، وهل يجوز لطابع كتبهم القديمة أن يتصرف فى نقلها بالحذف والاصلاح والتهذيب ، أو يبقى الأصل كما ورد .

كما كاشف العلماء بكتاب مخطوط لا توجد منه غير نسخة واحدة فى العالم كله ، هو كتاب « الأصنام » لأبى المنذر هشام ابن محمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ١٤٦ هـ ، وقال : « انى لا أود اظهار هذا الكتاب الى الوجود لأن الأستاذ (نولدكه) قال بأنه لا يريد أن يموت أو يرى كتاب الأصنام ، وأنا أخشى

أن يفى بوعده ويحرم العلم من ثمرات كده وجده ، ولذلك فأنا أخيره بين خطتين ، اما أن أؤخر اظهار هذا الكتاب واما أن يبحث عن كتاب آخر ، ويعلق على وجوده ذلك الشرط الذى اشترطه على نفسه » .

وكان فى خلال هذه المؤتمرات يرتجل محاضراته العلمية واللغوية بالعربية تارة وبالفرنسية تارة أخرى .

وسعى فى مؤتمر أثينا لجعل اللغة العربية من لغات المؤتمر الرسمية ، حتى اذا تحقق له ذلك بدأ خطبته باللغة العربية ، ثم أتم خطابه باللغة الفرنسية .

وانتهز الفرصة فتحدث عن العلاقات الأدبية بين العرب واليونان ، واستشهد بالنصوص التاريخية الى ما كان من عناية العرب بترجمة المؤلفات اليونانية وخدمتها وتنقيحها ، وذكر الأموال الطائلة التى أنفقها الخلفاء ورجال الدولة وكبار العشائر فى الدولة الاسلامية الى المترجمين لاستحضار كتب الحكمة من أرض اليونان ، واستخراجها الى اللغة العربية ، وخص بالذكر الخليفة المأمون ، والبرامكة ، وآل موسى ، والوزير الزيات ، والفيومى ، الذى كان حاكما على بلاد الفيوم .

كما فصل جهود العرب فى الترجمة ، وعنايتهم بطلب العلم اليونانى من نفس أثينا التى يسميها المسلمون مدينة الزيتون ، أو مدينة العلماء والحكماء ، وأشار الى عناية الأندلسيين بالحكمة اليونانية ، وعلاقات عبد الرحمن الناصر بالامبراطور (رومانوس) ،

وكيف أنهم أسسوا فى قرطبة جمعية علمية (أكاديمية) لأجل اصلاح ترجمة كتاب (ديوستوريدس) فى المواليد الثلاثة .

وأشار الى الكتب النفيسة النادرة الباقية من هذا المصنف بخزائن القسطنطينية ، لامتيازها بالتصوير الباهى الألوان .

وقد أشارت الصحف الى ما لقيه أحمد زكى فى هذا المؤتمر — وكان معه من الأعضاء أحمد شوقى وحفنى ناصف وأحمد الاسكندرى — فقالت المؤيد : ان بهو الفندق الذى نزل فيه كان كعبة يحج اليها فى كل وقت من يعرفه ومن لا يعرفه ، وكانوا يشيرون اليه ويقولون : هذا العالم المصرى الكبير ، كما أنه لم يبق شاعر أو أديب أو صحافى فى أثينا لم يزر زكى باشا [(١)] .

كما أجرى عميد الجامعة اليونانية أحاديث طويلة معه ، والتف حوله الطلاب يحدثونه ويسألونه ..

ويقول محمود ابراهيم (صاحب جريدة الاكسبريس) ، وكان مرافقا لوفد المؤتمر ، ان شخصية زكى باشا ظهرت بأجلى قوتها حين وقف بين مئتين وخمسين أستاذا وعالما من شرقيين وغربيين .. أحاطوا به احــاطة السوار بالمعصم ، ووجهــوا اليه أسئلتهم واستفتاءاتهم ، وكان يضع السماعة على أذنه ويجيب كل واحد بما يطلبه ، وكان يجيب أكثر من واحد فى وقت واحد [(٢)] وفى المؤتمر الأول ١٨٩٢ كان رفيقه الشيخ « محمد راشد » الذى

---

(١) المؤيد ـ ٩ ابريل سنة ١٩١٢ ..

(٢) الأهرام ١٩٣٤/٧/١١ .

ألقى قصيدة باللغة العربية وقام زكى باشا بترجمتها الى اللغة الفرنسية بطريقة — وصفها الدكتور أحمد عيسى — تشبه ارتجال الشعر فى السرعة والحضور « حتى شخص له المجتمعون ، وأكبروا عمله ، اذ لم يكن له عليها سابقة استحضار ولا اطلاع .. » .

الخزانة الزكيّة

تعد (الخزانة الزكية) فى الحق ، العمل الأكبر لأحمد زكى ، فقد تطلع منذ صباه الى أن يكون واحدا من أصحاب المكتبات الضخمة ، وأعانه على تحقيق هذه الغاية :

١ — مركزه ونفوذه الحكومى .

٢ — رحلاته المتوالية .

٣ — استرخاصه المال فى سبيل الحصول على النسخ الفريدة والوحيدة من المخطوطات .

بدأ جمعها وهو طالب حوالى عام ١٨٨٣ ، وفى هذه المرحلة كان يتردد على بائعى الكتب المعروفين فى مصر ، أمين هندية ، عبد الواحد الطونى ، بين آن وآخر ، ثم اجتمع له ما تنازل له عنه شقيقه محمود رشاد من كتب الى ما كان يحصل عليه من جوائز مدرسية ثم أخذ على نفسه أن يراجع أسماء الوفيات ، والبحث عن الأعلام الذين لهم مكتبات فما أن تصفى أى (تركة) حتى يقبل عليها ، فيشترى ما يستطيع ، وأتيح له بعد ذلك أن يحصل على مكتبة (البرنس محمد ابراهيم) كما اشترى خزانة كتب جبرائيل بك المجلع اشتراها عام ١٩١٤ ، بما قيمته ٣٠٠ جنيه (ذهبا) .

واشترى مكتبة محمد بك واصف النفيسة التى حجز عليها

بعض الدائنين ، وقد كلفته نحو ألفى جنيه ، كما اشترى مكتبات على باشا ابراهيم ، والشيخ رضوان العفش وحسن حسنى باشا .

وما من رحلة من رحلاته الى أوربا منذ عام ١٨٩٢ ، الا كان يبحث فيها عن الكتب و يشترى منها ويصدّرها ، وأعانه على ذلك معرفته باللغات الفرنسية والايطالية والأسبانية .

ونجح فى زيارة الآستانة عام ١٩٠٤ ، واستطاع أن يحصل على عدد كبير من الكتب والمخطوطات ، برغم مؤامرات رجال عبد الحميد ، ثم عاد اليها عام ١٩٠٩ ، وساعده الصدر الأعظم حسن حلمى باشا على زيارة عديد من المكتبات ، منها مكتبة السلطان نفسه فى قصر (أندرون) بسراى طوب قبو ، والتى كانت مغلقة فى وجه أى أحد أربعة قرون وستة أعوام ، فأمضى بها أربعة شهور كاملة نسخ منها بالفوتغرافيا عددا من ذخائر المؤلفات العربية .

وفى دمشق استطاع بمساعدة أصدقائه ومعارفه أن يحصل على الكثير ، واستحضر عشرات الكتب من الهند والعراق .

وهكذا مضت مكتبة زكى باشا تزداد وتتسع حتى بلغت عام ١٩١٩ اثنى عشر ألفا [1] .

وقد بلغت عام ١٩٢٩ حسب احصاء (مجلة مصر الحديثة

---

(١) من رسالة الى محمد كرد على فى ١٩١٩/٢/١٥ : لعله يسرك أن تعرف أن خزانتى قد انتقل عديدها من الالفين فبلغ الاثنى عشر الف .

المصورة — ٢٧ نوفمبر ١٩٢٩) ثلاثة عشر ألف من المجلدات ، وعنـدما توفى زكى باشـا عام ١٩٣٤ كانت قد بلغت ١٨٧٠٠ مجـلدا [١] .

ولقد كان أحمد زكى حريصا على أمرين :

١ — أن تحصل مصر والعـالم العربى والاسلامى عـلى المخطوطات العربية التى هى من تراثه أصلا وسرقت منه أو بيعت ، وكان عمله طوال أربعين عاما هـو استرداد هذه الذخائر .

٢ — أن يحصل على نفائس الكتب العربية التى طبعها علماء الافرنج المستشرقين .

وقد استطاع أن يحقق ذلك الى حـد كبير ، ففى مكتبته مؤلفات فريدة ليس لها نظير فى مكتبة دار الكتب أو غيرها ، فضلا عن أن هناك أكثر من مائة صحيفة ومجلة من الدوريات العربية موجودة فى خزانته ، ولا يوجد منها شىء فى دار الكتب المصرية .

وكان زكى باشا يتطلع الى كل ما يكتب عن الاسلام والعرب مؤمنا بأن هذا التراث هو البذرة الأولى ليقظة الشرق ، وان الكشف عن ذلك المجد العظيم الذى صنعه العرب والمسلمون فى مدنيتهم هو وسيلة البعث والبناء للأمة ، ومن أجل ذلك جعل خزانة كتبه مرجعا لمن يريد أن يعد بحثا فى هذا الصدد ، سواء كان من الغربيين أو الشرقيين . .

(١) بلغت مكتبة منافسـه أحمد تيمور (باشـا) ١٢ الفا من المجلدات (فقط) .

ومن أبرز ما تضمنته المكتبة الزكية :

* مجموعة كاملة للمؤلفات العربية الخاصة بالكتابات السرية المعروفة الآن بالشفرة ، وكيفيتها عند العرب ، واستخراجها .
* مجموعات من المصورات والخرائط المعمولة فى أيام العباسيين وبعدهم وخريطة الزيجة ، صنع العلامة فلاماريون الفلكى ، عن السماء وما فيها من الكواكب .
* مجموعة الفرمانات الصادرة باللغة التركية بخصوص الحكومة المصرية .
* مجموعة من المصورات لبلاد الأناضول المشهورة مرسومة بالألوان .
* من الكتب النادرة ٤ أجزاء لابن عساكر ، ٤ أجزاء لمرآة الزمان لابن الجوزى ، ونسخة كاملة من تاريخ ابن خلدون عليها خط الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر ، ونسخة من الجزء الرابع من تاريخ الجبرتى (ويحتوى على فصول كثيرة ، اضطر الى حذفها من النسخة التى طبعت فى بولاق لأن فيها هجوما على (محمد على) ويساوى ما حذف من الأصول حوالى ٥٠ صفحة .
* المجلة الأسيوية (باريس) من أول عدد ١٨٢٢ الى ما بعد سنة ١٩٣٠ .
* نسخة من لسان العرب على ورق كتان .
* كتاب الفتوة فى الاسلام .
* كتب الطب المطبوعة فى أوربا بالعربية والافرنجية ، ومنهـا

ما يتعلق بالفلسفة والعلوم ، والكيمياء ، والطبيعة ، والفلك ، والميكانيكا ، والآلات الروحانية ، وكتب ابن سينا ، ومنها (القانون ، وجزء من الشفاء) (طبع رومية ١٥٩٣) .

* مجموعة من الكتب التى صدرت فى مطبعة بولاق ، وفى مطبعة أركان حرب الجهادية المصرية ، ومطبعة مدرسة الطب .

* عديد من الكتب المطبوعة فى الشام ، والجزيرة (الموصل) ، وتونس والجزائر ، ومراكش ، وجزيرة مالطه .

* قطعة من تاريخ الدولة الأموية من أول خلافة الوليد ابن عبد الملك الى انقراض الدولة العباسية .

* كتاب الدر الثمين فى تاريخ اليمن أيام الامام محمد بن عايط ، وكتاب روح الروح فيما حدث بعد المئة التاسعة من الفتن والفتوح .

* عشرات من الكتب المنقولة بالتصوير الشمسى منها :
(١) تاريخ السودان أيام محمد على (٢) كتاب المجاراة والمجازاة للصفدى (٣) مختصر « ذخيرة ابن بسام » للأسعد ابن مماتى (٤) التذكار الجامع لمحمد ملك طرابلس (٥) الامتاع والمؤانسة لابن حيان (٦) الذخائر والبصائر لابن حيان (٧) مقدمة ابن خلدون عليها تصحيح المؤلف وخطه (٨) الشعور بالعور (قاموس الأعلام المشاهير الذين أصيبوا بفقد احدى أعينهم) (٩) صبح الأعشى (نسخة كاملة سبعة مجلدات) . (١٠) رحلة الشيخ محمد بشير البرمكى من بلاد تواث الى الحرمين .

ولا شك فى أن هذه المكتبة كانت هى ذخيرة زكى باشا الأساسية فى بروز شخصيته فى العالم الاسلامى كباحث تتقاطر عليه الأسئلة من كل مكان ، تسأل عن كتاب أو حدث أو قبر أو أثر تاريخى أو رواية من روايات اللغة أو علم من أعلام الجغرافيا .

فقد كان يرجع اليها فى مثل رد الطرف ، فيجيب السائل ، ذلك أنه استوعب كل هذه المؤلفات الضخمة ، وراجعها ، وعلق على هوامشها ، وأخرج فنونها فى جذاذات مرتبة ، وقصاصات تحت يده بحيث يستطيع أن ينظر فيها فيجد ضالته فى أسرع وقت ، ومن هذه المادة الضخمة استطاع أن يكشف جوانب مجهولة ، ويثير قضايا لا قبل لغيره بمواجهتها أو الوقوف أمامه من أجلها ، ولطالما أثار قضايا مع على بهجت مدير دار الآثار أو جرجس فلتاؤوس عوض المؤرخ القبطى المشهور ، أو محمد مسعود البحاثة اللغوى ، وغيرهم وغيرهم ، فكان قوى العارضة يراجع الأمر مرة ومرة ومرة حتى يستوفيه ، ويفحم خصمه ومن أجل هذا بهر المستشرقين والعلماء الأجانب .

وقد كان يرى فى داره — كما شاهدها الدكتور بشر فارس — خزانات تملؤها جذاذات مرتبة على حروف المعجم ، كل طائفة منها على حسب الفن أو الباب الذى يرجع اليه (١) .

وقد أضناه البحث عن عشرات من ذخائر التراث العربى واحتمل فى سبيلها الجهد الضخم ، من ذلك كتاب « نهاية الأرب

---

(١) المقتطف ــ اكتوبر ١٩٣٤ .

فى فنون العرب » الذى واصل البحث عنه أربعة عشر عاما ، من عام ١٨٩٠ الى ١٩٠٤ ، فى مكاتب القسطنطينه ، وروميه ، وبرلين، ولندن وباريس ، ومدريد ، وأكسفورد . وقد تفرقت أجزاؤه فى كل دور الكتب الأجنبية ، وبقيت مصر محرومة منه ، ولم يبق منه فى دار الكتب (الخديوية) الا الجزء الثانى والعشرون فقط . وظل زكى باشا يبذل الجهد حتى استطاع أن يحصل على أجزائه الحادية والعشرين .

ومن عجب أن تحوى مكتبته الكتاب النفيس بكل ما تقلب عليه من الأدوار والأطوار فتجد منه مخطوطا بخط اليـد ، أولا ، ومطبوعا ببولاق ، ثم نسخا مطبوعه منه فى الشرق والغرب ، وترجماته الى الفرنسية والانجليزية والأسـبانية واللاتينية ، والمباحث التى كتبها جهابذة العلماء على الكتاب أو المؤلف .

وتضم مكتبته أكبر مجموعة فى الشرق مما كتب عن اللغـة العربية من أبحاث علماء الشرق وعلماء الأفرنج .

ومن أجل تيسير الحصـول على الكتب سـعى لدى وزارة المعارف حتى وافقت على الغاء الرسوم الجمركية على الكتب .

ويقول زكى باشا انه كان فى أول أمره يؤثر عدم التجليد للكتب تهالكا على شراء كتاب آخر وكان يضـم كتبـا مختلفة اللغات والأبحاث والأطوال والعروض فى مجلد واحد ، وانه قد بدد كتبا كثيرة لعدم تجليدها ، ثم اضطر الى تعيين مجلد خاص يزاول مهنته ليلا ونهارا (١) .

---

(١) مجلة مصر الحديثة المصورة ـ ١٩٢٩/١٢/٤ .

وقد تنقلت المكتبة الزكية من مكان الى مكان ، فكانت فى أول الأمر بمنزله خلف سراى عابدين ، حتى وافق مجلس النظار على طلب أحمد حشمت باشا ناظر المعارف فى أكتوبر سنة ١٩١٠ بتخصيص مكان خاص لزكى باشا فى دار الكتب واعطائه رخصة دائمة (وهذا المكان هو موقع باب المطبعة الشمالى لدار الكتب الآن) .

وظلت الخزانة الزكية مفتوحة الأبواب كل يوم من الساعة الرابعة بعد الظهر حتى منتصف الليل .

ثم وقع الخلاف بينه وبين الحكومة عام ١٩٢١ ، فطلب اليه نقلها من دار الكتب فأوقفها وقدمها هدية للأوقاف ، وحرر الوقفية فى ٢١ أغسطس ١٩٢١ فى محكمة مصر الشرعية ، وناب عن الأوقاف محمد زكى الابراشى واشترط :

١ — أن تكون له النظارة مدى حياته ، ثم بعده لوزير الأوقاف بصفته الرسمية .

٢ — أن يكون مقرها مدرسة السلطان قانصوه الغورى .

٣ — أن تسمى « الخزانة الزكية » وتبقى مستقلة بشخصيتها ، فلا تضاف الى دار كتب أخرى أو مدرسة ما .

٤ — المطالعة فى قبة الغورى والاستعارة له وحده .

٥ — أن تكون الخزانة بأسمه وتشمل كل كتاب على حده وبحيث لا تضاف لدار الكتب أو تخلط بها وقد كان مجموع الكتب اذ ذاك ١٢ ألفا .

وقد تحدث زكى باشا عنها مرات فقال : ان سبب اهدائها

للأوقاف أنه كان يسيطر على وزارة المعارف مستشار انجليزى (دنلوب) فخشيت أن يضمها ولو بعد وفاتى الى احدى المكاتب الرسمية [1] .

وكان قد أشار اليها فى محاضرة له نشرتها المقتطف (فى نوفمبر ١٩١٠) حيث عدد المكتبات الموجودة غير دار الكتب ومكتبة الأزهر ومكتبة بلدية الاسكندرية فقال انها خمس مكتبات : بيت البكرى ، وبيت رفاعة ، وبيت عبد الله فكرى ، وبيت لطيف باشا سليم ، وبيت أحمد بك تيمور . وأشار الى مكتبته على استحياء وقال « خشيت أن تذهب مجموعتى من بعد للعطار والزيات والبقال ، أو تتفرق شذر مذر ، كما حصل للمجموعة النفيسة التى كانت تزدان بها دار على باشا مبارك فى حياته ، ولذلك جعلتها خاصة بالأمة .

ولطالما ردد أحمد زكى اهمال وزارة الأوقاف لها اذ أضافتها الى قسم المساجد ولما هطلت الأمطار (ديسمبر ١٩٢٥) كادت تغرقها لولا حارسها الذى استعان بمهندس لجنة الآثار العربية .

ولطالما هاجم هذه المكتبة فى ساعات غضبه ، متأففا من عجزه عن حمل عبئها « هذا العبء الذى كان يتكاثر كل يوم ، فأصبحت لكتبى كارها ، أتمنى الأرض أن تميد بها ، أو يرسل الله عليها شواظا من نار تأكلها ، ولكنى كنت أتضجر من هذه الخاتمة ، وأتأوه من هـذا المحبوب المكروه ، الذى تغلغل فى صميم الفؤاد » ...

(١) مجلة مصر الحديثة المصورة ١٩٢٩/١٢/٤ .

وقد زارها محمــد كرد على ، وكتب عنها فصلا فى مجلة « المقتبس » المجلد الثامن وقال ان تنسيقها أقل من تنســيق الخزانة التيمورية ، لأن صاحب هــذه الخزانة — يقصــد التيمورية — قد انقطع اليها سنين .

وكان لزكى باشا الى جوار ذلك حجرة ضخمة فى قصره المسمى دار العروبة : وصفها زائر عام ١٩٣٠ بقوله : اذا أتاحت لك المقادير أن تجتاز عتبتها ألفيت نفسك وسط كتب وأوراق مفرقة هنـا وهناك ، تضرب أخماسا لأسداس .. وان الشيء الذى يهول هو هيكل المكتب المرتفع الواقع فى وسط الغرفة ، التى لا تعرف أول وهلة هل دولاب ضخم أو صندوق بضاعة ، أو مقام ولى من أولياء الله » .

وتلفت نظرك تلك الكتب والمجلات الملقاة على سطحه وبين ثناياه ، بلا ترتيب أو نظـام ، كســواها من الكتب المبعثرة على المقاعد والأركان .

وظلت الخزانة الزكية قائمة فى مكانها حتى صدر قرار وزير الأوقاف فى ديسمبر ١٩٣٥ بنقلها من قبة الغورى الى دار الكتب ..

* * *

واليوم اذا سألت عن (الخزانة الزكية) أين هى قلنا لك انها حبيسة مهجورة فى الغرفة رقم ١٨ من مبنى دار الكتب فى القلعة . وتضم مجلداتها الـ ١٨٧٠٠ غرفتان كبيرتان ، حيث تجد مئـات من الخرائط والصــور منشورة فى جوانب الغرفتين المتداخلتين بدون عناية .

وتضم المكتبة حسب التقرير النهائى عن محتوياتها :

٢٢٤	فوتغرافى	(عربى)
١١٦٣	مخطوط	(عربى)
١٠٤٩٧	مطبوع	(عربى)
٩٥	مخطوط	(شرقى)
٢٢١	مطبوع	(شرقى)
٦٤٢٥	مطبوع	(افرنجى)
٧٥	مجلدا بها جرائد ونشرات وسجلات المكتبة .	
١٨٧٠٠	مجلدا	

ولا شك أن حبسها على هذا النحو يفوّت الكثير من الخير على الباحثين ، فقد تفردت المكتبة الزكية بمئات من المؤلفات (المفردة) التى لا توجد فى دار الكتب نفسها نسخ منها ، أما الدوريات ، فان هناك أكثر من مائة مجلة أو جريدة على الأقل لا توجد فى دار الكتب منها نسخة واحدة ، سوى مافى الزكية .

* * *

وفى مجال الحديث عن المكتبة الزكية يبرز دائما المقارنة بينها وبين المكتبة التيمورية . ويبدو واضحا ان كلا الرجلين أحمد زكى وأحمد تيمور كانا أشبه بفرسى رهان فى حلبة واحدة فى عنايتهما بالمخطوطات والمكتبات القديمة وان اختلفا فى الاسلوب . فزكى باشا له طريقته الاستعراضية كلما عثر على كتاب أو اكتشف نصا . فانه سرعان ما يعلن ذلك ويقيم الدنيا ويقعدها ، بينما كان أحمد

تيمور على خلاف ذلك تماما . فلا أكثر من أن يطلع عليه أصدقاءه ورواد ندوته .

ومرجع هذا فى الأغلب الى الطابع النفسى لكل منهما فأحمد تيمور رجل من السراة شغف بالعلم فتلقاه من العلماء والكتب . وقد وهب حياته كلها للعلم فلم يتصل كثيرا بالمناصب أو ذوى النفوذ . وتجـرد للدرس والبحث والمراجعـة وتكوين مكتبته التيمورية التى بلغت اثنى عشر ألفا من المجلدات . والتى عنى صاحبها بطابعها الاسلامى والعربى الواضح . وانفق كثيرا فى سبيل الحصول على ذخائرها النادرة .

ولم يكن أحمد تيمور كثير الاتصال بالصحف أو معنيا بالكتابة ولكنه كان دؤوبا على مراجعة هذه الكتب معلقا عليها مستخرجا منها نصوصا يدسها فى كراسات ويحيل فيها على الكتب الأصلية . وقد طبع بعد وفاته عدد كبير منها وما تزال لجنـة المؤلفـات التيمورية تواصل العمل وقد أعان أحمد تيمور على ذلك ثراؤه وتجرده من مطامع الشهرة ومظاهر السلطة ورغبة الظهور . بينما عنى أحمد زكى بهذه الجوانب أنفق فيها كثيرا من وقته وماله . ولذلك صدقت عبارة « كرد على » أن المكتبة التيمورية لاقت عناية أكبر فى تنسيقها مما لقيت المكتبة الزكية . بالرغم من أنهـا فاقت التيمورية بأكثر من ٦ آلاف كتاب .

وقد عنى « محمد كرد على » بهذه المقابلة بين الرجلين فى محاضرة ألقاها بالقاهرة بعنوان « الاحمدان المصريان المحدثان » أشار فيها الى أن تيمور يتحلى بالروح الدينى وان الروح المدنى

غالب على زكى باشا . فكأن هذا مستشرق شرقى وذلك شرقى قبل كل شيء .. أما تيمور فقد جال فى دائرة ما أحبَّ أن يخرج منها طول عمره . وكذلك كان زكى . الا أن الدواعى والبواعث كانت تضطر هذا الى تجاوز المدى الذى رسمه لنفسه . فخاض زكى فى المجتمع وتغلغل فى تضاعيفه وقبله بما فيه من حسنات وسيئات أكثر من تيمور . الذى ابتعد عن المجتمع ولم يحب أن يتعرف الا الى طبقة خاصة لا تنغص عليه عمله وسلامه ..

وهنا ظهرت بعض الشيء ارستقراطية تيمور وديمقراطية زكى ، كانت حياة زكى مرحة يتمتع بمباهجها ومناعمها على ما يشتهى . ويتعجل النعيم لا يرجئه . وحياة تيمور عابسة فيها شيء من الانقباض وفيها عزوف . وكلاهما صادق فى مشربه . صادق فى سيرته غير مدلس ولا متنطس ولا متزمت .. فنى تيمور فيما أحب من صنوف الأدب . أما زكى فأخذ حياة العمال والسياسيين ، وحياة المسرفين والمترفين . وكلاهما حكمت عليه بيئته أن يكون ما كان . وعدد من أخذ عليهم تيمور من الشيوخ كان أكثر من عدد من أخذ عنهم زكى . فجاء « تيمور » عالما اسلاميا قبل كل شيء . يحب الانتفاع بما انتج أهل الغرب وجاء زكى عالما شرقيا يشبه علماء الغرب الى حد بعيد . » أ . هـ

الرسالة التي آمن بها

لا شك كان لأحمد زكي — على ضوء هذه الملامح من حياته وأعماله « نظرية » فكرية يؤمن بها ، ويعمل لها ، ويدافع عنها .

ولولا هذه النظرية التي بلغت في نفســه مبلغ العقيــدة ، ما استسهل الصعب ولا بذل الجهــد ، ولا أنفق ماله في سبيل مواصلة العمل الذي آمن به .

والواقع أن نظرية أحمد زكي الفكرية التي يمكن أن يقال عنها انها رسالته ودعوته كانت واضحة وضوحا مشرقا في نفسه منذ الســنوات الأولى . وان كان قد أفاض في الكشف عنها ، والتوسع في اذاعتها ، بعد عام ١٩٢٢ ، حين أحيل الى المعاش وتخفف من تكاليف العمل الحكومي وقيوده ، التي ربما كانت تحد من جرأته في الرأي ، أو صراحته في التعبير ، أو ربما كانت تكفله بعض المجاملة لهذه الجهــة أو تلك ، مما كان موضــع النقــد أو التخاصم بينه وبين ركب النهضة المندفع الى الأمام في حماسته . والذي كان يطمع في أن يكون أحمد زكي — بلسانه البليغ وقلمه السيال — في مقدمة الاتجاه الى النهضة .

وأستطيع أن أجد ملامح هذه النظرية الفكرية في مذكرته التي سطرها من أجل الدعوة الى تبني الحكومة لمشروع احيــاء الآداب العربية وذلك عام ١٩١٠ :

يقول : ان المستشرقين يتهافتون على الوقوف على كل ما له ارتباط بالحضارة الاسلامية ، ولا شك أن الحظ الأوفر فى هذه النهضة يجب أن يكون لمصر » ويقول : « ان المستشرقين لا يألون جهدا فى العمل على نشر الكتب التى صنفها جهابذة العرب وبحثوا فيها عن شتى الموضوعات . وتنشر لهم طائفة كبيرة من أمهات الكتب العربية النفيسة وقد يترجمونها الى لغاتهم .. » .

فهذا هو الأمر الذى لفت نظر أحمد زكى ، ودفعه الى العمل من أجل احياء الآداب العربية منذ وقت باكر ، من قبل عام ١٩١٠ بسنوات ، منذ عام ١٨٩٢ ، أى قبل أن يتقدم بهذا المشروع بثمالية عشر عاما .

هذه هى غيرته النفسية على تراثنا وآثارنا ، وقد رأى المستشرقين يتهافتون عليها ويسألون عنها ، ورأى مصر أحق بأن تتولى الصدارة فى هذا الأمر ، فوجه نفسه الى هذا العمل ، وقدم له كل ما يملك . وكان دائما يقول عندما يسأل عن العمل المتصل : هل ننتظر حتى يأتى المستشرقون فيدلونا على أمجادنا ؟

وكان أحمد زكى قد اتصل منذ فجر حياته العلمية برجال البعثة الأثرية بالقاهرة المؤسسة عام ١٨٨١ M. A. F. C. ، والتى أصبح اسمها : المعهد العلمى للآثار الشرقية Francais ، وعرف مسيو ماسبيرو رئيس المعهد ومسيو بونولا بك وترجم لهما . ثم أصبح عضوا فى الجمعية الجغرافية ، والمعهد العلمى مشاركا فى الأبحاث التى كانت تلقى باللغتين الفرنسية والانجليزية — فقط .

ولا شك أن ايمانه بعروبته (المغربية الفلسطينية المصرية) قد دفعته الى ضرورة عمل شيء فى هذا المجال . فهؤلاء الباحثون الغربيون يبحثون عن التراث العربى ويحيونه ، ومنهم المنصفون الذين لا ينكرون مجد العرب وفضل العرب ، أفلا يكون هناك عربى مصرى يقف فى هذا الصف ، ويضع كتفه فى أكتاف هؤلاء .

هنالك تطلع أحمد زكى الى هذا المجد عن طريق أعمال ثلاثة وآصلها :

١ — احياء الآداب العربية ، وذلك بالبحث عن المخطوطات النادر طبعها .

٢ — انشاء مكتبته الزكية التى كان يطمع فى أن تكون المكتبة الثانية فى مصر .

٣ — تحقيقاته وتصحيحاته ومراجعاته ، والكشف عن وجوه العظمة والقوة فى التراث العربى الاسلامى .

وقد ظل زكى باشا يردد دعوته أربعين سنة ، من أجل التعريف بفضل العرب على الحضارة الحديثة ، ولكنه لم يكن جامدا فى دعوته ، أو متمسكا بالقديم تمسك التقليد بل مؤمن بالحضارة ، مؤمن بتطوير اللغة ، يرى هذا المجد هو أساس النهضة . وهذه مجموعة من عباراته التى رددها على توالى الزمن ترسم طريقته وهدفه ورسالته :

١ — « اذهب يا فتى العرب الى أى متحف بأى عاصمة أو حاضرة أو مدينة فى ديار أوربا من شرقها الى غربها ، من شمالها الى جنوبها ، أو من شامها الى

عدنها (كما يقولون فى جزيرة العرب) فأنك حيثما وضعت قدمك ستجد آثار مصر الفرعونية والقبطية والاسلامية آخذة بعضها برقاب بعض ، على ما فيها من كثرة ، وعلى ما حوته من عجب عجاب ، فان كانت أوربا قد احتلت كل بلادنا ، فان آثار أجدادنا قد احتلت كل متاحفها .

٢ — عندما أتكلم عن العرب أذكر مجدهم استثارة لهمة أبنائهم وورثة ثقافتهم ، ولست بذلك أدعوهم الى الجمود أو لزوم خطط الآباء ، فان العالم يجب أن يتطور ، ومن لم يتطور يهلك ، ويمكننا مع ذلك أن نتطور دون أن نقطع الصلة التى بيننا وبين السلف .

٣ — اذا كان اسماعيل قد أراد أن يفرنجنا ، ويلحقنا بأوربا ، فقد أخطأ ، ان انحطاط الأندلس وانقراض العرب من أسبانيا يرجع الى تخاذلهم وليس الى لزوم التقاليد القديمة .

٤ — أما الالتحاق بأوربا فهذا ما لا أوافق عليه البتة ، لأنه اذا كان هناك من يدعو الشرق الى أن يتفرنج فأنا أدعو الغرب الى أن يتعرب ، فان لنا تقاليدنا وكبرياؤنا ، ولست فى ذلك أعارض فى أن نأخذ من أوربا كل ما نتقوى به .

٥ — يرجع الفضل فى النهضة الجديدة الى من درسوا القديم وأحبوه مع اجادتهم اللغات الأجنبية ، فهم

الذين وجهوا الأدب العربى الى ذلك التجديد الذى يكاد يفى بالحاجات المعدودة فى عصرنا الحاضر .

٦ — انى لمحزون اذ أرى قومى والكاتبين باللسان العربى المبين ، لا يزالون متغافلين عن تراث أجدادنا الباقى لنا ، واذ أراهم يعتمدون على الغريب عنهم ، ويتطفلون على الافرنج ، حتى فى نقل هذه الأسماء التى يجب أن نحتفظ بها لتكون لنا منها ذكرى تنفخ فينا ذلك الروح القوى ، الذى جعل لأجدادنا مقاما كريما فى الأولين .

٧ — اللغة العربية رابطة بين الأقطار العربية ، وأنا مصرى ، ولكننى أيضا عربى ، وأحب أن لا تنفصم هذه الرابطة وانى أقول بجامعة عربية .

٨ — اننى أخذت على نفسى أن أظهر لقومى ما طوته الأيام ، وتناساه الناس من مفاخر الحضارة الاسلامية ، ومآثر المعارف العربية كلما لاحت لى فرصة وكان عندى البرهان الصادق والدليل الصادق .

٩ — أنا أنادى على رؤوس الأشهاد وفوق منابر الجرائد بوجوب الأخذ عن « الافرنج » فيما وصلوا اليه من المحامد والكمالات ولكن دون أن أنسى المميزات والحقائق التى تحدرت الينا عن الآباء والأجداد ، وعقيدتى أن الرجل الشجاع الفاضل هو الذى لا ينكر

أمته فى وقت محنتها بل يمد يده لانتشـــالها من وهدتها ، بل يفاخر بانتسابه اليها .

ان الشرقى النابغ اذا تخلى عن قومه وتفرنج فلن يكون وجيها عند الافرنج ولا يرونه الا كمية مهملة ، بل صفرا على اليسار ، فانهم ليسوا بحاجة اليه ولا الى ألف مثيل له ، ولكن اذا بقى فى حظيرة قومه ، كان هو الكل فى الكل ، وكان علما فى رأسه نار ، وكانت له المفخرة فى تجديد المجادة لأمته ولبلاده ، هــذه عقيدتى وهذا رأيى ودينى وديدنى » .

وهكذا تعطى آراء أحمـــد زكى باشا وجهة نظر صـــادقة متكاملة ، أساسها بناء النهضة الجديدة على أساس مقومات الأمة العربية وقيمها وتراثها . مع تقبل الحضارة الحديثة والأخذ منها .

وقد حدد هدفه أيضا فى شعر بليغ كان يردده دائما :

وقفت على أحيــاء قومى يراعتى
وقلبى ، وهــل الا اليراعة والقلب
ولى كل يوم موقف ومقالـــــــة
أنادى ليوث العرب ويحكموا هبوا
فاما حيــاة تبعث الشرق ناهضــــا
واما فناء وهو ما يرقب الغـــرب

الكشف عن أمجاد العرب والمسلمين

عنى أحمد زكى فى المقام الأول من أبحاثه ودراسته بالكشف عن أمجاد العرب والمسلمين وأثرهم فى الحضارة ، ودورهم الكبير فى مجال العلم والفكر والثقافة . وقد وصل عن طريق التحقيق العلمي الى وقائع تاريخية ثابتة أبرزها :

* أن العرب سبقوا الافرنج الى التفكير فى كشف أمريكا ، وحاولوا الوصول اليها مرتين بالفعل . أولاهما فى لشبونة عاصمة (البرتقال) وثانيتهما فى مدينة (غانة) فى السودان الغربى على ساحل المحيط الأطلنطى وكان تخيلهم لها بطريقة منطقية عقلية هى أفضل من التى اتبعها كرستوف كولومب ، فانه لم يكتشفها الا بطريق الصدفة والاتفاق ، ذلك أن نظريته التى شرحها للملكة ايزابيلا ، انما كانت فى الامعان فى السير غربا حتى يصل بلاد الهند فلما وصل الى أمريكا سماها بلاد الهند الغربية ، وكان معه رجل من المسلمين هو الرياش ، وقد وصفها لنا وسماها الهند الغربية (١) .

وأن الامام الأصفهانى أثبت بطريق الاستنتاج المنطقى والدليل الجغرافى وجوب وجود أمريكا فى النصف الثانى من الكرة

---

(١) السياسة اليومية ٢٥ يناير ١٩٢٤ .

الأرضية وأنه لابد من وجود ناس وحيوان ونبات فيها[1] .

* سبق العرب الافرنج الى معرفة مرض النوم وسموه (النوام) — بضم النون وفتح الواو — وشرحوا أعراضه قبل أن تستفيق أوربا من نومها .

* سبق العرب الافرنج الى حل مسألة الطيران ، والى محاولة ذلك بالفعل والى نقله من حيز العلم الى حيز العمل .

* سبق العرب الافرنج الى اختراع كتابة العميان ..

وقد ظهر ذلك بالتحقيق عندما عثر أحمد زكى باشا على نسخة خطية لكتاب (نكت الهميان فى نكت العميان) تأليف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى . وقد أرشد الى آن العرب كانوا السابقين الى اختراع الكتابة البارزة للعميان ص ٢٠٦ من الكتاب) وقد قدمه المترجم له الى مؤتمر العميان الذى عقد فى أثينا سنة ١٩١٢ .

* عرف العرب « الشفرة » وهى الكتابة السرية قبل الافرنج . وكان هذا الفن مستعملا فى الدول الاسلامية من أيام المأمون الى الحروب الصليبية ، فأخذه الافرنج عن المسلمين ، الذين أخذوا مبادئه عن اليونان ، ثم رده الافرنج الينا « ولجهلنا بمعارف أهلنا اخترناه باسمه الجديد عند الافرنج » وهو الشفرة التى نقلها الافرنج عن كلمة « صفر » العربية ، واستعملوها بمعنى الأرقام ، لأنهم استخدموا الأرقام بدلا

---

(١) الأهرام — ١٩٢٤/٢/١ .

من الحروف فى الكتابات السرية . ثم استعمل لفظ (الجفر) بدل الشفر ، لتقارب المخرجين ، لأن الجفر كان يستعمل فى الألغاز بالحوادث المستقبلة .

ونظرا لأن هذا العلم كان خفيا خاصا بأسرار الحكومات الاسلامية فقد ظل مصونا لا يصل الجمهور اليه ، ولذلك جهل كثير من الناس معنى هذه الكلمة ، حتى أن كتب اللغة لا تشير اليها ، بل أن شراح المقامات جهلوها ولم يفسروها ، بل ان صاحب لسان العرب نفسه لم يذكرها .

ومما يذكر أن المكتبة الزكية كانت تحتوى مجموعة كاملة للمؤلفات العربية الخاصة بالكتابات السرية المعروفة بالشفرة وكيفيتها عند العرب واستخراجها .

* عرف العرب « كرية الأرض » وسبقوا بها جاليليو ، الذى قال بكرية الأرض ودوران الشمس بعد أن قررها العلماء الاسلاميون فى بغداد وقرطبة والقيروان بأكثر من ثلاثة قرون ، وقد سجل هذا الشريف الادريسى وفضل الله العمرى وشهاب الدين النويرى ، وان أبا الفداء والامام الأصفهانى قالا أيضا بكرية الأرض .

* عرف العرب القباطى المصرية قبل الافرنج .

وقد عرض الافرنج هذه المنسوجات على اعتبار أنها من فنون النسيج الحديث التى ابتكروها ، فتصدى لهم أحمد زكى فى مقال نشره فى الأهرام ١٢ أغسطس ١٩٢٤ معلنا أن هذه الصناعة عرفها قدماء المصريين وحافظوا عليها قبل مجىء

الاسلام كما أنهم احتفظوا بها الى آخر دولة المماليك وقال أنه ورد ذكرها فى كتاب ألف ليلة ، وقد انتقلت الى مراكش والأندلس وان أكبر فخار ناله هذا النسيج المصرى هو تشرفه منذ صدر الاسلام بكونه أصبح كسوة لأكرم بيت عند الله ، وان الفاروق عمر هو أول من كسا الكعبة الشريفة بالقباطى المصرية .

❋ (١) ان العرب سبقوا الافرنج الى اكتشاف منابع النيــل ، ووصفوها وصف الشاهد العيان قبل الافرنج بسبعة قرون ، والمؤكد أن المسلمين من أبناء المغرب الأقصى سبقوا الافرنج فعلا ، ووصلوا قبلهم الى منابع النيل وداروا حولها ، ودونوا وصفها .

❋ (٢) ان العرب سبقوا الافرنج الى معرفة تيار الخليج Gulf-stam الذى تتدفق أمواجه فى وسط المحيط الأطلنطى قبل الافرنج بحوالى ١٨٩ سنة .

وأن الرجل الذى قام بهذا الكشف اسمه (الامبيوس) وهو لفظ أصله عربى ترجمته (الأمين) وهو من أبناء بيت عرف باسم الأمين فى غرناطة وكانت السفن التى أرسـلها أمير مالى وغانة مائتى سفينة شحنها بالرجال لاختراق البحر المحيط (الأطلنطى) فغابوا مدة طويلة ، ثم عادت سـفينة

---

(١) الأهرام ـــ ٢٨ يونيه ١٩٣٣ .

(٢) الأهرام ـــ ٢٠ يوليه ١٩٣٣ .

واحدة أخبر من بها أن السفن سارت زمنا طويلا حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللجة واد له « جرية عظيمة » فابتلع المراكب وكان ذلك عام ٧٢٤ هـ (١٣٢٤ م) وأكده ابن خلدون فى تاريخه ونقله فضل الله العمرى فى (مسالك الأبصار) كما نقله القلقشندى .

الدفاع عن العرب

وعلى نفس الخط الذى سار فيه أحمد زكى كان دفاعه عن العرب ، دفاعا مجيدا ، فما من خطأ وقع فى كتابة باحث شرقى أو غربى الا وتصدى له بالمراجعة والبحث ، وأبرز حق العرب وفضلهم وسبقهم .

١ — لعل أهم ما يذكر له فى هذا المجال رده على ما جاء فى الصحف من أن المسيو بونكاريه رئيس الجمهورية الفرنسية أثناء زيارته لعاصمة (الانفليشين) أى (لوندرة) — استقبل عشرين وفدا من طوائف الانجليز ورجالاتهم المعدودين ، وكلهم قدم له خطبة للترحيب بمقدمه الى بلادهم فأجاب كل خطبة بعبارة من الشكر تخالف ما أجاب به الأخرى .

هنالك أسرع أحمد زكى الى نشر فصل فى جريدة فرنسية تصدر فى الاسكندرية وهى جريدة «النوقيل» بين فيه سبق العرب فى هذا المجال ، وأن الوزير ابن زيدون فعل أكثر من هذا ، فيما أورده ابن بسام صاحب كتاب (الذخيرة فى محاسن الجزيرة) أى

جزيرة الأندلس . فقد روى أن الوزير « [1] كان قائما فى جنازة بعض حرمه ، والناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم ، فما سمع يجيب بما أجاب به غيره ، لسعة ميدانه ، وحضور جنانه . قال الصلاح الصفدى « وهذا من التوسع فى العبارة ، والقدرة على التفنن فى أساليب الكلام وهو أمر صعب الى الغاية ، وأقل ما كان فى تلك الجنازة وهو وزير ، ألف رئيس ، مما يتعين عليه أن يشكر له ، فيحتاج فى هذا المقام الى ألف عبارة مضمونها « الشكر » وهذا كثير الى الغاية » .

يقول أحمد زكى : وأظهرت للجريدة الفرنسية أن ما صنعه « ابن زيدون » أكثر بكثير مما فعله الرئيس « بونكاريه » ، ولا سيما اذا نظرنا الى الموقفين ، فان المثكول بالأولاد ، المحروق الفؤاد ، يستعصى عليه الكلام ، ولو كان فى بلاغة قس وفصاحة سحبان » .

ويرى أحمد زكى أن الأمر عند العرب لم يقف عند هذا الحد ، مقدما ثلاث شواهد من العراق ومصر والشام .

* الشاهد الأول : الحريرى (العراق) صاحب المقامات ؛ كلما جمع بين الحارث بن همام وبين

---

(١) مقدمة كتاب ابن زيدون . أو صفحة من مجالس الأنس فى ليالى الأنس لأحمد زكى طبع سنة ١٩١٤ .

السروجى ، واحتاج الى التفريق بينهما ، والى القول (فلما أصبح الصباح) تراه يعبر عن هذا المعنى فى كل مقامة بعبـارة تغاير الأخرى .

* الشاهد الثانى : الخطيب بن نباتة (مصر) أملى مجـلدة معناها من أولها الى آخرها « أيها الناس اتقوا الله واحذروه ، فالكم اليه ترجعون » وهذا أمر بارع معجز .

* الشاهد الثالث : الصلاح الصـفدى (الشام) فانه ألف كتابا كبيرا فى تاريخ المشهورين فى عصره . وسماه (أعيان العصر وأعوان النصر) وهو يقع فى اثنى عشر مجلدا ، فكلما ذكر وفاة أحد المترجمين استعمل عبارة تخالف الصيغة التى استعملها فى كلامه على وفاة غيره ..

وقال أحمد زكى : ان هذه الشواهد قد أوردتها لا ُبلى النهى من الافرنج الجاهلين أو المتجاهلين ، ومن المصريين والمتفرنجين ، ليعلموا أن فى اللغة العربية كنوزا لمن يطلبها ، وذخائر تجعل لها ولأهلها فخرا باقيا ..

٢ — دافع عن العرب ازاء اتهام أحد الرحالة النمساويين وزوجته (جوزيف يسنجر) لأحد مشايخ العرب فى

خلال رحلته بالصحراء فى أفريقيا أنه قدم له فاكهة مسمومة .

وكتب زكى باشا مقالين متوالين : أولهما بعنوان : «حاشا للعرب أن يقدموا السم لضيفهم (الأهرام ٢٦ أكتوبر ١٩٢٨) والثانى بعنوان « وشيخ القبيلة أيضا لا يدس السم للضيف » (الأهرام ٢٨ أكتوبر ١٩٢٨) ومما قاله « فليقل لى صاحبى ، ماذا كان يمنع شيخ القبيلة من أن يفعل به وبزوجته كل ما يريد من قتل وسبى وتشريد ؟ وهو فى مأمن تام من كل عتاب أو عقاب ؟ اللهم الا وخز الضمير ، اللهم الا الشهامة العربية ، اللهم الا الكرامة البدوية .

وقال : لا أقسم بالسماء والطارق ، ولا بالفجر الكاذب أو الصادق ، بل برب المغارب والمشارق ان العرب والبدو والطوارق ، لا يدسون السم للغريب الطارىء ولا للضيف الطارق .

ولست بالذى يمين فى هذه اليمين ، لأنى أتحدث عن خبرة هى عين اليقين ، بعدما طوفت فى السباسب والفراقد ، على متون الأفراس والبغال والأباعر ، وعلى ظهور السيارات والمواتر (١) ، لا فرق فى ذلك بين الجول والشول والحمار فى بادية العرب والشام ،

---

(١) أى الموتورات (كل ما يسير بالموتور) .

وبين تيه اليهود فى شبه جزيرة الطور بفاران ، ومهامه تهامة فى اليمن والحجاز ، ولا بين برارى مريوط والنطرون وشيهان ولوبيا فى أحشاء الرمال التى لها بالصحراء الكبرى أتم اتصال ..

ويوجه كلامه الى الرحالة : أنت نسبت الى قبيلة البربر ارتكاب الفظائع ، فأنت ظلمت الحق والتاريخ لا بل سل المستشرقين من قومك مثل (كراباسك) ثم سل العلامة (هـ موللر) ثم سـل (جولد سـير) و (كوينزتفلد) دون زملائهم فى بقية أوربا وأمريكا ، فكلهم يتحدثون اليك عن مفاخر البربر ، وعما كان لهم أيام كانوا فى صنهاجة وبنى عبـد الواد ، من السلطان الأكبر وعمـالهم فى يومنا هذا من المآثر والمحامد ، التى لا ينكرها حاقد أو جاحد ..

٣ — وهو يهاجم الدعوات التغريبية التى تريد أن تفصل العرب ، وتمزق شملهم ، فاذا جاء ذكر (الفينيقية) تطوع لكشف حقيقة هذه الكلمة ، وأبان أن العرب لم يعرفوها ، وأنها كلمة دخيلة ، فهو ينكر أن كان عنـد أسلافنا العـرب شىء أو لفظ اسـمه فينيقيه أو فينيقى ، ويقول : فكيف أرضى [١] لابن عمى أن يختار لبلده ولقومه اسما افرنجيا ، وهو لا أصل له عندى ولا عند جدى .

---

(١) المقطم ١٣/١٠/١٩٢٩ .

« فينيقية » هذا لفظ يونانى معناه النخلة ، وقد وضعه الأغارقة فى جاهليتهم الأولى ، بعدما زاروا تلك البقعة الساحليةالتى تمتدمن أنطاكيةشمالا الى غزةجنوبا . وانما أطلقوا عليها هذا اللفظ لأنهم حين وفودهم عليها رأوا النخلة (أصلها ثابت وفرعها فى السماء) وهى تتهادى فى جمال واختيال مع النسيم حيثما مال ، فقالوا مشدوهين :

— فينكيا . فيليكيا .

وتناول شعراؤهم ومؤرخوهم وكتابهم هذا الاسم الجميل فجرى بين يراع (أوميروس) شاعرهم الأقدم ، و (هيردوت) مؤرخهم الأول ، حتى وصل الى بطليموس الجغرافى الفلكى ، الذى تعشقه العرب ، وهاموا به وبكتبه هياما لا يقف عند حد ، ومع ذلك لم يأخذوا عنه هذا الاسم ، ولم يسيغوا هذا الاصطلاح كما فعل الرومان من قبلهم .

[1] ومضى يتحدث عن أهل هذه المنطقة فقال : انهم درجوا فى عشهم الأول فى جزائر البحرين الواقعة على الضفة الشرقية من بلاد الأحساء وهى (الحسا) من جزيرة العرب ، فهى لا جدال قحطانية الأرومة يعربية النسب .

---

(١) المقطم — ١٩٢٩/١٠/١٦ .

وقد اضطر فريق من هذا الفخذ من عشائر قحطان بتلك الجزائر (جزائر البحرين) الى الهجرة ، فركب متن الخليج الفارسى قبل ميلاد المسيح بنحو ٣ آلاف سنة ، حتى اذا انتهت بهم أمواج الملح الأجاج الى أمواه العذب الفرات ، أمعنوا بسفائنهم ، مصعدين فى الفرات الى أن ألقوا الأناجر والمراسى (عند بحر النجف) . على مقربة من مدينة بابل ، وهناك نصبوا المضارب والخيام واستقر بهم المقام .

.. ثم عادوا الى الترحل فى الفيافى والقفار ، الى أن ألقوا عصا التسيار على شاطىء بحر الشام ، وهناك أسس هؤلاء الأعاريب ملكا يشمل على الدوام طرابلس برياضها ، ثم بيروت بلبنانها ، ثم صور بأرجوانها ، ثم صيدا بأثمارها ، وأزهارها ، ثم عكا بحصبها ، ثم حيفا بكرملها .

وقال : ان الحضارة التى نشأت فى تلك المدن فى البحرين هى نفس الحضارة التى شيدت نظائرها على سواحل لبنان وفلسطين ، ولا سيما فى صيدا وفى صور ، حينئذ ثبت أن الحضارتين مرتبطتان برباط وثيق من العروبة قد سجله التاريخ وقد أيدته الآثار ، وبما أن أهل البحرين منحدرون عن قحطان ، فمن الطبيعى أن يكون فرعهم الذى نجب فى لبنان وفى

جنوبى لبنان تابعا لتلك الدوحة الذكية التى تفاخر به .. » .

٤ — الرد على شبهات اليهود :

كما حرص « أحمد زكى » على[1] رد شبهات اليهود وحاربها بعنف ، ومن ذلك أن الدكتور (هوبارك) من البنجاب أعلن حين مروره بالقدس (ونقلت ذلك الأهرام) أن فى أفغانستان وبلوخستان والهند ما يقرب من مليونى مسلم يعدون أنفسهم يهودا فى الجنسية ، وهؤلاء المسلمون كما يدعى الدكتور بارك يدعون أنفسهم ببنى اسرائيل ، أو هم يقولون بأنهم منحدرون من اسماعيل بن ابراهيم ، وأن أسلافهم جاءوا الى البلاد المذكورة منذ اثنى عشر قرنا خلت ، وهم يعدون التوراة من كتبهم المقدسة » .

وينهال أحمد زكى بأسلوبه الساخر العنيف مفندا هذه الأكذوبة فيقول : « هل نظرت الى هذا الحديث عن نصرانى ، عن يهودى ، عن هندوكى ، وقد يكون هذا الهندوكى بوذيا ، أو برهمانيا ، ان لم يكن صهيونيا ، أو مبشرا انجليكيا ، أو انجلبزيا .

وأنا أحمد زكى باشا لا أصدق هـــذه الرواية التى جاءتنى اليوم عن هندوكى وعن يهودى عن نصرانى

(١) الأهرام — ٢١ مارس ١٩٢٩

فهل من فتى صديق يوافينى بكأس .. ولكنه من ذياك الرحيق ؟

لذلك رأيت من الواجب أن أكاشف قومى بما عندى فى هذا الباب ، أما أول القصيدة فهو دلالة على الكذب والبهتان ، ولا أقول غير ذلك فان كان لليهود جنس (Roca) فلا ريب ولا جدال بأنهم الى اليوم والى ما بعد اليوم ليس لهم جنسية (Nationalite) فكيف يكون بعض الأجيال مسلمين دينا ويهودا جنسية ؟ هذا محال بل ضلال .

وبعد فهل هناك مسلمون هم يهود ؟

ليس الدكتور بارك هو أول من يكاشفنا بهذه الخرافة ، ولكن فريقا من العلماء من قبله قد غرتهم أقوال أولئك الأقوام فقالوا بها أيضا مثل بللو ، وبول ، وهولدشى ، ومثل رافزتى (ببعض تحفظ من هذا الأخير) والناس مجبولون على التولع بكل ما هو غريب ، أو غير مألوف ، ولكن هذه النظرية الواهية قد درسها المحققون من علماء الافرنج ، فنقضوها من أساسها ، بحيث لا يصح لعاقل أن يرجع اليها .

أما عكس ذلك فقد أثبته التاريخ الصادق الى الأمس فان جماعة من اليهود تستروا برداء الاسلام ظاهرا والى حين ، ذلك أن الاسبانيين حينما طردوهم من

(الفردوس الاسلامى المفقود) بعد تقلص ظل العرب من جزيرة الأندلس ذهب جماعة منهم الى أرض الترك وتوطنوا علــى الخصوص فى مدينة (ســلانيك) وأجوارها ، وقد دعاهم حب الكسب والغنيمة الى التظاهر بالاسلام وهم المعروفون عند الأتراك بلفظ تركى ، هو (طونة) وينطقونه (دونمة) بدال مفخمة مثل دال (دوطية) .

أولئك اليهود المسلمانيون ما لبثوا بمجرد صــدور الدستور العثمانى فى أواخر حكم عبد الحميد [1] أن عادوا الى خلع ذلك الثوب الشفاف فصاروا يهودا كما كانوا لا يزالون .

أما القول بأنه توجد على وجه الأرض جمــاعة هم مسلمون دينا بينما هم يهود جنسية فحديث خرافة يا أم عمرو ، وكفى الاسلام ما أصــابه من جرثومة الفساد (كعب الأحبار) ومن شجرة الضلال (وهب ابن منية) ومن ينبوع الخرافات (عبد الله بن سلام) ومن رابعهم (عبد الله بن سبأ) وقد نالوا منه كل المرام وأصابوه بالدواهى العظام ، وأهله غافلون ،

---

(١) صدر الدستور عام ١٩٠٨ .

ولا يزالون . أما القول بأن المسلمين فى بلاد الأفغان يعتبرون التوراة من كتبهم المقدسة فذلك كلام ليس له برهان ومصدره الدعاية الصـهيونية والنزعات الاستعمارية .. » .

التحقيقات والتصويبات
(التاريخية - الجغرافية - اللغوية وأسماء الأعلام)

أما المجال الفسيح الضخم العريض لمراجعات زكى باشا وقراءاته المتصلة فى مراجعه وكتبه ومخطوطاته التى جمعها خلال أربعين عاما أو يزيد ، والتى عاش فى غمارها يراجع ويحقق ويكتب تعليقاته وجذاذاته ، هذا المجال نجده فى هذه التحقيقات والتصويبات التى لا حد لها فى مجالاتها التاريخية والجغرافية واللغوية وأسماء الأعلام والآثار .

وهى حصيلة ضخمة واسعة نشرها فى الصحف ، وحاولنا الاحاطة بها على قدر الامكان ، واستطعنا أن نحصر قضاياها الكبرى ، وقد ركز فيها على مصر بالذات ، واهتم بها اهتماما كبيرا ، وجعل رحلته فى بلادها وآثارها ومعابدها ومساجدها ، ومراجعة ما كتب عنها ، همه الأول .

١ – فى مصر

وقد بلغ من الاحاطة بها أن كان يعرف آثارها الاسـلامية المنبثة فى أقصى القرى ، وينتقل اليها ويحقق فى أمرها ، ولعل أبرز ما وصل اليه فى هذه التحقيقات التاريخية ما كشف عنه ، وأثار به ضجة كبرى ، وهو :

* السيدة زينب ما اختارت مصر ولا هى مدفونة فيها .
* الرأس الشريف ليس بالمسجد الحسينى .
* مؤسس الأزهر والجبرتى ليسا مدفونين فى الأزهر .

١ – قبر السيدة زينب :

أثار أحمد زكى أمر الرواية القائلة بقدوم السيدة زينب بنت الامام على وأخت الامام الحسين الى مصر واقامتها ووفاتها بها .

وأنكر هذه الرواية ، بعد أن أجرى مراجعات متعددة على طريقته ، وفى هذا يقول :

« الذى يشهد به العارفون بالحق الصريح ، هو أن السيدة زينب بنت الامام على وأخت الامام الحسين ، لم تتشرف أرض مصر بوطء قدمها المباركة مطلقا مطلقا مطلقا ..

والحق الذى ليس بعده الا الضلال ، أنها قضت باقى حياتها

بالحجاز ، الى أن انتقلت الى جوار ربها بالمدينة المنورة ، فكان دفنها بالبقيع .

هذا هو الصواب ، وما عداه فأفك وبهتان .

أما المشهد القائم بالقاهرة فلا يضم رفات السيدة الطاهرة التى أنجبها الامام على ، وقد يكون قائما على ضريح امرأة من الصالحات تسمى زينب أيضا ، كما يجوز أن يكون المدفون فيه أى مخلوق من أى نوع كان ، حتى ولو ممن عبده المصريون على عهد الفراعنة .

كل هذا جائز الا أن يكون ضريح « زينب » بنت على من فاطمة الزهراء .

« وليعلم الناس أن ذلك الضريح لم يكن له وجود ولا ذكر فى كل عصور التاريخ الاسلامى الى ما قبل محمد على الأكبر بسنوات معدودات .

« فقد جاء مصر واحد من الأغـاوات ، واغتنى فى مصر ، وأحرز ثروة طائلة ، وجاها عريضا ، وهو الأمير (عثمان كتخدا) صاحب الجامع القائم باسمه بآخر شارع عابدين وبأول ميدان الأزبكية بالقاهرة ، هذا الرجل كان طيب السريرة ، وقد وسوس له بعض الأشـياخ بأن يبنى جامعا على ضريح فى تلك البقعة ولا أدرى كيف وصفوه بأنه لامرأة تسمى (زينب) ثم تسلسلت الأكاذيب فجعلوها زينب بنت على من فاطمة البتول .

« لم يكن لزينب (أيا كانت) ضريح قبل عثمان كتخدا ، حتى

بين المزارات المكذوبة فى القاهرة ، (وياما أكثرها) أما البركة ، وأما الروحانية فذلك شيء آخر .

« من أكذب الكذب ، ومن منتهى الافك والبهتان أن يقول انسان يحترم الحق ويحترم عقل نفسه أن السيدة زينب بنت الامام على قد اختارت الاقامة بديار مصر ، أو أن يزعم بأنها هى المدفونة فى القاهرة » [١] .

وأضاف « يوسف أحمد » مفتش الآثار العربية على ما ذكره أحمد زكى أدلة تاريخية متعددة تؤيد القول بعدم مجيء السيدة زينب الى مصر ، وعدم وجود قبر لها فى هذه الديار .

وقال أن ابن جبير الأندلسى زار مصر فى أواخر القرن السادس للهجرة وكتب أنه وجد بها مشــهدا للسيدة زينب بنت يحيى ابن يزيد ، واستنتج من هذا أن مقام السيدة زينب بنت الامام على لم يكن له وجود فى مصر حتى أواخر القرن السادس للهجرة وأن السخاوى المؤرخ المشهور أيد ذلك الرأى . وقال يوسف أحمد أن البانى للضريح هو عبد الرحمن كتخدا عام ١١٧٤ ، وليس عثمان كتخدا [٢] .

٢ ـ رأس الحسين :

وأثار أحمد زكى مسألة رأس الامام الحسين ، وأنكر وجودها فى المشهد الحسينى بالقاهرة فى مقال طنان رنان على طريقته فى

---

(١) الأهرام ـ ١٩٣٢/٩/٨ .
(٢) الأهرام ٢٠ سبتمبر ١٩٣٢ .

مقالاته التى كانت تنشرها الأهرام فى ذاك الوقت بالصفحة الأولى وبعناوين ضخمة ، فكتب تحت عنوان (الرأس الشريف الأطهر ليس بالمسجد الحسينى)[1] وهذه عبارته :

« أسطورة وقرت فى الصدور ، ورسخت فى الأذهان ، وزادها مرور الزمان تمكينا وتأييدا ، فتناقلتها الكافة جيلا بعد جيل ، وأخذها الأخلاف عن الأسلاف قضية مسلمة لا تقبل نقدا ولا نقضا .

« أثبت جميع التاريخيين الذين يعتد بأقوالهم ، ولا سيما المتقدمين منهم ، بأن عبيد الله بن زياد بن أبيه بعث بهذا الرأس الى الخليفة يزيد بن معاوية بدمشق .. ثم أمر بعرضه فى الجامع الأموى ، ثم بصلبه ثلاثة أيام فى دمشق ، ثم أنزلوه ووضعوه فى خزانة السلاح ، فلما أفضت الخلافة الى المردانيين ، أمر سليمان ابن عبد الملك فوضعه فى سفط وطيّبه وكفنه فى خمسة أثواب ، وصلى عليه مع جماعة من أصحابه ودفنه فى مقابر المسلمين .

وبقى الرأس الشريف مدفونا بمقابر المسلمين فى دمشق الى أن فازت الدولة العباسية بالخلافة ، فكان أول هم المسودة البحث عن موضع الرأس الشريف حين دخولهم دمشق ظافرين فنبشوا قبره وأخذوه ، والله أعلم ما صنع به ، ولكن ابن بكار والهمذانى والامام القرطبى ، وهم من الصدور المتقدمين قرروا بأنه دفن فى البقيع عند قبر أمه وأخيه الحسن[2] .

---

(١) الأهرام ١٧ سبتمبر ١٩٢٣ .
(٢) الأهرام – ١٩٣٣/١/١٣ .

٣ ـ مؤسس الأزهر غير مدفون فى الأزهر .

وأكد أحمد زكى فى بحوثه وتحقيقاته المتعـددة أن القبر الموسوم باسم (جوهر الصقلى) فى قلب الجامع الأزهر ليس له ، وأنه غير مدفون به .

وله على ذلك أدلة ومراجعات أوردها على هذا النحو :

« أغلوطة لا يمكننى المرور بها دون التنبيه عليها ، والارشاد الى وجوب تصحيحها ذلك لكيلا يكون فيها حجة للمستشرقين أو أهل الدراية على أن أهل مصر (بلسان الصحافة الصادرة فيها) لا يعرفون الحق أو يتغاضون عنه .

فقد ذكرت الصحف [1] أن قبر جوهر الصقلى فى قلب الجامع الأزهر .

ان مدفن القائد جوهر الصقلى مؤسس الأزهر غير معلوم الى الآن ، وطالما بحثت عنه فذهبت أتعابى أدراج الرياح .

* ان قبره غير موجود بالأزهر بل ان المدفون بالقبر الجميل البديع القائم بالملحق الأيسر المضاف الى الأزهر انما هـو جوهر آخر .
* ان طراز البناء هو من أسلوب الفن المملوكى ، ولا علاقة له بالفن الفاطمى الباقى من آثارهم ، مثل جامع الحاكم والجامع الأقمر .
* الذى شابه جوهر الصقلى فى الاسم هو طواشى حبشى من أهل القرن التاسع للهجرة ، قال عنه السخاوى فى (الضوء

(١) الأهرام ـ ١٩٣٣/١/١٢ .

اللامع) ما خلاصته أنه (جوهر القبقبائى) نسبة الى مولاه الذى اشتراه ورباه ، وهو (قبقباى) الجركسى .

٤ ـ والجبرتى ليس مدفونا فى الأزهر .

وعارض أحمد زكى القول السائر بأن الجبرتى مدفون فى الأزهر وقال : أنه [١] كلف الأستاذ (أحمد لطفى السيد «الصغير» بدار الكتب) لكى يتجرد لهذا البحث وأن الأستاذ يوسف أحمد مفتش الآثار الاسلامية بالأوقاف « يعرف مثلى أن قبر المؤرخ الجبرتى فى (بستان العلماء) بقرافة المجاورين ، ويعرف أكثر منى ومن غيرى ظروفه وأحواله ، ونقوشه وكتاباته » .

وكتب أحمد لطفى السيد فى الأهرام يعلق على كلام أحمد زكى ويقول ان الجبرتى مدفون فى قرافة (قايتباى) .

٥ ـ تحقيقات حول الأعلام والقبور .

وأجرى أحمد زكى تحقيقات متعددة حول عديد من الأعلام والمساجد والقبور والشوارع ، أمثال القائد جوهر ، وكشكش بك ، وسيدى جابر ، وقبر سليمان الفارسى . مراجعا فى ذلك الروايات المشهورة ، محققا اياها ، محاولا الوصول الى الحقيقة .

١ — فالقائد جوهر الذى فتح مصر وأسس الأزهر تضاربت الأقوال فى جنسيته ، وقال بعض المؤرخين انه من الطليان .

---

(١) الأهرام ـ ١٩٣٣/١/١٥ .

ويرى زكى باشا أن هذا التضارب انما جاء بسبب الوصف الذى أطلقه عليه كتاب العرب المتقدمون ، والمقطوع به أن جزيرة صقلية كانت قد دخلت منذ زمان طويل فى حوزة أمراء افريقية ، ثم آلت بعد ذلك الى الفاطميين « وفى خلال ذلك الزمان كان قد انتشر فيها الاسلام أيما انتشار ، وازدهر فى ربوعها أيما ازدهار ، فنبغ فيها العلمـــاء والفضلاء ، والكتاب والشعراء ، وأهل الوجاهة والرفاهة ، وكلهم يعرف بالصقلى نسبة اليها ، وقد جمع أسماءهم الكثيرة وتراجمهم الوافية أحد المستشرقين الطليان ، وهـــو العلامة (أمارى) .

وقال أحمد زكى : ان القائد جوهر كان من هـــذا الفريق ، والدليل على ذلك أن وظيفته الأولى التى كان معروفا بها انما هى كتابة السير ، ثم تولى قيادة الجيش وقد أوغل فى فتوحاته نحو مغرب الشمس حتى انتهى الى المحيط الأطلنطى (ولا نقول أطلسى ، أطلنتيكى ، أتلانتيك الى آخر هذه السخافات) وان هذا الرجل ليس من الطليان ، والذى صح عنـــدى أن جوهـــر الصقلى ليس طليانيا كما يقول الطليان والمتطلينون [1] .

---

(١) الأهرام ــ ٥ يولية ١٩٢٩ .

٢ — ويعرض أحمد زكي لأسطورة « كشكش بك » فى محاضرة رنانة ألقاها بالافرنسية فى المجمع العلمى المصرى ، محاولا تحقيق الأسطورة واخراجها الى مجال التاريخ .

وعنده أنه كان فى عهد محمد على باشا الكبير ضابط فى الأسطول المصرى اسمه (كوشك) على بك — أى على بك الصغير — سكن الاسكندرية بعد أن أحيل على المعاش ، وكان من طبعه العطف على الكلاب يطعمها الحلوى ، فتلتف حوله ، وبهذه المناسبة حدث التحريف .

* * *

٣ — ويبدى « أحمد زكي » اهتماما كبيرا بسيدى « جابر » الأنصارى صاحب الجامع الشهير (برملة) الاسكندرية .

وعنده أن صاحب المسجد هو ابن جبير الأندلسى وليس « سيدهم » جابر الأنصارى على حد تعبيره .

(١) وعنده أن الصحابة الكرام المعروفين باسم جابر لا يزيدون على ٢٥ انسانا كما نص عليهم صاحب (تاج العروس) منهم عشرة من الأنصار ، هم ابن سفيان ، وابن صخر ، وابن أبى صعصعة ، وابن عبد الله ، (ثلاثا) وابن عنيك (ثلاثا) وابن

عمير ، ولم ير فى مصر (أى الفسطاط) منهم
سوى ابن عبد الله وكلهم لم يدفنوا بوادى النيل .

(٢) ومن أجل ذلك « فلا حجة ولا أصل لما اخترعوه ، وزعموا أنه جابر الأنصارى والحال أنه رجل آخر باسم آخر قريب من جابر ، بل هو تصغير جابر أى جبير .

(٣) اذن فمن المدفون فى ذلك الضريح ؟

يجيب أحمد زكى بأنه « كان من عادة اخوانا المغاربة أنهم يتهافتون على الحج عن طريق وادى النيل ، وكان بعضهم يطيب له المقام فى مصر ، ويوافيه الحمام بها ، ومنهم الشاطبى ، والمقرى ، وابن خلدون فى القاهرة .

ومنهم المرسى والمغاورى والطرطوشى والشاطبى وغيرهم بالاسكندرية ، ومن هؤلاء الثانى « ابن جبير » الأندلسى للرحالة الأشهر ، وقد ورد هذا النص الصادق الصريح بأنه انقطع للتدريس فى الاسكندرية وأنه مات بها ، ودفن بها .

(٤) أما قبره فقد وجه اليه أحمد زكى عناية كبيرة ، وبحث عنه بحثا طويلا ، حتى يقول ان كان « شغلى الشاغل ، بعد رجوعى من رحلتى الى الأندلس سنة ١٨٩٢ حتى سنة ١٩٠١ ، ففى هذه السنة الأخيرة شرعت وزارة الأوقاف فى عمارة

المسجد ، وظهر فيه عمود عليه كتابة ، فتوسلت الى صديقى المرحوم أحمد حشمت باشا بنقل هذا العمود الى دار الآثار ولا يزال بها .

(٥) ومن أدلة ذلك تلك الورقة التى أهداها اليه المرحوم الشيخ طاهر الجزائرى بخط المؤرخ الكبير ابن العدى الحلبى « وهى عندى فى خزانتى الزكية ، وفيها يقول ان ابن جبير كان قائما بالتدريس فى ذلك المكان .

٦ ـ أسماء الشوارع والقبور .

ولأحمد زكى تحقيقات متعددة حول القبور وأسماء الشوارع ، فهذا مسجد فى قرية (أبراك الحمام) التابعة لمركز ايتاى البارود ، يقال انه قائم على أجداث جماعة من الشهداء ، منهم (ابن سليمان الفارسى) ويرد أحمد زكى (باشا) بأن الحقيقة أن سليمان لم يكن له زوجة ولم يكن له ولد وقد ذهب الى هذه القرية وحقق بنفسه المسألة .

ثم التفت الى اسم (ابراك الحمام) فاهتدى الى أنها تصحيف من الأتراك وحكام الأتراك عن اللفظ العربى الأصيل القديم وهو أبراج الحمام .

٢ — ويذهب الى قرية قادوس حيث يوجد عمودان أثريان صحيحان هما من الرخام المصقول ، وعليهما كتابة واضحة باسم الفقيه أبى على الحسن بن الشيخ ،

ويرى أن هذه البيانات المنقوشة على الأحجار تؤيد وتصحح وتكمل ما أثبته السيوطى عن هـذا الرجل وأجداده فى كتابة (حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٧٢ و ٢٠٨) .

٣ — وكأنما هو مكلف بقراءة أسماء الشوارع أينما ذهب ، وعندما ذهب مساء ١٩٢٩/٤/٢٦ الى ندوة الجالية الايرانية مر بشارع له لافتة مكتوب عليها (بهاء الدين ابن حنا) واذا هو يكتشف أن هـذا الاسم للوزير بهاء الدين على بن محمد بن سليم بن حنا (بكسر الحاء) ، الذى بنى مسجد أثر النبى المشهور المعمور ، وكان من رجالات الظاهـر بيبرس ، وهاجم مصلحة التنظيم وتساءل : أمن وظيفة التنظيم تنصير الأموات ، وقال انها قد عملت على تنصير الرجل بعد أن عاش ومات على الاسلام بسبعة قرون ، وانهم غفلوا عن صحة الاسم الذى قررته الوقائع والتاريخ على لسان أمير المؤمنين (فى الحديث) ابن حجـر فى الدرر الكامنة ، ثم السخاوى فى الضوء اللامع ، ثم المقريزى فى الخطط ، ثم على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية ، فان هؤلاء جميعا نصوا بصريح العبارة على أن (حنا) بكسر الحاء وتشديد النون ، أى على مثال الشجرة الطيبة المعروفة عندنا باسم (تمر حنا) والتى يعرفها العرب باسمها الفصيح (القاغية) .

ويدهش (أحمد زكى) لأن مصلحة التنظيم وضعت فتحة فوق حرف الحاء فى كلمة (حناء) .

يقول « أراد أن يتحذلق وأن يتحفلط ، فوضع حركة طويلة للفتحة فوق حرف الحاء ثم وضع علامة الشدة بارزة ظاهرة فوق النون ، فصير الرجل بعد موته نصرانيا ، بل ان التنظيم بالغ فى تنصير الرجل بعد موته فخشى أن تكون الحركات العربية غير كافية لتمام الدلالة على نصرانيته فكتب اسـمه بالافرنجى Hanma

٤ — ويعاتب مصلحة التنظيم أيضا لأنها عمدت الى ترقية الوزير الأيوبى الصاحب صفى الدين بن شـكر — فجعلوه بالزور والنبوت — السلطان الصاحب فى شارع الحمزاوى .

١ — جولاته فى القاهرة .

وتدل أبحاث أحمد زكى المتعددة على خبرة فائقة ودقة لا حد لها فى معرفة كل ما يتصل بالمساجد والآثار ، والقبور والأعمدة ، فى جميع أنحاء البلاد ، وله تحقيقات فى أثر النبى ، والفسطاط ، يصل فيها الى التأكيد بعدم وجود أى أثر — مطلقا — لكف النبى عليه الصلاة والسلام أو قدمه — على أى حجر ، ولا على أى صخرة بالقدس ، ولا فى مسجد السيد البدوى فى طنطا ، ولا فى

مسجد قايتباى فى قرافة القــاهرة ، ولا فى مسجد أثر النبى فى الفسطاط ، ولا بأى محل آخر ..

وبين أن ذلك كله انما هــو من آثار الوثنية ، وليس من الحقيقة بمكان [1] .

٢ — وأنكر خــرافة العريش [2] والقول بأن بها قبــورا للأنبياء ، وذلك بعد أن راجع اثنى عشر كتابا (بعدد الأسباط) وكلها من عيــون التواريخ « وأفضــل المصــادر التى اليها المرجع فيما يتعلق بالمزارات ، ولكننى لم أظفر بغير الصفر » وأنحى باللائمة عــلى (كعب الأحبار) الذى خدعهم بأن بالعريش قبــور عشرة من الأنبيــاء « ولذلك ذهب العرايشية الى العمل بأكاذيبه فدفنوا فى هذا المكان بطريق الوهم بل الايهام شيئا ، أو رجلا زعموا أنه من الأســباط ثم ترقوا بهذا السبط المزعوم ، فأضافوه بالزور الى ديوان الأنبياء ، وهو منه براء .. » .

٣ — و « الفيوم » نالت منه مراجعات كثيرة : هل اسمها عربى ، وأكد أنه كلا ثم كلا : ليس هذا الاسم عربى قط .

ووصل الى أن كلمة (فيوم) كلمة قبطية ، أضاف

---

(١) ١٩٣٣/٩/٢٣ ـ الأهرام .

(٢) اى توزعت .

العرب اليها أداة التعريف وكان القبط قد أخـذوها من الفراعنة .

٤ — وحمل أحمـد زكى على أسماء المدن : بور سعيد . بور توفيق . بور فؤاد ، وقال ان هذه التسمية فيها احتقار للغة العربية ، وهى لغة الدولة ، وانها مهانة مزدوجة للغة والتاريخ ، بسبب « هذا الاندفاع فى التيـار الافرنجى والتقـليد المأفـون لكل ما هو افرنجى » .

وضرب المثل بأسماء المدن القديمة المرتبطة بأسماء أمـراء أو حكام كالعزيزية المنسوبة الى العـزيز الفاطمى ، والجمـالية المنسوبة للأمير بدر الجمالى ، والصالحية المنسوبة الى السلطان الملك الصالح نجم الدين الأيوبى ، والفكرية المنسوبة الى أمين فكرى .

٢ — فى العالم العربى والإسلامى

ولم تقف تحقيقات أحمد زكى عند حدود مصر وحـدها ، بل تعداها الى العالم العربى والاسلامى كله ، فى مجال الجغرافيا والتاريخ ، والأعلام والآثار والقبور والمساجد الخ .

وله فى ذلك مقدرة لا حد لها ، فهو يعرف الأماكن الأثرية المختلفة فى الشام معرفته للأماكن المصرية .

١ — فاذا ذكرت (أفريقيا) عارض ذلك وقال ان حـرف الألف فى أول أفريقيا وهو A انما هو أداة النفى فى اليونانية ، والذى أعلمه أن هذه الوظيفة لهذا الحرف انما هى فى اللغة اللاتينية ، ثم زعمـوا أن (فريكا) معناه البرد ، أى البلاد التى لا برد فيها ، من أين وكيف جاءت الكاف أو القاف فى آخـر الكلمة ؟ مع أن كلمة برد فى كل لغات الفرنجة ليس فيها كاف .

* وعنده أن هذه البقعة سميت باسم الذين هاجـروا اليها ، واستوطنوها تحت قيادة (افريقيش) ، ولذلك نظائر كثيرة ، منها مصر ، واسـم ملكها القـديم (مصرايم) وتوشى لبلاد الأحباش وما اليها ، وبلاد

المندل (عود الطيب) فانها باسم ملكها (مندل) وهى المعروفة عند الافرنج اليوم باسم (كورومندل) .

* ويقول أحمد زكى ان جماعة من عرب اليمن ذهبت الى هـذا الساحل الجنـوبى من البحـر الأبيض فاستعمروه ، وهم قبائل البربر من نسل حام بن نوح ، وأطلقوا اسم جدهم الأعلى على قطعة كبيرة من الأرض كانت قبل العرب وبعد العرب تشمل طرابلس وتونس وقد عرفها التاريخ والجغـرافيا باسم افريقيا قبـل الاسـلام .

فلما أشرقت عليها أنوار التوحيد بقى الاسم القديم للدلالة على عمـالة تونس أو مملكة تونس . ولكن الاسم العربى بقى هو هو مع كسر الألف فى أوله وزيادة الياء فى آخـره اشعارا بحفظ النسبة الى افريقيش .

ثم جاءت الجغرافيا الحديثة فتوسعت باطلاق اسم افريقيا على جميع القارة ، وكان اليونان يسمونها لوبيه ومنذ عهد محمد على اذا قالوا (افريقية) فلا يراد منها سوى تونس الحالية بما قد يكون انضاف اليها من طرابلس أو اقليم الجزائر » [١] .

---

(١) الأهرام – ١٩٣٣/٩/٢٣ .

٢ — وكانت مباحثه عن (بربر . بربره . برابر . برابرة) موضع التندر والسخرية به ، مع أنه تناول فيها جوانب علمية هامة ، فمدينة (بربر) بالسودان أما (بربرا) فهى مدينة ساحلية على خليج عدن .

ثم تناول بالبحث « تاريخ البـــربر » وتحدث عن هجرتين لهما ، الأولى هى هجرة بنو يافث بن نوح وهم (الآريون) الى جهة الشمال فاستوت أقدامهم بأطراف أوربا وأطرارها ، سوى أن أوزاعا منهم (وهم الوندال والقوط وأضرابهم) قد انتهت بهم خاتمة المطاف عندما ألقوا عصا التسيار بآخر الطرف الثانى جنوبى أوربا ، فعدوا بحر الزقاق (بوغاز جبــل طارق) وهنالك حكموا البربر واختلطوا بهم .

❊ أما الهجرة الثانية فقد تدلى معهم (بنو حام) الى الأنحاء الجنــوبية وما زالوا يمعنون فى الســير ، ويجوبون القفر ، ويقطعون البر ، حتى انتهــوا الى سيف البحر ، هنالك جازوا باب المندب ، الى قارة افريقيا ، فاستقر فريق منهم وهم (البرابر) فى البقعة التى سبق لنا الالماع بوصفها ، وأطلقوا اسمهم على المصر الأكبر فيها ، أعنى مدينة بربرة ، أما السواد الأعظم منهم فقد جمد بعضه الى الجهة الغربية ، وطاب له المقام فى بلاد الحبش والسودان والتكرور .

❊ ثم أشار (أحمد زكى) الى بنى سام فقال انهم اختاروا

أواسط المعمور ، وأن بعض العشائر منهم انساقوا الى الهجرة ، وتندحت [1] أفخاذ منهم الى المشارق فى آسيا ، وأخرى الى المغارب فى أفريقيا ، ومن هـذا القسم الأخير صـعدت شراذم وجماعات الى نحـو الشمال فى أفريقيا أيضا ، وهم البربر ، وقد انضافت اليهم شراذم أخرى من اخوانهم عن طريق البحـر الأبيض المتوسط ، وقد نزلت منهم طائفة الى باب المندب ، وانتقلت الى الضفة الأخرى ، وانتهت الى صوب منابع النيـل ، فنزلت فى تياره ، وبعضـها استوطن بلاد النوم ، ومنهم القوم المعروفون باسم (البرابرة) الآن ، أما البعض الآخر فقد واصل السير حتى احتل أرض مصر ، وتلك هى جرثومة الفراعنة الأقدمين .

وقال ان هذا الرأى عليه الكثيرون الآن من عـلماء السلالات البشرية ، وقد قال به أحمد كمال باشـا الأثرى المصرى .

وأبدى أحمد زكى شكه فى الرأى الآخر الذى كان عليه (ماسبيرو وغيره) من الكتاب الغربيين وهو (ان المصريين جاءوا من آسيا عن طريق برزخ السويس) واعترف بخطئه فى اعتناق هذا الرأى فترة عندما ترجم

---

(١) اى توزعت .

الى العربية كتاب (تاريخ المشرق) لمسبيرو عام ١٨٩٧ وقررته وزارة المعارف سـنوات طويلة للدراسـة بمدارسها !!

٣ — ولا شك كانت رحلات أحمد زكى الى مختلف أقطار العالم العربى بعيدة الأثر فى تحقيقاته .

فالأهـرام تكتب عن طائفة فى سـوريا تسمى (بنو دندش) فيقول ١٥/١٢/١٩٢٩ (الدنادشـة أو بنو دندش) قبيلة من طائفة المتاولة أو الشيعة فى لبنان اشتهروا بالشدة والبطش الخ .

فينبرى أحمد زكى فيرد على داود بركات رئيس تحرير الأهرام الذى أورد هذا الكلام بمقال تحت عنوان[1] : الدنادشة شىء وبنو دندش شىء آخر « وأنا أقول ان هذا الكلام ينصب بغير حق على الدنادشة الذين أراد الكاتب تعريفهم دون بنى دندش » .

ثم يفيض فى التفاصيل حيث يوجد فى سوريا طائفتان من السكان ، لم يكن لهم وجود قبل ٦٠ أو ٧٠ سنة فقد انحدروا عن رجل من عامة الناس كان أبوه قد اختـار له اسم (دندش) فصـاروا بهذا السبب (بنى دندش) وهؤلاء الذين ينصرف اليهم وحـدهم دون (الدنادشـة) تلك البيـانات (التى نشرتها

---

(١) الأهرام — ١٦/١٢/١٩٢٩ .

الأهرام) ويكشف عن احاطة شاملة ودراسة تامة لهذه الطوائف فيقول :

ان بنى دندش من الشيعة المتاولة ، ولكن مساكنهم ليست فى الجبل الشرقى بل الحق انهم متوطنون فى الشمال الغربى من مدينة بعلبك ، أى فى جبل الهرمل عند منبع العاصى ، الذى يسقى حمص وحماه وأنطاكية ، ثم يصب عند السويدية فى البحر الأبيض . ولبنى دندش كثير من (الطروش) أى قطعان الماعز ، يصنعون من ألبانها جبنا لا يكاد يكون له مثيل فى أسواق حماه (حماها الله) .

وعلى ذلك فليست مواطن بنى دندش ممتدة من جوار دمشق الى ما وراء حمص ، كما جاء فى الأهرام ، فانه ليس وراء حمص الا بادية .

* ويعود فيكشف عن (الدنادشة) فيقول ان فيهم مربط الفرس ، وهم من خيار العرب وكرام اليمن ، وحاشا ثم حاشا ، أن تصدق عليهم واحدة من تلك الصفات التى تقال عن (بنى دندش) .

ويرجع العهد بأولية الدنادشة فى بلاد الشام الى ما قبل ثلاثة قرون ، فقد ترحلوا من اليمن الى أرض الشام حتى ألقوا عصا التسيار فى حوران .

أما لقب (الدنادشة) فصار لهم فى أواسط القرن الحادى عشر للهجرة ، وكان زعيمهم (اسماعيل أغا)

مغرما باتقان زينة خيله ، وكان يحليها بأقمشة لها علاليق وأهداب وأنواط متدلية ، وهى المعروفة فى بلاد الشام باسم (دنادش) ومن ذلك قولنا فى مصر ثوب مدندش .

٤ — وفى مجال الجغرافيا له باع طويل يمتد من صقلية الى المحيط الأطلنطى . وقد تحدته (جريدة المؤيد فى فبراير ١٩١٢ بايراد بعض أسماء أعلام ومدن وأماكن فى (جزيرة صقلية) مترجمة ومحرفة وطالبته بأن يرد الكلمات الجغرافية المحرفة الى أصولها الصحيحة ، يقول الأستاذ محمد مسعود — وكان محررا بالمؤيد اذ ذاك — وهو قريع شيخ العروبة فيما بعد فى مساجلات متعددة : انه ما مضى يوم واحد على صدور المقال حتى دخل زكى باشا متدفقا على باب مكتبى فى ادارة المطبوعات وفى يده هذه الورقات الثلاث عشرة التى ترونها الآن بيدى والتى أحرص عليها حرص البخيل على ماله ، وصاح بى قائلا : هذه المكيدة العلمية لا يدفعها الا أنت وقد حللت عقدتها فى هذا المقال ، فعليك أن تنشره فى المؤيد ، وأن تقف على تصحيحه المطبعى ، وكان التحقيق يتناول (تسعة أسماء) .

وقد نشرت المؤيد يوم ٦ فبراير ١٩١٢ المقال ، فغطى

صفحتها الأولى كاملة تحت عنوان « عجالة عن بعض المدائن فى صقلية » .

وانتهز أحمد زكى الفرصة فتحدث عن محاسن (تلك الجزيرة) « أيام » نشر الاسلام عليها راياته ، وأبلغها الى نهايات المجد وغاياته ، فقد عمرها المسلمون بغابات الزيتون ، وأغنوها بصناعاتهم وتجاراتهم ، وقد خرج منها العلماء والفقهاء ، والكتاب والشعراء ، وفى طريقه حقق ما ورد عن صناعة الحرير فى الجـزيرة عـلى الطريقة الدمشقية ، فقال ان الاسم الفنى فى كتب العرب لهذا النوع الجميل من المنسوجات الغالية هو (الخسروانى) وكانت صناعته قد ظهرت عـلى يد العرب فى دمشق الفيحاء ، وسماه القوم بالخسروانى ، لأنه كان خاصا بالملوك دون سواهم ، فاشتقوا له اسما مخصوصا من لفظة (خسرو) المنقولة عن لفظ (كسرى) .

٥ — والمحيط الأطلنطى ، يذكره بعض الكتاب والباحثين باسم المحيط الأطلسى وهـذا — عند أحمد زكى باشا — خطأ لا يغتفر ، ذلك أن الجغرافيين من الفرنجة قد تطابقوا على نسبة هذا المحيط الى قرية (أدلنت) أو أطلنط Atlante التى انخسفت فى قعـره منـذ زمان بعيد ، وهى الفاجعة التى وصل الينا بيانها عن أرسطو ، من جمـلة ما استعاده من كهنة المصريين

القدماء ، وما تزال لهذه القارة بقايا بارزة ، وهي جزائر (أمورة ومادیرة وکناریا) وهی ما يسميه العرب بالجزائر الخالدات .

ويقول أحمد زكي ان المخرفين الممخرقين الذين ينسبون هذا المحيط الى (أطلس) ليسوا على صواب ، وانما هم تابعوا الافرنج متابعة عمياء ، بلا تمحيص ولا مراجعة .

وعنده ان لفظ (أطلس) أخذه اليونان عن كلمة (ادرار) التي يستعملها المغاربة الى يومنا هذا للدلالة على أى جبل كان ، ثم جاء المؤرخون فى عهد محمد على فأخذوا عن الترك عن الافرنج اسم هذا الجبل فى ثوبه الأعجمى المحرف ، فقالوا أطلس ، ثم جاروا الأتراك فى تسمية المحيط الغربى الكبير أنه (أطلنطيقى) نقلا للفظة الافرنج (Atlantigute) ، ولكنهم أضافوا ياء النسبة العربية الى صيغة النسبة الافرنجية .

ثم جاء من ترفعوا عن هذا التفرنج فقالوا : المحيط الأطلسى متوهمين أن (أطلنط) هى نفس (أطلس) .

٦ — وهو لا ينى يحقق ويصحح المواقع والقبور فى العالم العربى ، ويرد على القائلين بوجود (قبر لسلمان الفارسى) فى فلسطين ، وأن القبر المنقور فى صميم الصخر بباطن الأرض التى تقوم الى جانبها مدينة

(ســدود) فيما بين غزة ويافــا من فلسطين ليس للصــحابى الجليــل سليمان الفارسى « فان الرجل لم يزر فلسطين ، بل انه مات ودفن فى أرض العراق ولقبره فيها مزار مشهور على مقربة من بغداد الى الجنوب ، وهى (سليمان باك) بالباء الفارسية ، ومعناه الظاهر سليمان [1] .

٧ — ويرد على القائلين بأن (وادى النمل) يقع بين جبرين وعسقلان فى فلسطين ، بأنه ليس هنالك مكان اسمه وادى النمل ، وأن هــذه العبــارة يضرب بها المثل للمكان الكثير السكان ، وتكون الآية القــرآنية — عنده — من باب تشبيه القوم بالنمل فى كثرة العدد فى نظــر بنى اسرائيل ، وتكون تســمية الوادى بوادى النمل اشارة الى المكان الكثير السكان على ما قرره « الجاحظ » [2] .

وقد تعــرض من أجل هذا الرأى الى معارضــات الباحثين والفقهاء ، ودافع عنه محمد فريد وجدى فقال « انما حداه الى ذلك غرض شريف وهو تبرئة القرآن من الأمور التى تستعصى على العقل ويتوسل بهــا المتشــككون ومن يلف لفهــم أى الطعن فى الاسلام » . وان كان فريد وجدى لا يرى أن رأى

---

(١) الأهرام — ٣٠ يونية ١٩٣٣ .
(٢) الأهرام — ١٩٣٣/٨/٦ .

أحمد زكى من الوسائل الحاسمة فى هـذا الباب ولا هى بالطريقة المثلى التى نص الكتاب نفسه على اتباعها فى مثل هذه المواطن ، ذلك أن القرآن الكريم أفرد — من بين الكتب السماوية — بنص حاسـم لا يحتمل التأويل فجعله بمنجاة من الشبهات وهـو قوله تعالى « هو الذى أنزل عليك الكتاب فيه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات .. الآية » .

٨ — ويمضى أحمد زكى فى تحقيقاته فيرد على القائلين بأن مصطفى كمال قائد الثورة التركية سيطلق عليه اسم (الذئب الأبيض) التماسا لما ورد فى الأساطير الطورانية القـديمة ، وكان الأتراك يعبـدونه فى جاهليتهم الأولى ، وقد اعترض زكى باشا على هذا القول وأشار الى أن صواب الترجمة هى الذئب الأغبر ، وان محل الخطأ هو أن الله لم يخلق ذئبا أبيضا الى الآن ، وعنده أننـا لو رجعنا الى الوصف العربى الصحيح لقلنا « الذئب الأغبش » لأنه لونه مثل الرماد فيه بلق بكموده .. » [1] .

تحقيقات الاعلام والأسماء .

ولزكى باشا شوط طويل فى تحقيقات الأعلام والأسـماء ، ولعل أهم ما كان يشغل باله فى هذا المجال أن الغربيين من الكتاب

---

(١) الأهرام — ١٩٢٥/١٢/١٦ .

ينقلون الأسماء العربية محرفة الى لغاتهم ، فيأتى الكتاب العرب فيعيدونها الى اللغة العربية بالنص المحرف الافرنجى دون أن يحاولوا ارجاعها لأصولها الصحيحة .

ولقد أشقى ذلك زكى باشا وأهمه ، وشغله طويلا ، وخاصة فى مجال الأندلس ، وأعلن عنها قبل وفاته بعامين (١٩٣٢) ، ووضعها تحت تصرف الباحثين .

والقضية عنده يوردها على هذا النحو بأسلوبه الجامع بين السخرية والغضب :

« ان الذى يغيظنى ويغضبنى ويكيدلى ، هو أن ينقل أحدنا عن الافرنج ما نقلوه هم عنا ، وأن نجاريهم أو نزيد عليهم فى تحريف أعلامنا العربية أو المعربة ، من أسماء الرجال والمواضع ، بعد أن أخذوها عنا ، وشوهوها ، (محتارين أو مختارين) متابعة لحلوقهم التى تضيق عن نطق الصاد والضاد ، والطاء والظاء ، والعين والقاف ، وأضيف الى ذلك الثاء والذال ، لغير الانجليز ، والخاء لغير الأسبانيين والألمان على نوع ما .. » .

ومن أجل هذا يرى أنه من الضرورى أن تكتب الأعلام الأندلسية (مثلا) بالحروف الافرنكية التى اصطلح الأسبان والانجليز والفرنسيون عليها ، ثم يضع أمامها الاسم العربى الصحيح ، الوارد فى الكتب الأندلسية خاصة ، والعربية عامة ، فيما يتعلق بالتاريخ والجغرافيا وبقية الموسوعة العربية .

٢ — ولعل أبرز تحقيق فى هذا الصدد أثار ضجة كبرى هو تصحيحه للتحريف الذى ورد فى (ترجمة الانجيل) . فقد ورد

فيه ذكر انسان اسمه سمعان من بلدة (فورينيا) وأطلق عليه اسم سمعان القيرواني .

أما (فورينيا) فهى مدينة جليلة قائمة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط فى أرض برقة (لوبيا) المتاخمة لأرض مصر .

وقد ذكر فى الترجمة العربية أنه (سمعان القيروانى) . بينما مدينة (القيروان) لم يكن لها وجود فى أيام المسيح عليه السلام ، « وانما خلقها الله بعد ميلاده بسبعين وستمائة سنة » ، وقد تأكد تماما ما أورده أحمد زكى ، واعترف به الباحثين المتخصصون ، وأجروا تصحيحه .

٣ — وتمتد مراجعات أحمد زكى وتصحيحاته الى لبنان حيث يجرى البحث عن (ظهور) الشوير (ضهور) الشوير ؟ .

وهو يرى أن تناوب الضاد والظاء بتخفيف ، شائع عند اليمانيين ، فقد لمسه أثناء اختلاط بهم فى جبالهم ، كما رأى نظيره فيما قرأه من آثارهم ومن آثار اخواننا فى العراق ، كما سمعه من أفواه الذين اختلط بهم على ضفاف النيل ، ومن الأعاريب العائشين بين دجلة والفرات .

وكلمة (ظهر) : وجمعها ظهور ، تنبىء عن المعروف المألوف فى الانسان والحيوان والجماد ، وهو خلاف البطن .

أما (ضهر) وضهور بالضاد التى هى خصيصة فى هذه اللغة دون كل لسان فى العالم ، فللقسم المرتفع من الجبل ، ويقابله عند الافرنج .

غير أن بعض الباحثين عارضوا أحمد زكى فى تصحيحه هذا ،

ومنهم عباس المصفى ، الذى أشار الى أن كلمة (ظهور) صحيحة وأن فى لبنان عدة ظهور : هى ظهور الشوير ، وظهر البير ، وظهر الجبل ، والظهور . وقال ان قاموس الفيروز بادى سجل أن (الظهر : طريق البر) ، وما غلظ وارتفع من الأرض ، وأن الظواهر أشراف الأرض ، وضرب مثلا بالقول المعروف : من أن قريشا هم الظواهر النازلون بظهر مكة .

٤ — وعندما أشكل اسم الطبيب العربى Adulcisis وسموه أبو الفسيس ، بعد تحريف اسمه وتشويهه ، انبرى أحمد زكى وقال انه (الطبيب أبو القاسم) الذى اشتهر عند علماء أوربا منذ القرون الوسطى والى اليوم ، وأنهم أبدلوا الميم فجعلوها سينا ليكون أقرب الى اللغة اللاتينية .

تحقيقات الأندلس

وعنى أحمد زكى باشا بتحقيقات أسماء الأندلس منذ سافر اليها عام ١٨٨٢ حتى آخر أيامه ، فقد أورد فى كتابه (السفر الى المؤتمر) عديدا من الأسماء بعد تصحيحها وظل يتابع كل ما ينشر فى الصحف أو الكتب ، معطيا نفسه الحق فى فردية التخصص لهذا الأمر ، دون الناس جميعا ، ومن أجل ذلك دخل فى معارك كثيرة مع محمد مسعود وغيره ، ممن حاولوا منافسته فى هــذا المجال .

١ — ويضرب أحمد زكى المثل بكلمة وردت فى تلغراف لروتر عن مدينة فى الأندلس اسمها (Arzile) فترجمها المؤيد (أرجيلية) أما المقطم فقال (أرزيلا) ولكن الأهرام أطلق عليها (أرسيلا) غير أن جريدة (الجريدة) ترجمتها (عرزيلا) .

وتقدم زكى باشا (المتخصص الأول) فقال : لا هذا ولا هذه ولا تلك ..

وانما هى (أصيلا) أو (أصيلة) كما ذكرها الشريف الادريسى فى (نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق) وياقوت الحموى فى (معجم البلدان) والوزير أبو عبيد فى كتاب (المسالك والممالك) وهى احدى مدائن المغرب الأقصى (مراكش) وليس الأندلس ، وهى مدينة صغيرة جدا واقعة على رأس الخليج المسمى بالزقاق ،

المعروف الآن (ببوغاز جبل طارق) ، وقد اشـــتهر من أهلها العلماء .

وقال ان بعض المترجمـــين أرادوا التخفيف ، فقالوا عنها (آزيلا) أو (أزيلى) ولكن الصحيح هو كما ذكرنا (أصيلا) وأصيلى .

٢ — ويمضى أحمد زكى فى هذه التحقيقات ، فيفرد أبحاثا مطولة متوالية تشغل الناس .

فمدينة (Arramdla) التى أطلقوا عليها (الرميلة) هى الرمـــلة .

ومدينـــة (Alhambra) التى أسموها (الهمبرا) هى حمراء غرناطة وكلمـــة (Alcalda) التى أسموها (الكالدى) هى القاضى وغردفوى أو غاردفين وصحتها رأس جردفون (ولا شىء غير ذلك مطلقا) .

٣ — وتحت عنوان « هى شقوبية لا سجوفيا » .

يقول : ذكرت الصحف (سيجوفيا) فتذكرت هـــذه المدينة التى لمحتها من بعيد وهى جاثمة فوق صخرتها العالية العاتية ، تملكها العرب واحتفظوا باسمها القديم ، بعد صقله صقلا قليلا ، فقالوا فيه (شقوبية) وشقوبية ليست بمدينة ، ولكنها قرى كثيرة ، متقاربة متداخلة العمارات فيها بشر كثير ، وجم غفير ، وكلهم خيل للملك صاحب طليطلة » [١] .

---

(١) الأهرام — ٣ مارس ١٩٢٩ .

٤ — وذكرت الصحف مدينة هويسكا فانبرى أحمد زكى يقول : هى مدينة (وشقة) لا هويسكا .

وقد سكنها العرب بمجرد فتحهم لها ٩٦ هـ (٧١٤ م) استقرت قدمهم فيها ، واستبحرت حضارتهم بها .

وقد أخذ العرب اسمها عن اللفظ الرومانى (Osca) (أوسكا) والسين تتبادل مع الشين فى لغتنا ، وفى بعض لغاتهم ، فقال قومنا (وشقه) وصارت فى أيامهم دار علم وأدب .

٥ — ويجرى أحمد زكى تصحيحات متعددة :

فمدينة سرقسطة اسمها عند الاسبان والانجليز (Zaragoza) وعند الفرنسيين (Sarjossa) .

ومدينة قرطبة اسمها عند الاسبان والانجليز والألمان (Cordaba) وعند الفرنسيين (Cordoua) .

كما ترجم (Grazalam) بمدينة ابن السليم ، و (Meainaceli) بمدينة سالم .

٦ — وكتدرائية بورجوس (Bargos) صوابها برغش .

وكتدرائية (Serille) صوابها أشبيلية .

ويقول « واذ كنت عليما بهذين الأثرين الجليلين لزيارتى اياهما سنة ١٨٩٢ زيارة تدقيق وتحقيق ، ولبقاء صورتهما منقوشة على صفحات الصدر ، رأيت من واجبى تعريف قومى بكلمة عن كل منهما .. الخ .

٧ — وقد حقق أحمد زكى فى خلال خمسين عاما عددا كبيرا من الأعلام الأندلسية هذا نموذج منها :

أرز أشبيل = هو الزرقالة الفلكى الأندلسى المشهور
افرويس وافنباسا = هما ابن رشد وابن باجة
افتــرور = هو ابن زهر الأشبيلى
البــوكرك = هو أبو كرش الملاح البرتغالى
سرتم وجواديلوب = وهما اسما نهرين أصلهما سرتم ووادى العب

وهكذا جرى أحمد زكى على تصحيح أسماء أعلام الأندلس : « التى تناولها الافرنج بالتصحيف الخفيف أو بالتحريف الشديد ، وكذلك الأسماء التى عربها العرب وأدخلوها فى كنوز آدابهم ، ثم تناولها الافرنج عنهم ، فأعادوا بعضها الى أصلها أو أبقوا على أكثرها بالصيغة التى أخذوها عن العرب ، أو ادخلوا التحريف والتصحيف على طائفة منها » .

وقد جمع هذا كله فى جذاذات تحت يده ، مرتبة على الأبجدية الأفرنجية كانت تسعفه فى المراجعة العاجلة .

تحقيقات اللغة

وفى مجال التحقيقات اللغوية كان — كشأنه دائما — واسع الباع ، وان لم يكن متخصصا على النحو الذى يجعله مبرزا فيها ، فقد كان هناك من أمثال أحمد تيمور والأب انستاس الكرملى وكرد على والمغربى من يفوقونه ، ولكنه كان لا يلبث بين حين وحين أن يعرض لعبارة أو كلمة أو اصطلاح ، فيجرى فيه تحقيقا أو أكثر .

وقد كان أحمد زكى معنيا منذ أوائل عهد عمله فى مجلس النظار بهذه التحقيقات وله دوره الواضح فى تغيير الكلمات التركية والافرنجية على حد سواء ، بادخالها فى القوانين والتشريعات والأوامر الادارية ، مما ساعد على انتشارها ، وجريها على الألسنة والأقلام .

ولعل أهم ما أحدثه فى هذا المجال ادخاله كلمة (براءة) محل كلمة (البيورلدى) بالنسبة للأمر المؤذن بالانعام بالرتب .

وقد أثارت هذه العبارة ضجة كبرى ، وهاجمها العلماء والكتاب . واضطر أحمد زكى أن يدافع عنها .

وكانت هذه العبارة مستعملة منذ ثلاثة قرون ، وبلغ من نفوذها أنها انتقلت الى (الأزهر) ، فأطلقها أهله على ما كان أسلافهم يسمونه (الاجازة) .

وقد نشر أحمد زكى تقريرا [1] كاملا فى تبرير استعمال كلمة البراءة فى الانعام والنشانات جاء فيه :

« كانت خطتى التى درجت عليها منذ دخلت الدواوين (أى قريبا من ثلاثين سنة) أن أعمل بكل ما فى مقدورى على محو ما أستطيع من الكلمات الدخيلة الغريبة ، وأن أحل محلها فى العبارات الديوانية والاصطلاحات الرسمية ما أرتضيه من الألفاظ العربية ، بعد التحرى والتنقيب ، ولم يكن فى مجهودى طبعا ، ولا فى مجهود سواى ، أن يمحو الألفاظ الغريبة دفعة واحدة ، بعد أن طال استعمالها القديم حتى رسخت فى أذهان العامة والخاصة ، وجرت بها أقلام الكتاب والمنشئين وكتبة الدواوين » .

وقد أشار أحمد زكى الى عدد من المصادر التى أوردت هذه الكلمة ، منها فتاوى القاضى أبى الوليد محمد بن أحمد بن رشد أمام جامع قرطبة ، وجّد ابن رشد الشهير (محفوظة فى مكتبة باريس تحت رقم ١٠٧٢ فى ورقة ١٧٠) يتكلم فيها عن الادارة العسكرية فى الأندلس (فيذكر فيها البراءات) بمعنى (التذاكر) التى يقدمها الحاكم أو الأمير الى جنوده ، لكى ينزلوا على الناس .

وممن اعترض على استعمال كلمة (براءة) أحمد تيمور باشا ، وقال انه يفضل استعمال كلمة (تقليد) .

وقال أحمد زكى فى مجال التفاخر بأعماله فى هذا المجال « أنا المجدد لكلمة (مرسوم) ، والواضع لكلمة (رصيعة) بدلا منها » .

---

(١) نشرت التقرير جريدة المؤيد ١٧ نوفمبر ١٩١٥ .

والواضح الآن أن كلمة (مرسوم) تغلبت أخيرا على كلمة (رصيعة) .

٢ — وهو يواصل نقداته للاصطلاحات الديوانية ، فيرد على (نجيب برادة) الذى ذكر فى احدى جلسات مجلس الشيوخ ، كلمة (رفت) بأن هذه العبارة غير صحيحة وأنه يجب استعمال كلمة (عزل) ، وأن كلمة (رفت) التى قال نجيب براده انه قرأها فى لسان العرب قد وردت حقيقة فيه وفى سائر دواوين اللغة ، ولكن بمعنى الدق والكسر والفت والتفتيت ، دون أن يكون من مدلولاتها بطريق التصريح أو التلميح ما يفيد المعنى المتفاهم فى الاصطلاح الديوانى بمصر — أى اخراج العامل من عمله . ومن جهة أخرى فليس يجوز لنا أن نستعمل كلمة (عزل) بدلها . لأن العزل عقــوبة فرضها قانون العقــوبات ، ولوائح التأديب ، أما (الرفت) فليس فيه ولا من ورائه رائحة العقوبة ، وانما يقال ويستعمل للدلالة على مجرد الاستغناء عن العامل لسبب ما [1] .

٣ — ويعاتب ابراهيم فهمى كريم (وزير المواصلات اذ ذاك) لأنه أطلق على (القاهرة) اسم (مصر) وأنه جارى التيار الجارف فاستعمل كلمة (افريز) للدلالة على الرصيف الجانبى ، وقال أحمد زكى ان هذا اللفظ فارسى أخذه العرب للدلالة على الطنف (بفتحتين) فى أعمال البناء ، وهو (الطابان) المصطلح عليه الآن عند أرباب الكار من طائفة المعمار وقال : ان الافرنج أخذوا هذا

---

(١) الأهرام — ١٩٣٣/٤/٢١ .

اللفظ الفارسي عن العرب بمعناه الصحيح فقالوا افريز بتسكين الفاء .

ويقول : أستأذنه فى اعفائى (من هذا الجمع) ولعله يجد لنا من واسع علمه تخريجا يرضيه ويسمح لنا باستعمال الجمع على (غيورين) ولو باعتبار الانتقال من الوصفية الى الاسمية .

٤ — ولعل من أهم الكلمات التى عرض لها وأثارت ضجة وسخرية كلمة (على الحركرك) التى ظلت مع كلمة (بربر برابر بربرة) موضع فكاهات الصحف .

وعنده أن هذه الكلمة دخيلة وفرنسية الأصل ، ولندعه هو يشرح وجهة نظره بأسلوبه الذى عرف به :

« [1] اننى لم أر ولم أسمع ولم أعلم أنها مستعملة بهذا المعنى الا فى ديار مصر ، فهى اذن ليست بعربية ولا مولدة ولا دخيلة . ثم ان اختصاص وادى النيل بها يحملنى على القول بأنها معربة ، ومعربة عن الفرنساوية . أنا أذهب الى أن ذلك حدث فى أيام الحملة الفرنسية على مصر بقيادة الجنرال بونابرت ، .. لا جرم أن العساكر يكونون قد استعملوها فأشاعوها ، وأن رجال الاحتلال الفرنساوى أكثروا من تداولها حتى أذاعوها فطنت وطنطنت فى آذان أبناء النيـل ، فأضـافوا اليها حرف الحاء فى أولها وقال حركرك ، أما تلك الكلمة الافرنجية فهى تقترب كل الاقتراب من لفظنا العامى وهى (ركراك — ركرك) وهم يقولون فلان (يدفع

---

(١) الأهرام — ١٧ فبراير ١٩٢٩ .

ما عليه ركرك) أى بالتمـــام والكمال . مع الدقة المتنــاهية . بالضبط .

والدليل على هذه النظرية أننى لم أر لهذه اللفظة أثرا مكتوبا قبل أيام محمد على ، وهى لم ترد فى غير كتاب واحد هو قاموس الياس بقطر المصرى من الفرنساوى الى العربى [1] .

وقد رد عليه الشيخ عبد الوهاب النجار فقال ان هذه اللفظة جاءت من لفظ (الحارك) وهو منبت أدنى العرف الى الظهر الذى يأخذ به الفارس اذا ركب ، ثم غيره المصريون على طريقتهم فى التظرف بالكلمات الى حركرك ومناسبة الحارك لمعنى (عــلى الآخر) ان موضع الركوب والحمل من الدابة ظهرها الذى فى نهايته الحارك ، فاذا ركب الراكب على آخر الظهر قيل أنه راكب على الحارك أو الحركرك على سبيل (الظروف) ، وهو الموضع الذى اذا تحرك منــه الراكب الى الأمام لم يستقم له الركوب ولم يستقم للدابة السير [2] .

٥ — وعرض أحمــد زكى لكلمة (يا الله) فقال ان عــادة المشارقة قد جرت على أن يستعينوا باسم الله فى قضاء الحاجات وأن يتداعوا الى الأعمال العادية ولحو ذلك بقول بعضهم : باسم الله ثم صاروا يذكرون (الله) بطريق المناداة ، ثم صاروا يخففون همزة القطع فيقولون (يا الله) وينطقونها كما لو كانت (ياء)

---

(١) الأهرام — ١٩٢٩/٢/١٧ .

(٢) الأهرام — ١٩٢٩/٢/٢١ .

المنادى متبوعة بلام مشددة مفتوحة (يا الله) ثم كثر التداول فصارت هذه الصيغة بمثابة الدعوة الى العمل فى أى أمر من أمور المعاش أو المعاد ، بمعنى هلم . هيت ، هيا ..

وفى مجال الأسماء أشار الى أن أسماء (جريج ، ولاوى ، وشرلمان ، وقسطنطين) من أسماء المسلمين :

وقال ان (ابن جريج) من الأئمة الذين يأخذ عنهم المسلمون تلاوة القرآن وتفسيره ، وكان جـده القريب الأقرب نصرانيا يونانيا ، أعنى عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (تصغير : جرج ، جورجى ، جرجس) .

٦ — ولأحمد زكى كلمات يصر عليها ويرددها دائما منها كلمة (البرتقال) عن الدولة المعروفة بالبرتغال و (جنبرة) عن عاصمة سويسرا (جينيف) وله عشرات الكلمات العربية التى أطلقها على الكلمات الافرنجية ، ومن ذلك كلمة (الناخوذاة) ترجمة لكلمة (Lanalisligue) ، ومعناه المشتغل بتجهيز الفن .

٧ — ويدهش لأن أحدا لم يجاوب المندوب البريطانى على مائدة الملك فيصل فى العراق عندما طالب الأمراء والأعلام — ومن بينهم أمين الريحانى الذى روى هـذه القصة فى كتابه ملوك العرب — أن يدلوه على اللفظ العربى الذى يطلق على الحيوان المعروف فى اللغة الانجليزية باسـم (Badger) : يقول الريحانى : فساح السؤال حول المائدة شرقا وغربا وجنوبا وشمالا وعاد الى المندوب خائب الأمل .

ويعلق أحمد زكى : « وأنا أقول : لو أننى كنت حاضرا لكنت

هديتهم الى الصواب ، فهذا الحيوان قد أكثر كتاب العرب من ذكره ، ومن التعريف به وهو (عناق الأرض) واسمه عند الفرنساويين (Blaircan) (1) .

وجملة القول فى هذا أن أحمد زكى كان فى مجال اللغة وتطويرها مرنا ومحققا فى نفس الوقت . وهو من المؤمنين (باحياء المفردات العربية التى يكون لها أدنى ملابسه أو علاقة بما تدل عليه المخترعات الجديدة فاذا لم يوجد ما يفى بالغرض وضعنا لها اسما يقبله الذوق ، وتتفق عليه الأمة العربية ، ولا جناح علينا من أن نستعمل الألفاظ الجديدة بلفظها الأعجمى بعد صقلها بما يتفق مع قواعد اللغة وطرائق الناطقين بها وقد فعل العرب ذلك وفعله جميع الأمم) (2) .

وهو يدعو الى الحد من التورط فى عبادة القديم « فان لكل زمان حاجاته ولوازمه . ونحن بحمد الله فى غير حاجة الى هذه البهرجة اللغوية القديمة » ويردد دائما قوله « اننا فى حاجة الى لغة نعبر بها تعبيرا سليما من غير اسهاب ولا تنميق .

---

(1) الأهرام — ١٩٢٩/٢/٢٢ .
(2) مصر الحديثة المصورة ١٩٣٠/٤/٢٤ .

آراؤه فى ضوء التحقيق العلمى

وبعد فما قيمة هذه الآراء والأبحاث على ضوء التحقيق العلمى ؟

الواقع أن آراء أحمد زكى فى مجموعها قائمة على التحقيق العلمى ، لولا أنه يمزجها بحواش ومداخل وعبارات يجمع فيها بين السخرية والفكاهة والاسـطالة بأوليته وعلمه وسبقه ، وهو يواصل تحقيقاته ليستوفيها أحيانا فى سنوات وهذه تجىء قوية مدعمة وأحيانا تضطره العجلة الى أن يقول أشياء سريعة ، فيتعثر ويجد من خصومه من يجابهه بالرأى المخالف فيصمت صمتا طويلا .

« أنا أكتب مقالاتى بعد أن أ.نضى فيها جسمى ، وأسهر عليها ليلى ، وأرتكب فيها أكبر جريمة تستحق الشنق والاعدام لدى الكاشحين والمستهزئين والمستهترين ، نعم ، أنا لا أكتب الا عن علم ويقين وبعد أعمال الرأى الخمير ، وبعد ارتكاب أكبر جريمة تستحق التشديد فى النكير ، فاننى والله أقتل مباحثى قتلا مضاعفا مكررا فلا أخرج للناس الا ما صح عندى أنه (علم اليقين) وطالما أقتل مقالاتى صـبرا يطول مداه حتى تبلغ العشرين فأكثر ، وما ذلك الا لتوقفى فى كلمة واحدة وفى الخزانة الزكية (أحرقها الله بنيران الأوقاف وفيرانها) مقالات كثيرة جدا كلها تنتظر حل

المغلق عن كلمة واحدة ، وأنا أتحرج من اخراجها للناس قبل أن أتمم قتلها .. » [1] .

ويردد دائما هدفه الذى يتطلع اليه من عمله « أنا لا أريد بكتاباتى سوى تحريك هذه النفوس الى معرفة فضل العرب والى اظهار علوم العرب » وهو بالرغم من احاطته بالعربية والفرنسية احاطة شاملة فهو يأسف على أنه لم يتعلم اللغة الألمانية من أجل هذا الهدف الشريف .

نصحت اخوانى وأولادى وأحبائى والمريدين بأن يقبلوا على تعلم هذه اللغة حتى يقفوا على ما حققه الألمان من علوم العرب وحضارة الاسلام .

وقد صور لمحة من جهده فى سبيل التحقيق العلمى :

« حدث أن رغبت فى الوقوف على أصل كلمة (زفتى) هل هو عربى أم مصرى قديم ، فذهبت ذات يوم الى دار الكتب وصرت أبحث وأنقب طول الوقت علنى أعثر على أصل هذه الكلمة فلم أوفق ، فعاودت البحث والتنقيب فى اليوم الثانى والثالث ومكثت أقلب القواميس وأتصفح الموسوعات ، ولكنى على الرغم من اضاعتى لجميع الوقت لم أظفر برغبتى ، وأخيرا بينما كنت أجيل النظر فى كتاب ياقوت الحموى وقعت فيه على أن (زفتى) اسم قبطى لهذه البلدة المشهورة ، ولما جاء العرب أطلقوا عليها (منية زفتى) ويقول : تعترينى فى كثير من الأحيان

---

(١) الأهرام ١٠ سبتمبر ١٩٣٤ .

حمى تستفزنى الى الكتابة ولا سيما اذا أيقظتها « غلطة مؤرخ » .

وهو عند طه حسين وزكى مبارك وغيرهما أول مصرى عرف بالبحث العلمى والتحقيق الجامعى . ويرى [1] زكى مبارك أنه أول مصرى استطاع أن يرفع رأسه بجانب المستشرقين فى الجامعة ، وأن يملأ الدنيا بأبحاثه ، وقال محمد مسعود [2] : انه كثيرا ما أمضى الليل لا تكتحل عيناه فى نوم ووصل به النهار ، لا يلتقى له جفن بجفن بل كثيرا ما وصل الأسابيع بالأسابيع ، وأدمج الأشهر فى الأشهر مكبا على تحقيق « اسم واحد » .

وكان من خصائص همته أنه اذا التوى القصد عليه وقصرت أدوات التحقيق فى اسعافه بحاجته أن يشخص الى مدينة غير التى يكون فيها ، أما لسؤال أهل الذكر عما استعجم عليه ، أو يبحث عن مراجع لم تكن متوفرة .

وقال محمد كرد على أنه كان يحقق « الأسماء الأندلسية » بالروية وامعان النظر والمصابرة والمثابرة .

ويقو لأحمد زكى : جرت عادتى أن أحتاط فى البحث ، فأسأل من أتوسم فيه العلم بما أجهله ، وأقيد كلامه ثم أسأل غيره ، فان تطابقا صح الأمر عندى والا رجعت الى غيرهما ، وهكذا دواليك حتى أقف على الحقيقة فأنشرها بين الناس .

وقد عرف عنه أنه حمل مسودة (مسالك الأبصار لأبى فضل الله) الى فلسطين فكان يقرؤها على بعض علماء القدس

---

(١) و (٢) مراثى أحمد زكى ـ الأهرام والبلاغ (يناير ١٩٣٥) .

الأثريين ويقارن بين ما ورد فيها من وصف آثار القدس وما هو موجود اليوم .

وكانت له حملات على من أسماهم « علماء الانحطاط » . وقال ان هؤلاء العلماء ليسوا مقصورين على الأمة العربية وحدها .. وليس أضر على أمة من علماء الانحطاط فانهم يتخيلون العلم كل العلم مقصورا عليهم ، وأن الفضل كل الفضل منشؤه فيهم ومرجعه اليهم « هؤلاء الذين » لا يرون الا أفقا واحدا فيقتصرون على المرئيات المنحصرة فى دائرة هذا الأفق العقلى « والذين » لا يتوقفون فى الجواب على أى سؤال ، ولا يتحامون الانحشار فى أى موضوع » وضرب مثلا لآرائهم :

١ — رأوا أن جبانة مصر تسمى (القرافة) ، وأن هذا الاسم لا يطلق على جبانة أخرى ، لأنه مأخوذ عن اسم بنى « قرافة » الذين توطنوا تلك الجهة فعرفت باسمهم . ويقولون انما سميت بالقرافة لأن الرائد اذا أقبل عليها يلقى رأفة (راجع كتاب تحفة الأحباس للسخاوى المطبوع على هامش الجزء الرابع من نفح الطيب بالمطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠٢) .

٢ — سمعوا اسم « تونس » وهو اسم يونانى قديم لحاضرة افريقية ، أى (الايالة التونسية) الآن ، فرجعوا الى تمخيخهم ، واستخرجوا لها اسما عربيا ، واختلقوا من أجله أسطورة تسوغه وتسيغه فقالوا : ان هـــذه القلعة (تؤنس) ثم خففوا فقالوا (تونس) ثم أطلقوا الفعل المضارع المختلق علما على المدينــة وعلى ذلك قال شاعرهم :

لعمـرك ما ألفيت تونس كاسـمها

ولكننى ألفيتهـا وهى توحش

٣ — سمعوا بقلعة المقوقس التى حاصرها عمرو بن العاص وهى (بابليون) ولم يعلموا أن أصل البانى لها فى قديم الزمان ، أو الذى أمر ببنيانها هو ملك بابل ، حينما أرسل جنوده وفتحوا مصر ، فاختطوا له هـذه المدينة وسموها بابليون (أى بابل الصغرى) .

وقالوا : باب اليـون أو باب اليوم ، وزعموا أنهم كانوا يقولون : من يقاتل اليوم ، حتى جاء اليوم الأكبر أعنى يوم الفتح (راجع المقريزى جـ ١ ص ٨٧) .

٤ — كانوا يكتبون (عدى سببه) على خريطة رسمية لمصلحة المساحة بدلا من (أديس أبابا) ومعناه الزهرة ، لأن ناطقها الأول سمعها كذلك » ا هـ .

ومن أبرز معالم تحقيقاته أنه يعترف بالخطأ ويعود الى الحق متى تكشف له ، وفى مرتين رأيناه يكشف عن ذلك ، ويعلن : « تصحيح لأخطائى أو تصحيح لنفسى بنفسى » .

يقول « أقدم القدوة الحسنة فى الرجوع عن الخطأ الذى وقع منى عندما ظننت ببقاء رفات الشهيد السنهورى فى سنهوك البرك ، اننى أرجـع الى الحق الذى أرشدنى اليه (جرجس فلتاؤوس عوض) حينما كشف لى الصواب ، وأثبت لى بالبرهان القاطع انتقال رفات هذا المشهد الكريم الى ضاحية شبرا الخيمة (لا النخلة) .

ويقول فى مبحث آخر : قلت فى كلامى عن الناصرية ان فريقا منهم يعيش فى مدينة (عنة) وهى عناة أو عانات فى الجغرافية القديمة فجاءتنى الدلالات الصادقة من أهل العلم وأرباب البصر بهذا الشأن « ان النصيرية لا أثر لهم فى تلك الناحية ، ولا فى أى جهة أخرى من أرجاء العراق » .

وما أبرىء نفسى بأننى أخذت هـذا عن كتاب الجغرافية الجـارى تدريسه فى مدارس العراق ، أخـذته قضية مسلمة بلا تمحيص ولا مساءلة ، وهاأنذا قد اغتنمت الفرصة لتقـرير الواقع نزولا على حكم الحق ، وارضاء لضميرى .. » وهكذا تتمثل فى آراء أحمد زكى قاعدتان هامتان من قواعد البحث العلمى والتحقيق التاريخى :

أولاهما : مراجعة المصادر ، وسؤال العالمين ، والانتقال الى الأماكن التى يمكن أن توجد فيها وثائق جديدة وأسانيد أكثر دلالة .

ثانيهما : الرجوع الى الحق متى تكشف واعلان ذلك فى صراحة .

معاركه ومساجلاته

خاض أحمد زكى معارك عديدة ومساجلات متعددة ، فقد شغف منذ مطالع شبابه بالرأى الجديد ، وجرى على أن يخرج من بطون الكتب القديمة نصوصا يحقق بها الآراء المتداولة ، فأحيانا يصل الى الجديد وكل جديد مثير ، فاذا كشفه للناس وعارض به الرأى القديم ، كانت ضجة ومعارضة ، ولعل أحمد زكى كان حريصا على احداث هذه الضجة بين آن وآن ، كأنه يثبت وجوده ، وقد زادت حدة هذه التحقيقات والمساجلات والمعارك بعد أن أحيل الى المعاش عام ١٩٢٢ وتفرغ للبحث ، وأفسحت له جريدة الأهرام صدرها ، ولا شك أن أحمد زكى حقق كثيرا ، وساجل كثيرا ، وكشف عن حقائق كثيرة أغنى بها التاريخ والجغرافيا واللغة .

ولكنه كان فى مساجلاته غاية فى العنف ، فهو عالم بحاثة ، ولكنه لا ينسى مطلقا « نفسه » ، ولا فضله ، ولا أوليته فى البحث ، وكل الذين كانوا فى مجال البحث أزاءه هم فى الأغلب من أبنائه وتلاميذه أو أترابه ، لذلك كان دائما يحدثهم على أساس أنه (معلم) و (قائد) و (سابق) فى مضمار البحث .

وقد كان الناس يقرأون مساجلاته العنيفة مع محمد مسعود وهى أضخم معاركه فربما تصوروا أنهما ندان ، ولكن مسعودا

يعترف فى رثائه لأحمد زكى بأنه كان مصححا لكتابه (السفر الى المؤتمر) .. وأنه كان فى بدء حياته الصحفية عندما كان أحمد زكى كاتبا له اسمه الرنان ..

من هذه النقطة يجىء ذلك الطابع العنيف المتعالى الذى عرف به ، والذى يرجع أساسا الى مصادر نفسية واضحة فى شخصية زكى باشا ، وهى غرامه بالدوى والالتفات اليه ، والتبريز عن طريق التحقيق العلمى والسجال .

ولا شك أن المناظرة هى الفن الذى برع فيه أحمد زكى : بشهادة كل معارضيه وعارفيه ، فهو يخلط الجد بالفكاهة ، ويمزج الحقائق بالسخريات ، وهو عنيف اذا جوبه ، لا يسلّم بسهولة ، بل لعله يعاند كثيراً ويمضى فى البحث لكشف حقائق جديدة يؤيد بها رأيه ، وربما أمضى ليله ساهرا لا يطرق النوم جفنه حتى يصل الى مستند يواجه به خصمه فى الصباح ، وربما دق التليفون على أصدقائه فى الفجر ليقول لهم انه وجد شيئا ..

يقول عنه طه حسين انه « كان ألد الخصام ، قوى العارضة ، يحرج مجادليه أحيانا فيضطرهم الى السخف ، ويحرجه مجادله أحيانا فيضطره الى الأغراب » وهو مع تحقيقه العلمى ومراجعاته لا يخفى عصبية مزاجه ، ولعله كان بذلك رائدا للنقد المصرى فى الأدب العربى المعاصر . وقد أثر فى معاصريه وتبدو ملامح عنفه وشماسه وقسوة عباراته ، واضحة كثيرا فى مساجلات طه حسين والعقاد وزكى مبارك بالذات ، الذى أرى فى عباراته (عبارات أحمد زكى واشتقاقاته) .

٢ — وأبرز ملامح مساجلاته ومعاركه :

* اتسمت معاركه بالعنف ، والاندفاع الى أقصى حد .
* عباراته أحيانا جارحة .
* اعتداده بنفسه واضح .
* اصراره على أن يعلن دائما أنه هو الذى كشف وبدأ العمل قبل غيره .
* غلبة السخرية اللاذعة على نفوذه .
* تأخذ المعارك عنده طابع التحدى والثقة بأنه أصح الناس قولا .
* كان أحيانا يصل به النقد الى درجة كبرى فى الاسفاف .

١ — الاعتداد بالنفس : يبالغ دائما أحمد زكى باشا فى الاعتداد بالنفس ، فى مصاولة خصومه ، فيقول فى معاركه مع محمد مسعود :

« عنى وعنى وحدى ، خذوا النبأ الصادق ، فعندى وعندى وحدى الحجة الصحيحة والبرهان الناطق .

ودع كل صوت غير صوتى فاننى
أنا الطائر المحكى وغيرى هو الصدى

٢ — السخرية فى عبارات السجال : يقول للأستاذ مسعود : اننى أتوسل اليه باسم الرشاقة واللباقة واللياقة ، وبحق اللطافة والطرافة والظرافة : أن يرحمنا من الألفاظ العويصة المتقعرة الجوفاء فيميل بنفسه الى السلاسة فى التعبير وهو عليها قدير ، والى الكياسة فى نظم الكلام ، فارحمنا يرحمك الله من براعة

الافتتاح التى صدرت بها كلمتك عن الطرطوشى : (لأشاغيل طرآنية) يا ستار يا ستار ، لعن الله تلك الأشاغيل التى شغلتك مشاغلها ، فأوقعتنا فى صحراء الحيرة ، وأرجعتنا رغم أنوفنا الى قعر القاموس . يا ستار يا ستار من تلك الطرآنية ، التى طرأت عليك ، فطرقت أسماعنا بالمرزبة المفردة ، وكل مقامع الحديد بالجمع .. » .

* ويقول له فى نقد آخر : لو انفلق البحر مرة أخرى وهو لن ينفلق ، فقد مات موسى وضاعت عصاه ، أقول لو أنه انفلق لما جاراك أحد فى استعمال كلمة « فيلق » بالتأنيث .

* ومن سخرياته أنه يساجل زكى مبارك فى بعض ما نسبه اليه من خطأ فيوجه اليه الكلام على هذا النحو : أيها الطفل الميمون نجل الدكتور زكى مبارك : ألت تكتب باسم أبيك ، فتارة تخطىء وتارات تصيب ، وأبوك ساكت على هذا التدريج والترويض ..

٣ — الادعاء دائما بأنه السابق ، فى كشف الحقائق ، يقول فى مناقشته مع الأستاذ مسعود : أحسنت يا مسعود فيما كتبته عن (جردفون) ، وأحسنت كل الاحسان فى اعترافك لقلمى العاجز بأنه كان السابق الى تنبيه قومى الى وجوب الرجوع بهذا الاسم الأشهر الى صبغته الشرقية ، والى رسمه على الصورة والحروف التى تواضع عليها أربابه ، وتعارفها العرب ، وتناقلوها من قديم الزمان ، أحسنت يا مسعود كل الاحسان فى الجرى على طريقتى فى الرجوع الى أعلامنا فيما يختص بأعلامنا .. » .

* عباراته دائما غـاية فى العنف والاندفاع : يقـول فى مساجلة مع جرجس فلتاؤوس عوض : ولكنه غلط غلطا فاحشا شنيعا ، لا يصدر عن أصغر تلميذ فى أصغر مدرسة بأصغر (قلاية) .

وهو فى عناوينه يقارف هـذا العنف فمنها قوله : حاسب يا مسعود حاسب ، أاصرار على التزوير يا مناع ؟ أو يقول موجها كلامـه الى جرجس فلتاؤوس عوض يا جرجسا يا جرجسا ، لا أسكت الله لك حسا ولا جرسا ..

* تبلغ عباراته أحيانا أشد العنف فتكون جارحة : يقول لزكى مبارك : أما الدلال يا دكتور ، أما التجنى يا مبارك ، فان كان (يوسف) الجديد المتخفى فى ثياب الدكتور زكى مبارك ابن قرية سنتريس قد سحر بهما بنات باريس ، هذا السحر خيال باطل فى نظر غوانى المغانى بشارع عماد الدين وانه ظل زائل أمام الحور الكواعب فى الأزبكية وفى زين العابدين .

ثم يواصل هجومه على زكى مبارك بعنف : كنت أظنه أديبا فاذا به لا يريد الا أن يكون أدباتيا وكان من تعليمى اياه أن يكون محققا فاذا به يبقى ممخرقا .

ويقول لمرقس سميكة فى خلال نقده : وقعت يا شاطر .. فلو أنك استنجدت بابليس وبكل كذاب ، فى العصر القديم وفى العصر الحديث ، ما أمكنك أن تتخلص من هذه الورطة الا اذا أدليت أنا اليك بحبل النجاة يا مسكين .

١ - بينه وبين على بهجت :

من أولى معاركه التى أحدثت دويا وضجة ، معركة طاس صلاح الدين التى انعقدت بينه وبين العلامة « على بهجت » الأمين العام لدار الآثار العربية والذى يصفه أحمد زكى باشا بأنه أستاذه وصديقه .

وقد حدثت هذه المعركة فى أبريل ١٩١٦ ، ورصدتها جريدة الأهرام ، ودار فيها السجال أياما متوالية ، على طريقة زكى باشا ، وهى ايراد الشواهد ، ثم ايراد مزيد من الشواهد .

وقصة (طاس صلاح الدين) عرضها أحمد زكى فى محاضرة له ، فلما أتم الموضوع وقف (على بهجت) وأنكر أن الطاس لصلاح الدين وقال :

انى أشك فى صحة نسبة هذا الطاس لصلاح الدين لأسباب ثلاثة :

١ — فنى وهو نوع الكتابة .

٢ — ان التعبير بلفظ (عز لمولانا السلطان) كثر استعماله فى عصر دولة المماليك .

٣ — اعتمد زكى باشا فى صحة نسبة الطاس الى صلاح الدين على الاسم وهو يوسف والكنية وهو أبو المظفر .

ويروى زكى باشا القصة فيقول :

عندما عثرت على كأس صلاح الدين أخذت أبحث فيه وعنه حتى اهتديت الى حقيقته ، وقد أردت التوسع فى البحث من

الآثار المماثلة مما يوجد فى دار الآثار العربية مهملا غفلا بغير سابقة تعريف .

وزكى باشا يعلم أن الكأس كان فى الكنيسة ، وكان يسعى لنقله الى المتحف العربى ، فيقول « زارنى سميكة باشا فتوجهت معه الى كنسيته المعلقة لزيارة المتحف القبطى ، فاوضته فى شأن الطاس ، فقال لى أمام القسس ، انه لما رأى هذا الكأس الثمين ، وأن صاحبه يطلب فيه ثمنا غاليا رأى وجوب الاحتفاظ به .

وقال : ان مسامراتى عن الطاس فى ٣ مايو كانت مشافهة ، الا أن صديقى الذى كاشفته مقدما انتصب واقفا وأخذ يتلو ردا مكتوبا بالحبر من ورقة عريضة وان صديقى القديم قد استفاد من مكاشفتى له بحججى وبراهينى ، واستعاد من استنامتى الى ما أظهره من الموافقة التامة لاستنتاجى ، فجهز قبل يوم المسامرة مكتوبا على خطبة ملقاه بدون كتابة .

وقال انه أنكر فى كلامه أن صلاح الدين لقب بأبى المظفر ، فكان من سوء حظه أننى أظهرت له فهرست متحف الآثار ، وفيه يعترف بامضائه بأن المتحف متضمن حجرا مكتوبا فيه هذا اللقب وأظهرت له صورة النقش الذى على باب القلعة يتضمن هذا اللقب .

٢ — وقال على بهجت : اختلفت مع صديقى أحمد زكى باشا على بعض المسائل التاريخية ، وما كنا لنختلف ، ولم يكن قد أذاع خبر اكتشافه ، ولكنى مع ذلك ما كنت لأتوقع أن يذهب به

هذا الخلاف العلمى الى حد أن يتجاوز الصديق حدود المناقشة العلمية المحضة الى الطعن الصرف .

وقال : دعا زكى باشا عددا كبيرا لسماع خطابه فى موضوع (الطاس الفخيم) الذى ينسبه لذلك الرجل العظيم صلاح الدين .

وخطب صديقى خطبته فى ذلك الجم الغفير بذلاقته المعروفة وضمنها الكثير من الحركات والاشارات ، واللطيف من النكات والحكايات ، مما أضحك الحضور وقضى له بالعجب لـدى الجمهور .

٢ - كتب النبى الى الملوك :

ودخل أحمد زكى باشا فى مناقشات متعددة بشأن كتب النبى الى الملوك ومرتين فى عام واحد ظهرت هـذه المسألة : فبراير وسبتمبر ١٩٣١ .

* المرة الأولى عندما كتب أحمد عرفة مناع الخبير الشرعى بالاسكندرية فى الأهـرام يقول انه أرسـل سنة ١٩٠٥ بطريق البوستة الى السلطان عبد الحميد صندوقا صغيرا من الخشب ، يعلوه القطن ، ويعلو القطن حرير أطلس أخضر من الداخل ومن الخارج . وبداخل هذا الصندوق مصحف ، وبه رق عبارة عن خطاب النبى الى النجاشى .

والهدية من مخلفات والده آلت اليه من أجداده الذين كانوا نقباء الأشراف بالاسكندرية .

* * *

ورد عليه أحمد زكى على طريقته :

❋ ان الورقة التى آلت الى دولة الأمير سليم نجل السلطان عبد الحميد ، وصارت اليوم فى حوزته ، لا يمكن أن تكون هى التى صدرت الى (أصحمة) ملك ملوك الحبشة عن سيد الأنبياء .

❋ هذه الورقة التى تداولتها فى هذه الأيام صحافة بيروت ، وجاءنا خبرها عن جريدة فلسطين فى يافا ، ثم جريدة الأهرام فى القاهرة .

❋ ان هذه الوريقة أسلوب جديد من أساليب الأكاذيب ، وقديما تقدم نفر من اليهود الى الخليفة العباسى فى بغداد بورقة نسبوها لخير الأنبياء فتجرد الحافظ الخطيب البغدادى وأظهر ما فيها من التمويه والتضليل وجاء من بعدهم رهبان الطور بكتاب كله زور فى زور ، واغتنموا فرصة القلاقل والاضطراب التى حدثت فى وادى النيل عند سقوط دولة المماليك ، فخدعوا به السلطان سليم العثمانى . وقد تولى كشف هذا التدليس كثيرون من علماء الافرنج المتخصصين ، وأفضلهم المستشرق الفرنسى (بلين) .

ثم تقدم كاتب هذه السطور فكشف القناع ، وأبان وجوه الاصطناع أمام مؤتمر المستشرقين فى مدينة جنيف سنة ١٨٩٤ .

❋ واليوم جاءتنا الجرائد بثالثة الأثافى عن بنى عثمان ، والأدهى أن ينازعهم بنو مناع فى شخص فقيدهم السيد أحمد عرفة مناع ، ذلك بأن هذه الرسالة حاول صاحبها أن يستغفل السلطان عبد الحميد .

* وأشار أحمد زكى الى أخطاء الرسالة :

١ — ان وضع التاريخ على رأس الرسالة قد أخذناه فى مصر عن الافرنج فى عصرنا هذا ، وأعماه الله فوضع عبارة (السنة السابعة للهجرة) قبل البسملة ، وجميع الكتب الصادرة عن سيد الخلق الى الملوك وغير الملوك بصفة دعاية أو عهود أو عطايا ، قد جاءتنا كلها بغير تاريخ ولم تجر عادة العرب والمسلمين منذ الهجرة النبوية الى ما قبل اليوم بأربعين سنة أن يضيفوا التاريخ على رأس مكاتيبهم ، بل موضع التاريخ عندهم انما يكون فى آخر الكتاب .

٢ — زعموا ان الكتاب مؤرخ فى السنة السابعة وأهل التاريخ الصحيح ورجال الحديث مجمعون على أن النبى (ص) أرسل كتابه الى النجاشى فى السنة السادسة للهجرة .

٣ — ان التأريخ بالهجرة النبوية لم يوضع الا فى السنة السابعة عشرة بعد الهجرة فى أيام الفاروق عمر .

٤ — ان رسالة النبى الى ملك ملوك الحبشة مدونة فى كتب الحديث (للبخارى) وغيره ، وفى السير النبوية ، وفى كثير من كتب التاريخ . وصورتها فيها تغاير ما نشرته الجرائد عن الورقة الموجودة فى حيازة الأمير الجليل سليم بن عبد الحميد .

٥ — فى الرواية الكاذبة : أم عيسى البتول (الطاهرة المطهرة ، الطيبة الحصينة ، وفى الأصل (البتول الطيبة الحصينة) .

٦ — هناك عبارة أخرى « فان تابعتنى وتؤمن بالذى جاءنى فانى رسول الله » هذا كلام ركيك مضطرب .

٧ — هذه الورقة تزوير ، وليس لها قيمة عند العارفين سوى

ثمن الأدم المكتوبة عليه ، وهو من جلد (الشاه) لا من رق الغزال ، وسوى ثمن الحبر المستخدم فى كتابتها . وذلك كله لا يساوى ٢٠ ألف مليم بل عشر معشار .

* * *

ثم جاءت أكذوبة جديدة عن رسالة النبى الى كسرى ..

وتصدى لها أحمد زكى فقال :

منذ شهور ، كانت بيروت قد استأثرت باظهار أوراق مزورة ملفقة زعم أصحابها وهم كاذبون — أنها صادرة عن سيد الأنبياء ، فمن كتاب الى النجاشى ثم زعموه عهدا لعموم المسلمين ، الى كتاب لكسرى .. الى عهد مصنوع فى دير الحميراء بالقرب من اللاذقية (وهم كاذبون أيضا) وقد كشفت القناع عن وجوه الكذب الدنىء الخسيس الذى أريد به الاستغلال عن طريق الاستغفال .

واليوم جاءت التلغرافات بأن باريس تريد أن تزيد على بيروت فى مضمار الخداع ، فقد جاءت أميرة هندية تواطأت مع رجل أفرنكى (لا علم لنا بجنسيته ولا ملته) وهى تقول لمن تريد أن يصدقها ، بل لمن تريد أن تستغفله انها حائزة لثوب قديم هو قميص النبى ، أو البردة النبوية .

ان ذلك مكذوب كل الكذب على النبى العربى الهاشمى .

وأغرب من ذلك زعمهم أن مستشرقا يحترم نفسه يرضى بأن

يقول ان هذا القميص هو الذى أهداه المقوقس الى النبى ، وهدية المقوقس معلومة لنا ولكل انسان .

أيها المزورون ، أيها الكذابون : ابحثوا عن شيء يكون مطابقا للنقل أو موافقا للعقل ، فربما ينفتح لكم باب الاستغلال بطريق الاستغفال ، وفى انتظار تلفيقكم لا أبعث لكم التحية ولا السلام .

٣ ـ معركة المعز لدين الله :

ودخل أحمد زكى معركة حامية مع (مرقس سميكة) من أجل المعز لدين الله الفاطمى ، فقد وردت كلمة فى تقويم الحكومة المصرية الذى تتولى نشره جميع المصالح الرسمية جاء فيه « أن الخليفة المعز لدين الله مؤسس الأزهر الشريف قد تنصر وتناول ماء المعمودية ، فى كنيسة صغيرة بدير أبى سيفين بمصر القديمة ، وقد احتاط مرقص سميكة فى ايراده هذه القصة فقال « يقال ان المعز .. كذا .

وقال أحمد زكى :

« عذرا يا صديقى القديم العزيز ، فالحق فوقى وفوقك ، وليس فى وسعى السكوت عن تكذيبك وهدايتك الى الحق بارشادك الى الذى أوقعك فى الضلال ان كنت أنت وقعت فيه اعتباطا .

أنت تعلم والناس يعلمون أننى فى كل أمورى أتولى تكذيب.. الذين افتروا الكذب على نبى المسلمين بتلفيق كتابات مزورة استخدموها للتغرير بالحكومات الاسلامية .

أنت تعلم والناس يعلمون أننى فى كل أمورى أتولى تكذيب .. وتعرف كما أعرف أنهم ارتكبوا التزوير على نبى المسلمين لمصلحة دنيوية يريدون بها توفير المال .

أما أنت ، وأنت من رجال الدنيا ، فقد جريت على أسلوبهم ، من أجل ذلك كان وزرك عندى أكبر ، ولا سيما وأنت من أهل المعرفة الصحيحة ، وعنـدك علم الحق وأنت لا تخفيه ، فأنت يا أخى قد انخدعت بما طرق سمعك قديمـا من تلك الأسطورة السخيفة الخسيسة ، ولطول العهد — ولا أقول لسوء القصد — تبدلت الأسماء فى ذاكرتك ، وانعكست عليك الآية فخلطت زيدا بعمرو ، من حيث تدرى ولا تدرى .

وان شيئا من الحياء ، أو قليلا من الذوق ، أو حسابا للواقع ، أو خوف الحق .. كل أولئك يحول دون دس هذه الخديعة .

أنت أردت الحاكم بأمر الله وأنت مخطىء ، وبيدك كتبت المعز لدين الله وهى خاطئة .

ويقول أحمد زكى : ذهبت الى الدير مرتين للتحقق من (القبر المكذوب) وزرت المتحف القبطى ومكتبته والبطركخانة ، ومجامع العلم وخزائن الكتب ، وراجعت كل الوثائق ، واستوعبت كل الدلائل على المصادر الأولية ، دون أن أعتمد على كاتب مسلم ، بل كل حجتى مأخوذة من الأقباط المسيحيين ، ومن السريان المسيحيين ، وراجعت كل ما كتبـه علمـاء الافرنج من الكليز وفرنساويين وألمان وغيرهم ، ولم أترك بابا فى مصلحة الأسطورة

أو ناقضا لها الا طرقته ، كما تقضى بذلك شريعة الانصاف لأننى أبغى تصفية الحق من كل شائبة من شوائب الارتياب .

ثم يقول : ورأيت بعد ذلك أن الأسطورة تهدم نفسها بنفسها ، ويناقض بعضها البعض الآخر عن الرواية الواحدة ، فضلا عن مخالفة هذه الرواية للرواية الثانية ، ومناقضتهما للثالثة ..

٢ — وقد رد مرقص سميكة فقال : ليس صحيحا ما قاله ، وهو أن الرواية لم ترد فى كتاب ولم يرددها أحد قبلى ، بل الصحيح أنها وردت أولا فى كتاب « وصف الكنائس القبطية الأثرية للدكتور الفرد بطلر » ولا يستطيع منصف أن يجد فى كلامى تصريحا أو تلميحا ما يدل علـى أننى مسلّم بصحة الرواية ، وما أقمنا وزنا لرواية كهذه أو جعلناها موضع تصديق ، لأنها ظاهرة البطلان ، وما ذكرت هذه الرواية الا كدليل على تاريخ أثر قديم فى الكنيسة .

٣ — وعاد أحمد زكى يعلق على رد مرقص سميكة ، ويتحدث على طريقته المعروفة فى التطاول والتعالى قال :

أمـا وقد رجعت يا أخى مرقس الى الحق ، فصـارحتنا بلا غموض ومن غير ابهام أنك لا تعتقد بصحة الرواية الكاذبة المكذوبة .

أما وقد وعدت بحذف الجمـلة المجرمة التى أضفتها أنت بلا ضرورة ومن غير داع الى كتابتك السليمة البريئة ، فاننى أترنم لك بمزامير الشكر .

وكانت هذه الهداية تكون كاملة لو أنك عـدلت عدولا

تاما وصريحا عن الرواية المكذوبة من أصلها وفصلها ، دون أن تتسكع فى المماحكة والاصرار على قولك ، « ما ذكرت هــذه الرواية الا كدليل على تاريخ أثر قديم فى الكنيسة » فافهم هذا ، ولا تعد لمثل هذا الكلام ، فمقامك العلمى أكبر من أن يصدر عنه هذا القول الباطل ، على أنى أعذرك فى التشبث بهذا القش الهافى ، أو بهذا العنكبوت الواهى ، فقد كان لا محيص لك من انقاذ الموقف والخلاص من الورطة ، بمثل هذه الكلمة الجوفاء[1].

٤ ــ مع زكى مبارك :

وكانت معركة أحمد زكى مع زكى مبارك حول كتاب أصدره الشيخ سليم البشرى . قال مبارك أنه لم يكتبه ، وأن الذى كتبه هو ابنه عبد العزيز البشرى باشراف والده ثم لم يلبث أحمد زكى أن عرض لأبيات من الشعر وقال :

أنت جدع وشاطر فعرفنى وعرف الناس باسم قائل هــذه الأبيات . وأورد عددا من الأبيات استهلها هكذا :

يا رب ان شفيعى من ذنــوبى فى
يوم القيــامة خــير الخلق والنسم

ورد زكى مبارك عليه قائلا :

هل يليق بالعالم أن ينقل الجدل من ميدان الى ميدان ليفر من الجواب ، ان هذا النوع من السؤال — عن الشعر — لا يتفق

---

(١) الأهرام من ٧ اغسطس الى ٢١ اغسطس ١٩٣١ .

مع الذوق الحاضر ، وان كان يصلح لمطارحة المبتدئين فى مدرسة ثانوية ، ولو استبحنا لأنفسنا أن نسأله هذا السؤال لأعجزناه وأعجزنا معه ألوفا من القراء ..

ورد زكى باشا مهاجما تحت عنوان (خم النوم — صح النوم) .

وقال : كلمتك الجارحة الى أستاذك الذى رباك وأحسن تأديبك أيام كنت متوجا بالعمامة البيضاء ، فيا رحمة الله على تلك العمامة ، وما كان تحتها من أدب ورقة ولطافة .

وأشار زكى باشا الى موقفه من أستاذ له فى المدرسة التجهيزية كان دميما وكان يتحدث عن اعجاب حسان باريس به .

يقول « فما كان من التلميذ « الخبيث » أحمد زكى الا أن قال له ذات يوم : يا دكتور (ماعندكش مراية) .

فانهال عليه بالسب والشتم .

وقال أحمد زكى : فهل فى تلاميذ اليوم نخوة على تأديب أستاذهم ز . م ابن سنتريس المنوفية ؟ كما فعلنا نحن بالأمس .

وعاد زكى مبارك فهاجم أحمد زكى بعنف وقال له :

كنا نظن أن الأدب البارع الذى يظهر فى مقالات شيخ العروبة فن جديد رمته به أيام الشيخوخة ، ولكن يظهر أن هذا الأدب كان من صفاته لعهد الطفولة ، فقد حدثنا حفظه الله أنه استباح أن يقول لأستاذه فى المدرسة التجهيزية (ماعندكش مراية) .

وهذا الرجل الذى يكتب بقلمه هذه التعابير ، هو نفسه الرجل الذى قضى وقتا طويلا يدعونى الى أدب القول .

وقد عملت بنصيحته وتأدبت معه ، فاستأســد وكشر عن أنيابه ، وكان فى مقدورى أن أعامله بمثل ما عامله به الأســتاذ محمد مسعود . ولكنى رفقت بشيخوخته وقدرت له ماضيه فى خدمة اللغة العربية .

* وانتقل زكى مبارك الى شيء آخر فقال ان أحمد زكى مغرم بالسجع فى عناوين كتبه وأورد ما أسماه مؤلفاته الجديدة التى أخرجها للناس :

١ — السفر الى المؤتمر .
٢ — القول الكاشف ، فى الفول الناشف .
٣ — ذهب الابريز فى محاسن باريز .
٤ — التحفة البهية ، فى الكبدة المشوية .
٥ — النفحة الذكية فى المدائح النبوية .
٦ — الروض المشرق فى أخبار المشرق .
٧ — اتحاف الخلق بأخبار باب الخرق .
٨ — القول المبين فى مقام سيدى الأربعين .
٩ — المرقص فى الرد على مرقص (وهو كتاب نشره فى العام الماضى ردا على مرقص سميكة) .
١٠— البرح والجوى فى بنات الهوى .

والواقع أن هذه المؤلفات مختلفة من أساسها ما عدا الكتاب الأول .

وقد رد أحمد زكى على زكى مبارك فقال :

ما بالك تجحد فضل أستاذيتى عليك ؟ وتعاود فحش القول

وجفاء الطبع وبماذا تبيض وجهك بعد أن استغفرتنى فى دار مجلة المعرفة قبل ردك الأخير ؟ أفأنت حينما تواجهنى يتغلب عليك الأدب ويغلبك الحياء ، فاذا ما خلوت الى نفسك جمح بك القلم ؟

ثم قال عن مسعود : والحق انه بزنى فى الخطاب ، وانه فاز على فى ميدان الشتم والسباب ، وها أنذا أعترف له بذلك ، وأشهد أنك لحقت غباره فى هذا المضمار بل سبقته بأشواط . وقد صارت قلة الأدب يا مبارك منتشرة أيما انتشار .

اننى تعففت عن منازلة الأستاذ مسعود فى التراشق بالقول الهراء وهو لا يجهل أن عجزى فيه لا يوازى سوى قسوة قلمى فى تشديد النكير على أهل الدراية اذا ارتكبوا خطأ ، وأذاعوا ضلالا ، لأننى أمشى على الحكمة التى تقول : الغلط اذا تدورك تبدد ، واذا ترك تعدد .

ثم عاد الى مناقشة مبارك فيما أورد له من كتب مختلفة :

فقال : انه يزعم أنى صنفت كتابا فى القول الناشف : برضك يا مبارك تموت فى هذا القول ، ولا يصدك عنه صدود ، وتنسب الى (التحفة البهية فى الكبدة المشوية) .. يا كبدى عليك يا مبارك حينما كنت تجرى ليلا فى درب المش وراء (يا جابر) الذى يبيع الكبدة ، وأنت لا تزال تحلم بها ، وتتصور أنها أكل الملوك

٥ ـ ملك سليمان ووادى النيل :

عرض أحمد زكى [1] لما ورد عن ملك سليمان من أنه ملك

(١) الأهرام ١٩٣٣/٨/٥ .

الدنيا كلها ، وهاجم كعب الأحبار : ذلك اليهودى اليمانى ، واتهمه بأنه هو الذى حمل هذا الرأى الى المسلمين ، وقال أن بعض علماء الأزهر — وهم سياج الدين — لا يجرؤون عـلى الجهر بانكار آرائه ، فهم يخافون مخالفة العامة ، وقد تساءل : هل ملك سليمان الدنيا كلها ؟

وأجاب : كلا .. بل الحق الذى لا جدال فيه ولا معدل عنه ، أن سليمان (عليه السلام) كان أكبر ملوك اسرائيل ، وأعظمهم مجدا ، وثروة ، وأبعدهم صيتا وشهرة ، على أن ملكه — مع ذلك وبرغم ذلك — لم يتجاوز فى الشمال مدينة حماه المحبوبة الزاهرة ، وكان يمتد جنوبا الى تخوم مصر عنـد رفح ، الى العقبة ، أما من جهة المشرق فقد اشتمل الصحراء(بادية الشام — الحماد) حتى ضفة الفرات دون أن يتعداه .

« فأنت ترى أن مملكة سليمان ما كانت تتجاوز أرض الشام ، فما ملك سليمان الدنيا على ما تقاوله المخرفون المخرقون ، عن الاسرائيليات التى دسها كعب ووهب .

ثم تساءل : اذن كيف نفسر ما جاء فى القرآن من اجابة دعوة سليمان أن يرزقه الله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ؟

وأجاب « يرجع فى طلب الجواب الى التاريخ ، ففيه النبأ الصادق وعنده الخبر اليقين . لقد كذب الذين قالوا ان سليمان ملك الدنيا بحذافيرها ، وصدق الله العظيم .

* وقد هاجمه الشيخ صادق عرجون قائلا : لا يا شـيخ العــروبة [1] :

القرآن . القــرآن . ان الأعــلام الثقات من حمــاة الدين لا يرضون شيخ العروبة على علمه وفضله وتاريخه — مفسرا للآيات البينات ، ولو كان هذا التفسير الذى يجيئنا به شـيخ العروبة من (الفتوحات القدسية)[2] .

ليسمع الناس من شيخ العروبة تحقيقات أندلسية ، وتدقيقات جغرافية ، وتصحيحات تاريخية ، واستكشافات عروبية ، فهم فى حل من ذلك ، ولكن القرآن .. كتاب الله الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلا يحومن علاّمتنا حــول حماه ، على أسلوبه وطريقته وفتوحاته .

أما شيخ العروبة فمعاذ الله ولياذه أن تكون تلك التحفــة الجاحظية منه فى تفسير وادى النمل المذكور فى القرآن وفى تحديد ملك سليمان ، بل هذا التمخخ من شـيخ العروبة ليس الا كبوة جواد تقول لصاحبها (لعا) .

وقد خص عالمين عظيمين وامامين من أجل تابعى الأمة بالسب الفاحش ، ثم رمى علماء الأزهر بالجبن عن الجهر بانكار ما بث فى الدين من الاسرائيليات ، زاعما أن الذى بثها هو الامام كعب الأحبار ... » .

وصمت شيخ العروبة وترك العاصفة تمر ..

---

(١) الأهرام ١٩٣٣/٨/١١ .

(٢) العنوان الذى اختاره أحمد زكى لتحقيقه عن ملك سليمان .

٦ — معاركه مع مسعود :

توالت المعارك بين أحمد زكى ومحمد مسعود ، واتصلت منذ عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٣٣ خلال أربع سنوات كاملة .

وكان محمد مسعود قد كتب عن « الاخوة المغررون » [1] على أثر ما أذيع عن جريدة الهدى الأمريكية عن وجود قبيلة عربية فى المكسيك وقال انه لا يبعد أن تكون هذه القبيلة من سلالة أعضاء بعض البعثات العربية الآنفة التى خرجت تباعا من سواحل أندلس والبرتغال ومراكش لاستكشاف يابسة فى غرب بحر الظلمات ، وأنهم آثروا بعد وصولهم الى جزر (الأينتيل) — التى منها جزيرة الغنى ذات اللحم المر الحامض على قول الشريف الادريسى — الاستقرار والعيش فيها .. » .

وقد رد عليه أحمد زكى مباهيا على طريقته بأن عنده وحده الخبر الصادق والحجة الصحيحة ، وقال ان زعم مسعود محال و « ألف محال » وقال :

« ان الكاتب الفاضل أداه اجتهاده الى الرمى بهذا القول جذافا ، دون أن يعتمد على برهان أو شبه برهان ، وليس هنالك سوى استنتاج لا يقوم على دليل ، بل هو محض ظن منه ينقضه الواقع » .

.. انه اعتمد فقط على المصدر الذى كان له فضل السبق على كل عربى وعلى كل شرقى ، حينما نبهت العرب اليه فى عام ١٨٩٢ .

---

(١) الأهرام — ١٩٣٠/١١/١٦ .

ولكن الكاتب الفاضل اكتفى بهذا المورد الذى لم يدل على شيء سوى محاولة العرب ، نعم محاولتهم الوصول الى أمريكا ، ولكنه يقول ويؤكد برجوعهم خائبين عن ذلك المصدر نفسه بنصه وحرفه ، ولو أحاط علمه بمباحثى فى هذا الموضوع ، لما سمح له فضله أن يقول بأن العرب الموجودين فى أمريكا هم من بقية أبناء العمومة الأندلسيين .

٢ — رد مسعود يقول :

نظرة الى مقالى يكفى لاقناع من يراجعها بأنى فيما سقت من تلك البيانات لم أقطع قط بانحدار تلك القبيلة من العرب الذين أوغلوا فى بحر الظلمات ، بل أحطت استنتاجى فى هذا الموضوع بسياج من ضروب الاحتمال والتحفظ . غير أن سيدى العلامة أبى بعد ذلك — كرما منه وتواضعا — ألا أن يمن بأنه مصدر العلم والعرفان ، وحائز قصب السبق فى كل ميدان ، فكتب يقول : انى لم أعتمد الا على المصدر الذى كان له فضل السبق.. وهنا أقول : هل من غضاضة أو تثريب اذا أنا لذت بكتبه فى الاستزادة من المعرفة ؟ أو نهلت من ينبوع علمه ، أو استظللت بوارف فضله ، وهو القائل « عنى وعنى وحدى خذوا .. » .

وفى تواضع التلميذ وطاعته لأستاذه يثق كل الوثوق أن مقالى الذى تصدى لتفنيده وتجريحه لم أعتمد على مصدر من مصادره ، أما المصدر الذى اعتمدت عليه فهو جريدة الحاضرة التونسية عن مقال نشرته عن استكشاف العرب لأمريكا فى أوائل عام ١٨٩٢ ، أى قبل رحلته والعثور على كتاب « نزهة المشتاق للادريسى » .

على أننى أقرر أن كتاب « نزهة المشتاق » لم يكن قبل أن تهتدى الى مخبئه فى بعض خزانات البلاد المغربية كمية مهملة نبت عليها العشب ، ونسج العنكبوت ، وانما كان من المصنفات الذائعة الصيت المرموقة منذ أجيال وان فى المقتطف عام ١٨٨٨ فصولا عدة من هذا الموضوع بقلم ديمترى خلاط .

* * *

كتب محمد مسعود بعض المقالات فى تحقيق الأعلام الأندلسية منها كلمته عن « جردفون » بدلا من غاردفوى ومالقة .. الخ .

فعلق عليها أحمد زكى بقوله (١) : أحسنت كل الاحسان فيما كتبته عن « جردفون » فى اعترافك لقلمى العاجز بأنه كان السابق الى تنبيه قومى الى وجوب الرجوع بهذا الاسم الأشـــهر الى صبغته الشرقية ، والى رسمه على الصورة وبالحروف التى تواضع عليها أربابه وتعارفها العرب ، وتناقلوها من قديم الزمان ، أحسنت يا مسعود كل الاحسان فى الجرى على طريقتى فى الرجوع الى أعلامنا فيما يختص بأعلامنا ؟ واعلم أن احسانك فى هذا الباب لا يضارعه الا اساءة وزارة المعارف المصرية فى استمرارها فى نشر الاسم بالغلط الذى تتعمده هى فى تدريس الجغرافية بالعربى ولا سيما فى خرائطها الكبرى التى تكرر طبعها مع الاصرار على ارتكاب ذياك الخطل وغيره .

---

(١) الأهرام ــ ٦ : ٦ : ١٩٣٢ .

وأحسنت فى تصحيح ما فرط من مترجمى الصحف العربية حينما مسخوا (مالقة) ولكن الواجب عليك أن تشير الى أن قلمي العاجز هو الذى كان له السبق فى الاعراب عن هذا الصواب على صفحات المؤيد والمقطم والأهرام ، وغيرهما من جرائد سورية والعراق .

ولكن كان يجب عليك يا أخى أن تحاسب فى خوض هـذه الموضوعات ، وأن تتثبت كثيرا فيما يصدر عن قلمك البليغ ، لئلا تكون مثل وزارة المعارف سببا فى شيوع الخطأ وفى ذيوع الخطل .

أنت قلت ان مالقة من ثغور الأندلس ، وفيه قصور قديمة منها القصبة وأرشدونة ، وهو سهو منك ، ان (أرشدونة) مدينة قائمة بنفسها ، ولا دخل لها فى مالقة ولا فى قصور مالقة .

* * *

٢ — عاود أحمد زكى الرد على مسعود فى مقال له جديد عن (شلمنقة) وهى احدى بلاد الأندلس فقال :

بعد هروبى لطلب الراحة فى الاسكندرية ، بلدى وبلدك ، ما راعنى الا طلوع الأهرام على الناس بمقالك عن (شلمنقة) .

يا مسعود : اتق الله فى الأمانة التى فى عنقك ، فأنت أخذت تتحفلط وتتحذلق وتتلاعب بهذا الاسم ، وبالناس الذين تصورت أنت أنهم قد يخطلونه بالاسم المقارب له وهو (طلمنكة) ، فكان عجبى شديدا ، حينما قرأت هذه الحقائق الصحيحة التى ليس فيها سوى عيب واحد هو الاغتصاب الأدبى . ولكنى أتخيل أنك

وقفت أمام المرآة فرأيت شخصا أخذت تسخر منه ، ثم وجهت السخرية الى الناس بغير حق ..

أنت أخذت منى وعنى كل هذه المعلومات الصحيحة التى دونتها فى الأهرام مع صياغتها بتلك الرشاقة البديعة ، وبذلك الأسلوب الجذاب الذى برعت فيه ، فلماذا خالفت واجب الأمانة ولم تنسب الفضل لأهله ؟

لعلك نسيت يا مسعود .

لعلك تقول ان الانسان معدن النسيان .

اتق الله يا مسعود ، فلك مركز وطيد بين أهل الأدب والتحقيق ، و (الشطارة) يا أخى أن يكون الانسان مستعدا لاثبات ما ذهب اليه ، وأن يبادر بالرجوع للحق متى نبهوه عليه ..

٣ — ورد مسعود على شيخ العروبة وأخرج كل ما فى جعبته بعد الصبر الطويل : فقال : (١)

يدعونى شيخ العروبة الى تقـوى الله ليهيىء لى من أمرى رشدا ، فأكرم بهذه النصيحة الغالية ، ولكن أرانى الأستاذ تجاهه فى مأزق ، حتى يرأف بحالى ، فيدعونى الى التزود بزاد التقوى لأقيل عثرتى ؟ وهو الذى فى مناظراته عود مناظريه أن يكون أمرهم معه يسرا لا عسرا .

ووصف تحقيق بعض أسماء الأعلام بأنها ألفاظ مقعرة وحفلطة وجليطة وتحذلق وتفاصح .. وما علم الناس طرا فى الخافقين ،

---

(١) الأهرام — ٤ يوليو ١٩٣٢ .

وما زالوا يعرفون أنه شنشنة مولاى الأستاذ وفطرته التى فطر عليها فى مباحثاته ، وسلاحه الذى يخطر به خطرانا فى غطرسة وزهو كلما أقبل على ميدان ، أو تحفز للضرب والطعان .

ليس من ديدنى أن أقرع هذا السلاح بمثله ، أو آبه لتلك النعوت ، وأمر بها مر الكرام ، وأضعها دبر أذنى .. » .

وأشار مسعود الى قصة كتاب الادريسى وقال : اننا انبرينا لتقييد الدعوى وأثبتنا بالدليل المقنع أن الكتاب طبع قبل عثورك عليه بثلثمائة سنة ، وقال : « لما أثبتنا كل ذلك رأينا قلمك الندى قد ذبل عوده ، وانقطع سيله وعدت لا تحير جوابا فى هذا الموضوع الذى لم يكن فيه من سبيل لغير الحجة المهذبة والدليل المؤدب .

ولست أدرى لماذا لا يرى شيخ العروبة الخير والصواب الا فى ملاحقة كل كاتب باحث بدعاوى التفوق ، وتعقبه بصنوف المن والتعيير والتكدير والتحذير ، بل لا أدرى لماذا لا يلذ له أن يلصق بغيره ما هو به ألصق فهل جهل أن تجاهل أن من أمارات العلم الصحيح أن يكون زكى النفس قبل أن يكون عالما ، وأن يقصد بعلمه هداية غيره فى تواضع وانكار للذات اذ التواضع مساغ الى رفعة القدر ، وانكار الذات سبيل الى كسب محبة الناس .

أيتها النفس .. ان ربى وربك أمرنا بالحسنى فى الجدل ، انك تحشين أسلوبك الجدلى بهجر القول ، وسقط الكلام ، وحواشى اللفظ ، مثل الجليطة وما اليها من العبارات المملولة الممجوجة ، التى أصبح من غير اللائق أن تنضح بها براعتك فى مثل

هذا العصر ، عصر القـــول بالمعروف الذى يدخل الآذان بغير استئذان .

ليس لمثلى أن يزجى النصيحة لمثلك ، وأنت من العلم والفضل فى الذروة العليا ، ولكنى أهيب بك أن تكون تحية أول صديق من الكرام الكاتبين قابلته فى صبيحة اليوم .

قولى له : تالله لو كنت طالب علم ، ولم يكن غير زكى باشا أستاذا على وجه الأرض ، لآثرت البقاء جاهلا خاملا طول عمرى ، على أن أكون عالما نبيها اذا كان أسلوبه فى التعليم كأسلوبه فى الجدل والمناظرة .

* * *

وعاد السجال مرة أخرى بين مسعود وزكى :

فقد كتب مســـعود مقالا فى البلاغ عن [1] « الطرطوشى » استهله على هذا النحو :

« لأشاغيل طرآنية صرفتنى .. عن مطالعة الصحف .. » وكأنما كان مسعود على موعد جديد مع أحمد زكى :

« [2] أتقدم الى الأستاذ مسعود برجاء مربع ، وقد أطمع فى كرمه أن ينعم على وعلى نفسه بحاجة خامسة ، ولعله يتفضل ببناء هذه الأركان الخمسة لمصلحة الأدب ولفائدة العلم ، يتحقق أملى

---

(١) البلاغ ــ ١ : ٢ : ١٩٣٣ .

(٢) البلاغ ــ ٤ : ٢ : ١٩٣٣ .

القديم فيه ، بأن يعود (كما كان) ومحمد زكى باشا الى عبارة (لأشاغيل طرآنية) فهاجمها من ناحية الذوق وان اعترف بها لغويا فقال : أنا لا أقول قط أنها خطأ ، بل هى عين الصواب ، وكل الصواب . ولكن الذوق شيء غير الذى فى الكتب » .

٢ — ورد مسعود على شيخ العروبة هذه المرة عنيفا وأشد عنفا من المرة السابقة فقال :

[١]ليس من الهنات الهينات ، ولا من تافه الأشاغيل أن يسوقك الحظ العاثر يوما الى النزول مع شيخ العروبة فى ميدان مناظرة ، ذلك لأنك اذا خضت معه ذلك الغمار استهدفت لغمزات شتى من سنان قلمه الجارح ، فمن منّ عليك ، وتعيير لك بأنك انما من بحر علمه اغترفت ، الى تشهير بك وانحاء باللوم والعتب عليك ، لأنك لم تؤد له صاغرا اتاوة الشكر لقاء ما غمرك به من فيوض احساناته العلمية ، ومن تفاخر بأنه القابض وحده على مفاتيح التحقيقات العلمية واللغوية ، والمالك لناصية البحوث الأندلسية ، والملهم فى دياجير الأخطاء بالتوفيق لنور الصواب والحق ، الى اتهام لك بالجهل وانتحال علم ما لا تعلم ..

فهو يرى اذن أن العلم وما يتصل به من تحقيق وتمحيص تراث أوصت له به الحكمة الأزلية ، وميراث خلص له من غضون الأجيال السالفة ، ليس لأحد أن يرمقه بعين ، أو أن يشرئب اليه بعنقه .

---

(١) البلاغ — ١١ فبراير ١٩٣٣ .

وهذه هى الغاية لا تجاوز بعدها للصلف ، وتصغير الـ .. ، وحب الأثرة .. واذ أنت فى مناقشتك اياه أخذته بالهوادة القائمة على أساس وطيد من أدبك العالى وخلقك الرضى الكريم فقلت له مثلا : أنت سيدى وأستاذى ، وأنت نسيج وحدك فى العلم ، ومنقطع القرين فى الفضل ، وأنت نادرة الزمان وبكر الفلك ، وأنت وأنت .. وبذلت فى هذا السبيل فوق ما كان يبذل للصاحب ابن عباد من ألفاظ التقدير ، وعبارات المديح فسرعان ما يهيج هائجه ، وما هو الا لمح البصر حتى يتنـاولك قلمه بالتحقـير والتصغير والتنكيت والتبكيت ، ثم يدعى عليك فى آلاء نفسه بأنك أهنته بعد أن سرقته ، وسببته بعد أن سلبته .. » .

عمله فى مجال الآثار

لم تكن (الآثار) عند أحمد زكى بأقل أهمية من الأبحاث التاريخية والجغرافية واللغوية أو أسماء الأعلام ، فقد أولاها اهتماما واضحا ، وسارت مع أعماله الأخرى فى ركب واحد كجزء من خطته الفكرية العامة ، فقد اقترن بحثه عن المخطوطات والكتب النادرة ببحثه عن القبور والمساجد والمسكوكات والمحاريب والأوانى والزخارف ، وهو لم يدع بلدا من البلاد التى زارها فى العالم العربى أو فى أوربا دون أن يدخل مساجدها وكنائسها وقصورها ، دارسا فاحصا ، وذلك الى جوار بحثه عن خزائن الكتب والمخطوطات .

وقد بدأ حياته الفكرية متصلا بالجمعية الجغرافية وعضوا بها ، مواصلا العمل من أجل الكشف عن الحفريات والأحجار والنصوص .

وقد ألقى محاضرات متعددة عن آثار العرب الخالدة فى أوربا (١) وحقق عشرات من المسائل المتعلقة بالقبور المنثورة هنا وهناك كقبر العريش الذى قالت الخرافة أن به قبرا لنبى من الأنبياء ، وعديد من القبور والمزارات .

---

(١) المقتطف ــ اكتوبر ١٩١٢ .

وكان أحمد زكى من أصحاب الرأى القـائل بأن الحسين والسيدة زينب غير مدفونين فى مصر ، وأن جوهـر الصـقلى والجبرتى ليسا مدفونين فى الأزهر .

وقد واصل أحمد زكى بحثه عن القبـور فى كل مكان ، يقول :

« انك حيثما قلبت وجهك فى ربوع الشام ، وأينما نقلت قدميك فى الأرض المقدسة فثم ضريح منسوب بالحق أو بالزور لنبى معلوم أو مجهول ، لولى موهوم أو مزعوم ، كذلك قل عن القديسين الأطهار وعن الأولياء الأبرار » .

كما كذب أحمد زكى ما ورد من وجود قدم للنبى فى صخرة القدس أو مسجد السيد البدوى (طنطا) أو مسجد قايتباى (القاهرة) أو مسجد أثر النبى (الفسطاط) ، كما راجع الباحثين فى الأثر المنسوب الى النبى فى دير القلمون .

٢ — اشترك أحمد زكى فى جميع مؤتمرات الآثار العالمية فى روما ولندرة وفينا وفى المؤتمر الأثرى الذى عقد ببيروت (أبريل ١٩٢٦) ألقى محاضرة عن أغلوطة جغرافية فى انجيل متى .

كما ألقى عديدا من المحاضرات فى القدس ودمشق وحلب عن الآثار العربية وبحثا عن المسكوكات العربية وجـرت بينه وبين يوسف اليان سركيس مناقشات عن استعمال الزجاج كنقـود للتداول (١) .

---

(١) بحثه عن المسكوكات : مجلة المجمع العلمى العربى م ٦ مارس ١٩٢٦ .

ومن تنبؤاته الأثرية ما أدلى به عام ١٩٢٥ فى دمشق من أنه يطالب بالكشف عن الهرم الرابع والخامس فى الجزيرة العربية .

٣ — عرف بالغيرة البالغة على الآثار العربية ، وهاجم الفرنسيين والانجليز من أجل اختفاء بعض محاريب المساجد فى بغداد والقدس .

وقد حقق أحمد زكى كثيرا من قضايا السرقات للآثار والكتب . ورفع الصوت عاليا عندما اكتشفت سرقة محراب مسجد نور الدين فى حلب : « فقد اختفى هذا المحراب البديع الصنع فيما بين عشية وضحاها ، سرقته فرنسا المحتلة لسوريا عام ١٩٢٨ » .

وتوالت الأنباء وسرقة محراب آخر ، سرقه الانجليز فى العراق من جامع الخاصكى القائم بمحلة رأس القرية فى بغداد .

غير أن الانجليز لم يلبثوا أن ردوا هذا المحراب على أثر الصيحات التى تعالت ضدهم .

٤ — وأشار زكى باشا الى أن الانجليز سلبوا من جامع قايتباى بالقاهرة : (أبدع منبر من الرخام) ونقلوه الى متاحفهم ، يقول « وقد رأيته أنا (أحمد زكى) فى متحف «سوث كتسنجون» بمدينة لوندرة عام ١٣١٠ هـ سنة ١٨٩٢م وقد أرسلت اليه سهوما ، بل سموما من نواظرى ، كانت تكفى لسحقه ، لولا أنه من أفخر المرمر ، فلم يتأثر ذلك الحجر بذياك النظر .. » .

٥ — وواصل البحث عن المصحف المسروق من المسجد

الأقصى « ذلك المصحف الذى كتبه سلطان [1] المغرب الأقصى، من بنى مرين بخط يده من أوله الى آخره على الرقوق النفيسة الغالية ثم أشرف بنفسه على زخرفته ونقشه وتذهيبه وتزميكه وتجليده وتغليفه بالحرير ، ووضعه فى صيوان من نفيس الخشب المزخرف بالفضة ، المزركش بالذهب .

يقول : وقد قرأت كثيرا عن هـذا المصحف وعن أخويه (أحدهما بالكعبة ، والثانى بالمدينة) وكنت كثير الشوق الى امتاع النظر باجتلاء محاسن هذه الثلاثة أو واحد منها على الأقل ، حتى أسعدنى ربى بشد الرحال بل بركوب القطار فى صيف ١٣٤٠ هـ سنة ١٩٢٢ م الى المسجد الأقصى ، وتوالت بعد ذلك رحلاتى الى تلك الربوع المقدسة لخدمتها بقلبى وروحى ، ودع ذكر المال فهو غاد ورائح ..

وهاجم أحمد زكى بريطانيا وعدها مسئولة عن ضياعه .

٦ — وطالما هتف بالمصريين والعرب الى حماية آثارهم من السرقة والبحث عن المدفون منها (هـذه آثار مفاخرنا مهملة بل مجهولة ، عندنا وعند هؤلاء الفرنجة ، يتهافتون على العناية بتصيد بقاياها ، ونحن أحق بها منهم والله) .

وطالما طالب العرب بالتعرف على آثار بلادهم ، والتنقيب عن آثار أجدادهم ودرسها الدرس اللائق بها ، وقال انه من العار أن نتركها للأجانب يدرسونها ويجرون عنها بحثا دقيقا ونحن غافلون ...

(١) هو السلطان المنصور بالله أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق .

فى ميدان العمل السياسى

هذا الجانب من حياة (أحمد زكى باشا) دقيق ومختلط فيه الخير والشر ، وربما كانت بعض جوانبه بحسب مقاييسنا الآن ضعيفة أو مضطربة ، ولكننا لو نظرنا الى الأمر فى ظل الظروف التى كانت تعيشها مصر بعد الاحتلال البريطانى لعذرناه فى بعض مواقفه ، ولقدرنا فى نفس الوقت ذلك النبوغ والذكاء الذى استطاع به أحمد زكى الشاب الفقير الذى رباه شقيقه ، ودرج فى أجواء الحياة المتوسطة ، أن يجالد ويجاهد فى هذا الخضم العميق الواسع المضطرب ، حتى يصل الى مكان الصدارة ، فيكون سكرتيرا عاما لمجلس النظار فى ظل ثلاثة من الأمراء ، عباس وحسين وفؤاد .. وأن يلى منصب سكرتير الجامعة ، وأن ينوب عن مصر فى مختلف المؤتمرات العالمية ، وأن يكون من أبرز المترجمين المتخصصين فى اللغة الفرنسية الفاقهين للمواد القانونية والدبلوماسية فى هذا المجال ، وأن يقطع هذه الأشواط كلها وهو الكاتب المؤرخ المحقق ، الخطيب ، الباحث عن المخطوطات والآثار ، الرحالة ..

ولعل عمله فى هذا المجال خلال ثلاثين عاما هو الذى دفعه لأن يجرى مع التيار ، وأن يخالف عن الركب الوطنى الثائر ،

المتحرر من القيــود ، وربما اعتذر عن ذلك بقيــود المنصب ومسئولياته .

٢ — وحياة أحمد زكى باشا السياسية فى هذه الفترة مضطربة أشد الاضطراب فهو صديق للخديو عباس الذى حاول أن يستفيد من التيار الوطنى ، ويشجع مصطفى كامل ، ليقاوم به الانجليز ، ويرد به ضربات كرومر ، ويخضع كبرياءه حتى اذا وقع حادث دنشواى وسحب الانجليز كرومر (أبريل ١٩٠٧) وجاءوا بخلفه (الدون غورست) صاحب سياسة الوفاق ، تخلى الخديو عن الحركة الوطنية وأعطاها ظهره ، ووقع الخلاف بينه وبين مصطفى كامل فى أيامه الأخيرة ، ومحمد فريد من بعد ذلك ، وقد وقف (اللواء) والحزب الوطنى أمام الخصومة موقفا صامدا ، بينما تحول (المؤيد) والشيخ على يوسف مع الخديو الى مصادقة الانجليز .

هنا نصل الى موقف أحمد زكى من الحركة الوطنية فى هذه الفترة .. فقد كان أحمد زكى وأحمد شوقى وأحمد شفيق وعلى يوسف وحافظ عوض جميعا من رجال الخديو وأقلامه وألسنته .

فما كاد الخديو يظفر بالسياسة الودية التى حملها له « الدون غورست » من قبل بريطانيا ، حتى حول وجهه عن الحركة الوطنية التى كان يعضدها من قبل ، فليس شك أن مصطفى كامل والحزب الوطنى قد عاشا فترة طويلة فى ظل مؤازرة الخديو عباس لهما وذلك طوال حكم كرومر . وهو من ألد أعدائه . ولعل الخديو كان يظن أن سلوك هذا الاتجاه فى مقاومة بريطانيا يحقق له بعض

مطالبه ، ولعله لم يكن مخلصا فيه لمصر ، وآية ذلك انه ما كاد الانجليز يلوحون له بسياسة الوفاق ويطلقون يده حتى تخلى عن تأييده للحركة الوطنية وبدأ رجاله يهاجمون الحزب الوطنى وينشرون الأحاديث والتصريحات المختلفة فى الصحف فى هذا الاتجاه الجديد .

وكان أحمد زكى قد جرى فى هذا الخط الجديد مع الخديو الذى أفسح له المجال الى تمثيل مصر فى المؤتمرات الدولية وحقق له رغبته فى العمل الفكرى الذى أحبه ، فضلا عن أن مقاومة أحمد زكى لتيار الوطنية الذى كان يقوده مصطفى كامل ومحمد فريد لم تكن فى ذلك الوقت تمثل بالتحديد ذلك المعنى الذى نراه لها اليوم . فقد كان هناك أكثر من تيار يخاصم مصطفى كامل ويعارضه . ومن بينها تيار الشيخ محمد عبده وأتباعه وتيار الجريدة ولطفى السيد ومن لف لفهم . وتيار الشيخ على يوسف والمؤيد . وكان بعض هذه التيارات يتصل بالانجليز وبعضها يتصل بالقصر . وكان لهؤلاء مفاهيم ربما عبروا عنها بقولهم : ان الاحتلال البريطانى فى مصر لن تخرجه صيحات مصطفى كامل وان من الخير مهادنته والتفاهم معه والاستفادة منه . مع العمل المتصل فى مجال التعليم والتطور البطىء حتى تتحقق الحرية على مراحل .

ولا شك أن هذا الاتجاه لم يكن يمثل مشاعر الأمة ولا يعبر عن آمالها وأحلامها ، ولذلك فانه لم يجد استجابة شعبية واضحة وانما كان الدعاة له والقائمون عليه من أنصار الخديو أو السائرين

فى ركب بريطانيا . وقد وصفت هذه الدعوة بالتعقيل ، فى مقابل وصف دعوة مصطفى كامل بالتهييج السياسى .

غير أن أحمد زكى بالرغم من جريه فى هذا الاتجاه كان . له موقفه من توحيد جناحى الأمة فقد ألقى محاضرة جعل عنوانها (مصريون قبل كل شيء) فى احدى الجمعيات المسيحية صور فيها مدى ترابط المسلمين والمسيحيين ودعا الى الوحـــدة بين عنصرى الأمة وذلك عنـــدما بدأت مؤامرات الاستعمار تفرق صفوفهم وتبث بينهم الخلاف .

ولا شك أن أحمد زكى قد حمل لواء الحملة على الحزب الوطنى وهاجم محمد فريد وأعوانه بعد وفاة مصطفى كامل فى فبراير ١٩٠٨ وكان الهدف هو تأكيد مركز الخديو واضعاف الحركة الوطنية التى تطالب بالجلاء والدستور .

وكان من نتائج هذه السياسة ما نشره أحمد شوقى (الشاعر) وحافظ عوض صاحب جريدة المنبر — اذ ذاك — وأحمد زكى وغيرهم من أعوان الخـــديو من كلمات فى الصحف يندون فيها بساسة الحزب الوطنى ويسمونهم (دعاة الهوس والجهـــل) وما نشره المنبر منسوبا الى الخديو من قوله انه لا دستور بغير موافقة الانجليز وكان هؤلاء يدعون الى الاصـــلاح الداخلى ونشر التعليم كبديل للمطالبة بالدستور .

ونشرت جريدة المنبر كلمات متعددة لأحمد زكى منها كلمة فى ١٦ سبتمبر ١٩٠٨ موجهة الى محمد فريد متمثلا فيها بقول القـــائل :

ان الرزازين لما قام قائمها تصورت انها صارت شواهينا

وقد حملت جرائد الحزب الوطنى على أحمد زكى حملة شعواء ونشرت المنبر شعرا موجها الى أحمد زكى جاء فى مستهله

شر البلية أن يكون زعيما من لا يسالم فى الرجال كريما
عابوك اذ وجدوا صنيعك بارعا تشكو صوادع جمة وكلوما
كثرت سهام الرائشين وانما أرسلت سهمك نافذا مسموما
هو ما علمت فلا تقم «للوائهم» وزنا ولو ملأ البلاد هزيما

وقد حاول أحمد زكى أن يواجه الحركة الوطنية فى الجامعة المصرية فى أول نشأتها وكان سكرتيرها العام ، وروح الوطنية مشتعلة متقدة ، والانجليز الذين عملوا على ايقاف مشروعها الذى دفعته الأمة والحزب الوطنى الى الأمام بقوة ، يحاولون أن يبعدوها عن السياسة ما استطاعوا ، وكذلك كان يرغب الخديو عباس .

وكان أحمد زكى قد انتهز فرصة توديع أول فوج من الطلبة المسافرين الى أوربا أو (الارسالية الأولى) كما كانوا يسمونها اذ ذاك فى ١١ سبتمبر ١٩٠٨ ، فألقى فيهم خطابا طويلا فى الاسكندرية عن تاريخ هذه المدينة وفضل العرب على الحضارة ، ودورهم فى العمل لاسترداد مجد مصر ، « لا بالكلام والصياح ، بل بالعمل المؤيد بالحزم » ودعا الى مساعدة الجامعة ، وأشاد بالتعليم العالى ، وأنحى باللائمة على الجهل وعدم الالمام الكافى بالقراءة ، ومما قاله فى خطابه :

« كثرت الأحزاب فى مصر وكلها يقول بوجوب التعليم قولا

باللسان ، وكلها تصدر بروجراماتها بأنها تسعى لنشر التعليم ، وفى كل يوم يولد حزب حديث ، وانما هو خزى جديد » .

وعلى أثر ذلك قامت الضجة فى صحف الحزب الوطنى الذى اعتبر هذا الكلام موجها اليه ، وقالوا ان عبارة « فى كل يوم يولد حزب حديث أى خزى جديد » انما يراد بها الحزب الوطنى .

وأصدر أحمد زكى بيانا ضافيا ، أطلق عليه عنوان « الى محكمة الرأى العام » ذكر فيه موقفه مما اتهم به ، وأنكر أنه مسخر من الاحتلال للعمل على الأضرار بالجامعة والقضاء عليها قضاء مبرما ، وقال فيما يتعلق بالهجوم على الحزب الوطنى : حاشاى أن أصف الحزب الوطنى أو غيره من الأحزاب الكبرى بهذه العبارة » .

٣ — أما الأزمة السياسية الكبرى التى واجهها زكى باشا فهى تولى فؤاد بن اسماعيل الملك ١٩١٦ ، فقد كان الخلاف بينهما قديما منذ انشاء الجامعة سنة ١٩٠٨ وكان فؤاد اذ ذاك أميرا فقيرا متأفقا ولم يكن ينتظر أبدا أو يتوقع أن يلى الملك لأنه ليس فى صف المرشحين له ، وكانت بينه وبين أحمد زكى باشا خلافات لعل مصدرها ما عرف عن أحمد زكى من اعتداد ، وما كانت له من صلات وطيدة بالخديو عباس ثم بالسلطان حسين .

فلما ولى فؤاد السلطنة ، كان هذا أمرا مزعجا بالنسبة لأحمد زكى السكرتير العام لمجلس النظار ، مما دعاه الى تقديم استقالته أكثر من مرة سنوات ١٧ و ١٨ و ١٩ ، لولا أن حسين رشدى باشا

رئيس الوزراء اذ ذاك كان يرده عن ذلك ، غير أن الأمور سارت الى غايتها الطبيعية ، ووقع عام ١٩٢١ ما كان ينتظر فتقدم (محمد افندى خاطر) من موظفى مجلس الوزراء باتهامه بالاختلاس والتزوير فى مبلغ يربو على ٧٠ ألف جنيه ، فأوقف عن العمل ، وأجرى التحقيق معه ، ثم ثبتت براءته من كل ما نسب اليه .

وهنالك تقدم باستقالته التى نشرتها الأهرام فى ١١ مايو سنة ١٩٢١ والتى جاء فيها : اليوم وقد ثبت للخاص والعام ، وبطريقة حاسمة لا تدع للحكومة مجالا للارتياب ، أننى كنت وما زلت بحمد الله حليف النزاهة والاستقامة ، فاننى لا يسعنى بعد خدمتى الطويلة سوى التفكير فى الراحة وطلب الاحالة على المعاش تحقيقا للأمنية التى سبق لى الاعراب عنها رسميا أربع مرات فى سنى ١٩١٧ و ١٩١٨ و ١٩١٩ والتى حالت نصوص القانون دون فوزى بها حينئذ ، أما الآن وقد وصلت الى السن التى تخول لى نيل هذا الحق بطريقة قانونية فقد أصبح أملى وطيدا .. » .

وكان أحمد زكى قد عين (سكرتير أول) لمجلس النظار فى ٥ مارس ١٩١١ براتب قدره ألف جنيه فى العام ، وذلك بدلا من قسطنطين قطة باشا وكان أول مصرى يلى هذا المنصب ، بعد أن استأثر به الأرمن طويلا .

٤ — ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل حاربه الملك فؤاد فى مكتبته الزكية التى كانوا قد أعطوه مكانا لها فى الباب الشمالى

لدار الكتب المصرية (مكان المطبعة الآن) فانتهز فرصة ايقافه فى ٩ يناير سنة ١٩٢١ وبعث اليه مدير دار الكتب (السلطانية) اذ ذاك خطابا فى ١١ فبراير ١٩٢١ يطلب اليه نقل مكتبته الى مكان آخر ، لوضع المطبعة التى اشترتها دار الكتب فى هذا المكان ، وأن نقل المطبعة يتوقف على اخلاء مكانها المشغول بالمكتبة الزكية ، وجاء فى الخطاب الذى كان أشبه بالانذار « اذا لم يكن من المستطاع ايجاد محل فانه من الممكن نقل خزانة كتبكم بعد جردها وعمل كشوف بمحتوياتها الى احدى الغرف العلوية من الدار ، ثم يقفل عليها » وقد حصلت على خطاب مطول رد به أحمد زكى على (انذار) دار الكتب بغاية فى العنف ومما جاء فيه قوله :

« توفرت على بذل كل ما فى وسعى لتكبيرها — أى المكتبة — وضحيت فى هذا السبيل النفس والنفيس ، وصرفت كل ما ادخرته لنفسى ولبنتى من بعدى وبعت كل ما أملك ، وهو خمسون فدانا بناحية تلا مركز طوخ قليوبية فبعد أن كانت المجموعة لا تزيد فى بداية الوقف على ألفى مجلد (منها ٣٠٠ مخطوط) أصبحت اليوم تضم (١٢ ألف مجلد) منها (ألفان ومائة مخطوط) والباقى تحت التدوين والفهرسة والفذلكة مما لا يقل عن ١٥٠٠ كتاب مطبوع ، ٧٠٠ الى ألف مخطوط ، وكان تأميلى ترك أثر لى فى بلدى .

وقال أن أكبر جناية هى اعدام مثل هذا الكنز النفيس ، وما كنت أظن أن الأم الرءوم (دار الكتب السلطانية) تعامل

ابنتها الصغيرة الوحيدة فى القاهرة (المكتبة الزكية) هذه المعاملة القاسية ، ولا سيما وقد استفادت الأم من جواهر تلك البنت فى طبع كتاب (صبح الأعشى) فقد استعارت الأم منها النسخة القيمة المنقولة بالفوتغرافيا ، وأكملت منها ما كان ناقصا فى نسختها هى .

وقال : اننى لا أرتضى ، لأنه حبس مالى عند غيرى بلا مسوغ، وحرمانى من الاستفادة من كتبى ، وأنا لا أعيش بدونها مطلقا .

وتساءل : لماذا يحصل ذلك ؟ ألأننى أردت خـدمة بلدى فحبست عليها كتبى ؟ فتريدون أنتم أن تحبسوا كتبى عنى وعن الناس ، ذلك خارج عن حقكم ، وعن حق كل انسان وكل هيئة .

وقال ان فى مكتبته ما لا يوجد فى دار الكتب ، فان بها ثلاث مكانس كهربائية ثمن الواحدة لا يقل عن ٦٠ جنيها ، وليس فى دار الكتب واحدة ..

وغضب لأن مدير دار الكتب خاطبه باسـمه بدون ذكر وظيفته : سكرتير مجلس الوزراء ، أو صاحب الخزانة الزكية وقال : عليكم أن تفهموا أننى (أحمد زكى باشا) سواء كنت فى الوظيفة أو خارجها ، وأن خدمتى فى المشـارق والمغارب لأمتى وللغتى ولآدابها وعلومها ومعارفها لا يخفى على أحد وليس لأحد أن يخفيها ، فاذا افتخر أحد بوظيفته فاننى أفتخر بعملى الذى هو التاج الباقى لاسمى .

فى مجال العمل السياسى الحر

وما ان استقال أحمد زكى من وظيفته حتى انطلق الى مجال العمل السياسى حرا طليقا ، وظهر بوضوح اتجاهه العربى ، فقد بدأ على أثر ذلك رحلاته الى الشام ، وزيارته لبيت المقدس . وكتاباته فى الأهرام ، وكشف عن دعوته الى تجديد مجد الأمة العربية ، وحاول أن يتصدر فى مجال الزعامة العربية السياسية الى جوار زعامته الفكرية فوثق صلاته بزعماء العرب والاسلام فى كل مكان ، فما من زائر منهم جاء القاهرة الا وكانت قبلته (دار العروبة) فى الجيزة على النيل يقيم فيها احتفالاته ومآدبه ، ويلقى فيها الخطب الرنانة والقصائد ، ويدعى اليها كل الوافدين على مصر من أعلام سوريا والعراق والحجاز والهند والترك والفرس .

ومن هذه الندوات بدأت دعوته الى « الرابطة الشرقية » .

وكان أحمد زكى معروفا فى أوائل حياته السياسية بالدعوة الى « مصريون قبل كل شىء » حيث دعا فى عام ١٩٠٨ الى ترابط المسلمين والمسيحيين فى مجال الوطنية ، وله فى ذلك رسالة كان ألقاها محاضرة فى جمعية الرابطة المسيحية ونشرتها المقطم فى ٢٧ مارس ١٩٠٨ ، وطبعت فى كتاب ، ولكنا لم نعثر عليها فى دار الكتب .

ثم دعا بعد ذلك الى « العروبة » ، ودعا الى « الرابطة

الشرقية » ، وكان مع ذلك عضوا فى المحفل الماسونى ، وفى جمعيات وهيئات متعددة .

وفى الداخل — ومن أجل محاربة الملك فؤاد — كان متصلا بالوفد ، وكان عدوا لدعوة الخلافة التى كان فؤاد يحتضنها ، ومن أجل هذا كانت سقطته المعروفة بمبايعة الشريف حسينا بالخلافة فى ١٠ مارس ١٩٣٦ ببرقيته المشهورة « أهنىء العرب والشرق برجوع قريش الى الحياة العملية لاعادة الاسلام سيرته الأولى على يدى سيدى ومولاى الخليفة الأعظم الحسين بن على أيده الله ، ووفقه لاحياء هذا المجد العظيم » .

وقد أعلن رأيه فى الخلافة (١٤ أيار ١٩٢٦) فى جريدة فلسطين قال : « ان الخلافة كانت صالحة يوم كان العرب كتلة واحدة وقد انقسموا فأصبحت عديمة الجدوى لا سيما وأن معظم الممالك الاسلامية تسيطر عليها دول أجنبية حرمتها من استقلالها ولا يوجد من تصح مبايعته بالخلافة اليوم ، وانى أعتقد بأن مندوبى المؤتمر سوف لا ينادون بالملك فؤاد خليفة للمسلمين ، وأنهم اذا انتخبوه كان عملهم بعيدا عن الحكمة ، وقرارهم غير عملى ، لأن الخلافة منذ القرن التاسع أصبحت رمزا أكثر منه حقيقة » .

٢ — ولقد كان سعى « أحمد زكى » فى سبيل التبريز والشهرة دافعا اياه الى اندفاعات سريعة عاطفية وعصبية متعددة شمالا ويمينا ، ارضاء لرغباته وتطلعا الى الحديث عنه .

وقد شغل أحمد زكى نفسه بالعمل السياسى خلال الفترة

الأخيرة من حياته (١٩٢١ الى ١٩٣٤) ، ولو قصرها على عمله الفكرى وحده لأعطاه ذلك فوق ما يطلب من الشهرة والتبريز . ولكنه كان طموحا متطلعا الى الزعامة ، وقد تحقق له ذلك على نحو بلغ به القمة ، عندما أسفر بين الامام يحيى والملك عبد العزيز فى خلافهما عام ١٩٢٦ ، فقد نجحت الوساطة وكان ذلك نصرا كبيرا ، وقد أتيح له خلال هذه الزيارة أن يلبس العقال والمشلح وتؤخذ له صورة فوتغرافية على هذا النحو ، ويطلق عليه لقب «شيخ العرب» فتمسك بها حتى آخر حياته ، وأصبح اسم « شيخ العروبة» مرادفا لاسمه ، تتصدّر به المقالات التى يكتبها ، فتنشر الأهرام تحت عنوان مقاله « بقلم شيخ العروبة » بعد أن كانت تنشر « بقلم العلامة » ويوقع هو مقالاته (عن دار العروبة) بعد أن كان يوقعها (عن جيزة الفسطاط) وكانت قضية فلسطين أيضا مجالا ضخما للتبريز ، فقد شغل نفسه بها شغلا جما ، وأتيح له أيضا عن طريق « الرابطة الشرقية » أن ينتدب لتحقيق تنازع العرب واليهود على حائط المبكى وهو ما أطلق عليه يومئذ (قضية البراق) فأدى واجبه وبحث المسألة بحثا تاريخيا ، وكتب تحقيقا شاملا باللغة الفرنسية ، بهر به أعضاء اللجنة التى أرسلتها عصبة الأمم للتحقيق :

وتعد قضية اليمن وقضية فلسطين أبرز أعماله فى مجال العمل السياسى العربى .

٣ ـــ الرابطة الشرقية :

وما أن خلّف أحمد زكى أعباء الوظيفة حتى بدأ عمله فى سبيل الدعوة الى الرابطة الشرقية العربية ، فأعلن فى حفل حاشد فى دار ميرزا مهدى مشكى (فى ٢١/١١/٢٦) .

« اننى أرى فى حفلنا هـــذا العربى والفارسى ، والتركى والهندى والأندونيسى . واستمع الى اللهجات المختلفة من مصرية وسورية ومغربية من أبناء العربية الى جانب الفارسية والتركية والهندية ، تتجاوب أصداؤها بالتحنان الى جمع الشمل ، والكل يعيش فى جنبات هذا الوطن ، وتحت سماء هذه العاصمة الفاتنة ، ولا تربطكم آصرة التعارف ، مع أن الجميع من صفوة أبنـــاء الشرق ، وحملة ألوية نهضته .

لم لا نؤسس رابطة شرقية تجمع بيننا أولا ؟ ثم هى غدا تصبح جامعة بين أممنا الشقيقات ، اذ لا نزاع أن الشرق سيظل شرقا بيمنه وبركته ومفاخره .

اننى أرى أنه من الخير لمصر أن تكون رأسا لشـــقيقاتها وجاراتها من بلاد الشرق وأمم العروبة من أن تكون ذنبا لبلاد الغرب وأممه » .

وما ان بدأ العمل لتكوين « الرابطة الشرقية » حتى كان أحمد زكى على حد تعبير الشيخ التفتازانى روح الرابطة وقد تم تأسيسها بداره فى ٩٢٢/١/١٧ ومن أجل هذا انتدب للوساطة بين اليمن والحجاز وتصدر قضية البراق ، وهما قمة مجده فى ميدان العروبة .

وقد كان زكى باشا مؤمنا بارتباط الأمم الثلاث : الفرس والترك والعرب ، وقد دعا الى توثيق الاتصال التام .

يقول : أنا أرى أن الثقافة التركية قد دخلت فى طور جرىء جديد ، وأنا أرى الفارسيين يتحفزون ، بل قد تواثبوا بالفعل لاسترداد مجدهم الصميم القديم .

أما أبناء العرب فهم عاملون على تقطيع أوصال الأغلال التى قيدهم بها الاستعمار فى كل الجهات الا جهة واحدة ..

وأنا أرى أنه لا مندوحة من فوز العرب بالمرام اذا نبذوا الشقاق وعادوا الى الوحدة والاتحاد .

وعقيدتى أن كل أمة من الأمم الثلاث ينبغى لها أن تعمل لنفسها ولحسابها الخاص ، دون أن تربطها أمة أخرى ، أو أن تشل حركتها ، أو أن تتشبث بها فتعوقها وتعوق نفسها عن السير الى الأمام .

وهكذا تتجاذب الرابطة الشرقية الى ما فيه النفع المؤكد ، لأفرادها ومجموعاتها وبهذا التجاذب الذى لا مناص منه يتألف فى الشرق الأدنى كتلة جبارة يمكنها أن تقف فى وجه الاستعمار الأوربى بحيث يرى من مصلحته الحيوية أن يعامل الشرق معاملة النظير ، وبهذه المثابة تعود الثقافة المثلثة (العربية — الفارسية — التركية) الى ما كان لها من رجحان وتتجدد لتلك الطبقة الراقية من أكابر الرجال العارفين بالثلاث لغات [1] .

---

(١) الأهرام — ١٩٢٥/٥/٢٥ .

٤ ـــ والقومية العربية :

وفى نفس الوقت كان زكى باشا ينادى العرب الى اليقظة والوحدة :

« ان العرب قد صدمتهم الحوادث فى هذا العهد الأخير صدمة شديدة تنبهوا لها ، وتفزعوا من هولها ، صـــدمة لا يضارعها فيما نعلم سوى تلك الهزة التى أيقظت سلالة الرومان ، فأهابت بهم الى العودة الى الحياة ، فلعلنا ، ولعلنا يا معاشر العرب نثابر فى هذه النهضة الحديثة حتى نسترد قليلا قليلا ما كان لأسلافنا من السيطرة والرجحان ، ونستعيد مقامنا المحمود فى مجموعة الأمم والشعوب ، فلسنا ورب الكعبة أدنى كعبا من الشعوب ، ولا أقل فى المواهب من ذرارى الرومان الذين تدلوا مثلنا الى الحضيض ، ولكنهم بفضل ضربات الزمان قد استفاقوا ، ثم نفضوا غبار الجهل والعبودية ..

هذا العاجز الذى أخذ على نفسه تنبيه العرب الى مفاخرهم وتذكيرهم بما كان لأجدادهم ، مما يزيد فى احداث هذا الأثر الحميد ، ومما يقرب الأوان لاجتناء ثمراته الشهية .

٥ — ولا يقف زكى باشا عند لقاء الشرقيين والعـــرب ، بل يحتفل بالباحثين والمستشرقين الأجانب ، ويدعو للتعارف بهم أعلام مصر والعرب . ويتحدث اليهم ، وقد أتيح له أن يجمع من المستشرقين :

مرجليوث وسقورث ، ويهود وليتمان ونلينو ، وجويدى ،

ودعا معهم شفيق باشا ، ورشيد رضا ، وعبد الرحمن شهبندر ، وأحمد شوقى ومطران ومرزا رفيع ، وحافظ رمضان ، والتفتازانى والزنكلونى ، وفريد رفاعى ، وسيد كامل ، وفهمى العمروسى ، وتوفيق اسكاروس ، ومحجوب ثابت ، وابراهيم جلال ، وداود بركات ، وهدى شعراوى ، ومى زيادة ، وسيزا نبراوى ، واحسان أحمد ، وألقى فيهم خطابا ضافيا صور فيه هدفه من هذه الاجتماعات المشتركة بين أعلام الشرق والغرب قال :

أنتم تعلمون أننى أغتنم كل فرصة سانحة لأكون واسطة للتعارف بين أكابر الافرنج وأفاضل العرب ، ولى فى ذلك مطمع بعيد المدى ، هو أن يكون هذا التفاهم سببا فى خلق جو جديد من الصفاء والوفاء ، بين الشرق والغرب .

هذه الغيوم التى نشكو من تواليها ، لابد لها من الانقشاع ، وتلك الارهاقات التى نعانيها من سياسة البطش والاستعمار لا مناصر لها من التبدد والزوال .

أما الامتيازات الأجنبية التى تجعل أكبر عزيز فى بلادنا مهانا فى عقر داره ، ومهضوم الحق بازاء الأفاقى الطارىء عليه ، فقد انقضى زمانها ، هذه الامتيازات هى العقبة الكبرى فى سبيل التفاهم بيننا وبين أوربا لأنها أكبر مسبة لكرامتنا القومية ولماضينا المجيد .

ولا دواء لهذه العلل الفاشية الا عن طريق أهل الرأى المجردين عن الهوى وهم أفاضل الافرنج ذوو الأخلاق الطاهرة ، والضمائر الحية ، أولئك الذين لا تعميهم مصالحهم الشخصية .

هؤلاء المستشرقون والمستعربون هم القـــادرون على بث الدعوة بين قومهم ليحملوهم أخـيرا وبعد تمادى الزمان عـلى الاعتراف بأن العرب جديرون بأن يتبوأوا مركزهم تحت الشمس، لأنهم على الأقل مساوون ببعض الأمم العائشة فى النصف الشرقى من أوربا .

مفروض عليكم أن تتضافروا فى تحقيق الأمانى الكبار التى يتطلع اليها أبناء الشرق على العموم ، ويحن اليها العرب بنوع خاص .

مفروض عليكم أن تتضافروا لتحقيق هذه الغاية بقلوب يعمرها الايمان بحقوق الانسان على الانسان .

مفروض عليكم أن تتعاونوا هنا وفى ما وراء البحار على تهيئة الرأى العـام لادراك هذه الحقيقة التى نفعت الحلفاء فى أيام الحرب ، والتى سيحتاجون اليها بلا شك كلما تجـدد الخطب واشتد الكرب .

مفروض عليكم أن تتواصلوا بالفعل والعمل الى المجـاهدة فى ديار أوربا وأمريكا حتى يعترف أهلوهما بأن العرب جديرون بالرعـاية والاحترام ، جديرون بالحـــرية الصحيحة ، جديرون بالاستقلال التام .

ولى كل يوم موقف ومقـــالـــة

أنادى ليوث العرب ويحكموا هبوا

٥ — دار العروبة :

وأضحت دار العروبة قبلة لأعلام العرب والاسلام من كل مكان « ترى فى داره البدوى والحضرى ، والهندى والصينى ، والتركستانى والتكرورى ، يأتون اليه من كل فج يستطلعون أحوال المسلمين خاصة » .

يقول الدكتور أحمد عيسى ، وهو ممن شهد هذه الندوة « صادفت فى بيته يوما من الأيام جماعة من الأعراب من جـوف الصحراء الكبرى ، الذين ينقلون التجارة على ظهور الابل بالقوافل ما بين مصر وواحة الأدرار وشنقيط حتى يبلغوا بلاد السنغال .

وسمعت من هؤلاء أن اسم أحمد زكى يعرفه جيدا أهـل الصحراء ، وسكان الواحات المنتشرة فيها ، ولا ينسون دفاعه عنهم فى كل ما تسنح له الفرصة ، وكيف دافع عنهم عندما كتب السائح الافرنجى مزاعمه عنهم .

وقال الدكتور أحمد عيسى عن بيت زكى باشا أنه منتدى ، فى كل ليلة يجمع حفلا عظيما من الزائرين ، من العلماء والمستفيدين الذين يسترشدونه فى المسائل العلمية ، وانه كان يمد سـماطه العربى الحاتمى المضروب به المثل ، وما سمعت يوما أنه تناول غداءه أو عشاءه الا اذا كان مريضا فى فراشه وولائمه يصل فيها المدعوون غالبا فوق المائة .

وقد شغل أحمد زكى نفسه فى خلال هذه المرحلة من حياته بقضايا الأمة العربية ، وكتب كثيرا عنها ، وعندما جرى الحديث عن جزائر البحرين ، وهل هى تابعة لايران أو لبريطانيا ، غضب

وثار وكتب يقول : [1] غريب . غريب أن يحتد الجدال ، وأن يحتدم الخصام بين لوندرة وطهران : على .. على شيء هو عربى صميم ..

ما بال هؤلاء الأفاضل فى الشرق وأولئك الأماثل فيما وراء البحر يختلفان فى أمر ليس فيه لأحدهما فتيل ، ولا للآخر قطمير ؟

انهما يختصمان على حطام من البقايا التى تركها لنا جدنا الأكبر « يعرب » هذه مجموعة من الجزائر واقعة على الضفة الغربية للخليج الفارسى ، وداخلة فى أحضان الأرض العربية المحضة ، هى اذن عربية فى موقعها ، واصالتها ، عربية بجلالها فى الماضى والحالى ، ومع ذلك تتعاظل [2] لوندرة بسببها مع طهران ، وهى لا فارسية ولا انجليزية ، بل عوان بينهما .

انا لا يسوغ لنا فى مصر أن ننسى اخواننا البحرانيين وهم ..

ويهاجم فرنسا فى مواقفها مع سوريا :

[3] يا فرنسا يا فرنسا : هل تعلمين بما يقترفه أذنابك فى بلاد الشام ؟

بعينى رأيت ، بأذنى سمعت ، بقلبى أحسست ،

أما الحرية فهى محظورة على الناس ، أما المساواة فحديث

---

(١) الأهرام — ١٩٢٩/٢/٢٢ .

(٢) تتعاظل : بمعنى تختلف أو تتعارك .

(٣) الشورى — ١٩٢٥/١٠/٢٩ .

خرافة ، وبقى الاخاء كلمة جوفاء ، لا معنى لها الا التفريق ، وبذر سموم الأحقاد .

ويكتب مرة أخرى فيقول [١] : بين فرنسا وانجلترا تنافس فى السلب والنهب ويشور من أجل ما يلاقى أهـل السويداء فيصرخ : يا ساكنى السويداء وأنتم فى سويداء قلبى [٢] .

---

(١) الشورى ١٩٢٦/٣/١٨ .
(٢) الشورى ــ ١٩٢٦/٤/١ .

رحـــلة اليمن

سافر زكى باشا الى اليمن مع صديقه نبيه العظمة عام ١٩٢٦ ، من أجل التوسط فى الخلاف بين الامام يحيى وابن السعود فقصدا الى اليمن أولا . ثم قصدا الى الحجاز واستطاعا أن يأخذا موثقا على الامام يحيى ألا يبدأ ابن سعود بشر .

وفى مكة أخذا موثقا مماثلا من ابن سعود .

وقد صور رحلته فى أكثر من مقال وبحث وجريدة ، وأثار ضجة كبرى برسائله وبرقياته ومقالاته : يقول :

« تأهبت[1] للسفر الى اليمن ، منتدبا نفسى من قبل نفسى ، لا عن هيئة ولا عن جماعة ، ولا عن حكومة ، وقد بدأت ببلاد اليمن قبل الحجاز ، ليقينى بأن الترضية واجبة كل الوجوب لأهل اليمن من (الزيود) [2] على الوهابيين ، وذلك بسبب ما نزل بقافلة الحجاج اليمنيين من قبل النجديين لهم ، قصدا أو بغير قصد .

« ولكى أحتفظ أنا وصديقى بكرامتنا الشخصية وكرامة بلادنا ، أخذنا معنا هدايا وفيرة لجلالة الامام يحيى ولكبار أعوانه ،

---

(١) الهلال أول يوليو ١٩٢٩ .

(٢) نسبة الى الأئمة الزيدية .

لأننا تأكدنا أنه ليس فى صنعاء فندق ولا خان ولا وكالة ، وهم يسمونها « سمسرة » مما يكن لغريب أن ينزل فيه ، ووجدنا أنه لابد من النزول على ساحة الامام ، فأردنا بهذه الهدايا أن نكون خفيفى الظل وأن يكون لنا مجال واسع فى أن نقول للامام كل ما تمليه علينا العروبة .. » .

وقد أسرع أحمد زكى بتوجيه خطاب لاصلاح ذات البين بين الملكين بمجرد ركوبه الباخرة نشرته الصحف :

الى الأعارب ، فى المشارق والمغارب » .

عن ظهر الباخرة جنوى ٢١ يوليو ١٩٢٦ ، فى هذه الساعة نقتحم البحر الأحمر الذى كان مصدر المجادة لأمتنا ، ومنبع السعادة لأجدادنا ، حينما كانت الكلمة متحدة والغاية واحدة ، ذلك البحر الذى أصبح اليوم وليس لنا فوقه راية ، ولا فى مصيره رأى ، منذ تخاذل العرب ، وانقسموا على أنفسهم ، فى هذه الساعة العصيبة نستقبل أرض اليمن ، معتمدين على الله دون سواه ، ومدفوعين بعاطفة العروبة وحدها ، لانذار قومنا بالخطر الداهم ، فلعلنا بتوفيق الله وبحسن نيتنا الخالصة لوجه الله دون سواه ، تتمكن من حسم أسباب النزاع بين القطرين الشقيقين .

ان روح العروبة تناجينا عند دخولنا فى بحر العرب » .

يقول الدكتور أحمد عيسى ، انه فى أثناء مقامه بصنعاء أخذ له رسم فوتغرافى وهو فى ملابس شيوخ الأعراب ، فأراه لسيف الاسلام على نجل الامام يحيى وقال له من هذا ؟ فقال سيف الاسلام : هذا شيخ العرب ، فقال زكى باشا : بل شيخ العرب

والعجم ، والترك والديلم ، وجاء وهو متمسك بلقب شيخ العروبة ..

ويقول أحمد زكى : لقد كانت لى فى كل مكان نزلت فيه كرامة خاصة ، لأنى من الأشراف فأنا كما تعرف (حسينى) وقد ساعدنى هذا الشرف على دخول المساجد ، والتنقيب فى الآثار ، حتى ولو كانت فى محراب الجامع [1] .

---

(١) الهلال ـ مارس ١٩٢٧ .

قضية فلسطين

كانت فلسطين أبرز القضايا السياسية التى عاشها زكى باشا بقلبه واحساسه وعواطفه . ربما كان للصلات والروابط الروحية بالمسجد الأقصى أثرها فى نفسه وربما كان من أجل قرابته ، فهو من بيت النجار من عكا ، وكان يخفى ذلك ولا يقوله لأقرب الناس اليه (١) .

وقد جعل من فلسطين شغله الشاغل ، وشارك فى العمل لها ، وكان أول أسفاره بعد اعتزاله خدمة الحكومة الى بيت المقدس حيث أمضى بها شهورا . ثم عاودها فى زياراته المتصلة للشام ، وكانت له صلات وثيقة بزعمائها .

وقد كشف عن عاطفته نحوها فى عديد من كتاباته المبكرة .

« ما فلسطين عندى الا فرع ذكى من تلك الدوحة الشقيقة « الشام » وما الشام فى نظرى سوى تلك البقعة المباركة الممتدة من جبال العلايا (طوروس) شمالا ، الى شجرتى العريش جنوبا ، ومن ضفاف الفرات الى شطوط البحر الأبيض المتوسط .

أما ما فعلته أحداث السياسة العصرية من تقطيع أوصالها

---

(١) ذكر خير الدين الزركلى فى كتابه الأعلام فى ترجمة لأحمد زكى قوله : سألته عن أصله فقال عربى من بيت النجار من عكا ، وما كان يريد أن يذكر هذا عنه وهو حى .

وتشريح جثمانها وتقسيم كيانها الى دويلات ودويلات كثيرة العدد ، قليلة المعنى ، فذلك أمره الى الزوال قريب ، لأنه مناقض للطبيعة .

لقد مزق الغرب أوصال هذه الأمة المجيدة التاريخ ، النقية الصفحة ، ثم تغلغل فى صميمها ، وسد عليها طرقها ، فأصبح أفرادها فى جميع البقاع ، وهم مستعبدون فى بلادهم .

غير أن الهزة العنيفة التى صدمها بها أهل أوربا قد وصلت الى منتهاها ونحن نحمد الله عليها فانها أعادت لنا الشعور بما توارثناه عن أجدادنا من التضامن لدفع عادية الغريب [1] » .

ثم واصل كتاباته للغوث والمناداة ، وفى سنة ١٩٢٩ كتب مقاله الثائر :

اسمعى يا مصر اسمعى ، فالمسجد الأقصى يستغيث [2] .

وفى عام ١٩٣٠ قام بعمله الكبير فى هذا المجال ، حيث انتدبته الرابطة الشرقية — التى هو مؤسسها — لتحقيق مسألة البراق ، والدفاع عنه أمام اللجنة التى انتدبتها (عصبة الأمم) للتحقيق ، والتثبت من حقوق المسلمين فى جدار المبكى ، وهو أحد جدران المسجد الأقصى .

وكان من نصيبه القسم التاريخى من الدفاع ، يقول الأستاذ التفتازانى :

---

(١) جريدة الشورى : ٢٢ أكتوبر ١٩٢٤ .
(٢) الأهرام : ١٩٢٩/١١/١٧ .

« كنت أظنه سيقصر دفاعه على ما تضمه الوثائق التى يستند اليها المسلمون فى اثبات حق لا نزاع فيه ، ولكنه أخرج للناس سفرا ضخما فى لغة فرنسية بليغة ، حيث رجع بكل فصل من فصول بحثه الى أمهات كتب التاريخ الأوربية .

وكان يقضى أكثر ساعات الليل والنهار فى المكتبة ، ثم يدفع بما يكتب الى من ندبه لتحرير مذكراته على الآلة الكاتبة ، ثم هو يواصل الكتابة بهذه الطريقة دون أن يرجع الى ما انتهى اليه من قبل ..

ولم يحدث مطلقا أنه فقد ارتباط العبارات ، وتوازن الكلمات ، بل يقول لكاتبه : اشتغل ولا تتعب نفسك بالمراجعة ، فان كل حرف تخطه يمينى هو مصور بارز فى ذاكرتى .

وقد أصابه ضغط الدم فى أدق ساعات اشتغاله باعداد دفاعه ، وارتفع الى درجة كبيرة ، فألزموه بالانقطاع حتى عن رد التحية .

وبقينا حول سريره الى ما بعد منتصف الليل حتى هجع واستغرق فى النوم ، ونهض قبل الشمس ودوى صوته القوى ، وهو يضرب بيده أبواب غرفنا قائلا :

« ألا أيها النوام ويحكم هبوا .

انه يوقظنا نحن الذين سهرنا عليه ، أيقظنا لنشتغل معه ، أو على الأقل ليقوم أحدنا مقام الكاتب حتى يحضر » .

فلما حدثناه عن ضغط الدم ضحك وأغرق فى الضحك وقال :

« ان ضغط الدم يرتفع عندى اذا تأثرت من أعماق فؤادى ثم هو ينخفض اذا خفت وطأة التأثر ، وزال الانفعال .

وقد تأثرت حين وصلت فى دفاعى الى نقطة تسامح المسلمين ابان قوتهم وازدهار أيامهم ، واعتدادهم بعظمتهم ، بينا هم الآن تجمد حقوقهم ، ويظلمون لأنهم ضعاف متخاذلون » .

* * *

ثم مثل أحمد زكى أمام اللجنة ، وألقى بحثه الطويل الدقيق باللغة الفرنسية وبطـريقته الخطابية البارعة ، واسـتهله بهذه العبـارات التى تكشف عن ايمـانه بالعروبة وحق فلسطين فى البقاء :

« باسم الحق الذى ينشد أهل العدل المنزهين عن الأغراض أبدأ ، أحيى هذه اللجنة بتحية الاسلام فأقول لها : سلام سلام ، وأمام هذه اللجنة التى نرجو أن تكون من بواعث ايجاد السلام فى هذه المدينة « مدينة القدس » مدينة السلام ، أبدأ قبل كل شىء ، وأختم بعد كل شىء بأننى باسم المسلمين الذين تفضلوا وشرفونى بالنيابة عنهم ، من ضفاف المحيط الهادى الى شطوط المحيط الأطلنطى ، ومن أقاصى الشمال الى نهاية المعمـور فى الجنوب ، وحينئذ فلى الشرف الذى ليس بعده شرف أن أتكلم باسم الأربعمائة مليون مسلم ، المنتشرين فى كل بقاع الأرض ، فباسم هـذه الكثرة الكبيرة المتضامنة على الاحتفاظ بحقوقها الأبدية الثابتة ، وبمخلفاتها المقدسة ، أتقدم الى اللجنة بتصريح

ابتدائى أساسى هو أننى مع الزملاء أقول قبل كل شيء وبعد كل شيء وفوق كل شيء :

ان الأمة الفلسطينية أعلنت رسميا عدم اعترافها بالانتـــداب البريطانى ، وهى لذلك لا تريد أن تتقيد بأى نظام مستمد من ذلك الانتداب أو الاقرار بأية نتيجة ترجع الى ما يسمى بوطن قومى يهودى .

ويقرر المسلمون أن النزاع على ملكية أماكن العبادة ، أو على حقوق مدعى بها على هذه الأماكن ، يجب أن يرجع الى الهيئة المختصة دون غيرها فى الفصل فى أمر الوقف والأماكن المقدسة ، وما عداها فهو غير مختص أصلا ، لعدم وجود حق له فى ولاية الحكم على هذه الأماكن » .

ومع التمسك بهذين التحفظين أتشرف بعرض ما يلى عـــلى مسامع اللجنة والعالم كله .. » .

ومضى زكى باشا يدلى بتقريره التاريخى العلمى الرصين .

وقد أمضى فى فلسطين شهرين ونصف الشهر .

ومن يومها توالت صيحات أحمد زكى ، فهو يخطب فى صيدا فى نساء العرب فيقول لهن : علمن أطفالكن احتمال المكاره والمشاق والرماية ليكونوا أبطالا .. » .

ويعود الى القاهرة فيواصـــل اتصـــالاته بزعماء العـــرب والاسلام ، مدافعا عن فلسطين . ويعقد احدى ندواته الضخمة

فى دار العــروبة ، ويحضرها أعلام من كل دين وطائفة وجنس وشعب ، على حد تعبير الأهرام (٢٨/٩/١٩٣٠) ويخطب فيهم .

ثم يواصل معاركه فاذا جاء عيد الفطر كتب بقول « عيد وأى عيد ، بل حزن متجدد ومستديم ، ويلى عليك يا فلسطين » ثم يواصل نوحاته فى صحف مصر وسوريا وفلسطين ولبنان والحجاز فى كل مناسبة .

مع المستشرقين

تطلع أحمد زكى منذ شبابه الباكر الى التعرف بالمستشرقين ، وأخذ من أساليبهم ووثق اتصاله بهم دوما . فكانوا على صـلة دائمة به ، وكان يطلعهم على كشوفه المتوالية فى مجال المخطوطات والتحقيق العلمى .

ولكنه كان معهم تلميذا وندا فى آن ، فهو يقدر بعضـهم ويذكرهم بالخير ، ويعدهم من المنصفين من أمثال كرابسك ومولر وجولد زير وكوينزتفلد ..

ولكنه لا يجاملهم فى الرأى بل يقف منهم موقف الصراحة ، ولقد أفاد منهم زكى باشا نقطة البدء ، فأشعلوا فيه جذوة الغيرة على التراث ، وأججوا فيه دافع البحث والتحقيق العلمى ، فكان يردد دائما كلمة مشهورة : هل ننتظر حتى يدلنا المستشرقون على تاريخنا ؟ هل ننتظر حتى يطبعوا كل تراثنا ويحققوه .. ؟

هكذا كان يضعهم أمام نظره ، ويحاول أن يسبقهم فيحصل على ما حققوه ثم يحقق هو جانب آخر يطلعهم عليه فى ازدهاء ، وكذلك كان يفعل فى مؤتمراتهم وهو لا يتوقف عن حث المسلمين والعرب على العمل من أجل ذلك التراث ، واعادة هذه الذخائر التى نهبت .

يقول : « نحن اذا نظـرنا الى أهـل المشرق والى العلماء

المشرقيين ، نراهم جميعا يتهافتون على الوقوف على كل ما له ارتباط بالحضارة الاسلامية ، ولا شك عندى فى أن الحظ الأوفر فى هذه النهضة المباركة ينبغى أن يكون لمصر ان لم تكن هى القائدة لحركتها ، المدبرة لشئونها ، وذلك نظرا لمركزها العلمى ولما كان لها من الأيادى البيضاء على العلوم والآداب .

.. ولا غرو أن المستشرقين الذين تفخر بهم المدارس الجامعة فى بريطانيا وسائر أوربا وأمريكا لا يألون جهدا فى العمل على نشر الكتب التى صنفها جهابذة العرب ، وبحثوا فيها عن شتى الخواطر والأوهام .

هؤلاء المستشرقون لا يزالون يدأبون على العمل فى التحصيل والدرس ، والبراعة فى التنقيب والبحث ، وبذلك يتيسر لهم أن ينشروا طائفة كبيرة من أمهــات الكتب العربية النفيسة ، وقد ترجموها فى بعض الأحايين الى لغاتهم ، وأن يتخذوها موضوعا لمباحثهم . كما يشاركهم قومهم فى الاستفادة منها ، وهم فى هذا المسعى يبثون فينا روح الأمل باسترجاع كنوز آدابنا الشرقية رويدا رويدا .

ومن المؤكد أن هذا الأمل لابد أن يدخل فى حيز الامكان ، ويتحقق فى عالم الوجود ، اذا ما آمدته مصر بالقسط الواجب عليها من المساعدة على احياء العلوم والآداب العربية » .

وهكذا يربط أحمد زكى صلته بالمستشرقين بالعمل الكبير الذى يتطلع اليه ، والذى عاش له : البحث عن المخطوطات النادرة

واعادتها الى مصر ، والتحقيق التاريخى والجغرافى واللغوى لكل ما تحتويه هذه الذخائر .. واذاعتها .

ولطالما عنى أحمد زكى بكل مستشرق يرد القاهرة أو المشرق، فيدعوه ويحتفل به ، فاذا تجمع عدد منهم فى مناسبة من المناسبات خطب ودعاهم الى أن يحملوا لبلادهم صـــورة منصفة ، وأن يقنعوا قومهم بعظمة مصر والعرب ، وحقها الكامل فى الحيـــاة الحـــرة ..

ولا يمنعه هـــذا من أن يهاجم المستشرقين الذين يحـــرفون تاريخنا ، عاملا دائما على كشف حقيقة موقف العرب وفضلهم على الحضارة ، وأسبقيتهم فى ميادين كثيرة ..

وهو ليس من الطبقة التى جاءت بعده من الباحثين الذين تابعوا المستشرقين مستسلمين فى كل آرائهم دون تحقيقها ، وفيها الخاطىء والمتعصب ، فاذا جاء باحث وحاول أن يغض من عمله أو يصفه بأنه متعصب للعرب ، دافع عن حقه وانبرى يقول :

« هل يراد بنا أن نسكت عن مفاخر أجدادنا ونترك الميدان لغربى مثل العلامة سيديو ، الذى أثبت اكتشاف « أبو الوفا البوزجانى » فيما يتعلق باختلافات القمر ؟ وأثبت أن العـــلامة (تيخوبراهى) الدانيمركى انما نقـــل أرقامه وحساباته بالنص والحرف ، واعترف علماء الافرنج لذلك الفلكى الاسلامى بالسبق الى هذا الاكتشاف البديع فضـــلا عن اكتشافاته الأخرى التى أثبتها العلامة (.دلامبر) الفلكى الفرنساوى ، وقل مثله عن جابر

ابن حيان ، وعن ابن الهيثم وغيرهما من علماء العرب ، أم يريدون أن نترك لغيرنا اظهار مفاخر أجدادنا ..

قل لى بربك ماذا أفعل غدا وقد وجدت بعض علماء العرب قد سبقوا الى التفكير فى جاذبية الأرض وتكلموا عنها ؟ . أأسكت أم أتكلم ، انى اذا سكت كان سكوتى خيانة للأمانة العلمية ، واذا تكلمت عرضت نفسى لمثل هذه التهم السخيفة .

ثم ماذا أعمل بما أرشدنى اليه بحثى حديثا وهو أن الكندي الاسلامى قد اكتشف ورصد نجما من ذوات الأذناب ؟ هل نترك تحقيق هذه المسألة للأفرنج ونبقى عالة عليهم فى بيان مفاخرنا ؟

أفئن فتشنا عن آثار أجدادنا ، واهتدينا الى الأقل القليل منها أفيكون جزاؤنا مثل هذه التهمة الشنعاء ؟ ..

الحق أبلج والعلم أمانة ..

من الرسائل الزكية

ان رسائل أحمد زكى الى أصدقائه وعارفيه من باحثين وعلماء ومستشرقين فى مختلف أنحاء الأرض ، من أوربا والعالم العربى وآسيا وأفريقيا هى ثروة ضخمة لا شك تكشف جوانب عديدة فى تاريخنا الفكرى والسياسى والاجتماعى ..

ولكن أين هى هـذه الرسائل ؟ لقد بحثنا عنها فى المكتبة الزكية فلم نجد الا رسائل قليلة انتفعنا بها فى صلب هذا البحث . وأغلبها يتعلق بالمكتبة أو مسائل عامة أو خطابات مرسلة منه الى بعض المسئولين عن مكتبة الاسكوريال أو تقارير فى هذا الشأن .

أما الرسائل المنطلقة من قيود الرسميات ، الجارية على السجية ، التى تختلط فيها المشاعر بالأبحاث ، والعواطف بالقضايا السياسية فهذه لم نجد منها الا هذا الجانب القليل الذى نورده هنـا .

ونحن نعتقد أن هناك ثروة ضخمة من هـذه الرسـائل فى مخلفات منزل زكى باشا (دار العروبة) وقد حاولنا ذلك مع بعض المتصلين بالأسرة ، غير أننا عجزنا فى الحصول على شىء منها .

وتعطى رسائل زكى باشا فى مجموعها صورة نفسه الطليقة الحرة ، وطابعه الجرىء ، وعواطفه المتدفقة ، وذكرياته الحلوة وايمانه بالعروبة والاسلام وصداقاته العميقة ..

— ١ —

الى رواد النادى الأدبى فى حماه :

حياكم الله وبيض بكم وجه العـرب ، وأحيى على أيديكم ما كان للأدب من دولة فى حلب ، وجعـلكم خـير خلف لذلك السلف .

فلقد تلقيت كلمتكم الشائقة فكانت بلسما لفؤادى العليل ، وتجلى له فى خلالها ومن ورائها أفق بعيد المدى ميمون الطالع .

لذلك كان من حقكم عندى ، وكان من واجبى لكم أن أبادر بأسعافكم على انجاز مشروعكم ، لأنه فرض عليكم ، وأعنى به احياء ذلك العصر الذهبى ، عصر سيف الدولة والمتنبى .

رجعت الى قماطرى وأضابيرى ، والى دفاترى وطواميرى ، فوجدت فيها كتابا شرعت فى جمعه وتأليفه وتنميقه منذ زمان طوال ، لا تقل عن العشرين من السنين ، ودونت فيه كل ما وقفت اليه ، واهتديت اليه من الشوارد التاريخية والفرائد الأدبية ، ليكون فى زعمى تكملة لكتاب (الأغانى) منذ عهد أبى الفـرج الأصبهانى الى أيامنا هذه ، واستدركت فيه مالم يذكره أبو الفرج عن نفسه وعما حدث فى نفس عصره ..

وأشرت فيه بشىء من التفصيل الى ما كان من عناية العرب وغير العرب بكتابه الحافل ..

رأيت فى مذكراتى مجلسا من مجالس (جعداء) تلك الأديبة الكاملة والمغنية البارعة ، وهى التى تزاحم على اقتنائها والاستئثار بها رجلان من أكبر رجالات التاريخ ، ومن أعظم زعماء الأمة العربية ، هما الوزير المهلبى فى بغداد وسيف الدولة فى حلب ، فكان الفوز من نصيب ابن حمدان .

فأنا أعلنكم باستعدادى لكتابة هذا الفصل لادماجه فى روايتكم (اذا شئتم) أو لموافاتكم بتفاصيله لتتصرفوا فيه .

أما اذا أردتم بيانات أخرى عن الحركة العلمية والأدبية والسياسية ، وعما جرى من الأحداث الخطيرة فى العلاقات الدولية مع امبراطورية الروم فأنا رهين الاشارة .

جيزة الفسطاط — ١٢ أكتوبر ١٩٢٤
٤ نوفمبر ١٩٢٤

— ٢ —

سيدى رئيس النادى الأدبى (حماه)
يا حسرتاه على الشرق وأشباله

أفكلما تحول نظرى الى مصر من أمصاره ، ارتد طرفى وهو حسير وعاد قلبى الكسير بسهم جديد يتكسر على ما سبقه من النضال .

أم هل أتاك حديث حماه ، التى كانت محمية فى عهد الغطاريف من بنى أيوب أولئك الذين جعلوها ميقاتا لحضارة الاسلام ومنبعا

لعلوم العرب ، ووعاء للكتب فى كل فن مطلب ، فها هى أيضا قد تناولها ما اعترى اخواتها الكثيرات ، فأقفرت معهن أو بعدهن من تلك الكنوز التى كانت تفيض على المشارق والمغارب بنفثات الصدور وثمرات المعارف .

والا فأين ، أين تلكم الخزائن العامرة التى كانت مفخرة المفاخر فى حماه ، وبهجة لحماة حماه والتى كانت تتعطر بتلاوتها الأفواه وتترنم بذكرها الرواة .

بل أين تلك الخزانة الثمينة التى توفر على جمعها السلطان أبو الفدا ، فخلد اسمه الكريم لا عن طريق النسب العربى والسلطان العظيم بل بتصانيفه البارعة فى التاريخ والجغرافيا ، والفلك والرياضيات ؟ ولقد انتفع بها الافرنج قبل أن يصل الينا بعضها عنهم .

فهذا كتابه فى الجغرافية قد طبعوه فى باريس ، ثم ترجموه وشرحوه بلغة الفرنسيس وعن طريقهم — دون سواهم — تناهت الينا هذه التحفة الغالية من تراث أجدادنا الأكرمين .

ليت شعرى أكل هذا ذهب أيضا مع أمس الدابر وأصبحنا نبكيه كما نحن نندب جدنا العاثر .. بما نتلقاه بين كل عشية وضحاها من غوائل أوربا فى كنوزنا ومرافقنا ثم قلوبنا ورقابنا .

ولكن .. ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل ، وما أجمل الأمل اذا كان مقرونا بشىء من العمل ..

فلئن كان قومى فى حماه قد تسربت من مدينتهم تلك الكنوز الباهرة بما انصبت عليهم من عادية الزمان وبغى الاغراب ، فان

أكبر ظنى أن هاتيك القلوب الخفاقة بين جنوبهم قد تحدر اليها أثر من تلك الشهامة التى سجلها التاريخ لأجدادهم ولا أقول لآبائهم .

فسقيا ورعيا لأهل هذا النادى ، ولعلهم .. ولعلهم يتضافرون على تجديد ما كان لمدينتهم من مقام كريم وصيت مجيد .

— ٣ —

عن جيزة الفسطاط ١٣ نوفمبر ١٩٢٤

من جيزة الفسطاط الى حماة الشام

فى يوم الثلاثاء ١٩ جمادى الأولى سنة ١٣٤٣ (١٦ ديسمبر ١٩٢٤)

سيدى المفضال رئيس النادى الأدبى

سلام الله عليكم وحواليكم وشكواى منكم اليكم

وكيف لا أشكوكم الى أنفسكم وأنا أتوسم فيكم بقية من الانصاف الذى جعل لأجدادنا خير أحدوثة نفاخر بها من يفاخرنا ، وان كانت همتنا قد قعدت بنا حتى صرنا الى ما صرنا ، وكيف لا أشكوكم الى أنفسكم وأنا أعتقد أن فى ثنايا قلوبكم قد انزوت عاطفة العدل التى كانت شعار أجدادكم ، ولا سيما ابن بكران الحموى الذى تولى قضاء القضاة فى بغداد ودرج رحمه الله فيها أو بدمشق الفيحاء سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) فقد كان معروفا عند الخاص والعام بأنه (لا يخشى فى الله لومة لائم) .

ان كنتم أنتم نسيتموه وان كنتم تزعمون أن قضاءه لا يسرى

على مصرى ، لخروجى من دائرة اختصاصه (أو صلاحيته عـلى اصطلاح أهل الشام) فاننى لست أنسى أن حماة كانت داخلة فى حومة مصر على عهد ابن طولون وصلاح الدين وقانصوة الغورى ثم على أيام محمد على .

وما دامت مصر كانت هى الأم فاننى أذكر لكم قدوة حسنة عن قاضيها الأكبر أعنى (خير بن نعيم الحضرمى) وهو قد حكم بنفسه عـلى نفسه لمصلحة خصمين تقدما اليه فى سـنة ١٢٠ هـ (٧٣٨ م) بمدينة الفسطاط ..

ولعل ناديكم الكريم بفتح هذا السبيل بانصافى من أنفسكم فى دعواى ، قد كنت أشكو حيف الزمان على العرب ، وأبكى من جور الاغراب على العرب وعلى مآثر العرب وآثار العرب ، ومن جملة ذلك خزانة « أبى الفداء » .

واذا بجوابكم وافانى اليـوم على لسان رئيسكم سـيدى الدكتور توفيق بك قد أصاب مقتلا أخيرا .

أفرأيتم عليلا يزيده طبيبكم جراحا ، فقد ظن أنه يواسينى ويخفف لوعتى حينما تفضل فأخبرنى بأن كتابى الأول قد حرك الكامن من عزماتكم فأجمعتم أمركم على .. « اصلاح مرقد الملك الكبير أبى الفداء » .

يا لله

هل عدت العوادى أيضا على هذا الحرم المقدس ، حرم العلم والفضل ، حرم المجادة والنبل ، حرم الحجى والنهى والعقل .. أم بلغ الاهمال فى حماه منتهاه .

ذلك مالم يكن لى على بال والله ..

وأوجه الكلام الى ملوك العرب وسادات القبائل ورؤساء العشائر وأرباب البيوتات والى كل ناطق بالضاد ليضعوا أيديهم الكريمة فى يد النادى الأدبى اقامة ضريح لأبى الفداء يكون جديرا بذلك السلطان ، بل بذلك الانسان الذى هو « رجل ولا كالرجال » .

راجيا أن تتبلوا مبلغا زهيدا ضئيلا من المال على هذه النية المباركة وهذا وحقكم جهد المقل وكل ما فى الاستطاعة ..

٣١ ديسمبر ١٩٢٤

— ٤ —

عن جيزة الفسطاط

سيدى المفضال ..

لقد كان الواجب أن أبدأ جوابى اليكم بالسلام عليكم ، وها أنذا قد قمت بهذه الفريضة التى يرتاح لها الفؤاد وتجيش بها عاطفة التضامن بين القطرين الشقيقين مصر والشام .

على أننى أرانى مضطرا الى مزاوجة هذا السلام بشىء من العتاب والى متابعته ببعض الملام .

فلا تعجبن ، يا ابن عمى ، اذا كنت آكاشفك ، أنت وعصبتك الأخيار بما خالج قلبى من الاحتياج الى الاحتجاج ، حينما تناولت فى هذا اليوم دعوتكم الكريمة الى الاشتراك فى تكريم الشيخ (لويس شيخو) أمتعنا الله بحياته .

انكم ضربتم لهذه الحفلة موعدا قصير المدى جدا ، لا يزيد على أسبوعين لمن أسعده الحظ بالمقام فى بيروت ، وضربتم عرض الحائط بمواعيد المسافة التىقررها قانونالمرافعات (أو الاجراءات فى عرفكم) لاعلان الشهود أو بالحضور من وراء القفر والبحر وفرضتها رسوم المجاملات بين المتوفرين على خدمة العلوم والآداب .

فما هو السر ..

هل ابتغيتم الاستئثار بهذا الفخار أم بغيتم بغير الحق فى الاحتكار ..

والا فلماذا جعلتم فضيلة هذا التكريم وقفا على أنفسكم ومقصورة على من يلوذ بحومتكم دون سائر الأمصار ثم توخيتم تصحيح مركزكم وتبرير موقفكم بما توسلتم به من شبهة براءة الذمة (أو برو العتب فى اصطلاح المصريين أو غسل اليدين كما فعل بيلاطس النبطى) فتعمدتم قطع الطريق على الجيران وعلى الاخوان بتلك الحيلة البيروتية أو — على الأصح — بتلك الألعوبة الأفلاطونية .

واذا كان رب السماء قد اختار أرض بيروت لتكون مقاما لهذا الشيخ (المرفوع اسمه فى كل حالات الاعراب والمعروف قدره بين الأعراب وغير الأعراب) فليس معنى ذلك أنه أصبح ملكا خاصا لسلالة الألى كانت مدينتهم أكبر معهد لحفظ (الحقوق) واشتراع (القانون) فى أيام الرومان ، وهى فى هذه

الأيام منهل عذب كثير الزحام يتوافد عليه رواد الأدب ويتقاطر اليه طلاب العرفان .

٢٩ يناير ١٩٢٥

— ٥ —

الى السيد مكى آل أورفه لى حاكم الصلح فى بغداد

سلامى اليـك وثنائى عليك . وأنت أنت الذى جددت لى آية من مظاهر التواصل بين أجدادنا الكرام أيام كان الهناء ناشرا رواقه فيما بين النيل والفرات .

كانوا يتعاطفون برسائل التحية والسلام ، على جناح الحمام ، وكانوا يتعاطون أعمال الدولة وسياسة الأمة بواسطة هذا الطائر الذى هو رسول السلام والرحمة .

لذا رأيناهم وقد تواضعوا على ألفاظ استحدثوها لهـذا الغرض وجرى العرف هنا وهنا على مصطلحات تناهى بعضها الينـا .. مثل (بطق) و (طير الخبرة) ومثل (سرح الطائر) و (سقط الطائر) .

حتى جاءت أمم الفرنجة فترقت فيما بدأ به المشارقة بل زادت عليهم وبزتهم ونحن نيـام نغط غطيطا فما تنبهنا من غفـوتنا ولا استفقنا من غشيتنا الا وقد كان بعض هذه الأمم آخذا بزمامنا قابضا على نواصينا ومتحكما فى رقابنا وفى مستقبلنا .

نعم .. كان من حسن حظى فى هذا اليوم أن طائر الفرات أتى يرفرف باليمن والاقبال على جيزة الفسطاط وفى طيات أجنحته

المتينة الشديدة ، رسالة أنيقة رشيقة كلها برد وســلام ، وفيها تعريف بل تصوير لذلك القبر الذى يضم رفات امرىء القيس حامل لواء الشعراء الى اليوم والى يوم الدين .

ولكن التعريب لم يكن وافيا بالمرام ، فلذلك جئت أسألك المزيد فى البيان لأننى أريد استيفاء البحث عن امرىء القيس ، وأمره يهم كل ناطق بالضاد .

ولعلك تتفضل بتعريفى عن الذى أخذ صورة القبر ، وفى أى وقت ، وأين كان نشر هذه الصورة ، ومن الذى قال القصيدة المنظومة فيه الى غير ذلك مما يكون قد اتصل بعلمك أو مما قد تتوصل اليه حتى يجىء بحثى عن صاحب المعلقة الكبرى وافيا بقدر ما فى الامكان .

وأنا على يقين أننى طرقت باب كريم ، وكيف لا ، وهــو ينتسب الى بلدة الكريم أبى الكريم أبى الكريم جدنا ابراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام .

فعسى ألا ترى فى طلبى هذا شيئا من الالحاح والالحاف ، فان القصد كل القصد هو احياء مفاخر قحطان والاشــادة بذكرى أماجد عدنان ..

١٨ يوليو ١٩٢٥

— ٦ —

ولدى أحمد بك حافظ عوض

وردت الفــرات ، ووقفت على أطلال معبــد للحيثيين فى

« كركيش » على مقربة من طرابلس ، التى خرجت من الأكفان أو كادت ، ثم تجولت فى ميدان (نصيبين) فذكرت فى الأول ما بلغه الأدب العربى من مكانة جليلة ، وذكرت مجد المصريين فى الثانى على عهد رمسيس ، وفى الثالث أيام ابراهيم حيث كتبت بدماء آبائنا صحيفة خالدة من الفخار ، وذكرت جهادك فى ارسال أنوار (كوكبك) الى كل آفاق الشرق ، فبعثت اليك والى قرائك بالتحية والسلام .

« أحمد زكى باشا »

— ٧ —

سيدى العلامة المفضال والبحاثة المدراك .

الشيخ أحمد الصبيحى ناظر الأحباس بمكناس ، حرس الله مهجته .

٢٢ مايو ١٩٢٤ .

نعم أشرقت على دار العروبة أنوار كتاب كريم ، صادر من مكناس الزيتون بالمغرب الأقصى ، وفيه ما فيه من براعة وبلاغة ، الى جانب ما انطوى عليه من دلائل الاطلاع الواسع . قرأت المحاضرة التى ازدانت بها مجلة المغرب ، قرأت يا سيدى أنك قد جعلتها نبراسا للمعجم الذى جمعت أنت مواده والذى أخذت نفسك بالرحلة الى ديار الشرق لتهذيبه واستكماله ، تجديدا للسنة التى جرى عليها الأجــداد الأمجــاد أيام ازدهار العلم فى ربوع الفردوس

الاسلامي المفقود ، وأيام كانت دولة المغرب الأقصى في عزها الشامخ وسلطانها العقلي الوطيد الأركان .

فلعل التوفيق مساعفك أنت وأمثالك من الأمير زيدان الى الجد الكتاني الى اخوانكم القائمين برفع الراية في المغرب الأقصى في فاس ومكناس ، وفي مراكش ورباط الفتح ، الى ما حول ذلك من العرائس ، الى طنجة وتطوان .

ونحن في القاهرة نزدهي كلما اطلع علينا شعاع نوراني من برقة الى القيروان ، الى تلمسان ، الى فاس البيضاء . كما أننا نحتفي بأي كوكب يجيئنا من سماء الشرق حتى مطلع الشمس .

نحن نرقب طلوع شمسك من المغرب لتجديد الحياة الفكرية من الشرق والغرب ولتوثيق دعائم الارتباط بين مكناس الزيتون وجيزة الفسطاط .

نفسيته من خلال حياته وأعماله

تتكشف نفسية « أحمد زكى » فى ظل وقائع واضحة من حياته :

* نشأ فى بيئة فقيرة نوعا ، ورباه وكفله شقيقه محمود رشـــاد .

* بدت عليه علامات النبوغ المبكر فى مجال الترجمـــة من الفرنسية الى العربية بالاضافة الى تمكنه فى اللغة العربية .

* أتيحت له فرصة العمل فى مجال القصور ومع الأمـــراء والخديويين والنظار وكانت قدرته وذكاؤه عاملا من عـــوامل حاجتهم اليه ، فقلما كان منهم من يعرف العربية أو يجيدها حديثا أو كتابة .

* أصيب بالصمم فى عام ١٩٠٠ تقريبا ، فأثر ذلك فى نفسه تأثيرا كبيرا .

* لم ينجب ولم يترك ذرية .

* تجمعت فيه عنـــاصر الوراثة من مغربيـــة وفلسطينية ومصرية . قدم أهله من المغرب وأقاموا فى يافا (بيت النجار) ثم انتقل والده الى مصر فتزوج فيها والدته .

* التقى فى مطالع حياته بعلماء المجمع العلمى الفرنسى ،

والجمعية الجغرافية والتفت الى المخطوطات العربية وتحقيقها ، وأتيح له أن يشهد عددا من مؤتمرات المستشرقين ، وأن يزور الأندلس .

هذه أهم العوامل التى أثرت فى نفسية أحمد زكى وكيّفتها على النحو الذى عرف به ، من عنف وجرأة وحدة واندفاع ، ومن انفاق للمال بسرف ، ومن رغبة فى احـداث الدوى العاصف ، وتطلع الى الزعامة ، ورغبة فى ترك أثر كبير على ما عبر عنـه بقوله : « تأميلى بترك أثر لى فى بلدى » وهذا مصدر تحلله من بعض قيود التقاليد ، ومجاراته للزمن .

ومن هنا يجيء طابع السخرية الواضح فى عبارته ، والفكاهة المنطلقة ، والدقة المتناهية فى البحث والمراجعة ، وقسوته فى الحملة على مساجليه وخصومه ، واعترافه بالخطأ ورجعته الى الحق متى استبان له ، واحساسه بالفراغ النفسى والعمل على شغله بالأعمال المتصلة .

٢ — وكان أحمـد زكى — كما هـو مزيج من مختلف الوراثات — صورة للانسان العربى فى خلقه وخلقه .

فهو ربعة القامة ، ممتلىء الجسم ، صـبوح الوجه ، براق المقلتين . يرى الناظر اليه لأول وهلة أنه شعلة ذكاء ، وهو مـع ذلك عصبى المزاج ، سريع الغضب ، سريع الرضا ، قلق لا يستقر ، يصل دائما غاية الشوط ولا يتوسط فبينما هو مرح يتبسط حتى يظن به السذاجة ، اذ به عنيف مداحر حتى يوصف بالمكر ، وهو كريم سخى مبسوط اليد ، ينفق انفاق الأغنياء ، ولا يخشى من

ذى العرش اقلالا ، ما فى قلبه يبدو على لسانه ، اذا أحب مال بعنف ، ووصل الى آخر المدى ، وكذلك اذا أبغض خاصم بلدد عنيف ، لا وسط عنده ، فيه تلك الطبيعة القلقة المتحمسة المتعجلة، التى تطمح الى العلا ، وتلتمس وسائل الشهرة والظهور ، مع كفاية علمية راسخة ، وقدرة على التحقيق العلمى ، وايمان صادق بمجد العرب ، كونته الأيام والرحلات ، والتجارب والقراءات ، وتلك رسالته التى عاش لها فى مجال العمل الفكرى والعمل السياسى ..

٣ — كان فى مطالع حياته معجبا بنفسه ، ذلك أنه أحرز الدرجة الأولى فى كل مسابقة تقدم اليها ، أو وظيفة سعى لها . فظن أنه فوق الناس جميعا « حتى لم يكن يخطر بالبال أن فى رؤسائى ومن أنا دونهم فى الوظيفة شخصا جديرا بالاكبار والاعتبار ، فكنت أعامل الرؤساء كأنهم مرءوسون » .

ومن هنا عُرِفَتْ عنه رغبته فى الاستئثار بكل شىء فى العمل ، وجرأته فى خوض كل عباب ، ومن هنا وصفه الواصفون له بأنه محيط بكل شىء فى مجال الثقافة ، ولكنه غير راسخ فى شىء .

يذهب فى السذاجة الى حد العجب ، ويخرج من تقرير جهوده فى العلم الى التفاخر به ، تفكيره استطرادى لا يعنى بالوحدة ولا يحفل كثيرا بالتناسق [1] .

---

(١) أحمد حسن الزيات : وحى الرسالة م (١) .

ومن آيات عجبه أنه كان يصدر مقالاته بعبارة رنانة :

« عنى وعنى وحدى خذوا النبأ الصادق » ..

« ودع كل صـــوت غير صـــوتى فاننى
أنا الطائر المحكى وغيرى هو الصدى »

وقد وصفه بعض عارفيه بأنه يجمع بين البساطة والسماحة وخفة الروح ، وأنه لا سلطة له على قلبه ، وأن حماسة الايمان فيه أكثر من دقة العلماء .

٤ — كان حريصا على تسجيل ســبقه فى كل ظاهرة من ظواهر الفكر والحياة ، فهو أول من جمع المخطوطات من أنحاء العالم ، وهو أول من دعا الى احياء الآداب العربية وعمل له ، وهو أول من حقق دعاوى المستشرقين وأول من دعا الى احياء مجـد العرب ، وأول من ابتكر نقل المخطوطات بالفوتغرافيا من العرب ، بل هو أول من ركب الدراجة من كبار موظفى الحكومة ، ووضع اســمها .

وكان غيورا الى أبعد حد تجاه تراثنا العربى الاســلامى ، ونوادر المؤلفات العربية ، فما ان استكشف هذه الحقيقة حتى جعل بينه وبين ذلك ثارا ظل يقاتل من أجله طول حياته ولم يلق السلاح ، فهو قد آمن بأن ذخائر الأدب العربى والتراث العربى قد أغار عليها المغيرون ، وسرقوها ونهبوها حتى خلت منها بلادنا ، وهى موجودة الآن فى مكتبات الغرب ، فهو حفى بأن يدفع أى مبلغ فى سبيل استرداد هذه النوادر ، ويفخر بأن لديه نسخة من كتاب لا يوجد فى العالم كله منه غير نسختين ، وهو حفى بأن ينقل

بالفوتغرافيا ما يعجز عن شرائه ، وهو مندفع أيضا الى شراء ما جدده المستشرقون وما طبعوه من الآثار والذخائر العربية .

٥ — كانت مكتبته الزكية نافذة من نوافـذ التنفيس عن نفسه ، والتبريز فى مجال الفكر ، وشغل الفراغ ، فهو الذى لم يصنع ولدا أو بنتا ، أراد أن يصنع مكتبة ضخمة تقف الى جوار دار الكتب ، فجمع ألوف المجلدات النادرة ، وسافر وأنفق ونسخ وصور ، وقدم ذلك كله للدولة ومعه قطعة أرض فى المنيرة تبلغ ١٥٠٠ متر لبناء دار كتب تمنى انها تكون الثانية وتحمل اسمه، وقد ربط بين هذا المعنى وبين مكتبته فى كلام على لسانه أشارت اليه اللواء عـام ١٩٠٨ جاء فيه : ان أقاربه الأقربين والأبعدين انقرضوا ، وان لا أمل له فى أن ينسل .. » .

فلما عجز عن ذلك برز فى مجال آخر هو الزعامة السياسية العربية ، فكان بيته بيت العروبة وهو شيخها ، وما من زعيم عربى يرد مصر الا ويجد زكى باشا فى انتظاره ، وما من كاتب غربى أو مستشرق الا ويقصد دار العروبة .

٦ — وكانت اصابته بالصمم عاملا جديدا من العوامل التى دفعته الى التبريز وتأكيد الشخصية ، ولقد كان تأثره بالصمم بالغا حتى وصفه بأنه نقله الى سن الثمانين ، وربما تعزى عنه بأنه حال بينه وبين اللغو .

وقد صور مشاعره ازاء الصمم بعد أكثر من ثلاثين عاما :

« أنا أعتقد أن الله أراد أن يظهر لى محبته بطريق التمحيص والابتلاء حينما أحوجنى منذ عام ١٩٠٠ م الى ترجمان خبيث

خسيس ، الى ترجمان يتجافانى كأنه « القرد الشارد ، الى ترجمان اذا وافانى فلا يساعفنى فى أوقات الضرورة » .

« أنا أظن أن الله قدر لى الخير كل الخير ، حينما نزه سمعى عن وصول اللغو اليه ، وما أكثر اللغو فى الناس وبين الناس .. » .

ولم يقف الصمم أمام عزيمة أحمد زكى وقوته الذاتية القوية ، بل مضى وبرز حتى قال عنه محمود ابراهيم صاحب الاكسبريس أنه كان يقف فى حلقة بين أعاظم المستشرقين فى مؤتمر أثينا فيضع سماعته على أذنه ويجيب ببراعة على أسئلتهم .

٧ — وكان أحمد زكى غاية فى الحيوية يملأ وقته كله بالعمل، لا يكل ولا يحتاج الى الراحة ، يخرج من الديوان الى مكتبته الزكية فيقضى فيها سحابة يومه ، ومعه طعامه وشرابه وقهوته ، حتى ينتصف الليل أو يزيد ، فيذهب الى بيته ليهجع بضع ساعات ، ثم يبدأ يومه من جديد وهو ممتلىء نشاطا وحيوية .

وكان يؤثر القراءة واقفا — كما يقول عنه طه حسين عن معرفة به واتصال — فلا يكاد يبدأ القراءة حتى يندفع فيها وينسى نفسه ، ولا يتعب من البحث والتنقيب عن كلمة واحدة الساعات الطوال ، أياما وأسابيع ، فى كل مظنة من مجلد أو كتاب ، ساعيا بين دار الكتب والمكتبة الزكية ، لا يمل ، فاذا ظفر بها كان فرحه لا يبارى .

٨ — عرف أحمد زكى بالمرح والفكاهة والسخرية فى أحاديثه وخطبه ومجالسه وكان يضفى هذا اللون على كتاباته ، فيبحث مثلا عن (طاسة الخضة) أو (كشكش بك) .

وفى عباراته هذه الفكاهة حتى أنه يتساءل عن رجل من الناس فيقول :

هل هو معمم أو مفندأ ، أم مبوك أم مبوش (بك أو باشا) .

ولما ورد اليمن وقطع الصحراء والجبال حتى بلغ صنعاء واستقبله الامام يحيى محييا : أهلا وسهلا .

قال له زكى باشا : عفوا يا مولاى : أهلا وجبلا ، فاننا ما رأينا سهلا قط .

وعندما نقل مكتبته الى قبة الغورى ، كان اذا عرض لبحث عن السلطان الغورى قال : « صديقى الغورى » .

وكان يصف نفسه فيقول : ألست ذكيا بغير (ذال) ، ولطالما تناولته الصحف بالسخرية : تقول مجلة الفكاهة انه رجل كالبحر فى علمه وكالمحيط فى اطلاعه ، ولكنه بحر ، ولكنه محيط ، لا تحجز مياهه جسور أو شواطىء وانه محتاج الى شركة مساهمة تتولى تنظيمه وترتيبه ليستفيد منه الناس :

وقد ترددت الفكاهات عن كلمتين من الكلمات التى حققها : (بربر برابر بربرة) و (على الحركرك) .

تقول احدى المجلات : رأى بعضهم زكى باشا وكان ضيوفه يجلسون على كراسى وهو جالس (على الحركرك) .

وقد أصيب بزكام شديد وبربر برابر بربرة ، وان بطاقته مكتوب عليها :

راجى عفو ربه المنان   أحمد زكى ابن قطحان

وسخرت منه مجلة الكشكول فقالت انه (كتساروس علوم) تشبهه بتاجر الأثاث القديم (كتساروس) .

وقد كانت اندفاعاته عاملا من عوامل الفكاهة والسخرية ، وفى ابان معاركه مع زكى مبارك أرسل برقية الى مفتى القدس فأخطأ ووقعها (زكى مبارك) بدلا من زكى باشا .

فلما عرف ذلك حمل حملة منكرة على مصلحة التلغرافات وقال :

قد يكون حصل لى ذهول فكتبت مبارك بدلا من باشا غير أن الفرق بين باشا وبين مبارك مثل البون الذى يفصل بين الطربوش والعمامة ، كنت أعذر عامل التلغراف لو أنه كتب الابراشى بدلا من باشا .

وأنهى كلامه بقوله :

(الى حكيم العيون . الى مستشفى الرمد يا ناقل التلغراف) .

ولكن زكى مبارك عقب عليه فقال : أرجح أن الخطأ جاء من جانب الباشا فهو الذى كتب بيده الكريمة « زكى مبارك » بدلا من « زكى باشا » ذلك أن زكى مبارك تعود مداعبة الباشا فى مقالاته ، ومن المحتمل أن تكون تلك البرقية أرسلت بعد أن قرأ الباشا كلمة من تلك المداعبات فبقى اسم زكى مبارك فى رأس ساكن الجيزة الفيحاء .

٩ — عرف بالجرأة والمخاطرة وحب الاستطلاع ، فقد صعد كل منارة ، ودخل كل مسجد ، واعتلى كل قلعة ، وانطلق فوق قبة المسجد الأقصى حتى لمس (الهلال) وصعد الأهرام .

وكان فى أول شبابه على حد قوله (يرتع فى برية الاسماعيلية على ظهر الهجين الى حجر البردويل فى العريش) فضلا عن ركوبه الدراجة لأول مرة .

١٠ — كان أحمد زكى يجارى أخلاق العصر : يقول صديقه (محمد كرد على) انه « كان يتجوز فيما لا يتجوز فيه أرباب التقوى ، فكان يتخلق بأخلاق من عاصرهم وعاشرهم ، وما رأى حرجا فى ذلك ، وقد يضطره العبث واللعب الى الاسراف ولذلك أنفق كل ما دخل فى يده من مال قرينته أولا ، ثم من مال شقيقه ثانيا ، وأنفق جميع ما خلفه له أخوه من ثروة ، وهو مبلغ لا يستهان به (وقيل أحد عشر ألفا من الجنيهات) ، وربما أفرط فى ذلك ، ولعل افراطه لكونه لم يعقب ولدا » .

وكان محبا لشراب [1] النرجيلة (الشيشة) ولعب (طاولة النرد) وله بهما سهرات .

ولطالما وصف أحمد زكى نفسه بعبارة « الخبيث » تحديا لما كان يوصف به من السذاجة ، وتحدث فى أكثر من مناسبة عن « الشيطنة » فى حياته وكيف أنه التقى فى باريس بطائفة من الفتيات فقرأ لهن الكف وأنبأهن عن الغيب ومازحهن طويلا . ومن عباراته « أين الأعاريب الرعابيب ، مشتهى الروح ومنية النفس » .

ويكشف أحمد زكى جانبا من معالم نفسيته [2] .

---

(١) كان قد أطلق عليها أولا اسم (الأركيلة) ثم تحول عنه الى (النرجيلة) .

(٢) المعرفة ـ يناير ١٩٣٣ .

« قد كنت أفترض دائمـا أن الدنيا مرحة هانئـة ، فينانة سرحاء ، وارفة الظلال ، فلا أنظر اليها نظر أولئك الذين عجزوا عن ادراك كنهها ، والتعرف الى مكنوناتها ، بل كنت أغالط عقلى بعقلى ، فأنتزع البرهان عن نفسى لاقناع نفسى بأن الدنيا تساوى الآخرة ، فكنت أنتهز الوقت وأهتبل الفرصة وأتملك الزمن قبل أن يملكنى بحادثاته وصروفه ، بل قبل أن تعصرنى أعاصـير الحياة عصرا ..

.. لقد انتهزت الفرصة خلال زيارتى لأوربا لامتاع النفس والقلب والفؤاد بكل ما فى لندن وباريس من متع ومسرات ، وظللت أعبر المانش بين العاصمتين الكبيرتين احدى عشر مرة دون أن يصيبنى دوار البحر ، أو ينالنى منه سوء ولم يكن جل همى من تلك الرحلات الا الاستزادة من العلم والتوسع فى البحث » .

❋ وقد ظل زكى باشا محتفظا بنشاطه وحيويته الى أواخر أيام حياته ، وهو يعزو هذا النشاط الى أنه لا يتبع طريقة خاصة فى المأكل أو الراحة أو الرياضة يقول : اننى رجل أميل الى الحركة والبحث منذ كنت شابا يافعا ، أقتل الليل منقبا عن مسألة ما ، وأجتاز البحار وأقطع القفار للعثور على أثر أو حقيقة ضائعة ، وأعتقد أن الخمول والركود شر ما يجنى على صحة المرء ، فان حركة الجسم وتعويده العمل ، والجهاد فى ميدان الحيـاة يطبعان الأعضاء على النشاط ، لذلك أحب العمل وأتعشقه ، لأنه يمدنى بنشاط لا أحظى به اذا ركنت الى السكون ، كما يجدد فى نفسى همة أرى لها من اللذة والمتعة ما لا أراه فى الرياضة .

حتى انى كثيرا ما أحمل على مائدة الطعام كتابا أو جريدة أتصفحها أو مسألة صغيرة لها أهمية لغوية أو تاريخية خلال تناوله ، ولا أرى فى ذلك ما يسئمنى ، أو يقطع على راحتى وهنائى .

وقد يلذ لى أن أتعب جاهدا متحملا كل صعوبة فى سبيل كلمة أو مسألة صغيرة لها أهمية لغوية أو تاريخية عندى ، فأسعى بما استطعت من قوة للحصول على بغيتى دون أن أجد فى ذلك مشقة وعنتا .

وربما كان لقوة بنيتى التى ورثتها عن أبى أثر كبير فيما أنا عليه من نشاط فان أبى رحمه الله كان سليم البنية ، قوى العضلات ممتلئا صحة وعافية وأذكر أن وجنتيه كانتا متوردتين توردا يدل على ما منح من نقاء فى الدم وانتظام فى وظائف الأعضاء .

لذلك أعتقد أن الوراثة أكبر عامل فى صلاح بنيتى ، ولا عبرة بما يقال عن ضرر التدخين واستعمال النرجيلة ، فانى طالما استعملت النرجيلة دون أن يحدث ذلك فى صحتى ضعفا أو فتورا .

غير أن لى عادة لا أبرحها كل يوم ، وهى أننى أتناول كوبا من الماء المثلج أثر نهوضى من الفراش ، ولا أستطيع أن آكل كسرة من الطعام قبل ذلك ولا أتناول من اللحوم مطلقا ما عدا الدجاج والحمام ، فانى أتناول منه قدرا متوسطا ، ولا أحب أن أشغل ذهنى فى أوقات فراغى بما يكده ، كلعبة الشطرنج مثلا ، بل أحب أن ألهو كل مساء بممارسة النرد مع نخبة من أصدقائى » [1].

(١) الهلال ــ نوفمبر ١٩٢٩ .

* وقد عرف أحمد زكى بالحفلات والمآدب الباذخة ، يدعى اليها ضيوفه من أعلام العرب والشرق والغرب ، مع صفوة من أصدقائه .

وتكون هذه الندوات مجالا طلقا للكلام والفكاهة :

وكان لسماط زكى باشا شهرة مدوية ، فقد وصفه محمد على الطاهر صاحب جريدة الشورى فقال : « ان زكى باشا حدث ضيوفه أن لديه خروفا معلوفا سيكون نصيبهم ، والمكان سفح الأهرام ، وقد مد سماط الباشا عشية يوم الجمعة فهرولنا اليه ، فاذا عليه خروفان اثنان ، وكان عدد المدعوين يزيد على العشرين من أحرار سورية ولبنان والعراق وفلسطين .

* لبس الطربوش وقاطعة أيام حرب البلقان ولبس طربوشا مغربيا ، ثم عاد اليه وفى السنوات الأخيرة أغرم بالعقال واللباس العربى .

وأحب الاسكندرية مسقط رأسه ، وهام بفلسطين هياما دون أن يكشف صلته بها ، وكانت له رحلات متصلة فى الصيف الى أوربا أو المشرق ، وبعد أن ترك الخدمة كان يقضى سحابة يومه بين دار الكتب والمكتبة الزكية ، فاذا جاء المساء عاد الى داره : دار العروبة حيث يفد اليها لفيف من أصدقائه يدور بينهم الحديث والسمر ، ثم يمد السماط (الحفيف) ، كما كان يطلق عليه ، فيتناول الجميع الطعام بين التصحيحات اللغوية والتاريخية والمساجلات . وكان بيته على النيل فى جيزة الفسطاط فى موقع جميل يجدد النفس ويدخل البهجة الى القلوب .

* وقد اتجه فى سنواته الأخيرة الى بناء مسجده ، وصرف اليه همه حتى كان أحيانا لا يقرأ الصحف ، وقد أنفق عليه كثيرا ، ونقل اليه طرائف الأحجار وروائع فن الزخرفة من كل مكان فى العالم العربى ، وأهداه الامام يحيى ألف قطعة من العقيق لتزيين المحراب .

ومسجده قريب من داره ، وقد كلف الشيخ عبد القادر الشيبى أمين مفتاح الكعبة أن يرسل الى غار حراء من يكنسه ويجمع كناسته ويحفظها فى وعاء وقد حمل هذا فوضعه فى القبر الذى أعده لدفنه تبركا (١) .

وقيل كان ينزل الى قبره ويتمدد فيه بل كثيرا ما طاوعته نفسه فقرأ وهو ممدد فيه ما يكون معه من كتاب أو جريدة ، وكان اذا سئل لماذا تفعل هذا قال : ان الموت حق ولا يخيفنى أن يجيئنى الموت قبل أن أنتهى من فرائضى الوطنية والأدبية » .

وقد تحقق ما توقعه ، وفاجأه الموت على نحو خاطف مثير (٢) ..

---

(١) رشيد رضا : المنار ــ م ٣٤ ص ٧١٣ .

(٢) أجرينا محادثات عده مع معاصرى زكى باشا وأبرز من استفدنا منهم فى هذا الصدد الأستاذ سيد ابراهيم نابغة الخط العربى والأستاذ الباحث أحمد لطفى السيد المحرر بدار الكتب الذى أرشدنا الى كثير من جوانب حياته وآثاره .

وفاته وآثاره المدفونة

انتهت حياة أحمد زكى (شيخ العروبة) نهاية مفاجئة غير متوقعة ، فقد كان فى أوج الصحة بالرغم من أنه كان فى السابعة والستين من العمر ، وربما كان يتطلع الى الثمانين ، لتماسك بنيانه وعافيته .

وقال مرة « ما أود الوصول الى الثمانين بالمعنى الذى يريده المتشبثون بالحياة ، واذا ما وصلتها فمالى هناء بها ولا عزاء ، سوى موالاة الكفاح لخدمة العروبة والاسلام وسوى مواصلة السعى لتقويم الأغلاط الجارية على أقلام الكتاب ، وسوى اقامة الحجة على نصرة الصواب .

« والا فالى الاعتكاف فى المسجد الذى أتولى انشاءه بنفسى ليكون تحفة من تحف الفن العربى ، وطرفة من طرائف الطراز الاسلامى » .

وكأنما كان مسجده منذ عام ١٩٣١ عملا كبيرا يضع فيه عصارة مشاعره ، وقد عاتبه الكثيرون على انشغاله سنوات فى هذا العمل ، والمساجد كثيرة فى القاهرة ، فكان رده « [1] ترى ما أنا عليه من حال ، وقد حرمت من الأولاد ، فلم أعقب منهم

(١) على فراش الموت : طاهر الطناحى .

أحدا وأعطانى الله فضلا من الرزق أحببت أن أبنى منه لنفسى مقبرة ، والى جانبها هذا المسجد .. » .

وكان فى أوائل يوليو — من عام وفاته — على وشك أن يغادر القاهرة الى مصيفه فى بور سعيد فاذا به هو يعـــود يوم ٣ يوليو ١٩٣٤ من جولته وقد غمره العرق ، وبينما هو يخلع ملابسه ناداه مناد فى حديقة الدار [1] ، فخرج الى الشرفة قبل أن يجف عرقه ، فأصيب بالتهاب رئوى ، ولم يلبث أن اشـــتد به الالتهاب ، وأشرف على الخطر فى مساء اليوم التالى ، ومع ذلك فقد سمر مع أصدقائه ليلة وفاته ، وكان على رغبة فى أن يذهب الى الأهرام ، لولا أن حال زواره دون ذلك ، فقد كانت علامات الشحوب والاصفرار تبدو عليه .

والواقع أن الموت فاجأ أحمد زكى ، وهو فى طريقه الذى كان يظن أنه سيطول ، فاجأه وهو يعمل فى سبيل اخراج معجمه الكبير الذى تطلع الى العمل فيه فى السنوات الأخيرة من حياته ، والذى أعد جانبا كبيرا منه . هذا الى مؤلفاته المتعددة التى كان يعلن عنها فى مقالاته ولما يتمها ، ومن هذه المؤلفات : قاموس الأعلام الأندلسية وملحق الأغانى (يشمل على ما فات صـــاحب الأغانى وما جاء بعده) ، ومدن الفن فى الأندلس (وكان قد نشر فصولا منها فى الهلال ديسمبر ١٩٣٤ وما بعده) . وعشرات من أبحاثه ، ومئات من مقالاته فى الصحف .

---

(١) قيل أنه الصحفى (عبد المسيح انطاكى) .

وقد حاولنا التعرف الى هذه المؤلفات أو الأبحاث التى كانت فى مكتبه ولم تستكمل أو شيئا من مذكراته ورسائله ورسائل أصدقائه اليه وهى فى مخلفاته الكثيرة التى تركها فى دار العروبة ، غير أن أولئك الذين وصلت الى أيديهم هذه الآثار ، حالوا بيننا وبين ذلك ، ولقد ظللنا أكثر من ثلاثة أعوام نواصـــل اقناعهم بتمكيننا من ذلك لوجه العلم ، ولاستكمال البحث العلمى لرجل عظيم كبير الأثر فى الأدب العربى المعاصر غير أن ذلك كان يقابل منهم دائما بالتسويف ، وهم بذلك قد حمّلوا أنفسهم مسئولية العقوق فى حق الرجــل الذى وهبهم كل ما يملك ، وأصبحت خصومتهم فى هذا مع التاريخ ، أما نحن فقد استطعنا بالجهد الشاق أن نحقق حياة هذا العالم النابه لوجه العلم خالصا ، دون الاستعانة بما يملكون من وثائق ومخطوطات أو الاطلاع على آثار أحمد زكى التى تمثل لمساته الأخيرة فى حياته الفكرية .

(توفى فجر يوم ٥ يوليو ١٩٣٤) .

خاتمة

(مواقف ومقالات)

« ولى كل يوم موقف ومقالة »

١ — هذا شعاره الذى يلخص حياته ، فما قيمة هذا العمل الذى قام به خلال أربعين عاما كاملة لم يتوقف فيها عن البحث والترجمة والكتابة والتحقيق العلمى للكتب والآثار فى مجال التاريخ والجغرافيا واللغة .

هل أضاف جديدا الى الفكر العربى !؟ وهل فتح الطريق الى عمل كبير ؟

الواقع أن نعم ونعم ونعم على طريقته فى التأكيد ، لقد صنع أحمد زكى شيئا كثيرا ، وهو وان لم يخلف موسوعة ضخمة أو كتبا كبيرة ، فقد ترك آثارا فى بطون الصحف والمجلات ما تزال حية نابضة بالحياة ، وما تزال آراؤه ونظراته — بعد مضى ثلاثين عاما على وفاته — حارة مليئة بالحياة تغرى بالنظر فيها على نحو أوسع وأشمل .

لقد كان أحمد زكى خطيبا وكاتبا ، وكان خطيبا حتى فى كتاباته ، التى تحمل الطابع العاطفى الانشائى ، بالرغم من أنها تقوم على البحث العلمى .

وأحمد زكى خطيب مشوق جذاب ، لشخصيته المشرقة ،

ونفسيته المرحة ، وطابع خطابته المليء بالفكاهة ، وصوته الرنان المدوى ، ونجاحه فى كسب الجماهير ، فقد كان يمزج فى رفق بين العلم الدقيق والعبارة الأدبية الطريفة ، بما يجعل تحقيقاته محتملة لدى السامعين .

ولقد ألقى أحمد زكى مئات المحاضرات والخطب والمسامرات، وتحدث فيها عن رحلاته المختلفة فى العالم العربى ، ولا ننسى قصصه الطريفة من أجل تحقيق أسماء البلاد والأعلام والبحار والأنهار ، وفى هذا المجال كان يجد كثيرا من الفكاهات والطرائف، مع قدرة بارعة على السخرية والتهكم بكل من يقع تحت يده من الباحثين الذين قد يفوتهم نص ، أو يخطئون فى النقل أو يحرفون الأصل.

٢ — أما أحمد زكى الكاتب المتصل بالصحافة ، المتصدر فى الصفحات الأولى لأعظمها وأكثرها شهرة وجاها « الأهرام » فهو موضع التقدير والاعجاب ، تعلق الصحف عن مقاله قبل نشره وتعتذر اذا لم تجد المكان اللائق ، وتنشره على متسع من الأعمدة بعناوينه المثيرة .

ولقد كتب أحمد زكى فى مختلف الصحف والمجلات التى صدرت فى مصر فى فترة حياته الأدبية : المؤيد ، اللواء ، الأهرام ، والمقطم والوطن ، وكوكب الشرق ، البلاغ ، الدنيا المصورة ، وكل شيء ، مصر الحديثة ، المقتطف ، الهلال ، المجمع العلمى العربى ، وعشرات من صحف العالم العربى والاسلامى .

ويمكن القول بأنه نشر أكثر من ألف مقالة ما تزال منثورة فى بطون تلك الصحف ، يمكن أن تكون أكثر من عشرين مجلدا

لموسوعة ضخمة فى تحقيقات التاريخ والجغرافيا والآثار والأعلام واللغـــة .

وكانت الصحف حفية به ، ولكنه كان يؤثر المقطم فى الفترة الأولى من حياته والأهرام فى الفترة الأخيرة . وما كتب مـــرة الا ليثير ضجة ، وما حقق نصا الا وجعل منه معركة .

٣ — ولا شك أن أحمد زكى بأعماله الأدبية قد أغنى الفكر المعاصر وذلل كثيرا من الصعوبات أمام الباحثين ، وشق طريقا جديدا كان مطمورا ومليئا بالصخور والأحجار ، فكشف عنــه وعبده ، فقد خفض حروف الطباعة ، وأدخل علامات الترقيم ، وأحرز وحقق عشرات من المخطوطات القيمة التى كانت مجهولة فى المكتبة العربية ، وكون المكتبة الزكية الضخمة بمؤلفاتهـا النادرة ، وشارك فى انشاء الجامعة المصرية القديمة . ودرّس بها تاريخ الحضارة وحقق عشرات من الآراء والأفكار المحرفة ، كما حقق عشرات المواقع التاريخية ، والمساجد والقبور ، وزار عشرات المساجد والكنائس والمدن القديمة والقصور التاريخية ، وصعد الى عدد من القلاع والى قبة الصخرة ، وقطع الأرض بالطول والعرض بحثا عن المخطوطات فى الآستانة وباريس ولندن وبرلين، وفتح له قصر (طوب قبو) ولم يفتح لأحد قبله خلال أربعة قرون وستة أعوام ومثل مصر فى عديد من مؤتمرات المستشرقين ، وأثار قضايا ، وألقى أبحاثا ، وكان موضع تقدير العلماء والمستشرقين . وكان جريئا صريحا ، ولم يك تابعا لهم بقدر ما كان موجهـــا ، ومنصفا ، وهو أول مصرى زار الأندلس فى العصر الحديث ،

وقد تحققت له الرحلة فى طلب النص أو تحقيقه على نحو ما فعل العلماءالمسلمون فى القديم ، وحقق الفنون الجميلة فى الاسلام ، وتاريخ السماط ، وحقق آثار العرب فى أوروبا ، ودرس تقويم العرب قبل الاسلام ، واختراع البارود والمدافع ، وما قالتـه العرب فى ذلك ، ونفى الخطابات المنسوبة الى النبى (ص) فى دير الطور ودير القلمون .

وكتب عشرات البحوث عن الفيوم وأسوان ودارين ، وعن اكتشاف العرب لأمريكا ، وعن مرض النوم الذى عرفه العرب قبل الافرنج ، بخمسة قرون ، كما تحدث عن علاقات المصريين بالأندلسيين وعن أهل الكهف ، وعن الطيران عند العرب ، وفى مواساة العميان ، فى دول الاسلام ، وعن التجارة فى الاسلام ، وعن الأناضول ومآثر العرب والمصريين فيه ، وعن الصـخرة الشريفة ، وتحويل القبلة عن بيت المقدس الى الكعبة ، وعن وفاء النيل ، ومنابع النيل ، وتاريخ البن والقهوة ، وحقق ما نسب الى المعز الفاطمى وحديث « فدك » .. وحقق أغلوطة الانجيل والتوراة السبعينية وعن عشرات من الأعلام : سليمان الفارسى ، والشريف الادريسى والفتية الثمانية المغررين والكندى الاسلامى.

أما أبحاثه عن الأندلس فحدث عنها ولا حرج ، فقد ألقى عنها عشرات المحاضرات ، وكتب أكثر من مائة بحث ، وهو الذى أطلق عليها اسم (الفردوس الاسلامى المفقود) ، وناح عليهـا وأبكى الناس ، وجدد قصيدة أبى البقاء الزندى ، صاحب المرثية المشهورة فى البكاء على الأندلس .

٤ — وكانت لأحمد زكى فى عمله هذا دعوة واضحة وهدف مشرق هو تعريف أوروبا والغرب بأمجاد العرب وفضلهم ، فقد وكل نفسه بالدفاع عن هذه القضية ، يؤكد أن العرب قد سبقوا الغرب الى أشياء وأشياء ، ولم تكن دعوته هذه مطلقة ، بل كانت محـــددة .

وكانت له غيرة على ذخائر التراث العربى الاسلامى الذى ضاع من بلادنا فى فترات ، مجاولا الحصول عليه بأغلى ثمن ، وما لا يستطاع الحصول عليه بنقل ، ثم يحصل بعد ذلك على ما أحياه المستشرقون .

وقد جمع فى مكتبة كل ما كتب عن الحضـــارة الاسلامية والأدب العربى .

ومن ذلك تحقيقاته المتوالية فى أسلوبها العاطفى المـــلىء بالحماس « أقول للعرب والأفرنج وللناس جميعا أن غاليلى لم يقل بكرية الأرض ودوران الشمس الا بعـــد أن قررها العلمـــاء الاسلاميون فى بغداد وقرطبة والقيروان بأكثر من ثلاثة قرون .

« أقول ان العرب أول من ســبق الأفرنج الى اكتشـــاف ما أكتشف من علم البصريات Optque وكتبوا فى ذلك كتبا تدل على العبقرية الاسلامية ، أعنى به (ابن الهيثم) الذى كان عائشا فى أيام الحاكم الفاطمى ، وقد ترجم الأفرنج كتبه واستفادوا منها ، وشهدوا له بالسبق والفضل .

« أقول للعرب ان الامام الأصفهانى هو الذى أثبت بطريق الاستنتاج المنطقى والدليل الجغرافى على وجوب وجود أمريكا

فى النصف الثانى من هذه الكرة التى نحن عليها وأنه لابد من وجود ناس وحيوان ونبات بها » .

ه — كان صادق الايمان بضرورة استعادة المصريين لسيادتهم العقلية التى كانت لأسلافهم فى العالم الاسلامى . ولكى يحققوا هذا المقصد النبيل يجب أن يهيئوا العاملين الرئيسيين اللذين لا غنى عنهما أولا وهى المكتبة ودار الطباعة .

وهو يكشف دائما عن جوانب خفية من مجالى عظمة المصريين ويعيب عليهم جهلهم بآثار الفن فى مصر « وهم مع ذلك يتشدقون ويتغنون باسم رافايللى وميكل انج من نوابغ المصورين الذين يفخر بهم الطليان ، أما نحن فنترك قومنا ومجدنا ونتحذلق بمآثر غيرنا ... » .

واذا وجد كاتبا يضيف فضل النهضة الثقافية الى لبنان غضب وكتب فى حماسته المعهودة : « ما كان لبنان معلما لمصر » . « نعم للبنانين أفضال أنا أول من يعرفها ويستشهد بها ، ولكنها لم يكن لها وجود فى أول عهد النهضة المصرية وفى جميع مناحيها ، بل بالعكس كانت مصر هى التى ربت أبناء لبنان فعادوا لها بنعمتها فيما بعد [1] ... » .

وهو يتطلع دائما الى أن تحتل مصر زعامة العالم فى مجال النهضة الثقافية ، وبعد عودته من أسبانيا (الفردوس الاسلامى المفقود) يقدم مذكرة اضافية الى فخرى (باشا) ناظر المعارف

---

(١) الأهرام — ١٩٢٨/١٠/١٢ .

عن الكتب المخطوطة فى قصر الاسكوريال فى أسبانيا ، وطالب بأن تحمل مصر لواء نسخها وطبعها وينبرى لرئيس الوزراء سنة ١٩٣١ الذى قال أن عصر ما قبل الاحتلال فى مصر كان عصر انحطاط ، ويقول له :

أفنظن أن عصر « صلاح الدين » عصر انحطاط ، أو عصر الناصر محمد قلاوون ، وليس على وجه البسيطة مفخرة للاسلام فى العمارة مثل جامع السلطان حسن ، هل نسيت أن دولة المماليك التى جعلت القاهرة أجمل متاحف العالم بما أنشأته من مساجد وقصور وعمائر ، ان أكبر الموسوعات العربية قد ظهرت على ضفاف النيل أيام الناصر محمد بن قلاوون ، وهى (نهاية الارب فى فنون الأدب) .

أما عصر الانحطاط المصرى الصحيح فهو الذى كانت بدايته مجىء الأتراك الفاتحين سالبين ناهبين مدمرين » .

ويذهب الى الشام فلا يهمه الا أن يذهب الى (مرج دابق) ليحقق موقعتها مع السلطان الغورى ، ويرى أنها المكان الذى ضاع فيه استقلال مصر حيث اندفن سلطاننا الغورى مع استقلالنا المصرى الصحيح » .

ويباهى فى كل مكان يزوره بأنه ابن النيل .

ولا ينتظر لحظة حين يقرأ كلمة سوء توجه الى مصر ...

« غضبت لقومى أن يقال الباطل عنهم لغايات سياسية استعمارية ، غضبت للحق ، غضبة مضرية ، بل غضبة مصرية ، فلا يصح لى أن أغمط الحسنات ... » .

وهو الذى هتف بنداء الوحدة بين عنصرى الأمة المصرية عام ١٩٠٨ « مصريون قبل كل شيء » هذا هو الشعار الذى هتفت به على ضفاف النيل فى سلسلة من الخطب أوردت الدلائل والبراهين على أن العنصرين اللذين تتألف منهما الأمة مرتبطان بعروة العمومة والخؤولة »(١) .

٦ — وهو فى مجال العروبة حريص على تحقيق الروايات التى تؤكد (وحدة الأمة العربية) حتى اخواننا فى جزيرة مالطة تجمعنا واياهم روابط عدنان وقحطان « اننى أقول أن الدم الذى يجرى فى عروق أهل جزيرتهم النائية المنقطعة انما هو متسلسل من أصل فينيقى قديم (وعربى صميم) كما أن الكلام الذى يجرى على لسانهم يرجع الى العربية الفصحى فى سبعة أعشاره ، ولو أنه قد اعتوره كثير من التحريف والتصحيف ، كما أن أسماء المواطنين والمدائن وأسماء الرجال والنساء لا تزال عربية خالصة »(٢) .

٧ — كما أعلن أنه تحقق من أن أبناء الأندلس الحاضرين هم سلالة العرب بحيث لو خلعوا (حاضرهم) لتجلت عربيتهم بالرغم من لغتهم الاسبانية (٣) .

٨ — وهو حريص على احياء ذكرى الأعلام ، وقد بالغ فى اهتمامه باقامة ضريح وتمثال لابن خلدون (دعا الى ذلك

---

(١) الأهرام ٩/أغسطس ١٩٢٩ .
(٢) الشورى ١٩ أبريل ١٩٢٨ .
(٣) الأهرام ١٣/١١/١٩٣٣ .

عام ١٩٣٢ ، وتحقق عام ١٩٦٢ ، حيث أقيم لابن خلدون تمثال في امبابة أمام المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية) .

وكان قد دعا الى ذلك منذ عام ١٩٢٤ ، وفاخر بأن « الخزانة الزكية تباهي باحتوائها على نسخة مخطوطة من تاريخ ابن خلدون عليها حواش بخط الشيخ العطار ، وبها صورة لكل نسخ (المقدمة) المطبوعة في الآستانة والقاهرة وغيرهما من أمصار الشرق بالاضافة الى ترجماتها للتركية والانجليزية ، وان فخرها الأكبر انما هو في احتوائها على نسخة (المقدمة) التي صححها ابن خلدون بنفسه ، وكتب ما يفيد ذلك بخطه على كل صفحة من صفحاتها ، ثم توج طرتها بتوقيع يده ، وهو يشهد بأنها أصح ما خرج للناس منها وتداولته الأيدي (وهي منقولة بالفوتغرافيا عن خزانة عاطف أفندي بالقسطنطينية الكبرى) وان كانت خزانتي تفاخر أيضا وتباهي باحتوائها على صورة شمسية تمثل ابن خلدون تمثيلا خلقه الخيال ، بناء على ما وصلنا عنه من معلومات وبيانات .

وأعلن أحمد زكي أن « ابن خلدون مدفون في القاهرة بمقابر الصوفية ، على ما استفسرناه من السخاوي صاحب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع للهجرة » .

٩ — كما دعا الى بناء ضريح لأبي الفداء في حماة ، وأبي العلاء المعري في البصرة ، وكان حفيا بالعلماء الأعلام في كل مكان

يزور قبورهم ويحقق تاريخ وفاتهم وقد اهتزت لبنان عندما وضع اكليلا على تمثال ابراهيم اليازجى عام ١٩٢٦ . وتحدثت الصحف عن ذلك طويلا .

١٠ — وقد أدخل الى اللغة العربية عبارات جديدة ، وحقق كلمات وتواريخ ومواقع لا حد لها .

أدخل كلمة (السيارة) بدلا من الاتومبيل و (الدراجة) بدلا من البسكليت و (الشطيرة) بدلا من الساندويتش ، وكلمة (الرفرف) وهو الهامش فى الصحف .

قيل لما صدرت (الجريدة) طلبوا منه الكتابة ، فقال سأعطيكم رفرفا ، قالوا وما الرفرف ، قال هو ما يسميه الافرنج (فيتون) ، واصطلح كتابنا على تسميته الذيل ، ولكن الكلمة الصحيحة هى (الرفرف) .

ومن كلماته : (الكمارك) بدلا من الجمارك ، ودجالون خير من (دجاجلة) وأجرى تحقيقات حول « أمريكى أم أمريكانى » وكشف أم اكتشاف « واوباش أم أباش » وقال : قل القناة ولا تقل القنال . وفى أسماء البلاد : لا تقل الحسيمة ، ولا تقل هوالف (بلاد فى الأندلس) بل هما الخزامى ولبه . لا تقل عطبرة وقل (اتبره) أما الجزيرة التى بالقرب من أسوان ويقولون عنها (جزيرة فيلة) واسمها العربى بلاق وبيلاق ، واوران وصوابها وهران . لا تقل البرتغال وقل البرتقال . وأجرى تحقيقات متعددة منها : الفراعنة أتراك ، كلا ثم كلا ، الفراعنة عرباء ، نعم . نعم وقال ميلاد المسيح : فى بيت لحم وليس فى القاهرة . ويفاخر

بمعرفته أسماء الأشـيـاء فى عدد من اللغات فكلمة الجزائر مثلا يسموها الفرنسيون الجيرى Algeria والايطاليون (الجـريا) Algeria وفى الأندلس يسمونها (ارجليا) .

١١ — ومن طرائف أبحاثه بحثه عن الفاكهة :

(١) الموز (٢) المانجة والخليفة الوليد بن عبد الملك (٣) شجرة البرتقال (٤) البلح والنخيل فى جزيرة العرب ووادى النيل .

وهو معنى دائما بأن يكشف هذه الحقائق ، فالعرب هم الذين أدخلوا (الموز) الى أوربا فى أواخر القرن الأول ، وذلك عند فتحهم الأندلس ولا يزال نباته وثمرته معروفين فى جزيرة صقلية باسم موزا ، وكذلك الحال فى الأندلس والبرتقال (البرتغال) أخذوه ثم عدلوا عنه الى كلمة (بنان) .

والموز « لفظ عربى صحيح ، وأنا لا أوافق المستشرقين الذين قالوا بأن الطلح المنضود المذكور فى القرآن هو الموز وذكر الموز فى مفردات ابن البيطار وتذكره داود ورحله عبد اللطيف البغدادى. والهند أسموه (موجا) ولا جدال ان الأفرنج أخـذوا اسمه عن اللفظ العربى والعلامة فررسكال الذى رتب النبـات الى أجناس وفصائل وضع لفظة Musacées (موازسى) للدلالة على فصيلة الأعشاب المتشابهة لحشيشه الموز .

وله أيضا أحاديث متوالية عن الأطعمة وفكاهاتها .

١٢ — و « الكتاب » آية حياته ، وحب الكتب يغلب عنده على أى عاطفة وصناديق الكتب عنده قصة طريفة تروى ، حتى أنه ليترك كل شىء حتى عمله ، من أجل الكتب : يقول انه كان

فى طريقه مع رئيس الوزراء الى بنها ، وفى آخر لحظة جاءته برقية بوصول ثمانية طرود من مخطوطاته من الآستانة الى ميناء الاسكندرية . يقول « تركت أدراجى ، ودست على مصلحتى ، وتركت أمرى للأقدار » . وذهلت عن كل واجب وبت أحلم بهذا المعشوق ، وأتصفح صفحات وجهه ، وأتأمل محاسنه ، وبكرت الى الكمرك بكور الغراب وكنت أول من حيا البواب .. » .

والكتب عنده محببة وبغيضة فى نفس الوقت ، فهى تكلفه المشقة ، وتقضى على كل موارده ، وتجعله مدينا دائما ، فاذا جاءت أشقته باعداد المكان اللائق ، والمحافظة عليها من الرطوبة ، وتجليدها ، فاذا وهبها للأمة ، وأعطوه قبة الغورى ، لم تتوقف شكواه وصيحاته ، هذا رجل أجروا له المكان المجاور للمكتبة وعنده صفيح ومواد قابلة للالتهاب ، ويخشى على المكتبة منها ثم من الفيران . وهكذا يعيش زكى باشا بين لذة الكتب ومتاعبها يقول : « ليس لى لذة فى الحياة سوى جمع الكتب وان كنت لا أستفيد منها الا القليل » .

ويقول « كلما سعيت للتخلص من هذه الأحبولة تشابكت خيوطها ، واستحكمت حلقاتها ، فأنا أمدح الكتب رغم أنفى ، وأسعى الى جمعها ، وان كنت أكرهها لما تجره من تعب القلب وفراغ الجيب وضياع الكسب » .

وهو حفى بدراسة الكتب العربية فى العالم ، ما ذهب منها وما بقى ، فقد حرقوا تسعة أعشار ونصف وثلث وربع الكتب العربية فى ساحات غرناطة ، وحرق أحد الكراولة فى يوم واحد

نحو ألف ألف كتاب ، ومن قبل أقام التتار جسرا على نهر دجلة من الكتب . فما خلص لنا منها الآن لا يبلغ أكثر من واحد فى الألف مما كتب أجدادنا وقد تسربت الكتب العربية من بلادنا الاسلامية عن طريق الحملات الصليبية فى الماضى ، وفى مصر بالذات عن طريق الفتح العثمانى والحملة الفرنسية ، تلا ذلك تردد الأوربين والأمريكين ، فاستنزفوا ما بقى مختفيا أو متخلفا بوطننا من هذه الثروة العقلية الأهلية ، وقد نهب بونابرت كثيرا من بقايا الكتب النفيسة التى كان أجدادنا قد أخفوها أو وجدوها بعد الفتح العثمانى ، وكل من ذهب الى باريس واطلع على فهرس دار الكتب الأهلية يأخذه العجب العجاب ان لم تساوره الأشجان والأحزان ، فلقد أصبحنا اذا احتجنا الى شيء من مؤلفات المصريين الخاصة بمصر لا نرى منها شيئا فى بلادنا ، وأشار أحمد زكى الى عدم تقدير (دار الكتب المصرية) للمخطوطات ومن أمثلة ذلك أنه حمل اليها كتاب « مخطوط » ثمين فقومته بخمسة عشر جنيها واشترته الارسالية العلمية الفرنسية بالقاهرة بثمانين جنيها وأعطت صاحبه وساما ، وأرسل الكتاب الى باريس ! ، وقد كان أحمد زكى ثانى اثنين يتنافسان على شراء الكتب القديمة ، ويطالعان الصحف اليومية ليروا أى وقف أو أى عظيم مات ولديه مكتبة يشترونها والأول هو أحمد تيمور ، فقد اشتريا معا مكتبة الشيخ طاهر الجزائرى .

ومن أجل الكتب أطلقوا عليه لقب (الفهرست الأكبر) .

ولما هاجمته الصحف لأنه كلف الدولة فى مشروع الأحياء

شططا دافع عن نفسه فقال : لقــد ذهبت بمحض ارادتى وعلى نفقتى الخاصة الى خزائن الكتب بالآستانة ست مرات متتالية (١٨٩٢—١٩٠٩) ثم بعثت صديقى (عبد الحميد لطفى) على حسابى الخاص الى باريس وبرلين ولندن أعوام ١٩٠٩و١٩١٠و١٩١١ للبحث عن مكامن طائفة من نوادر الكتب التى تسربت من بلادنا الى ديار الأجانب .

وقد اتخذت طريقة النسخ بالفوتغرافيا ، وقال ان (الناسخ ماسخ) ولا يعول عليه فى تحصيل الكتب النادرة ولطالما هاجــم الناسخين وقال : « النساخين مسخهم الله » واتهمهم بأن قاعدتهم هى التحريف والتصحيف والتشويه [١] .

ويمكن أن نصور مدى جهاده فى ذلك حين يسجل انه أمضى عشرين عاما يتتبع مخطوطات (الخطط المقريزية) .

ولا شىء يصور مدى أهمية عمل احمد زكى هذا اكثر من ان نشير الى ما ذكرته الأهرام عام ١٩١٣ — فى المرحلة التى كان غارقا فيها فى تحقيق مشروع الأحياء — ان حالة الآداب فى مصر كانت فى ركود شــديد ، وان الرائج من التأليف والكتب هو القصص والحكايات المملوءة بمــا ينــافى الأخــلاق وضروب البهتان والاختلاق والتلفيق ، وقالت الأهرام ان الأمة منصرفة عن العلم وانه قد يمر العام كله ولا يظهر كتاب مفيد واذا ظهر فلا يلتفت اليه أحد .....

---

(١) له أبحاث متعددة عن الــكتب مايو ١٨٩٤ ، المؤيد ، مارس ١٩٢١ ، المقطم مارس ١٩٢٢ .

وقد هاجمته الصحف من أجل طبع بعض المخطوطات وفيها عبارات الفحش والمجون ، ولطالما نسبوا اليه مالم يقل . وقد قرأت فى أحدى قصاصات الصحف التى كان يحتفظ بها عبارة مقتطعة من مقال فى أهرام ٢١ أغسطس سنة ١٩١٩ . قالت ان سم النيكوتين الذى رمتنا به امريكا — قد حاول أحمد زكى ان يجعله من نبات العرب .

وكتب أحمد زكى معلقا على هامش القصاصة .

« لم أقل ذلك . وحسبى الله » توقيع « أحمد زكى » .

١٢ — على أن هناك اجماعا على أن حياة أحمد زكى الفكرية كانت مبعثرة مضطربة ، فقد كانت قراءاته واسعة ومتناثرة ، ومتفرقة ، لا حصر لها ، دون تخطيط معين لبحوث واسعة أو أعمال كبرى ، حقيقة ان لها سياج واضح من الايمان بالأمة العربية وتراثها وقيمها ، وتطلع صريح الى بعث هذه القيم وهذا التراث واعتباره أساسا لبناء الأمة فى العصر الحديث ...

غير أن الأبحاث كانت متناثرة ، منوعة ، من هنا وهناك ، ترتبط الى حد كبير بما يثار فى الصحف أو فى البرقيات من آراء أو أسماء أو قضايا فكرية ، فاذا هو يدلى بدلوه فيقول كلمته ويمضى ... فيغيب شهرا أو شهرين حتى يعود مرة أخرى الى الكتابة ...

وهو لا يكتب فى موضوع متصل ، ولا يتفرغ للكتابة والبحث فهو مشغول بالسياسة الى جانب البحث العلمى ، وبالرحلة من أجل الصلح بين الملوك أو الدفاع عن البراق وهكذا . وقد

أشار الى ذلك غير واحد : محمد كردعلى ، ومرجليوث الذى قال للكاتبة مى زيادة عندما زارته فى أكسفورد : ان حياة زكى باشا متشعبة مبعثرة يعوزها التنظيم .

١٣ — أما أسلوبه الكتابى فقد تطور من السجع الى الترسل، ومن الجد المطلق الى الجد المختلط بالهزل ، ثم تحول ثمة الى أسلوب واضح له خصائصه قوامه السخرية والتعالى والمقدمات الطويلة — مع مضمون قليل من الحقائق .

ففى أواخر القرن التاسع عشر كان أسلوب السجع والمحسنات البديعة والاقتباس من أقوال الأقدمين ساريا ، ثم ظهرت مدرسة جديدة كان جمال الدين الأفغانى رائدها ، عملت على تغليب المعنى على اللفظ مع مراعاة قواعد اللغة ، ثم كان للطليعة التى تثقفت بالثقافة الفرنسية — التى كانت غالبة اذ ذاك والى أوائل القرن العشرين — دورها فى اعطاء الأسلوب العربى طابعا جديدا فيه رصانة اللغة مع أخيلة وتعبيرات جديدة .

وقد ظل أحمد زكى سنوات متأثرا بالأسلوب القديم ، يغلب عليه السجع — وقد ظل حتى آخر أيامه لما يتخلص من هـذه السمة ، وان خفت كثيرا فى مضامين كتاباته ، وغلبت على عناوين مقالاته ، غير أن أسلوبه أخذ طابعا واضحا مميزا انفرد به ، قوامه السخرية والفكاهة والتعالى ، مع التحقيق العلمى الواسع العميق وكأنما كان يرى مشقة البحث العلمى الخالص وجفافه ، فكان يمزجه بالفكاهة والسخرية ليخفف منه ، وليغرى القارىء بالمضى معه . وكذلك كان فى محاضراته وخطبه ، يضيف شيئا من الفكاهة

والطرافة والنكتة حتى لا يمل سامعوه أبحاثه العويصة ! ومن تعبيراته التى طالما كررها قوله : قل لى بعيشك وقوله يمينا بالله وكتبه واليوم الآخر ... وقوله : يا غارة الله وقوله ارعنى سمعك رعاك الله ، وكان يصف نفسه بقوله : هذا العاجز ويصف داره بقوله « دويرتى » . وكلما ذكر صديقا عزيزا متوفيا قال (سقى الله عهده) وكان ينتفض لأى خطأ فى مقالاته ، واذا كتب أعاد وصحح وشطب وغير وبدل وكان كثيرا ما يصحح أخطائه ويكتب تحت عنوان تصحيح لنفسى بنفسى أو تصحيح لتصحيحاتى [1] . وكان يسمى الأخطاء والتصحيفات « القواقع المطبعية » .

١٤ — ومع هذا العمل المتصل والطبيعة المندفعة كان لابد أن يخطىء أحمد زكى وأن تحصى عليه بعض المثالب ، فهو يطبع كتاب الأخلاق وينسبه الى الجاحظ ويظل مصرا على نسبته اليه ، بينما أنكر الباحثون هذه النسبة .

وهو يلقى الكلام أحيانا فى بساطة فيحمله خصوم العرب ويتخذونه حجة عليه ، كما حدث عندما تحدث عن (فلسطين) وقال انها محتاجة الى أموال اليهود حتى تزدهر فيها الصناعة[2] .

وأحيانا كان يتصدى لبعض الآيات القرآنية محاولا تفسيرها فيقع فى الخطأ ويتناوشه العلماء بالنقد والتقريع .

* * *

---

(١) الأهرام يوليو وأغسطس ١٩٣٢ .

(٢) أثيرت هذه العاصفة عام ١٩٢٢ وتجددت عام ١٩٢٩ .

وعلى الجملة فقد كان (أحمد زكى) علما من أعلام الفكر العربى المعاصر ، ترك ثروة ضخمة من الآراء والأفكار والتصويبات والتحقيقات فى مجال التاريخ والجغرافيا والأعلام والآثار واللغة العربية ، وترك عملا ضخما فى مجال احياء التراث العربى ونقله وطبعه ، وكان رمزا على معنى كبير من معانى النهضة فى العالم العربى ، وهو بناء الحاضر على الماضى ، وتأكيد القاعدة الأساسية للأمة العربية والشخصية العربية من قيمنا وتراثنا مع فتح الأبواب للفكر الغربى والحضارة الغربية بقدر ما يزيدنا ذلك قوة ويغنى شخصيتنا — ولا يمسخها — دون أن نكون عملاء أو مستوردين أو تابعين وهو بذلك رائد من رواد المدرسة الوسطى ، مدرسة « البناء على الأساس » .

المراجـــع

احمد شفيق باشا	:	مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ، حـ ٢
يوسف اسعد داغر	:	مصادر الدراسة الأدبية
طاهر الطناحى	:	على فراش الموت
سركيس	:	معجم المطبوعات العربية
خير الدين الزركلى	:	الأعلام
محمد كرد على	:	المقتبس (م ٥ ، ٧)
بشر فارس	:	المقتطف م ٨٥
اسكندر المعلوف	:	مجلة المجمع العلمى العربى م ١٣
أحمد حسن الزيات	:	الرسالة م ٢
الدكتور محمد صبرى	:	الشوقيات المجهولة جـ ٢
الدكتور أحمد عيسى	:	الأهرام ١٩٣٤/١١/١٦
الشيخ عبد الوهاب النجار	:	البلاغ يناير ١٩٣٥
سامى الكيالى	:	الحديث م ٨
الدكتور زكى مبارك	:	البلاغ ـ يوليو ١٩٣٤
الأب انستاس الكرملى	:	مجلة لغة العرب سنة ١٩٢٨
ابراهيم اليازجى	:	مجلة الضياء م٤
لويس شيخو اليسوعى	:	مجلة المشرق م٢٣
« مى زيادة »	:	المقتطف م١٨
الدكتور فارس نمر	:	الاهرام ٢١/يوليو/١٩٣٤

الأهرام / البلاغ / المقطم / الشعب / البلاغ / كوكب الشرق/ السياسة / الوادى / مصر (٦ يوليو ١٩٣٤) ـ رثاء أحمد زكى .
الأهرام والبلاغ (يناير ١٩٣٥) حفلات تأبين أحمد زكى

عمر رضا كحالة	:	أعلام المؤلفين
محمد كرد على (الاحمـدان المصريان المحدثان)	:	الأهرام ١٩٣٨/١/١٢
توفيق اسكاروس	:	البلاغ ١٩٣٥/١/٢٠
محمود ابراهيم	:	المؤيد ١٦ أبريل ١٩١٢
عبد الحميد حمدى	:	السياسة الأسبوعية ٧ أغسطس ١٩٢٦
محمد مسعود	:	البلاغ يناير ١٩٣٥
سلامة موسى	:	المجلة الجديدة م٣
رشيد رضا	:	المنار م٣٤
فنديك	:	اكتفاء القنوع بما هو مطبوع
الدكتور شخت	:	المستمع العربى م١٩٤٤
طه حسين	:	الوادى ٨ يوليو ١٩٣٤
توفيق حبيب	:	الأهرام ١٩٣٤/٧/١٢ .
الزهاوى (قصيدة)	:	١٩٣٤/٧/٣٠ الأهرام
كمال حمودة	:	الأهرام ١٩٣٤/٨/١٨
مصطفى عبد الرازق	:	الأهرام ١٩٣٥/١/١٩
أحمد فهمى العروسى	:	الأهرام ١٩٣٥/١/١٩
الشيخ التفتازانى	:	الأهرام ٣٥/١/١٩ و ٣٥/١/٢٠
ملف الخزانة الزكية	:	(الخزانة الزكية)
تقرير أحمد زكى عن مكتبة الاسكوريال		(مخطوط)

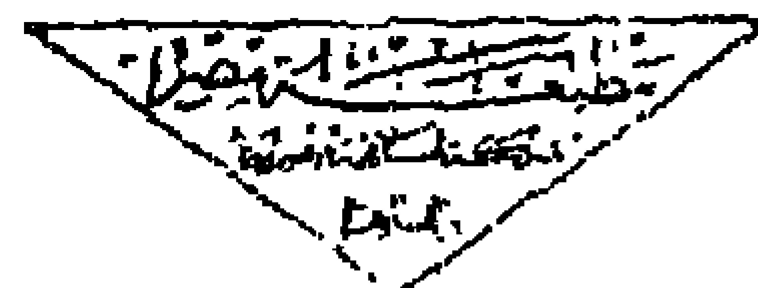
أنور الجندى « موسوع معالم الأدب العربى المعاصر »

(١) النثر العربى المعاصر
(٢) الكتاب المعاصرون
(٣) المعارك الأدبية
(٤) تطور الترجمة

* فهرس كامل لأبحاث جريدة (الأهرام) من (١٩٢٠ - ١٩٤٠) مخطوط .
* مجموعات الصـــحف والمجـلات العربيـــة فى فترة ما بين ١٨٩٢ - ١٩٦٣ .

فهرست

صفحة



أعلام العرب
الكتاب القادم

حسان بن ثابت

للدكتور

سيد حنفي حسانين

يصدر في ٧ يونيو ١٩٦٤

يطلب من
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"
الثمن ٥ قروش

مطبعة مصر

أعلام العرب

٣٠

حسّان بن ثابت
شاعر الرسول

بقلم

الدكتور سيّد حنفي حسنين

وزارة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

أعلام العرب

٣٠

حسّان بن ثابت
شاعر الرسول

بقلم

الدكتور سيّد حنفي حسنين

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مقدمة

قد يسهل على الباحث أن يترجم لحياة عالم متخصص ، أو مصلح اجتماعى ، أو قائد عسكرى ، ولكن أن يترجم لحياة فنان ، وشاعر بصفة خاصة ، فهنا وجه الصعوبة .

فالباحث حينما يعرض لحياة العالم المتخصص ، أو المصلح الاجتماعى ، أو القائد العسكرى فانما يعرض لتطور مراحل حياته ، مدققا فى مظاهر نبوغه العلمى من خلال موضوعات خارجة عن ذاته يمكن التحقق منها ، ومعاينتها معاينة مباشرة ، بل قد يصل الأمر الى التحقق من هذا النبوغ تحقيقا معمليا يصل فيه الى قطع الشك باليقين . أما حين يعرض الباحث لفنان شاعر مثلا فلن يجد الا متاهات أمامه ، عليه أن يعرف طريقه خلالها ، وأخطر هذه المتاهات هى متاهات النفس الانسانية التى تبدع الموضوع الفنى من خلال دوافع شديدة التشابك ، ومشاعر عظيمة التعقيد ، كلما حاول أن يمسك أول خيط منها ليقوده الى نهاية ما ، أسلمه هذا الخيط الى خيوط كثيرة لا يعرف أيها يقوده الى طريقه .

والباحث حينما يحاول أن يسبر غور نفسية هذا الفنان فعليه أن يستعد لذلك استعدادا خاصا ، ثم عليه بعد ذلك أن يعرف أن ما كان يظنه فى بداية الأمر من خصائص هذه النفس قد ينتهى

الى عكسه هذا اذا ما وصل الى شىء فى نهـاية الطريق ، وقد لا يصل الى شىء أيضا .

وربما كان أسهل هذه المخاطر اجتيازا هو الموضوع الفنى نفسه ، فالقصيدة سوف تقول له شيئا لا شك فى ذلك ، وان كان ما يمكن أن تقوله له قد لا تقـوله لغيره ، أو تقوله بشـكل مختلف ، ورغم ذلك فهناك موضوع خارجى يمكن التحقق منه ، ويمكن استمداد الأحكام منه أيضـا ، بل وقد يخضعه لبعض التجارب المعملية ان أراد أن يظهر بمظهر العلمـاء التجريبيين ، ولكن .. ماذا يكون موقف الباحث اذا كان قد مر على الشاعر ما يقرب من ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن على وفاته ، ولم تعد لدينا أخبار تحدثنا عنه الا أحاديث عابرة كتلك التى كان يتسلى بها المثقفـون الأرستقراطيون فى قصـورهم لقضاء سهراتهم كوسيلة من وسائل اللهو ، ولون من ألوان المتعة — أو مواقف نقدية ولغوية اهتم بها علماء لم يكن أكثر همهم يزيد — اذا عرض للشاعر — الا أن يفسر ببيت من شعره استعمالا لغويا معينا ، أو صورة بلاغية مرصودة ، فلم يكن فنه فى طبيعته وقيمته يثير فيه أدنى شعور بالجمال المطلق غير المحدود باللغة أو البلاغة اللفظية أو التقسيم المنطقى لأصناف الأخيلة . وقد يزيد الأمر تعقيدا أن تقف بعض الفرق الدينية أو الأحزاب السياسية من هذا الشاعر موقف المستغل لطاقاته ومركزه لتكسب تأييدا خاصا وذلك باضافة مالم ينظمه فى تمجيدها أو تأييد معتقدها الى دفتى ديوانه .

ذلك هو موقف الباحث من شاعر كحسان بن ثابت الأنصارى !

كان هذا الشاعر قد بلغ من العمر ما يقرب من ستين عاما عند بداية التاريخ الهجرى ، ثم اقتطع منه بعد ذلك أربعين عـاما آخرين ، ومعنى هذا أن الشاعر عاش نصف عمره فى الجاهلية يستلهم من صحراواتها قيم الفتوة وعنجهية البداوة ، ويرعى فيها ومن الضراوة ومرارة القتال ، ثم اذا هو يعيش نصف عمره الآخر فى الاسلام يستحلب حلاوة العقيدة ورحيق الأخـوة ، ويستمتع بصبا الأمن ونعيم السلام . واذا كان حسان قد شارك فى آخر عمره فى اضافة بعض أعواد الحطب الى حريق الفتنة التى ثارت أيام الخليفة الثالث حتى بداية خلافة الأمويين فقد كانت النيران مشتعلة سواء أضاف أعواده أو لم يضفها ، فالحـريق يضرى ، وحطبه تجمعه كل الأمصار !

حياته اذن طويلة خصبة ، مليئة بالأحداث والتغيرات ، وكان على الباحث الذى يريد أن يستوفى ترجمة لها أن يرصـد كل ذلك ، وأن يسجله بأمانة بقدر ما تمده المصادر من أخبار ، وبقدر ما يصور له شعره من أحداث .

غير أن أخطر ما كان يخاف منه أن يجترىء فى التفسير ، وخاصة أن الشاعر قد أخذ عند المؤرخين المسلمين مكانة خاصة شابها شىء من الاحترام الشديد زاد على توالى الأزمنة وتقادم الأيام لعلاقته بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ولصلته بالدعوة الاسلامية وبكبار الصحابة والتابعين . لذلك التزم البـاحث ما تقوله النصوص القـديمة مقارنا بينها ، مفاضلا بين دلالاتها ،

متخذا موقف الحيدة العلمية التى تنهج النهج السليم فى العرض والدراسة والاستدلال .

واذا كان الهدف أخيرا أن تعترض حياة هذا الشاعر العظيم عرضا بسيطا واضحا خاليا من الجفاف العلمى ، والاسهاب فى المقدمات ، فقد حاولت فى نفس الوقت أن أهتم بالمنهج والاعتماد على النصوص الشعرية فى التفسير وخاصة لقلة الأخبار التى كان يمكن أن تغنى عن الاكثار من ايراد هذه النصوص .

والله الموفق .

دكتور سيد حنفي حسنين

العباسية فى نوفمبر ١٩٦٣

تمهيد

أرى لزاما عليّ قبل أن أبدأ فى الترجمة لحياة هذا الشاعر أن أقف من ديوان شعره موقفا خاصا تفرضه عليّ الأمانة العلمية ، وأن أبسط للقارىء مدى التوثيق الذى يناله هذا الشعر فى نسبته الى صاحبه .

ان تأخر عصر تدوين الشعر الى نهاية القرن الأول كان سببا فى ضياع شعر كثير للشعراء الجاهليين المخضرمين ، وهم الجاهليون الذين امتد بهم العمر فعاصروا الدعوة الاسلامية وربما عاصروا خلافة الراشدين كحسان بن ثابت .

وكانت هناك أسباب كثيرة أدت الى التأخر فى تدوين الشعر ، ربما كان أهمها أن العرب فى جاهليتها لم تكن تألف تدوين الشعر الا فى بعض الامارات الشمالية ثم انشغلت أثناء الدعوة الاسلامية وأثناء حروب الفتح عن التفرغ لهذا العمل أيضا ، ولم يبدأ الانتباه اليه الا فى أواخر القرن الأول الهجرى عندما هدأت الحروب وخمدت الفتن ، وأخذ العلماء يجمعون الشعر من ألسنة الرواة الباقين الذين يفدون على المدن ، أو ينزحون الى البوادى يبحثون عن الأعراب الذين ما زالوا يحفظون تراثهم القديم .

ورغم اختلاف النظريات حول مدى ما دونه الجاهليون من

تراثهم ، وحول أسباب تأخر التدوين الى نهاية القرن الأول ، فالنتيجة التى يتفق عليها هؤلاء المختلفون آن شعرا كثيرا قد ضاع ولم يتمكن العلماء من تدوينه ، وأن شعرا كثيرا وضعه الرواة على ألسنة بعض الشعراء لأسباب تختلف بواعثها بين دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية .

فاذا جئنا لشعر حسان خاصة لنتبين موقفه من كل ذلك فسنجد أن شعره تعرض لتلك الأزمة التى تعرض لها شعراء عصره ، بل لقد فاق تعرضه غيره وذلك لمكانة حسان من نفوس المسلمين . ويمكننا أن نلخص أسباب الوضع فى شعره باختصار فى النقاط الآتية .

١ ـ الخصومات بين العشائر القرشية :

يقول ابن سلام « حسان بن ثابت كثير الشعر جيده ، وقد حمل عليه مالم يحمل على أحد لما تعاضهت قريش واستبت وضعوا عليه أشعارا كثيرة لا تنقى » ويعنى ابن سلام بهذا أنه لما اصطرعت بطون قريش منذ فتنة عثمان أخذت تصنع أشعارا مختلفة على لسان حسان ، فمن ذلك قصيدة فى هجاء أبى لهب يقول عنها سعيد بن عبد الرحمن بن حسان : ليست هذه الأبيات من قول حسان ، وانما وضعت عليه . وهى تجرى على هذا النحو :

فلو كنت حرا من أكارم هاشم
وأشرافها منها منعت المظالما

ولكن لحيانا أبوك ورثتـــــــه

ومأوى الخنا منهم فدع عنك هاشما

ســـما هاشم للمكرمات وللعـــــلا

وغودرت فى كاب من اللؤم جاثما

ومنها أيضا الأبيات التى وضعت على لسان حسان فى هجاء بنى مخزوم والتى يقول فيها :

كلاب وتيم ألصقا ابن أخيهمــــا

ولولاهما كانوا عبيــــد بنى بكر

يقول العدوى — أحد علماء القرن الثالث — ليست هذه الأبيات بمعروفة لحسان ومخزوم أثبت وأشهر فى قريش من أن تشتم لأن جدة رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى مخزوم . وقال : سمعت مشايخ قريش يقـولون ان ابراهيم بن هشام المخزومى كان بعث الى محمد بن اسحق — مؤلف السيرة النبوية فوضع فى عنقه حبلا وأخرجه من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصير ابن اسحق هذه الأبيات — وهى مصنوعة — فى المغازى . قال : وكثير مما جاء به ابن اسحق من الشعر فى المغازى مدخول لم يروه أبو عمـرو ولا ابن الأعرابى ولا أبو عبيــدة ولا أبو زيد الأنصارى .

٢ ـ الخصومات السياسية :

كانت الفرق السياسية منذ خلافة عثمان تختصم اختصــاما شديدا ، وكانت الخصومة فى أول الأمر بين معاوية ومن يتبعه من الأمويين وعلى ومن يتبعه من الهاشميين ، ولم يلحق حسان

عصر الفتنة الثانية أيام يزيد اذ توفى فى أواخر عهد على أو أوائل عهد معاوية ولكن شعره على ما يظهر استغله الزبيريون وخصومهم كما استغله الهاشميون ، ومضوا فى هذا الاستغلال حتى العصر العباسى . ومن أمثلة ذلك .

(أ) الأمويون : بمجرد أن قتل عثمان أخذ معاوية وبنو أمية يعتبرون أنفسهم أولياء دمه ، ومن ثم مضوا يطالبون عليا بتسليم قاتليه ، بل لقد عدوه شريكا لهم ، وتصايح شعراؤهم من أمثال الوليد بن عقبة يطلبون أخذ الثأر له ، وأخذوا يضعون على حسان شعرا فى بكاء عثمان ومطالبة معاوية بأن يتقدم ليثأر من قتلته وذلك مثل :

أبلغ معاوية بن حرب مألكا
ولكل أمر يستراد قرار (١)
لا تقبلن دنية أعطيتها
أبدا ولما تألم الأنصار
حتى تبار قبيلة بقبيلة
قودا وتخرب بالديار ديار (٢)
وتجيء من نقب الحجاز كتيبة
وتسيل بالمستلئمين صرار (٣)

---

(١) المألك : الرسالة (٢) تبار من البوار وهو الهلاك . القود : القصاص . (٣) النقب : الطريق ومرار : جبل قريب من المدينة . أستلأم الرجل اذا لبس ما عنده من عدة رمح وبيضة ومغفر وسيف .

(ب) الزبيريون : وكما استغل الأمويون مكانة حسان فى الاسلام وقيمة شعره بين المسلمين استغله أيضا الزبيريون ، فقد صنعوا مقطعات فى مدح أنفسهم وأضافوها اليه ، مثال ذلك أنهم رووا أن الزبير مر يوما بحسان وهو فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشد . والحاضرون غير مقبلين عليه ، فجلس الزبير وقال : مالكم لا تستمعون ؟ والله لطالما أصغى اليه صاحب هذا القبر وأجازه الجوائز السنية . فقال حسان يمدحه :

أقام على عهد النبى وهديه
حواريه والقول بالفعل يعدل
أقام على منهاجه وطريقه
يوالى ولى الحق والحق أعدل

وواضح أن الوضاعين يستغلون فى هذين البيتين حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان لكل نبى حواريا وان حواريى الزبير » وتعرض بقية الأبيات لقرابته للرسول صلى الله عليه وسلم وفيها يجاهر الزبيريون بأحقية عبد الله بن الزبير بالخلافة على هذا النحو :

وان امرأ كانت صفية أمه
ومن أسد فى بيتها لمرفل (1)
له من رسول الله قربى قريبة
ومن نصرة الاسلام مجد مؤثل

(1) مرفل : اى مسود .

فكم كربة ذب الزبير بسيفه
عن المصطفى والله يعطى ويجزل
فلا مثله فيهم ولا كان قبله
وليس يكون الدهر ما دام يذبل
ثناؤك خير من فعال معاشر
وفعلك يا ابن الهاشمية أفضل

وواضح أن البيت الرابع فى هذه الأبيات يضع آل الزبير فوق عشائر قريش الأخرى ، فليس للزبير شبيه ولا نظير فى قريش ، وهم بعد ذلك أقرب الأسر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو جانب اعتمد عليه الحزب الزبيرى فى مناهضته للأمويين .

٣ ــ العباسيون :

حاول العباسيون عندما تولوا مقاليد الخلافة أن يشيدوا بالعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يجدوا خيرا من حسان كغيرهم من الأحزاب السياسية كى يضعوا على لسانه مدحا فى العباس . فمن ذلك قصيدة نسبوها اليه فى رثاء جعفر بن أبى طالب أولها :

تأوبنى ليل بيثرب أعسر وهمّ اذا ما نوّم القوم مسهر

فاننا نجد فى تضاعيفها أبياتا يذكر فيها عليا والعباس مع جعفر وحمزة رضى الله عنهم جميعا وذلك دون مناسبة الا أنهم أولياء الله يكشف بهم الكرب ، ويجلى بشفاعتهم الهم ، وكأن صانع هذه الأبيات يريد أن يقول ان عشيرة العباس لها حق فى

الخلافة كحق على بن أبى طالب وعشيرته ، والأبيات تمضى على هذه الشاكلة :

بها ليل منهم جعفر وابن أمــــــه
على ومنهم أحـــــد المتخير [1]
وحـــزة والعبـــاس منهم ومنهم
عقيل وماء العــود من حيث يعصر
بهم تكشف اللأواء فى كل مـــأزق
عماس اذا ما ضاق بالقوم مصدر [2]
هم أوليـــــــاء الله نزل حكمه
عليهم وفيهم ذا الكتاب المطهـــر

وواضح تماما أن ناظم هذه الأبيات وواضعها على حسان شاعر ضعيف مبتدىء .

ولم يقف الأمر عند وضع الشعر على حسان ، بل لقد اختلط أيضا شعره بشعر غيره من الشعراء أمثال كعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة ومعقل بن خويلد الهذلى وسعد بن الحصين وبشير ابن سعد وعبد الله بن الحارث السهمى وصرمة بن أنس الأنصار ، هذا الى جانب اختلاط شعره بشعر ابنه عبد الرحمن بن حسان .

وقد كان اختلاط شعر حسان بشعر كعب أشد وأعظم من اختلاطه بشعر غيره من الشعراء ، فقـد كان كل منهما يهجو المشركين بالأنساب والأيام الجاهلية ، أما عبد الله بن رواحة فقد

(١) البهلول : الحيى الكريم .
(٢) اللأواء : الشدة والمأزق . عماس : مظلم .

كان يهجوهم بالكفر ، لذلك كان اختلاط شعرهما عنـد الرواة قليلا . ومن أمثلة اختلاط شعره بشعر كعب :

سقتم كنانة جهلا من سفاهتكم

الى الرسول فجند الله مخزيها

يقول ابن هشام معلقا على نسبتها لحسان : أنشدنيها أبو زيد الأنصارى لكعب بن مالك .

وكذلك الأبيات التى أولها :

على حين أن قالت لأيمن أمه

جبنت ولم تشهد فوارس خيبر

قال ابن هشام : أنشدنى أبو زيد الأنصارى هذه الأبيات كعب ابن مالك ومن أمثلة ما نسب الى حسان من شعر عبد الله ابن رواحة :

شهدت باذن الله أن محمدا

رسول الذى فوق السماوات من عل

أما اختلاط شعر حسان بشعر ابنه عبد الرحمن فيرجع الى خلط الرواة وعدم تمييزهم بين أشعار الابن والأب . فمن ذلك قصيدة طويلة عددت أيام الأنصار مع الرسول صلى الله عليه وسلم ونصرتهم له فى الغزوات المختلفة ، ونجد ابن هشام يقول عنها انها تروى لابنه عبد الرحمن . وهى التى أولها :

ألست خير معدّ كلها نفرا

ومعشرا ان هم عموا وان حصلوا

ومن أمثلة ما وقع فيه خلط فى روايته ما ذكره ابن هشام من أن مقطوعة حسان التى مطلعها :

مستشعرى حلق الماذى ، يقدمهم
جلد النحيزة ، ماض ، غير رعديد[1]

هى من نظم عبد الله بن الحارث السهمى .

كذلك روى ابن عبد البر أن الأبيات المنسوبة الى حسان ومطلعها :

ثوى فى قريش بضع عشرة حجة
يذكر لو يلقى صديقا مواتيا

هى من نظم صرمة بن أبى أنس الأنصارى .

من هذا يتضح أن الباحث حينما يتعرض لحسان ولشعره فانما سيتعرض لموضوع شائك ، وعليه أن يحرص كل الحرص فى بسط هذا الموضوع واستخلاص نتائجه . ولقد حاولت جهدى أن أوفى الدراسة حقها بقدر ما تسمح به طبيعة هذا الكتاب وجمهور القراء الذى سوف يقدم اليهم .

---

(١) استشعرت الثوب : اذا لبسته على جسمك من غير حاجز . الشعار : ما ولى الجسم من الثياب . والدثار ما كان فوق ذلك . الماذية : من الدروع البيضاء . والماذى : الحديد كله : الدرع والمغفر والسلاح .

الفصل الأول

يثرب قبيل الاسلام

ترتبط نشأة المدن بالأساطير التى تعبر أصدق تعبير عن عقل الانسان فى مراحل تطوره الأولى وخصب مخيلته ، وقد شاركت يثرب — مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما بعد — فى هذه الصفة ، اذ تناقل الاخباريون حول نشأتها أساطير كثيرة ، ومن الطريف أنهم أسندوها الى رواة ثقات ! [1] .

ولسنا نريد أن نقف عند هذه الأساطير ، ولا نحب أن ندرس من تاريخ يثرب القديم الا ما بعد منتصف القرن السادس الميلادى ، فان ما قبل ذلك تغمره الأساطير وتملأه الأخبار التى لم يوثق منها شىء بعد .

ونحن — فى الحق — لا يعنينا من تاريخ يثرب سوى تلك الفترة التى عاشها حسان فى الجاهلية ، والتى عانى فيها ما كان يشتجر من صراع قبلى بين الأوس والخزرج ، كما سوف تعنينا تلك الفترة الأخرى من حياة هذه المدينة التى عاشها الشاعر تحت

---

(١) أنظر وفاء الوفا فى أخبار دار المصطفى للسمهودى ١ : ١١٧ وما بعدها .

ظلال الاسلام ، وهى التى امتدت حتى نهاية خلافة عـلى بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه .

وقد اعتبر الجغرافيون المسلمون القـدماء يثرب ثانية مدن الحجاز فى الأهمية الاقتصادية بعد مكة ، ووصفوها فقـالوا انها تقع وسط سهل ينحدر انحدارا خفيفا نحو الشمال حيث ينتهى بتلال أحد ويمتد على بعد أربعة أميال منها تقريبا . وتكثر فى غربى هذا السهل وشرقيه حرات سوداء [1] وهى بقايا براكين قديمة تتخللها وديان خصبة ، والجوانب الشرقية لهذا السهل أقل خصـوبة من الجوانب الغربية لما ينتشر فيها من تلال . أما فى الجنوب فيترامى هذا السهل الى أبعد ما يبلغه بصر ، وتتدفق الميـاه تبعا لانحداره من الجنوب الى الشمال حيث تتجمع فى زغابة ، كما أن المياه تفيض من الحرات وتتجمع فى الشمال أيضا ، ثم تتجه غربا الى حافة وادى اضم ، ولا تمتلىء هذه الأودية بالمياه الا بعد سقوط الأمطار مما يجعل مستوى المياه الجوفية مرتفعا ، ومن ثم تكثر الآبار والينابيع . وعندما تسقط الأمطار غزيرة فى عام من الأعوام فانها تكوّن بحيرة عظيمة تهدد أبنية المدينـة وخاصة فى الجنوب . وقد حدث أن أمطارا غزيرة سقطت على المدينة فى عهد الخليفة عثمان بن عفان فأمر ببناء سد يحميها من مثلها . ولمصادر المياه أسماء عدة منها : فى الغرب العقيق ورانونا ، وفى الشرق قناة ومهزوز ومذينيب . والتربة رملية جيرية مالحة وهى خصبة على العموم وخاصة فى الجنوب .

---

(١) صخور سوداء .

ومناخ يثرب بارد رطب فى الشتاء وحار قليل الغيوم فى الصيف !

أما غلاتها فيكثر فيها النخيل ، كذلك ينبت فيها البرتقال والليمون والرمان والعنب والموز .

ويظهر أن المدينة كانت فى أول الأمر أبنية وأكواخا متواضعة تحيط بها الحدائق والزروع ثم أخذت تزحف شمالا حيث ارتبط بها اسم يثرب . وأصبحت بعد أن نمت بهذه الصورة معرضة لهجمات المغيرين من البدو ، ولم يكن هناك ما يحمى أهلها غير تلك الأطم [1] التى يلوذون بها حتى يرحل عنهم المغيرون .

وتاريخ يثرب — وان كنا لن نتعرض له — قديم كما تدل على ذلك النقوش والأخبار — اذ نراها فى الكتابات المعينية والسبئية . كذلك ذكرها بطليموس فى جغرافيته باسم iathrpa ، وكذلك اصطفيان البيزنطى . وقد عرفت يثرب باسم « المدينة » أخذا من كلمة medinta الآرامية التى تعنى « الحمى » وقد كان اليهود الذين ينزلونها متأثرين بالثقافة الآرامية ، أما أنها اختصار لاسم « مدينة الرسول » فيظهر أن هذا رأى متأخر [2] .

وتاريخ من نزل بيثرب قديما مجهول ، أما ما يذكره الاخباريون من وجود العماليق وجرهم بها ومجىء اليهود اليها

(١) الأطم : هى الحصون التى كان أهل المدينة يبتنونها ليحتموا بداخلها .

(٢) انظر تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد على ٤ : ١٨١ .

فى أيام موسى فانه لا يستند الى دليل ، والذى نعرفه يقينا أن أهل المدينة فى عصر الرسول كانوا عربا ويهودا ؛ وكان العرب فيها ينقسمون الى قبيلتين كبيرتين هما الأوس والخزرج وبينهما صلة قربى معروفة ، وكان اليهود يعيشون فيها قبائل بلغت نيفا وعشرين قبيلة ، وقد اشتهر من بينها قبيلتا قريظة والنضير [1] . والأوس والخزرج من بقايا هجرات القبائل اليمنية الى الشمال وذلك بعد الأزمات الاقتصادية التى لحقت بهم وخاصة بسبب انهيار سد مأرب الذى حدث أكثر من مرة ، أما اليهود فهم بقايا هجرات قديمة جاءت من الشمال بسبب اضطهاد الرومان لهم على توالى القرون .

وقد سجل التاريخ صراعا بين القبائل العربية واليهودية فى يثرب بسبب تشاحنهم على المناطق الخصبة فيها ، وكان العرب يستعينون فى هذا الصراع بأقربائهم من القبائل اليمنية الأخرى التى هاجرت مثلهم الى الشمال واستطاعوا أن يسيطروا على يثرب ويفرضوا سلطانهم على اليهود ، على أنه سرعان ما تحول الصراع الى بطونهم فأخذ اليهود يسترجعون نفوذهم وقوتهم مرة أخرى . ولم يخمد هذا الصراع الا عندما هاجر الرسول الى يثرب وآخى بين القبيلتين كما آخى بينهما وبين المهاجرين .

ويجدر بنا أن نقف عند هذا الصراع القبلى الذى شارك فى بعضه حسان قبيل الاسلام حتى نستطيع أن ندرس حياته وندرك

---

(١) وفاء الوفا فى أخبار دار المصطفى ، ١ : ١٨٠ للسمهودى ، ومعجم البلدان ٤ : ٤٦٣ ، الأغانى ٩ : ٩٤ – ٩٥ .

طبيعة الظروف الاجتماعية التى عاش فيها . وقد اتخذ هذا الصراع شكل حروب متعاقبة مثل يوم السرارة ويوم الربيع ويوم فارع البقيع ويوم معبس ومضرس . وأهم هذه الأيام هى : [1]

١ — يوم سمير : للأوس على الخزرج

٢ — يوم كعب بن عمرو : للخزرج على الأوس

٣ — يوم حاطب : للخزرج على الأوس

٤ — يوم بعاث : للأوس على الخزرج

يقول الاخباريون فى حرب سمير : حدث أن وفد على يثرب وافد من ذبيان يسمى كعب الثعلبى ونزل على مالك بن العجلان الخزرجى وحالفه . وفى أحد الأيام خرج كعب الى سوق بنى قينقاع فرأى رجلا من غطفان معه فرس وهو يقول : ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب . وثارت مناقشة حول أعز أهل يثرب . وقال كعب الثعلبى : هو مالك بن العجلان فغضب رجل من الأوس من بنى عمرو بن عوف يقال له سُمير بن زيد ولزم كعبا حتى قتله فى سوق لهم بقباء . فثار مالك بن العجلان وحض قومه من الخزرج على قتال الأوسيين أو دفع الدية كاملة . ورفضت الأوس دفع دية كاملة وعرضت دية الحليف وهى نصف الدية الكاملة — فثارت الحرب ولم تضع أوزارها الا بعد أن تقاتل الأوس والخزرج نحو عشرين سنة كثرت فيها أيامهم ، وأوشك أن يفنى بعضهم بعضا . فحكّمت القبيلتان ثابت بن المنذر بن حرام

---

(١) أنظر فى هذه الأيام كتاب أيام العرب فى الجاهلية لأبى الفضل ابراهيم والبجاوى .

والد حسان . ولم يدرك حسان تلك الحرب ولكنه رد فيها على شاعر الأوس قيس بن الخطيم عندما فخر عليه بهذا اليوم .

أما يوم كعب بن عمرو فقد حدث أن رصد رهط من بنى جحجبى من الأوس كعب بن عمرو المازنى الخزرجى فضربوه حتى قتلوه أو كادوا ، فلما بلغ أخاه عاصم بن عمرو ما حدث ، خرج ومعه بنو النجار وقاتلوا الأوس قتالا شديدا حاول فيه عاصم أن يقتل أحيحة بن الجلاخ الأوسى مقابل قتل الأوس لأخيه كعب . وكان هذا اليوم للخزرج على الأوس .

أما يوم حاطب فكان نوعا من أنواع الاستفزاز بين القبيلتين . فقد كان حاطب بن قيس الأوسى سيدا شريفا ، وحدث أن نزل به رجل من ذبيان أكرمه وأقام عنده ، وذات يوم غدا هذا الرجل الى سوق بنى قينقاع فرآه أحد بنى الحارث بن الخزرج اسمه يزيد ، فقال لرجل يهودى : لك ردائى ان كسعت هذا الذبيانى . ففعل اليهودى وأخذ رداء يزيد . فنادى الذبيانى : يا لحاطب ! كسع ضيفك وفضح ! فجاء حاطب فقتل اليهودى ، فقتل يزيد الخزرجى رجلا من الأوس بذلك اليهودى ، وثارت الحرب بين القبيلتين . وكان على الخزرج عمرو بن النعمان البياضى ، وعلى الأوس حضير بن سماك الأشهلى . وعلم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر وخيار بن مالك الفزاريان بالأمر فقدما يثرب وتحدثا مع الأوس والخزرج فى الصلح وضمنا أن يتحملا الديات ، فأبوا ، وامتشقوا الحسام وكانت الدائرة على الأوس .

أما يوم بعاث فهو صورة من صور تدخل اليهود فى العلاقات

بين القبيلتين وافساد أخوتهما ببذر بذور الفتنة والشقاق بينهما ونصرة احداهما على الأخرى رغبة فى اضعاف القبيلتين معا . فقد حدث أن استعانت الأوس ببنى قريظة والنضير فى حروب كانت بينهم وبين الخزرج ، فبعثت الخزرج الى القبيلتين اليهوديتين تقول : ان الأوس فيما بلغنا قد استعانت بكم علينا ، ولن يعجزنا أن نستعين بأعدادكم وأكثر منكم من العرب ، فان ظفرنا بكم فذلك ما تكرهون . وان ظفرتم بنـــا لم ننم عن الطلب أبدا ، فتصيروا الى ما تكرهون ، ويشغلكم من شأننا ما أنتم الآن منه خالون . وأسلم لكم من ذلك أن تدعونا ، وتخلوا بيننا وبين اخواننا . ثم طلب الخزرج رهائن من ولدانهم ليضمنوا عـــدم نصرتهم للأوس . فأرســـل اليهود لهم أربعين غلاما ، ففرّقهم الخزرج فى دورهم ، غير أن بطنا من الخزرج — وهم بياضة — حرضهم زعيمهم عمرو بن النعمان على أن يأخذوا منازل بنى قريظة والنضير لأنها أفضـــل من منازلهم ، وراســـل اليهود فى ذلك والا يقتل رهائنهم فرفض اليهود . وقتل عمرو بن النعمان ومن أطاعه من الخزرج الرهائن التى كانت لديهم ، ورفض عبد الله ابن أبىّ أن يفعل فعلهم ، وبعثت قريظة والنضـــير تستنصران الأوس عـــلى أن ينـــزل كل بيت من النبيت — وهم حى من الأوس —على بيت من بنى قريظة ، فنزلوا معهم فى دورهم ، واصطفوا فى صفوفهم يحاربون الخزرج . وحاربتهم الخزرج وعلى رأسها عمرو بن النعمان البياضى ، ورفض عبد الله بن أبىّ أن يشترك فى تلك الحرب ، وقال ان هذا بغى منكم على الأوس

وعقوق . وأرسلت الخزرج تستنصر بجهينة وأشجع ، وأرسلت الأوس مع بنى قريظة والنضير الى مزينة . وذهب حضير الكتائب الأشهلى الى أبى قيس بن الأسلت فأمر أن يجمع له أوس اللات ، فجمعهم له أبو قيس . فقام فيهم حضير خطيبا وحرضهم على القتال ، وطلب اليهم أن يعقدوا لأبى قيس بن الأسلت فرفض أبو قيس وقال : انى لم أرأس على قوم فى حرب قط الا هزموا وتشاءموا برياستى . وكان اللقاء ببعاث وانهزمت الأوس أول الأمر ولكنها انتصرت أخيرا ووضعت فى الخزرج السلاح ، ثم كفت عن سلبهم بعد اثخانها فيهم ، وكثر شعر القوم فى هذا اليوم هجاء ورثاء وفخرا . وشارك حسان فى هذه المعركة اللسانية مشاركة فعالة .

من هذه النماذج الأربعة لأيام الأوس والخزرج تتضح صورة الوضع الاجتماعى فى يثرب قبيل الاسلام ، فصراع بين الأوس والخزرج وبين اليهود ، ثم صراع بين الخزرج وبين الأوس ، وكل هذا الصراع ينبع من مسببات قبليه وجهالة بدوية أو تدخل سافر من اليهود فى العلاقات بين القبيلتين الشقيقتين لاشعال الفتنة بينهما واضعافهما حتى يستطيعوا أن يسترجعوا نفوذهم وسيطرتهم على المدينة ، ويبسطوا سلطانهم على القبيلتين .

كان المجتمع اليثربى اذن مجتمع شقاق وقتال لعب فيه اليهود دورا خطيرا ، واستعانت فيه القبيلتان العربيتان بأنصار من الخارج مرة وباليهود مرة أخرى ، وقد سبب هذا توترا شديدا فى العلاقات الاجتماعية بين سكان المدينة ، كما أضعف الحياة

الاقتصادية بها اذا قارناها بمثيلتها فى مكة التى عاشت فى هدوء نسبى فى أواخر القرن السادس الميلادى .

وقد عاشت الديانة اليهودية جنبا الى جنب مع الوثنية العربية وان كانت هناك شواهد تدل على أن العرب احتقروا ديانة اليهود وعاداتهم وسلوكهم .

ويلاحظ الباحث أن كثيرا من بطون القبيلتين الكبيرتين فى يثرب قد نبذت حياتها الرعوية ، وشاركت اليهـود فى زراعة الأرض والارتباط بها ، كما حاكتهم فى اتخاذ الآطام حصـونا والدور سكنا ، ولكن هذا لا ينفى أن بطونا أخرى احتفظت بتقاليدها الرعوية وثالثة نشطت فى التجارة ، ورفضت أن تمتهن الزراعة أو الصناعة .

الفصل الثانى

نشأة حسان

(أ) نسبه :

نسب الرواة حسان الى أبيه فقالوا : هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدى بن عمرو بن مالك ابن النجار — وهو تيم الله — بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء ابن حارثة الغطريف بن امرىء القيس البطريق بن ثعلبة البهلول ابن مازن بن الأسد [1] بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد ابن كهلان بن سبأ يشجب بن يعرب بن قحطان .

ثم نسبوه الى أمه فقالوا : أم حسان الفريعة بنت خنيس [2] ابن لوذان بن عبدون بن ثعلبة [3] بن الخزرج بن ساعدة بن كعب ابن الخزرج .

---

(١) الأسد لغة فى الأزد وبالسين أفصح .

(٢) كذا فى أقدم مخطوطه للديوان (٢٥٥ هـ) . وفى الأغانى ٤ : ١٣٤ ، وأسد الغابة ٢ : ٤ الفريعة ابنة خالد بن خنيس .

(٣) فى مخطوطة الديوان وفى الأغانى ٤ : ١٣٤ : ابن عبدود ابن زيد بن ثعلبة . وفى سيرة بن هشام ٢ : ٨٧ خنيس بن حارثة ابن لوزان .

من هذا نلاحظ أن حسان خزرجى من جهة أبيه وأمه معا ، بل ومن أقوى بطونها جميعا .

ويصعب على الباحث أن يحدد السنة التى ولد فيها حسان ، فرغم أن معظم الرواة اتفقوا على أنه عاش ما يقرب من مائة وعشرين عاما الا أنهم اختلفوا فى سنة وفاته [١] ، فقد قيل انه توفى سنة أربعين من الهجرة ، وقيل بل سنة خمسين ، وقيل بل سنة أربع وخمسين ، وقد وضعه الطبرى فيمن توفوا سنة ثمانين من الهجرة !!

ولما كانت أخباره تنقطع فى أواخر عهد علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فاننا يمكننا أن نأخذ بالرواية التى تقول انه توفى سنة أربعين من الهجرة تقريبا .

وان تحديدنا لسنة أربعين من الهجرة زمنا لوفاته يجعلنا نرفض فكرة أنه عاش ما يقرب من مائة وعشرين عاما ، فقد روى أنه عندما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة كان حسان يبلغ من العمر ستين عاما تقريبا ، ومعنى ذلك أنه عاش ما لا يزيد عن مائة عام ، ويكون بذلك قد ولد فى منتصف العقد السابع من القرن السادس الميلادى . وكانت أسرة حسان ذات شأن عظيم فى الجاهلية والاسلام معا ، فوالده ثابت بن المنذر قد حكّمته الأوس والخزرج فى حرب سمير ونزلوا على حكمه ،

---

(١) انظر الاستيعاب لابن عبد البر (مادة حسان) .

وأخوه أوس بن ثابت [1] ممن شهد العقبة مع السبعين من الأنصار كما آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين عثمان بن عفان الصحابى الجليل وثالث الخلفاء الراشدين !

ومن الرواة من يقول ان أوس بن ثابت شهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفى فى خلافة عثمان ، ومنهم من يقول انه قتل يوم أحد شهيدا . ويظهر أن الرأى الأخير هو الصواب . فقد جاء فى قصيدة لحسان ما يشير الى استشهاد أخيه أوس عندما قال :

ومنا قتيـــل الشعب أوس بن ثابت
شهيدا وأسنى الذكر منه المشاهد

أما الأخ الثانى لحسان فهو أبى بن ثابت [2] وكان يكنى بأبى شيخ ، وقد شهد بدرا وأحدا وقتل يوم بئر معونة شهيدا فى صفر على رأس ستة وثلاثين شهرا من الهجرة .

---

(1) أوس : أخ لحسان من أبيه ، وأمه سخطى بنت حارثة بن لوذان ابن عبدود من بنى ساعدة ، وكان ثابت بن المنذر خلف على سخطى بعد أبيه وكانت العرب قبل الاسلام تفعل ذلك ولا ترى فيه شيئا . وقد أخلف أوس عقبا : شداد بن أوس ويعلى بن شداد ابن أوس (انظر الطبقـات الكبير مجلد ٣ قسم / ٢ ص ٦٣ ط أوروبا ، وكتاب المعارف لابن قتيبة ١٥٩) .

(2) أبى : اخ لحسان من أبيه ، وأمه عمرة بنت مسعود بن قيس ابن عمرو بن زيد مناة ، وقد أســلمت وبايعت الرسول صلى الله عليه وسلم (انظر الطبقات الكبير لابن سعد المجلد الثامن ٣٣٠) ولم يخلف أبى عقبا . (انظر الطبقات الكبير المجلد الثالث قسم / ٢ ص ٦٣ ط أوروبا) .

وعرف لحسان أكثر من أخت ، اتفق الرواة فى اثنتين منهن وهما كبشة ولبنى بنتا ثابت بن المنذر [1] ، وقد أسلمتا وبايعتا الرسول وحسن اسلامهما . أما الأخريان وهما فارعة وخولة بنتا ثابت بن المنذر فقد اختلفت الروايات فيهما . فقد قيل ان فارعة عشقت عبد الرحمن بن الحارث المخزومى وفيه شعرها الذى منه : [2]

يا خليلى نابنى سهدى | لم تنم عينى ولم تكد
كيف تلحونى على رجل | آنس تلتذه كبدى
مثل ضوء البدر طلعته | ليس بالزميلة النكد

وقيل ان خولة هى التى أنشدت تلك الأبيات متعشقة عمارة ابن الوليد المخزومى وهى كما ذكرها أبو الفرج الأصفهانى : [3]

يا خليلى نابنى سهدى | لم تنم عينى ولم تكد
فشرابى ما أسيغ وما | أشتكى ما بى الى أحد
كيف تلحونى على رجل | آنس تلتذه كبدى
مثل ضوء البدر صورته | ليس بالزميلة النكد
من بنى آل المغيرة لا | خامل نكس ولا جحد
نظرت يوما فلا نظرت | بعده عينى الى أحد

ونعرف من زوجات حسان ثلاثا ، اثنتين تزوجهما قبل الاسلام وهما عمرة بنت صامت بن خالد من الأوس ، وشعثاء

---

(١) أختان لحسان من أبيه وأمهما سخطى بنت حارثه ابن عبدود (الطبقات الكبير المجلد ٨ : ٣٢٩ طبعة أوروبا) .
(٢) الأغانى ٣ : ٣٣ .
(٣) المرجع السابق ٣ : ٣٤ ـ ٣٥ .

بنت سلام بن مشكم اليهودى أو بنت كامن الأسلمية . وثالثة وهبها له رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى سيرين القبطية التى كانت هدية المقوقس حاكم مصر الى الرسول عليه السلام .

أما عمرة ، فقد أحبها حسان حبا عظيما وحدث أن أسر الأوس مخلد بن صامت الساعدى ، فتكلم حسان فى أمره بكلام أغضب عمـرة فعيرته بأخـواله وفخرت عليه بالأوس وهو الخزرجى المتعصب ، وكان يحب أخواله ويغضب لهم فطلقها ، فأصابها من ذلك شدة . وندم حسان بعد ذلك ندما شديدا (١) .

وقد شبب بها فى مطلع بعض قصائده وتحدث فيما شجر بينهما من خلاف وأظهر فى كل ذلك ألمه وندمه ، وان كان فى نفس الوقت يفخر بنفسه وأخواله الذين كانوا سببا فيما حدث له من كرب . يقول :

أجمعت عمـــــرة صرما فابتكر
انمـــا يدهن للقـلب الحصر (٢)
لا يكن حبـك خبـــا ظاهرا
ليس هـذا منـك يا عمر بسر (٣)
سألت حسان من أخــــواله
انما يسأل بالشىء الغمـــر (٤)

(١) المخطوطة رقم ٢٥٣٤ من الديوان بمعهـد مخطوطات الجامعة العربية . الورقة/٧٥ .

(٢) الصرم : الهجر . ابتكر : عجل . الادهان : الخضوع . الحصر : الضيق .

(٣) عمر : ترخيم عمرة .

(٤) الغمر : المجهول .

قلت أخـــــوالى بنو كعب اذا
أســـلم الأبطال عورات الدبر [1]

رب خـــال لى لـــو أبصرته
سبط الكفين فى اليــوم الخصر [2]

عنـــد هـــذا البـــاب اذ ســاكنه
كل وجه حسن النقبــة حـــر [3]

يوقد النـــار اذا مـــا أطفئت
يعمل القــدر بأثبـــاج الجزر [4]

من يغـــر الدهـــر أو يأمنـــه
من قبيل بعد عمـرو وحجـــر [5]

ملكا من جبـــل الثـــلج الى
جانبى أيلة من عبـد وحـــر [6]

(١) أسلم الأبطال عورات الدبر : انهزموا .

(٢) سبط الكفين : سخى وكريم . اليوم الخصر : الشديد البرد . يريد أن يقول أن أخواله كرماء فى وقت الشدة والعسر .

(٣) النقبة : الوجه .

(٤) يوقد النار اذا ما اطفئت : يطعم الأضياف والغرباء حين يبخل غيره من الجـدب والعسر . أثباج : جمع ثبج وهى أطايب الجزر . والجزور هى الناقة المذبوحة .

(٥) عمرو وحجـر من ملوك غســان . وعمرو ، هو عمرو ابن الحارث بن عمرو بن عـدى بن حجر ابن الحارث الغسانى . وحجر : هو حجر بن النعمان بن الحـارث بن أبى شمر الغسانى .

(٦) جبل الثلج : بدمشق . وايله : مدينة فى فلسطين .

وعمرة هى التى شبب بهـا قيس بن الخطيم الأوسى غريم حسان ومهاجيه فى الجاهلية عندما قال : [1]

أجـد بعمـرة غنيانهـا فتهجر أم شـاننا شـانها

وذلك لأن حسان كان يشبب بأخت قيس ليلى بنت الخطيم فى شعره .

أما شعثاء فقد اختلف فى أمرها . قال بعض الرواة انها بنت سلام بن مشكم اليهودى [2] ، كان حسان يشبب بها دائما فى شعره ، ولا تفسر تلك الرواية نوع العلاقة التى قامت بينهما . وقال آخرون هى امرأة كانت تحت حسان [3] ، وهى بنت كامن الأسلمية من خزاعة [4] . وربما كان الرأى الأخـير أقرب الى الصواب . ففى نص بمخطوطة الديوان القديمة أن حسان تزوج امرأة من أسلم فولدت له غلاما . ويظهر أنه لم يكن على وفاق معها فقد قال فى ابنه .

غلام أتاه اللؤم من شـطر خاله
له جانب واف وآخـر أكشم

فقالت تجيبه :

غلام أتاه اللؤم من نحـو عمه
ومن خـير أعراق ابن حسان أسلم

---

(١) ديوان قيس بن الخطيم .
(٢) مخطوطة الديوان رقم ٢٥٣٤ الجامعة العربية .
(٣) أى زوجته .
(٤) الروض الأنف ٢ : ٢٨٠ للسهيلى .

بقيت الزوجة الثالثة لحسان وهى هبة الرسول اليه وهدية حاكم مصر الى الرسول وأخت مارية زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أخلف حسان من سيرين ابنه الشاعر المشهور عبد الرحمن الذى ورث الشعر عن والده واستمر يحمل لواءه مدة فى العصر الأموى .

وعبد الرحمن أوضح أبناء حسان شخصية فى التاريخ (١) وكان شاعرا روى شعر أبيه كما كان محدثا وممن ضمه بعض العلماء الى الثقات . واختلف فى سنة وفاته وفى عدد سنى عمره . والمشهور أنه ولد فى عصر الرسول ، وتمتد أخباره الى أواخر القرن الأول وأوائل الثانى الهجرى ؛ ومعنى ذلك أنه يصعب قبول الرواية التى تقول انه عاش حوالى ثمانية وأربعين عاما ، فلعل الأربعين محرفة (٢) .

وقد أخلف عبد الرحمن بن حسان أبناء عدة أشهرهم جميعا سعيد بن عبد الرحمن وكان شاعرا أيضا (٣) ، وكنى أبوه باسمه .

ويذكر الرواة أن لحسان ابنتين ، أولاهما أم فراس (٤) وهى من زوجة شعثاء التى عرّفنا بها من قبل ، ولا نجد من أخبارها

---

(١) انظر تهذيب التهذيب ٦ : ١٦٢ لابن حجر ، الطبقات الكبير لابن سعد مجلد ٥ ص ١٩٦ .

(٢) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر .

(٣) بناؤه كما جاء فى الطبقات : الوليد واسماعيل وام فراس وأمهم أم شيبة بنت السائب بن يزيد ، ثم حسان بن عبد الرحمن والفريعة .

(٤) الروض الأنف ٢ : ٢٨٠ .

شيئا مذكورا . أما الأخرى فهى ليلى بنت حسان ، فقد روى ابن عساكر فى تاريخه (1) عن الأصمعى انه كان لحسان ابنة تدعى « ليلى » وحدث يوما أن كان حسان جالسا فبدا له أن يقول الشعر فقال :

أنمى الى أفناء عمـــرو وعامـــر
سمت لمعاليها وعزت كهـــولها
متاريك آذناب الأمـور اذا التوت
أخذنا الفروع واجتثثنا أصـولها
الى أسرة طابت وعولى فرعهـــا
فليس لفرع غيرها أن يطولهـــا

ثم انقطع ، فقالت له ابنته من الخدر : كأنك قد انقطعت ! فقال : نعم ! فانثنت تقول :

مقاويل بالمعروف خرس عن الخنا ،
كرام يعاطون العشـــيرة سولها

فقال حسان :

وقافية عجت بليـــــل ثقيـــلة
تلقيت من جــو الســـماء نزولها
يهاب الذى لا ينطق الشعر سؤلهـا
ويعجز عن أمثالها أن يقولهـــا

---

(1) تاريخ ابن عساكر ٤ : ١٣٤ .

ثم أظهر غضباً على ابنته لنظمها الشعر وقال : لهممت أن أحلف، أن لا أقول بيت شعر ما دمت حية . فقالت : أنا آؤمنك ! والله لا أقول بيت شعر ما صحبتك !!

فالى جانب أن هذه الرواية تشير الى وجود ابنة له تدعى « ليلى » فانها تبين ظاهرة أخرى فطن اليها القدماء وهى اشتهار بعض الأسر بنظم معظم أفرادها للشعر وتوارثهم له أمثال أسرة زهير بن أبى سلمى وأسرة حسان بن ثابت !

ويظن أن لحسان ابنا يسمى الوليد ، فقد كان يكنى بأبى الوليد ، واشتهر بذلك ولكن الرواة لم يذكروا من شأن هذا الابن شيئا [1] .

(ب) شخصيته :

قد يكون من المتناقض أن تتحدث عن شخصية حسان فى هذا الفصل والكتاب كله يهدف الى تصوير هذه الشخصية فى جاهليتها وفى اسلامها بطريقة تختلف فى أسلوبها عما حاوله القدماء عندما عددوا بعض صفات هذه الشخصية ، غير أن ما أبغى تصويره ومناقشته هنا خاصة ناحيتان : أولاهما صفاته الجسمانية التى جاءت متفرقة عند الرواة فى أخباره ، وأخراهما تلك المسألة التى شغلت الدارسين القدماء منهم والمحدثين وهى الصاق تهمة الجبن بهذا الشاعر ومدى صحة هذا الاعتقاد .

ذكر الرواة أنه كان لحسان ناصية يسدلها بين عينيه ،

---

(١) قد يكون هذا الابن من زوجه من أسلم وهو الذى هجا حسان من خلاله أخواله وردت عليه زوجة هاجية أعمامه .

وكان يضرب بلسانه روثة أنفه من طوله ويقول : ما يسرني به مقول أحد من العرب ، والله لو وضعته على شعر لحلقه أو على صخر لفلقه . ثم كان يخضب شاربه وعنفقته بالحناء ، ولا يخضب سائر لحيته . وقد سأله ابنه عبد الرحمن يوما : يا أبت لم تفعل هذا ؟ فقال : لأكون كأنى أسد والغ فى دم (١) .

والجزء الأول من هذه الرواية يتصل بنفوذه فى الجاهلية ومدى خوف العرب من أهاجيه ، فان اللسان الذى يحلق الشعر ويفلق الصخر لسان تخافه القبائل ، وتحسب له ألف حساب . فترضى صاحبه ، وتحرص على أن تتقى شره ، وهذا ما سوف تؤكده فى هذا الكتاب .

أما أنه كان يخضب شاربه وعنفقته بالحناء ليكون كالأسد الوالغ فى الدم فهذا ما حاول الدارسون أن يتخذوه وغيره مظهرا من مظاهر الجبن . وقد روت أيضا صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها أنها كانت فى فارع — أطم حسان (٢) — يوم الخندق . وقالت : كان حسان معنا فيه والنساء والصبيان ، فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس بيننا وبينهم أحـد يدفع عنـا ، ورسول الله والمسلمون فى نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا الينـا عنهم ، اذ أتانا آت فقلت : يا حسان ان هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن ، وانى والله

---

(١) الأغانى ٤ : ١٣٥ .
(٢) الأطم : الحصن .

ما آمنة أن يدل على عوراتنا مَن وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانزل اليه فاقتله . فقال : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب . لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . فقالت : فلما قال ذلك ولم أر عنده شيئا احتجزت [1] ، ثم أخذت عمودا ثم نزلت اليه من الحصن فضربته بالعمــود حتى قتلته . فلما فرغت منه رجعت الى الحصن فقلت : يا حسان انزل اليه فاسلبه فانه لم يمنعنى من سلبه الا أنه رجل . فقال : مالى بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب ! [2] .

وقد وردت روايتان أخريان تمثلان موقف حسان من القتال وتشبهان الى حد كبير موقفه من القتال فى الرواية السابقة . تقول الرواية الأولى ان يهوديا جاء ليرتقى الحصن فقالت صفية لحسان : أعطنى السيف . فأعطاها ، فلما ارتقى اليهودى ضربته حتى قتلته ثم احتزت رأسه فأعطته لحسان وقالت طوِّح به ، فان الرجل أقوى وأشد رمية من المرأة . وكأنها تريد أن ترعب بذلك حسان [3] . أما الرواية الأخرى فتذكر أن حسان كان ضاربا فى آخر أطمه وتدا فاذا حمل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين حمل الوتد فضربه بالسيف ، واذا أقبل المشركون انحاز عن الوتد حتى كأنه يقاتل قرنا . وكأنه يتشبه بالمجاهدين فى شجاعتهم [4] .

---

(١) احتجز بردائه أى شده على وسطه .
(٢) الأغانى ٤ : ١٦٥ ــ ١٦٦ ، تاريخ الطبرى ٣ : ٥٠ .
(٣) الأغانى ٤ : ١٦٦ .
(٤) الأغانى .

ولا شك أن هذه الأخبار جميعا — ان كانت تدل على شيء — فانما تدل على أنه كان يخاف أن يشترك فى قتال وخاصة اذا عرفنا أنه لم يساهم فى غزوة من غزوات الرسول قط . فهل هذا الخوف من أن يدخل فى معركة من المعارك يعتبر جبنا ؟ ألا يمكننا أن نقول ان هناك علة أخرى تمنعه من الاشتراك فى الحرب ؟ قد يكون السن هو السبب . فهذه الأخبار جميعا رويت عن حسان وقد بلغ الستين على الأقل . ورجل فى الستين من عمره قد يضعف عن أن يدخل حربا أو يساهم فى قتال . غير أن هناك علة أخرى أشار اليها صاحب الأغانى تقول ان أكحل [1] حسان كان قد قطع فلم يكن يضرب بيده [2] وقال الواقدى مدافعا عن حسان وعن تهمة الجبن الموجهة اليه [3] ان قومه كانوا يدفعون أن يكون جبانا ولكنه أقعده الحرب أن أكحله قد قطع فذهب منه العمل فى الحرب ، ويؤيد هذا الرأى قول حسان نفسه :

أضر بجسمى مر الدهـور   وخان قراع يدى الأكحل [4]
وقد كنت أشهد وقع الحروب   ويحمر فى كفى المنصـل

ويناصر الأصمعى حسان بن ثابت ويدفع عنه تهمة الجبن فيقول : الدليل على أن حسان لم يكن جبانا أنه كان يهاجى خلقا فلم يعيره أحد منهم بالجبن .

---

(١) الأكحل : عرق فى اليد « الفاضل للمبردص ١٣ » .
(٢) الأغانى ٣ : ١٦٦ .
(٣) تاريخ ابن عساكر ٤ : ١٢٦ .
(٤) الأكحل : عرق فى اليد .

وجدير بالملاحظة أن الوقائع التى استشهد بها الاخباريون على جبن حسان كلها وقائع اسلامية ، وعلى هذا يمكن أن نرجح أن قطع أكحل حسان حدث فى الجاهلية أو قبل دخوله فى الاسلام ولا شك أن مثل هذا السبب الى جانب كبر سنه وضعف روح المغامرة عنده يجعله حذرا متمهلا فى الوقت الذى لجد فيه شباب المسلمين وشيوخهم مندفعين بقوة الدين وبروح الرسول نحو الجهاد الذى كان المظهر الحقيقى للمسلم المؤمن فى هذه الفترة .

وكان احجام حسان عن الاشتراك فى كل قتال ينشب وكل غزوة يخرج اليها المسلمون سببا فى أن بعض المسلمين كانوا يضحكون منه اذا وصف نفسه فى قتال أو افتخر بشجاعة أو بطولة . فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه ينشد :

لقد غدوت أمام القوم منتطقا
بصارم مثل لون الملح قطاع
يخفز عنى نجاد السيف سابغة
فضفاضة مثل لون النهى بالقاع [1]

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فظن حسان أنه ضحك من صفته لنفسه بصفات البطولة مع اشتهاره بين المسلمين بجبنه [2] .

---

(١) نجاد السيف : حمائله . ودرع سابغة وفضفاضة : واسعة . النهى : الغدير . القاع : الصحراء .
(٢) الأغانى ٤ : ١٦٦ – ١٦٧ .

الفصل الثالث
شعر حسان الجاهلى

حسان والنقاد القدماء :

يتضح لمتتبع أخبار حسان قبل الاسلام ولدارس شعره أنه من الشعراء الذين ازدوج مظهر حياتهم الاجتماعية فى الجاهلية ، فهو شاعر قبلى يفخر بقبيلته وبنفسه ، وكلاهما شىء واحد فقبيلته تحقق له ذاته ، وذاته تضيف الى القبيلة عنصرا من عناصر شخصيتها ، ثم هو فى نفس الوقت شاعر مداح ، يقدم الغير على نفسه ليتكسب أموالهم ويؤخر ذاته عن الغير لينال رضاءهم .

وقد عاش حسان فى فترة ازدهر فيها كل من الفنين : فن الشعر القبلى وفن شعر المديح ؛ ازدهر الفن الأول لاشتعال ضرام القتال فى هذه الفترة ، والتهاب العصبيات القبلية التى تعقدت مسبباتها ، فلم تعد هناك قبيلة لا تحمل للأخرى ثأرا ، وازدهر فن المديح لثراء المملكتين الشماليتين فى الحيرة وفى غسان لارتباطهما بالتحضر الفارسى والتحضر البيزنطى ، وتولى الحكم فيهما أعظم ملوكهما منذ نشأتهما .

ونظرة واحدة الى كتاب النقائض والى أيام الجاهليين فيه توضح ضخامة تراث المعارضات القبلية وما يمكن أن يصلنا منها

لو نجح الرواة فى تدوينها أو نجح الزمن فى المحافظة على توصيلها ، كذلك يظهرنا على روعة تلك القصائد التى تشيد بأمجاد القبائل وانتصاراتها وكثرة من اشتهروا بها من الشعراء القبليين أمثال قيس بن الخطيم وعمرو بن الاطنابة وأبى قيس ابن الأسلت . أما شعر المديح فقد ظهر أعظم منشديه فى هذه الفترة أيضا ورددت الجزيرة أجلى أنغامهم ، فكانت قصائد زهير والأعشى والنابغة تجوب الجزيرة مصورة أشرف المثل الخلقية العربية .

ويتساءل الباحث أين كان حسان بين كل هؤلاء ؟ هل اعترف له النقاد بمكانة بين شعراء القبائل ، أو اعترفوا له بمكانة بين شعراء المديح ؟ هذا ما سوف ننظر فيه .

وأول ما نحب أن نعرض له رأى النقاد القدماء فيه وفى شعره .

انقسم رأى القدماء فى حسان قسمين : قسم يحكم عليه حكما مطلقا ، وقسم آخر يحكم على شعره ويقارن بين جودته فى الجاهلية وسقوطه فى الاسلام .

أما القسم الأول فعن أبى عبيدة قال : فضل حسان الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار فى الجاهلية وشاعر النبى صلى الله عليه وسلم فى النبوة وشاعر اليمن كلها فى الاسلام (١) .

وعنه أيضا قال : اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدر أهل

---

(١) الأغانى ٤ : ١٣٦ .

يثرب ثم عبد القيس ثم ثقيف ، وعلى أن أشعر أهل يثرب حسان ابن ثابت [1] .

ويشبه قول أبي عبيدة هذا قول أبي عمرو بن العلاء والحطيئة والزبير بن بكار [2] ؛ فأبو عمرو بن العلاء يقول : أشعر أهل الحضر حسان بن ثابت [3] والحطيئة يقول : أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب [4] ، أما الزبير فيروى عن أبي غزيه قوله عن حسان بن ثابت : هو شاعر الأنصار وشاعر اليمن وشاعر أهل القرى ، وأفضل ذلك كله أنه شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مدافع [5] .

وقد حاول بعض الرواة أن يوازن بينه وبين آخرين ، فعن أبي الفرج قال : قال حسان بن ثابت : جئت نابغة بني ذبيان فوجدت الخنساء بنت عمرو حين قامت عنده ، فأنشدته فقال : انك لشاعر وان أخت بني سليم لبكاءة [6] .

كذلك تهاجي الحطيئة ومزرد أخو الشماخ وكلاهما شاعر كبير ، فقال مزرد يقلل من قيمة الحطيئة :

فلست كحسان الحسام بن ثابت
ولست كشماخ ولا كالمخبل [7]

---

(1) المرجع السابق ١٧٣ .
(2) الزبير بن بكار : له كتاب في أخبار حسان مفقود (أنظر فهرست ابن النديم) .
(3) تهذيب التهذيب ٢ : ٢٤٧ . (4) المرجع السابق .
(5) مجالس ثعلب ٢ : ٤٢٩ . (6) الأغاني ٤ : ١٦٧ .
(7) المخبل : هو المخبل السعدي شاعر جاهلي .

وقد عُرف لحسان فهمه للشعر ومعرفته لطرقه وأساليبه ، فكان يُسأل فيه . فقد استشاره عمر بن الخطاب فى شعر للحطيئة هجا به الزبرقان بن بدر هل هو هجاء . فقال حسان : لم يهجه ولكن سلح عليه . فحبس عمر الحطيئة قائلا له : يا خبيث لأشغلنك عن أعراض المسلمين (١) .

أما القسم الآخر فقد روى فيه عن الأصمعى ثلاث روايات فى ثلاثة مصادر تختلف فى ألفاظها وتلتقى فى دلالاتها . الرواية الأولى تقول : الشعر نكد يقوى فى الشر ويسهل ، فاذا دخل فى الخير يضعف ، هذا لأن حسان كان من فحول الشعراء فى الجاهلية فلما جاء الاسلام سقط شعره (٢) .

والرواية الثانية تقول : شعر حسان فى الجاهلية من أجود الشعر فقطعَ متنه فى الاسلام لحال النبى صلى الله عليه وسلم (٣). والرواية الأخيرة تقول : طريق الشعر اذا أدخلته فى باب الخير لان ، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا فى الجاهلية والاسلام، فلما دخل شعره فى باب الخير من مراثى النبى صلى الله عليه وسلم وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما لان شعره ، وطريق الشعر هو طريق الفحول مثل امرىء القيس وزهير والنابغة فى صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الحُمُر والخيل والحروب والافتخار فاذا أدخلته فى باب الخير لان (٤) .

---

(١) الشعر والشعراء ١٨٦ .

(٢) أسد الغابة ٢ : ٤ .

(٣) الشعر والشعراء ١٧١ . (٤) الموشح ٦٢ .

وقيل لحسان : لان شعرك وهرم يا أبا الحسام . فقال للسائل: يا بن أخى ان الاسلام يحجز عن الكذب . يعنى أن الاجادة فى الشعر تستدعى الافراط الذى يقوله وهو كذب يمنع الاسلام عنه فلا يجيء الشعر جيدا (١) .

تلك هى القضايا التى أثارها الرواة والنقاد القدماء حول شعر حسان ، وكطبيعتهم دائما يحملون هذه القضايا معانى عامة ، ولا يقومون بدراستها دراسة تطبيقية . وسوف ننظر فى هذه القضايا جميعا وفى غيرها من خلال شعره .

أ ـ حسان الشاعر القبلى :

لا نكاد نظفر بأخبار تتصل بحياة حسان فى الجاهلية ، كيف نشأ وكيف نطق الشعر ثم ما هى الأحداث المهمة التى شارك فيها ؟ . فاذا عرفنا أن هذا الشاعر عاش ما يقرب من ستين عاما جاهليا مشركا قبل دخوله الدين الجديد على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه يمكننا أن نحس بهذا النقص الذى يعترى تصوير هذه الشخصية فى أهم فترة من حياة الانسان وهى الفترة التى ينضج فيها تفكيره وتتحدد ملامح شخصيته ، وتنمو فيها مواهبه .

ويلجأ الباحث عندئذ الى ما بقى من شعره الجاهلى يبحث فيه عن أبعاد هذه الشخصية عسى أن يلمس فيه مبتغاه ، وهنا

---

(١) أسد الغابة ٢ : ٤ .

نجد أن هـذا الشـعر — على قلته — ورغم ما وقع فيه من اضطراب — يصور بعدين أساسيين فى شخصيته القبلية أولهما أنه لسان حال الخزرج المناقض لشعراء منافسيها وأعدائها من القبائل الأخرى وخاصة القبائل الأوسية ومناصريها ، وآخرهما يبرز شخصيته المعتدة بنفسها المفـاخرة بأمجاد ذويها ، والتى تحاول أن تتفوق بفرديتها وخصالها على الخصوم والمنافسين .

نلمح البعد الأول لهذه الشخصية فيما شجر من مناقضـات بين حسان كشاعر للخزرج وبين قيس بن الخطيم كشاعر للأوس ، وقد استطاع حسان أن يشيد بأيام الخزرج ويقف من قيس موقف الند للند ، وخير مثال على ذلك قصائده يوم الربيع ويوم خطمة ويوم بعاث ، وهى نقائض تثبت مقدرته وامتيازه .

حدث أن اقتتلت الأوس والخزرج قتالا شديدا بالربيع (١) حتى كادوا يتفانون بعد أن وضعوا أبناءهم ونساءهم فى الحصون، واستمر الموقف متحرجا بينهما حتى لم يعد الرجل يأمن أن يخرج من حصنه الى عمل يقضيه خوفا من القتـل ، ثم دعت الأوس الخزرج الى الصـلح ، فأبت بنو النجار من الخزرج . وحالوا بين الفريقين وبين الصلح حتى كثر فيهم القتل ، ثم كف بعضهم عن بعض ، وان بقوا على عداوتهم وتشاحنهم ، فقـال حسان شاعر الخزرج ورجل بنى النجار قصيدته :

لقد هاج نفسك أشـجانها وعاودها اليـوم أديانها

---

(١) اسم مكان .

فرد عليه قيس بن الخطيم شاعر الأوس معارضا :

أجـــد بعمـــرة غنيانها فتهجر أم شأننا شـــانها

ويتضح لمن يقرأ قصيدة حسان أنها لم ترو كاملة فهو فى بيتين يقف موقف المتذكر لأحبائه ، المتطلع لهواه القديم ، ثم ينتقل الى بيتين آخرين يصف فيهما واديا صعب الاختراق قطعه الشـاعر رغم عزيف الجن فيه ، فوق ناقة هوجاء يسألها عن حال حبيبته وقد رحل أهلها عن الديار ، ثم تأتى أبيات يتحدث فيها بلسان قومه معددا للأوس أمجادهم كما يحبها الضمير القبلى ، فهم كرماء وقت القحط ، يوم يبخل الناس جميعا ، وهم ليوث ساعة المعركة حينما يجبن الشجعان عن خوض ميدانها . يقول :

ويثرب تعلم أنّا بهـــــا اذا التبس الحق ميزانهـــا

ويثرب تعلم أنّا بهـــــا اذا قحط القطـــر نوءانها (١)

ويثرب تعلم أنّا بهـــــا اذا خافت الأوس جـــيرانها

ويثرب تعلم أن النبيـــــ ـت عند الهزاهـــز ذلانها (٢)

نبت بالنبيت وأشـــياعها من ان أوعدت قط أرطانهـــا

فكيف اذا نازلتهــــــا ليوث غريف وشـــبلانها

متى ترنا الأوس فى بيضـــنا تهز القنا تَخْبُ نيرانهـــا (٣)

وتعط المقـــــاد على رغمها وينزلْ مِنَ الهــام عصيانها

ويثرب تعلم أن النبيـــــ ـت ليست بشيء وأعـــوانها

---

(١) نوءانها : مطرها .
(٢) الهزاهز : الشدائد .
(٣) بيضنا : سلاحنا .

فلا تفخرن والتمس ملجـــأ فقد عـاد للأوس أديانهـــا
ونحن اذا حاربت عـــــامر أمــام الكتيبة أعيـــانها

فاذا نظرنا بعد ذلك فى مناقضة قيس لهذه القصيدة نجد أن أول ما يبدأ به غزل فى عمرة بنت صامت بن خالد زوج حسان يستغرق منه خمسة أبيات ينتقم منه فى التشبيب بها على طريقة الجاهليين ، فرغم أنه يصفها بأوصاف جميلة الا أن ذلك يضايق العربى الشريف مضايقة شديدة .

يقول فيها قيس :

فما روضـــة من رياض القطا كأن المصـــابيح حوذانها (١)
بأحسن منها ، ولا مـــزنة دلوح تكشف أدجـــانها (٢)
وعمرة من سروات النســـا ء تنفح بالمســك أردانها (٣)

وينتقل قيس فجأة الى الفخر بلسان قومه كما فعـل حسان رادًّا عليه بقوله :

نحن الفـــوارس يوم الربيـ ـع قد علموا كيف فرسانها (٤)
جنبنـــا الحـــراب وراء الصريـ ـخ حتى تقصف مـــرانها (٥)

ثم يرد على بيت حسان الذى فيه :

(١) الروضة : البقعة يجتمع فيها الماء فكثير نبتها . الحوذان : نبت طيب الريح .
(٢) المزنة : الســحابة البيضــاء.دلوح : كثيرة الماء.تكشف ادجانها : تكشف ظلمتها وذلك بانزالها ما تحمل من الماء .
(٣) أردانها : أعطافها .
(٤) الربيع : الجدول الصغير .
(٥) جنبنـــا الحراب : حملوا حرابهم بايديهم الى جنوبهم . الصريخ : المستغيث . المران : الرماح .

فكيف اذا نازلتهـــــا لیوث عزيف وشبلانها

فيقول :

فلما اســـتقل كليث الغريف زان الكتيبة أعـوانها [١]

تراهن يخلجن خلج الدلاء تختلج النزع أشـــطانها [٢]

الى أن يقول مدافعا عن النبيت الذين هاجمهم حسان :

ويثرب تعـــلم أن النبيت راس بيثـــرب ميــــزانها

حسان الوجوه حداد السيو ف يبتدر المجـد شـــبانها

ثم يفتخـر قيس بكرم قومه كما افتخر حسان ولكن ليس بصورة حسان الذى جعل قومه يكرمون الناس حتى فى أيام القحط ولكن بتلك الصورة الجاهلية حين يفخر العـرب بأنهم يهينون أموالهم فى سبيل الخمر ويصرفون أموالهم عليها فيقول :

وبالشوط من يثرب أعبـــد ســتهلك فى الخمـر أثمانها

يهون عـلى الأوس أثمانهم اذا راح يخطر نشـــوانها

ومن أشهر المعارضات التى رد بها حسان على شاعر الأوس قيس بن الخطيم معارضته التى مطلعها :

ما بال عينى دمــــوعها تكف

من ذكر خود شطت بها قذف [٣]

وذلك حين هجاه قيس بقصيدته التى أولها :

---

(١) الغريف : الأكمة وكل شجر ملتف .

(٢) الأشـــطان : الحبال . يصور حركة الحراب فى الطعن والنزاع فيشبهها بحبال الدلاء وهى تختلج أثناء نزعها من البئر .

(٣) تكف : تسـيل . الخـود : الشـابة الناعمة . القذف : البعيدة .

رد الخليط الجمـــــال فانصرفوا
ماذا عليهم لو أنهم وقفـــوا (١)
ان قيسا يبدأ قصيدته بثمانية عشر بيتا يصف فيها صاحبته ويقول فيها :
فيهم لعـــوب العشاء ، آنسة الـ
ـدل ، عروب ، يسوءها الخلف (٢)
بين شكول النبـــاء خلقتهـــا
قصد فلا جبـــلة ولا قضف (٣)
قضى لها الله حـــين يخلقهـا الـ
ـخالق ألا يكنها ســــدف (٤)
تنـــام عن كبر شـــأنها فاذا
قامت رويدا تكاد تنغـــرف (٥)
حوراء ، جيـــداء ، يستضاء بها
كأنها خـــوط بانة قصـــف (٦)

(١) الخليط : المخالط لهم فى الدار . ردوا جمالهم من الرعى ليرتحلوا .
(٢) لعوب العشاء : أى تسهر مع السمار وتلهو .
(٣) الشكول : الضروب . جبلة : غليظة . القضف : الدقة والنحافة .
(٤) ســدف : ظلمة . يقول اذا كانت فى ظلمـة أبصرت ولم تسترها الظلمة .
(٥) تنغرف : تسقط .
(٦) الحوراء : شـدة سواد الحـدقة مع شدة البياض . الجيداء : الطويلة العنق : خوط : قضـيب : قصـف : خوار ناعم يتثنى .

تمشي كمشي الزهـــراء في دمث الـ
رمل الى السهل دونه الجـرف (١)
ولا يغث الحـــديث ما نطقـــته
وهــو بفيها ذو لــذة طـــرف
تخــزنه وهـــو مشتهى حسن
وهـــو اذا ما تكلمت أنف (٢)
كأنهـــا درة أحـــاط بهـا الـ
غواص يجلو عن وجهها الصدف (٣)

حتى ينتهى الى قوله :

الى لأهـــواك غـــير ذى كذب
قد شف منى الأحشاء والشغف (٤)

وينتقل قيس بعـد هـذا المقطع الطويل الى الفخر القبلى المألوف الذى يقول فيه :

أبلغ بنى جحجبى وقـــومهم
خطمـــة أنّـا وراءهم أنف (٥)
وأننا دون ما يســـومهم الأعدا
ء من ضـــيم خطـــة نكف (٦)

---

(١) الزهراء : البقرة البيضـاء . الدمث : اللين . الجرف : ما تجرفته السيول .
(٢) أنف : مستأنف . اى ترسل الحديث دون تكلف .
(٣) يريد أن الصدف انفرج عنها فأبرز وجهها واظهر جلاءه
(٤) الشغف : غلاف القلب .
(٥) أنف : شديد الأنفة وهو الذى تأخذه الحمية والنخوة :
(٦) نكف : نستنكف .

لفلى بحـــد الصفيح هـــامهم
وفلينا هامهم بنـــــا عنف [1]

انا ولو قدمـــــوا التى علمـوا
أكبـــادنا من ورائهم تجف [2]

لما بدت غـــــدوة جبـــاههم
حنت علينا الأرحـام والصحف [3]

كقيلنا للمقـــــدمين : قفـوا
عن شأوكم ، والحراب تختلف [4]

يتبـــع آثارها اذا اختـــلجت
سخن عبيط عـــــروقه تكف [5]

قال لنا النـاس : معشر ظفـــروا
قلنا : فأنى بقـــــــومنا خلف

لنـــا مع آجامنـــا وحـــوزتنا
بين ذراهـــــا مخارف دلف [6]

يذب عنهن ســـــــــامر مصع
ســـود الغواشى كأنهـا عرف [7]

---

(١) فلاه بالسيف : اذا علاه . يقول : قتلنا اياهم عنف منـا لأنهم قومنا وبنو عمنا .
(٢) يقول : وان كانوا قـدموا ما قدموا مما ننـكر فانا نشفق عليهم . (٣) الصحف : العهود .
(٤) الشأو : السبق .
(٥) اختلجت : جذبت . سخن عبيط : دم ساخن .
(٦) مخارف دلف : نخل يخترف منه . والاختراف : لقط ثمر النخل يابسا أو رطبا . (٧) سود الغواشى : يعنى الغربان .

وحينما بدأ حسان فى معارضته لقيس ، نجده مضطرا لأن يبدأ كما بدأ قيس : نسيب جاهلى وان كان خاليا من حـرارة الانفعال أو تدفق العاطفة ولا يصبر على ذلك طويلا فبينما قيس يستغرقه النسيب فى ثمانية عشر بيتا نجد حسان لا يستغرقه هذا النسيب أكثر من أربعة أبيات ثم ينفذ صبره ، ويتضح ذلك فى البيت الخامس الذى يريد أن يتخلص فيه من هذا النسيب فجأة ودون رغبة فى الاستمرار فيه وذلك حين يقول :

دع ذا وعد القريض فى نفر مالهم غـــير سبتى شرف

ثم يبدأ مهاجاة بطون الأوس والفخر بقومه قائلا :

كنتم عبيـــدا لنا نخـــولكم
من جاءنا والعبيـــد تضطعف
كيف تعاطون مجدنا سـفها
وأنتم دعوة لهــا وكف (١)
شـانكم جدكم وأكرمنـا
جـد لنا فى الفعـال ينتصف
نجعل من كان المجـد محتده
كأعبد الأوس كلما وصـفوا
هلا غصبتم لأعبـد قتلوا
يوم بعـاث أظلهم ظلف (٢)
وكم قتلنـا من رائس لكم
فى فيلق يجتـدى له التلف

---

(١) الوكف : العيب والنقص . (٢) الظلف : الشدة .

ومن لئيم عبـــــــد يحالفكم

ليست له رتبـــــــة ولا أنف

نقتلهم والســـيوف تأخـــذهم

أخـــذا عنيفـــا وأنتم كشف (١)

وهناك مناقضة أخرى اشتهرت فى الشعر الجاهـــلى بين الشاعرين وذلك يوم السرارة . فقد حدث أن رجلا من الخزرج لقى رجلا من الأوس خارجا من بئر أريس عند قريب له ، ومع الخزرجى قوس له ونبل فرمـــاه فقتله ، فلما بلغ الأوس مقتـــل صاحبهم ليلا قتلوه داخل بيته ، وكان لا يقتل رجل فى داره ولا فى نخلة فرأت الخزرج مقتل صاحبهم . فقالوا والله ما قتل صاحبنا الا الأوس ، فخرجوا اليهم وخرجت الأوس نحوهم بالسرارة ، فاقتتلوا بها أربعة أيام حتى نال القتل كلا الفريقين ، كل واحد من صاحبه كيف شاء . فقال قيس بن الخطيم قصـــيدته التى مطلعها :

تروح من الحسناء أم أنت مغتدى

وكيف انطلاق عاشـــق لم يزود

ورد حسان عليها بأبياته التى أولها :

لعمر أبيـــك الخير يا شعث ما نبا

علىّ لسانى فى الخطوب ولا يدى

فاذا قارنا بين القصيدتين نجد أن قصيدة قيس تبدأ بمقدمة

---

(١) وأنتم كشف : وأنتم مهزومون .

غزلية يصف فيها صاحبته وصفا مألوفا بمقلتين بريئتين وجيد صاف مزين . يقول

تراءت لنا يوم الرحيل بمقلتي
غرير بملتف من السدر مفرد (١)

وجيد كجيد الرئم صاف يزينه
توقد ياقوت وفصل زبرجد

كأن الثريا فوق ثغرة نحرها
توقد فى الظلماء أى توقد

ولا يستطيع حسان أن ينتظر طويلا فى الرد على قيس فنراه يذكر صاحبته فى بيت واحد قائلا : ان لسانه ويده لن يمتنعا عن الرد على قيس ، ويحوّل حسان حديثه الى صاحبته من وصفه لجمالها وتأثير لحبها فى نفسه الى حديث عن القتال والشعر وقدرته عليهما :

لعمر أبيك الخير يا شعث ما نبا
على لسانى فى الخطوب ولا يدى

لسانى وسيفى صارمان كلاهما
ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودى

ويرسم قيس بعد مقدمته صورة للقتال مفزعة تقطر بالدماء وتمتلىء بالجثث يتربص فيها الموت خلال كل خط من خطوطها فيقول :

---

(١) غرير : يريد ظبيا . والغرة : قلة التجربة . السدر : شجر النبق .

ألا ان بين الشرعبى وراتـــــج
ضرابا كتخذيم السيال المعضد (1)
لها حائطان الموت أســـفل منهما
وجمع متى يصرخ بيثرب يصـعد
ترى اللابة السوداء يحمر لونهـــا
ويســهل منها كل ريع وفدفد (٢)
لعمرى لقد حالفت ذبيـــان كلها
وعبسا على ما فى الأديم الممدد (٣)
وأقبلت من أرض الحجــاز بحلبة
تغم الفضاء كالقطا المتبـــدد (٤)
تحملت ما كانت مزينـــة تشتكى
من الظلم فى الأحلاف حمل التغمد

لقد كانت معركة مريرة قاسية تحصد السيوف الرءوس فيها كما يحصد المنجل زهور السـيال ، قد أحاط جدارا المـوت بالمقاتلين فلا مهرب لهم منه ، وهو فاغر فاه يتلقف الضحايا غذاء شهيا له ، وكانت صرخاتهم فى يثرب تملأ الآفاق . لقد اختضبت

---

(١) الشرعبى وراتج : حصنان فى يثرب. التخذيم : التقطيع. السيال : شجر له شوك أبيض . المعضد : المقطع .

(٢) اللابة : الأرض التى بهـــا حجارة سوداء . يسهل : أى تنزل منها الدم . الريع : المرتفع . الفدفد : فيه صلابة وحجارة .

(٣) الأديم الممدد : الـكتاب الذى قد مـد . أى كتبوا كتبا وتحالفوا على ما فى الصحف .

(٤) الحلبة : الجماعة من الخيل . القطا : نوع من الطير .

الحرات السوداء بالدماء فتحولت حمراء من كثرتها . ولم تكن الأوس وحدها فى المعركة بل لقد أعانتها قيس بكتيبة عظيمة تملأ الفضاء كطيور القطا المنتشرة . أما فى أبيات حسان فلا نجد فيها وصفا للمعركة كما فى أبيات قيس، وانما شغل بالفخر بنفسه وبأقربائه من ملوك غسان ، فهو ان سئل على الاملاق تكلف العطاء فحمد ، وان كثر ماله فان الثراء لا ينسيه واجبه من العفة والحياء ، وان صروف الدهر ونوازله لا تقعد به عن أداء الواجب من القرى والعطاء ، وأخيرا يهدد قيسا بأنه سيلقى أسودا مسلحة بالرماح والسيوف . يقول :

فلا المـال ينسينى حيائى وحفظتى
ولا واقعات الدهر يفللن مبـردى
أكثر أهـــلى من عيـال سواهم
وأطوى على الماء القراح المبرد [1]
اذا كان ذو البخل الذميمـة بطنه
كبطن الحمار فى الخلاء المقيـــد
وأعمـــل ذات اللوث حتى أردها
اذا حط عنها جلسها لم تقيـد [2]

الى أن يقول :

---

(١) يقول : أبيت جائعا مكتفيا بالماء ايثارا على نفسى كما أضم الى أهلى غيرهم وأعولهم . والماء القراح : هو الماء الخالص الصرف.
(٢) ذات اللوث : ذات القوة . الحلس : كساء على ظهر البعير تحت البرذعة .

واني لمعط ما وجـدت وقائـــل
لموقد ناري ليـــلة الريح أوقد
واني لقــوال لدى البث مرحبـا
وأهلا اذا ما جاء من غير مرصد (١)
واني ليدعوني النـــدى فأجيبــه
وأضرب بيض العارض المتوقد (٢)
واني لحلو تعتريني مــــرارة
واني لتراك لما لم أعــــود (٣)
فلا تعجلن يا قيس واربع فانمــا
قصــاراك أن تلقى بكل مهند (٤)
حســام وأرماح بأيدي أعــــزة
متى ترهم يا ابن الخطيم تبـلد (٥)
ليوث لدى الأشـبال تحمي عرينها
مداعيس بالخطى في كل مشهد (٦)

كانت المعركة اذن بين الأوس والخزرج تتمثل في قيس بن الخطيم وقيس بن الأسلت من جانب ، وحسان بن ثابت وعبد الله

---

(١) البث : الحـــزن والغم . الربع : الفــزع والخــوف . المرصد : الطريق .
(٢) أضرب بيض العارض : أسبق المطر في البذل. والعارض : السحاب .
(٣) حلو تعتريه المرارة : أي ينفع ويضر .
(٤) اربع : قف واقتصر . المهند : السيف .
(٥) تتبلد : تتحير .
(٦) مداعيس : الدعس هو الطعن .

ابن رواحة من جانب آخر ، وقد استطاع شعراء الخزرج وعلى رأسهم حسان الصمود لشعراء الأوس كما استطاع فرسان الخزرج أن ينتصروا على فرسان الأوس فى أيام كثيرة .

وحينما تتداخل شخصية حسان فى شخصية قبيلته ويصبح الأصداء المتجاوبة ، والألحان ذات المقاطع المتآلفة تتردد فى كل منهما شخصية واحدة يبلغ حسان القمة فى تصوير مكارم نفسه وتصوير أمجاد قبيلته معا ، ونسمع تلك النغمات ذات قصائده المنبعثة من نفس فياضة ومن روح شاعرة ، ومن طبيعة مرتبطة ببيئتها ، منساقة مع فطرتها . لنسمع معا الأبيات التالية دون أن تتوقف فى فهم معانى ألفاظها الغريبة حتى لا نقطع على أنفسنا ذلك التدفق فى الانفعال ، والتسلسل فى التصوير . يقول [1] .

ألست بنعم الجار يولف بيته

كذى العرف ذا مال كثير ومعدما

وندمان صدق تمطر الخير كفه

اذا راح فياض العشيات خضرما [2]

---

(1) من قصيدته التى مطلعها .

ألم تسأل الربع الجديد التكلما

بمدفع أشداخ فبرقة أظلما

(2) فياض العشيات : الجواد . الخضرم : البحر الكثير الماء ويقصد الكريم الكثير العطاء .

وصلت به ركنى ووافق شـــيمتى
ولم أك عضا فى الندامى ملوما [1]

وأبقى لنا مر الحروب ورزؤهـــــا
سيوفا وأدراعا وجمعا عرمرما [2]

اذا اغبر آفاق الســـماء وأمحلت
كأن عليها ثوب عصب مسهما [3]

حسبت قدور الصاد حول بيـــوتنا
قنابل دهما فى المحــــلة صيما [4]

يظل لديها الواغـــــلون كأنمـــا
يوافون بحرا من سميحة مفعما [5]

لنــــا حاضر فعم وباد كأنـــــه
شـــماريخ رضوى عزة وتكرما [6]

متى ما تزرنا من معد بعصـــــــبة
وغسان نمنع حوضنا أن يهـــدما

---

(١) العض : السيىء الخلق. الملوم : الذى يفعل ما يلام عليه.
(٢) العرمرم : الكثير .
(٣) أمحلت : أمحل النـــاس : اذا نزل بهم القحط . الثوب العضب : ثياب يمنية موشاة .
(٤) قدور الصاد : قدور النحاس : القنابل : جماعات الخيل . الصيم : القيام .
(٥) الواغلون : الداخلون ويقصــــد الذين يدخلون على القوم للطعام . سميحة : بئر بالمدينة . المفعم : الممتلىء .
(٦) شماريخ رضوى : أعالى رضوى . وهو جبل .

بكل فتى عارى الأشــاجع لاحه
قراع الكماة يرشح المسك والدما (١)
اذا استدبرتنا الشمس درت متوننا
كأن عروق الجوف ينضحن عندما (٢)
ولدنا بنى العنقـــاء وابنى محرق
فأكرم بنا خالا وأكرم بنـــا ابنما
نسود ذا المـــال القليل اذا بدت
مروته فينـــا وان كان معـــــدما
وانا لنقرى الضيف ان جـاء طارقا
من الشحم ما أمسى صحيحا مسلما (٣)
ألسنا نرد الكبش عن طية الهوى
ونقلب مران الوشـيج محطما (٤)
وكائن ترى من سيد ذى مهـابة
أبوه أبونا وابن أخت ومحـــرما

---

(١) الأشاجع : جمع أشجع وهو العصب الممدود فوق السلامى بين الرسغ الى أصول الأصابع . وعارى الأشاجع : أى أن عروق اليـد نافرة لأن اليـد نحيفة من ممارسة الحرب . لاحه : غيره . الكماة : الشجعان .

(٢) درت : امتلأت دما . العندم : دم الغزال وله رائحة طيبة .

(٣) نقرى : نكرم .

(٤) كبش الكتيبة : قائدها . الطية : النية . مران : جمع مارن وهو الرمح اللين .

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما [1]
أبى فعلنا المعروف أن ننطق الخنا
وقائلنا بالعرف الا تكلما [2]
فكل معد قد جزينا بصنعه
فبؤسى ببؤساها وبالنعم أنعما

فى هذا الاطار الفنى الرائع يرسم حسان المثل العليا للشخصية الجاهلية كما يتوهم أنه يمثلها جميعا ، فمنزله مهبط الفقير والغنى ، كلاهما ينعم بضيافته ، وكلاهما يجد عنده الأمن والقرى ، وهو من خيرة الندماء اذا نادم الجواد الذى تمطر كفه الخير ، ثم هو أو قومه — فهما شىء واحد — أبطال المعارك ، ثم هم كرماء وهم أبناء البيوتات العريقة المجد وهم .. وهم .. وهم .. الخ ، وهو عندما يعدد تلك الصفات جميعا يرسمها بصورها الجاهلية التى تصبغها ألوان الصحراء ، وتمدها بموادها وعناصرها .

وتتسابق الصور ، وتتوالى المعانى التى يعبر بها حسان عن ذاته الجاهلية وعن صفته القبلية فى كل القصائد التى يمكننا أن نردها له وأن نحدد جاهليتها ومن هذه القصائد تلك التى مطلعها :

لمن منزل عاف كأن رسومه
خياعيل ريط سابرى مرسم

---

(١) الجفنات : القصاع . الغر : البيض .
(٢) الخنا : الذل .

يقول فيها :

متى تســـألنى عنا تنبى بأننـــا
كرام وأنا أهـــل عز مقـــدم

وأنا عرانين صـــــقور مصالت
نهز قنـــاة متنها لم يوصـــم (١)

لعمــرك ما المعتـــر يأتى بلادنا
لنمنعه بالضـــــائع المتهضم (٢)

ولا ضيفنا عند القـــرى بمدفع
وما جارنا فى النائبات بمســـلم

وما السيد الجبار حـــين يريدنا
بكيد عـــلى أرماحنا بمحـــرم

نبيح حمى ذى العـــز حين نكيده
ونحمى حمانا بالوشـــيج المقوم (٣)

ونحن اذا لم يبرم النـــاس أمرهم
نكون عـــلى أمر من الحق مبرم

ولو وزنت رضوى بحلم سراتنـــا
لمال برضـــوى حلمنا ويرمرم (٤)

ونحن اذا ما الحـــرب حل صرارها
وجادت على الحلاب بالموت والدم

---

(١) عرانين القوم : سادتهم ، مصالت : جمع مصلت ، ورجل مصلت ماض فى الأمور .
(٢) المعتر : السائل .
(٣) الوشيج : الرمح .
(٤) يرمرم : جبل .

ولم يرج الا كل أروع ماجـــــد
شديد القوى ذى عـــزة وتكرم
نكون زمـــام القائدين الى الوغى
اذا الفشل الرعديد لم يتقـــدم
فنحن كذلك الدهر ما هبت الصـــبا
نعود على جهالهم بالتحــــلم
فلو فهموا أو وفقوا رشـــد أمرهم
لعدنا عليهم بعــــد بؤسى بأنعم
وانا اذا ما الأفق أمسى كأنمـــا
على حافتيه ممسيا لون عنـــدم
لنطعم فى المشتى ونطعن بالقنـــا
اذا الحرب عادت كالحريق المضرم
وتلقى لدى أبياتنا حين نجتـــدى
مجالس فيها كل كهـــل معمم
رفيع عماد البيت يســـتر عرضه
من الذم ميمون النقيبة خضرم (١)
جواد على العلات رحب فنـــاؤه
متى يسأل المعــروف لا يتجهم

---

(١) ميمون النقيبة : مظفر فيما يفعل . الخضرم : الجواد .

ضروب بأعجاز القداح اذا شتا
سريع الى داعى الهياج مصمم [١]
أشم طويل الساعدين سميدع
معيد قراع الدارعين مكلم [٢]

وهنا أيضا يردد حسان مثل الجاهليين كما يراها فى قومه ، فهم كرماء يطعمون فى الشتاء حين يعز الطعام ويكثر احتياج الناس ، ويقدمون المعونة تحت أية ظروف فهم كرماء « على العلات » لا يتريثون فى العطاء مهما قست عليهم الحياة ، وقل ما بأيديهم من غوث ، وهم شجعان بعد ذلك ، فالظالم له أرماحهم مشرئبة مشتاقة الى الدماء ، والجبار له أبطالهم شديدو القوى ماضو العزم ، حديدو الفؤاد ، قادرون على القراع ، مدربون على الصراع . أما قوادهم فهم المتقدمون فى ميادين القتال حين تجبن أفئدة الشجعان ويهرب قواد الجيوش رعبا وخشية . وهم بعد هذا كله أهل حلم وأصحاب حكمة ، وان حكمة كهالهم وحلم شبابهم اذا وزنا بجبال رضوى لفاقاها ثقلا ورسوخا .

وليست صور حسان هذه غريبة على الجاهليين ، فهى التى تردد فى شعرهم ، يلجأون اليها ساعة الفخر والتغنى بمآثر القبيلة . غير أننا نلاحظ أن الاحساس الذى يلف هذه المعانى جميعا

---

(١) ضروب بأعجاز القداح : صاحب ميسر ، ولعب الميسر من شيم كرام الجاهليين .

(٢) السميدع : الكريم المعتدل القامة والشجاع . مكلم : مجرح .

مستمد من قوة الخزرج ومن ماضيها المجيد فى الجاهلية ، وصادر عن ايمان قوى للشاعر بهذا الماضى وهذه الأمجاد ، ثم بعد ذلك له قدرة فائقة فى التعبير عن كل هذا فى سلاسة ويسر ، وبساطة وتلقائية .

وشعر حسان الجاهلى ممتلىء بمثل هذه النغمات القوية التى تثبت قدرته وتفوقه كشاعر قبلى استطاع أن يدفع عن قبيلته غوائل شـــعراء القبيلة المنافسة ، وأن يرد بقـــوة وغلبة عليهم مفاخراتهم ومناقضاتهم ، لذلك يمكننا أن نقول ان أهم دور قام به حسان فى جاهليته أنه استطاع أن يحتل مركز الشاعر القبلى الذى يعبر عن عصبية القبيلة ويشيد بأمجادها ويعلن انتصاراتها ، ويرفع من شأو رجالاتها ويرد على أعدائها ، ويصمد لمناقضيها ويقاوم منافسيها أكثر من نصف عمره زمنا ، وعمره كله فنا !!

القسم الأول

حسّان في الجاهليّة

ب ـ حسان الشاعر المادح :

لم يقتصر حسان على تمثيله لقبيلته فى معاركه الفنية ، واتجه الى عقد صداقات مع الامارات الشمالية ومدح ملوكها وأمرائها .

ومن يدرس الشعر الجاهلى يلاحظ أن شـــعر المدح الذى أنشده أصحابه للتكسب به قد كثر منذ منتصف القرن السادس الميلادى ويرجع ذلك الى عدة أسباب من أهمها : ازدهار الحياة فى الامارتين الشماليتين فى الحيرة وغسان فى هذا الوقت ، وازدياد ثرائهما وسلطانهما ، فاتجه الشعراء الى هذين المنبعين فى رحلات مستمرة ومنتظمة للارتواء منهما ، ومن الشعراء من استقر فيهما استقرارا دائما نديما لملوكهما ، ومغردا فى رياضهما كالشـــاعر العظيم النابغة الذبيانى .

وكان البلاط فى هاتين الامارتين يعج بالشعراء من كل نواحى الجزيرة العربية وكأنه صورة مصغرة لما سوف يحدث فيما بعد فى بلاط الأمويين والعباسيين .

زار حسان الغساسنة ومدحهم ، وكان اتصاله بهم اتصـــالا بذوى قرباه ، فقد مهد له نسبه فيهم أن ينزل فى بلاطهم وأن يجيزوه فى كل مرة ينزل فيها عليهم ، أما زيارته للمناذرة فقـــد اختلف فيها وان كان هناك نص يشير الى حدوثها .

لم يكن اتصال حسان بالغساسنة ونيل عطائهم فى أول الأمر

سهلا ، فالمنافسون فى بلاطهم شعراء متفننون قد احتلوا من قلوب الملوك والأمراء المكانة الأولى ، وكان على حسان أن يبحث عن موضع خال وسط هذا الزحام ، وكان حسان فى هـذه الفترة صديقا لأمير غسانى هو جبلة بن الأيهم انقطع له مدة اذ كان يقدم عليه ويقيم سنة فى أهله ، ثم رأى أن يتصل بالملك عمرو ابن الحارث الأصغر عسى أن يصيب مالا أكثر ، وشهرة أكبر ، فقد روى أنه قال : لو وفدت على الحارث فان له قرابة ورحما بصاحبى وهو أبذل الناس لمعروف ، وقد يئس منى أن أقدم عليه لما يعرف من انقطاعى الى جبلة ، فخرجت فى السنة التى أقيم فيها بالمدينة حتى قدمت على الحارث وقد هيأت مديحا ، فقال لى حاجبه وكان لى ناصحا : ان الملك قد سر بقدومك عليه وهو لا يدعك حتى تذكر جبلة ، فاياك أن تقع فيه فانه يختبرك ، فانك ان وقعت فيه زهـد فيـك ، وان ذكرت محاسنه ثقل عليه ، فلا تبتدىء بذكره ، فان سألك عنه فلا تطنب فى الثنـاء عليه ولا تعبه ، امسح ذكره مسحا وجاوزه ، فانه سوف يدعوك الى الطعام وهـو يثقل عليه أن يؤكل طعامه وأن يشرب شرابه فلا تضع يدك فى شىء حتى يدعوك اليه . قال فذكرتُ له ذلك . ثم دعانى الحارث فسألنى عن البلاد والنـاس وعن عيشنا فى الحجاز ، وكيف ما بيننا من الحرب ، وكل ذلك أخبره حتى انتهى الى ذكر جبلة . فقال : وكيف تجد جبلة فقد انقطعت اليه وتركتنا . فقلت له : انما جبلة منك وأنت منه . فلم أجر معه فى مدح ولا ذم ، وفعلت فى الطعام والشراب كما قال لى الحاجب . قال : ثم قال لى

الحاجب : قد بلغنى قدوم النابغة وهو صديقه وآنس به ، وهو قبيح أن يجفوك بعد البر ، فاستأذن من الآن فهو أحسن . فاستأذنته ، فأذن ، وأمر لى بخمسمائة دينار وكساء وحملان فقبضتهما وانصرفت الى أهلى [1] .

يتضح من هذه الرواية موقف حسان من البيت الغسانى وخاصة من الأمير جبلة بن الأيهم فقد كانت صلة حسان به قوية ؛ وصداقته به متصلة فى الجاهلية والاسلام وقد مدحه حسان بقصائد جيدة ، وعرف له جبلة هذا حتى بعد أن تنصر وسافر الى بلاد الروم . فقد حدث أن أرسل معاوية [2] اليه رسولا ليعود الى الاسلام ، فرد جبلة الرسول وقد سأله عن حسان ، فقال له الرسول : شيخ كبير قد عمى . فدفع اليه جبلة ألف دينار وقال : ادفعها الى حسان . قال الرسول : فلما قدمت المدينة ودخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت فيه حسان بن ثابت ؛ فقلت له : صديقك جبلة يقرأ عليك السلام . قال : فهات ما معك . فقلت : يا أبا الوليد كيف علمت . قال ما جاءتنى منه رسالة قط الا ومعها شىء [3] . وعن الأصمعى [4] : أن جبلة بعث اليه بخمسمائة دينار وكسى . وقال للرسول : ان وجدته قد مات فابسط هذه الثياب على قبره ، واشتر بهذه الدنانير ابلا فانحرها

---

(١) الأغانى ١١ : ٣٩ .
(٢) وذلك أثناء ولايته فى الشام .
(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ١٧١ .
(٤) المرجع السابق .

على القبر . فوجده حيا ، فأخبره ، فقال حسان : لوددت انك وجدتنى ميتا .

وقد دافع حسان عن جبلة بن الأيهم أمام عمر عندما ارتد جبلة وتنصر . فقد جاء أنه عندما علم عمر بارتداد جبلة شق عليه ، وقال لحسان : يا أبا الوليد : أما علمت أن صديقك جبلة بن الأيهم ارتد نصرانيا ؟ قال : انا لله وانا اليه راجعون . ولم ارتد ؟ قال : لطمه رجل من مزينة . فقال حسان : وحق له ! فقام اليه عمر رضى الله عنه بالدرة فضربه بها .

ولم يكن حسان يستطيع أن يبلغ فى فن المدح ما بلغه زهير والنابغة والحطيئة والأعشى وأمثالهم من الشعراء المداحين بل لقد خاف عليه عمرو بن الحارث أن يسمح له بالانشاد أمام النابغة الذبيانى وعلقمة بن عبدة حتى لا يكون أقل منهما فنا . قال أبو عمرو الشيبانى : قال حسان بن ثابت : قدمت على عمرو ابن الحارث فاعتاص (١) الوصول علىّ اليه ، فقلت للحاجب بعد مدة : ان أذنت لى عليه والا هجوت اليمن كلها ثم انقلبت عنكم ، فأذن لى ، فدخلت عليه ، فوجدت عنده النابغة وهو جالس عن يمينه وعلقمة بن عبدة عن يساره . فقال لى : يا ابن الفريعة ، قد عرفت عيصك (٢) ونسبك فى غسان ، فارجع فانى باعث اليك بصلة سنية ، ولا أحتاج الى الشعر فانى أخاف

---

(١) اعتاص : صعب .
(٢) العيص : المنبت .

عليك هذين السبعين : النابغة وعلقمة أن يفضحاك ، وفضيحتك فضيحتى وأنت والله لا تحسن أن تقول :

رقاق النعـــال طيب حجـزاتهم
يحيون بالريحان يوم السباسب [1]

فأبيت وقلت لابد منه . فقال : ذاك الى عمّيك [2] فقلت لهما : بحق الملك الا قدمتمانى عليكما . فقالا : قد فعلنا . فقال عمرو بن الحارث هات يا ابن الفريعة : فأنشدت :

أسألت رسم الدار أم لم تســـأل
بين الجـــوابى فالبضيع فحومل

فلم يزل عمرو بن الحارث يزحل [3] عن موضعه مسرورا حتى شاطر وهو يقول : هذا وأبيك الشعر الذى يعللانى به منذ اليوم ، وهـــذه والله البتارة التى قد بترت المدائح ! أحسنت يا ابن الفريعة ! هات يا غلام ألف دينار مرجوحة وهى التى يزن كل دينار فيها عشرة دنانير . فأعطيتها ثم قال : لك علىّ فى كل سنة مثلها .

وفى رواية أخرى أنه أنشد بعد النابغة وعلقمة ، فلما سمع الحارث قصيدة النابغة التى أولها :

كلينى لهم يا أميمـــة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب

---

(١) قصيدة النابغة التى مطلعها :
كلينى لهـــم يا أميمـــة ناصـــب
وليل أقاســـيه بطىء الـــكواكب
(٢) يقصد النابغة وعلقمة .
(٣) يزحل : يتنحى ويتقلقل .

قال الحارث : لقد ذهب نصفى .

ولما أنشد علقمة :

طحا بك قلب فى الحسان طروب
بعيد الشباب عصر حان مشيب

قال : لقد ذهب نصفى الآخر .

فلما أنشد حسان قصيدته السابقة قال له الحارث : أدنه ، أدنه ، لعمرى ما أنت بدونهما .

ونحن لا يهمنا النص الحرفى لكل تلك الروايات بقدر ما يهمنا أنها تصور جميعا قضية واحدة وهى أن حسان كان يشعر فى أعماقه بأنه ليس فى قدرة كبار المادحين كالنابغة وعلقمة ، وأن الممدوحين كانوا ينظرون اليه نفس النظرة أيضا .

وقد حكى أنه لما أراد الورود على عمرو بن الحارث قالت له بعض نساء الأمراء : عليك بمدارسة الشعر [1] وكأنما كان حسان يحتاج الى زيادة خبرة بهذا الفن قبل أن يقدم على الملوك ، ففرق كبير بين أن يقول الشاعر الشعر بين أفراد قبيلته فتدفعهم العصبية الى تمجيده ولو كان ضعيفا وبين أن يقدم به على ملك من الملوك ينافس به شعراء مختارين لينال جوائزه .

وربما كانت أهم قصيدة جاهلية بقيت لحسان فى مدح الغسانيين هى التى مطلعها :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل
بين الجوابى فالبضيع فحومل

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٤ : ١٢٦ .

وقد مدح بها الملك الغسانى عمرو بن الحارث .

وقد استطاع حسان أن يبلغ القمة الفنية فى هذه القصيدة فى مدح الغسانيين ووصف مجالسهم ومنتدياتهم ، فهم أعزة أمجاد لا يجرؤ ملك أن يحتك بهم أو أن ينقل عنهم صفة أو مكرمة ، لأنهم أبناء ملك عظيم وهو الحارث الأعرج ابن أبى شمر الغسانى وأمه مارية ذات القرطين المشهورين ابنة ملك الرومان . وهم يسقون الخمر لأضيافهم ويمدون الموائد لكل مقبل عليهم ، لا يبالون بمن نزل بهم ، ولا يروعهم جمعهم قل أو كثر . فهم ملوك كرماء يعيشون فى سعة ، ويسقيهم ولدانهم الحسان الرحيق الشهى ، فهم ليسوا صعاليك فقراء يرسلون ولدانهم لنقف الحنظل كما تفعل العرب . يقول :

دار لقوم قد أراهم مرة
فوق الأعزة عزهم لم ينقل

لله در عصابة نادمتهم
يوما بجلق فى الزمان الأول (١)

أولاد جفنة عند قبر أبيهم
قبر ابن مارية الكريم المفضل

يسقون من ورد البريص عليهم
بردى يصفق بالرحيق السلسل (٢)

---

(١) جلق : دمشق أو موضع قريب منها .
(٢) البريص : نهر بدمشق وكذلك بردى .

يســـقون درياق المدام ولم تكن
تغـــدو ولائدهم لنقف الحنظل (١)
يغشون حتى ما تهــــــر كلابهم
لا يسألون عن الســـــواد المقبـــل
بيض الوجــوه كريمة أحســـابهم
شم الأنوف من الطـــــراز الأول

* * *

ولا ينسى الشاعر أن يصف شجاعتهم وجسارتهم فى الحروب وكيف يسيرون الى الحرب فى حللهم ودروعهم . يقول :

يشون فى الحلل المضاعف نسجها
مشى الجمال الى الجمال البزل (٢)
الضاربون الكبش يبرق بيضــــه
ضربا يطيح له بنان المفصـــــل (٣)

* * *

ويصل حسان الى صورة من أجمل ما خلق فى شعره ، تلك الصورة التى يعبث فيها عبث الرجل المجرب لا الفتى الغض ، فهو يقبل على الخمر وعلى مجالسها بقلب ولهان ، ينادم أمراء جفنة فى قصورهم ، ويسعى بها اليه الحسان يسقونه مرة بعـــد مرة فلا يرتوى . نعم ! انه لا يشربها ممزوجة بالماء وانما يطلبها صرفاً لم تقتلها قطرة منه ، وعلى كلٍّ فكلا النوعين يخدر أطرافه ، ويثير

(١) نقف الحنظل : شقه وتـكسيره .
(٢) البعير البازل : الذى اســـتكمل السنة الثامنة من عمره .
(٣) الـكبش : السيد أو القائد .

فيه النشوة بعد أن جاش العصير ورقص الحبب فوقه . يقول :

اما ترى رأسى تغير لـــــونه
شمطا فأصبح كالثغام المحول (١)
ولقد يرانى موعـــــدى كأننى
فى قصر دومة أو سواء الهيكل (٢)
ولقد شربت الخمـــر فى حانوتها
صـــهباء صافية كطعم الفلفل (٣)
يسعى عـــلى ّ بكأسها متنطف
فيعلنى منهـــا ولو لم أنهل (٤)
ان التى ناولتنى فرددتهــــــا
قتلت — قتلت — فهاتها لم تقتـــل
كلتاهما حلب العصــــير فعاطنى
بزجاجة أرخاهمـــا للمفصـــل
بزجاجة رقصت بما فى قعـــرها
رقص القلوص براكب مستعجل (٥)

---

(١) الشمط : بياض شعر الرأس يخالطه سواده . والثغـام : نبات ينبت أخضر اللون ثم يبيض اذا يبس . المحول : التى أتى عليه الحول .

(٢) موعدوه : هم أعداؤه الذين يوعدونه بالشر .

(٣) الحانوت : الحانة . الصهباء : الخمر التى تعصر من عنب أبيض .

(٤) المتنطف : أى الذى فى أذنه قرط . يعلنى : يسقينى مرة بعد مرة . والعلل الشرب الثانى والنهل الشرب الأول .

(٥) القلوص : الابل الفتية .

لذلك ليس عجيبا أن لا يشعر الشاعر بالوقت الذى يمر عليه وهو عندهم فكأن هذا الوقت لم يمر عليه قط . يقول :

فلبثت أيامــا طـــوالا فيهم
ثم ادكرت كأننى لم أفعــل [1]

ثم لا ينسى أن يتخذ مثل هذه الزيارات موضــوعا للفخر فليس كل شاعر بقادر على أن ينال رضاء الملوك أو يكسب ودهم :

وتزور أبواب الملــوك ركابنا ومتى نحكم فى البرية نعــدل

* * *

وتتكرر المقطوعات التى يمدح فيها حسان الغساسنة ، ورغم أنها قليلة جدا فانها تصور ذلك الشعر الكثير الذى قيل فيهم وضاع مع الزمن .

وحينما يمدح حسان الغساســنة ، فانه لا يسلك ســلوك الشعراء الغرباء عنهم يمدحونهم ليأخذوا عطاءهم فحسب ، ولكنه يمدحهم ليفتخر بهم لأنهم أخواله الذين استطاعوا أن يبنوا لهم مجدا ، فمجدهم مجده ، وذكر محامدهم فخر له . يقول :

رب خـــال لى لـــــو أبصرته
سبط المشية فى اليـــــوم الخصر
عنـــد هـــذا البـــاب اذ ســاكنه
كل وجه حسن النقبـــــــة حر
يوقد النــــار اذا مــــا أطفئت
يعمل القــــــدر بأثباج الجزر [2]

---

(١) ادكرت : تذكرت . (٢) أثباج الجزر : أطايبها .

من يغر الدهـــــر أو يأمنـــــه

من قبيـــــــــل بعد عمرو وحجر

ملكا جبـــــل الثـــــــلج الى

جانبى أيلة من عبــــد وحــــر

ثم كانا خـــــير من نال الندى

سبقا النـــــــــاس باقساط وبر

فارسى خيـــــل اذا ما أمسكت

ربة الخـــدر بأطراف الســـــتر

أتيـــــــــــا فارس فى دارهم

فتناهوا بعــــــد اعصام بقر (١)

ثم صاحا بين غسان اصـــــبروا

انه يوم مصاليت صــــــبر (٢)

الى أن يقول

منهم أصــــلى فمن يفخــــر به

يعرف النـــاس لفخر المفتخـــر

نحن أهـــل العز والمجد معـــا

غـــير أنكاس ولا ميـــل عسر (٣)

---

(١) تناهت بعد اعصام بقر : اى انتهت بعد التحصن بالهزيمة . والقر : الشدة .

(٢) مصاليت : جمع مصلت وهو الماضى فى الأمور ، الحازم .

(٣) أنــكاس : جمع نكس وهو الرجل المقصر عن النجـدة والـكرم . والأميل : الجبان . العسر : جمع اعسر وهو الذى يعمل بشماله .

فسلوا عنـــــا وعن أفعـــالنا

كل قوم عنـــدهم عـــلم الخبر

وشعر حسان الجاهلى فى صديقه جبلة بن الأيهم قليل جدا رغم أن الروايات تشير الى استمرار زيارته له عاما بعد عام . وقد بقيت متضوعة فى مدحه يصف فيها حسان عيـد الفصح عنـد المسيحيين يقول فيها : (١)

قد دنا الفصح فالولائد ينظمـ ـن قعـودا آكـلـة المرجان (٢)

يجتنين الجـادى فى نقب الريـ ـط عليها مجاسد الكتان (٣)

لم يعللن بالمغافر والصـــــمـ ـغ ولا نقف حنظل الشريان (٤)

ذاك مغنى من آل جفنة فى الدهـ ـر وحق تعاقب الأزمـــــان

قد أرانى هنـــاك حق مكين عند ذى التاج مقعدى ومكانى

المعانى التى مدح بها حسان اذن ملوك الشام هى المعـانى التى كان يمدح بها الملوك فى الجاهلية فهم كرام أثرياء ، دورهم تستقبل كل وافد ويقدمون له الطعام والخمر ، ويلبسون أجمل

---

(١) مطلعها :

من الدار أوحشـــــت بمعــــان

بين اعـلى الـــيرموك فالخمان

(٢) الفصح : عيد قيامة المسيح . الأكلة : جمع اكليل وهـو التاج .

(٣) الجادى : الزعفران . النقب : جمع نقبة وهو ازار يشد كالسراويل . الريط : الثياب اللينة الرقيقة البيضاء . المجاسـد : القمصـان .

(٤) المغافر : نوع من الصمغ . الحنظل : ثمرة مسـتديرة مرة .

الملابس ، ويفترشون أفخر الرياش ، وهى أشـياء لا يجدها البدوى فى صحرائه ، وحين يصف موائدهم وأعيادهم فانما هى وسيلة لمدحهم والتقرب اليهم ولا شك أن مثل هـذه الزيارات أثرت فى فنه ، فهو لم يكن يستطيع أن يرسم صورة عيد الفصح كما رسمها فى الأبيات السابقة دون أن يرى الفتيات وهن ينظمن الأكاليل المزينـة بالجواهر ، أو يعطرن أجسادهن وملابسهن بالزعفران ، ثم يقارن بين أولئك الفتيات وفتيات البدو فيقول انهن لسن ممن يجتنين صمغ المغافر وينقفن الحنظل لاستخراج ما فيه .

وقد مدح حسان جبلة فى الاسلام حين أرسل اليه هدية من ثياب وأموال فقال :

ان ابن جفنـة من بقية معشر　　لم يغذهم آباؤهم باللـوم
وأتيته يوما فقـرب مجلسى　　وسقى براحته من الخـرطوم
لم ينسنى بالشام اذ هو ربها　　كلا ولا متنصرا بالـروم

لم ينس حسان اذن جبلة ، ولم ينسه جبلة أيضا ، وكأن تلك الصداقة العريقة التى توطدت عراها فى الجاهلية لم تستطع الأيام واختلاف الأديان أن تفصمها ، ولا غرو فقد تحمل حسان أن يضربه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالدرة فى سبيل جبلة عندما دافع عنه وأراد أن يقول كلمة الحق التى يشعر بها دون خوف أو وجل .

ونستطيع الآن أن نسأل هل اتصل حسان بملوك المناذرة كما اتصل بملوك الغساسنة فى جاهليته ؟ ان رأيى فى هذا الموضوع

وما تدل عليه النصوص أنه اتصل بهم وان لم يكن هذا الاتصال مستمرا كما كان عليه مع الغساسنة ، فلا شك أنه كان يسمع عن بلاط النعمان بن المنـذر ووفود الشعراء عليه واغداقه العطايا والجوائز الثمينة مقابل مدحهم له . ولم يكن حسان بأقل من هؤلاء الشعراء طمعا فى أن ينال مثل ما ينالونه . قال حسان : رحلت الى النعمان فلقيت رجلا ، فقال : أين تريد ؟ قلت : هذا الملك . قال : فانك ان جئته متروك شهرا ثم يسأل عنك رأس الشهر ثم أنت متروك شهرا آخر ثم عسى أن يأذن لك ، فان أنت خلوت به وأعجبته فأنت مصيب منه ، وان رأيت أبا أمامة النابغة فاظعن فانه لا شىء لك . قال : فقدمت عليه ففعل بى ما قال ، ثم خلوت به وأصبت مالا كثيرا ونادمته . فبينا أنا معه فى قبة اذ جاء رجل يرتجز حول القبة :

أنت أم تسمع رب القبـة   يا أوهب الناس لعنس صلبة
ضرابة بالمشـفر الأذبة   ذات نجاء فى يديها جلبـة

فقال النعمان : أبو أمامة ! فأذنوا له ، فدخل فحياه وشرب معه ووردت النعم السود ، ولم يكن لأحد من العرب بعيرأسود يعلم مكانه ، ، ولا يفتحل فحلا أسود . فاستأذنه أن ينشده فأنشده كلمته التى يقول فيها :

فانك شمس والملوك كواكب   اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

فدفع اليه مائة ناقة من الابل السـود ومعهـا رعاؤها ، فما حسـدت أحـدا حسدى النابغة لما رأيت من جزيل عطيته وسمعت من فضل شعره .

وجاء فى ديوان حسان اشارات فى قصائد له تدل على أنه زار المناذرة وذلك عندما يقول :

وأنا الصقر عنـــد باب ابن سلمى
يوم نعمان فى الكبـــول مقيم

فابن سلمى هو النعمان بن المنذر اللخمى ، ونعمان الذى فى الكبول هو نعمان بن مالك بن نوفل بن عوف كان حبسه النعمان ابن المنذر مع آخرين فوفد فيه حسان فى قومه فأطلقوا لهم .

وفى قصيدته التى يرد فيها على قيس بن الخطيم والتى أشرنا اليها من قبل ويثبتها القرشى كاحدى مذهباته يقول حسان مادحا النعمان بن المنذر :

أكلفها أن تدلج الليـــل كله
تروح الى باب ابن سلمى وتغتدى
تزور امرأ أعطى على الحمـد ماله
ومن يعط أثمان المحامد يحمـد
وألفيته بحـرا كثيرا فضـوله
جوادا متى يذكر له الخـير يزدد

وعلى هذا فليس من المستبعد أن يكون حسان قد وفد على النعمان ومدحه أو زاره زيارة شـاعرة لينـال عطاياه وان كان الديوان لا يضم قصائد أو مقطعات قالها فى مدحه .

حـ ـ حسان الشاعر الانسان :

هل استغرق فنا الفخر والمدح كل شعر حسان ، أم فرغ لنفسه بعض الأحيان .

لقد استطعنا أن نعرف بعض ملامح شخصية هذا الشاعر من خلال هذين الموضوعين اللذين يرتبطان بطبيعة الحياة الجاهلية والمجتمع القبلى العربى ، غير أن الشاعر حينما يفرغ لنفسه يتأملها ويتأمل الحياة من خلالها تظهر ملامح أخرى من شخصيته لا يظهرها الفخر أو المدح ، لأنه عادة يكون فى هذين الموضوعين شاعرا غيريا ، يعطى الآخرين ولا يعطى نفسه ، ويصف مشاعر الآخرين ، ولا يصف مشاعره اللهم الا اذا حاول أن يشارك فى أحداث الآخرين وفى هذه الحالة تذوب شخصيته فى شخصية الغير ويصبحان شيئا واحدا ، وهنا يعز على الباحث أن يفرق بين العنصرين ، كما يصعب عليه أن يضع يده على ذاتية الشاعر بمفردها .

ونحن لا نجد فى ديوان حسان قصائد أو مقطوعات أفردها الشاعر لنفسه يعبر فيها عن دخائلها ، ويصور فيها نوازعه ومشاعره ، ولكنا نجد هذه المقطوعات ضمن القصائد التى يكون فيها غيريا ، يمدح أو يفخر ، ويسلك فيها الشاعر مسلك السابقين عليه حينما يمهدون للموضوع الأصلى بمقدمات غزلية أو طللية ثم يتبعون ذلك بوصف للراحلة أو الطريق ، وقد ينتهون من موضوعهم الأصلى بنظرات فى الحياة أو حكمة تجرى على لسان الناس . ومن خلال هذه المقدمات وهذه النهايات يمكننا أن نبحث عن بعد آخر من أبعاد هذه الشخصية المخضرمة .

وربما كان أهم الموضوعات التى عبر فيها الشاعر عن أحاسيسه ومشاعره ، ورسم فيها صورة لنفسه من بعض جوانبها

الخفية علينا هى موضوعات الغزل والمقدمة الطللية ووصف الطبيعة عامة والخمر خاصة . وسنقف عند هذه الموضوعات باحثين عن ذات الشاعر وعن ملامح شخصيته لتكتمل لنا صورته الجاهلية كما كانت عليه .

١ — الغزل والمقدمة الطللية : ربما لم يعرف لحسان امرأة وله بهـا وغنى بجمالها فى شعره كما عرف لغيره من شـعراء الجاهلية ، وهو فى الوقت نفسه ليس كغيره من الشعراء الذين يشببون بنساء كثيرات ، انما يتكرر اسم شعثاء فى معظم قصائد الديوان ، ثم تليها عمرة . وكلا الاسمين فى رأى كثير من الرواة — وكما بينا من قبل — زوج له طلقها وأكثر من ذكرها فى شعره مشببا ونادما .

والمقدمة الطللية تمتزج بذكرى الحبيبة وأيام العشق الأولى وكيف ولت تلك الأيام بعد أن هجرته ودرست الأطلال .

أسألت رسم الدار أم لم تسـأل
بين الجـوابى فالبضيع فحومل
فالمرج مرج الصفريين فجاسـم
فديار سلمى درسـا لم تحلل
أقوى وعطل منهم فكأنـه
بعد البلى آى الكتاب المجمـل
دمن تعاقبهـا الرياح دوارس
والمدجنات من السماك الأعزل [1]

(١) المدجنات : الغيوم المطرة . السماك الأعزل : نجم .

فالعين عانيــــــــة تفيض دموعها
لمنــازل درســـت كأن لم توءل

وحبيبة حسان فى الجاهلية تعرف الشام وترحل اليه ، كما تعرف الحجاز وتنزل فيه ، وهى صفة يضيفها حسان الى صاحبته وكأنما تنفرد بذلك عن صويحباتها .

انظر خليلى ببطن جلق هــل   تؤنس دون البلقاء من أحــد
أجمال شــعثاء قد هبطن من   المحبس بين الكثبان فالســند
يحملن حورا حور المدامع الر   يط وبيض الوجــوه كالبرد
من دون بصرى ودونها جبل   الثلج عليه السحاب كالقــبدد

وقد يقف حسان حزينا ساهرا يبث الهوى ويشكو الفراق دون أن ينظر الى الأطلال أو يصف الدمن ، بل ينظر الى السماء يبحث فيها عن حب مفقود فتحتد نغماته وتشوبها حسرة ، وتعنف غنائيته وتكتسب شفافية . ان ليل الشاعر طويل ، يسهر ليرعى النجوم ولا يقربه النوم حتى يغيب آخر نجم فى السماء ولكنها نجوم بطيئة السير اذا غاب منها نجم فهناك أخرى لا تغيب :

تطاول بالخمان ليلى فلم تكن   تهم هوادى نجمه أن تصوبا
أبيت أراعيها كأنى مــوكل   بها ما أريد النوم حتى تغيبا
اذا غار منها كوكب بعد كوكب   تراقب عينى آخر الليل كوكبا
غوائر تترى من نجوم تخالها   مع الصبح تتلوها زواحف لغبا

وهو يخاف الفراق الذى يأتى بغتة فيفرق الأحبة على غــير انتظار ، وتشيب له الرأس على غير موعد . واذا حدث هذا الفراق

فالطبيعة كلها تمهد له ، فينعب الغراب ، وتجنح شمس النهار لتظلم الدنيا ، وتضيق الحياة به . ولكنه يلوم نفسه وكأنه يعزيها لأنه استسلم للهوى بعد أن لقى منه العذاب ، وحن الى الصبا وقد بلغ الأربعين . يقول :

أخاف فجاءات الفـــــراق ببغتة
وصرف النوى من أن تشت وتشعبا
وأيقنت لما قوض الحى خيمهـــم
بروعات بين تترك الرأس أشـــيبا
وأسمعك الداعى الفصيح بفــرقة
وقد جنحت شمس النهــار لتغربا
وبيّن فى صــوت الغراب اغترابهم
عشـــــية أوفى غصن بان فطربا
وفى الطير بالعلياء اذ عرضت لنـــا
وما الطير الا أن تمــــر وتنعبا
غداة انبرى قلبى ينازعه الهــوى
أنازع نفسى أن أقوم فأركبــــا
وكيف ولا ينسى التصــابى بعدما
تجاوز رأس الأربعين وجــــربا
وقد بان ما يأتى من الأمر واكتست
مفارقه لونا من الشيب مغـــربا

ولا يقف حسان كثيرا عند وصفه لجسم صاحبته على عكس ما يفعل أغلب الشعراء الجاهليين ، وان فعل ذلك فانما ليرسم

لها صورة سريعة وكأنه لا يعنيه الا وقع جمالها فى نفسه ، فهو مصور تأثرى أكثر منه مصورا واقعيا حسيا . يقول :

جنية أرقني طيفهـــا
يذهب صبحا ويرى فى المنـــام
هل هى الا ظبية مطفـــل
مألفها السدر بنعفى بـــرام
تزجى غزالا فاترا طـــرفه
مقارب الخطـــو ضعيف البغـام
كأن فاهـــا ثغب بارد
فى رصف تحت ظلال الغـــمام
شجت بصهباء لها ســـورة
من بيت رأس عتقت فى الخيـــام
عتقها الحانوت دهـــرا فقـــد
مر عليها فرط عـــام فعام
تدب فى الجسم دبيبـــا كما
دب دبى وسط رقاق هيـــام

ذلك هو تأثير صاحبته فى نفسه ، فهـو لا يصف مظهرها الخارجى كما يفعل امرؤ القيس مثلا وانما يصف تأثيرها فيه ، فهى كالغزال الصغير يثير فى نفسه الحنان لضعف جسمه وخفوت صوته ، وهى كالخمر تثير فى جسمه لذة الانتشاء والسكر ، وهى لذة عارمة كتلك التى تثيرها خمر معتقة دهرا طويلا .

٢ — الخمريات : الخمر مظهر من مظاهر الفتوة الجاهلية ،

فالسيد الحر الغنى هو الذى يشربها ويبذل ماله فى مجالسها ، وكان حسان فتى من فتيان الخزرج ، فليس عجيبا أن يكون متدلّها فى حبها ، مقبلا على منتدياتها ، مهينا ماله فى سبيلها .

وقد ارتبطت المقدمة الغزلية والطللية عنده بوصف الخمر وتأثيرها ومجالسها ، ويعتبر حسان أحد شعراء الخمر الجاهليين ، ويظهر أن تردده على بلاط الغساسنة بشكل منتظم أتاح له الفرصة ليصور فى شعره مجالس شربهم ، وأندية لهوهم .

ومن أخباره الطريفة فى هذا الشأن أنه دخل بيت خمار فى الجاهلية ومعه أعشى بكر بن وائل فاشتريا خمرا وشربا فنام حسان ثم انتبه ، فسمع الأعشى يقول للخمار : كره الشيخ الغرم . فتركه حسان حتى نام ثم اشترى خمر الخمار كلها ، ثم سكبها فى البيت حتى سالت تحت الأعشى . فعلم الأعشى أنه سمع كلامه فاعتذر اليه . وقد أشار حسان الى هذا الخبر فى قوله :

ولسنا بشرب فوقهم ظل بردة

يعدون للخمار تيسا مفصدا

وقد وقفنا فى عرضنا لزيارات حسان للغساسنة عند وصفه لمجالس خمرهم ومدحه لهم بهذه المكرمة الجاهلية وهى تقديم الخمر للأضياف . وقد برع حسان فى وصف الغناء واللهو اللذين يصحبان مجالس الشراب ، وكان حسان يحب هذا الغناء ويتعشق هذا اللهو ويعبر عن هذا كله فى شعره . وهنا نلمح عنصرا من عناصر شخصيته ، فهو رجل مرح مقبل على الحياة ، يغترف من

لذائذها كما تشتهى نفسه ، وينال من أطايبها ما يتفق وهواه . يقول معبرا عن كل ذلك :

رب لهـــو شهدته أم عمـــــرو
بين بيض نواعم فى الريـــــاط
مع ندامى بيض الوجـــوه كرام
نبهوا بعــــــد خفقه الأشراط
لكميت كأنهـــا دم جـــوف
عتقت من ســـــلافة الأنبـــاط
فاحتـــواها فتى يهين لهـــا الما
ل ونادمت صـــــالح بن عـــلاط
ظل حولى قيـــانه عازفـــات
مثــــل أدم كوانس وعــــواط
طفن بالكأس بين شــــرب كرام
مهدوا حـــر صـــالح الأنماط
ســـاعة ثم قال هن بـــــداد
بينكم غير سمعة الاختـــــلاط

هو اذن ينادى أم عمرو ليخبرها بأنه شهد مجلسا ممتعا للهو وسط غيد حسان قد ارتدين الثياب الشفافة البيضاء ، وقد نادم فيه أناسا كراما منهم صالح بن علاط وسهر معهم حتى الصباح . لقد أهانوا أموالهم فى هذه الخمر المعتقة الحمراء بعد أن افترشوا البسط ودارت عليهم القيان الحسان — المشبهات للظباء —

بالكئوس وهن يغنين ويعزفن وأخيرا وهبهم هذا الغنى القيان جميعا دون أن يكون قد اختلط عقله سكرا أو خبلا .

وتتكرر هذه الصور فى شعر حسان الجاهلى وكأنها ضرورة من ضرورات النظم يلتفت فيها الشاعر لنفسه ، ويصدق فى التعبير عن دخائله ويحسن فى تصوير ما يراه ، وهو فى كل ذلك عابث لاه ، يبحث عن اللذة ، ويطلب النشوة ، ويهين المال فى سبيل هذا كله ليحقق فى نفسه صورة الفتى الجاهلى فى احدى صفاته الأساسية .

ويخرج حسان بحكمة الحياة من هذه المنتديات ، فيعرف أن لا قيمة لشىء ، لأن كل شىء الى زوال ، فلماذا التفكير والارهاق وتعب النفس ، والانسان لن يكسب فى حياته الا اللذة الحاضرة ، فعليه اذن أن يطلبها فى كل وقت ويبحث عنها كلما اشتهى ذلك . يقول :

وممسك بصداع الرأس من سكر
نادبته وهـــو مغـــلوب ففدانى
لما صـــحا وتراخى العيش قلت له
ان الحيـــاة وان الموت مثـــلان
فاشرب من الخمـــر ما آتاك مشربه
واعلم بأن كل عيش صـــالح فان

٣ — الوصف : من الموضوعات التى عودنا الجاهليون أن يصفوها فى شعرهم — غير وصف الأطلال — وصف النوق والخيل وأدوات الحرب ، ووصف المسالك وقطعها وما يقابل فيها

المرتحل من صعاب ومن وحش وجن ، كذلك عودنا الجاهليون وصف مظاهر الطبيعة من سحاب وأمطار وسيول ثم أنواع النباتات الصحراوية بألوانها وعبيرها ومذاقها أيضا . وقد شغلت العصبية الجاهلية ومدح الملوك والأمراء حسان بن ثابت فى جاهليته عن أن يلتفت لمثل هذه الموضوعات ويستغرق فيها كما يفعل غيره من الشعراء ، ولكن اذا عرض لها فانما يعرضها عرض المقلد المتتبع لأصول نظم الشعر وترتيب موضوعاته .

وربما كان من الصور الجميلة التى رسمها حسان لاحدى مظاهر الطبيعة هى وصفه للنجوم وهو ما سبق أن بيناه . وقد سبق شعراء آخرون حسان فى رسم مثل هذه الصورة وبنفس الألوان والأبعاد والدلالة غير أنه يختلف عمن سبقه فى نوع التأثير اذ نراه فى بعض الأحيان يلجأ الى تلوين صوره بلون رومانسى حاد .

كذلك صورة أخرى عاشها حسان فى شعره وان كانت قليلة وهى وصفه للصيد ، والشعر الجاهلى ممتلىء بمثل هذه الصورة فهى عند امرىء القيس وأوس بن حجر ولبيد وزهير وكعب وغيرهم .

وصورة حسان مرسومة رسما سريعا — على عادته — فى معظم صوره — فهى لا تقف لتفصل ، وانما غايتها أن ترسم خطا واحدا له دلالات كثيرة ، ويمكننا أن نحيل القارىء الى مقطوعته التى تبدأ بقوله :

رب خرق أجزت ملعبه الجن معى صارم الحديد أباطى

الى أن يقول :

يوم رحنا وما يخاف خليلى ‏ ‏ ‏ ‏ من لسانى خيــانة الانبساط

وسنجد فيها أن سرعته لا تتيح له التأمل أو التخيل ولا تيسر له الوقت ليصور أحاسيسه المباشرة من خلال تفصيل جزئيات الصورة . لذلك فقد شعره أهم خاصة نجدها عند نوابغ الجاهليين وهى تلك النزعة الانسانية التى تنبض بها الأشــكال الفنيــة والموضوعات الحية فى هذا الشعر ، فحين نجد مثلا صور أوس وزهير ولبيد تنبض بالمشاعر الانسانية الجارفة فى قصص الصيد والحيوان نجد صور حسان جافة تقريرية فى معظمها كأنما ضعفت لديه قدرة الحس الانسانى الذى يربط بين مظاهر الوجــود ومكوناته وبين نفسه الشاعرة .

واذا أتينا لوصف حسان للسحاب والمطر فسنجد له أبياتا يقول فيها ان صاحبته بقيت فى منازلها صيفا حتى ظهر فى السماء سحاب له رعد وارزام ثم اجتمع هذا السحاب بعضه الى بعض واسودّ من امتلائه بالماء وأصبح قريبا من الأرض ، ثم اشتد برقه وانهمر ماؤه ، واختلف صوته وأصبح كأصوات الابل التى تحن الى أولادها .ولقد أوشك رعده من شدته فى وادى العقيق أن يهدم هضبة جماء فجرفت مسايل الماء التى كونها أشجار الشوك أمامها ، ولما رأت صاحبته وقومها ذلك تنادوا بليل وارتحلوا . وهــذه الصــورة تذكرنا بأبيات كل من امرىء القيس وأوس بن حجر فى وصف البرق والمطر ، ونشعر أن حسان استفاد من

الشاعرين ، واستطاع أن يرسم صـــورته معتمدا عـــلى خطوط صورتى الشاعرين . يقول حسان :

أقامت به بالصيف حتى بدا لهـــا
نشاص اذا هبت له الريح أرزمـــا
فلما دنت أعضـــــــاده ودنا له
من الأرض دان جـــوزه فتحمحما
تحن مطافيل الرباع خـــــــلاله
اذا استن فى حافاته البرق أثجمـــا
وكاد بأكناف العقيق وئيـــــــده
يحط من الجمـــــاء ركنا ململما
فلما علا تربان وانهـــــل ودقه
تداعى وألقى بركه وتهـــــــزما
وأصبح منه كل مدفع تلعـــــــة
يكب العضـــــاة سيله ما تصرما
تنادوا بليل فاستقلت جمـــوعهم
وعالين أنماط الدرقل المرقمـــــا

يمكننا أن نقول اذن ان صـــور حسان مشبعة بصور من عاصروه كأوس وزهير ولبيد أو من سبقوه كامرىء القيس ، فالألوان والأصوات والحركة فى صوره تراث منقول الى شعره ، واذا كان قد تفوق أوس ولبيد عليه فى تفصيل الصورة وتركيبها واكسابها الاحساس الذاتى والنزعة الانسانية وفاقه امرؤ القيس فى قدرته على نقل الواقع بتفاصيله وربطه بصور جزئية بسيطة

متلاحقة فقد استطاع حسان أن يفوق هؤلاء فى أنه نجح فى أن يربط هذه الموضوعات الوصفية بالموضوع الأصلى فى القصيدة فيكسبها بذلك وحدة تنقص قصائد كثير من شعراء الجاهلية .

من هذا الفصل وبعد هذا العرض يمكننا أن نلخص الصفات العامة لشخصية حسان بن ثابت فى اطارها الجاهلى .

* * *

وكما رأينا يمكننا أن نحدد هذه الصفات فى ملامح ثلاث ، لها تأثيرها فى تكوينه النفسى والمادى . وهى :

١ — ارتباطه الوظيفى بعصبيته القبلية .

٢ — ارتباطه الحيوى بمصادر الثروة فى الامارات الشمالية .

٣ — ارتباطه الفنى نحو ذاته والتعبير عن فرديتها .

أما الارتباط الأول فقد فرضه وضعه وموهبته فى مجتمعه القبلى لأن معارك القبيلة ومشاجراتها أساس من أسس تركيبها الاجتماعى ، وضرورة من ضرورات حياتها اليومية ، ولم يكن الشاعر بأقل من الفارس فى أهمية وظيفته الاجتماعية فى قبيلته ولا سيما اذا أثبت كفاءة فى مناقضة الشعراء المنافسين ، وموهبة فى التفوق عليهم فنيا ، وكان أكثر ما يهتم به الشاعر أن يلم بأخبار قومه وأخبار أعدائهم ، ثم أن يلم بأنساب الاثنين معا ليستطيع أن يبحث عن الأمجاد والمآثر ، وشرف النسب ونقاء الدم .

وقد نجح حسان فى أن يقوم بواجب وظيفته ، وأن يحقق لقومه انتصارات اعلامية تشيد بالأمجاد وكل ما يمكن أن يفخر

به الخزرج ، وفى نفس الوقت يغطى هزائمهم وكل ما يمكن أن يشين وضعهم الاجتماعى .

وقد أكسبت حسان هذه الوظيفة عنفا فى شخصيته ، وتهورا فى طبيعته وهما الصفتان اللتان تلزمان الشاعر القبلى حتى يستطيع أن يدافع عن عصبية القبيلة وأن يكافح فى سبيل بقائها ؛ ولقد دفعه هذا العنف وذلك التهور الى أن يطلق امرأته عمرة بنت الصامت — وكان يحبها حبا شديدا — لأنها كانت قد عرضت بأخواله ثم ندم بعد ذلك وعبر عن هذا الندم مرات كثيرة فى شعره . وسوف نجد أثر هاتين الصفتين أيضا عندما تتطور شخصيته فى الاسلام .

وقد كان لسان حسان حادا وسخريته شديدة ، وكلا الصفتين تلزم أيضا وظيفته القبلية .جاء أن الحطيئة وقف على حسان وحسان ينشد من شعره فقال له حسان وهو لا يعرفه : كيف تسمع هذا الشعر يا أعرابى ؟ قال الحطيئة : لا أرى به بأسا ! فغضب حسان وقال : اسمعوا الى كلام الأعرابى ، ما كنيتك ؟ قال : أبو مليكة . قال حسان : ما كنت أهون علىّ منك حين كنيت بامرأة !

ويقول ساخرا فى هجاء خصومه :

لا عيب بالقوم من طول ومن عظم
جسم البغال وأحلام العصافير

كما يقول فى سخرية ضاحكة هاجيا قبيلة جذام :

لعمر أبى سـمية ما أبالى أنب التيس أم نطقت جذام
اذا ما شاتهم ولدت تنادوا أجدى تحت شاتك أم غلام

وسوف نجد أن سخريته هذه وحدة لسانه سوف يستغلها استغلالا رائعا فى الاسلام عندما يقف مناقضا لشعراء المشركين . ويظهر أن حسان شارك بسيفه أيضا فى حروب قومه كما شارك بشعره ، وقد تسبب ذلك فى قطع أكحل يده كما أشرنا من قبل ، وقد جعله ذلك يحجم عن المشاركة فى غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم فيما بعد .

كان حسان اذن وبهذه الصورة صحيفة الخزرج اليومية ، وقد نجح فى تسجيل ونشر ما يرفع من شأن قومه وما يشبع من كبريائهم وغطرستهم القبلية .

وقد كان لدوره هذا أثر فى نجاحه فيما بعد فى احتلال مركز شاعر المسلمين المنافح عن رسولهم بعد أن خبر هذا الدور وتدرب على مشاقه ما يقرب من أربعين عاما نظم فيها الشعر فى جاهليته .

أما ارتباطه الحيوى بمصادر الثروة فى الشمال فقد كان ذلك طبيعيا من ناحيتين أولاهما رغبته فى التكسب لأن ماله فى القبيلة قليل على كثرة ما أعطاه قومه وكان يرى شعراء القبائل الأخرى لا يقتصرون فى هذا الوقت على أسهمهم فى قبائلهم وانما يلجأون الى الامارات الشمالية ليزيدوا من ثرواتهم . أما الناحية الأخرى فهى أنه عندما كان يلجأ الى الغساسنة لم يكن كغيره من الشعراء المادحين الذين يدبجون القصائد وهواهم كله أن ينالوا المال بقدر ما يبالغون فى تصوير ممدوحيهم وانما كان يلجأ الى ذوى

قرباه ، فاذا مدحهم فهذا فخر لنفسه ، واذا رفع من شأنهم فهذا تمجيد لقبيلته ، واذا أشاد بأنسابهم ، فهذا تزكية لأصله اليمنى وهنا نجد مدائح حسان تختلف عن غيرها عند الشعراء الآخرين ففى كل مكرمة يضيفها للغسانيين افتخر بها ، وكل فضيلة وصفهم بها هلل لها لأنها احدى فضائل قومه ، وهذا ما وضحناه عندما عرضنا قصيدته فى مدحهم التى منها :

سألت حسان من أخـــواله ... انما يسأل بالشىء الغمـــر
قلت أخوالى بنـــو كعب اذا ... أسلم الأبطال عـورات الدبر

الى أن يقول :

منهم أصـــــلى فمن يفخر به ... يعرف النـــاس لفخر المفتخر
نحن أهل العـــز والمجد معا ... غـــير أنكاس ولا ميل عسر
فسلوا عنا وعن أفعالنـــــــا ... كل قوم عنـدهم علم الخبر

اذن امتزج المدح بالفخر عند حسان وبذلك اختلف حسان فى مدائحه عن غيره من الجاهليين الذين كانت قصائدهم يستغرقها المديح كله الا من مقـدمة طللية أو غزلية أو وصف للطريق أو للراحلة .

لذلك أيضا نجد أن مديح حسان تسوده نزعة خطابية على خلاف طبيعة هذا الفن . فالنزعة الخطابية من شأن الفخر وليس المدح ، ولكن امتزاج الموضوعين عند الشاعر أشاع هذه اللهجة فيهما معا .

ونستطيع أن نعمم قليلا اذا قلنا ان مدائح حسان للغسانيين استمرار لفخره القبلى ، وتعبير عن عصبيته اليمنية .

وقد كانت هـذه العصبية اليمنية هى التى جعلت الخزرج والأوس معا عندما يتعرضون لخطر دائم من جيرانهم من اليهود يستعينون بالغساسنة الذين كانوا لا يتأخرون فى تلبية استغاثتهم كما تشهد بذلك الأحداث . فالغساسنة هم الذين ساعدوا القبيلتين على دخول يثرب فيها بعد أن كانت القبيلتان تنزلان فى أول الأمر فى خارجها ، ثم كان الغساسنة هم الذين ساعدوا القبيلتين على أن يفرضا سيطرتهما على المدينة وأن يزعزعا من مركز اليهود فيها لذلك كان حسان يعتبر الغساسنة الدرع الواقى له ولقومه . وكانت زياراته السنوية لهم عنوانا للصلة الوثيقة التى تربطه بهم ، والتى يحرص على توطيد عراها هو وقبيلته .

ولم نستطع أن نعرف اللهجة التى كان يمدح بها المناذرة ، فما وصل من شعره فى مدحهم نادر ولا يصور شيئا ، وان كنا نحس بنبرة الفخر أيضا عندما أطلق له النعمان بن المنذر بعض أفراد قومه الذين كانوا فى أسره ، وكأن النعمان بذلك يريد أن يكسب جانبه ، ويرغب فى أن يضمه الى بلاطه ، وبذلك يفقد أعداءه الغساسنة سلاحا من أسلحتهم .

ولقد أتاحت زيارات حسان للشمال أن يطلع عـلى مظاهر أكبر حضارتين موجودتين فى عهده : الرومانية والفارسية ، ولقد نقل بعض مظاهر هاتين الحضـارتين فى شـعره كما كان يراها متمثلتين فى الامارتين الخاضعتين لهما ، وكان لما رآه أثر فى اثراء صوره ، واكسابها ألوانا جديدة لم تكن تتح له أو لغيره وخاصة مجالس الخمر والغناء وحسناوات الرومان فمن الأوصاف الجديدة

حديثه عن الجبال التى تكسوها الثلوج عندما كان يمدح عمرو ابن الحارث يقول :

من يغر الدهـــــر أو يأمنه ... من قبيـــل بعد عمرو وحجر
ملكا جبـــل الثـــلج الى ... جانبى أيلة من عبد وحـــر

كذلك وصفه لحسناء شاهدها فى الشمال :

وحلفت لا أنسى حديثـك ما ... ذكر الغوى لذاذة الخمـــر
ولأنت أحسن اذ برزت لنـــا ... يوم الخروج بســاحة القصر
من درة أغلى الملوك بهـــا ... مما تربب حائر البحـــر (١)

وأيضا وصفه لأنهار الشمال حينما تصفق مياهها فيقول :

يســـقون من ورد البريص عليهم
بردى يصفق بالرحيـــق السلسل

وقد يكتسب شعر حسان شيئا من الرقة والليونة دون أن يفقد متانة التركيب وجزالة اللفظ وذلك عندما يصف مجالس الخمر وندمائها وحسناواتها فيعبث ويتدلل كأن يقول :

ان التى ناولتنى فرددتهــــــا
قتلت — قتلت — فهاتها لم تقتــل

نعم ! انه يدعو على الساقى عابثا أن يقتل كما قتل الخمر بمزجها بالماء لأنه يريدها صافية معتقة ، وهى رقة لم تكن ميسرة لغيره ممن لم يشهدوا ما رآه .

وسوف نجد أثر تمرس حسان بفن المدح فى مدحه للنبى

---

(١) قوله تربب حائر البحر يعنى الدرة التى يربيها الصدف فى قاع البحر . والحائر : مجتمع الماء .

صلى الله عليه وسلم وللمسلمين عندما يدخل فى دين الله ، ويصبح شاعر الرسول عليه السلام .

بقيت النقطة الأخيرة فى هذا الموضوع وهى ارتباط حسان الفنى بذاته وكيف استطاع أن يعبر عن فرديته بكل كوامنها ، وأن يحقق لها انطلاقها من ربقة هذا الاتجاه الغيرى فى فخره القبلى ومدحه الغسانى .

قد يعترض معترض ويقول ان فخر حسان القبلى تعبير عن ذاته ، ومدحه للغساسنة مواصلة فى التعبير عن هذه الذات ، ونحن لا ننكر ذلك ، فقد بيّنا أن ذاته امتزجت فى هذين الموضوعين وأصبح تعبيره عن قبيلته تعبيرا عن نفسه . ومدحه للغساسنة تمجيدا لهذه النفس ، ولكننى أريد هنا أن أوضح مدى ما استطاع حسان أن يثيره من كوامن نفسه دون الاعتماد على هذين الموضوعين ، وكيف استطاع أن يفعل ذلك لأن فى تفسيرنا لهذا اضافة لعنصر من عناصر هذه الشخصية التى نعرض لها بالتحليل والدراسة .

لقد وضحت أن المقدمة الطللية الغزلية ثم الوصف هما المثيران اللذان يمكن أن يفجرا فى الشاعر القديم مكنون انفعالاته ، وأن يوضحا رأيه فى الناس والحياة . ومثل كل شاعر ، وجدنا أن التراث الفنى السابق عليه قد أمده بتقاليد يخضع لها دون ارادته ، ويحمل فنه بها دون أن يكون له دخل فى ذلك ، لأننا نلمح حدائق امرىء القيس وأوس بن حجر وزهير ولبيد وغيرهم من الشعراء تلقى ظلالها على شعره وتشيع عبيرها فى أريجه .

واذا كانت زوجتا حسان عمرة وشعثاء قد حجبتا عنا صور النساء الأخريات اللائى قد يكن قد التقين بحسان وأثرن فى نفسه وشعره فان هاتين المرأتين استطاعتا أن تشغلا حسان بسبب حبه لهما وانفصاله عنهما ، وأن يشغلا أيضا معظم قصائده ، يبثهما فيها نشوة الحب والجوى ، ويعبر فيها أيضا عن ألم الفراق والهجران ، فها هو ما زال يرجو لقاء شعثاء ولو بعد لأى ، ويعدها بأن يهدى لها كل عام قصيدة يذكرها فيها :

تلاق بعيد واختلاف من النـــوى
تلاقيكها حتى توافى موســـــما
سأهدى لهـــا فى كل عام قصيدة
وأقعد مكفيا بيثرب مكرمـــــا

أما اذا بحثنا عن فتاة أخرى غير زوجتيه يكون قد ذكرها فى شــعره ، فسوف نجد واحدة تسمى ليلى ، قد نأت بديارها ، وهمت بقطع ما بينه وبينها من حب ، غير أن حسان حريص على حبه ، متمسك به ، فهو باق على العهد ، محافظ عليه ، واذا كان الواشون قد حاولوا أن يوقعــوا بين الاثنين فقد أخطأوا فيما تقولوا به وما أضافوه اليه ، ويكفى أن تسأل فتاته عنه النـــاس لتعلم حقيقته ، وتفهم مخبره . يقول :

فان تك ليــــــلى قد نأتك ديارها
وضنت بحاجات الفـــــؤاد المتيم
وهمت بصرم الحبــل بعد وصاله
وأصغت لقول الكاشــــح المتزعم

فما حبلنا بالرث عنـدى ولا الذى
يغـــيّره نأى ولــو لم تكلم
وما حبها لو وكلتنى بوصـــله
ولو صرم الخـــلان بالمتصرم
لعمر أبيـك الخير ما ضاع سركم
لدى فتجزينى بعـــادا وتصرمى
ولا ضقت ذرعا بالهوى اذ ضمنته
ولا كظ صـدرى بالحديث المكتم
ولا كان مما كان مما تقـــولوا
عـلىّ ونثّوا غير ظن مرجم (١)
فان كنت لما تخبرينى فســائلى
ذوى العلم عنـا كى تنبى فتعلمى

واذ كان وصف الطبيعة — الحية والجامدة — يتيح للشاعر أن يعكس نظرته الى الحيـاة على هذا الموضوع ، أو يسمح لطبيعته الخـلاقة أن تتمثل الجمـال المطلق من خلال جزئيات الكون ، فان الشاعر الجاهلى ما كان بمادية ارتباطه بالطبيعة ، وحسية تصويره للأشياء بمستطيع أن يطلق تذوقه من قيود النظر فى جزئيات الطبيعة والتمتع بجمالها النسبى الى آفاق التجريد المعبر عن فلسفات الحق والخير والجمال ، لذلك تحددت النزعة الانسانية عنـد الشـعراء الجاهليين بتلك الأطر التى تمنع من

---

(١) نثوا : نشروا ، أشاعوا .

الانطلاق والشمول ، وأعنى بها قيــود الحس المباشر والمادية القريبة منه

ويختلف الجاهليون فى رؤاهم الشعرية ومصادرها ، فيعتمد أكثرهم عــلى تمثل الحياة اليومية وما توحى به عناصرها من دلالات عامة ، فاتساع المرعى وكثرة الكلأ يرتبط عندهم بخصوبة الحياة واستمراء السعادة ، وجفاف الأرض ونضوب الآبار يدفعهم الى التعبير عن الهجــر والرحيــل وما يخلفانه من أسى ولوعة وضياع ، أما القليل فيقف عنــد مفارقات الحياة ليبين موقف الانسان منها . وقد نجح حسان فى أن يغرف من المصدرين ، فتنوعت رؤاه ، وتحققت له بذلك نغمة الشاعر الغنائى الأصيل .

وكان حسان قادراً على تحميل لغته رؤاه الشعرية ، فلم ينبُ به لفظ ، ولم يتعثر عنده تعبير . كذلك كانت موسيقاه سليمة متفقة فى عنفها أو رقتها مع الموضوع الذى ينظم فيه .

ذلك حسان فى الجاهلية : قبلى" مادح" فنان !

القسم الثاني

حسّان في الإسلام

الفصل الأول

يثرب والثورة الفكرية الجديدة

استمرت الأحوال الاجتماعية بيثرب مضطربة بسبب الحروب الطاحنة التى كانت تنشب بين قبائل الأوس والخــزرج أو بينها وبين قبائل اليهود ، أو بين احداها وقبائل أخــرى من خارج المدينة ، ولم يكن اليثربى يأمن على نفسه أو أسرته أو ماله اذا خرج من حصنه ، فخمد النشــاط الاجتماعى والاقتصادى فى المدينة ونزل الضيق بالناس ، وأصبحوا يتطلعون الى معجزة يمكن أن ترجع الحياة المزدهرة الى المدينة ، وأن تجعلها تنافس مرة أخرى مكة التى فاقتها استقرارا ورواجا بسبب استتباب الأمن بها وازدهار النشاط الاقتصادى فيها .

وبعث النبى صلى الله عليه وســلم فى مكة ، ولاقى هــو والمسلمون الأوائل ضغطا شديدا من المشركين ، وعذابا قاتلا من قريش التى وقفت ضد هذا الدين الجديد . ولم تكن يثرب تبعد عن مكة كثيرا ، كما كانت للرسول علاقة قوية تربطه بها قبل

البعثة . ففيها أخوال جده عليه السلام [1] ، وكانت أمه آمنـة بنت وهب رضى الله عنها الزوج الوفية — تحج مع عبد المطلب الى يثرب لزيارة قبر زوجها — والد الرسول صلى الله عليه وسلم [2] — وقد صحبها الرسول الى هـذه المدينة وهو فى السادسة من عمره ، فزار معها قبر أبيه ، ثم قفلا عائدين ، وفى الطريق مرضت آمنـة رضى الله عنها وماتت ودفنت بالأبواء فى منتصف الطريق بين يثرب ومكة . فلا عجب أن تكون هجـرة الرسول الى هـذه المدينة التى يرتبط بها بذكرياته ومشاعره وذوى قرباه .

وكانت هنـاك عوامل دفعت سكان يثرب الى أن يستبقوا غيرهم فى الدخـول فى دين الله أفواجا ، وأول هـذه العوامل مجاورتهم لليهود أصحاب الديانة السماوية ، العارفين بأخبـار الرسالات السابقة ، وكان اليهود يتحدثون دائما عن رسول يظهر ويبشر بدين يشبه دينهم ، وكانوا يؤملون أن يكون هذا الرسول من بينهم ، لذلك كانت يثرب بسكانها من العرب واليهود أرضا خصبة للدين الجديد ، وبيئة معدة اعدادا روحيا لتقبل الرسالات السماوية .

غير أنه ليس من السهل أن يكون هذا العامل هو الذى دفع أهل يثرب الى الدخول فى الاسلام فحسب وخاصة أن انتشار

---

(١) أم عبد المطلب بن هاشم : سلمى بنت عمرو من بنى النجار من الخزرج .

(٢) كان والد الرسول عليه السلام قد مرض فى الطريق أثناء رجوعه من تجارة لقريش بالشام ثم توفى بالمدينة ودفن بها .

الاسلام فى يثرب لم يلق مقاومة تذكر بجانب المقاومة التى لاقاها فى مكة والتى لم يتم دخول كل أهلها فى دين الله الا بعد فتحها .

اذن لا شك أن هناك عوامل أخرى ساعدت على سرعة انتشار الدين الجديد . ويمكن أن نجد هذه العوامل فى الظروف الاجتماعية التى كانت تعيش فيها هذه المدينة قبل الاسلام ويفسرها الالتقاء الذى تم بين الرسول عليه السلام وبين وفود هذه المدينة فى العقبة الأولى والعقبة الثانية .

لقد عرفنا فى القسم الأول من هذا الكتاب الصراع القبلى العنيف الذى كان يضطرم أوراه بصورة دائمة فى قبائل يثرب والذى شارك فيه شعراء هذه القبائل ، وكيف كانت هذه القبائل تلتمس الحلف فى قبائل العرب الأخرى طلبا للنصرة منها والعون ، فمنها من كان يستجيب لهم ومنها من كان يرفض أن يزج بنفسه فى حرب لا يعلم نتيجتها . وكان مندوبو قبائل الأوس والخزرج يخرجون الى القبائل للبحث عمن يتقبل التحالف معهم ونصرتهم . ونجد فى سيرة ابن هشام أول احتكاك بين هؤلاء المندوبين وبين الرسول صلى الله عليه وسلم . فقد حدث قبل بيعة العقبة الأولى أن قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل — من الأوس — فيهم اياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قبيلة الخزرج ، وسمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم ودعاهم الى الاسلام وتلا عليهم القرآن . فقال اياس وكان غلاما حدثا : أى قومى ! هذا والله خير مما جئتم له . فرمى أبو الحيسر أنس بن رافع وجه اياس

بحفنة من تراب وقال له : دعنا منك فلعمرى لقد جئنا لغير هذا . نصمت اياس ورحلوا الى المدينة ثم كانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج [1] .

كان هذا أول لقاء بين أهل المدينة والرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان الرسول عندئذ لم يشتهر أمره ولم تظهر قوته ، ولكن سرعان ما شاع أمره فى القبائل وقوى جانبه بكثرة أتباعه وصمود أنصاره . ثم التقى مرة أخرى بوفد من أهل يثرب وهنا نجد أهل يثرب يجدون فيه الرجـل الذى يستطيع أن يصنع المعجزة ويشيع الأمن والسلام فى مدينتهم المتطاحنة .

كان خبر هذا اللقاء عندما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موسم من مواسم العرب — كما كان يفعل دائما — ليعرض نفسه على قبائل العرب ، فبينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج فسألهم صلى الله عليه وسلم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخـزرج ، قال : أمن موالى يهـود ؟ قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه صلى لله عليه وسلم وعرض عليهم الاسلام . وعندئذ تذكروا قول اليهود لهم ان نبيا قد حان وقت بعثه وقد أطل زمانه وسيتبعونه ليقتلوهم كما قتلت عاد وارم . فلما كلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم الى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلموا والله انه للنبى الذى توعدكم به يهود . فلا تسبقنكم اليه . فأجابوه عليه

---

(١) سيرة ابن هشام ١ : ٦٩ . ويقال ان اياس مات بعد ذلك مسـلما .

السلام فيما دعاهم اليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام ، وقالوا : انا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم الى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك [١] . ثم قدموا المدينة وذكروا أمر هذا النبى الجديد ودعوهم الى الايمان به حتى اذا كان العام القادم وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا فلقوه بالعقبة فكانت البيعة الأولى .

تلك هى نظرة الأوس والخزرج الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول الأمر ، فهم يرجون أن يجمع الله شملهم به ، وتخمد الفتنة الناشبة بينهم بقيادته ، وهو الذى يدعوهم الى الأخوة والسلام ، ويستطيع أن يملأ الفراغ الذى كان يشعر به سكان يثرب فى الرئاسة غير المتحيزة ، وفى العقيدة التى تقف ضد عقيدة اليهود ، وفى التنظيم الداخلى لمدينتهم بعد أن سادها الاضطراب ، وعمها الشعور بفقدان الأمن اليومى ، اذ لم يعد الرجل منهم يدرى أيثأر اليوم منه أم من غيره .

يقول فلهوزن ان الأحوال السياسية فى المدينة كانت مواتية للرسول صلى الله عليه وسلم ففى مكة كان يسود الهدوء والنظام ، وكانت العوامل التى تربط بين الجماعة تؤدى وظيفتها على نحو مرض ، ولذلك أحس المكيون بأن الشىء الجديد الذى أراد

---

(١) سيرة ابن هشام ١ : ٧١ .

النبى أن يدخله فى مكة يهدد حياتهم ويكدر صفوها فعملوا على القضاء عليه . أما فى المدينــة فقد انقسمت الجمــاعة فيها الى معسكرين متعاديين هما الأوس والخزرج ، فكان القتل والسفك شيئا مألوفا ، ولم يكن أحد يجرؤ على الخروج من حيه دون أن يعرض نفسه للخطر . وسادت المدينة حال من قلة الأمن جعلت الحياة فيها غير ممكنة ، فكانت الحاجة ماسة الى رجل يدخــل الفرجة المفتوحة بين الفريقين ويقضى على الفوضى ، ولم يكن هناك بد من أن يكون رجلا محايدا لا تشوبه شائبة التورط فى المنافسات الداخلية بين القبيلتين . لذلك جاء النبى من مكة فى الوقت المناسب وكأنما نودى لذلك . ولما كانت لحمة الدم قد فشلت فى أن تكون رباطا يؤلف بين الناس فقد كان هناك أمــل قوى فى أن تحقق ذلك العقيدة (١) .

ونستطيع أن نلمح عاملين آخرين فى تقبل يثرب للدين الجديد أولهما يتضح عن قول أحد الخزرج الذين قابلهم الرســول : يا قوم والله انه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا تسبقنّــكم اليه ، فقد كان اليهود قد رسّخوا فى أذهانهم أن النبى آت لا ريب وسوف ينضمون اليه لينتقموا من كلا القبيلتين .

خاف اذن عرب يثرب أن يجد اليهود فى الرسول صلى الله عليه وسلم حليفا كما كانوا يقولون فيزداد اليهود بذلك منعة ، ويزداد موقف الأوس والخزرج ضعفا لذلك وجــدوا أن من مصلحتهم أن يسبقوا اليهود فى أن ينضموا الى صفوف رسول

---

(١) قيام الدولة العربية لفلهوزن ٦ ــ ٧ .

الله صلى الله عليه وسلم وأن يدخلوا فى دينه قبل غيرهم . وما كانوا يعلمون أن اليهود لن يؤمنوا أبدا بدعوته صلى الله عليه وسلم رغم علمهم بنبوّته وتبشيرهم بها وفيهم جاء قوله تعالى « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » [1] .

أما العامل الآخر فيتضح من دراسة اثبات أسماء وفود يثرب قبل العقبة الأولى ثم فى العقبة الأولى والعقبة الثانية .

كان الوفد الذى قابل الرسول صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة الأولى مكونا من ستة نفر جميعهم من الخزرج [2] ثم كانت العقبة الأولى ووفد فيها على النبى اثنا عشر رجلا عشرة من الخزرج واثنان من الأوس ، أما فى العقبة الثانية فسنجد أن من وفد فيها اثنان وستون رجلا من الخزوج وأحد عشر رجلا من الأوس ، كذلك وفدت امرأتان من الخزرج . وكان اختيار النقباء بعد العقبة الأولى تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . وهنا نلاحظ رجحان كفة الخزرج فى السبق الى الاسلام واهتمامها بأمره ، ويمكن أن نرجع ذلك الى سببين أولهما خروجها منهزمة من حرب بعاث فكان هذا دافعا لها أن تبحث عن مجال جديد تسد به رمق الهزيمة ، ورغبة فى الوصول الى عنصر آخر من خارج المدينة يهبها القوة والمنعة بعد أن تكاتف اليهود والأوس ضدها فى حرب

---

(١) سورة البقرة .

(٢) سنعتمد فى هذه الاحصاءات على سيرة ابن هشام .

بعاث ، أما السبب الآخر فقد كانت تتخيل أنها سوف تجد فى رسول الله صلى الله عليه وسلم نصيرا موثوقا به فهو ليس بغريب عليها لأن أخواله منها ونسبه فى بنى النجار مرتبط بأقوى بطونها .

واذا كانت هذه العوامل وغيرها قد ساعدت فى انتشار الاسلام فى يثرب فى أول الأمر فلا شك أننا نوقن بأن هذه العوامل اختفت بعد ذلك وأصبح هذا الدين الجديد هو الذى يربط القبيلتين الكبيرتين وهو الذى يدفعها لنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويجعلها تتسابق فى الاستشهاد فى سبيل نشره والحفاظ عليه .

كانت مدينة يثرب اذن مفتوحة للرسول صلى الله عليه وسلم ، فانتشر فيها الاسلام بسرعة بل وبأسرع من أن يتيح لليهود فرصة تدبير المؤامرات لعرقلة اكتساحه . وقام مصعب بن عمير الذى أوفده الرسول صلى الله عليه وسلم الى أهلها ليقرئهم القرآن ، ويفقههم فى الدين بمهمته خير قيام ، وأخذت الهجرة تتحول من الحبشة الى مدينة الرسول ، وهو الاسم الجديد ليثرب ، وأخذ المجتمع فى هذه المدينة يتغير تغيّرا جوهريا ، وتتحدد له معالم حياة جديدة تختلف اختلافا تاما وعظيما عن معالمه فى الجاهلية .

ان أول تغيير حدث فى اسم يثرب ، لأن التثريب فى اللغة هو التعيير والتخليط ومن ثم أصبح اسمها الجديد مدينة الرسول ، ولم يكن هذا التغيير ظاهريا فقط ، وانما شملها من الجذور ، فان المؤاخاة التى حققها الرسول بين المهاجرين وأهل المدينة هى أهم

ما أسس عليه الرسول دولته الجديدة ، وأروع عمل قام به الاسلام فى عهده ، كما أن هذه المؤاخاة هى أعظم دليل على قدرة الرسول فى تغيير النفسية البشرية من أسوأ طبيعة لها الى أجمل صورة يمكن أن تكون عليها ، لذلك لم يعد الرسول يفرق بين القبيلتين تفريقا قبليا ، وانما أسماهم جميعا اسما واحدا هو الأنصار .

ولقد تغير نتيجة لهذا ميزان القوى فى المدينة ، كانت القوة والسيادة لليهود بعد حرب بعاث فأصبحت للأنصار بعد الهجرة وبعد دخول القبيلتين الكبيرتين فى الاسلام وكانت الحياة قبل الاسلام تسير على قوانين العرف والتقاليد والحق للقوة فأصبحت بعد الاسلام تسير على قوانين الشريعة الاسلامية والحق لصاحب الحق .

خمدت اذن نيران الحروب القبلية بين القبيلتين فى مدينة الرسول ، ولم يعد الشعراء يجدون موضوعا آخر ينظمون فيه ويعبرون عن ذواتهم من خلاله كما كانوا يفعلون فى الجاهلية ، غير أن قريشا سرعان ما خلقت لهم الموضوع الجديد وذلك عندما أخذ شعراؤها فى هجاء الرسول والمسلمين .

ولم يسكت الأنصار ، وطلبوا الاذن من الرسول فى الرد عليهم ، فأذن لهم واذا بالألسنة التى حبست مدة فى حلوقها تخرج لترد على شعراء المشركين ، ونشبت بذلك المعركة الفنية التى استمرت نيرانها مشتعلة حتى يوم فتح مكة ودخول العرب جميعا

فى دين الله أفواجا وكان حسان بن ثابت الفارس المعلم فى هـذه المعركة الفنية .

وقد وضع الرسول للمسلمين واليهود فى يثرب عقب هجرته نظاما جديدا يضمن به الاستقرار والأمن فى المجتمع الجديد . وقد حفظت لنا الأيام كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم الذى يوضح هذا النظام . يقول عليه السلام فى أوله : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب محمـد صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهـد معهم [1] .

وأهم ما يظهر فيه أن أهل المدينة أصبحوا منذ ذلك الحين أمة واحدة ، غير آن الأمة فى هذا الكتاب لها صبغة دينية . يقول فلهوزن [2] : هى جماعة الله التى ترعى مبادىء الاسلام ومبادىء حماية الجار ونصرة المظلوم ، والله تعالى هو الذى يشرف عليها ، ومحمد عليه السلام يشرف عليها باسمه ، والايمان هو رباط الاتحاد ، والمؤمنون هم ممثلو معناه ، وهم أول من يجب عليهم الوفاء للاتحاد ، وفى الوقت نفسه أول من يتمتعون بالحقـوق التى يخولها ، والأمة لا تشتمل على المؤمنين بل هى أيضا تتألف من كل من يتبعهم ويحارب معهم ، أى من كل أهل المدينة ، والأمة لها منطقة من الأرض اجمالية ، فكل جوف المدينة ينبغى أن يكون حرما وأرض سلام لا يعتدى فيها أحد على أحد . وكان

(١) أنظر نص الكتاب فى سيرة ابن هشام ٢ : ١٤٧ ــ ١٤٩ .
(٢) تاريخ الدولة العربية ١٢ ــ ١٣ .

بين الأنصار فى أول عهدهم قوم مشركون ولكنهم لم يستبعدوا من الأمــة بل أدمجوا فيها بنص صريح ، وكذلك شملت الأمة اليهـــود وان كانوا لا ينتمون اليهـــا انتمـــاء وثيقا كالمهاجرين والأنصار ، كما أنه لا تقع عليهم نفس الواجبات وليس لهم نفس الحقوق ، وعلى هذا فلم تكن درجة الانتماء للأمة واحدة بحيث بقى ما يشبه التمايز العربى القديم بين أصحاب الحق الكامل وبين غيرهم من تابع ونزيل ، ومما له نفس الأهمية أن الأمة رغم أنها كانت تشمل المشركين واليهود فانها لم تكن تتكون من أفراد وانما كانت تتكون من جماعات فالفرد لا ينتمى الى الأمة الا من طريق العشرة والقبيلة . فقد جاء فى هذا الكتاب أن تبقى القبائل كما هى وأن تدخل فى الأمة على صورتها .

أما فيما يتصل بالعلاقة بين الأمة والقبائل وبتحديد سلطة كل منهما وواجباتها فقد بقيت على القبائل النفقات التى ليست بذات صبغة معينة وخصـــوصا دفع الدية وفداء الأسرى ، ذلك لأنه لم تكن قد وجدت بعد خزانة للأمة كذلك بقى للعشيرة والقبيلة الولاء ، فلا يسوغ لأحد أن يدعو مولى الى مخالفة مولاه ، بل لقد بقى حق الاجارة ولم يقيد بأية قيود ، فلكل فرد الحق فى أن يجير شخصا عربيا ما عدا مشركى قريش وهو بذلك يلزم الجماعة كلها .

وهكذا كان على القبائل أن تتنازل عن حق الأخذ بالثأر لأن غاية الأمة منع الحرب فى الداخل ، فاذا قام نزاع وجب أن يعرض على ولى الأمر . وقد نفذ مبدأ العقاب تنفيذا صارما ،

وانكسرت شريعة رابطة الدم ، وبذلك تفادت المدينــة الغارات القديمة واستعدت لمحاربة العدوان الخارجى . وقد نص الكتاب على اتحاد القبائل على رد العدوان من الخارج ، وعلى أن ينصر المؤمنون بعضهم بعضا ، وأن أعداء الأمة الظاهرين هم قريش ، لذلك تكاتف المؤمنون ، وقامت الأمة بواجبها فى صــد غارات قريش والخروج فى غزواتها المشهورة . وقد ساعدت هذه الغزوات على توطيد أركان الأمة من الداخل قبل أن تساعدها على صد العدوان الخارجى ونشر الاسلام فى ربوع الجزيرة ، فقد رفعت هذه الغزوات الروح المعنوية للمؤمنين فى يثرب وخاصة بعد تلك الانتصارات المتتابعة فى هذه الحروب ، غير أن أهم من هذا كله أن هذه الحرب كشفت للمسلمين النقاب عن أوجه المنافقين من عرب يثرب وحقد اليهود على الرسول وأتباعه — الذى كانوا يضمرونه له ويتحينون الفرصة للقضاء عليه وعلى هــذا الدين الجديد ، بل واشعال الفتنة مرة أخرى بين أنصاره من الأوس والخزرج والمهاجرين . ولذلك وتحت ظروف الحرب لم يعد يسمح الرسول للمشركين بأن يبقوا داخل المدينــة وهم على شركهم ، فاعتنقوا الاسلام ، غير أن موقف اليهود من الرسول والاسلام كان أسوأ من موقف المنافقين لهما .

لقد فوجىء اليهود بانتصارات المسلمين الباهرة ، ووجدوا أن مكانتهم فى المدينة لم تعد كما كانت عليها قبل الهجرة ، وكانت المؤاخاة بين الأوس والخزرج ضربة قاتلة لهم ، اذ لم تعد هناك فرصة لبذر بذور الشقاق والفتنة بينهما كما كان يحدث من

قبل ، لذلك أخذوا يرمون الأنصار بقوارص الكلم ويفتنونهم فى دينهم ويجادلون الرسول مجادلة المستهزىء المضمر للعداوة والحقد ، فنزل الوحى يكشف أمرهم « لتجدن أشـــد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » [1] وأخذ القرآن ينصح المؤمنين بأن يبتعدوا عنهم وأن يتجنبوهم . « وقد نزل عليكم أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » .

واشتد حقد اليهود على المسلمين وخاصة بعد أن أسلم أحد أحبارهم الكبار وهو عبد الله بن سلام وكان قد اتصل بالنبى صلى الله عليه وسلم هو وأهل بيته وأسلموا جميعا .

أخذ اليهود يدسون للمسلمين ، يشـــاركهم فى ذلك بعض المنافقين ، وكانوا يسألون الرسول بقصد احراجه كأن يقولوا : اذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله ؟ وكان عليه السلام يجيبهم بقوله تعالى : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » .

وحدث أن شابا يهوديا مر بجماعة من المسلمين من الأوس والخزرج فأراد أن يوقع بينهم الفتنة فذكرهم بيوم بعاث الذى كان قد انتصر فيه الأوس على الخزرج . فقام الأوسيون يفخرون على الخزرجيين وكاد ينشب بينهم القتال لولا أن خرج الرسول اليهم فذكرهم بما ألف الاسلام بين قلوبهم ، وبما ساوى الدين

---

(١) المائدة ٨٢ .

بينهم فى الدنيا والآخرة . ففطنوا الى فتنة اليهودى وعانق بعضهم بعضا ، واستغفروا الله جميعا .

واشتد الجدل بين الرسول عليه السلام وبين اليهود ، فنزل الوحى الكريم يرد عليهم انكارهم ما فى كتبهم ، ويلعنهم لكفرهم وانكارهم : « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البيّنات وأيدناه بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون . وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين » .

ولم يقنع اليهود بمحاولتهم لبث الفتنة بين الأوس والخزرج وبين المهاجرين والأنصار بل أرادوا أن يفتنوا الرسول نفسه صلى الله عليه وسلم حينما قالوا له : انك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا ، وانا ان اتبعناك اتبعك اليهود ولم يخالفونا ، وان بيننا وبين بعض قومنا خصومة فنحتكم اليك فتقضى لنا فنتبعك ونؤمن بك ، فنزل فيهم قوله تعالى : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ، فان تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ؛ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » (١) .

---

(١) المائدة ٤٩ .

وفكر اليهود مرة أخرى كيف يمكرون به عليه السلام ، فرأوا أن يقنعوه بالجلاء عن المدينة وذلك بأن يزور بيت المقدس ويتخذ من هذه المدينة مقرا له مثل كل الأنبياء وأن يجعل يثرب وسطا فى هجرته بين مكة وبين بيت المقدس . وفطن النبى عليه السلام أنهم يمكرون به .

وأوحى الله اليه عندئذ بأن يجعل قبلته الى المسجد الحرام بيت ابراهيم واسماعيل بعد أن كانت القبلة حتى هذا الوقت وعلى رأس سبعة عشر شهرا من مقامه بالمدينة تجاه المسجد الأقصى . « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينّك قبلة ترضاها . فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره » (١) .

وينكر اليهود على الرسول ما فعل وحاولوا ارجاعه الى قبلته الأولى فينزل الوحى الكريم : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا . وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه . وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله » (٢) .

وأثناء كل هذا الجدل والصراع الفكرى الدائر فى المدينة

---

(١) البقرة ١٤٤ .
(٢) البقرة ١٤٢ .

يفد وفد من نصارى نجران ، ولعل هذا الوفد انما جاء الى مدينة النبى حين علم بما بينه وبين اليهود من خلاف طمعا فى أن يزيد هذا الخلاف شدة حتى يبلغ العداوة ، فيريح النصرانية المتاخمة فى الشام وفى اليمن من دسائس اليهود وعدوان العرب [1] وتجتمع الأديان الكتابية الثلاثة وتقوم ملحمة كلامية عنيفة بين اليهودية والمسيحية والاسلام ، فأما اليهود فينكرون رسالة عيسى ومحمد عليهما السلام ويزعمون أن عزيرا بن الله وأما النصارى فيؤمنون بالتثليث وألوهية عيسى ، وأما محمد عليه السلام فيدعو الى توحيد الله خالق الكون وباعث الحياة من الأذل الى الأبد وكان اليهود والنصارى يسألونه عمن يؤمن بهم من الرسل فيقول « قل آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » [2] .

أى ثورة فكرية حدثت فى يثرب ، تلك المدينة التى كانت تقتات بوقود القتال ، وبمرارة الأحقاد ، وبسم العصبيات . انها لم تعد تلك المدينة الضائعة فى جزيرة العرب ، تصدر أخبار الفتن ، وتقذف بشرارات الحريق ، وانما أصبحت منارا فكريا يشع ضوء الحقيقة فى ربوع الجزيرة العربية ، وينير مسالك العقل

(١) حياة محمد . محمد حسنين هيكل ٢٠٢ .
(٢) آل عمران ٨٤ .

ليخطو الانسان نحو مصدر النبوغ ، ويهدى شغف القلب التائه شاطىء الأمن واليقين .

وكما رأينا لقد صاحبت هذه الثورة الفكرية ثورة اجتماعية قامت أساسا على الرغبة فى توطيد دعائم الأمة الاسلامية الجديدة ، واخماد ضرام العصبيات القبلية .

غير أن اليهود لم يحترموا عهودهم ومواثيقهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصبحوا فى هذه المدينة بل وفى هـذه الأمة الجديدة مصدر الخطر ، ومثار الفتنة .

وقد استطاعت الدولة الاسلامية بزعامة الرسول العربى أن تستأصل شأفتهم — وتطردهم خارج هذا المجتمع الجديد وقد تم ذلك على ثلاثة مراحل .

لقد تمت المرحلة الأولى بطرد قبيلة بنى قينقاع . فقد كانت اليهود منذ انتصار المسلمين فى غزوة بدر تتغامز وتأتمر وتحقر من شأن هذا الانتصار ، وتضمر الشر والخديعة خاصة بعد مقتل كعب بن الأشرف ، ثم حدث أن قدمت امرأة من العرب سوق بنى قينقاع ومعها حلية وجلست الى صائغ منهم بها ، فأرادوا أن تكشف عن وجهها فرفضت ، فجاء يهودى من خلفها وأثبت دون أن تدرى طرف ثوبها بشوكة الى ظهرها فلما قامت انكشفت سوءتها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على اليهودى فقتله ، فشدت بنو قينقاع على المسلم وقتلوه ، وقام النزاع بين المسلمين واليهود ، وطلب الرسول صلى الله عليه وسلم من اليهود أن يكفوا شرهم عن المسلمين وأن يحفظوا الموادعة أو ينـزل بهم

ما نزل بقريش فى بدر ، فاستخفوا بوعيده صلى الله عليه وسلم وقالوا له : لا يغيرنك يا محمد أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصــة . انا والله لئن حاربنــاك لتعلمن أنا نحن الناس » .

ولم يجد الرسول والمسلمون بدا من مقاتلتهم ، فحاصروا بنى قينقاع فى دورهم خمسة عشر يوما متتابعة لا يدخل اليهم انسان بطعام ولا يخرج منهم أحد لحاجة له ، ولم يبق لهم الا أن ينزلوا على حكم الرسول فيهم . فلما سلموا قرر الرسول بعد استشارة أصحابه قتلهم جميعا . غير أن عبد الله بن أبى بن سلول — وكان حليفا لليهود وحليفا للمسلمين — طلب من الرســول صلى الله عليه وسلم أن يحسن فيهم . وكان ما يزال ذا سلطان فى المشركين من الأوس والخزرج . ورأى الرسول أن يسدى هذه اليد لعبــد الله وللمشركين موالى اليهود حتى يصبحوا مدينين لاحسانه ورحمته ، فأمر أن تجلو بنو قينقاع عن المدينة تاركين وراءهم سلاحهم وأموالهم ، فخرجوا حتى بلغوا وادى القرى فأقاموا فيه زمنا ، ثم اتجهوا صوب الشمال حتى بلغوا أذرعات على حدود الشام وأقاموا بها .

خلت المدينة من اليهود اذن بهذه الطريقة ، فقد كان ســائر اليهود المنتسبين للمدينة بعيدين عنها بخيبر وأم القرى ، وكان هذا هو أول تطهير للمدينة وما حولها من عناصر الفتنة وبذور الحقد . حتى يمكن اقامة المجتمع الاسلامى فى بيئة صالحة ، وتأسيس الأمة الاسلامية فى جو نقى .

وتمت المرحلة الثانية من اجلاء اليهود عن المدينة وضواحيها باجلاء بنى النضير ، فقد حدث أن طمعت اليهود فى الرسول وفى المسلمين بعد هزيمة أحد وبعد ما أصاب المسلمين فى يوم الرجيع من أسر وقتل بسبب خيانة هذيل للرجال الستة الذين وفدوا عليهم لتعليمهم الكتاب وتفقيههم فى الدين ثم ما أصاب المسلمين أيضا يوم بئر معونة بسبب اعتداء عامر بن الطفيل وقومه على من وفد من المسلمين الى نجد .

وجد اذن اليهود فى هـذه الأحداث ما أضعف فى نفوسهم هيبة الرسـول صـلى لله عليه وسلم وهيبة أصحابه ، وفكر الرسول ، فرأى أن اليهود يتربصون به الدوائر وانهم مستعدون أن يثيروا انقساما داخليا فى المدينة ليطمعوا قبائل المشركين فى غزوها ، فأراد أن يستدرجهم لتتضح نياتهم ، ولما كان يهـود بنى النضير حلفاء بنى عامر ، فقد ذهب اليهم فى عشرة من كبار أصحابه يطلب اليهم معاونتهم فى دية قتيلين من بنى عامر كان قد قتلهما عمرو بن أمية خطأ (١) . وقد أظهر اليهود غيظهم بذلك فى أول الأمر ، ثم أخذوا يتآمرون بالرسول وبأصحابه وأحس

(١) عمرو بن أمية احد اللذين نجوا يوم بئر معونة كان قد أطلقه عامر بن الطفيل عن رقبة : زعم أنها كانت على أمه ولقى عمرو رجلين فى الطريق حين عودته الى المدينة فحسبهما من القوم الذين عدوا على أصحابه فقتلهما بعد أن ناما . وبلغ المدينة وأخبر الرسول عليه السلام بشأنهما فاذا الرجلان عامريان من قوم ابى براء الذى كان قد أجار شهداء بئر معونة واغتالهم عامر بن الطفيل دون أن يراعى اجازة أبى براء .

الرسول أنهم ينوون اغتياله ، فما لبث أن انسحب من بين أصحابه راجعا الى المسلمين . وبعث الى اليهود محمد بن مسلمة قائلا له عليه السلام : اذهب الى يهود بنى النضير وقل لهم : ان رسول الله أرسلنى اليكم أن اخرجوا من بلادى . لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم من الغدر بى . لقد أجلتكم عشرا ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه . واستعد اليهود للقتال ولحصار المسلمين لهم فقاتلهم المسلمون عشرين ليلة ، ثم أمر الرسول أن يقطع نخلهم ويحرق حتى تضعف روحهم المعنوية . وجزع اليهود ونادوا يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخل وتحريقها . فنزلت الآية من سورة الحشر « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله وليخزى الفاسقين » . وانتظر اليهود العون ممن أطمعهم فى نصرته كعبد الله بن أبى . ولكن دون جدوى ، وملأ اليأس قلوبهم رعبا . سألوا الرسول أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم وذراريهم حتى يخرجوا من المدينة . فصالحهم الرسول على أن يخرجوا منها ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب ليس لهم غيره . واحتمل اليهود فنزل منهم من نزل خيبرا وسار آخرون الى أذرعات بالشام وتركوا وراءهم أموالهم وأراضيهم للمسلمين . وكان ذلك خير ما غنم المسلمون . على أن هذه الأرض لم تعتبر أسلاب حرب ولذلك لم تقسم بين المسلمين بل كانت للرسول صلى الله عليه وسلم يضعها حيث يشاء . وقد قسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار على اعتبار أنهم

ثم يكونوا يملكون شيئا . وقد استبقى الرسول قسما خصصت غلته للفقراء والمساكين . وبذلك أصبح المهاجرون فى غنى عن معونة الأنصار وأصبح لهم مثل ثرواتهم . ولم يشترك فى القسمة من الأنصار الا أبو دجانه وسهل بن حنيف فقد ذكرا فقرا ، فأعطاهما الرسول كما أعطى المهاجرين . ولم يسلم من يهود بنى النضير الا رجلان سلما على أموالهما فأحرزاها .

ثم كانت المرحلة الثالثة والأخيرة فى طرد اليهود من بنى قريظة وذلك أن يهود بنى النضير عندما خرجوا من المدينة لم يسكتوا ، بل أخذوا يؤلبون القبائل ويحزبون الأحزاب ضد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فذهب وفدهم الى قريش التى ظنت أنها خرجت من أحد منتصرة وأن غارة أخرى تنهى أمر الرسول وأمر المسلمين تماما ، لذلك اعتبرت تحالفها مع اليهود فرصة سانحة للقضاء على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين .ولما اطمأن اليهود الى نصرة قريش ذهبوا الى غطفان التى قبلت نصرتهم طمعا فى الغنيمة . وتهيأت الأحزاب للحرب وحفر المسلمون خندقا حول المدينة . ووعدت بنو قريظة الرسول صلى الله عليه وسلم أول الأمر أن تفى بعهدها للمسلمين ، ولكن سرعان ما نقضت عهدها عندما حاصرت الأحزاب المدينة وأخذت تكيد للمسلمين وتستعد للغدر بهم اذا نشب القتال . عند ذلك جاء الى الرسول نعيم بن مسعود مسلما ، وعرض أن يقوم بأى عمل فى جهاد المشركين وصرفهم عن المدينة فقال له عليه السلام : « خذّل عنا فان الحرب خدعة » . فذهب مسعود الى بنى قريظة

وحذرهم ان هزمت قريش نجت بنفسها وتركتهم تحت رحمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم نصحهم بألا يطمئنوا الا اذا أعطوهم رهائن من ساداتهم وأشرافهم ، ثم ذهب الى قريش وغطفان وأوهمهم أن بنى قريظة قد ندموا على نقضهم عهد الرسول واتفقوا معه على أن يخدعوا له قريشا وغطفان عن بعض ساداتهم فيأخذونهم رهائن ويقدمونهم اليه ليضرب أعناقهم . فاستعجلت قريش وعد قريظة لها ونصرتها ، فكان فى جوابهم ما يؤكد عزم بنى قريظة على الغدر بهم .

نجحت اذن مكيدة نعيم بن مسعود وخافت قريش وغطفان من غدر القرظيين وفى تلك الأثناء ثارت الطبيعة فجعلت تكفأ قدور المشركين وخيامهم ، فأرغم كل ذلك المحاصرين على الرحيل .

نصر الله المؤمنين بعد هذه الأيام الشديدة ، فحلفوا أن لا يدخلوا المدينة الا بعد أن ينتهوا من أمر بنى قريظة فحاصروهم خمسا وعشرين ليلة وعرضوا عليهم الاسلام أو القتال ، ورفض اليهود الاسلام وخافوا من القتال ، ورغبوا فى أن يخرجوا من المدينة كما خرجت بنو قينقاع وبنو النضير ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم رفض ذلك وأبى الا أن تنزل على الحكم ، ثم ان اليهود لجأوا الى الأوس حلفاءهم القدامى ، فقبل الرسول حكم واحد منهم وهو سعد بن معاذ ، وحكم سعد بأن تقتل المقاتلة وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء . ونفذ حكمه .

وهكذا تغير الوضع الاجتماعى داخل المدينة كما تغير الوضع السياسى عما كانت عليه قبل هجرة الرسول اليها ، تحولت من

موضع تنزله مجموعة من القبائل يدب بينها الخلاف الى أمة من المؤمنين تجمعهم رابطة واحدة هى رابطة الدين ، ويهدفون الى غاية واحدة وهى نشر هذا الدين فى ربوع الجزيرة العربية : ونجحت هذه الوحدة السياسية الصغيرة فى طرد مصدر الفتنة فى دولتها الناشئة ، كذلك نجحت فى اخماد فتن المنافقين واستعدت للفتح الأكبر لها وهو فتح مكة .وتم لها ذلك ، بل تم لها اخضاع الجزيرة العربية كلها وهكذا أصبحت عاصمة الدولة الاسلامية الجـديدة .

وتوفى الرسول عليه السلام بعد أن أدى مهمته ، وبعد أن ترك أصحابه وخلفاءه يديرون شئون هذه الدولة الجديدة .

بهذا استطاعت يثرب أن تنافس مكة فى مركزها الاجتماعى طوال عصر الرسول وأن يحتل أهلوها من الأنصار المنزلة الأولى من قلب النبى صلى الله عليه وسلم ، ولقد كانوا حريصين على هذه المنزلة أن ينالها أى غبن أو اهمال حتى أن نفوسهم تغيرت بعض الشىء ، وساورتهم بعض الشكوك بعد فتح مكة وبعد أن فرق الرسول غنائم هوازن فى المؤلفة قلوبهم من سادات قريش وغيرها من قبائل العرب ، فظنوا أن الرسول صار فى غنى عنهم بعد أن لقى قومه ، فلم يعد يحفل بهم كما كان من قبل ، فلما بلغ الرسول ذلك أمر سعد بن عبادة أن يجمع له الأنصار ، ثم خطب فيهم خطبته الرائعة التى بين للأنصار فيها فى عبارة سلسة أخاذة نعمة الاسلام عليهم اذ هداهم بعد الضلالة وألف بين قلوبهم بعد العداوة ، ثم ذكر لهم بالثناء تصديقهم لرسالته وايواءهم اياه

ومواساتهم له ، ثم عتب عليهم فى كياسة وظرف تطلعهم الى هذا الفىء الذى أفاءه الله عليهم ففرقه فى نفر حديثى الاسلام تطييبا لنفوسهم عما أصابهم من القتل والهزيمة ، معتمدا على حسن اسلام الأنصار وصدق رغبتهم فى نشر الدين واعلاء كلمة الله ، ثم أكد محبته اياهم وايثارهم على غيرهم من العرب ، وأخيرا أعلن اليهم أنه منهم ، ودعا لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم .

ولقد بكى الأنصار بعد هذه الخطبة وطابت نفوسهم برضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدوا ذلك غنما عظيما (١) .

فقد روى الطبرى أنه لما اجتمع الأنصار برسول الله ، حمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله ثم قال : « يا معشر الأنصار ! مقالة بلغتنى عنكم وموجدة وجدتموها فى أنفسكم ، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ! لله ولرسوله المن والفضل . فقال عليه السلام : ألا تجيبونى يا معشر الأنصار ؟ قالوا : وبماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل ! قال عليه السلام : أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصدقتم : أتينا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك . وجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة (٢) من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم . أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله الى

---

(١) انظر تاريخ الاسلام الياس ١ : ١١٦ .
(٢) نصيب قليل من الدنيا .

رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شـعبا لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبنـاء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا .

ذلك هو موقف الأنصار من أنفسهم ومن مدينتهم ، وذلك هو موقف الرسول صلى الله عليه وسلم منهما معا . ولقد أنصفهم الرسول صلى الله عليه وسلم كما أنصف مدينتهم فجعلها عاصمة المسلمين وجعلها مقامه فى حياته ومثواه بعد وفاته صلى الله عليه وسـلم .

حققت المدينة اذن تغييرا فى تركيبها الاجتماعى والسياسى فى عصر الرسول كما حققت تغيرا أخطر من هذا كله وهو تغيرها النفسى ، أما التغير الاجتماعى والسياسى فقد عرضناه ويتلخص فى تآلف قلوب الأوس والخزرج وخمود نار الفتنة والحقد فيهم ، ثم فى تطهير المدينة من عنصرى الفتنـة فيها وهما المنافقـون واليهود ، أما المنافقون فقـد انكشف أمرهم وحوربوا بكل الوسـائل حتى قضى عليهم ، وأما اليهود فقـد طهرت المدينة وما جاورها من القوى منهم وانتهى أمرهم اما بقتلهم أو بنفيهم خارج الجزيرة العربية . وأصبحت المدينة عاصمة المسلمين ومقر الرسالة والنبوة والخلافة فى عصر الخلفاء الثلاثة الأول رضى الله عنهم ، منها كانت توجه الغزوات لمحاربة المشركين ومثيرى الفتنة

والشر ، ومنها تخرج وفود المؤمنين لتعليم القبائل أسس العقيدة الجديدة . وشريعة الاسلام الغراء .

أما التغير النفسى فقد انعكس فى مظاهر حياة المؤمن الأنصارى ثم فى حياة جماعة الأنصار ممثلين لمدينتهم طوال حياة الرسول وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم .

ان أبرز مظاهر التحول فى نفسية الأنصارى تتضح فى عناصر ثلاثة ودلالاتها وهى الايمان والاخاء والفداء ، فاننا اذا بحثنا عن هذه العناصر فى الجاهلية لوجدنا اختلافا كبيرا ؛ لم يكن الجاهلى يؤمن عقائديا بشىء ، كانت صلته بالأوثان صلة انتفاع ، فان حقق الوثن له ما يتمناه احترمه واذا لم يحقق سبه وحطمه وقد يبول عليه أو يأكله (١) ، كذلك كان ايمانه بعصبيته ايمان انتفاع ، فلولا هذه العصبية ما أمن على حياته ، وكثيرا ما كانت القبيلة تخلع أحد أفرادها اذا ارتكب ما يهدد أمنها العام ، وعندئذ يهدر دمه فيخرج باحثا عن جوار ، فان لم يجد تصعلك وفقد ايمانه بهذه العصبية . أما الأنصارى — وكل مسلم — فقد أصبح الايمان عنده عقيدة مرتبطة بمثل وقيم جديدة ليس لها هدف نفعى ، ثم هى متصلة بالعقل والقلب ، وهما يتجهان نحو عالم تمتزج فيه عناصره المادية والروحية امتزاجا خاصا لم يكن للعربى به سابق معرفة .

واذا كان لكل ايمان سلوك فى الحياة يشتد الارتباط به كلما

---

(١) كان لأحد الأعراب صنم من تمر فلما جاع أكله !

تعمقت العقيدة فى نفس صاحبها فان سلوك الأنصار أوضح دليل على أن ايمانهم بلغ من نفوسهم أعمق أغوارها ، وفى أقصر زمن ممكن يمكن أن يتم فيه تحول انسان من دين الى دين .

ولم يكن قبول الأنصار لمبدأ الاخاء بأقل خطرا من الايمان دلالة على تغير هذه النفسية من حال الى حال ، لقد كان القانون الجاهلى بين قبائل يثرب هو قانون الصراع والعداوة رغم أنها قبائل من بطون واحدة وأبناء عمومة وخئولة متصلة ، والصراع بين القبائل دائما ما يقوم على اختلاف حول موارد العيش ، وكل قبيلة تحب أن تنافس الأخرى فى هذه الموارد ، وتحتفظ لنفسها بعوامل البقاء ، فاذا حدث أن أفراد قبيلة قبلوا أن يقتسم معهم ثرواتهم ومصادر رزقهم أفراد آخرون ليسوا من قبيلتهم أو متصلين بأنسابهم فلا شك أن هذا دليل على حدوث شيء جديد فى نفسية هؤلاء الناس ، وأن تغيرا جذريا شمل أعمق تكوينهم النفسى والفكرى معا ، ولا شك أيضا أن أهم ما يدل عليه هذا التغيير هو استعداد هؤلاء الأفراد لأن يتنازلوا عن كثير من مظاهر عصبيتهم الجاهلية ومكاسبهم الفردية ، ثم قبول مبدأ التوحد والتكتل فى سبيل مبادىء ومثل عليا لم يكن لها وجود فى ماضيهم الجاهلى .

وهنا يأتى العنصر الثالث ، فاذا كان الايمان قد وهبهم هذه الروح الجديدة ، واذا كان الاخاء مظهرا من مظاهرها ، فلا شك أن الفداء بهذا المفهوم الذى رأيناه عندهم اكتمال لشخصية المسلم الجديد ، وتتمة للتغيير الذى حدث فى نفسية الجاهلى

القديم . ان هذا العربى الذى يعلم أن بينه وبين الاستشهاد ودخول الجنة هى التمرات التى يأكلها ، فيقذفها من يده لينعم بما هو خير وأبقى فى الجنة — لذى روح جديدة ، وهو يؤكد مدى ما طرأ من تحول على نفسية المسلمين . وان أبا دجانة الذى يأخذ سيف الرسول ليقاتل به فيستوهب منه القوة ، ويستمد منه الجرأة . ثم يحرص بعد ذلك على أن لا يمس جسد امرأة هو نموذج لما استطاع الدين الجديد أن يقوم به نفوس الجاهليين .

واذا نظرنا بعد ذلك فى نفسية اليثربيين كممثلين لمدينتهم — مدينة الرسول — وما طرأ عليها من تغير فسنجد أن أهم مظهر لها هو هذا المفهوم الجديد الذى تقبلت به معنى الغزو أو الحرب ، لقد أصبح القتال فى سبيل العقيدة وليس فى سبيل أى شىء آخر ، أى تحول هدفه من مكسب مادى الى مكسب روحى ، ومن رغبة فى الحصول على نعيم الدنيا الى رغبة فى نيل رضى الله تعالى وحب الرسول عليه السلام . ولم تكن العرب تألف هـذا النوع من القتال ، اذ كان قتالها دفاعا عن عصبية غاضبة ، أو انتهابا لأموال مملوكة ، وبذلك نجحت يثرب — مدينة الرسول — فى تغيير هدف القتال فى الجزيرة العربية حتى نهاية عصر الفتوح الكبرى الذى انتهى بانتشار الاسلام حتى شمالى أفريقيا وشبه جزيرة ايبريا فى الغرب ثم سهول الصين وجزر الهند الشرقية فى الشرق !

كذلك خرج من يثرب أول دعاة حقيقيين للاسلام كتلك

الوفود التى كان يبعث بها الرسول الى القبائل لهديها وتعليمها الكتاب والشريعة ، فمنهم من نجح فى مهمته ، ومنهم من استشهد فى سبيل دعوته ، وما شهداء يوم الرجيع وبئر معونة الا مثل رائع من أمثلة العقيدة الراسخة والتغير الهائل الذى طرأ علـى نفوس الجاهليين .

والآن كيف عبر الشعر عن كل هذا التغير ؟ هل وقف جامدا عند نغماته الأولى التى كانت تصدح فى كل بقاع الجزيرة أم اتخذ نغمات أخرى تتفق والحياة الجديدة ؟ هل بقيت وظيفته مرتبطة بالعصبية والتمـدح ، أم تغيرت الوظيفة لتناسب الأوضـاع الاجتماعية والسياسية الطارئة ؟ هل ما زالت النماذج الجاهلية للفتوة هى المثل الأعلى للمسلم كما كانت للجاهلى أم تغيرت هذه النماذج بما يتفق والبعث الجديد ! وأخيرا هل استطاع حسان أن يطور فنه ليعبر عن روح العصر أم وقف جامدا حائرا لا يدرى مصيره فى هذه الحياة الجديدة ؟ ! هذا ما سوف نجيب عليه الآن .

الفصل الثانى

حسان فى عصر الرسول

١ — اسلام حسان :

ربما كان أول ما يجب أن نسأل عنه قبل أن نجيب عن الأسئلة السابقة هو متى أسلم حسان ؟ لقد بحثنا عن مصدر فيه نص صريح يجيب عن هذا السؤال فلم نجد ، غير أننا نلاحظ أن بنى النجار — قبيلته — قد ساهمت فى أولى المحادثات قبل العقبتين الأولى والثانية ، كما أن للخزرج — قبيلته الكبرى — نصيبا كبيرا فى اختيار النقباء اذ اختير منهم تسعة نقباء من بين اثنى عشر نقيبا ، وكان بين هؤلاء التسعة ابن خالته المنذر بن عمـرو بن خنيس وصديقه عبد الله بن رواحة ، كما كان أخوه أوس بن ثابت أحد من بايعوا الرسول فى العقبة الثانية . ولما كان حسان رجل القبيلة، لا يخرج على تقاليدها أو أحلافها أو أوامرها ، فلا شك أنه استعد للدخول فى الاسلام منذ أن استعدت قبيلته ، واذا كان الخزرج عامة وبنو النجار خاصة قد حالفوا الرسـول وأبدوا استعدادهم للدخول فى دينه والدفاع عنه منذ وقت مبكر وقبل هجرته عليه السلام الى مدينتهم ، فلا شك أن حسان قد فعل مثلهم أيضا ، لأننا لا نجد شاهدا يدل على أنه كان صاحب رأى فيهم أو شخصية لها استقلالها عنهم أو موجهة لجموعهم .

وهنا نأتى الى مبحث آخر وهو : كيف كان اسلام حسان ؟ هل هو اسلام المؤمن الحريص على الدين عقيدة وسلوكا أو هو انتقال الى دين وجد نفسه يعتنقه كما اعتنقته قبيلته لا ارادة له فى ذلك وانما تبعية لا يستطيع أن يخرج عليها والا وجد نفسه غريبا بين قومه وفى مدينته .

لاشك أن أى دارس لا يستطيع أن يتناول شخصية بالبحث والدراسة ويترك فيها شبهة مثل تلك الشبهة التى أثارها القدماء والمحدثون ولم ينتهوا فيها الى رأى ، وخاصة أن شخصية حسان التى نتناولها بالدراسة شخصية احتلت مكانة مرموقة فى تاريخ المسلمين وسجلت احترامها وخلودها فى صفحاته .

ربما كان أخطر ما يمس هذه الشخصية من تلك المسألة هى ما سجلته المصادر من اشتراكه فى حديث الافك [1] وتقوله فيه . فقد حدث أن خرجت السيدة عائشة زوج الرسول عليه السلام فى غزوة بنى المصطلق مع جيش المسلمين ، وأثناء رجوع الجيش تخلفت عنه لقضاء حاجة فتأخرت وسبقها المسلمون الى المدينة ، ثم وجدها صفوان بن المعطل السلمى وكان قد تأخر هو أيضا فأركبها ناقته ودخل المدينة ، فلما رآهما المنافقون تقوّلوا فى ذلك ، وحزن الرسول عليه السلام حزنا شديدا حتى أنزل الله وحيه ببراءة السيدة عائشة وتكذيب المنافقين . « ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم

---

(١) انظر تفصيل هذا الخبر فى كتب الحديث وفى سيرة ابن هشام ٣ : ٣٠٨ ـ ٣٢١ وكتب الأخبار مثل الأغانى ٤ : ١٥٤ .

ما اكتسب من الاثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم »(١)

وتحدثنا كتب الأخبار وكتب التفسير فتكاد تجمع على أن هذه العصبة التى أشار اليها القرآن الكريم تتكون من عبد الله ابن أبى بن سلول ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش وحسان بن ثابت ! وقد زادت بعض هذه الكتب أن الثلاثة الآخرين قد حدهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، جاء فى سيرة ابن هشام عن عائشة أنه عندما نزل الوحى الكريم بتبرئتها جاء الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : ابشرى يا عائشة ، فقد أنزل الله براءتك . قالت : قلت : بحمد الله ، ثم خرج الرسول الى الناس فخطبهم ، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن فى ذلك ، ثم أمر بمسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم (٢) .

وجاء فى تفسير (٣) آية « ان الذين جاءوا بالافك ... » من سورة النور أن عبد الملك بن مروان كتب الى عروة يسأله عن الذين جاءوا بالافك فأجابه عروة : كتبت الىّ تسألنى فى الذين جاءوا بالافك وهم كما قال الله : ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم .. وانه لم يُسم منهم أحد الا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش وقال ابن عباس : الذين افتروا على عائشة عبد الله بن أبى وهو الذى تولى كبره ، وحسان بن ثابت ومسطح وحمنة بنت جحش .

---

(١) النور ١١ (٢) سيرة ابن هشام ٣ : ٣١٤ ـ ٣١٥ .
(٣) تفسير الطبرى .

وقد كان للمسلمين موقف من هؤلاء الثلاثة فأما مسطح فقد كان أبو بكر رضى الله عنه ينفق عليه لقرابته وحاجته ، فلما نزلت براءة عائشة قال : والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا ، ولا أنفعه بنفع أبدا بعد الذى قال لعائشة وأدخل علينا . قالت السيدة عائشة رضى الله عنها فأنزل الله فى ذلك « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم»[1] عند ذلك قال أبو بكر : بلى والله ، انى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع الى مسطح ونفقته التى كان ينفق عليه ، وقال : والله لا أنزعها منه أبدا .

وأما حمنة بنت جحش فقد قالت عنها عائشة : « وأما حمنة بنت جحش ، فأشاعت ما أشاعت تضادنى لأختها [2] فشقيت بذلك.

وأما حسان فقد ذهب اليه صفوان بن المعطل واعترضه وضربه بالسيف — وكان حسان قد هجاه — فوثب ثابت بن قيس بن الشماس على صفوان حين ضرب حسان فجمع يديه الى عنقه بحبل ثم انطلق به الى دار بنى الحارث بن الخزرج ، فلقيه عبد الله بن رواحة فقال : ما هذا ؟ قال : أما أعجبك ضرب حسان بالسيف ! والله ما أراه الا قد قتله . قال له عبد الله بن رواحة : هل علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء مما صنعت ؟ قال : لا والله ؛

(١) النور ٢٢ .

(٢) أختها زينب بنت جحش زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : لقد اجترأت ! أطلق الرجل ! فأطلقه . ثم أتوا رسـول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له ، فدعا حسان وصفوان بن المعطل ، فقال ابن المعطل ! يا رسـول الله : آذانى وهجـانى ، فاحتملنى الغضب فضربته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان : أحسن يا حسان ، أتشوهت على قومى أن هـداهم الله للاسلام ! ثم قال : أحسن يا حسان فى الذى أصابك ، قال : هى لك يا رسول الله .

وواضح من هذا أن حسان لم ينل عطف الرسول فى هـذا الحادث بل لقد أنبه الرسول عليه السلام قائلا له « أتشوهت على قومى أن هداهم الله للاسلام » والسبب فى ذلك تلك الأبيات التى قالها حسان يعرض فيها بابن المعطل وبمن أسلم من قريش والتى أولهـا .

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا
وابن الفريعـة أمسى بيضة البـلد

ولا شك أنه موقف غريب من حسان ان صحت نسبة تلك الأبيات وان كنت لم أجد من يشك فى نسبتها له !

ولا شك أن مثل هذا الخبر لا يمر بسهولة عند كبار المحدثين دون أن يبدوا فيه رأيهم ، لأنه يدور حول شخصيتين اسلاميتين كبيرتين أولاهما زوج الرسول صلى الله عليه وسلم وأحب نسائه اليه ، وآخرهما شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم والمنافح عنه ضد شعراء المشركين .

ولقد روى المحدث الأندلسى ابن عبد البر أن قوما ذكروا أن

حسان كان ممن خاض فى الافك على عائشة رضى الله عنها وأنه جلد فى ذلك ، ثم ان قوما آخرين أنكروا أن يكون حسان قد خاض فى الأفك أو جلد فيه .

وقد روى ابن عبد البر خبرا عن عائشة رحمها الله تبرىء حسان من هذه التهمة . فقد ذكر الزبير بن بكار قال حدثنى ابراهيم ابن المنذر عن هشام بن سليمان عن ابن جريج عن محمد بن السائب ابن بركة عن أمه أنها كانت مع عائشة فى الطواف ومعها أم حكيم بنت خالد بن العاصى وأم حكيم بنت عبد الله بن أبى ربيعة فتذاكرتا حسان بن ثابت بالسب ، فقالت عائشة : ابن الفريعة تسبان ؟ انى لأرجو أن يدخله الله الجنة بذبه عن النبى صلى الله عليه وسلم بلسانه . أليس القائل :

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء
فان أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

فبرأته من أن يكون افترى عليه ، فقالتا : أليس ممن لعنه الله فى الدنيا والآخرة بما قال فيك ؟ فقالت : لم يقل شيئا ولكنه الذى يقول :

حصان رزان ما تزن بريبة
وتصبح غرثى فى لحوم الغوافل
فان كان ما قد قيل عنى قلته
فلا رفعت سوطى الىّ أناملى

وهذان البيتان الأخيران ضمن أبيات قالها حسان فى مدح السيدة عائشة نفى فيهما ما نسب اليها من تهمة ، كما نفى ما نسب

اليه من تقوّل فيها وواضح من الخبر أن الأنصار بل سكان مدينة الرسول كلهم يشيرون باصبع الاتهام الى حسان ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم والسيدة عائشة رضى الله عنها يحاولان ابعاد الشبهة عنه لمكانته فى نفسيهما ، ولذبه عن الاسلام والمسلمين فى شعره . نشعر بذلك خاصة فى ذلك الخبر الذى رواه الطبرى عن عائشة رضى الله عنها فى تفسيره أنها قالت ما سمعت بشىء أحسن من شعر حسان ، وما تمثلت به إلا رجوت له الجنة . قوله لأبى سفيان .

هجوت محمدا فأجبت عنه
وعند الله فى ذاك الجزاء
فان أبى ووالده وعرضى
لعرض محمد منكم وقاء
أتشتمه ولست له بكفء
فشركما لخيركما الفداء
لسانى صارم لا عيب فيه
وبحرى ما تكدره الدلاء

فقيل : يا أم المؤمنين ، أليس هذا لغوا . قالت : لا انما اللغو ما قيل عند النساء . قيل : أليس الله يقول « والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم »(١) قالت أليس قد أصابه عذاب عظيم ، أليس قد ذهب بصره وكنع بالسيف (٢) ! ؟

---

(١) أى الذى أشاع افتراء الافك وأكثر من ترديده .

(٢) كان حسان قد ذهب بصره فى أواخر حياته كما سيأتى فيما بعد ، وأما كنعه بالسيف فذلك عندما ضربه صفوان بن المعطل .

هذا هو حديث الافك وموقف حسان منه ، ثم موقف الرسول صلى الله عليه وسلم وعائشة رضى الله عنها والمسلمين جميعا من حسان فى مسألة خوضه فى هذا الحديث ، ولقد حاول حسان أن ينفى فى شعره أنه خاض فى هذا الحديث ، وذكر أن كل ما نسب اليه فيه انما هو محض افتراء عليه ، واشاعة ليس لها أى ظل من الحقيقة . يقول فى مدحه لعائشة رضى الله عنها :

مهـــذبة قـــد طيب الله خيمهـــا
وطهـــرها من كل ســـوء وباطـــل

فان كنت قد قلت الذى قد زعمتم
فلا رفعت ســـوطى الىّ أناملـــى

وكيف وودى مـــا حييت ونصرتى
لآل رســـول الله زين المحـــافل

له رتب عـــال على النـــــاس كلهم
تقـــاصر عنـــه ســـورة المتطـــاول

فان الذى قد قيـــــل ليس بلائط
ولكنه قـــول امرىء بى ما حـــل

ولكن هل اقتصرت أدلة الباحثين فى دراسة صدق تدين حسان عند هذا الدليل فحسب ، انهم يجدون حسان يدافع عن جبلة ابن الأيهم أمام عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما ارتد جبلة عن الاسلام متنصرا وسافر الى الشام ، كذلك يجدون فى شـــعره الاسلامى بقايا عصبية قبلية ، وعنجهية جاهلية لم يتغلب عليها الاسلام بعد ، فكثيرا ما كان يمدح الرسول بلسان الأنصـــار

أو الخزرج بصفة خاصة ، ويفخر بما أدوه للاسـلام والمسلمين وكأنه يفخر ويمن على قبيلة نزلت فى جوارهم وليس على اخوة لهم فى الدين . يقول :

كنا ملوك النـاس قبل محمـد
فلما أتى الاسـلام كان لنا الفضل

ويقول :

ألا أيها الساعى ليـدرك مجـدنا
تأتك العـلا فاربع عليـك بسـائل
فهل يستوى ماءان أخضـر آجن
وحسى ظنـون ماؤه غـير فاضل

الى أن يقول :

ونحن سبقنا النـاس مجدا وسؤددا
تليـد وذكراناميا غـير خامـل
لنا جبـل يعـلو الجبـال مشرف
فنحن بأعـلى فرعـه المتطـاول
مساميح بالمعروف وسـط رحالنـا
وشبابنا بالفحش أبخـل باخـل
ومن خـير حى يعلمون لسـائل
غيـاثا وعـان موثق فى السـلاسل
ومن خـير حى يعلمون لجـارهم
اذا اختارهم فى الأمن أو فى الزلازل

وتشتد لهجة الفخر بالأنصار والخزرج خاصة ، بل انها تنقلب

الى عتاب للرسول يوم فتح مكة عندما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم على مقدمة الجيش قبيلة سليم بقيادة خالد بن الوليد ، وكأن الأنصار يريدون أن يكونوا هم أول من يدخل مكة امعانا فى اذلال قريش التى حاربتهم ، وأسقطت كثيرا من أبنائهم شهداء فى ميدان القتال . يقول :

دع عنك شـعثاء اذ كانت مودتها
نزرا وشر وصال الواصـل النزر

وأت الرسول فقـل يا خير مؤتمن
للمؤمنين اذا ما عـدل البشـر

عـلام تدعى سليم وهى نازحـة
أمام قـوم هـم آووا وهم نصروا

سـماهم الله أنصـارا لنصـرهم
دين الهـدى وعوان الحرب تستعر

وجاهـدوا فى سـبيل الله واعترفوا
للنائبات فما خـامو وما ضـجروا

والنـاس ألب علينا ثم ليس لنـا
الا السيوف وأطراف القنـا وزر

نجالد النـاس لا نبقى على أحـد
ولىّ ونتبع ما توحى به السـور

ولا يهـر جناب الحرب مجلسـنا
ونحن حين تلظى نارهـا سـعر

وكم رددنا ببـــدر دون ما طلبـــوا
أهل النفـــاق وفينا أنزل الظفـــر
ونحن جندك يوم النعف من أحـــد
اذ حزبت بطـــرا أشـــياعها مضر
فما ونينا وما خمنـــا ومـــا خـــبروا
منا عثارا وجـــل القـــوم قد عثروا

فهذا نوع من العتاب والمن ، كان أجدر بحسان أن لا يخوض فيه ، ولكن يظهر أن تهور حسان الذى عرفناه له فى جاهليته ، قد أظهر أثره فى اسلامه ، لأن رجلا يتقول على زوج الرسول بأخبث ما يشين امرأة ، ويأسف على أيام الجاهلية فى شـــعره ، ويذكر الرسول بما أداه الأنصار وخاصة الخزرج له وللمسلمين ، ثم يدافع عن ارتداد صديقه جبلة بن الأيهم وتحوله الى المسيحية ثم يشارك - كما سنرى فيما بعد — فى فتنة عثمـــان — وكان يمكنه أن يعتزل الأحداث وخاصة لكبر سنه فقد كان قد بلغ المائة — كل ذلك يلجىء الباحثين الى القول بأنه ربما كان رقيق الاسلام .

ويقف باحثون آخرون يردون على الأدلة السابقة فيقولون أما حديث الافك فليس من المقطوع به أن حسان قد شارك فيه فكما يقول ابن عبد البر « قال قوم وأنكر آخرون » وتأتى شـــهادة للسيدة عائشة فى صفه عندما نفت أنه تقول فيها بشىء ، أما ذا كان قد قال شيئا لغضبه مما ظن أنه قد وقع ، فقد غضب كما غضب كل المسلمين حتى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه نصح الرسول بأن يطلق السيدة عائشة ويتزوج غيرها وكان ذلك قبل تبرئة الله

عز وجل لزوج الرسول ، وعلى هذا فلا يطعن مشاركته فى الخوض فى هذا الحديث فى صدق ايمانه وتمسكه بدينه . وأما ذكره لأيام الجاهلية فقد كان وسيلة للفخر على شعراء المشركين وكما سنرى فيما بعد أن منهج حسان فى معارضة شعراء المشركين ومناقضتهم أنه كان يرد عليهم بمثل موضوعاتهم التى كانت تعتمد على الفخر بالأنساب والأيام والأمجاد الجاهلية على عكس عبد الله بن رواحة الذى كان يرد عليهم بما أنعم الله على المسلمين من فضائل ومثل . ولم يكن عتاب حسان للرسول أنه قدم بنى سليم على الأنصار فى فتح مكة الا تعبيرا عن رأى بعض جماعة الأنصار ، ولم يكن هذا الرأى ليمس الرسول أو الدين فى شىء ، لأنهم يقصدون أن يكون لهم الفضل فى الفتح والرغبة فى الاستشهاد ، ولأنه لم يكن يتوقع أحد أن يتم فتح مكة دون قتال . هذا الى جانب أن مخاطبة حسان للرسول على هذه الصورة دليل واضح على حرية الرأى التى كان يتمتع بها المسلمون فى ظل هذا الدين الجديد ، وأن مناقشة الرسول فى تدبيره لشئون المسلمين لم تكن محرمة ، فالرسول ليس دكتاتورا يفرض ما يريد ، بل لقد كان يستشير كبار الصحابة فى كل ما يمس شئون المسلمين وأحيانا ما نزل الوحى مؤيدا لمشورة المسلمين ومعارضا رأى الرسول .

أما ما جاء من دفاع حسان عن ارتداد جبلة ، فلم يكن يهدف الى تأييده فى ارتداده وموافقته على تحوله الى النصرانية والا لكان شأنه مع عمر بن الخطاب أخطر من ضربة من درته ، ولكنه تعبير عن احساس بوفاء لهذا الرجل الذى منحه العطايا الكثيرة فى

الجاهلية واستمر فى منحها له فى الاسلام . ويجب أن تتصور جيدا أنه ليس من السهل على رجل عاش نصف عمره فى الجاهلية أن يقتنع لاشعوريا بأن من حق بدوى فقير أن يصفع أميرا خطيرا كجبلة لأن الأخير داس دون قصد منه على ازاره مهما حاول أن يقتنع شعوريا بأن لا فرق بين فقير وأمير كما يقول الاسلام ، فان الاحساس بالفارق الطبقى كان ما يزال يجد صداه فى نفسية بعض المسلمين .

مهما يكن من شىء فان الرسول عليه السلام وضع حسان فى منزلة كبيرة من نفسه ، كما وضعت قصائد حسان فى الرسول صاحبها فى منزلة كبيرة من نفوس المسلمين . فعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن حسان: لا يحبه الا مؤمن ولا يبغضه الا منافق . وروى أبو الفرج الأصفهانى وغيره : لما كان عام الأحزاب ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : من يحمى أعراض المسلمين : فقال كعب بن مالك أنا يا رسول الله ! وقال كعب بن رواحة : أنا يا رسول الله ! وقال حسان بن ثابت : أنا يا رسول الله ! فقال عليه السلام : نعم اهجهم أنت (يعنى حسان) فانه سيعينك روح القدس . وروى أيضا : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان فشفى واشتفى .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحب أن يستمع الى شعر

حسان ، فقد سأل عنه فى سفر قائلا : أين حسان بن ثابت ؟ فقال حسان : لبيك يا رسول الله وسعديك ! قال عليه السلام : « أحْدُ » فجعل حسان ينشد والنبى صلى الله عليه وسلم يصغى ويستمع ، فما زال يستمع اليه وهو سائق راحلته فلما فرغ من انشاده قال النبى صلى الله عليه وسلم « لهذا أشد عليهم من وقع النبل » يعنى بذلك المشركين .

واستمر تقدير المسلمين لشعر حسان بعد وفاة الرسول ، فعن سعيد بن جبير قال : جاء رجل الى ابن عباس فقال : قد جاء اللعين حسان من الشام . فقال ابن عباس : ما هو بلعين ، لقد جاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه ونفسه .

ومر الزبير بن العوام بمجلس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسان ينشدهم من شعره وهم غير نشاط لما يسمعون منه ، فجلس معهم الزبير فقال : مالى أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن الفريعة ، فلقد كان يعرض الرسول صلى الله عليه وسلم فيحسن استماعه ويجزل عليه ثوابه ولا يشتغل عنه بشىء . فقال حسان يمدح الزبير :

أقام على عهد النبى وهديه
حواريه والقول بالفعل يعدل (١)

وكان حسان يشعر بقدره هذا وبمكانته عند الرسول والمسلمين فقد حدث أن مر عمر بن الخطاب بحسان بن ثابت وهو ينشد الشعر

(١) سبق أن شككنا فى صحة نسبة هذه الأبيات لحسان فى التمهيد . ولكن لا شك أن الخبر يدل على اعزاز المسلمين لحسان .

فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ بأذنه وقال له : أرغاء كرغاء البعير ! فقال حسان : دعنا منك يا عمر ، فوالله لتعلم أنى كنت أنشد فى هذا المسجد من هو خير منك فلا يغير علىّ . فتركه عمر وانطلق !

لقد اعتمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على حسان فى الرد على شعراء المشركين آمثال عبد الله بن الزبعرى وأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وضرار بن الخطاب وعمرو بن العاص ، وقد استطاع حسان أن يكون ندا لهم ، وأن يتفوق عليهم . روى أنه قيل لعلى بن أبى طالب : أهج عنا القوم الذين هجونا ، فقال علىّ : ان أذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلت . فقال رجل: يا رسول الله : ايذن لعلى كى يهجو عنا هؤلاء القوم الذين هجونا. فقال عليه السلام : ليس هناك أو ليس عنده ذلك . ثم قال للأنصار: ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ وكان الأنصار فى أول الأمر يخشون أن يهجوا مشركى مكة من قريش لأنهم أقرباء الرسول ومن قبيلته عليه السلام . فلما أذن لهم الرسول بأن يهجوهم قال حسان بن ثابت : أنا لها . وأخذ يطرف لسانه ويقول : والله ما يسرنى به مقول بين بصرى وصنعاء . فقال له الرسول : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ قال : انى أسلك كما تسل الشعرة من العجين . قال الرواة : فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار : حسان ابن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل الوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب.

وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر . فكان هجاء حسان وكعب لقريش قبل اسلامهم من أشد القول عليهم ، وأهونه عليهم هجاء عبد الله بن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الاسلام كان أشد القول عليهم هجاء ابن رواحة .

ويظهر أن اعتلاء حسان منصب شاعر الرسول الرسمى جعلهم يصنعون له منبرا خاصا فى مؤخرة المسجد ليقف فوقه ينشد شعره الذى ينافح به عن الرسول والمسلمين . وقد اعتلاه حسان فى يوم انتصاره الفنى العظيم على شعراء وخطباء بنى تميم فى وفودهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا سبعين أو ثمانين رجلا فيهم الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعطارد بن حاجب وقيس ابن عاصم وعمرو بن الأهتم ومعهم عيينة بن حصن وذلك ليناصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين. فوقف ثابت بن قيس بن شماس لعطارد بن حاجب ، ووقف حسان ابن ثابت للزبرقان بن بدر فقال عينيته المعروفة :

ان الذوائب من فهر واخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع

ووقف أيضا لعطارد بن الحاجب وأنشد ميميته :

منعنا رسول الله من غضب له
على أنف راض من معد وراغم
هل المجد الا السؤدد العود والندى
وجاه الملوك واحتمال العظائم

فقال الأقرع بن حابس : والله ان هذا الرجل لمؤتى له ! والله

لشاعره أشعر من شاعرنا ، ولخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولأصواتهم أرفع من أصواتنا . ثم قال : أعطنى يا محمد ! فأعطاه عليه السلام . فقال : زدنى ! فزاده . فقال : اللهم انه سيد الناس. ثم أسلم الوفد .

ويستطيع من يستعرض الديوان ومخطوطاته أن يلمح الجهد الذى بذله حسان فى الدفاع بشعره عن المسلمين ، فقد هجا ابن الزبعرى وسفيان بن الحارث وأبا جهل بن هشام ، والحارث بن هشام ، والوليد ابن المغيرة ، وعتبة بن أبى وقاص ، وعمرو بن العاص ، ومسافع بن عياض ، وأبا البخترى ، وأمية بن خلف وصفوان بن أمية ، كما هجا كعب بن الأشرف ، وهجا هذيلا يوم الرجيع ، وبنى سليم فى الردة ، كذلك هجا اليهود من بنى قريظة وبنى النضير ، ثم مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وافتخر بانتصارات المسلمين فى غزواتهم ، ورثى الرسول عليه السلام وسعد بن معاذ وشهداء بئر معونة والرجيع وسليط بن قيس البخارى وحمزة وجعفر وخبيبا وزيد بن حارثة ومطعم بن عدى .

وهكذا كان حسان لسان حال المسلمين ، ومصور أفراحهم وأحزانهم ونستطيع أن نوضح ذلك اذا سرنا مع شعر حسان ومع تطور الأحداث فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأحب قبل أن أستعرض اشتراك حسان فى هذه الأحداث بشعره أن ألفت النظر الى أن بعض الأحداث التى وقعت قبل الهجرة وقبل اسلام أهل يثرب قد ذكرها حسان فى شعره بعد

الهجرة . وقد روى هذا الشعر بعض الاخباريين أثناء ذكرهم لتلك الأحداث مما قد يوهم أنها نظمت وقت وقوع الحدث وهذا غير صحيح لأن حسان فى هذا الوقت لم يكن قد أسلم بعد . مثال ذلك مدح حسان لهشام بن عمرو فى نقضه للصحيفة التى كان قد تعاهد فيها المشركون من أهل مكة على مقاطعة الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين وحصارهم . وقد استمرت هذه المقاطعة ثلاث سنوات احتمى فيها الرسول وأصحابه فى شعب من شعاب الجبل خارج مكة يعانون من الحرمان ألوانا ، ولم يكن يتاح لهم الاختلاط بالناس والتحدث اليهم الا فى الأشهر الحرم . عندئذ قام عمرو بن هشام وبعض صحبه كزهير بن أمية والمطعم بن عدى وأبى البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود بنقض هذه الصحيفة وبذلك أتيح للرسول وأصحابه أن يعودوا من الشعب الى مكة وأن يبيعوا قريشا ويبتاعوا منها . يقول حسان فى مدح هشام ابن عمرو :

هل يوفين بنو أمية ذمة
عقدا كما أوفى جوار هشام
من معشر لا يغدرون بجارهم
للحارث بن حبيب بن سخام
واذا بنو حسل أجاروا ذمة
أوفوا وأدوا جارهم بسلام

ولهذا السبب أيضا سيرثى حسان فيما بعد المطعم بن عدى حين مات بأبياته التى أولها :

أيا عين فابكى سيد القوم واسفحى
بدمع ، وان أنزفته فاسكبى الدما

ومن هذه القصيدة قوله :

فلو كان مجد يخلد الدهر واحدا
من الناس أبقى مجده اليوم مطعما
اجرت رسول الله منهم فأصبحوا
عبيدك ما لبى مهل وأحرما
فلو سئلت عنه معد بأسرها
وقحطان أو باقى بقية جرهما
لقالوا هو الموفى بخفرة جاره
وذمته يوما اذا ما تذمما

ب ـ حسان والأحداث :

١ — قبل الهجرة : ليس بين أيدينا نصوص تصور حياة حسان منذ بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى هجرته الى يثرب واذا كنا قد أشرنا الى احتمال دخول حسان فى الاسلام بعد بيعتى العقبة فالذى لا شك فيه أن حسان استقبل الرسول فى يثرب مسلما كمعظم سكان هذه المدينة .

ومما يؤكد ظنى الذى ذكرته آنفا وهو أن حسان أسلم قبيل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم رواية عن ابن اسحق — ان كان قد صدق فيها — يقول فيها : وكان أول شعر قيل فى الهجرة بيتين قالهما ضرار بن الخطاب بن مرداس :

تداركت سعدا عنوة فأخذته
وكان شفاء لو تداركت منذرا
ولو نلته ظلت هناك جراحه
وكان حريا أن يهان ويهدرا

فقال حسان يجيبه بأبياته التى أولها :

لست الى عمرو ولا المرء منذر
اذا ما مطايا القوم أصبحن ضمرا

وكان خبر هذه الأبيات أن قريشا طلبت الأوس والخزرج بعد بيعة العقبة وتنصيب النقباء الاثنى عشر وقد استطاعت أن تأسر سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو ، وكلاهما كان نقيبا ، غير أن المنذر استطاع أن يفلت منهم وبقى سعد بن عبادة مأسورا حتى تخلصه جبير بن مطعم بن عدى والحارث بن حرب بن أمية ، وكان بينهما وبين سعد بن عباده جوار . وتعلق أقدم مخطوطة لديوان حسان قائلة ان أبيات حسان هذه هى أول شعر قاله فى الاسلام . وبهذه الأبيات يكون حسان قد بدأ يوجه طاقاته الفنية وعصبيته القبلية والفنية نحو هذا الصراع الجديد الذى بدأ يبزغ فى الأفق وهو صراع المدينتين العتيقتين مكة ويثرب ، وصراع العقيدتين الأزليتين : الوثنية والتوحيد .

وتدور المعانى فى أبيات حسان حول القيم الجاهلية فهو ما زال ينظر الى أسر سعد بن عبادة ومحاولة أسر المنذر بن عمرو نظرته الى الشقاق القبلى ، ثم يخرج من هذا الى تهديد الشاعر بأنه بهجائه لسعد والمنذر وقومهما كمن يحفر لنفسه قبره :

فلا تك كالثكلى وكانت بمعـــزل
عن الشكل لو كان الفـؤاد تفكرا
ولا تك كالشاة التى كان حتفهـا
بحفر ذراعيها فـلم ترض محفـرا

جـ ـ حسان والغزوات :

ليس من غزوة من غزوات الرسول صلى الله عليه وسـلم الا ونجد فيها لحسان شعرا رغم أنه لم يشترك فى أى منها اشتراكا فعليا وذلك اما فى هجاء المشركين أو مناقضتهم والرد عليهم أو فى هجاء المنافقين وكشف أمرهم ، وهتك حجبهم ، أو مهاجمة اليهود وفضح ما يكنون من حقد للرسول وللمسلمين ، وما يثيرون من فتن وما يدبرون من مكائد ، واما فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وكبار صحابته والمسلمين ووصـف بطولاتهم وتمجيـد جهادهم والفخر بانتصاراتهم ثم رثاء شهدائهم رضى الله عنهـم أجمعين . ولم يترك حسان حادثة الا وسجلها فى شعره أو موقفا الا وعبر فيه عن رأى الرسول والمسلمين ، لذلك كثر استشهاد كتاب سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بشعره حتى أننا يمكننا أن نقول فى شىء من التعميم ان شعر حسان يؤرخ لحياة الرسول والمسلمين من بعد الهجرة حتى وفاته صلى الله عليه وسلم .

ولقد كانت هذه الظاهرة أحد الأسباب التى جعلت الرواة يضيفون الى حسان كثيرا مما لم ينظمه لمجرد أن شعره الحقيقى يصور أحداث السيرة ويشارك فى التعبير عن عواطف المسلمين .

ولم يكن حسان وحده الذى يفعل ذلك وانما شاركه شاعران

آخران هما كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، غير أن حسان فاقهما فى كثرة نظم ، وكثرة ما أجاد أيضا حتى علت منزلتـه ، واحتل من قلب الرسول المكانة الأولى بين الشعراء .

ويستطيع من يقلب صفحات السيرة أن يدرك حقيقة ما نقول، فيقف عند كل غزوة من غزوات الرسول صلى الله عليـه وسلم ليستوثق مما نصف وليجد أن حسان قد غطى كل أحداث عصر الرسول بشعره فها هو يمدح الرسول ويصف انتصار المسلمين فى بدر ، ويسجل مقتل مشركى قريش وطرح جثثهم فى بئر القليب:

فلاقينـاهم منـا بجمع
كأسد الغـاب مردان وشيب

أمـام محمـد قـد وازروه
على الأعـداء فى لفح الحروب

بأيديهم صـوارم مرهفـات
وكل مجـرب خاظى الكعوب (١)

بنو الأوس الغطارف وازرتهـا
بنو النجـار فى الدين الصليب (٢)

فغـادرنا أبا جهـل صريعـا
وعتبـة قد تركنا بالجبـوب (٣)

---

(١) كل مجرب أى كل رمح تمرس بالحروب وخاظى الكعوب أى أن كعوبه غليظة صلبة .

(٢) صليب : متين .

(٣) الجبوب : الأرض الغليظة .

وشـــيبة قد تركنا فى رجـــال

ذوى حسب اذا نســـبوا حسيب

يناديهم رســـول الله لمـــا

قذفناهـــم كباكب فى القليب [1]

الـم تجـدوا كلامى كان حقـــا

وأمـــر الله يأخـــذ بالقـــلوب

فما نطقـوا ، ولو نطقوا لقـــالوا

صـــدقت ، وكنت ذا رأى مصيب

وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم وقف عند القليب بعد أن طرح المشركون فيه فقال : يا أهل القليب ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ فانى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا . فقال أصحابه عليه السلام : يا رسول الله : أتكلم قوما موتى ! فقال لهم : لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق ! صدق عليه السلام !

وفى بدر أيضا نظم حسان مناقضات يرد بها عـلى شعراء المشركين كما فعل فى رده على ابن الزبعرى أو الأعشى بن زرارة التيمى حليف بنى نوفل بن عبد مناف ، فقد كان كلاهما يبكى قتلى بدر ، ويتحسر على مقتل كبار رجالات قريش ومن هـذه المناقضات والقصائد :

ابك بكت عينـــاك ثم تبـادرت

بدم تعـــل غروبهـا ســـجام

---

(١) كباكب : جمع كبكبة وهى الجماعة من الناس ، والقليب هو قليب بدر الذى قذف فيه من مثل من المشركين .

ومنها :

تبلت فؤادك فى المنـــام خـــريدة
تســـقى الضـــجيع ببارد بســـام

ومنها :

لقـــــد علمت قريش يوم بـــدر
غداة الأسر والقتـــل الشـــديد

ومنها :

يا حـــار قد عولت غـــير معـــول
عند الهياج وســـاعة الأحســـاب (١)

ومنها :

مستشعرى حـــلق الماذى يقـــدمهم
جلد النحيزة ماض غـــير رعديد (٢)

ومنها :

خابت بنو أســـــد وآب عزيزهم
يوم القليب بســـــوءة وفضـــوح

ومنها :

ألا ليت شـــعرى هـــل أتى أهل مـــكة
ابارتنـــا الكفار فى ســـاعة العسر

---

(١) حار : ترخيم حارث .

(٢) استشعر الثوب : اذا لبس على الجسم دون حاجز . الماذية : الدروع البيضاء . النحيزة : الطبيعة . وجلدها : قويها . ويقصد بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومنها :

تجى حكيما يوم بـدر شـــده
كنجاء مهر من بنـــات الأعوج

ومنها :

فما نخشى بحـول الله قـوما
وان كثروا وأجمعت الزحـوف

ومنها :

جمحت بنو جمح لشـقوة جدهـم
ان الذليـل موكل بذليـل

وكل هذه القصائد والمناقضات تسـجل أخبـار الغزوة ومن قتـل فيها ، كما تعـبر عن عواطف كل من الفئتين المسـلمين والمشركين وان كانت قصائد المسلمين وحسان خاصة تسـجل الانتصار وتفتخر به ، وتمدح الرسول صلى الله عليه وسلم وتؤيد رسالته .

وفى أحد يؤدى حسان دوره كما أداه فى بدر فهو يرد على المشركين الذين أخذتهم الحمية فى هذه الغزوة بعد أن كتب لهم فيها النصر ، وكانت مهمة حسان أشق من مهمته فى بدر لهـذا السبب ولأنه يريد أن يقلل من نشوتهم بالنصر ، وأن يؤكد الغلبة للمسلمين ، فهو يرد على سفيان بن حرب افتخاره بأبياته التى أولهـا :

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم
ولست لزور قلتـــه بمصيب :(١)

كذلك يعيّر قريشا بأن أعطت لواءها لعبـد حبشى يسمى صؤاب وهو فى كل ذلك يسجل المعركة بتفاصيلها وبقتـلاها وشـهدائها :

فخـرتم باللـــواء وشر فخــــر
لـــواء حـين رد الى صـــؤاب
جعلتم فخـركم فيه بعبـــــد
وألأم من يطـــا عفـــر التراب

والواضح أن وصف حسان للمعركة — كما يظهر فى شعره — وصف شاعر قد حضر القتال وشاهد بنفسه كل تفاصيله ، وليس وصف انسان أخبر ولم يره ، وهذا يدل على أن حسان كان يحضر الغزوات وان لم يشترك فيها بسيفه ، ويظهر أنه كان ينتظر مع النساء نظرا لكبر سنه ولعجزه عن القتال بسبب اصابته فى أكحله، فها هو يهجو عتبة بن أبى وقاص لأنه رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحد فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى صلى الله عليه وسلم ، ويسجل فى هجائه هذه الحادثة كأنه رآها فيقـول :

فأخـــزاك ربى يا عتيب بن مـــالك
ولقــاك قبل الموت احدى الصواعق

---

(١) القرم · السـيد .

بسـطت يمينـــا للنبى تعمـــدا
فأدميت فـاه ، قطعت بالبـــوارق

وتتكرر الصورة فحسان يرد على المشركين ويمدح الرسول ويفخر بالمسلمين ، ويؤدى دوره فى كل ذلك خير أداء فهو مراسل حربى يسجل الأخبار وهو صحيفة يومية ينشر هــذه الأخبار ويلونها بما يتفق وهدف المسلمين .

ونجح حسان فى كل ذلك ، فشعره الذى يسجل به غزوات الرسول — تصويره لما حدث يوم الرجيع ويوم بئر معونة ورثاؤه تاريخ هذه الغزوات ويفسر هذه الأحداث ويصـــور موقف المسلمين والمشركين منها دون اغفال لأية تفصيلات ، وهو حين يروى أخبار هذه الأحداث فى شعره ، فانما يعبر فيها ومن خلالها عن وجهة نظر الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين . ويسجل لنا بطريقة غير مباشرة موقف المشركين وقريش خاصة من الدعوة الاسلامية وصاحبها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومثال واضح لكل هذا — الى جانب تسجيله لكل غزوات الرسول — تصـــويره لما حدث يوم الرجيع ويوم بئر معونة ورثاؤه لشهداء المسلمين فيهما ، وتحريضه بنى أبى براء الذى كان قد وعد باجازة وفد شهداء بئر معونة على عامر بن الطفيل . ففى هــذه الأبيات يحمس أبناء أبى براء على الانتقام من عامر بن الطفيل ويسجل ما حدث فى هذا اليوم يقول :

بنى أم المؤمنين ألـــم يرعكـــم
وأنتم من ذوائب أهـــل نجـــد

تهكـــم عامـــــــر بأبى براء

ليخفـره وما خطـأ بعمـــــد

ألا أبلغ ربيعـــة ذا المســاعى

فما أحـدثت فى الحـدثان بعـدى

أبوك أبو الحــروب أبو براء

وخـالك ماجـد حكم بن ســعد

وكما نجح حسان فى تسجيل أخبار غزوات الرسول للمسلمين، كذلك نجح فى تسجيل الأحداث المثيرة التى وقعت فى المدينة ضد المسلمين بسبب المنافقين واليهود ، فها هو يسجل مقتل كعب بن الأشرف وسلام بن أبى الحقيق وذلك عندما يقول :

لله در عصـــابة لاقيتهـــم

يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف

يسرون بالبيض الخفــاف اليكم

مرحا كأســد فى عرين معزف (١)

حتى أتوكـم فى محـــل بلادكـم

فسقوكم حتفـــا ببيض قرقف

مستنصرين لنصــــر دين نبيهـم

مستصغرين لكل أمـــر مجحف

---

(١) معزف : العزيف : الأكمة .

ثم يسجل موقف سعد بن معاذ من يهود بنى قريظة وحكمه فيهم فى قصائد عدة منها :

لقـــد سجمت من دمع عينى عبرة
وحق لعينى أن تفيض على ســـعد

ومنها :

ألا يا لقومى هــــل لما حم دافــع
وهل ما مضى من صالح العيش راجع

ويسجل ما أوقعه المسلمون ببنى قريظة بعد غزوة الخندق فى قصائد منها :

لقـــد لقيت قريظـــة ما سآها
وما وجـــدت لـــذل من نصـــير

ومنها :

لقـــــد لقيت قريظـــة ما سآها
وحـــــل بحصـــنها ذل ذليـــــل

ومنها :

تفـــاقد معشر نصروا قريشـــــا
وليس لهـــم ببلدتهـــم نصـير

ثم يأتى بعد ذلك الحدث الأكبر وهو الذى استعد له كل شعراء المسلمين حتى لا تفوتهم فرصة المشاركة فيه وأعنى به فتح مكة .

ولقد شارك حسان بشعره منذ أول هذه الغزوة والاستعداد لها فقد أخذ يحرض الأنصار على الفتح ويذكرهم بما فعلت بهم قريش

عنانى ولم أشـــهد ببطحـاء مكة
رجـــال بنى كعب تحـز رقابهـا
بأيدى رجال لـم يسلوا سـيوفهم
وقتــلى كثير لـم تجن ثيــابها
ألا ليت شعرى هـل تنالن نصرتى
سهيل بن عمرو وخزها وعقــابها
الى أن يقول :
ولا تجزعوا منها فان ســـيوفنا
لها وقعــة بالموت يفتح بابهـــا

ثم يتم فتح مكة ويدخل الجيش الاسلامى وعلى رأسه قائده محمد صلى الله عليه وسلم فيعلن حسان انتصار الاسلام وانتصار الأنصار بقصيدته التى عرف بها ومطلعها :

عفت ذات الأصـابع فالجـــواء
الى عـــذراء منزلهـا خــلاء

وفيها تلك المقدمة التى استنكرها المسلمون بسبب ما ذكر فيها من وصفه للخمر وشربها ، ولكن علل ذلك النقاد بأنها من نظمه فى الجاهلية وأكملها فى الاسلام . ومن هذه القصيدة يقول حســان :

عدمنـــا خيلنـــا ان لم تروهـا
تثـير النقـــع موعـــدها كداء
ينازعن الأســـنة مصـــغيات
على أكتافها الأســل الظمـــاء

تظـــل جيـــــادنا متمطـــرات
يلطمهن بالخمـــــر النســــاء
فامـــا تعرضـــوا عنـــا اعتمرنا
وكان الفتح وانكشف الغطـــاء

وتتوالى الأحداث وحسان يشارك فيها بشعره كما شارك قبل ذلك وهو فى كل مرة يسجل الحدث ويوضح رأى المسلمين فيه . ثم يأتى يوم يقبض الرسول فيه وتصعد روحه الى الملأ الأعلى فيبكيه حسان لا كما يبكيه كل المسلمين ، ولكن كما يبكيه شاعر رافق الرسول فى أهم فترات حياته ، وشارك فى كل حدث مر به صلى الله عليه وسلم بقلبه ولسانه ، وأحس بمشـــاعر المسلمين وعواطفهم تجاهه ، فكان بكاؤه تسجيلا لهذا الحادث الجلل ، وتعبيرا عن أحزان أمة خلقها الرسول صلى الله عليه وسلم برسالته وارشاده . وكانت أهم قصيدة رثى بها حسان الرسول صلى الله عليه وسلم تلك التى مطلعها :

بطيبة رســم للرســول ومعهـــد
منير وقد تعفو الرســوم وتهمــد

والآن ما هى المعانى التى صور بها حسان مشاركته لحياة الرسول والمسلمين وكيف كان ذلك ؟ وهل استطاع أن يطور فنه عن الصورة التى رأيناها عليه فى الجاهلية ؟ هــذا ما نود أن نجيب عليه .

الفصل الثالث
شعر حسّان الإسلامى

لم تتوقف طبيعة حسان الفنية عن خلق الشعر ، وخاصة أن العوامل التى كانت تدفع الجاهلى الى نظمه استمرت تدفعه بعد أن أسلم وان اختلفت أهدافها . فالقتـــال ناشب بين المسلمين والمشركين كما كان ناشبا بين القبائل الجاهلية ، والأحداث تتوالى بسرعة لا تترك مجالا للفكر كى يتأمل ، وانما للعاطفة كى تلتهب. ولقد عاش حسان الأحداث كما رأينا وانفعل بها ، وشارك فى التعبير عنها . فكان لابد أن ننظر هل اختلف تعبيره فيها عن تعبيره فى مشابهاتها فى الجاهلية .

أ ــ حسان والمقدمات الطللية والغزلية :

لا يقوم حسان فى هذا الموضوع معانى أو صورا جديدة ، بل هى نفس الصور الجاهلية القديمة ، وان كان قد قلل عـــدد أبيات مقطوعاتها ومثل ذلك قصيدته فى مدح الأنصار وفيها يقول:

أهاجك بالبيـــداء رسـم المنـــازل
نعم ! قد عفاها كل أســحم هاطل
وجرت عليها الرامســـات ذيولهـــا
فلم يبق منها غـــير أشـــعث مـــائل

ديار التى راق الفؤاد دلالها

وعز علينا أن تجود بنائل

ويمتاز حسان فى أنه ماهر فى ربط موضوع مقدمته بموضوع القصيدة الرئيسى ، فقليلا ما نحس بالفجوة بين الموضوعين على عكس ما نجد عند كثير من شعراء عصره ، فنراه مثلا فى مقدمة القصيدة التى يرثى بها شهداء أحد يقول :

تأوبنى ليل بيثرب أعسر

وهم اذا ما نوم الناس مسهر (١)

لذكرى حبيب هيجت ثم عبرة

سفوحا وأسباب البكاء التذكر

بلاء وفقدان الحبيب بلية

وكم من كريم يبتلى ثم يصبر

رأيت خيار المؤمنين تواردوا

شعوب وقد خلفت فيمن يؤخر

وقد يبدأ قصيدته ثم سرعان ما يضيق بالمقدمة لأن الموضوع الرئيسى يأخذ عليه نفسه ، ويشغله عن غيره فيخرج منها بذلك التعبير المألوف عند كثير من شعراء عصره وهو : دع ذا ..

يقول :

زادت هموم فماء العين ينحدر

سحا اذا أغرقته عبرة درر

---

(١) تأوينى : عاودنى .

وجدا بشعثاء اذ شعثاء بهكنة
هيفاء لا دنس فيها ولا خور (١)

دع عنك شعثاء اذ كانت مودتها
نزرا وشر وصال الواصل النزر

وأت الرسول فقل يا خير مؤتمن
للمؤمنين اذا ما عدل البشر

وأهم ما يلاحظ على معظم شعر حسان الاسلامى أنه شعر مقطوعات وليس شعر قصائد وهذا النوع لا يتطلب مقدمات لأن ظروفه تدفع الشاعر الى موضوعه مباشرة دون تقديم ، وكانت الحياة حول حسان وبين الرسول والمسلمين تقتضى منه أن يكون سريعا فى مقاومة المشركين بفنه حتى يبطل كيدهم ، ويرد غوائلهم ، كذلك كانت الأحداث تجرى بسرعة لا تترك للشاعر فرصة أن يتأمل ويفكر لينظم وانما تدفعه دفعا لأن يلاحقها بنفس سرعتها ، والمطلع على مخطوطات ديوان حسان يلحظ كل ذلك وقد أضيف الى هذه العوامل عامل آخر وهو أن مناقضة حسان لشعراء المشركين كانت تستغرق معظم فنه ، وان من طبيعة هذه المناقضة — كما سنرى فيما بعد — أن توجه الشاعر الى موضوعه مباشرة .

---

(١) البهكنة : الجارية الخفيفة الروح الجميلة الطيبة الرائحة. والشباب البهكن : الغض

ب ـ حسان ووصف الخمر :

عرفنا — من قبل — أن الخمر احتلت من حياة حسان الجاهلية ومن شعره فيها مكانا مرموقا وكانت تمثل مظهرا من مظاهر فتوته، وموضوعا من موضوعاته فى فخره ومدحه فكيف كان أمرها معه فى الاسـلام .

لا نجد أخبارا حتى عهد عمر بن الخطاب تشير الى أن حسان كان يجلس فى مجالس الخمر ، بل ان هناك أخبارا بعد ذلك تحدثنا أنه كان يحضر مجالس الغناء ولكنها لا تشير صراحة الى أنه كان يشرب فيها الخمر وكان يحدث أن يقول لمن حضرة فى مجلس منها وكان معهم ولده عبد الرحمن « وأنتم اليوم مسلمون تشربون هذا النبيذ من التمر والفضيخ من الزهر ، فلا يشرب أحدكم ثلاثة أقداح حتى يصاحب صاحبته ويفارقها وتضرب فيه كما تضرب غرائب الابل فلا تنتهون » .

ونجد فى قصيدة يمدح بها الرسول مقدمة طلية طويلة تنتهى بوصف لمجلس من خمر يشارك فيه يقول :

عفت ذات الأصـابع فالجـواء
الى عـذراء منزلهـا خـلاء

ديار من بنى الحسحاس قفـر
تعفيهـا الروامس والسـماء

وكانت لا يزال بهـا أنيس
خـلال مروجها نعـم وشـاء

فدع هـــــذا ولكن ما لطيف
يؤرقنى اذا ذهب العشـــــاء

لشـعثاء التى قـد تيمتـــــه
فليس لقلبــه منها شـــفاء

كأن خبيئـــــة من بيت رأس
يكون مزاجهـا عسـل ومـــاء(١)

على أنيـــابها أو طعـــم غض
من التفـــاح هصره الجنـــاء (٢)

اذا ما الأشربات ذكرن يومـــا
فهن لطيّب الـراح الفـــداء

نوليهـــا المـــلامة ان ألمنـــا
اذا ما كان مغث أو لحـــاء (٣)

ونشربها فتتركنـــا ملـــوكا
وأســـدا ما ينهنهنا اللقـــاء(٤)

وقد علل القدماء هذه الظاهرة فقالوا ان هـذا الجزء من القصيدة كان قد نظمه حسان فى الجاهلية فلما جاء الاسلام وأراد

---

(١) خبيئة : أى مصونة مضنون بها لنفاستها . بيت رأس : موضع بالأردن مشهور بالخمر . ويكون هنا ملغاة .

(٢) على أنيابها خبر كأن فى البيت السـالف وقوله « أو طعم غض » عطف على سيئة وقوله « هصره الجنـــاء » أى اماله آى أن التفاح قد نضج .

(٣) ألمنـا : أى أتينـا ما نلام عليـه ، مغث (الشر والقتال) اللحاء السباب .

(٤) ينهنهنا : أى يكفنا .

أن ينظم قصيدة فى مدح الرسول أكمل هذه المقدمة بمدح للرسول صلى الله عليه وسلم ، وجاء قولهم هذا تفسيرا للخبر الذى رواه مصعب الزبيرى حين قال : هجم حسان على فتية من قومه يشربون الخمر فعيَّرهم فى ذلك ، فقالوا : يا أبا الوليد ما أخذنا هذا الا منك وانا لنهم بتركها ثم يثبطنا عن ذلك قولك :

ونشربها فتتركنا ملوكا
وأسدا ما ينهنهنا اللقاء

فقال حسان : هذا شيء قلته فى الجاهلية ، والله ما شربتها منذ أسلمت . ورأى القدماء ضعيف ، اذ لم يكن صعبا على حسان أن يبدأ فى نظم قصيدة جديدة وخاصة أنها فى مدح الرسول وفى استعداد ليوم عظيم وهو يوم فتح مكة ، غير أن القدماء استعظموا الأمر ولم يجدوا سوى تعليلهم هذا ، وقد يقال ان هذه القصيدة ربما نظمها حسان قبل تحريم الاسلام للخمر تحريما نهائيا ، وخاصة أننا نجد فى رواية لابن سلام أن هذه القصيدة أول ما نظم حسان فى الاسلام ، أما اذا كانت قد نظمت فى وقت متأخر فلا شك أن ذكر الخمر فيها تقليد للفن الجاهلى القديم .

وعلى كل ، فقد اختفت الخمريات فى شعره الاسلامى رغم أنها كانت من موضوعات شعره الرئيسية فى الجاهلية .

ج ـ حسان بين المدح والفخر :

لقد شغل موضوعا المدح والفخر كل شعر حسان فى الجاهلية، واستغرقا كل جهده الفنى متنقلا بهما بين قومه من الخزرج وأقربائه من الغساسنة فاذا نظرنا الى هذين الموضوعين فى الاسلام

فلن نجد فرقا كبيرا لا فى نسبة استغراقها لمعظم شعره الاسلامى أو فى طريقة معالجته لهما ، فالموضوعان مرتبطان ببعضهما عنده ، فالقصيدة التى يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم يتغنى فيها بمؤازرة الأنصار له ، بل انه فى بعض هذه القصائد يفخر فيها بمعاونة بنى النجار خاصة للرسول وللمسلمين يقول :

منعنا رسول الله اذ حل وسطنا
على كل باغ من معد وراغم

منعناه لما حل بين بيوتنا
بأسيافنا من كل عاد وظالم

بحى حريد عزه وثراؤه
بجابية الجولان وسط الأعاجم[1]

هل المجد الا السؤدد العود والندى
وجاه الملوك واحتمال العظائم[2]

ومن أشهر ما مدح به حسان رسول الله صلى الله عليه وسلم قصيدتان الأولى همزية وهى التى مطلعها :

عفت ذات الأصابع فالجواء
الى عذراء منزلها خلاء

---

(١) حريد : أى منفرد عن الجماعة لا يخالطهم ارتحاله وحلوله. جابية الجولان موضع بالشام .

(٢) العود : أى القديم الذى يتكرر مع الزمان .

والأخرى عينية ومطلعها :

ان الذوائب من فهـر واخوتهـم
قد بينوا سـنة للنـاس تتبع

وتظهر المعانى الاسلامية فى شعر حسان فى هذه الفترة ، فاذا نظرنا مثلا فى قصيدته الأولى نجده يقول :

وجبريل رسـول الله فينـا
وروح القـدس ليس له كفـاء

ويقول فى قصيدة أخرى فى غزوة الخندق :

وغـدوا علينا قادرين بأيدهـم
ردوا بغيظهـم عـلى الأعقـاب (١)

بهبوب معصفة تفـرق جمعهـم
وجنـود ربك سـيد الأرباب

وهذا المعنى ما جاء فى قوله عز وجل « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها » .

ان شعر حسان تسجيل حى لحياة الرسول وغزواته ، وقد اعتمد عليه شراح السيرة فى تفسير بعض ما غمض من تاريخ هذه الفترة ، واذا كان الأستاذ جيوم guillcume فى مقدمته لترجمة سيرة ابن هشام يشير الى أنه ينبغى الاهتمام بمن ذكر فيها من شعراء وما روى لهم من شعر وخاصة حسان ، فاننا نقول ان القدماء اهتموا بهذا الشعر كوثيقة تاريخية ودينية مما سبب

(١) الأيد : القوة .

مشاكل خطيرة فى روايته والنظر اليه وهو ما حاولنا أن نشير اليه اشارة سريعة فى مقدمة هذا الكتاب .

مدح حسان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعان كثيرة منها الجاهلى القديم ومنها الاسلامى المستحدث ، وقد اتخذ مدحه للرسول صفة الفخر بالمسلمين جميعا وخاصة الأنصار والرد على المشركين ومهاجاتهم ، وكان حسان سلاحا خطيرا فى أيدى المسلمين لا يقل عن أسلحتهم الحربية الأخرى فهو صحيفتهم اليومية وهو لسان دعايتهم . وقد قدر الرسول هذا كله فكان يدعو له قائلا « اللهم أيده بروح القدس » ولقد تطورت هذه الفكرة عند بعض المسلمين حتى قالوا ان جبريل كان يمده بأبيات تساعده فى نظم قصائده !

والمعانى الجاهلية التى مدح حسان بها الرسول والمسلمين هى القيم التى يجلها العرب ويحترمونها كما استمر يجلها الاسلام ويحترمها مثل الدفاع عن الجار والذمار والكرم والشجاعة ونجدة الضعيف واحترام العهود وكلها معان رددها حسان فى شعره الاسلامى ، وامتنع حسان عن التمدح بشرب الخمر واللعب بالميسر وذكر الأيام الجاهلية الا ما لا يثير منها الفتنة بين المسلمين ويثيرها بين المشركين .

ها هو يفتخر بانتصار المسلمين فى بدر ، فيردد صورا جاهلية وان كانت بعض المعانى الاسلامية تتخللها ، وتظهر فيها براعة

حسان فى الربط بين المقدمة الغزلية وبين الموضوع الرئيسى .

يقــول :

يا من لعـــاذلة تلــوم ســـــفاهة
ولقد عصيت الى الهــوى لوامى
بكرت على بســحرة بعــد الكرى
وتقـــارب من حـــادث الأيام
زعمت بأن المرء يكرب يومـــــه
عــدم لمعتكر من الاصـــرام [1]
ان كنت كاذبة الذى حـــدثتنى
فنجوت منجى الحارث بن هشام[2]
ترك الأحبـــة أن يقاتل دونهــم
ونجــا برأس طمـــرة ولجـــام
جرداء تمزع فى الغبـــار كأنهــا
سرحان غاب فى ظـــلال غمــام[3]

---

(١) يكرب : يحزن من الـكرب ، والمعتكر الابل التى ترجع فى عدد غقير فلا يمكن عدها لكثرتها ، والاصرام جمع صرم وصرم جمع صرمة وهى القطعة من الابل ، ولعل يكرب هنا معناها يقرب يتــكون المعنى : زعمت أن الرجل يقرب يومه اى أجله الفقر ، تأمره بعدم الاسراف .

(٢) وكان قد فر من المعركة فى بدر .

(٣) تمزع : تثب ، السرحان : الذئب .

تذر العنـــاجيج الجيـــاد بقفـــرة
مر الذمول بمحصـــــد ورجام (١)
مـــلأت بهالفرجـــين فارمـــدت به
وثوى أحبته بشـــــر مقـــام (٢)
وبنو أبيـــه ورهطـــــه فى معـــرك
نصر الالـــه به ذوى الاســـــلام
طحنتهم — والله ينفـــذ أمره —
حرب يشب ســـعيرها بضـــرام
لولا الالـــه وجـــريه لتركنـــه
جزر السباع ودســـــنه بحوام(٣)

وفى أحد نراه يفخر بماضيه الجاهلى حين يهاجى ابن الزبعرى وكأنه يوم من أيام الجاهلية ، لا يوم من أيام الاســـلام فيقول :

ان خالى خطيب جابيـــة الجـــو
لان عنـــد النعمـــان حين يقـــوم
وأبى فى ســـميحة القـــائل الفـــا
صـــل يوم التقت عليه الخصـــوم
وأنا الصـــقر عنـــد باب ابن سلمى
يوم نعمـــان فى الكبول مقيـــم

---

(١) تذر : تدع والعنـــاجيج جمع عنجوج وهو النجيب من الخيل .
(٢) أرمدت : اسرعت .
(٣) الحوامى : ميامن الحافر ومياسره .

وأبى وواف‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍د أطلقـ‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍ـا لى
ثم رحنـا وقفلهـم محطـوم

ورهنت اليدين عنهـم جميعـا
كل كف فيها جز مقسـوم (١)

وسطت نسـبتى الذوائب منهـم
كل دار فيهـا أب لى عظيـم (٢)

وبنفس المعانى والصور يقول فى أحد أيضا :

فان تسألى الأقـوام عنى فاننى
الى محتـد تنمى اليـه المحـاتد

أنا الزائر الصقر ابن سلمى وعنـده
أبى ونعمـان وعمـرو وواقـد

فأورثنـا مجـدا ومن يجن مثلهـا
بحيث اجتنـاها ينقلب وهو حامد

وجدى خطيب النـاس يوم سميحة
وعمى ابن هند مطعـم الطير خالد

ثم يفخر باستشهاد أخيه أوس بن ثابت فى أحد ، كما يفخر بحفظه لحق الجوار لأن حفظ الجوار أمانة فى عنق الجاهلى الحق:

ومنا قتيل الشعب أوس بن ثابت
شهيدا وأسنى الذكر منـه المشاهد

---

(١) رهنت اليدين منهم أى ضمنتهم ، وجز أصلها جزء ، نقل حركة الهمزة ثم حذفها .
(٢) وسطت : أى توسطت ، والذوائب : الأعالى أى الاشراف .

ومن جده الأدنى أبى وابن أمه
لأم أبى ذاك الشهيد المجاهد
وفى كل دار ربة خزرجية
وأوسية لى من ذراهن والد [1]
فما أحد منا بمهد لجاره
أذاة ولا مزر به وهو عابد
لأنا نرى حق الجوار أمانة
ويحفظه منا الكريم المعاهد

ونقف قليلا عند مدحة مدح بها حسان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام وفد بنى تميم ومعهم شاعرهم الزبرقان بن بدر لتكامل عناصرها ، فقد لاقت استحسانا كبيرا من الرواة القدماء والنقاد المحدثين .

وأول ما يمدح به حسان الرسول هو هذا الدين الجديد ، ولم يستطع حسان أن يتخيل الرسول خارج قبيلته ، وأنه أصبح فردا لا يخضع للتأثير القبلى وكأنه يشعر أن وفد بنى تميم سوف لا ينظر الى شعره بعين الاعتبار اذا لم يمدح الرسول فى قبيلته ، فهذا هو التقليد المألوف . يقول :

---

(١) دار ربة : أى ضخمة .

ان الذوائب من فهـر واخوتهـم
قد بينوا سـنة للنـاس تتبع
يرضى بهـا كل من كانت سريرته
تقـوى الاله وبالأمر الذى شرعوا

ثم ينتقل بعد هذا الى قدرتهم على القتال وانتصـارهم فى الحروب ، وحسان يقرن بين قبيلة الرسول وبين الأنصار فى هذه الصفة . ورغم أن جزءا كبيرا من قبيلة الرسول ما زال مشركا الا أنه يتجاهل هذه الحقيقة لأن التقليد الجاهلى يرى أن القوة بالقبيلة لا بمن ينزل بين أفرادها ويستجير بها . يقول :

قوم اذا حـاربوا ضروا عدوهـم
أو حاولوا النفع فى أشـياعهم نفعوا
سجية تلك منهـم غـير محـدثة
ان الخـلائق فاعلم شرها البـدع

لا يرقع النـاس ما أوهت أكفهـم
عند الدفاع ولا يوهـون ما رقعوا
ان كان فى الناس سباقون بعـدهم
فكل سـبق لأدنى سـبقهم تبع

ثم يعرض لفضائلهم التى تتفق والقيم الجاهلية وان كان يذكر أن الوحى قد أشاد ببعضها :

ولا يضنون عن جـار بفضـلهم
ولا يدنسـهم فى مطمـع طبـع

لا يجهلون وان حاولت جهلهم
في فضل أحلامهم عن ذاك متسع
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم
لا يطبعون ولا يرديهم الطمع
كم من موال لهم نالوا كرامته
ومن عدو عليهم جاهد جدعوا
خذ منهم ما أتوا عفوا اذا غضبوا
ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
فان في حربهم — فاترك عداوتهم —
سما يشن عليه الصاب والسلع
لا فخر ان هم أصابوا من عدوهم
وان أصيبوا فلا خور ولا جزع

وأخيرا لا ينسى حسان الأنصار ولا التأييد الذي منحوه للرسول فيقول :

كأنهم في الوغى والموت مكتنع
أسد ببيشة في أرساغها فدع (١)
اعطوا نبي الهدى والبر طاعتهم
فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا
ان قال سيروا أجدوا السير جهدهم
أو قال عوجوا علينا ساعة ربعوا

---

(١) بيشة : موضع ينسب الى الأسود . الفدع : عوج وميل في المفاصل .

ما زال سيرهم حتى استقاد لهم
أهل الصليب ومن كانت له البيع
نسمو اذا الحرب نالتنا مخالبها
اذا الزعانف من أظفارها خشعوا
اذا نصبنا لقوم لا ندب لهم
كما يدب الى الوحشية الذرع
أكرم بقوم رسول الله قائدهم
اذا تفرقت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحتى قلب يوازره
فيما يحب لسان حائك صنع
فانهم أفضل الأحياء كلهم
ان جد بالناس جد القول أو شمعوا

د ـ حسان وفن الهجاء ٠

كان الهجاء فى شعر حسان الجاهلى قليلا ، وكان متصلا بنغمة الفخر فى معارضاته لقيس بن الخطيم ، ومعظمه يدور حول الجبن والهرب من المعركة ؛ أو الهزيمة والذلة التى تتبعها ، ولم يفحش حسان فى هذا الهجاء ، وانما هو هجاء الأبطال للأبطال كأن يقول فى يوم الدرك[1] :

---

(١) قال ابن الكلبى : كان بين بنى النجار وبنى خطمة اختلاف فى حليف لبنى بياضة من بنى عبس هو الشاعر عروة بن الورد ، فالتقوا بالدرك فاقتتلوا قتالا شديدا حتى كثرت القتلى بينهم ورئيس الخزرج يومئذ عمرو بن النعمان البياضى وكان ظفر ذلك اليوم لهم ٠

وأفلت يوم الروع أوس بن خـــالد
يمج دما كالرغث مختضب النحـر
فان تنج منهـــا يا جـــؤى فانهـــا
رحاب كجوف الغـــــار مظلمة القعر
أو يقول :
ويثرب تعـــلم أن النبيـــــــــــ
ت عنـــد الهزاهـــز ذلانهــــــــا
الى أن يقول :
فلا تفخـــــرن والتمس ملجـــأ
فقـــــد عـــاد للأوس أديانهــــــا
ويقول فى حرب بعاث هاجيا الأوس :
دع ذا وعـــد القريض فى نفـــر
ما لهـــم غير ســـبتى شـــرف
كيف تعاطون مجـــــدنا ســــفها
وأنتـــم دعـــوة لهـــا وكف (١)
الى أن يقول :
وكم قتلنـــــا من رائس لكـــم
فى فيـــلق يجتـــــدى له التلف
ومن لئيـــم عبـــــد يحالفكم
ليست لـــه رتبـــــــة ولا أنف

(١) الدعوة : أن ينتسب الانســـــان الى غير ابيه أو عشيرته
الوكف : العيب والنقص .

ويظهر أن والد حسان كان رجلا ساخرا ذا ميل للهجاء ، فقد حدث أن أسرته مزينة فعرض عليهم الفداء فقالوا : لا نفاديك الا بتيس . ومزينة تسب بالتيوس لأنها تقتنيها وتربيها فأبى وأبوا فلما طال مكثه فيهم أرسل الى قومه أن أعطوهم أخاهم وخذوا أخـاكم .

ويظهر أن حسان فى الجاهلية كان يستعدى الشعراء الآخرين على خصومه ، أما فى الاسلام فقد امتاز حسان فى فن الهجاء حتى خاف المشركون لسانه ، وكان الرسول صـلى الله عليه وسلم يقول « لهذا أشد عليهم من وقع النبل » وقال أبو عبيدة : كان المخبل القريعى أهجى العرب . بلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

انما هو عذاب يصبه الله على من يشاء من عباده ، ثم كان بعده حسان بن ثابت رضى الله عنه ثم الحطيئـة والفرزدق وجـرير والأخطل ، هؤلاء الستة الغاية فى الهجاء وفى غيره ، لم يكن فى الجاهلية ولا فى الاسلام لهم نظير . ولم يكن حسان وحده الذى يهجو المشركين ويدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن كان هناك شاعران آخران هما عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وقد تخصص حسان وكعب فى الرد على شعراء المشركين بمثل قولهم فى الوقائع والأيام والمآثر وهجائهم بالمثالب ، أما عبد الله ابن رواحة فكان يعيرهم بالكفر ، فكان قول حسان وكعب أشد القول عليهم وهم مشركون ، فلما أسلموا كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان : يا حسان اذهب الى أبى بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ثم أهجهم وجبريل معك . فلما أنشدت قريش شعر حسان قالت : هذا الشتم ما غاب عن ابن أبى قحافة ، يعنون أبا بكر .

والآن ، كيف كان حسان يهجو قريشا بأنسابها وأيامها ورسول الله صلى الله عليه وسلم منها ، وخاصة بعد ما أدرك النبى دقة الموقف ، فقد هجا شاعر من قريش الرسول ، وأراد حسان أن يرد عليه فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم منها ، « كيف وأنا منه وهو منى » فقال حسان : والله لأسلنك منه كما تسل الشعرة من العجين !

ان طريقة حسان فى هجاء القريشيين هو أن ينفى نسبهم من قريش وينسبهم الى فرع القبيلة البعيد ويهجوهم من خلاله أو ينسبهم الى قبيلة أخرى . يقول مثلا فى هجاء المغيرة :

اذا نسبت يومــا قريش نفتكــم
وان تنتسب شــجع فأنت نسيبها

وان التى ألقتك من تحت رجلهــا
وليدا لمهجــان الغــذاء خبوبهــا

وأمك من قسر حباشـــة أمهــا
لسمراء فهــم أسن البــول طيبها

فهو ينفى المغيرة من قريش وينسبه الى شجع بطن من كنانة وهم بنو شجع بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة

وبذلك نجح حسان فى هجاء القرشيين دون أن يمس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مثال آخر يوضح هذه الطريقة التى كان يهجو بها القرشيين .

يقول فى هجاء بنى عوف بن عبد عوف :

وسائل قريشا وأحلافها
متى كان عوف لها ينسب
أفيما مضى نسب ثابت
فيعلم أم دعوة تكذب
فان قريشا ستنفيكم
الى نسب غيره أثقب
الى جذم قين لئيم العرو
ق عرقوب والده أصهب
الى تغلب انهم شرجيل
فليس لكم غيرهم مذهب
وقد كان عهدى بها لم تنل
سنيا ولا شرفا تغلب

فهذا حسان ينفى بنى عوف من انتسابهم لقريش وينسبهم الى تغلب ، بل انه ينسبهم الى غير العرب لأن العرب يصفون الروم بأنهم صهب السبال . والصهبة الحمرة .

وقد نفى أحد علماء القرن الثالث وهو العدوى أن تكون هذه الأبيات لحسان دفاعا عن بنى عوف وحجته فى ذلك أن نسب عبد الرحمن بن عوف صحيح لا غمز فيه وهذا الدليل لا يكفى

لنفى هذا الشعر لأن الشاعر — كما رأينا — يتحايل ويبحث فى نسب بنى عوف عن نقطة ضعف يتشبث بها فان لم يجد ادعى ما يريد حتى يصيب الخصم فى أهم ما يمس العربى وهو نسبه .

ورغم أننا نستطيع أن نثبت أن هذه الأبيات حقيقة ليست لحسان الا أن هذا يدل على أن الذين يضعون الشعر يعرفون طريقة حسان فى هجاء القرشيين وهى انه ينفى نسبهم من قبيلة الرسول وينسبهم الى بطون القبيلة البعيدة أو الى قبائل آخرى لهم بها نسب وبذلك يحقق حسان قوله للرسول عليه السلام سأسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين !

وطريقة أخرى اتخذها حسان فى هجاء مشركى قريش بالأنساب وهى أنه بعد أن ينفيهم من نسبتهم الى آبائهم ينسبهم الى أمهاتهم ويقذع فى هجائهم . يقول فى هجاء الوليد بن المغيرة .

ان التى ألقتك من تحت رجلها
وليدا لمجهال العشى خبوب
ليالى يدعى ديسما بابن صقعب
لما ضم زوج الكلبتين ضروب
فمالك من كعب حصاة تعدها
وان قلت من شجع فأنت كذوب
ولكن قينا حمم الكير أنفه
لئيم المحيا للئام ربيب
اذا حصلت كعب نموا لأبيهم
فطابوا وان تنسب فثم تخيب

فما لك فى الركنين حق حجاجة
ولا لك فى صهر النبى نصيب

ويقول فى مخرمة بن المطلب وأبى صيفى بن هاشم بن عبد مناف هاجيا لهما بأمهما :

اذا ذكرت عقيلة بالمخازى
تقنع من مخازيها اللئام
أبو صيفى الذى قد كان منها
ومخرمة الدعى المستهام
اذا شتموا بأمهم تولوا
سراعا ما يبين لهم كلام

ويقول فى هجاء أبى سفيان هاجيا له بالطريقة الأولى وهى نفيه من قريش :

لعمرك ان الك من قريش
كال السقب من رأل النعام (١)
فانك اذ تمت الى قريش
كذات البو جائلة المرام
وانك اذ تمت الى قريش
كما نيط السرائح بالخذام
فلا تفخر بقوم لست منهم
ولا تك كاللئام بنى هشام

---

(١) الال : الأصل .

ويظهر الأقذع فى الهجاء فى شعر حسان عندما يهجو شعراء المشركين أو يهجـو المشركين أنفسهم ومن أمثلة هـذا الفحش الصارخ قوله فى هجاء هند بنت عتبة .

أشرت لكاع وكان عادتهـــا
لؤم اذا أشـــرت مع الكفـــر

وهو فى هجائه يذكر العورات الجنسية ويهاجـم بالصاق الفحش بأصحابها مما يصعب علينا أن نذكر شواهد منهذا الشعر.

وربما كان أخف ما هجا به حسان أبا سفيان بن الحارث :

أجمعــت أنــك أنت ألأم من مشى
فى فحش مومســـة وزهو غراب
وكـذاك ورثك الأوائل انهـــم
ذهبــوا وصرت بخــزية وعــذاب
فورثت والدك الخيـــانة والخنـا
واللؤم عند تذاكر الأحســـاب

وقد استغل حسان الأخبار التى تشين الأفراد فى هجائهم بها ، كما فعل فى هجائه لصفوان بن أمية ، وكان أبوه — أمية — قد تزوج أمة لمعمر بن حبيب على أنها ابنته ، فولدت منه صفوان، فلما عرف الحقيقة طلقها ، فزوجها معمر مولى حبشيا يقال له الحنبل بن مليك فولدت له عبد الرحمن وكلدة ابنى حنبل فكانا أخوى صفوان لأمه فقال حسان يهجو صفوان فى أمه :

من مبلغ صــفوان أن عجـــوزه
أمـــة لجـاره معمــر بن حبيب

امة يقـــال من البراجـــم أصلهـــا
نسب من الأنســـاب غـــير قريب

ويأتى بعد ذلك بيت قد أفحش فيه .

وهكذا كان حسان قاسيا فى هجائه وخاصـــة اذا تعرض للأنساب فانه يقذع فيها والنسب عند العربى أهم ما يحرص عليه ويدافع عنه ، فكان هجاء المشركين من خلاله أشد عليهم من وقع النبل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد شابت السخرية المرة هجاء حسان ، وهى سخرية تضحك الآخرين وتؤلم من تلتصق به كما فعل بجذام عندما قال :

لعمـــــر أبى ســـــمية ما أبالى
أنب التيس أم نطقت جــــــــذام
اذا ما شاتهم ولـــدت تنـــادوا
أجـدى تحت شاتك أم غـــلام

فالهجاء هنا ليس سبا أو مسا للأنساب ، أو تقطيعا للأعراض ولكن صورة ساخرة لجذام ليس لها من مدلول أكثر من أن يجعل من يستمع اليها يضحك من سخريته بهم .

هـ ـ حســـان والرثاء :

لانجد فى ديوان حسان شعرا فى الرثاء قبل الاسلام وانما نجد كل قصائده فى الرثاء اسلامية .

فاذا نظرنا فى رثائه للرسول صلى الله عليه وسلم فسنجد أن فى ديوانه أربع قصائد فى رثائه ، اثنتان منها مصنوعتان بنص

صريح من العدوى اذ يقول : ليست فى كتاب أبى عمرو ولا رواها ابن الاعرابى وأحسبها مصنوعة . أولاهما :

نب المساكين ان الخير فارقهم
مع الرسول تولى منهم سحرا

وثانيتهما :

يا عين جودى بدمع منك اسبال
ولا تملن من سح واعوال

أما القصيدتان الأخريان فهما ضعيفتا النسج ، ضحلتا العاطفة ليس فيهما ذلك الجزع أو الحزن فضلا عن التأثر الخفيف بموت رجل ليس كغيره من الرجال وانما نبى ورسول غير المجتمع الحجازى دينا وتقاليد وتنظيما !

وهاتان القصيدتان هما :

آليت حلفة بر غير ذى دخل
منى ألية بر غير افناد
ما بال عينى لا تنام كأنما
كحلت مآقيها بكحل الاثمد

ونستطيع أن نقول اننا بانكارنا نسبة هاتين القصيدتين لحسان فلن نجد له شعرا آخر فى رثاء الرسول . فهل نقول انه لم يرث نبيه الذى مدحه ودافع عنه بالشعر طول حياته ؟ انه احتمال بعيد ! وخاصة أن ذلك يثير الأقاويل حول حبه للرسول وللدين الجديد . والاحتمال الآخر أن شعر حسان فى رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم قد ضاع ولم يصل الينا بدليل أننا نجد فى مغازى

ابن اسحاق قصــيدة لم يروها رواة الديوان ورواها أبو زيد الأنصارى — وهو الراوى الثقة — وهى تلك التى مطلعها :

بطيبة رسم للرســول ومعهــــــد

منير وقد تعفـــو الرسوم وتهمـد

وقارىء شعر حسان لا يجد خيرا من هذه القصيدة فى رثائه وفى تعديد صفاته صلى الله عليه وسلم ، بل ربما نعتبرها من أحسن ما نظم فى الاسلام — اذا حذفنا بعض أبياتها الركيكة — وذلك لتغلغل الروح الاسلامية فيها مع احتفاظها بقوة السبك وجزالة التركيب . ولن نجد خيرا من تسجيلها هنا كاملة لتصور نفسها بنفسها .

بطيبة رسم للرســوم ومعهـــــد

منير وقد تعفــو الرســوم وتهمد

ولا تمتحى الآيات من دار حرمــة

بها منبر الهادى الذى كان يصــعد

وواضــــح آثار وباقى معـــــالم

وربع له فيه مصــــلى ومســــجد

بها حجرات كان ينزل وســـطها

من الله نـــور يســـتضاء ويوقــد

معارف لم تطمس على العهــد آيها

أتاها البـلى فالآى منهــا تجــــدد

عرفت بها رسم الرسول وعهده
وقبرا بها واراه فى الترب ملحد (١)
ظللت بها أبكى الرسول فأسعدت
عيون ومثلاها من الجفن تسعد
يذكرن آلاء الرسول وما أرى
لها محصيا نفسى فنفسى تبلد
مفجعة قد شفها فقد أحمد
فظلت لآلاء الرسول تعدد
وما بلغت من كل أمر عشيره
ولكن نفسى بعد ما قد توجد
أطالت وقوفا تذرف العين جهدها
على طلل القبر الذى فيه أحمد
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت
بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وبورك لحدمنك ضمن طيبا
عليه بناء من صفيح منضد
تهيل عليه الترب أيد وأعين
عليه وقد غارت بذلك أسعد
لقد غيبوا حلما وعلما ورحمة
عشية علوه الثرى لا يوسد

---

(١) يظهر أن حسان نظم هذه القصيدة بعد وفاة الرسول بمدة .

وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم
وقد وهنت منهم ظهور وأعضد

يبكون من تبكى السماوات يومه
ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد

وهل عدلت يوما رزية هالك
رزية يوم مات فيه محمد

تقطع فيه منزل الوحى عنهم
وقد كان ذا نور يغور وينجد

يدل على الرحمن من يقتدى به
وينقذ من هول الخزايا ويرشد

امام لهم يهديهم الحق جاهدا
معلم صدق ان يطيعوه يسعدوا

عفو عن الزلات يقبل عذرهم
وان يحسنوا فالله بالخير أجود

وان ناب أمر لم يقوموا بحملة
فمن عنده تيسير ما يتشدد

فبيناهم فى نعمة الله بينهم
دليل به نهج الطريقة يقصد

عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى
حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

عطوف عليهم لا يثنى جناحه
الى كنف يحنو عليهم ويمهد

فبيناهم فى ذلك النـور اذ غـــدا
الى نورهم سهم من الموت مقصــد
فأصبح محمودا الى الله راجعـــــا
يبكيه حـق المرســـلات ويحمــد
وأمست بلاد الحرم وحشــا بقاعها
لغيبة ما كانت من الوحى تعهـــد
قفارا سوى معمورة اللحـد ضافها
فقيـــد يبكيـــه بلاط وغــرقد
ومسجده فالموحشـات لفقـــــده
خـــلاء له فيــه مقــام ومقعــــد
وبالحجـرة الكبرى له ثم أوحشت
ديار وعرصـــات وربع وموـلـــد
فبكى رسول الله يا عـين عـــبرة
ولا أعرفنـك الدهــر دمعك يجمد
ومالك لا تبكين ذا النعمـــة التى
على الناس منهــا سابغ يتغمـــــد
فجودى عليـــه بالدمــوع وأعولى
لفقد الذى لا مثله الدهر يوجـــد
وما فقد الماضــون مثـل محمــد
ولا مثــله حتى القيــامة يفقـــد
أعف وأوفى ذمـــة بعد ذمـــة
وأقرب منـــــه نائلا لا ينكـــد

وأبذل منـــه للطـريف وتالـــد

اذا ضن معطاء بما كان يتـــلد

وأكرم صيتا فى البيوت اذا انتمى

وأكرم جـــدا أبطحيـا يســـود

وامنع ذروات وأثبت فى العـــلا

دعائم عـز شاهقـــات تشـــيد

وأثبت فرعا فى الفروع ومنبتـــا

وعودا غذاه المزن فالعود أغيـــد

رباه وليـــدا فاستتم تمـــامه

على أكرم الخـيرات رب ممجـــد

تناهت وصـــاة المسلمين بكفـــه

فلا العلم محبوس ولا الرأى يفنـد

أقـــول ولا يلغى لقـــولى عائب

من الناس الا عازب العقل مبعـــد

وليس هـــوانى نازعـــا عن ثنـــائه

لعلى به فى جنـــة الخـلد أخلـد

مع المصطفى أرجو بذاك جـــواره

وفى نيـــل ذاك اليوم أسـقى وأجهد

وقد رثى حسان بعض شهداء المسلمين فى حياة الرســول صلى الله عليه وسلم ، ومن هؤلاء سعدبن معاذ ونافع بن بديل وجعفر بن أبى طالب ، وحمزة وزيد بن حارثة وخبيب ، كذلك رثى مطعم بن عدى الذى أجار رسول الله صلى الله عليه وسلم

عندما طاف بالكعبة قبل الهجرة فى وقت اشتد فيه ايذاء المشركين له وذلك بعد وفاة عمه أبى طالب وهى أبيات جيدة يقول فيها :

أعين ألا ابكى سيد الناس واسفحى
بدمع فان أنزفته فاسكبى الدما
وبكى عظيم المشعرين وربها
على الناس معروفا له ما تكلما
فلو كان مجد يخلد اليوم ما جدا
من الناس أنجى مجده اليوم مطعما
أجرت رسول الله فيهم فأصبحوا
عباوك ما لبى ملب وأحرما
فلو سئلت عنه معد بأسرها
وقحطان أو باقى بقية جرهما
لقالوا هو الموفى بخفرة جاره
وذمته يوما اذا ما تذمما

ومن الملاحظ أن أبيات حسان فى رثاء شهداء المسلمين أفضل فنيا من تلك التى نظمت فى رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم . وربما كان احساسه بأنهم قتلوا فى حرب بيد خصوم يعادونه كما يعادون قومه قد دفعه لأن يبكى بذلك الانفعال الذى كان يسيطر عليه اذا ما بكى خزرجيا أو نجاريا قتل فى يوم من أيامهم الجاهلية، ومن ثم فهو يضيف الى هذا الرثاء هجاء مرا لمن قتلوهم ويتبعه بفخر قوى يشيد فيه بانتصارات المسلمين . يقول راثيا حمزة رضى الله عنه :

دع عنــك دارا عفـــا رســـمها
وابك على حمــزة ذى النـــــائل
المالىء الشـــيزى اذا أعصـــــفت
غبراء فى ذى الســـنة الماحـــل
والتارك القــرن لـــدى لبـــده
يعثر فى ذى الخـــرص الذابل
واللابس الخـــيل اذا أحجمت
كالليث فى غـــاباته الباســـل
أبيــض فى الذروة من هاشـــم
لم يمـــر دون الحق بالباطـــل

بقى بعد ذلك ما أثاره الرواة والنقاد القدماء من أن شعر حسان ضعف فى الاسلام ، وقد رأينا أن الأصمعى علل ذلك بأن الشعر نكد يقوى فى الشر ويسهل ، فاذا دخل فى الخير ضعف ولان ، وكيف علل حسان ذلك فقال ان الاسلام يحجز عنى الكذب ، يعنى أن الاجادة فى الشعر تستدعى الافراط والمبالغة وهذا ضرب من الكذب يمنعه الاسلام .

ان ظاهرة اختلاف المستوى الفنى لشعر حسان فى الاسلام عنه فى الجاهلية ظاهرة لافتة للنظر ، فلا شك أن من يقرأ شعر حسان يشعر بالفارق الكبير بين القصائد التى نظمها فى الجاهلية وبين تلك التى نظمها فى الاسلام ، فقصائده الجاهلية قوية جزلة صادقة التعبير ، تنبض بالحيوية ، وتتدفق بالأحاسيس التى توارثتها نفسه جيلا بعد جيل ، أما شعره الاسلامى فقليل ذلك الذى يحتفظ

بمستواه ، وكثير الذى يسقط ويضعف . وهناك سببان لهـذه الظاهرة :

أولهما : أن كثيرا من هـذا الشعر الضعيف منحول وليس لحسان بن ثابت وانما صنعته قريش ثم أضاف له الرواة كثيرا وقد أشرنا الى شيء من ذلك فى مقدمة هذا الكتاب .

وثانيهما : أن حسان وجد نفسه بعد ظهور الاسلام ودخول يثرب فى الدين الجديد وهجرة الرسول اليها فى مأزق فنى ، كان شاعر الخزرج فى الجاهلية ما يقرب من ستين عـاما كما تذكر الروايات وعاش معظم هذه السنين الطوال التى تعتبر فى عمر الشاعر أهم مراحل خصبه الفنى ، يغرف مما يغرف منه الشعراء الجاهليون ، وجاء الاسلام وتآخى الأوس والخزرج ، وحرمت الخمر والميسر ، وتوقف مديح الملوك ، فليس من المعقـول أن يمدح شاعر مسلم ملكا لم يدخل فى الاسلام بعـد . وأصبح شاعرنا وقد حاصرت الحياة الجديدة فنه لا يجد مجالا ينظم فيه كما تعود فى جاهليته ، وفجأة وجد أن دورا عليه أن يمثله وهو فى الستين من عمره ، وذلك أن يكون شاعر الرسول والمسلمين. لقد كان طوال هذه السنين يؤدى دورا واحدا ، فكيف يمكنه أن يغير هذا الدور الى دور جديد يختلف تمام الاختلاف عن الدور الأول ، فهو لا يستطيع أن يفخر بالأيام القديمة ، ولا يستطيع أن يمدح بالخمر والميسر ، أو يفخر بالخزرج أو يؤجج نار الحرب ، ولكن عليه أن يمدح رجلا ليس بملك أو بشيخ قبيلة وانما رسول جاء بدين جديد . حقا انها لتجربة خطيرة لم يتعرض لها شاعر من

قبل أو من بعد . ثم عليه بعد ذلك أن يمدح خصومه الأوس كما يفخر بهم وكأنهم أهله وعشيرته ، وعليه بعد هذا أن يهجو قوما ما كان بينهم وبينه هجاء من قبل ، قوما سالمتهم قبيلته فى جاهليتها، وصاهرت أفضل أحيائهم ، ثم هذا الرسول الذى يمدحه ينتسب اليهم . انه موقف شائك ولا شك ، وصعب على رجـل قضى ستين عاما فى جو اجتماعى وفنى مختلف أن يجابهــه ، فكيف لا يضعف شعر حسان بعد هذا ، ان تحوله لأن يكون شاعر الرسول قدرة فائقة فى ذاتها ، فكيف به وقد نظم الشعر وصمد أمام المشركين وكان الشاعر الرسمى للاسلام .

ورغم كل هذا فقد استطاع حســان أن ينغص حيــاة من يهجوهم وأن يشيد بمن يمدحهم وكسب المسلمون المعركة الفنية كما كسبوا المعارك الحربيــة .

و ـ حسان وفن المناقضة :

المناقضة عند حسان ليست شيئا جديدا عليه فى الاسلام ، فقد رأيناه فى الجاهلية يناقض شعراء الأوس والقبائل الأخرى المناهضة لقبيلته ويؤدى دوره كاملا فى الرد على كل ما أضافوه اليه أو الى قبيلته مما يشين القيم الجاهلية أو يتعارض مع فتوتها.

وكانت النقائض كلها فى عصر الرسول عليه السلام امتدادا للنقائض الجاهلية من حيث أصولها الفنية ، وقد شارك حسان فيها شعراء مخضرمين أدركوا العصرين الجاهلى والاسلامى فى مكة والمدينة ومن العرب واليهود رجالا ونساء !

ولقد تغيرت النقيضة الاسلامية عن أختها الجاهلية من عدة

نواح، كان الهدف فى الجاهلية يدور حول سبل العيش أو التنافس على الرئاسة أو مطمع فردى ، ولكنه فى الاسلام يدور حول دين ينتشر ودولة تقوم ، وأمة تتكون ، والموضوع فى الجاهلية افتخار وارهاب وتمجيد وهجاء ، فزاد فى الاسلام دعوة الى الايمان ، وتبصيرا بالحق ، وشرحا لدين جديد . واستمر الأسلوب واحدا فى العصرين فهو معارضة بالوقائع والأيام ، والمآثر والمحامد ، وتعيير بالمثالب والمخازى وطعن فىالأنساب والأصول . وقد أضاف الاسلام أسلوبا جديدا برز فيه عبد الله بن رواحة حين كان يعير المشركين بالكفر والاشراك بالله وهو أسلوب لم يعرفه الجاهليون.

ولم يكن الشعراء وحدهم فى هذه المعركة الفنية بل لقد دخلها القرآن [1] الكريم حينما سجل ذلك الجدل الذى كان يثار بين الرسول وبين العرب واليهود والنصارى والمجوس فى موضوعات شتى كالألوهية والنبوة والبعث ، فها هو يرد دعاوى اليهود والنصارى ويكذبهم تكذيبا قائما على أدلة واقعية كقوله تعالى « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل ، فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما . واليه المصير »[2] .

فاذا استمر ادعاؤهم بأنه لن يدخل الجنة غيرهم طالبهم بالبرهان « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى ،

---

(١) انظر تاريخ النقائض فى الشعر العربى ١٢١ وما بعدها .
(٢) سورة المائدة آية ١٨ .

تلك أمانيهم ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ، بلى ، من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[1] .

ان أسلوب القرآن الكريم فى مناقشة خصوم الاسلام أسلوب يعتمد على المناقضة والرد على المفتريات التى يشيعها أعداء الرسول والمسلمين ، ومن هنا لم يكن الشعر الاسلامى وحده فى تلك المعركة الفنية ، بل كانت الحياة الفنية بكل عناصرها تساهم فيها وتشترك بكل مكوناتها حتى استطاع المسلمون فى النهاية أن يتغلبوا فيها كما تغلبوا فى معركة السيف ومعركة الدعوة .

لا نغالى اذن اذا قلنا ان النقائض الاسلامية كانت من الناحية الفنية امتدادا للنقائض الجاهلية وأنها دارت فى ظل الغزوات كما كانت تدور أختها الجاهلية فى ظل الأيام .

ولقد اشترك حسان فى هذه المناقضة منذ غزوة بدر ، واستمر علمها الأكبر ، ولسانها الحاد حتى يوم فتح مكة ، يرد على الخصوم ويهاجم المشركين ، وهو فى كل ذلك يحمى أعراض المسلمين ، ويفخر بنبوة الرسول .

فعندما بكى عبد الله بن الزبعرى قتلى بدر من المشركين فى أبياته التى منها :

ماذا على بدر وماذا حوله
من فتية بيض الوجوه كرام

(1) سورة البقرة آية ١١١ .

تركوا نبيها خلفهـــم ومنبهـا
وابني ربيعـــة خير خصـم فئـام

والحارث الفياض يبرق وجهــه
كالبدر جلى ليـــلة الاظـلام

أجابه حسان :

ابك بكت عينـاك ثم تبـادرت
بـدم تعـل غروبها بســجام

مـاذا بكيت به الـذين تتابعــوا
هلا ذكرت مكارم الأقـــوام

أعنى النبى أخـا المكارم والنـدى
وأبر من يولى عـلى الأقسـام

فلمثـله ولمثـل ما يدعـو لـه
كان الممـدح ثم غـير كهـام

ويقوم رد حسان على نقطتين : استنكاره البكاء على قتلى المشركين من قريش والافتخار بالرسول ودعوته .

وعندما يعرض حسان بالحارث بن هشام وبفراره من المعركة يوم بدر فى قوله :

يا من لعـاذلة تلوم ســفاهة
ولقد عصيت على الهـوى لوامى

ان كنت كاذبة الذى حـدثتنى
فنجوت منجى الحـارث بن هشـام

ترك الأحبـة أن يقـاتل دونهـم
ونجـا برأس طمـرة ولجـام

وبنو أبيـه ورهطـه فى معـرك
نصر الاله به ذوى الاسـلام

يرد عليه الحارث قوله مدافعا عن نفسه ،موجها دعواه الى تفسير جديد فيقول :

الله أعـلم ما تركت قتالهـم
حتى حبـوا مهرى بأشـقر مزبد

وعرفت أنى ان أقاتل واحـدا
أقتـل ، ولا ينكى عدوى مشهدى

فصددت عنهم والأحبـة فيهـم
طمعا لهم بعقـاب يوم مفسـد

وحينما يفزع كعب بن الأشرف اليهودى من انتصار المسلمين فى بدر وهزيمة أشراف قريش يأتى مكة وينزل على عبد المطلب ابن أبى وادعة السهمى فيحرض على الرسول وعلى المسلمين بيكاء أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا فى بدر فيقـول من قصـيدة :

طحنت رحى بدر لمهلك أهـله
ولمثـل بدر تستهـل وتدمـع

قتلت سراة النـاس حـول حياضهم
لا تبعـدوا ان الملوك تصـرع

كم قد أصيب به من ابيض ما جـد
ذى بهجـة يأوى اليـه الضيع
طلق اليـدين اذا الكواكب أخلفت
حمـال أثقـال يسـود ويربع
نبئت أن الحـارث بن هشـامهم
فى الناس يبنى الصـالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجمـوع وانمـا
يحمى على الحسب الكريم الأروع

ويجيبه حسان بن ثابت يسخر به ، ويشمت فى قتلى المشركين، ويهجو الفارين منهم ، ويمدح الرسول :

أبكى لكعب ثم عـل بعـبرة
منـه وعاش مجـدعا لا يسـمع
ولقـد رأيت ببطن بدر منهـم
قتـلى تسـح لها العيـون وتدمع
فابكى فقد أبكيت عبدا راضـعا
شـبه الكليب الى الكليبة يتبـع
ولقـد شـفى الرحمن منا سـيدا
وأهان قـوما قاتلوه وصرعـوا
ونجـا وأفلت منهـم من قلبـه
شـعف يظـل لخوفه يتصـدع

وفى أحد يجد المشركون فرصتهم ، ويعلن أبو سفيان بن حرب النصر متشفيا ، ويصرخ بأعلى صوته :

ولو أننى لم أشـف نفسى منهـم
لكانت شجا فى القلب ذات ندوب
فآبوا وقد أودى الجلابيب منهم
بهم خـدب من معبط وكئيب (١)
أصابهم من لم يكن لدمائهـم
كفـاء ولا فى خطـة بضريب

ويرد عليه حسان يذكره بانتصار المسلمين فى بدر وكيف حصدوا فيها قريشا حصدا ، وأن حمزة لم يمت هدرا وانما قتل به فى بدر أشراف قريش :

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم
ولست لزور قلتـه بمصيب
أتعجب أن أقصدت حمزة منهـم
نجيبـا وقد سـميته بنجيب
ألم يقتلوا عمـرا وعتبـة وابنـه
وشـيبة والحجـاج وابن حبيب
غداة دعا العـاصى عليـا فراعـه
بضربة عضب بلـه بخضيب

وكثرت المناقضة فى أحد وتعددت جوانبها كما تعدد شعراؤها فهذا هبيرة بن أبى وهب المخزومى من المشركين يقول :

سـقنا كنانة من أطراف ذى يمن
عرض البـلاد على ما كان يزجيهـا

(١) الخدب : الطعن النافذ للجوف .

قالت كنـــانة : أنى تذهبون بنـــا ؟
قلنا : النخيـــل ، فأموها ومن فيها
نحن الفوارس يوم الجـــر من أحد
هابت معـــد ، فقلنا : نحن نأتيهـــا
هابوا ضرابا وطعنـــا صـــادقا خذما
مما يرون . وقد ضمت قواصـــيها
ثمت رحنـــا كأنا عـــارض برد
وقام هـــام بنى النجـــار يبكيها
ويرد حسان عليه معاليه قائلا :
سقم كنـــانة جهـــلا من ســـفاهتكم
الى الرســـول فجنـــد الله مخزيهـــا
أوردتموها حيـــاض الموت ضـــاحية
فالنـــار موعـــدها والقتـــل لاقيها
جمعتمـــوها أحابيشـــا بلا حسب
أئمة الكفر ، غرتكم طواغيهـــا
ألا اعتبرتم بخيـــل الله اذ قتلت
أهـــل القليب ومن ألقينـــه فيهـــا
كم من أســـير فككناه بلا ثمن
وجـــز ناصـــية كنا مواليهـــا

كان هبيرة ممتازا فى توجيه الفخر ، وممتازا فى اختيـــار الأسلوب ، ثم كان معتزا بنتيجة المعركة ، متخذا منها أرضه الصلبة ومستمدا منها أيضا نغمة الانتصار ، وكان حسان يحس بكل

ذلك ، وكان عليه أن يوجه كل هذه المعانى توجيها فى صالحه ، فكان سوق كنانة عنده جهالة لا بطولة ، وكانت قيادتها الى الموت لا الى النصر ، ثم كان السبق فى النصر للمسلمين فى بدر فهو يومهم الأعظم ، وفخرهم الأجل .

وربما كان من أعنف من قابلهم حسان فى مناقضاته شاعر المشركين عبد الله بن الزبعرى الذى وقف ينشد أغنية أحد التى كانت تغنيها قريش كلما تأزمت بها الحال . يقول موجها حديثه لحسان :

يا غراب البين أسمعت فقل
انما تنطق شيئا قد فعل

ان للخير وللشر مدى
وكلا ذلك وجه وقبل

أبلغا حسان عنى آية
فقريض الشعر يشفى ذا الغلل

كم ترى بالجسر من جمجمة
وأكف قد أبيرت ورجل

كم قتلنا من كريم سيد
ماجد الجدين معدام بطل

فسل المهراس من ساكنه
بين أقحاف وهام كالحجل

ليت أشياخى ببدر شهدوا
جزع الخزرج من وقع الأسل

ولم يكن أمام حسان الا بدر يستمد منها رده عليه ففيها يجد ما يستطيع أن يوازن به بين النصرين : نصر المسلمين في بدر ونصر المشركين فى أحد . وكان عليه فى هذه الموازنة أن يثبت أن انتصار المشركين فى أحد ليس شيئا ، والنصر كل النصر ما كان فى بدر .

يقول :

ذهبت بابن الزبعـــرى وقعـــة
كان منا الفضـل فيها لو عـــدل
ولقـــد نلتـــم ونلنـا منكـم
وكذاك الحـــرب أحيـــانا دول
نضـع الأســياف فى أكتـافكم
حيث نهـــوى عللا بعـد نهـل
اذ تولـــون عـلى أعقـــابكم
هربا فى الشـعب أشـــباه الرسل
اذ شـــددنا شـدة صـــادقة
فأجأناكم الى ســـفح الجبـــل
وعلـــونا يوم بـدر بالتـــقى
طاعـة الله وتصـــديق الرســـل
وتركنـــا فى قريش عــــــورة
يوم بدر وأحـــاديث المثــــل

وتكثر المناقضات ، فها هو يهجو أبا سفيان بن الحارث فى بدر الآخرة التى رجع فيها أبو سفيان فلم يتقدم للقاء المسلمين بأبياته التى أولها :

دعوا فلجات الشام قد حـال دونها
جلاد كأفواه المخـاض الأوارك

أقمنا عـلى الرس النزوع ثمانيـا
بأرعن جـرار عريض المبـارك

بكل كميت جـوزه نصـف خلقـه
وقب طـوال مشرفات الحـوارك

فأبلغ أبا سفيان عنى رسـالة
فانك من عز الرجـال الصـعالك

فيجيبه أبو سفيان بأبياته التى منها :

أحسان مهلا يا ابن آكلة الغفـا
وجـدك نغتـال الخروق كذلك

أقمت عـلى الرس النزوع تريدنا
وتتركنا فى النخـل عنـد المدارك

على الزرع تمشى خيلنـا وركابنا
فمـا وطئت ألصـقنه بالدكادك

وجدير بالملاحظة فى هذه النقيضة أن أبا سفيان حين يهجو حسان وقومه من الخـزرج ينفى عنهم فضيلتين يتمـدح بهما المسلمون وهما : الهجرة والتدين ويثبتهما لقريش المهاجرة فهى منهم على أى حال !

فانك لا فى هجـرة ان ذكرتهـا
ولا حرمات الدين أنت بناسـك

وفى يوم الخندق نجد المعركة حادة بين ابن الزبعرى وحسان، فابن الزبعرى يفتخر بجيش عيينة الذى ناصر المشركين، ويعلن أنه لولا الخندق الذى حفره المسلمون حمـاية لهم ودفاعا عن مدينتهم لدخلت قريش المدينة ظافرة قائلة . وهذه القصيدة هى التى أولها :

حيّ الديار محـا معـــارف رسمها
طول البــلى وتراوح الأحقـــاب

وفيها يقول :

جيش عيينـــة قاصــــد بلــوائه
فيه وصـــخر قائد الأحـــزاب

قرمان كالبــدرين أصبح فيهمـــا
غيث الفقــير ومعقـــل الهــراب

حتى اذا وردوا المدينـــة وارتدوا
للموت كل مجـــرب قضــــاب

شهرا وعشرا قاهرين محمـــــدا
وصــحابه فى الحرب خــير صحاب

نادوا برحلتهــــم صــــبيحة قلتم
كدنا نكون بهـــا مــع الخيــاب

لولا الخنادق غادروا من جمعهــم
قتــــلى لطـــير ســـغب وذئاب

وبرد حسان على ابن الزبعرى معانيه[1] ، فهذا الجيش — وعيينة معه — قد هزمته العاصفة ، ورد على عقبه مغيظا وكان ذلك حماية من الله تعالى للرسول والمسلمين .

جيش عيينة وابن حـرب فيهـم
متخمطـون بحلبـة الأحـزاب
حتى اذا وردوا المدينـة وارتجـو
قتـل الرسـول ومغنـم الأسلاب
وغـدوا علينا قادرين بأيدهـم
ردوا بغيظهم على الأعقـاب
بهبوب معصفة تفـرق جمعهـم
وجنـود ربك سـيد الأرباب
فكفى الالـه المؤمنين قتالهـم
وأثابهـم فى الأجـر خـير ثواب
من بعد ما قنطوا ففرق جمعهـم
تنزيل نصر مليكنـا الوهـاب

وتكثر المناقضـات لأن الصراع مستمر ، والمعركة دائرة ، والقلم يشارك السيف فى كل ضربة ، ويرمى مع القوس فى كل رمية ، وهنا يحق لنا أن نسأل كيف كان موقف حسان فى هذا الخضم الجارف وما مكانته فيه .

---

(١) مطلع قصيدة حسان :
هل رسـم دراسة المقام يبـاب
متـكلم لمحـاور بجـواب

ربما كان فى حديثنا السابق اشارات الى طبيعة موقفه والى مكانته بين هؤلاء المتناقضين ، ولكن يهمنا هنا أن نفصل الحديث فى كل ذلك لأن المناقضات هى الموضوع الرئيسى الذى يساعدنا على رسم صورة واضحة لشخصية حسان فى الاسلام .

لنتخيل شاعرا عاش أخصب فترات عمره عيشة جاهلية بكل ما يمثله هذا اللفظ من تصوير لهذه البيئة بمعتقداتها وتقاليدها وثقافاتها وتكوينها الاجتماعى والنفسى . ولم يكن هذا الشاعر منعزلا أو مبتعدا عن هذه البيئة بأى صورة من الصور ، بل على العكس كان ممثلا لها فى كل شئونها ، وتعكس عليه كل ملامحها لأنه كان ابنا بارا لعصبيتها ولكل ما تمثله من أساليب حياة .

وفجأة تتغير هذه البيئة كلية — أو اذا حاولنا أن نحترز قليلا — تتجه نحو التغير فى كل مكوناتها ، التكوين الاجتماعى والعقيدى والاقتصادى والنفسى وهو ما حاولنا أن نتحدث عنه فى أول هذا القسم من كتابنا عندما تحدثنا عن التغير الكبير الذى طرأ على يثرب ، وفجأة أطالب الشاعر بأن يتغير هو أيضا ، يتغير فى معتقده وفى طريقة ارتباطه بمجتمعه وفى نفسيته وهذا أخطر التغيرات جميعا . وهو ليس انسانا عاديا اذا حدث تغير فيه فلن يشعر به أحد شعورا مباشرا ولكنه شاعر خطير ينظر اليه كما ينظر الى فارس من فرسان القبيلة أو شيخ من شيوخها لأن مكانته فى قومه لا تقل عن ذلك ان لم تعل هؤلاء جميعا . وهو ينظم الشعر يتحدث به عن مألوف معتقدات القبيلة وقيمها وأسلوب حياتها ولقد عاش ستين عاما يؤدى دوره هذا دون كلل ودون

أى تغيير . وفجأة تطالبه القبيلة أن يتغير كما تغيرت ، وأن يسلك سلوكا جديدا لم يتعوده طوال عمره الطويل الذى عاشه ، وان لم يفعل ذلك فقد اختل وضعه الاجتماعى ، وفقد صفته الأساسية فى قومه ووظيفته الرئيسية فى بيئته ! والشاعر ذكى ، ويعلم جيدا أنه ان فشل فى توجيه حياته وأسلوب معيشته وتوجيه فنه أيضا هذه الوجهة الجديدة فقد نفسه بين قومه . وان هذا كله يجعلنا نتصور الموقف الحرج الذى وضع فيه حسان الشاعر الجاهلى العريق !

وقد يكون من السهل نسبيا أن يتغير حسان معتقده ، وأن يألف التكوين الجديد لمجتمعه ، وأن يخضع لكل ما ألم بقومه من تغيير فلا يتخلف فى اتباعها ولكنه هل يستطيع بهذه السهولة أيضا أن يغير من تكوينه النفسى الذى تحددت أبعاده ، وترسبت خصائصه طوال هذا العمر الطويل !

تلك كانت مشكلة حسان مع نفسه ومع فنه !

لقد وجد حسان فى النقيضة متنفسا للتعبير عن هذه النفسية ما لم يجده فى أى شكل آخر كالقصيدة مثلا ، لأن النقيضة هى الفن الجاهلى الأصيل الذى يعبر عن ذلك الصراع الذى كان يمثل منطق البقاء لتلك الحياة ، والمناقضة كالمبارزة سواء بسواء هى المظهر الرئيسى لهذا الصراع ، وهى المعبر عنه كلما التقت الصفوف ، وتقارعت السيوف . لذلك نلاحظ فى تلك الأمثلة التى ذكرناها عن هذه المناقضات الاسلامية أنها استمرار للمناقضات الجاهلية فى شكلها ومضمونها وان كسا حسان الاسلامية منها

ببعض المعانى المستمدة من الدين الجديد والتى لم تكن مألوفة فى هذا الوقت .

فالنقيضة الاسلامية كأختها الجاهلية اصطراع بأصالة الأنساب وأمجاد الأيام ، وافتخار بقيم الفتوة ، وعنجهية البداوة . وتهاج بذكر المثالب وتسجيل المخازى واظهار المعايب وفضح العورات ، ثم بعد ذلك اصرار على الانتقام وقتل الخصوم ، وتأكيد فى ابراز الفردية وقوة العصبية .

وكان حسان صاحب مجد فى كل ذلك فى الجاهلية ، واستمر صاحب فضل فى كل ذلك فى الاسلام ، فأما الاصطراع بأصالة الأنساب وأمجاد الأيام فقد غرف من النبع الجاهلى القديم ثم استمد من نبع جديد انبثق فى عهد الرسول وهو فى غزواته صلى الله عليه وسلم للمشركين . وأما الافتخار بقيم الفتوة وعنجهية البداوة فقد أبقى الاسلام على كثير من مظاهر هذه الفتوة كذلك أبقى على القوة النفسية للبدوى وأخذ يوجهها نحو الخير والحق، ويستمد حسان من العنصرين معا : الفتوة والقوة النفسية — المعانى فى مناقضاته . وأما التهاجى بالمثالب والمخازى فقد اعتمد حسان عليهما فى اذلال مهاجيه من المشركين ولم يتوان عن ذكر المعايب وفضح العورات ليحطم من كبريائهم ، ويذل من نفسياتهم.

واذا نظرنا بعد ذلك الى تأكيده لنبرة الانتقام فى شعره وخاصة بعد أحد وبعد يوم بئر معونة وبئر الرجيع ، فسنجد أنها تتردد بعنف فى نقائضه ، يرد بها على من شمتوا بالمسلمين فى تلك الأيام، وفرحوا فيمن استشهد منهم غدرا وغيلة .

ولقد كان شعر حسان كله يؤكد نوعا جديدا من العصبية غلف به العصبية الجاهلية القديمة ، تلك هى عصبيته للمسلمين من الأنصار والمهاجرين ، وعصبيته للرسول صلى الله عليه وسلم وما يحمله من عقيدة قويمة وكتاب كريم . ورغم أن عصبية حسان القبلية كانت تظهر الى جانب هذه العصبية الجديدة فقد كان ذلك ليمكن لنفسه من أن يرد على عصبية قريش المفاخـرة بالأيام والأنساب ، والتى دفعته الى أن يتحدث ويفاخر بعصبية الخزرج وبنى النجار .

واننا لنؤكد بعد كل ما عرضناه من نماذج وأمثلة لهـذه المناقضات من أن هذا الفن كان أهـم ما نجح فيه حسان فى الاسلام ، وان أى قراءة سريعة لمناقضاته ستجعلنـا نحس من الوهلة الأولى بقوتها وتفوقها على غيرها من فنون شعره ، وان سبب ذلك بسيط جدا ، فقد وجد فى هذه المناقضات استمرارا لفنه الجاهلى القديم الذى ألفه طوال عمره ، واسـتمر يألفه فى الاسلام دون أن يضطر لأن يغير من أصوله شيئا .

الفصل الرابع

شعر حسّان فى عصر الخلفاء الراشدين

امتد العمر بحسان حتى شهد خلافة على ، ومعنى ذلك أنه عاصر أهم فترة فى تاريخ نشأة الدولة الاسلامية من حيث تكوينها وفتوحاتها . وهكذا أتاح القدر لهذا الرجل أن يشهد أخطر ثلاث مراحل فى تاريخ الجزيرة العربية مرحلة ما قبل الاسلام عندما بلغ الصراع القبلى أوجه حتى خاف كل عربى على نفسه من القتل اذا ما خرج عن حيه أو حصنه ، ومرحلة الدعوة الاسلامية كلها منذ أن بعث الرسول صلى الله عليه وسلم حتى وفاته . بكل ما فيها من أحداث وتطور فى مجتمع الجزيرة العربى ، وأخيرا مرحلة خلافة الخلفاء الراشدين وما ضمته هذه المرحلة من أحداث خطيرة تتصل بالدعوة كحروب الردة ومدعى النبوة وحروب الفتح ثم أحداث الفتنة الكبرى فى عصر عثمان وعلى وتصدع الوحدة الاسلامية .

وقد شهدت مدينة الرسول نوعا من الحياة الهادئة المستقرة فى عهدى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما اذ أصبحت عاصمة الدولة الجديدة حتى أن القرشيين الطامحين انتقلوا من مكة اليها كأبى سفيان بن حرب وبنى أمية منذ أواخر عهد الرسول ، وكثرت

الهجرة اليها — ليس من مكة فحسب بل من جميع أنحاء جزيرة العرب وخاصة أولئك الذين كانوا يبحثون عن فرصتهم فى هذه الحياة الجديدة . وأخذ عدد المهاجرين يتزايد حتى فقد الأنصار — سكان يثرب الحقيقيون — كثرتهم العددية وأخذوا ينزلون الى المرتبة الثانية عددا ونفوذا . وهكذا أصبحت المدينة مقر الحكومة الاسلامية ، كما أصبحت مقر الطبقة الارستقراطية من القرشيين ، وكثرت فيها الأموال التى كانت تتدفق على المسلمين أثناء حروب الفتح مما هيأ الفرصة لانتشار الترف ، والانغماس فى الرفاهية وكان لهذا مظاهره فى المدينة .

وحينما خرج الخلفاء الأولون من صفوف قدماء الصحابة وكبارهم أولئك الذين هاجروا بدينهم وثبتوا فى ميادين الجهاد الى جانب نبيهم ، خلف ذلك شيئا من الأسى فى أول الأمر فى نفوس الأنصار الذين كانوا يرغبون فى أن تكون الخلافة فيهم ، وظهر ذلك يوم انتخاب أبى بكر خليفة للمسلمين فى سقيفة بنى ساعدة ، وقد كان لحروب الردة أثرها فى اختفاء الانقسام الذى كان يمكن أن يقع فى انتخاب الخليفة الأول ، فالخطر يتهدد المسلمين جميعا ، والأنصار — وهم الأوفياء لرسولهم ولدينهم — هم أول من يخرجون لرد المرتدين واخماد ثورات المتنبئين .

وحينما بدأ عصر الفتح الاسلامى لامبراطوريات الشمال كان الأنصار يكونون جزءا عظيما من الجيش الفاتح وان لم تكن القيادات الكبيرة فى أيديهم .

ولم تنته معارضة الأنصار للخليفة الحاكم وانما اندمجت فيما

بعد فى التيار الذى كان يتزعمه أهل التقى والمتمسكون بسلامة نظام الحكومة التيوقراطية !

وقد لاقت سياسة عثمان وولاته معارضة شديدة فى الأمصار الاسلامية المفتوحة ، وقامت فيها الثورات مثل ثورة مالك بن الأشتر فى الكوفة ، وثورة محمد بن أبى حذيفة فى مصر ، ووفد الثوار الى المدينة وحينئذ شهدت حدثا رهيبا وهو مقتل خليفة رسول الله عثمان بن عفان على أيديهم . وكان أكثر أهل المدينة لا يميلون لعثمان وشيعته الأموية ولكن يميلون الى على بن أبى طالب ويرون فيه أحق أهل الرسول بالخلافة ، لذلك سرعان ما بايعوه مبايعة عامة فى مسجد الرسول وفى نفس اليوم الذى قتل فيه عثمان . أما المناهضون لعلى فقد خرجوا منها بعد أن أصبحت معقلا لأنصاره . وقد اتجه طلحة والزبير ومعهما السيدة عائشة رضى الله عنها الى البصرة حيث استولوا عليها . واتخذوها قاعدة لمناهضة الخليفة الجديد . وعندئذ لم يكن أمام على الا أن ينتقل الى الكوفة حيث يسيطر مؤيده مالك بن الأشتر ليكون قريبا من مراكز المعارضة سواء فى البصرة أو دمشق . وبذلك انتهت الخلافة من مدينة الرسول وانتقل مركز الثقل فى جزيرة العرب من وسطها الى أطرافها .

وأصبحت المدينة بعد انتقال الخلافة منها ملاذ الطبقة الأرستقراطية من العرب وصومعة الذين اعتزلوا الحياة العامة من كبار الصحابة والتابعين بسبب أحداث الفتنة وانشقاق المسلمين .

وتستمر الأحداث فى توجيه الشعور العام بالمدينة بعد مقتل

على ، ولكن الى هنا لا نجد أخبارا عن حسان ، وأغلب الظن أنه توفى فى أواخر الفتنة أو أوائل خلافة معاوية وكان قد بلغ نيفا ومائة عام .

ولكننا اذا تتبعنا حياته منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فسنجد أن صوته يخفت فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وكأنه قد أدى واجبه فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان من المتوقع أن نسمع صوت حسان يسجل أحداث المرتدين والمتنبئين وهى أحداث هزت المجتمع الاسلامى فى أول عهده بغياب الرسول عنه ، وغياب قيادته الروحية والمدينة المباشرة .

وقد يكون حسان قد سجل شيئا من هذه الأحداث وفقدها الرواة اذ أننا نجد أبياتا له فى هجاء بنى سليم وكانوا قد قالوا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم : لا نطيع أبا الفصيل ويعنون أبا بكر . يقول فى هذه الأبيات :

ما البكر الا كالفصيل وقد ترى
أن الفصيل عليه ليس بعار

انا وما حج الحجيج لبيته
ركبان مكة معشر الأنصار

نفرى جماجمكم بكل مهند
ضرب القدار مبادى الأيسار

حتى تكنوه بفحل هنيدة
يحمى الطروقة بازل هدار

ونجد أبياتا له فى أبى بكر أيضا اختلف فيها الباحثون ، فمنهم من قال انها فى مدحه ، ومنهم من قال انها فى رثائه . يقول فيها :

اذا تذكرت شجوا من أخى ثقة
فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها
بعد النبى وأوفاها بما حملا
والثانى الصادق المحمود مشهده
وأول الناس منهم صدق الرسلا
عاشا حميد لأمر الله متبعا
بهدى صاحبه الماضى وما انتقلا

وقد أشار الجاحظ الى أن هذه الأبيات فى رثاء أبى بكر وكذلك دونت مخطوطات الديوان ، غير أن الأستاذ عبد السلام هارون يقول انها فى مدحه رضى الله عنه .

ولا أحب أن أشك فى صحة نسبة هذه الأبيات لحسان فذلك له مكان آخر .

أما فى عهد عمر فاننا نجد أبا الفرج الأصفهانى يسجل خبرا فى أغانيه يدل على صلة حسان بالنزاع القبلى الذى كان ما يزال يعيش فى نفوس بعض المسلمين ويوجه سلوكهم ، كذلك يدل على أن المناقضات التى ثارت بين شعراء المسلمين وشعراء المشركين ما زالت تثير الاحن فى النفوس . وكان عمر قد نهى الناس عن أن ينشدوا شيئا من مناقضة الأنصار ومشركى قريش ، وقال : فى

ذلك شتم الحى بالميت وتجديد الضغائن . وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء فى الاسلام .

فقد حدث أن قدم المدينة عبد الله بن الزبعرى السهمى وضرار ابن الخطاب الفهرى — وهما من كبار هجائى قريش المشركة قبل الفتح — فنزلا على أبى أحمد بن جحش وقالا له : نحب أن ترسل الى حسان بن ثابت حتى يأتيك فننشده وينشدنا مما قلنا له وقال لنا . فأرسل اليه فجاءه . فقال له : يا أبا الوليد ، هذان أخواك ابن الزبعرى وضرار قد جاءا أن يسمعاك وتسمعهما ما قالا لك وقلت لهما . فقال ابن الزبعرى وضرار : نعم يا أبا الوليد ! ان شعرك كان يحتمل فى الاسلام ولا يحتمل شعرنا . وقد أحببنا أن نسمعك وتسمعنا . فقال حسان : فتبدآن أم أبدأ ، قالا : نبدأ نحن . قال : ابتدئا ! فأنشداه حتى فار فصار كالمرجل غضبا ، ثم استويا على راحلتيهما يريدان مكة . فخرج حسان حتى دخل على عمر بن الخطاب فقص عليه قصتهما وقصته. فقال له عمر ، لن يذهبا عنك بشىء ان شاء الله . وأرسل من يردهما. وقال له عمر : لو لم تدركهما بمكة فارددهما علىّ . وخرجا ، فلما كانا بالروحاء (١) رجع ضرار الى صاحبه بكره فقال له : يا ابن الزبعرى ! أنا أعرف عمر وذبه عن الاسلام وأهله ، وأعرف حسان وقلة صبره على ما فعلنا به ، وكأنى به وقد شكا اليه ما فعلنا فأرسل فى آثارنا وقال لرسوله : ان لم تلحقهما الا بمكة فارددهما على فاربح بنا ترك العناء وأقم بنا مكاننا ، فان كان الذى ظننت

(١) موضع بين مكة والمدينة على بعد ثلاثين ميلا من المدينة .

فالرجوع من الروحاء أسهل منه من أبعد منها ، وان أخطأ ظنى فذلك الذى نحب ونحن من وراء المضى . فقال ابن الزبعرى : نعم ما رأيت . قال فأقاما بالروحاء فما كان الا كمر الطائر حتى وافاهما رسول عمر فردهما اليه ، فدعا لهما بحسان . وعمر فى جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال لحسان : أنشدهما مما قلت لهما ، فأنشدهما حتى فرغ مما قال لهما فوقف. فقال له عمر : أفرغت ؟ قال : نعم ! فقال له : انشداك فى الخلاء وأنشدتهما فى الملأ . وقال لهما عمر : ان شئتما فأقيما ، وان شئتما فانصرفا . وقال لمن حضره : انى قد كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئا دفعا للتضاغن عنكم وبث القبح فيما بينكم ، فأما اذا أبوا فاكتبوه واحتفظوا به . فدونوا ذلك عندهم . قال خلاد بن محمد فأدركته والله وان الأنصار لتجدده عندها اذا خافت بلاءه .

وقد رثى حسان عمر بن الخطاب عندما توفى بأبيات قليلة : تحكى قصة مقتله وتصف أخلاقه بصورة تقريرية لا أثر فيها للعاطفة أو التأثر . وهى :

وفجعنـــا فيروز لادر دره
بأبيـــض يتـــلو المحكمات منيب

رءوف على الأدنى غليظ على العدا
أخى ثقـــة فى النائبـــات نجيب

متى ما يقل لا يكذب القول فعـله
سريع الى الخـيرات غـير قطوب

مطيع لأمــر الله بالحــق عــارف
بعيـــد الأنام عنــــده كقريب

وتأتى الخلافة الى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، واذا بنا فجأة نسمع صوت حسان مرة أخرى — بعد أن كان اختفى تقريبا فى عهد أبى بكر وعمر — ثائرا غاضبا ومتوعدا ومؤلبا وذلك أثناء الثورة عليه من الأمصار ثم بعد مقتله رضى الله عنه . وهنا تقف برهة لنتبين هوى حسان فى خضم هذا الصراع السياسى الذى بدأ بخلافة عثمان .

روى أبو الفرج الأصفهانى (١) أن حسان بن ثابت ونعمان ابن بشير وكعب بن مالك كانوا عثمانية ، وكانوا يقدمون بنى أمية على بنى هاشم . ويقولون الشام خير من المدينة ، واتصل بهم أن ذلك قد بلغ عليا فدخلوا عليه فقال له كعب بن مالك : يا أمير المؤمنين ! أخبرنا عن عثمان أقتل ظالما فنقول بقولك أو قتل مظلوما فنقول بقولنا ونكلك الى الشبهة فيه ، فالعجب من تيقننا وشكك . وقد زعمت العرب أن عندك علم ما اختلفنا فيه ، فهاته نعرفه . ثم قال :

وكف يـــديه ثم أغــلق بابـــه
وأيقن أن الله ليس بغـــــــافل

وقال لمن فى داره لا تقـــاتلوا
عفا الله عن كل امرىء لم يقـــاتل

(١) الأغانى ١٥ : ٢٩ (الساسى) .

فكيف رأيت الله صب عليهم الــــ
عداوة والبغضــــاء بعد التواصــل

وكيف رأيت الخـير أدبر عنهـــم
وولى كادبار النعـــام الجـوافل

فقال لهم على عليه السلام : لكم عندى ثلاثة أشياء ، استأثر عثمان فأساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع ، وعند الله ما تختلفون فيه الى يوم القيامة . فقالوا : لا ترضى العرب بهذا ولا تعذرنا . فقال على عليه السلام : أتردون علىّ بين ظهرانى المسلمين بلا نية صادقة ولا حجة واضحة ، اخرجوا عنى فلا تجاورونى فى بلد أنا فيه أبدا ! فخرجوا من يومهم فساروا حتى أتوا معاوية فقال : لكم الكفاية أو الولاية ، فأعطى حسان بن ثابت ألف دينـار ، وكعب بن مالك ألف دينار ، وولى نعمان بن بشير حمص ، ثم نقله الى الكوفة .

وواضح فى هذا النص أن حسان كان عثمانى الهوى ، وأنه كان ممن شارك فى اثارة السؤال الذى يستفسر عن مقتل عثمان هل قتل ظالما أو مظلوما حتى أنه امتنع عن مبايعة على بالخلافة فقد جاء عن عبد الله بن الحسن [١] قال : لما قتل عثمان رضى الله عنه بايعت الأنصار عليا الا نفرا يسيرا منهم حسان بن ثابت وكعب ابن مالك وسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدرى ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد الله وكعب بن عجرة كانوا عثمانية . فقال رجل لعبد الله بن

(١) الطبرى ج ٥ ص ١٥٣ ــ ١٥٤ .

الحسن كيف أبى هؤلاء بيعة على وكانوا عثمانية ؟ قال أما حسان فكان شاعرا لا يبالى ما يصنع ، وأما زيد بن ثابت فولاه عثمان الديوان وبيت المال ، فأما كعب بن مالك فاستعمله على صدقة مزينة وترك ما أخذ منهم له » .

ويظهر أن حسان استمر فى معارضة علىّ طوال فترة خلافته القصيرة فقد كان يشمت بمن يقيلهم علىّ من الولاء الذين كانوا قد ناصروه فى أول الأمر ، وذلك كما حدث عندما أقال علىّ قيس ابن سعد الأنصارى من ولاية مصر وولى مكانه محمد بن أبى بكر، فغضب قيس ، وخرج منها مقبلا الى المدينة فقدمها فجاءه حسان ابن ثابت شامتا به ، فقال له : نزعك على بن أبى طالب وقد قتلت عثمان فبقى عليك الاثم ولم يحسن لك الشكر . فقال له قيس ابن سعد : يا أعمى القلب والبصر ، والله لولا أن ألقى بين رهطى ورهطك حربا لضربت عنقك ، اخرج عنى !

ويظهر أن حسان كان ممن لعبوا دورا فى حادثة مقتل عثمان، فقد كان واحدا ممن أقنع المصريين بالرجوع الى بلادهم . جاء فى الطبرى أنه لما نزل المصريون ذا خشب ، كلم عثمان عليا وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يردوهم عنه . فركب على وركب معه نفر من المهاجرين فيهم سعيد بن زيد وأبو جهم العدوى وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ، وخرج من الأنصار أبو أسيد الساعدى وأبو حميد الساعدى وزيد بن ثابت وحسان بن ثابت وكعب بن مالك .. وغيرهم ثلاثون رجلا ،

وكلمهم على ومحمد بن مسلمة وهما اللذان قدما ، فسمعوا مقالتهما ورجعوا !

كذلك كان حسان واحدا ممن ذب عن عثمان رضى الله عنه قبل مقتله ، فقد روى أنه لما كانت سنة أربع وثلاثين (من الهجرة) كتب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهم الى بعض أن اقدموا ، فان كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد . وكثر الناس على عثمان ليس فيهم أحد ينهى ولا يذب الا نفير : زيد بن ثابت وأبو أسيد الساعدى وكعب بن مالك وحسان بن ثابت ، غير أن حسان لم يلبث أن ترك المدينة قبل مقتل عثمان قاصدا نحو الشام فى وقت كان الخليفة فيه فى أشد الحاجة لمن يدافع عنه ويشد أزره ، فقد روى أنه لما أحيط بعثمان رضى الله عنه خرج عمرو ابن العاص من المدينة متوجها نحو الشام وقال : والله يا أهل المدينة ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل الا ضربه الله عز وجل بذل ، من لم يستطع نصره فليهرب ، فسار معه ابناه عبد الله ومحمد ، وخرج بعده حسان بن ثابت !

وقد حفظ لنا ديوان حسان استصراخه المسلمين لأخذ ثأر عثمان ، ويستطيع الباحث حينما يتأمل هذا الشعر أن يستنتج أن كثيرا منه ليس من نظم الشاعر وانما من وضع الأمويين عليه ، وذلك حتى يثيروا المسلمين ضد المسئول عن مقتل عثمان رضى الله عنه .

وربما كان من أبياته فى هذا الاستصراخ والتى يمكن أن تنال قسطا من التوثيق فى نسبتها اليه قوله :

من سره الموت صرفا لا مزاج له
فليأت مأسدة فى دار عثمانا
مستحقبى حلق الماذى قد سفعت
فوق المخاطم بيض زان أبدانا
شدوا السيوف بثنى فى مناطقكم
حتى يحين بها فى الموت من حانا
لعلكم أن تروا يوما بمغبطة
خليفة الله فيكم كالذى كانا

الى أن يقول :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به
يقطع الليل تسبيحا وقرآنا
لتسمعن وشيكا فى ديارهم
الله أكبر يا ثارات عثمانا

وقد حاول الأمويون أن يستغلوا هذا الشعر فى صفهم فأضافوا اليه على لسان حسان أبياتا تشير الى مكانتهم وتحمل على ابن أبى طالب مسئولية مقتل عثمان ، وهذه الأبيات هى :

وقد رضيت بأهل الشام زافرة
وبالأمير وبالاخوان اخوانا
انى لمنهم وان غابوا وان شهدوا
حتى الممات وما سميت حسانا
صبرا فدى لكم أمى وما ولدت
قد ينفع الصبر فى المكروه أحيانا

وأهم ما يلاحظه الباحث فى رثاء حسان لعثمان رضى الله عنه تأجج عاطفته فى هذا الرثاء على خلاف عادته فى رثاء أبى بكر وعمر ، بل انه يهجو قومه من الأنصار وخاصة بنى النجار لأنهم لم يدافعوا عن عثمان وأيدوا الثوار الذين قتلوه . فيقول فى هذا الهجاء :

أوفت بنـو عـوف وأوفت نذرها
وتلونت غدرا بنـو النجـار
وتخـاذلوا يوم الحقيقـة انهـم
ليسوا هنالكم من الأخيـار
ونسوا وصاة محمـد فى صـهره
وتبـدلوا بالعـز دار بوار
أتركتموه مفـردا بمضـيعة
تنتـابه الغـوغاء فى الأمصـار
لهفـان يدعو غائبـا أنصـاره
يا ويحكـم يا معشر الأنصـار
هـلا وفيتم عنـدها بوعـودكم
وفديتـم بالسـمع والأبصـار
جـيرانه الأدنون حـول بيـوته
غدروا ورب البيت ذى الأسـتار

كذلك يهجو الثوار الذين أحاطوا بمنزله ثم قتلوه فيقول :

اتركتم غـزو الدروب وجئتـم
لقتـال قـوم عنـد قبر محمـد

فلبئس هــدى الصــالحين هــديتم

ولبئس فعــل الجــاهل المتعمــد

ان تقبلوا نجعــل قرى سرواتكم

حول المدينـــة كل لدن مـذود

أو تدبروا فلبئس ما ســــافرتم

ولمثل أمر امامكم لــم يهتــــد

لقد بكى حسان عثمان بكاء مرا وحزن عليه حزنا شديدا ، لذلك اتسم شعره فيه بصدق العاطفة ، وغلبة الانفعال الجارف عليه . يقول :

ان تمس دار بنى عثمان خـــاوية

باب صريع وباب مخـــرق خــرب

فقد يصادف باغى الخـير حاجتـه

فيها ويأوى اليها العرف والحسب

يا أيها النــاس أبدوا ذات أنفسكم

لا يستوى الصدق عند الله والكذب

ثم تختفى أخبار حسان بعد مقتل عثمان ، ولا نجد بعد رثائه له بيتا واحدا فى علىّ سواء بمدح أو ذم أو رثاء ، ويظهر أنه مات قبيل موت على بن أبى طالب أو بعده مباشرة ، وكان الأمويون فى أواخر حياته يعطفون عليه رغم أن ابنه عبد الرحمن بن حسان نشأ على هجائهم ، فلم يأخذوا الأب بجريرة الابن وهو الشيخ المسن الضرير .

وكان بصر حسان قد كف فى أواخر حياته ، وربما حدث ذلك

فى أواخر خلافة عمر أو أثناء خلافة عثمان فابن قتيبة يشير الى أنه كان قد كف بصره عندما كان معاوية واليا على الشام وأرسل رسوله الى جبلة بن الأيهم فى بلاد الروم وكان قد تنصر أيام عمر ورحل اليها . وكان معاوية قد تولى هذه الولاية منذ أيام عمر . فقد سأل جبلة بن الأيهم الرسول عن صديقه القديم حسان بن ثابت فأجابه الرسول بأنه شيخ كبير قد عمى .

وجاء فى الكامل عن أبى زيد سعيد بن أوس الأنصارى أن حسان حضر وليمة وقد ذهب بصره ومعه ابنه عبد الرحمن يقوده ، فلما وضع الطعام وجىء بالثريد كان حسان يسأل ابنه : يا بنى أطعام يد أم طعام يدين . فيقول الابن : بل طعام يد ، فيأكل . ثم جىء بالشواء ، فيسأل حسان أطعام يد أم طعام يدين . فيقول الابن : طعام يدين . فيمسك . وفى المجلس قينتان تغنيان بشعر حسان :

انظر خليـــلى ببـــاب جلق هـــــل
تؤنس دون البلقـــــاء من أحـــد

فكان حسان يبكى لتذكره ما كان فيه من صحة البصر والشباب ، وأخيرا اختفى حسان من مسرح الحياة دون أن يشعر به أحد ، فقد كانت أحداث الفتنة وصراع الأحزاب قد شـــغلت المسلمين عن كل شىء ، فلم ينتبه أحد الى وفاة شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك الذى كان علما فى زمن جاهليته ، وعلما فى عصر نبيه فاختلف المؤرخون فى زمن وفاته حتى لقد تراوح اختلافهم بين أربعين عاما !

المراجـــع

١ ـ السـمهورى : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى
٢ ـ جـواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام
٣ ـ أبو الفضـــل ابراهيم والبجـاوى :
أيام العرب فى الجاهلية
٤ ـ أبـو الفـــرج الأصفهانى :
الأغانى
٥ ـ ابن هشام : السيرة النبوية
٦ ـ ابن قتيبه : أ ـ المعارف
ب ـ الشعر والشـعراء
٧ ـ ابن سـعد : الطبقـــات الكبير
٨ ـ ابن حجـــر العسقلانى :
أ ـ أسـد الغابة
ب ـ تهذيب التهـذيب
٩ ـ ابن عبد البر : الاسـتيعاب
١٠ـ حسان بن ثابت : ديوانه ، نسـخه خطية بمعهـد المخطوطات العربية
١١ـ قيس بن الخطيم: ديوانه
١٢ـ السهيلى : الروض الانف
١٣ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق
١٤ـ الطبرى : أ ـ تاريخ الرســل والملوك
ب ـ التفسير
١٥ـ الفهرست : ابن النـديم
١٦ـ ثعلب : المجـــالس
١٧ـ ابن سلام : طبقات فحول الشـعراء
١٨ـ قلهوزن : قيام الدولة العربية ترجمة د/ محمد عبد الهادى أبو ريدة
١٩ـ محمد حسين هيكل : حيـاة محمد
٢٠ـ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السـياسى
٢١ـ احمد الشايب : تاريخ النقائض

الموضـــوعات

القسم الأول

حســـان فى الجاهلية

القسم الثانى

حســـان فى الاســـلام

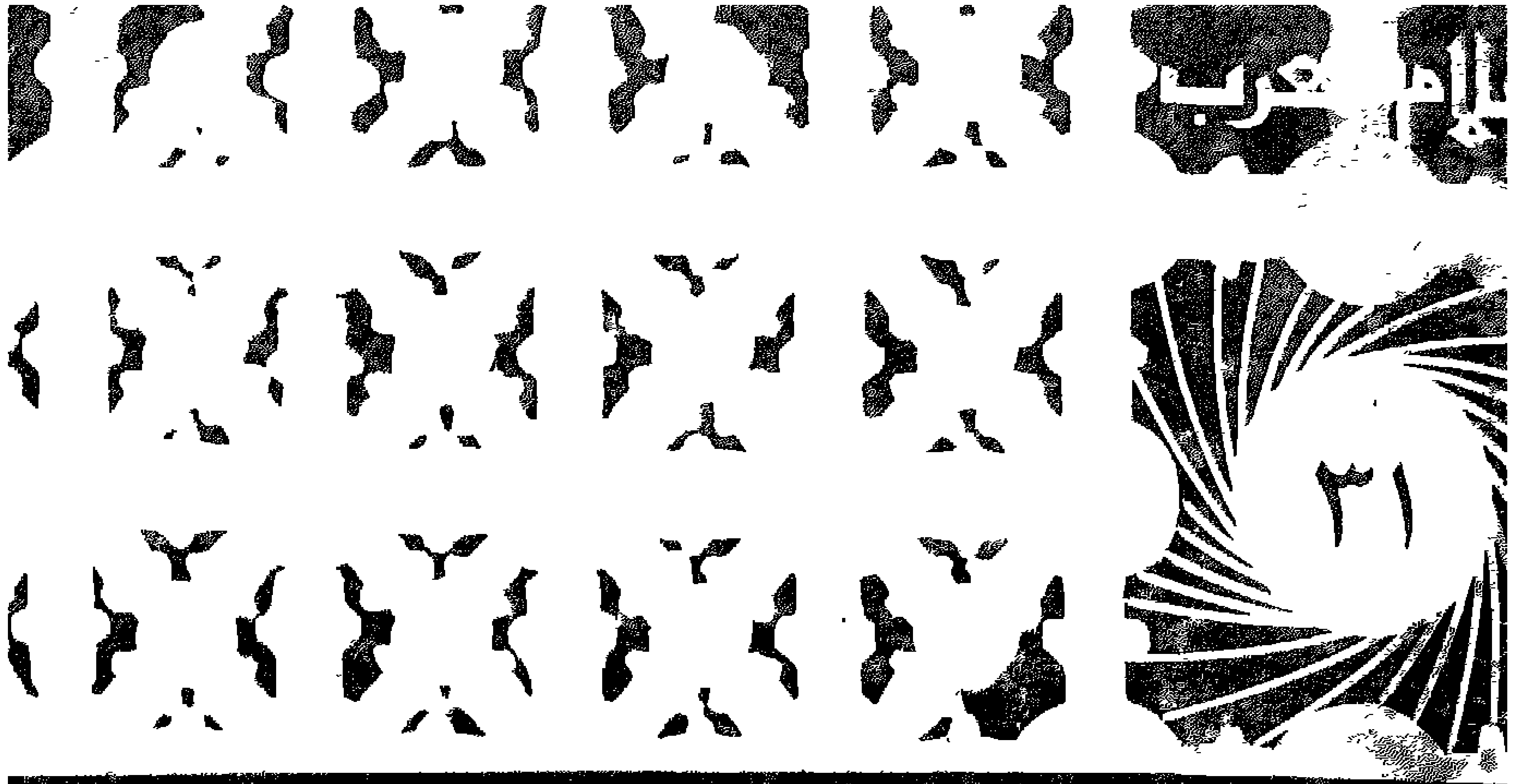
يطلب من

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقى "الفجالة"

الثمن ٥ قروش

مطبعة مصر



المثنى بن حارثة الشيبانى
فارس بنى شيبان

بقلم
عقيد محمد فرج

وزارة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

أعلام العرب

٣١

المثنى بن حارثة الشيباني

فارس بني شيبان

بقلم

عقيد محمد فرج

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

الإهداء

إلى روح أبى

فى ذكرى وفاته الثانية والعشرين

مقدمة الكتاب

بقلم الدكتور

محمد عبد القادر حاتم

فى هذه المرحلة الحاسمة من مراحل تطور الأمة العربية ، تحتاج أجيالنا الناشئة الى منهج جديد فى الثقافة والعلم ، منهج يقوم على الاستفادة من التراث المشترك للبشرية من ناحية ، وعلى توكيد الذات العربية وتثبيت خصائصها الحضارية من ناحية أخرى .. وذلك أن أمتنا لن تستطيع أن تمارس تأثيرها العالمى المنشود ، الا اذا استرد شبابنا ايمانه بنفسه .. وجدد معرفته بتراثه الأصيل .. ومن هنا كان من الضرورى أن تتجه عناية الكتاب والموجهين الى تلك الصفحات المشرفة من تاريخنا القديم والحديث .. فيقدموها الى الأجيال الناشئة فى اطار العظمة الصادقة التى أحاطت بها والى سيرة الأفذاذ من أبطال الأمة وأعلام تاريخها.. فيحللون جوانبها ويبينون مواضع العظمة فيها حتى يكون ذلك كله زادا حيا .. لشباب الأمة فى سيره على طريق الثورة والتجديد والبناء .

والصفحة التى يجلوها اليوم لشباب الأمة العربية **العقيد** محمد فرج صفحة مشرقة عامرة بصور البطولة..ومظاهر العظمة.. ومواضع الاقتداء .. فهى صفحة فيها من عصر النبوة نوره وقدسيته ، وفيها من عصر الصحابة صدقهم وبلاؤهم وكفاحهم المرير فى سبيل الحفاظ على أمانة الله وأمانة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها بعد ذلك الشىء الكثير من آداب الاسلام وأخلاق رجاله وبطولات قواده .. وهى ليست صفحة المثنى وحده .. ولكنها صفحة من كتاب الأمة العربية والاسلامية .. جديرة بأن يعيش فيها شباب تلك الأمة بعقله ووجدانه فى هذه المرحلة من تاريخ وطننا .

دكتور
عبد القادر حاتم

مقدمة المؤلف

المثنى بن حارثة الشيبانى — موضوع هـذا الكتاب — شخصية عربية أصيلة ممتازة ؛ كان له دور كبير فى حياة العرب والاسلام .. دور مليء بالبطولات ، عامر بالأمجاد ، زاخر بالقومية أصيل فى أحداثه ووقائعه .

والمثنى قائد عربى له تاريخ عسكرى مجيد لم تسلط عليه الأضواء برغم أن بطولاته كانت حديثا على كل لسان وعبقريته لم يختلف فيها مؤرخان .

ولقد كان لقائى مع المثنى فى ١٩٥٠ حين كنت أقوم بدراسات لبعض القادة العرب وكان هو أحدهم ولما أصدرت كتابى « جبابرة حرب » احتل المثنى بابا فى هذا الكتاب الا اننى أحسست أن بابا من صفحات قليلة يتناول حياة المثنى لا يصور أبدا حياة عربية عريقة مجيدة لبطل مجاهد من أبطال التاريخ الاسلامى ولقائد محارب يحتل مكانة مرموقة فى التاريخ العسكرى ، ولهذا قررت أن أعد دراسة متكاملة عن حياة المثنى وأن أنشر هذه الدراسة فى كتاب خاص به..

ومنذ هذا التاريخ وأنا أعيش مع المثنى أتلمس أخباره وأنباء حياته ووقائعه وبطولاته وبذلت فى سبيل ذلك جهـدا أثق كل الثقة بأن القارىء سيشعر به وهو يطالع الكتاب .

وكنت قد تعودت منذ سنوات على أن أنتهى فى شهر رمضان من كل عام هجرى من اعداد كتاب جديد حتى أصبحت متفائلا بهذا الشهر الكريم .. أنتظر أوبته بشوق وحنين ، ولقد أحاطتنى رعاية الله تبارك وتعالى فاستطعت بعد سنوات من الدراسة والبحث والسهر أن أنتهى من كتابة هذا الكتاب واعداده فى رمضان من عام ١٣٨٣ وكم أرجو أن تدوم صلتى بهذا الشهر الفريد فيكون لى معه فى كل عام كتاب جديد .

ولقد تفضل الدكتور عبد القادر حاتم وزير الثقافة والارشاد القومى الذى يقود معركة الثقافة فى بلادنا ويتولى مهمة تحقيق الثورة الثقافية فى عهدنا الثورى بتقديم الكتاب الى القراء فى المنطقة العربية .

وها هو ذا الكتاب بين يدى القراء وغاية ما أرجوه أن أكون قد وفقت فى اعداده بما يهيىء الفائدة المرجوة من اعادة كتابة تاريخنا العربى واحياء تراثنا الاسلامى والله الموفق لما فيه خير البلاد ونفع العباد .

محمد فرج

هاجت لعروة دار الحى أحزانا
واستبدلت بعد عبد القيس همذانا
وقد أرانا بها والشمل مجتمع
اذ بالنخيلة قتلى جند مهرانا
أيام سار المثنى بالجنود لهم
فقتل القوم من رجل وركبانا
سما لأجناد مهران وشيعته
حتى أبادهم مثنى ووحدانا
ما أن رأينا أميرا بالعراق مضى
مثل المثنى الذى من آل شيبانا
ان المثنى الأمير القرم لا كذب
فى الحرب أشجع من ليث بخفانا

« عروة بن زيد الخيل »

الباب الأول

بيئة المثنى
قومه ... أهله ... موطنه

ليس فى العرب أحد أعز دارا ولا
أمنع جارا ولا أكثر حليفا من شيبان

ابن الأثير

ان البيئة التى نشأ فيها المثنى بن حارثة كانت ذات آثار ضخمة كبيرة واسعة عميقة بالنسبة لحياته ونشأته وتكوينه ... فقد أثرت هذه البيئة فى أخلاقه وعاداته وصفاته حتى أصبح صورة لأخلاق هذه البيئة وما تتصف به من مختلف العادات .

ونحن حين نتعرض للبيئة التى عاش فيها المثنى ونشأ بين أجوائها المختلفة وشب بين عادات قومها لابد لنا من أن نناقش أمرين هامين ...

الأول : من هم قومه ؟ ، وما صفاتهم وعاداتهم ؟ ، وكيف أثر هؤلاء القوم فيه فجعلوه رجلا ناجحا فى حياته صاحب ذكرى طيبة بعد وفاته .

الثانى : أين عاش قومه ؟

قومه ...

ينتمى المثنى بن حارثة الشيبانى الى بنى شيبان .

وبنو شيبان هم أحد فروع بكر بن وائل الذى ينتهى نسبه فى ربيعة ، وعندما تناول المؤرخون الأمة العربية بالحديث جعلوها ثلاث طبقات [١] .

---

(١) يختلف ابن خلدون مع هذا الرأى فيجعل الطبقات الثلاث ...

العرب العاربة .
العرب المستعربة .
العرب التابعة للعرب .

العرب البائدة .
العرب العاربة .
العرب المستعربة [1] .

ومن العرب البائدة .. دولتا عاد الأولى والثانية .. الأولى قامت بين أحقاف الرمل بين اليمن وعمان الى حضرموت والبحرين وبلاد الشجر ، وكان عاد هو أول من ملك من العرب وطال عمره وكثر ولده واستطال له الملك وخرج أبناؤه غازين فاتحين وامتد ملكهم حتى حدود الشام والعراق فلما عظم أمرهم طغوا وبغوا وعبدوا الأوثان فبعث الله اليهم رسله فكذبوهم وكان منهم أخوه هود الذى وعظهم فآمن به البعض وهم الخلخان وقومه (وكانت منهم عاد الثانية) والبعض الآخر أبى أن يستجيب الى دعوته فأرسل الله عليهم الريح فقضت عليهم وأنجى الله هودا والذين آمنوا معه .. ومن هؤلاء أيضا ثمود وكانوا يعيشون فى وادى القرى بين الحجاز والشام ، وجاءهم صالح يدعوهم الى عبادة الله ، فمنهم من آمن ومنهم من كذب ... ومنهم أيضا طسم وجديس وكانوا يعيشون باليمامة وثارت الفتنة [2] بين الاثنين حتى خربت اليمامة وأصبحت يبابا الى أن نزل بها بنو حنيفة ...

---

(١) ويزيد الألوس البغدادى على هذه الطبقات طبقة رابعة هى ... العرب المستعجمة وسموا بذلك لاستعجام لغتهم على اللسان المضرى الذى نزل به القرآن .
(كتاب بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب ... ج ١) .

(٢) يمكن الوقوف على أسباب الفتنة وحوادثها بالرجوع الى ما كتبه الطبرى وغيره من ثقات المؤرخين وعلماء العرب .

ومنهم العمالقة الذين قامت بينهم وبين بنى اسرائيل حروب انتهت باستيلاء بنى اسرائيل على الحجاز فكان لهم يثرب وخيبر ومن بقاياهم بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع .

أما العرب العاربة .. فهؤلاء يعرفون باسم القحطانيين ... وبنو قحطان عاصروا العرب البائدة ولكنهم عاشوا فى البادية بعيدين عن مظاهر الملك ، وأعظم رجالهم يعرب بن قحطان الذى انتصر على عاد الثانية فى اليمن وعلى العمالقة فى الحجاز وولى أخويه عاد على جبال الشحر وعمان على أرض عمان ، ومن ذريته ابنه يشجب وحفيده عبد شمس الذى كان يسمى سبأ[1] وكان له كثير من الولد أشهرهم حمير [2] وكهلان ، وظل الملك لأبناء حمير يتوارثونه حتى استقر فى الحرث الرائش وبنيه وهم التبابعة [3] .

وتأتى بعد ذلك الطبقة الثالثة من طبقات العرب وهى طبقة العرب المستعربة ... وهم بنو اسماعيل بن ابراهيم الخليل صلوات الله عليه ، وكان اسماعيل عبرانيا فلما نشأ أولاده بين العرب استعربوا ، ولهذا سموا بالمستعربة ، وقصة نزول اسماعيل بمكة

---

(١) هو صاحب مدينة سبأ وسد مأرب ، وهو أول من توج من ملوك العرب .

(٢) أجمع المؤرخون على أنه كان أجمل أهل زمانه وأفرسهم ، وقيل أنه أول من تتوج بالذهب .

(٣) قيل عن الحرث الرائش أنه راش الناس بالعطاء وأنه عمر فى الملك طويلا وخلفه أبنه ذو النار ، ثم أبنه عمرو ، ثم تتابع الملك حتى ملكته بلقيس التى تنازلت عنه للملك سليمان ، ثم استعاده التبابعة بعد ذلك .

معروفة تناولتها كثير من الكتب ، فقد هاجر والده به مع أمه الى مكة حيث نشأ وتربى وتزوج احدى نساء جرهم فولدت له اثنى عشر ولدا ذكرا ؛ كان كل واحد منهم أبا لقبيلة ، ثم انقرضوا جميعا ، ولم يبق غير عدنان وبنيه ولهذا تسمى هذه الطبقة بالعدنانية ... وكان العدنانيون يعيشون فى نجد وافترقت عنهم شعوب فى الحجاز وتهامة والعراق والجزيرة ، وكان معد بن عدنان قد تزوج بنت الحارث بن مضاض الجرهمى (١) فولدت له نزارا ، وهذا ولد له أربعة كان منهم مضر وربيعة ... أما مضر فقد كانوا أهل الكثرة من بنى عدنان ، وكانت لهم رئاسة بمكة ، وأما ربيعة فكانت ديارهم ما بين الجزيرة والعراق ... ومن ربيعة جاء أسد ابن ربيعة ومنه جديلة ، ومن جديلة بكر وتغلب ابنا وائل ابن قاسط .. ومن بكر جاء ثعلبة الذى كان له أبناء ثلاثة هم شيبان وقيس وذهل .. وشيبان هو الجد الأكبر لصاحب دراستنا المثنى بن حارثة الشيبانى (٢) .

اذن فالمثنى بن حارثة من العرب المستعربة ، وهو فى أصله من العدنانين ، وهؤلاء كما ذكرت المراجع كانوا أهل حل وترحال، أى أنهم كانوا ينتقلون بخيامهم ، لا مدن لهم ولا ملك ، وانما كانت لهم رياسة بدوية وظلوا تابعين لغيرهم ، الى أن نبضت عروق الملك فى مضر وظهرت قريش بمكة .

---

(١) جاء فى بعض الروايات أن معد تزوج بنت أحد أولاد الحارث .

(٢) المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعيد بن مرة ابن ذهل بن شيبان .

وكانت لغتهم عربية وعبادتهم الأوثان يتخذونها من الأحجار والأصل فى ذلك أنهم اعتادوا فى أسفارهم حمل شىء من أحجار الحرم يطوفون به اذا أحلوا تبركا بالبيت وأدى بهم ذلك الى عبادة الأحجار (١) .

الحروب بين بكر وتغاب وتميم ..

ولا يفوتنا أن نذكر فى معرض الحديث عن البيئة التى نشأ فيها المثنى أن خلافا وقع بين بكر وتغلب ابنى وائل ، وقامت بينهما الحروب والوقائع حتى كان يوم قضة ، وكانت الدائرة لبكر على تغلب فتفرق هؤلاء على حين انتشرت بكر باليمامة فيما بينها وبين البحرين الى أطراف سواد العراق وناحية الأبلة الى هيت ...

ولا يفوتنا أن نذكر أيضا أن بكر بن وائل — التى يمثل المثنى بن حارثة أحد فروعها — كانت تجاور قبيلة تميم من مضر ، وكثر النزاع بينهما ، وقامت الحروب وتوالت الغزوات ، ويقول المؤرخون ان بكرا كانت هى المهاجمة دائما لكثرة ما كان يلحق بمنازلها من جدب ، لأن أرض تميم كانت تفوقها خصبا ، ولقد اشتعلت الحرب بين القبيلتين اثنتى عشرة مرة فازت تميم بست

---

(١) يلاحظ أن بعض أسمائهم كانت تضاف الى آلهتهم مثل عبد مناف أو كانت أسماء للحيوانات التى تقع أبصارهم عليها كأسد وثعلبة وقيل لهم « ألم تسموا أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب ، وتسموا عبيدكم بأحسن الأسماء ؟ » ، « فقالوا « انما نسمى أبناءنا لأعدائنا ونسمى عبيدنا لأنفسنا » .

منها ، وبكر بست ، ففازت تميم فى يوم النباج وثيتل[١] ، ويوم ذى طلوح [٢] ، ويوم جدود [٣] ، ويوم الأياد ، ويوم الغبيط ، ويوم شقيقة ، وفازت بكر بيـوم فلج ويوم الوقيـظ ويوم الزويرين[٤] ، ويوم نعـف قشـاوة ، ويوم مبـايض ، ويوم الشيطين [٥] .

رجالات بكر ...

وكما كانت لبكر أيام جليلة فى تاريخ العرب فقد ظهر فيها رجال كان لهم مجد كبير وتاريخ مجيد ، ومن هؤلاء مثلا هانىء ابن قبيصة صاحب وقعة ذى قار ، وبسطام بن قيس فارس بنى شيبان صاحب القول المشهور « قد علمت العرب أنا بناة بيتها الذى لا يزول ومغرس عزها الذى لا يحول لأنا أدركهم للثأر

---

(١) ثيتل ماء على عشر مراحل من البصرة والنباج موضع قريب منها .

(٢) موضع قريب من الكوفة .

(٣) موضع فى بلاد بنى تميم بقرب حمراء بنى يربوع به ماء يقال له الـكلاب وقعت فيه معركتان ولهذا يسمى البعض يوم جدود بيوم الكلاب الأول .

(٤) الزويران بعيران .

(٥) وقع هـذا القتال فى أيام النبى قبل الهجرة وسببه أن الشيطين بلد مخصب لبكر بن وائل ، فلما ظهر الاسلام فى نجد سـارت بكر الى السواد ولحقهم الوباء الذى انتشر أيام كسرى شيرويه فعادوا هاربين ونزلوا لعلع وهى مجدبة وبلغ خبر الخصب الى بكر فأجتمع رجالهـا وقالوا » نغير على تميم فان فى دين ابن عبد المطلب من قتل نفسا قتل بها فنغير هذه الغارة ثم نسلم بعدها » وارتحلوا من لعلع وأغاروا على المكان وانهزمت تميم .

وأضربهم للملك الجبار وأقولهم للحق وألدهم للخصم » ، ومنهم مرة بن ذهل بن شيبان وابنه جساس[1] وغيرهم وغـيرهم من الرجال الأبطال الكماة الذين دحروا الفرس وفتحوا العـراق وأفزعوا الأكاسرة وثلوا عروشهم وحطموا تيجانهـم وزعزعوا ايوانهـم .

ونحن نسوق الحوار التالى الذى دار فى وجود معاوية ابن أبى سفيان بين رجلين أحدهما عامرى [2] ، وثانيهما من شيبان لنؤكد بهذا الحوار كل وصف أردنا أن نلحقه برجال بنى شيبان..

العامرى : أنا أعد لك عشرة من بنى عامر فعد لى عشرة من بنى شيبان .. خذ عامر بن مالك ملاعب الأسنة[3]، والطفيل بن مالك قائد هوازن وفارس قرزل[4] ، ومعاوية ابن مالك معوز الحكماء ، وربيعة ابن مالك ، فارس ذى علق[5] وعامر بن الطفيل ، وعلقمة بن علاثة ،وعتبة بن سنان ، ويزيد ابن

---

(١) جساس هو قاتل كليب الذى نتجت عن قتله الحرب بين بكر وتغلب فدامت حربا سجالا أربعين عاما .

(٢) عامر أفخر هوازن .

(٣) هو عامر بن مالك بن جعفر ويكنى أبا براء ولقب ملاعب الأسنة لقول أوس ابن حجر فيه

يلاعب أطراف الأسـنة عامر   فراح له حظ الكتائب أجمع

(٤) هو سيد بنى عامر فى الجاهلية وقرزل هو فرسه الذى اشتهر به .

(٥) ذى علق يوم من أيام عامر بن صعصعة وبنى أسد .

الصعق[1] ، وأربد بن قيس ، وعوف بن الأحوص.

الشيبانى : خـذ قيس بن مسعود رهينـة بكر بن وائل ، وهانىء بن قبيصة ، وقبيصة بن مسعود ، ومفروق ابن عمران ، وسنان بن مفروق ، والأصم عمرو ابن قيس ، وعمران بن مرة ، وعوف بن النعمان، والأسود بن شريك ، وبسطام بن قيس .

معـاوية : هذان رجلان من غير قومكما عنـدى يحكمان بينكما ... عـدى بن حاتم الطـائى وشريك ابن الأعور الحارثى ... (للشـيبانى) من تعبىء لعامر بن مالك .

الشيبانى : أصم بن أبى ربيعة الذى قتل فى تميم مائة رجل على دم .

الرجلان : الأصم يرجح .

معـاوية : فمن تعبىء لعامر بن الطفيل .

الشيبانى : الحوفزان بن شريك [2] .

الرجلان : يرجح الحوفزان .

معـاوية : فمن تعبىء لعلقمة بن علاثة .

الشيبانى : بسطام بن قيس .

---

(١) سمى بالصعق لأن بنى تميم ضربوه على راسه فأدمته فكان اذا سمع الصوت الشديد صعق وذهب عقله.

(٢) الحوفزان هو الحارث بن شريك وكان رئيسا لبنى شيبان فى يوم جدود .

الرجلان : يرجح بسطام .
معـــاوية : فمن تعبىء لعتبة بن سنان .
الشيبانى : مفروق بن عمران .
الرجلان : يرجح مفروق .
معـــاوية : فمن تعبىء للطفيل بن مالك .
الشيبانى : عمران بن مرة .
الرجلان : يرجح عمران .
معـــاوية : ومن تعبىء لمعاوية بن مالك .
الشيبانى : عوف بن النعمان .
الرجلان : يرجح عوف .
معـــاوية : فمن تعبىء لعوف بن الأحوص .
الشيبانى : قبيصة بن مسعود .
الرجـــلان : يرجح قبيصة .
معـــاوية : فمن تعبىء لربيعة بن مالك .
الشيبانى : هانىء بن قبيصة .
الرجلان : يرجح هانىء .
معاوية : فمن تعبىء ليزيد بن الصعق .
الشيبانى : سنان بن مفروق .
الرجلان : يرجح سنان .
معـــاوية : فمن تعبىء لاربد بن قيس .
الشيبانى : الأسود بن شريك .
الرجلان : يرجح الأسود .

وهكذا رجح الرجلان الحكمان — وهما محايدان — كل رجال بنى شيبان حتى أنهما قالا لمعاوية « شيبان أكرم الحيين » فرد عليهما معاوية قائلا « وذاك قولى » .

تأثر المثنى بقومه ..

ان هذه الصورة لما كانت عليه بكر بن وائل ولما كان عليه رجال بنى شيبان تبرز لنا حقيقة البيئة التى عاش فيها المثنى وترعرع بين رجالها ، فقد كان لهذه البيئة ولهؤلاء الرجال الأثر الفعال فيه ... فى انماء روحه ، ونشوئه على الايمان بالمبدأ ، والتصلب بالعقيدة ، والجود بالنفس ، والصدق ، والعزيمة ، والصبر ، والجلد والتحمل ، والشجاعة ، والاقدام ، والقوة ،والتفنن بضروب الفروسية ، والاستماتة فى الحرب ... هذه الصفات احس بها الكثيرون من بنى شيبان ولمسوها بصورة واضحة فى المثنى فجعلوا منه سيدا لهم والتفوا من حوله وأصبحوا فىاشارة بنانه ، فذفوا بأنفسهم فى المهالك من ورائه فكتبوا لأنفسهم ولزعيمهم وقائدهم المثنى أروع صفحات المجد والبطولة فى التاريخ .

أين عاش بنو شيبان ؟ ..

قلنا ان بنى شيبان يرجع أصلهم الى ربيعة ... وربيعة كانت أصلا تسكن فى تهامة ثم قامت الفتن بين قبائلها ودارت بينها حروب ووقائع فنزل بنو عبد القيس البحرين وكان بها آياد فأجبروهم على الجلاء ، وغلبت عبد القيس على البحرين فاقتسموها بين

قبائلهم وهى كثيرة على حين نزل آياد فى سواد العراق[١] ، ولما تغلبت بكر على تغلب فى يوم قضة تفرقت تغلب فى البلاد . وانتشرت بكر بن وائل فى اليمامة فيما بينها وبين البحرين الى أطراف سواد العراق ومناظرها وناحية الأبلة الى هيت ، وحدد الهمدانى ديارهم فقال انها تبدأ من اليمامة الى البحرين الى سيف [٢] كاظمة الى البحر فأطراف سواد العراق فالأبلة فهيت [٣].

فى هذه المنطقة من الجزيرة العربية ، عاش بنو شيبان وكانت هذه المنطقة قريبة من أرض الفرس الذين أقاموا الحاميات للمحافظة على بلادهم ودرء الأخطار التى قد تثيرها القبائل العربية ضدهم.. وأكد أكثر من مؤرخ أن سلطان فارس كان أكثر وضوحا فى البحرين وعمان ، وأنه كان من أبناء فارس عدد عظيم استوطن البحرين وعمان ، وعلت كلمته بين أهليها ، وكانت فارس تسد ابناءها هؤلاء بنفوذها وبقواتها كلما خشيت ثورة العرب عليها أو محاولة العرب القضاء على سلطانها فى ربوعهم .. وكثيرا ما وقع الصدام بين الطرفين .. بين بنى شيبان وبين الفرس .. ومن خلال حوادث الصدام المتكرر أدرك المثنى قوة أهله وجاه قومه وعظمة رجال بنى شيبان ، لقد أصبحوا أصحاب السلطة والجاه فى سواد العراق حتى ان ابن الأثير ذكر أن الاسلام جاء « وليس فى العرب أعز دارا ولا أمنع جارا ولا أكثر حليفا من شيبان » .

---

(١) صفة الجزيرة العربية للهمدانى ص ١٧١/١٧٢ .
(٢) أى شاطىء .
(٣) المرجع السابق .

واقعة ذى قار ..

ويسجل التاريخ لبنى شيبان موقفهم التاريخى فى موقعة ذى قار التى دارت رحاها ضد الفرس ، فقد زلزلت سيوف بنى شيبان ورماحها تاج كسرى وقضى رجال بنى شيبان وأبطالهم على جموع الفرس حتى ان الرسول الكريم قال لأصحابه خلال حديث له عن ذى قار « ان هذا لأول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبى نصروا » .

ويرجع سبب هذه الموقعة الى أن كسرى غضب على النعمان ابن المنذر ملك الحيرة لأنه قتل عدى بن زيد العبادى الذى كان يعمل كاتبا مترجما فى بلاطه ، وسعى كسرى الى الايقاع به ، فهرب النعمان الى بنى شيبان ، فأجاره هانىء بن قبيصة بن هانىء ابن مسعود وقال له « لقد لزمنى ذمامك وانى مانعك مما أمنع منه نفسى وأهلى » ، وبعث كسرى بالأمان الى النعمان فذهب اليه ، ولكنه غدر به وخان عهد الأمان له وألقى به بين أرجل الفيلة فرفسته حتى مات ، ثم بعث كسرى الى هانىء يطلب منه أن يسلمه ودائع النعمان التى كان قد احتفظ بها عنده عندما لجأ اليه فأبى هانىء ، وأقسم كسرى بالنار أن يهلك بنى بكر وأحلافهم ، وأثار هذا القسم مشاعر العرب ، فاجتمعوا فى ذى قار وتولى بنو شيبان القيادة فكان هانىء بن قبيصة الشيبانى فى القلب ، وحنظلة بن ثعلبة ويزيد بن مسهر الشيبانى فى الجناحين ، وبدأ القتال وصاح حنظلة فى قومه « يا معشر بكر ان النشاب الذى مع هؤلاء الأعاجم تفرقكم فعاجلوهم وابدءوا بالشدة » وخاطب هانىء قومه بقوله

« يا قوم .. هالك معذور خير من ناج فرور ، ان الجزع لا يرد القدر وان الصبر من أسباب الظفر .. المنية خير من الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره ، فالجد الجد فما من الموت بد » .

ودار القتال بين الطرفين عنيفا قويا لا رحمة فيه .. واتخذت بكر خطة جريئة .. فقطعوا أحزمة رواحل نسائهم حتى يثبتوا دفاعا عن النسوة وانخذل الفرس وانهزموا وفروا .. وأصبح هذا اللقاء من أعظم أيام العرب وتغنى به شعراؤهم .

اخـــواه ...

ونحن اذا انتقلنا من هذا المجال الواسع الكبير الى المجال الأصغر الذى عاش فيه المثنى ونعنى به أسرته ، نجد أنه كان له من أبيه حارثة شقيقان هما المعنى ومسعود ، والاخـــوان نشآ مع المثنى ، وأحاطا به ووقفا الى جانبه فى كل أعماله ، وأخذا بنصيب كبير من المعارك التى خاضها وشاركاه فى جهاده الطويل .

كان المعنى ساعده الأيمن فى القتال ، ولمس المثنى شجاعته وبسالته فجعل منه قائدا للخيالة [1] ، شهد معـــه جميع معاركه وخاضها الى جانبه ، ومن أشهر عملياته استيلاؤه على حصن المرأة وهو حصن قرب البصرة كان لامرأة تدعى كامورزاد ويقـــول البلازرى « انها سميت المرأة لأن أبا موسى الأشعرى نزل بها

(١) كان يطلق عليهـــا اسم المجردة وهى الـكتيبة من الخيالة التى لا مشاة معها .

فزودته خبيصا فجعل يقول » أطعمونا من خبيص المرأة [1] « ...
لقد حاصر المعنى الحصن واستطاع أن يقتحمه وأن يجبر صاحبته على التسليم .

وكذلك كان مسعود ... جعله المثنى قائدا للمشاة وأسهم فى معظم المعارك وأبلى بلاء حسنا فى واقعة الجسر واستمات فى القتال حتى جرح جرحا بليغا ولم يشأ أن ينتظر حتى يندمل جرحه وانما خرج وهو جريح ليسهم فى واقعة البويب ، وجالد فيها وبذل من الجهد ما يذكر له بالفخر والمجد ... وفى هذه الموقعة استشهد فى سبيل الدفاع عن الاسلام ومن أجل عزة العرب ، ورثاه المثنى رثاء رائعا حين قال فيه وفى أصحابه الذين استشهدوا معه « والله انه ليهون وجدى أن صبروا وشهدوا البويب ولم ينكلوا » .

خالـــه ...

ومن بين أهل المثنى يبزغ اسم عمران بن مرة وهو خال المثنى وأحد زعماء بنى شيبان كان موضع فخرهم لبطولته وبسالته وعلو مكانته ورفيع منزلته ، حتى أن أعشى همدان الشاعر العربى المشهور قال عنه انه « ساد فى الجاهلية وساد فى الاسلام » ...

كان عمران هذا ذا فضل كبير على المثنى فقد رأى فيه المثنى رجل حرب يحتذى وصاحب بطولة يقتدى .

---

(١) يذهب البعض الى أنها كانت تلقب بالمرأة قبل أن ينعتها أبو موسى بذلك ، ولعله قد كان لها حصن ولزوجها حصن ، وأريد التفريق بين الحصنين فقال الناس حصن المرأة وحصن الرجل .

زوجــــه ...

ولابد لنا من أن نسلط الأضواء على امرأة مجاهدة باسلة فاضلة كان لها أثر كبير فى نفس المثنى دفعته بشجاعة الى القتال وهونت أمام ناظريه المصاعب والأهوال وشهدت معــه معاركه ونعنى بها سلمى بنت حفصة التيمية زوج المثنى وشريكة حياته ... ولقد قيل انها هاجرت معه الى حيث كان الرسول الكريم صلوات الله عليه فأعلنت اسلامها .. ويذهب المؤرخون الى أنها شاركت زوجها فى حروب الردة وفى حروب العــراق وعاشت معه حياته الحربية وذاقت مرها وأهوالها حتى أنها بعد أن مات عنها المثنى تزوجت من بعده سعد بن أبى وقاص ولم تهجر أرض المعركة وانما عاشت فيها تؤدى دورها فى الدفاع عن الاسلام فشهدت مع سعد معركة القادسية .

ولقــد كانت المرأة تذكر للمثنى بطولته وشجاعته وقد رُوى أنه فى خلال معركة القادسية أصيب سعد بمرض منعه من الركوب ولما اشتد القتال تذكرت سلمى ما كان لزوجها الأول المثنى ابن حارثة من مواقف فى مثل هذه الأيام وصــاحت « وامثناه ... ولا مثنى اليوم للخيل » فلطمها سعد وقال لها « ويلك أين المثنى من هذه الكتيبة التى تدور عليها الرحى ؟ » ، فأشاحت بوجهها وقالت « أغيرة وجبنا » فقال لها « والله ما يعذرنى أحد اذا لم تعذرينى وأنت تريد ما بى » ، وعرف النــاس ما دار بين سعد وسلمى ، فأكبروا البدوية الجريئة ، ولم يبق شاعر الا اعتد بها .

وكان لها فى القادسية موقف آخر يذكر لها بالفخر فقد كان

ضمن جنود زوجها أبو محجن الثقفى وهو فارس مشهور أولع بالخمر فى الجاهلية حتى أنه قال ...

اذا مت فادفنى الى جنب كرمـــة
تروّى عظامى بعد موتى عروقهـا
ولا تدفننّى فى الفـــلاة لأننى
أخـاف اذا ما مت ألا أذوقهـا

فلما جاء الاسلام نزل على حكمه وامتنع عن الخمر الا أنه ضعف أمام اغرائها فكان يحتسى منها ما يبرد غليله ، وعلم بذلك عمر فنفاه الى القادسية حيث كان سعد بن أبى وقاص فأمر سعد بسجنه[1] ... وحدث آن دارت معركة القادسية وهو فى سجنه فسمع صليل السيوف وضجيج المعركة وصهيل الجياد فهاجت نفسه الى الجهاد وأخذ يردد :

---

(١) علل المرحـوم الدكتور محمـد حسين هيكل حبس أبى محجن بأن سعد بن أبى وقاص مرض عند بداية المعركة وظل مكبا على وجهه فى صدره وسادة يعتمد عليها ويشرف على الناس من القصر يرمى بالرقاع فيها أمره ونهيه وحجزه المرض عن كل حركة ، الا أن بعض المسلمين برموا به وتنددوا بمرضه حتى رددوا ...

نقـاتل حتى أنزل الله نصره وسعد بباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ونسوة سعد ليس فيهن أيمٌ

وبلغ سعدا هذا القول فطلب من جنده حمله الى حيث الجند وقال لهم « لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالا لغيركم » ، فرأى جنده ما به من الوجع فعـذروه ، الا أن سعدا أمر بحبس بعض رجاله وقيدهم فى القصر ومن بينهم أبو محجن الثقفى ...
(كتاب الفاروق عمر ج ١ ص ١٦٧) =

كفى حزنا أن ترتوى الخيـــل بالقنا
وأترك مشـــدودا على وثاقيــــــا
اذا قمت عنّـــانى الحديد وأغلقت
مصاريع دونى قد تصـم المنـاديا
وقد كنت ذا مال كثير واخـــــوة
فقد تركونى واحدا لا أخـا ليـا
وقد شـــف جسمى أننى كل شارق
أعالج كبــلا مصمتا قد برانيـــا
فلله درى يوم أترك موثقـــــــا
ويذهــل عنى أسرتى ورجاليـــا
حبسنا عن الحرب العوان وقد بدت
واعمــال غيرى يوم ذاك العواليـا
فلله عهـــد لا أخيس بعهــــده
اذا فرجت الا أزور الخواليـــا (١)

ووصل صوته وهو يترنم بهذه الأبيات الى سلمى ثم أبصرته مقدما عليها زاحفا طالبا منها أن تطلق سراحه وأن تفك قيده اذ قد

= ولكن أكثر من رواية تؤاكد أن سعدا سجن أبا محجن لشربه الخمر حتى أن سلمى سألته فى أى شىء حبسه سعد فقال لهـا «ما حبسنى فى حرام أكلته ولا شربته ولكننى كنت صاحب شراب فى الجاهلية ، وأنا أمرؤ شاعر يدب الشعر على لسانى يبعثه على شفتى أحيانا فيساء لذلك ثنائى ، لذلك حبسنى أن قلت (وذكر البيتين الموضحين فى الحديث) ، فتوسطت له عند سعد فقال له .. « اذهب فما أنا مؤاخذك بشىء تقوله حتى تفعله » .

(١) فى رواية أخرى « لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا » .

ازداد حنينه الى المعركة ، واشتدت به الرغبة الى خوض غمارها والأخذ بنصيبه منها وقال لها » أناشدك الله أن تخلينى ، ولك لله على عهد ان سلمت أن أجيء فأضع رجلى فى القيد ، وان قتلت استرحتم منى » ، وأحست المرأة بصدق قوله فاستجابت لدعوته قائلة له « انى استخرت الله ورضيت بعهدك » ، ثم أطلقت وثاقة وأعطته سلاحه وقدمت له فرس زوجها سعد [1] ، فوثب عليها وانطلق الى الميدان حتى أتى الناس وخاض غمار المعركة بعـزم وقوة وشجاعة لفتت اليه الأنظار فكان يقصف الأعداء بسيفه قصفا منكرا ، ولا يلتقى برجل من الأعداء الا قتله ولا يحمل على ناحية الا هزمت حتى قال النـاس « ما هذا والله الا ملك » ، وحتى أن سعدا — وكان يشرف على المعركة من مكان مرتفع — قال « الضبر [2] ضبر البلقاء ، والطفر طفر أبىمحجن ، وأبو محجن فى القيد » ، ولما انتهت المعركة وهزم الفرس رجع أبو محجن الى سلمى فوضعته فى القيـد ، وعاد سعد فسألته زوجته كيف كان قتالهم فأجابها « لقينا ولقينا حتى بعث الله رجلا على فرس أبلق لولا أنى تركت أبا محجن فى القيد لظننت أنها بعض شمائل أبى محجن » ، فقالت له « والله انه لأبو محجن » ، ثم روت له ما حدث

(١) كانت تسمى البلقاء .
(٢) الضبر أى الركض .

فأسرع سعد الى حيث أبو محجن وفك قيده وأطلق سراحه قائلا « والله لا أجد اليوم رجلا أبلى الله المسلمين على يده ما أبلاهم[1] ».

يوم الفرات ..

فى هذه البيئة عاش المثنى واستطاع أن يسجل لنفسه فى التاريخ العربى صفحات بطولية مجيدة ، ونحن لا نكون مبالغين فى قولنا هذا اذا عرفنا أن اسم المثنى ارتبط بيوم هام من أيام العرب هو يوم الفرات ، فالمعروف أن العرب كانوا فى جاهليتهم قد اتخذوا من الحوادث الجسيمة تاريخا لهم كعام الفيل وكحرب البسوس وكيوم داحس والغبراء وغيرها من الأيام الشهيرة التى كان العرب يفخرون بها ويتغنون بها فى شعرهم ، ولقد شاء المثنى أن يذكره العرب فى جاهليتهم بحادث هام يرتبط بحياته ارتباطا وثيقا ، وجاءته الفرصة لتحقيق رغبته وأصبح يوم الفرات حدثا فى تاريخ العرب يرتبط باسم المثنى ، ففى هذا اليوم أغار — وكان قد تولى امار عشيرته وأصبح زعيمها بيده مقاليد السلم والحرب — على بنى تغلب قرب الفرات وكان يمتطى صهوة فرسه الدليكة التى طار صيتها وورد ذكرها فى كثير من الشعر .. وكتب

---

(١) اختلفت الآراء فى هذه الرواية .. قال البلاذرى أن زبراء أم ولد سعد هى التى أطلقت أبا محجن .. ولم يذكر ابن كثير فى روايته اسم سلمى ... أما الطبرى فيروى الرواية كما رويناها ويؤكد أن سلمى هى التى أطلقت أبا محجن ، ويميل الكثيرون الى الأخذ بروايته وقد ذكرها كثير من الكتاب نقلا عنه مما يؤكد حدوث الرواية كما ذكرناها .

المثنى لنفسه فى المعركة تاريخه الذى كان يرجوه ، فقد وفق فى قتاله وظفر بأعدائه وانتصر عليهم وقتل رجالهم وأغرق كثيرين منهم فى الفرات ، وساق أنعامهم وأخذ أموالهم فقسمها بين أصحابه وكان انتصاره فى يوم الفرات أحدوثة الزمان حتى أصبح يوم الفرات حدثا تاريخيا يذكر به العرب أهم أحداثهم وتواريخهم ، وقد تغنى به شاعر بنى شيبان فقال :

ومنا الذى غشى الدليكة سـيفه
على حين أن أعيا الفـرات كتائبـه

الباب الثانى

بنو شيبان
بين الإسلام ... والردة

« اذا جاءكم أمرائى فأطيعوهم وانصروهم وأعينوهم على أمر الله وفى سبيله فانه من يعمل منكم عملا صالحا فلن يضل له عند الله وعندى » .

رسول الله

اسلام بنى شيبان

عاش بنو شيبان فى البحرين .

وذكر البلاذرى [1] أن أرض البحرين كانت من مملكة الفرس، وكان بها خلق كثير من العرب من عبد القيس وبكر بن وائل وتميم ، وكانوا مقيمين فى باديتها .

وكان على العرب بها من قبل الفرس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منذر بن ساوى وهو أحد أبناء عبد الله ابن زيد بن عبد الله [2] .

وتناول الكتاب والمؤرخون ، قصة اسلام بنى شيبان فى كتبهم وتلاحظ من خلال دراسة كتبهم أنهم اتجهوا اتجاهين فى روايتهم لاسلام بنى شيبان ...

وقد رأينا أنه من الأوفق أن نعرض هذين الاتجاهين ...

الاتجاه الأول ...

حينما وصل الجيش الاسلامى بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حدود مكة ، وهنت روح الحرب عند قريش وتملك أهليها الخوف ، وأدركوا أنه لا قبل لهم بمحمد ، وأحسوا بأن اللقاء القادم مع جيوشه لقاء خاسر بالنسبة لهم فهو سيدخل مكة

---

(١) فتوح البلدان .

(٢) عبد الله بن زيد الأسبذى نسبة الى قرية بهجر يقال لها الأسبذ ، ويقال أنه نسب الى الأسبذيين ، وهم قوم بالبحرين كانوا يعبدون الخيل .

بجموعة التى زادت على عشرة آلاف شاءت قريش أم رفضت ... سلمت أم قاتلت ... واستسلمت مكة ودخلها الجيش الاسلامى منتصرا ، ثم دارت بعض الغزوات المحمدية بعد مكة كغزوة حنين ضد هوازن ، وغزوة الطائف ضد مالك بن عوف ، وغزوة تبوك ضد الروم ، وبهذه الغزوات انتهت حروب الرسول وتمت كلمة الله فى شبه الجزيرة وأقبل سائر أهلها يقدمون الطاعة ويعلنون دخولهم فى الاسلام وايمانهم بالدين الجديد وأخذت القبائل العربية تفد الى الرسول ، ويقول فى هذا ابن هشام « لما فتح رسول الله مكة وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت اليه وفود العرب من كل وجه » وعن ابن اسحاق انه لما افتتحت مكة ودانت للرسول قريش عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب الرسول ولا عداوته فدخلوا فى دين الله كما قال الله عز وجل أفواجا يضربون اليه من كل وجه ، ويقول الله تعالى لنبيه : « اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا [1] » .

وأصبح العام التاسع الهجرى عام خير ويمن وبركة على الجزيرة العربية ففيه جاءت جميع القبائل وتوافد أهل المدن وأظهروا اسلامهم ، وسمى هذا العام بعام الوفود لكثرة الوفود التى جاءت الى الرسول تعلن ايمانها ودخولها فى الدين الجديد .

وشيبان كانت احدى القبائل العربية التى سمعت بالدين الجديد منذ ظهوره وتتبعت أخباره منذ بدء الدعوة اليه وكان

(١) سورة النصر ١/٣ .

رجالها يستعرضون فى مخيلاتهم أوصاف الرسول وتدور على ألسنتهم ويتجاذبون فى أنديتهم أخبـــاره ويذكرون انتصـــاراته المتوالية فى غزواته وسراياه ، وكانت قلوبهم ترتاح ويقوى اعتقادها ويزيد ايمانها ، الا أن شيبان وغيرها من القبائل العربية المنتشرة فى أرجاء الجزيرة كانت تتردد فى اعلان اسلامها فى انتظار موقف قريش ، لأن قريشا كانت لها مكانة مرموقة بين العرب ، هذا فوق أن أهلها كانوا أهل الحرم فلما دخل محمد بقواته وأتباعه مكة ، وأعلنت قريش ايمانها بالدين الجديد ودخلت الاســلام وبايعت محمدا رسولا ونبيا ، كانت الرغبة عند شيبان وعند غيرها من القبائل التى تتوق الى الدخول فى الاسلام قد وصلت الى الحد الذى جعلها تنتظر المناسبة التى يستغلونها للتقرب الى محمد عليه السلام لاعلان اسلامهم .

وفى عام الوفود ، أى فى العام التاسع الهجرى .. وفد الى الرسول وفد بنى شيبان ، وأسلمت شيبان فى هذا العام ، فقد خفق قلبها بالاسلام ، وواتتها الفرصة التى كانت تنتظرها منــذ زمن ، فسيرت وفدها من ربيعة وشيبان الى مكة فأسلموا وأقرهم الرسول على ما بأيديهم ولم يؤاخذهم على ما فعلوه قبل اعتناق الدين الحنيف .

ويقول المؤرخون الذين اتجهوا هذا الاتجاه أن المثنى ابن حارثة الشيبانى كان واحدا من أفراد هذا الوفد ... هو اذن كان من الأولين الذين آمنوا بهذا الدين والذين انتظروا الفرصــة المواتية للدخول فيه ... هو اذن قد دخل الاسلام عن ايمان وثقة .

وذكر بعض المؤرخين أن سلمى بنت حفصة زوج المثنى كانت معه حين قدم على الرسول وهى بذلك تكون صحابية .

وتقول المراجع التى تؤيد هـذا الاتجاه انه بعـد أن أعلن بنو شيبان اسلامهم بعث الرسول اليهم العلاء بن الحضرمى ليتولى شئون الدين عندهم ، ويعلمهم مبادئه وأصوله ويفقههم فيه ويؤمهم فى صلاتهم ويقضى بينهم بما يقضى به الدين .

الاتجاه الثانى ...

تقول المراجع التى اتجه أصحابها اتجاها يخالف الاتجاه الأول أن الرسول بعث فى العام الثامن الهجرى العلاء ابن الحضرمى [1] الى أهل البحرين يدعوهم الى الاسلام [2] أو الى دفع الجزية ، وأن العلاء حين قدم الى البحرين وأوضح لأهلها مهمته أسلم الكثيرون الا المجوس واليهود الذين قبلوا دفع الجزية .

ذكر البلاذرى أن الرسول عليه الصلاة والسلام بعث بالعلاء ابن الحضرمى الى البحرين فى العام الثامن الهجرى [3] ليدعو

---

(1) اسمه عبد الله بن عماد الخزرجى ، وهو من أصل يمنى ، أسلم منذ زمن مبكر ، وأعجب به الرسول لما عرف عنه من حسن الخلق والاقدام والفطنة ، والشجاعة وولاه الرسول قيادة سرية كان خالد بن الوليد أحد جنودها .

(2) يرى هذا الراى المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ، فقد جاء فى كتابه الصديق أبو بكر « كان ملك هذه الأنحاء المنذر بن ساوى العبدى نصرانيا دان بالاسلام حين دعاه العلاء بن الحضرمى رسول رسول الله الى البحرين فى السنة التاسعة من الهجرة » .

(3) جاء فى بعض المراجع ، أن الرسول وجـه العلاء فى العام السادس الهجرى حين وجه رسله الى الملوك يدعوهم الى الاسلام .

أهلها الى الاسلام أو الجزية ، وكتب معه كتابين أحدهما الى المنذر بن ساوى ، والآخر الى مرزبان هجر ... جاء فى كتاب الرسول الى المنذر « سلام على من اتبع الهدى .. أما بعد ، فانى أدعوك الى الاسلام ... أسلم تسلم يجعل الله لك ما تحب ، واعلم أن دينى سيظهر الى منتهى الخف والحافر » .

فلما تسلما كتابى الرسول أسلما وأسلم معهما جميع العرب فى المنطقة كما أسلم بعض العجم ، وكتب المنذر الى رسول الله يقول « أما بعد فانى قد قرأت كتابك على أهل البحرين ، منهم من أحب الاسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كره ، وبأرضى مجوس ويهود ، فأحدث فى ذلك أمرك » ، فرد عليه الرسول بكتاب قال فيه « أما بعد فانى أذكرك الله عز وجل فانه من ينصح نفسه ، وانه من يطع رسلى ، ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وأن رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وأنى قد شفعت فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم وانك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية » .

ثم بعث الرسول اليه مرة أخرى بكتاب آخر قال فيه « انى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، أما بعد فان كتابك جاءنى وسمعت ما فيه فمن صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ما لنا وعليه ما علينا ، ومن أبى ذلك فعليه الجزية » .

أما المجوس واليهود والنصارى فانهم صالحوا العلاء وكتبوا بينهم وبينه عهدا جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما صالح

عليه العلاء بن الحضرمى أهل البحرين .. صالحهم على أن يكفونا العمل ويقاسمونا التمر فمن لم يف بهذا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .. وحدد العهد جزية الرأس بمقدار دينار عن كل حالم ... وجاء فى بعض الروايات أن الرسول كتب الى مجوس هجر يدعوهم الى الاسلام ووعدهم ان أسلموا أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فان أبوا فعليهم الجزية من غير أكل لذبائحهم ولا نكاح لنسائهم .

وعن ابن عباس كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهل البحرين حين بعث اليهم بالعلاء بن الحضرمى « أما بعد فانكم اذا أقمتم الصلاة وأتيتم الزكاة ونصحتم الله ورسوله وآتيتم عشر النخل ونصف عشر الحب ، ولم تمجسوا أولادكم فلكم ما أسلمتم عليه ، غير أن بيت النار لله ورسوله وان أبيتم فعليكم الجزية .

وقال العلاء بن الحضرمى فى حديث له « بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى البحرين وكنت آتى الحائط بين الاخوة قد أسلم بعضهم فآخذ من المسلم العشر ومن المشرك الخراج » .

وظل المنذر بن ساوى ملكا على قومه بعد اسلامه وظل يدعو قومه بعد اسلامه الى دين الله ، وعاونه فى ذلك الجارود بن المعلى العبدى الذى كان قد قدم على الرسول فى المدينة وأسلم وتفقه فى الدين ، ثم عاد الى قومه يدعوهم الى دين الحق ويفقههم فيه (١) .

---

(١) المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل .. كتاب « الصديق أبو بكر » ص ١٨٥ .

ونستطيع أن نلخص هذين الاتجاهين فى الآتى :

(أ) الاتجاه الأول

أن بنى شيبان آمنوا بالاسلام حين سمعوا به فبعثوا وفدا منهم الى النبى فى عام الوفود يعلن دخولهم فى الاسلام ، فأرسل اليهم الرسول العلاء بن الحضرمى ليعلمهم شئون الدين ويفقههم فيه .

(ب) الاتجاه الثانى

أن الرسول بعث الى بنى شيبان رسالة يدعوهم فيها الى الدخول فى الاسلام أو دفع الجزية وكان رسوله اليهم هو العلاء بن الحضرمى وأن رسالة الرسول هى احدى رسائله التى بعث بها الى الملوك والأمراء يدعوهم الى الدين الجديد .

ونخرج من هذا كله بالحقائق التالية ...

١ — أن بنى شيبان دخلوا الاسلام عن ايمان واقتناع .

٢ — أن اسلامهم كان فى المدة الواقعة بين العام السادس والعام التاسع الهجريين .

٣ — أن المثنى بن حارثة كان من الأولين الذين آمنوا

بالدين وأن زوجه سلمى أسلمت هى الأخرى معه
في وقت واحد .

٤ — أن العلاء بن الحضرمى كان رسول رسول الله الى البحرين .

٥ — أن من لم يدخل الاسلام من أهل البحرين وهجر قبل دفع الجزية .

عامل المسلمين على البحرين ...

عين الرسول الكريم العلاء بن الحضرمى على البحرين عاملا له ... وقالت بعض الروايات ان الرسول صلى الله عليه وسلم ولى مكانه أبان بن سعيد بن العاصى بن أمية ، الا أن بعض الروايات قالت ان عـلاء كان على ناحية من البحرين منها القطيف ، وأن أبان كان على ناحية أخرى ، ولكن الرواية الأولى أثبت وأسلم وأصدق لأن أبان خرج من البحرين بعد وفاة الرسول وأتى المدينة ، وسأل أهل البحرين أبا بكر رضى الله عنه أن يرد العلاء عليهم ففعل ، ويقال ان العلاء بقى واليا على البحرين حتى توفى بها سنة ٢٠ هجرية .

وذكرت بعض المراجع أن عمر ولى أبا هريرة البحرين قبل موت العلاء الذى هاجر الى مكان فى أرض فارس وعزم على المقام بها ، ثم عاد الى البحرين حيث مات ، وقال أبو هريرة « دفنا العلاء ثم احتجنا الى رفع لبنة فرفعناها فلم نجده فى اللحد » .

وقال أبو مخنف ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه استدعى عامله على البحرين وهو العلاء بن الحضرمى ، وولى مكانه عثمان

ابن أبى العاصى الثقفى ، فلما قدم العلاء ولاه عمر البصرة مكان عتبة بن غزوان ، فلم يصل اليها حتى مات فى سنة ١٤ أو فى أوائل سنة ١٥ هجرية ، ثم ولى عمر قدامة بن مظعون الجمحى جباية البحرين وأبا هريرة الأحداث والصلاة ثم عزل عمر قدامة لشربه الخمر وولى أبا هريرة ، ثم عزله وقاسمه ماله ، ثم عين عثمان ابن أبى العاصى على البحرين وعمان ، وحدث فى ذلك القاسم ابن سلام عن يعقوب بن اسحاق الحضرمى أن أبا هريرة عندما قدم من البحرين قال له عمر « يا عدو الله وعدو كتابه أسرقت مال الله » فقال « لست عدو الله ولا عدو كتابه ، ولكن عدو من عاداهما ، ولم أسرق مال الله .. » قال « فمن أين اجتمعت لك عشرة آلاف درهم ؟ » .. قال « خيل تناسلت وعطاء تلاحق وسهام اجتمعت » .. فقبضها منه عمر » .

الردة ...

منى الاسلام بفتنـــة عظمى بعد وفاة النبى ، ولو لم يتول أبو بكر الصديق اخمادها وقت ظهورها لعمت مصيبتها وفتكت بالاسلام ، ولكن حكمة أبى بكر وحزمه حالا دون أن يصاب الاسلام بنكسة خطيرة ، وأن يتفرق أمر المسلمين ، فما أن انتشر خبر وفاة الرسول حتى انتشر المنافقون ومن فى قلوبهم مرض يحرضون عـــلى الردة وترك الاسلام ، وكثر المستمعون لهذه الدعوة وانقسموا قسمين .. قسم خرج عن الاســـلام بالمرة .. وقسم ظل على اسلامه ولكنه عطل شريعة الزكاة .

وكان سبب ارتداد كثير من العرب أنهـم كانوا يرون أن الرسول حى خالد لا يموت ، وأنه سفير الله اليهم يبلغهم أوامره ونواهيه ، وأنه معصوم من الموت ، فلما انتقل الى جوار ربه طاش صوابهم ، واستغل بعض الطامعين فى الملك والسـلطان الفرصة ، فأخذوا ينشرون الفتن ويعلنون ظلما أن قريشا تريد أن تستعبد الناس ، وأن تجعل النبوة ملكا لها تتوارثه فى أبنائها ، وكان أصحاب الفتنة يرددون قول الخطيل بن أوس ...

أطعنـا رســـول الله ما كان بيننا
فيـا لعبــاد الله ما لأبى بكـر
أيورثها بكـرا اذا مـات بعـده
فتلك لعمـر الله قاصـمة الظهـر

واختلفت الآراء بالنسبة للردة ، فعمر كان يرى محاربة الذين ارتدوا عن الاسلام وتركوه ، وكان يعارض محاربة الذين منعوا الزكاة استنادا الى قول الرسول الكريم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقـولوا لا اله الا الله ، فاذا قالوها عصـموا منى مالهم وأنفسهم » .

ولكن أبا بكر كان له رأى آخر يتعارض مع رأى عمر ، اذ كان يرى عدم التفرقة بين الطائفتين ، ويدعو الى محاربتهما معا « والله لأقاتلن من فرق بين الصـلاة والزكاة .. والله لو منعونى عناقاً أو عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها » .

ووافق عمـر على رأى أبى بكر وقال « فوالله ما هو الا أن رأيت أنه قد شرح الله صدرى لما قال أبو بكر فعلمت أنه الحق . »

الردة فى البحرين ..

كان للبحرين نصيب فى الردة .

فبعد وفاة الرسول بقليل مات المنذر بن ساوى ، وبموته ارتدت قبائل المنطقة من ولد قيس بن ثعلبة بن عكابة ، وارتدت بكر ابن وائل من بنى ربيعة .

أما بنو عبد القيس فلم يلبثوا أن رجعوا الى الاسلام بفضل الجارود بن المعلى العبدى الذى ناقشهم فى أمر دينهم وعاب عليهم ردتهم وأخذ يدعوهم بالحسنى حتى عادوا ... لقد قال لهم « هل تعلمون أن الله بعث أنبياء قبل محمد ؟ » ، قالوا « نعم » ، قال « هل تعلمون أنهم أحياء أو ماتوا ؟ » ، فقالوا « لقد ماتوا »، قال « ان محمدا مثلهم قد مات وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله » فرجعوا معه الى الدين وهدأت ثورتهم .

أما زعيم بنى بكر فكان الحطم بن ضبيعة [1] ، وكان جبارا عاتيا فأعلن ارتداده عن الاسلام ، وأخذ يدعو الى قتال أبى بكر والى منع الزكاة ، واجتمع حوله عدد كبير ، فسار بهم الى قطيف وهجر ، وهناك التقى برجال الجارود وكانوا — كما ذكرنا — ثابتين على اسلامهم فآذاهم .

وكان لابد لأبى بكر من أن يجعل للبحرين نصيبا من الحرب التى قررها ضد المرتدين والتى عرفت فى التاريخ الاسلامى باسم حروب الردة ويشير المرحوم محمد حسين هيكل فى حديثه [2]

---

(١) سمى الحطم بقوله « قد لفها الليل بسواق حطم » .
(٢) كتاب « الصديق أبو بكر » .

عن حروب الردة الى حرب المرتدين فى البحرين فيقول « ليس عجيبا أن تكون هذه البلاد آخر من دان بالاسلام على عهد رسول الله فى عام الوفود ، وأن تكون أول من ارتد حين قبض ثم تكون آخر من يعود الى الاسلام بعد حروب طاحنة تختم حروب الردة وتعيد الى البلاد العربية وحدتها الدينية وتقيم فيها الوحدة السياسية » .

واختلفت الروايات فى الموعد الذى نشبت فيه حرب الردة فى البحرين ... هل كانت فى السنة الحادية عشرة للهجرة ، أم فى السنة الثانية عشرة ... وهذا الاختلاف لا أثر له لأن المعروف أن حروب الردة بدأت واستمرت متصلة منذ بيعة أبى بكر الى أن انتهت باذعان جميع القبائل فى الجزيرة .

وعندما فرغ المسلمون من حرب المرتدين فى بنى أسد وبنى تميم وفى ربوع اليمامة اتجهت النية الى حرب المرتدين فى جنوب الجزيرة العربية وكان أمامهم طريقان ..

الأول : البدء بالبحرين ثم السير فيها الى عمان ومهرة واليمن .

الثانى : البدء باليمن ثم كندة فحضرموت ثم البحرين .

فرأى المسلمون أن يبدءوا بالبحرين لأنها كانت تجاور اليمامة حيث انتصروا فى موقعة عقرباء وانتصارهم هذا له أثره فى أهل البحرين ، هذا فوق أن البدء بها كان أدنى الى فوز يجر وراءه فوزا مثله فى جميع البلاد التى تجاورها .

لواء العلاء بن الحضرمى ..

كان أبو بكر قد عقد أحد عشر لواء لأحد عشر قائدا وأسند اليهم مهمة القضاء على الردة ، وكان أحد هذه الألوية بقيادة العلاء بن الحضرمى ، وكانت وجهته البحرين ، وبعث أبو بكر الى المرتدين خطابا مع قادة الألوية جاء فيه [1] « قد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالاسلام وعمل به اغترارا بالله وجهالة بأمره واجابة للشيطان .. وانى بعثت اليكم (فلانا) فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان وأمرته ألا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله ، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد قدر عليه ، وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وأن يسبى النساء والذرارى ، ولا يقبل من أحد الا الاسلام .. » .

حصار الجارود ...

قلنا ان المنذر بن ساوى مات فى الشهر الذى مات فيه الرسول ، وارتد على أثر موته أهل البحرين جميعا عن الاسلام ، وفر العلاء ابن الحضرمى كما فر غيره من رسل النبى فى البلاد التى ارتدت واستطاع الجارود العبدى أن يبقى على اسلامه ، كما استطاع أن يعيد قومه الى الاسلام فثبتوا عليه بعد ردتهم ، الا أن بنى عبد القيس ظلوا على ردتهم وتزعمهم فى ذلك كما سبق القول

---

(١) الطبرى .

الحطم بن ضبيعة ورد هؤلاء الملك الى آل المنذر ، وجعلوا المنذر ابن نعمان بن المنذر ملكا عليهم وسموه الغرور .

خرج الحطم الى القطيف وهجر وضم اليه بعض أهليها ، ثم من لم يكن قد دخل فى الاسلام أصلا ، وحاصر الحطم الجارود ومن معه فى ناحية جواثى مؤيدا من فارس وبلاطها .. وظل على حصاره للجارود ومن معه حتى اشتد عليهم الجوع وكادوا يهلكون [1] ، ورغم هذا ظلوا على ما هم عليه من الاسلام ، وهانت عليهم الحياة فى سبيل تمسكهم بدينهم .

تحرك العلاء الى البحرين ..

تحرك لواء العلاء الى البحرين ، وانضم اليه حين مروره باليمامة نفر من مسلمى بنى حنيفة بقيادة ثمامة بن أثال الحنفى ولحق به أيضا قيس بن عاصم المنقرى [2] فى قومه ، وكثير من أهل اليمن ومن سائر القبائل التى شعرت بقوة المسلمين وأدركوا أن سلطانهم لا محالة عائد .

سلك أبو العلاء بالناس مغاور الدهناء الى غايته ، فلما جن الليل أمر الناس بالنزول حتى لا يضلوا فى تيه الصحراء .. وذكرت

---

(١) فى ذلك يقول عبد الله بن حذف الكلابى :

الا أبلغ أبا بكر ألوكا   وفتيان المدينة أجمعينا
فهل لك فى شباب منك أمسوا   أسارى فى جواث محاصرينا

(٢) كان قيس قبل أن ينضم مع قومه الى العلاء فيمن منعوا الزكاة وردوا الصدقات الى الناس فلما مر العلاء باليمامة بعد انتصار خالد عاد قيس فجمع الصدقات وساقها الى العلاء وخرج معه الى قتال أهل البحرين .

بعض المصادر أن القوم بعد أن نزلوا فرت ابلهم منهم وتفرقت فى الصحراء وهى حاملة الماء والزاد ، وارتاع الرجال لما حدث حتى أنهم أيقنوا الموت ، وأوصى بعضهم الى بعض ، الا أن العلاء أعاد اليهم هدوءهم بثقته فى نفسه وايمانه العميق بالله فقد تساءل « ما هذا الذى ظهر فيكم وغلب عليكم ؟ » فأجابه الناس « كيف نلام ونحن ان بلغنا غدا لم تَحَمَ شمسه حتى نصير حديثا » فرد عليهم « أيها الناس لا تراعوا ! ألستم مسلمين ! ألستم فى سبيل الله ! ، ألستم أنصار الله ! » قالوا « بلى » قال « فأبشروا فوالله لا يخذل الله من كان فى مثل حالكم » ، وفى الصباح التالى صلى الناس الفجر واستغرقوا فى الدعاء فلاح لهم سراب وقال رائدهم انه الماء فذهبوا اليه (١) فشربوا واغتسلوا ، ثم جاءتهم ابلهم من كل صوب .

وبلغ الجيش الاسلامى البحرين .

وبمجرد وصوله أرسل العلاء الى الجارود — وكان ما زال محاصرا هو وقومه يشد من عزيمته ، ثم أخذ يبحث الموقف فوجد أن مواجهة المرتدين أمر عسير ، فأمر بحصارهم ، واستمر الحصار شهرا وخندق كل فريق على نفسه وكانوا يتبادلون القتال فى النهار ثم يعودون مع الليل الى الخنادق .

---

(١) أبدت بعض المصادر الشك فى هذه الرواية ، ولكن يقطع بصدقها الكتاب الذى بعث به العلاء الى أبى بكر بعد انتصاره وسيأتى ذكره فى حينه . وجاء فى بعض المصادر أن أبا هريرة وصاحب له عادا الى المكان الذى كان به الماء ، فلم يجدا به ماء . وذكر البعض أن ذلك كان آية من آيات الله .

انتصار المسلمين ...

وفى احدى الليالى جاء نصر الله ...

فقد سمع المسلمون فى عسكر المرتدين ضوضاء وجلبة فبعث العلاء بعيونه تأتيه بالخبر اليقين ، فجاءته الأنباء بأن القوم قد سكروا حتى فقدوا السيطرة على أنفسهم ، وأن الواحد منهم لا يملك دفاعا عن نفسه ، فخرج المسلمون من خندقهم وهاجموا مواقع المرتدين ، ووضعوا فيهم السيوف وجعلوا يقتلون كل من أصابوا ، وكان ممن قتل الحطم اذ وجده قيس بن عاصم ملقى على الأرض فقتله ، وفى قتله يقول مالك بن ثعلبة العبدى ...

تركنا شريحا قد علته بصيرة [1]
كحاشية البرد اليمانى المحبر
ونحن فجعنا أم غضبان بابنها
ونحن كسرنا الرمح فى عين حبتر
ونحن تركنا مسمعا متجدلا
رهينة ضبع تعتريه وأنسر

وقتل المنذر [2] وأسر فى المعركة عفيف بن المنذر الغرور ، فلما مثل بين يدى العلاء قال له « أنت غررت بهؤلاء » فأجاب بعد أن

---

(١) البصيرة من الدم ما وقع فى الأرض .
(٢) أختلفت الروايات فى موت المنذر
ـ قيل انه نجا ولحق بمسيلمة ثم قتل معه .
ـ وقيل انه قتل يوم جواثى .
ـ وقيل انه استأمن ثم هرب فلحق وقتل .

أعلن اسلامه قائلا « أني لست بالغرور ولكني المغـرور » فعفا عنه العـلاء .

ولقد ذعر المرتدون واضطربوا وفروا الى جزيرة دارين[1] ولحق بهم بعض من المسلمين الذين عبروا البحر خلفهم سـباحة وقاتلوهم حتى ظفروا بهم ولم يبق بالجزيرة ملجأ لمرتد ، وتقول الروايات ان المسلمين لم يجدوا سفنا يركبونها لتذهب بهم الى الجزيرة فنهض فيهم العلاء وقال « ان الله قد جمع لكم أحزاب الشياطين وشرد الحرب فى هذا البحر ، وقد أراكم الله من آياته فى البر لتعتبروا بها فى البحر فانهضوا الى عدوكم ثم استعرضوا البحر اليهم فان الله قد جمعهم » ، فأجابوا قائلين « نفعل ولا نهاب بعد الدهناء والله هو لا ما بقينا » .

وعندما وصلوا الى شاطىء البحر اقتحموا على الخيل والبغال والجمال ودعوا الله فاذا بهم يجتازون البحر على رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الابل [2] .

وغنم المسلمون مغانم كثيرة من مال وسبى حتى أن نفـل الفارس بلغ ستة آلاف والراجل ألفين ، ويقول فى ذلك عفيف ابن المنـذر ...

---

(١) أحدى جزر الخليج الفارسى فى مواجهة البحرين .

(٢) جاء فى بعض الروايات أن من أنضم الى المسلمين من أهل المنطقة أعاروهم سفنا عبروا بها البحر .

وتجرى رواية بأن المسلمين لم يذهبوا الى جزيرة دارين ، وانما بقيت الجزيرة على عزلتهـا حتى عهد عمر بن الخطاب فعادت فى عهده الى الاسلام .

ألـــــم تر أن الله ذلل بحـــــره
وأنزل بالكفار احـــدى الجـــلائل
دعونا الذى شق البحـــار فجـــاءنا
بأعجب من خلق البحــــار الأوائل

ولما تم النصر للمسلمين كتب العلاء الى أبى بكر الصديق « أما بعد فان الله تبارك وتعالى فجر لنا الدهناء فيضا لا ترى غواربه ، وأرانا آية وعبرة بعد غم وكرب لنحمد الله ونمجده ، فادع الله واستنصره لجنده وأعوان دينه » .

فلما قرأ أبو بكر كتاب العلاء أخذ يحمد الله ويقول « ما زالت العرب فيما تحدث عن بلدانها تقول ان لقمان حين سـئل عن الدهناء أيحتقرونها أو يدعونها نهاهم وقال لا تبلغها الارشية ، ولم تقر العيون وأن شأن هذا الفيض من عظيم الآيات وما سمعنا به فى أمة قبلها [1] .

دور المثنى ...

ترى ماذا كان موقف المثنى فى هذه الحرب ؟

هل ارتد وبقى على ردته ؟

هل ارتد ثم عاد مع من عاد الى الاسلام ؟

هل بقى على الاسلام ولم يرتد أبدا ؟

ان الايمان القوى الراسخ فى صدر المثنى هو الذى حـــدد موقفه من الردة والمرتدين ، فقد أبى عليه هذا الايمان أن يعود

---

(١) تاريخ الطبرى .

أدراجه الى الجاهلية وهو الذى آمن عن عقيدة وعن شعور وعن ثقة فى أن الاسلام هو الدين الحى الذى بعث به الله تبارك وتعالى الى الناس جميعا ، وجعله خيرا للبشرية كلها ، ولهذا رفض المثنى كل دعوة الى الردة فى صدق واصرار وعزيمة ...

ولم يكن موقفه من الردة سلبيا وانما اتخذ موقفا ايجابيا فقد صمم على أن يدافع عن الدين الذى آمن به ودخل فيه ، ولهذا جمع الجموع وانضم بها الى جيش العلاء بن الحضرمى ، ودعا أهله من بنى شيبان ليبقوا على دينهم وليخرجوا مع الخارجين لمحاربة المرتدين ولصيانة الدين .

وما ان تم للعلاء الانتصار على المرتدين فى خندقهم — كما روينا — حتى أسرع المثنى على رأس جيش كبير العدد ونشر جنده على طول ساحل البحر ليصد المنهزمين الفارين عن ركوبه ، وفتك بهم فتكا ذريعا ، ويرجع اليه فضل الانتصارات الكبيرة التى أحرزها المسلمون على طول خليج البصرة .

واستطاع المثنى أن يستولى على القطيف ، وأن يصل بقواته الى دلتا الفرات مهددا دولة الفرس التى كانت تسند القوات المرتدة بقيادة الحطم ، وتؤيدها وتعينها على ردتها ، وتمكن المثنى من مقاومة دسائس الفرس ومن القضاء على أنصارها من مختلف القبـــائل .

ولقد كان اتصاله بأرض العراق ودعوته هناك الى الاسلام بداية ومقدمة لفتح العراق وضمه الى الدول الاسلامية ، كما سيأتى ذكره فيما بعد .

الباب الثالث

أرض السواد والحيرة
بين غارات المثنى وقتل خالد

أبوبكر – من هذا الذى تأتى أخبار وقائعه قبل معرفة نسبه ؟

قيس بن عاصم – هـذا المثنى بن حارثة الشيبانى ... رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد .

ارض السواد ...

قلنا ان المثنى بن حارثة تقدم بقواته التى بلغت الآلاف من بنى شيبان حتى وصل الى أرض السواد .

وأرض السواد هذه يقصد بها أرض العراق .

وسميت بأرض السواد لأن العرب كانوا اذا خرجوا من أرضهم التى لا زرع فيها ولا شجر ، وقعت أبصارهم على خضرة الزرع والأشجار والنخيل فى أرض العراق فأطلقوا عليها أرض السواد لخضرتها بالزروع والأشجار ، وكان العرب يسمون الأخضر سوادا والسواد أخضرا ، وفى ذلك يقول الفضل ابن العباس بن عتبة بن أبى لهب وكان أسود ...

وأنا الأخضر من يعرفنى
أخضر الجلدة من نسل العرب

وكان العرب يحددون أرض السواد من حديثة الموصل الى عبدان طولا ، ومن العذيب بالقادسية الى حلوان عرضا (١) .

اذن كان العرب يرون فى أرض السواد بلادا أسبغ الله عليها من الماء والخضرة ما صيرها بهما جنة الفردوس .

---

(١) حديثة الموصل كانت بلدة على دجلة قرب الخراب الأعلى .
العذيب موضع يبعد عن القادسية أربعة أميال .
حلوان هى آخر حدود السواد بغرب الجبل ولم يكن للعراق مدينة قرب الجبل غيرها وهى الآن تابعة لايران فى شرقى خانقين .

وكانت السواد مستعمرة فارسية رغم أن كثيرا من العرب يعيشون فيها ، ولهذا كانوا يرونها عربية يجب أن تكون تابعة للعرب دون الفرس ، ومن هنا بدأ التفكير جديا فى انقاذها من أيدى الفرس وشغل أمر انقاذها القائد العربى المثنى بن حارثة ، فأخذ يبحث ويدرس الوسائل التى تحقق أمله الكبير فى ضم أرض السواد الى سلطة العرب ، ونشر الراية العربية فوق هذه الأرض .

مملكة الفرس ...

المعروف أن مملكتى الفرس والروم كانتا أعظم الممالك المجاورة للعرب ، وكان ملوك الدولتين من الطغاة الذين استعبدوا الناس وأذلوهم .

ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو ملكى الفرس والروم الى الاسلام فأرسل اليهما برسائله ، وعندما تلقى ملك الفرس وامبراطورهم كسرى أبرويز كتاب الرسول الكريم مزقه استكبارا وجبروتا وبعث الى عامله فى اليمن ويدعى باذان أن يرسل من عنده رجلين جلدين الى محمد فيأتيا به ، ونفذ باذان أمر مولاه ، فلما دخل الرجلان المدينة وكلمهما رسول الله وحدثهما عن الاسلام ودعاهما اليه ، وأبان لهما أن عاقبة الظلم وخيمة ، وأن كسرى ظالم قد علا فى الأرض وطغى ، وأن الله قد انتقم منه وسلط عليه ابنه شيرويه فقتله — وكان الأمر كما أخبر رسول الله وتحقق منه الرجلان — أسلم الرجلان .

ولما تولى الأمـــر فى بلاد الفرس شـــيرويه بعث الى باذان ألا يتعرض للرسول العربى ، وكان ذلك بدء نشوء الاسلام فى اليمن اذ أعلن باذان اسلامه فأبقاه الرسول على امارته ، وكانت اليمن بذلك أول بلد خاضع للفرس يدخل الاسلام وتبعه البحرين وبلاد عمان ، ولم تحاول الفرس استرداد هذه الامارات بعــد انفصالها عن سلطانها لأنها كانت تشكو حالة من الضعف نتيجة لهزيمتها أمام جيوش هرقل فى نينوى ودستجرد (١) .

ولما مات الرسول وتولى أبو بكر الخلافة ثم انتهى من فتنة الردة وأرجع العرب الى دين الله ، ووطد قواعد الاسلام فى الجزيرة تطلع الى أرض السواد ، وكانت فى هذه الآونة عربية اللغة والعنصر ولكنها فارسية الحكم ، ومنذ أحس عرب العراق صوت الاسلام يدوى فى أرجاء الجزيرة العربية قويا قاهــرا ، تحركت عندهم غريزة مناصرة ومغالبة هذه الدولة الفتية الجديدة ، وكان هؤلاء لا يعرفون دينا قيما يجمعهم ولم تكن تجمع بينهم سوى وحدة اللغة ، وأثار الاسلام فيهم أريحية الكرامة وبصرهم بأنفسهم ، وأشعرهم بشخصيتهم ، وعرفهم أن لهم رسالة فى الحياة أسمى وأجل من كل ما عرفوه أو سمعوه ، وأمدهم برباط الاخاء العام فى وحدة اللغة والدين . وكان هؤلاء يعانون فوق ما كانوا يعانونه من المذاهب والنحل المختلفة اذلال الحكام واستبدادهم ، هذا

---

(١) كانت الحرب قد قامت بين الفرس والروم قبيل وفاة الرسول ، وحطم هرقل جيوش الفرس فى موقعتى نينوى ودستجرد وتقدم حتى صار على أبواب المدائن عاصمة ملكهم .

فوق الاضطراب الكبير الذى ساد البلاد فى هذه الفترة اذ ثارت الفتن بين الأمراء ، وقد أخذ كل أمير يسعى الى قتل الجالس على العرش ليأخذ مكانه حتى لقد ادعى هذا العرش فى سنوات أربع تسعة من الأمراء كانوا يقتلون عليه فيقتل بعضهم بعضا جهرة حينا وغيلة حينا .

لماذا أغار المثنى على السواد ..

تتبع المثنى أحوال العجم ، وتنسم أخبار العرب القاطنين فى أرض السواد ، وعلم من دراساته لأحوال العرب أن العجم يسيمونهم الأذى ، وقد استضعفوهم فشنوا عليهم الغارات مستغلين فى ذلك ملوك الحيرة الذين يخضعون لسلطانهم ، وعرف المثنى أن العرب يقاسون من ظلم العجم الكثير ، وأنه لا أمن ولا سلام لعرب فى وسط العجم ، وكان مما عرفه أيضا ذلك الاضطراب العنيف الذى يعيش فيه العجم داخل بلادهم فالناس هناك حاقدون على الولاة ، وفروع البيت المالك فى نزاع مستمر .

اذن فالبلاد التى يقف المثنى على أبوابها بلاد مزعزعة الأركان مهلهلة الجوانب لا ضابط فيها ولا رابط ولا منظم للشئون .. تعمها الفوضى والاضطراب .. أهلها مختلفون شيعا وأحزابا .. وأمراؤها نافرون .. وفيها يعيش الناس فى مذلة وهوان .

وقفز الى ذهن المثنى هذا السؤال .. لماذا لا يقتحم أرض السواد بمن تبعه من بنى شيبان ؟ ! .. ان تحت يديه ثمانية آلاف مقاتل من خيرة الأبطال ، فلماذا لا يخرج بهم الى أرض السواد فيمد يده الى العرب المقيمين هناك يرد لهم اعتبارهم ،

ويصد عنهم ظلم الحكام ويرتفع بنفوسهم الى مراتب الكرامة والرضى ، وينشر بينهم مبادىء الاسلام الخالدة ويأخذ بأيديهم الى حياة أفضل تليق بهم كأفراد فى العائلة الانسانية .

أولى غارات المثنى ..

بعد أن أسهم المثنى فى القضاء على المرتدين فى البحرين تقدم الى القطيف وهجر ، وبلغ مصب دجلة والفرات ، ومن هناك بدأ غاراته المتعددة على احدى مدن الفرس العتيقة وتسمى دهشتاباذ أردشير واستطاع أن يدخل المدينة وأن يخربها بعد أن غنم أموال قاطنيها ، وسماها العرب لكثرة ما أصابها من الخراب الخريبة[1] ، ثم اتجه المثنى الى مدينة الأبلة [2] ، وكانت بها قوة فارسية كبيرة فانتصر عليها ووقع فى يده منها أسرى كثيرون ..

وعطف المثنى بعد ذلك على الحيرة ، ووقعت مناوشات كبيرة

---

(١) بنيت مكانها مدينة البصرة القديمة فى زمن الخليفة عمر ابن الخطاب واهتم المسلمون بهذه المدينة فيما بعد حتى أصبحت من أهم بلادهم وسميت خزانة العرب .

(٢) فى موقع البصرة الحالية .

قيل أن معالم هذه المدينة محيت حين دخلها الزنج فى عام ٢٥٦ هجرية فقتلوا رجالها ونهبوها وأحرقوها .

ويقول مؤرخو العرب انها مدينة قديمة على الشط فى زاوية الخليج الذى يدخل الى البصرة وهى أقدم من البصرة التى وجدت أيام الخليفة عمر بن الخطاب فى الوقت الذى كانت فيه الأبلة مدينة عامرة فيها مسالح للفرس .

وقال الدينورى فى الأخبار الطوال « لم يكن موضع البصرة يومئذ الا الخريبة وكانت الابلة مرقى سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين » .

بينه وبين سكانها ، وكانت شجاعته وقوته وبطولة رجاله من العوامل الكبيرة التى أثارت روح النفور والتمرد فى القبائل العربية ضد الحكم الفارسى حتى بلغ الأمر ببعض هذه القبائل أن حملت السلاح فى وجه حكامها .

الحيرة (١) ...

تقع الحيرة على ثلاثة أميال من مكان الكوفة فى موضع يقال له النجف على ضفة الفرات الغربية فى حدود البادية بينها وبين العراق ... اتسعت مبانيها ، وأقيمت فيها المنازل والقصور والحدائق حتى ان عاصم بن عمرو قال فى وصفها ..

صبحنا الحيرة الروحاء خيلا
ورجلا فوق أثباج الركاب
حضرنا فى نواحيها قصورا
مشرفة كأضراس الكلاب

واشتهرت الحيرة بصحة هوائها حتى قيل « يوم وليلة فى الحيرة خير من دواء سنة » .. وكان بجوارها قصران كبيران هما الخورنق والسدير .

---

(١) قيل سميت الحيرة بمعنى الضلال لأن من بلغ موضعها ضل دليله وتحير .

وقيل انها سميت كذلك لأن مالكا حين نزلها جعلها حيرا أى بستانا .

وقيل سميت الحيرة من الحوار أى البياض لبياض أبنيتها .
وقيل ان لفظها سريانى معناه الحصن أو المعتقل حوله خندق .

ولما كانت الحيرة على طرف العراق فى الغرب ، وتليها البادية فقد رغب فيها البدو ، كما جاءتها جماعات من مدن العـــراق والجزيرة ، وقامت مملكة الحيرة حين كثر سكانها وزاد اتساعها وكان من أشهر ملوكها [1] عمرو بن عدى [2] ، وامرؤ القيس ابن عمرو ، وعمرو بن امرىء القيس ، والمنذر بن النعمان ، والمنــذر بن المنذر والنعمان بن الأسود ، والنعمان بن المنذر ابن ماء السماء ، والمنذر بن النعمان الغرور [3] .

ولقد ولد الرسول الكريم فى السنة التاسعة من حكم عمر ابن هند [4] .

وامتد ملك النعمان بن المنذر أبو قابوس حتى بلغ دجلة

---

(١) بلغ ملوك الحيرة ٢٢ ملكا تولوا الملك مدة ٣٦٤ سنة وكان أطولهم ملكا عمرو بن امرىء القيس (٤٩ سنة) ، وأقلهم المنذر ابن المنذر بن ماء السماء وعلقمة أبو يعفر (٣ سنوات) .

(٢) يقول الطبرى ان أول ملك للحـيرة من العرب هـو مالك ابن فهيم من الأزد وخلفه أخوه عمرو بن فهيم فى رواية وجذيمة الأبرص فى رواية أخـرى ، ويقول عنـه الطبرى انه « من أفضل ملوك العرب رأيا وأبعدهم مغارا وأشدهم نكاية وأظهرهم حزما وأول من استجمع له الملك بأرض العراق ، وضم اليه العرب وغزا بالجيوش » ... (الطبرى ج ٢ ص ٣٠) وأيده فى ذلك اليعقوبى .

(٣) هو آخر ملوك الحيرة قتل فى البحرين يوم جـــواث ، ويقول ابن الكلبى أن المنذر حكم ثمانية أشهر بالحيرة قبل فتح خالد لهـا ، ويخالف جواد على ابن الكلبى ، ويقول ان المنذر لم يحكم الحيرة وانما حـكم البحرين فى أثناء الردة وحاربه المسلمون وسقط أسيرا فى أيديهم .

تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ٤ ص ١٠٤ .

(٤) بلغ عمر ملكه ١٦ سنة .

حيث بنى مدينة النعمانية على مقربة من المدائن عاصمة كسرى ، فلم يرض كسرى أبرويز عما بلغ النعمان من سلطان وما يرفل فيه من نعمة (١) فحبسه وقتله ثم قضى على سلطان اللخميين ، وأقام مقامه أياس بن قبيصة وأقام معه مرزبانا فارسيا يدعى بهرجان .

أبو بكر وفكرة الغزو ..

بعد أن انتهى أبو بكر من حروب الردة عاوده التفكير فى دفع المسلمين الى خارج شبه الجزيرة حتى ينصرفوا عن ثاراتهم الأولى وثورتهم بسلطان المدينة ، وتنصرف أذهانهم عن أى تصرف قد يسىء الى موقف الاسلام والمسلمين وحتى يجعل لهم من الفخار ما ينسيهم ضغنهم على يثرب وأهلها ويمهد الطريق لانتشار كلمة الله فى خارج الجزيرة .

وكان أمام أبى بكر وجهتان ... اما أن يوجه جيوشه الى بلاد الفرس ، واما أن يوجهها الى بلاد الروم وكلاهما يتاخم الجزيرة العربية من شمالها .

ولكن الى أين يوجه أبو بكر ضربته ؟ .

أالى بلاد الروم ؟ ... ان غزو الروم أمر فيه خطورة فان لم يحالف المسلمين النصر تعرضت الجزيرة العربية لخطر أشد من هذا

---

(١) قيل أن النعمان على قبح صورته كان مترفا واوعا بمتع الحياة وتزوج امرأة أبيه المتجردة وكانت ذات جمال بارع فأحبت المنخل اليشكرى فقتله النعمان وأنشأ لها الحدائق وجلب لها ابهج الزهور طمعا فى أن تبادله الحب .

الخطر الذى تعرضت له حين قامت الردة فيها وقد تؤدى هزيمة المسلمين الى وقوع بلادهم فى قبضة الروم فيرتد المسلمون عن دينهم .

أالى بلاد الفرس ؟ ... ان التفكير فى توجيه الضربة الى بلاد الفرس لم يمر بخاطر أبى بكر لأنها تتاخم المناطق العربية التى فشت فيها الردة والتى يتعذر على أبى بكر أن يعتمد على أهلها أو أن يأمنهم فى قتال ضد دولة قوية ذات جيوش جرارة وموارد كثيرة .

ولم تتضح الصورة جيدا أمام أبى بكر ولهذا قرر أن يتجه بجهوده الى داخل الجزيرة يوطد الأمن بها ، ويؤكد وحدة أهلها ، واتجه فعلا هذا الاتجاه ، حتى أنه أخذ عليه كل وقته فى العام الأول لخلافته ، فلم يقم بالحج بالناس وانما أناب عنه عتاب ابن أسيد عامله على مكة واستمر هو — بمساعدة عمر بن الخطاب الذى ولى القضاء ، وأبى عبيدة بن الجراح الذى ولى شئون المال ، وعثمان بن عفان ، وزيد بن ثابت اللذين توليا كتابة الأخبار للخليفة — فى وضع النظم الادارية للدولة الجديدة .

أنباء المثنى ...

وبينما أبو بكر يعطى اهتمامه لشئون الدولة ، اذ وصلته أنباء من العراق أن قائدا عربيا من البحرين من بكر بن وائل يسمى المثنى بن حارثة قد سار بقواته شمالا ووضع يده على القطيف وهجر وبلغ مصب دجلة والفرات وقضى على الفرس وعمالهم ، وتابع سيره الى الشمال ، ونزل فى قبائل العرب التى تقيم بدلتا النهرين وتحدث اليهم وتعاهد معهم .

وعاد أبو بكر على أثر هذه الأنباء يفكر من جديد فى دفع المسلمين الى عمل خارج شبه الجزيرة وقد رأى أن المثنى قد طار صيته فى الآفاق وأن القبائل تلهج باسمه وتردد أنباء وقائعه وأخبار انتصاراته فسأل من حوله عن المثنى قائلا « من هذا الذى تأتينا أخبار وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ » .

فانبرى له قيس بن عاصم بن سنان وأجابه قائلا « هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد ... هذا المثنى ابن حارثة الشيبانى » .

من خلال العوامل التالية رأى أبو بكر أن يوجه جيوش المسلمين الى أرض السواد عندما تحين له فرصة مواتية ...

١ — فى استطاعة المثنى أن يتوغل فى العراق وأن يفتح للمسلمين أبوابه ما دامت أبواب الشام مستعصية .

٢ — الرغبة فى صرف المسلمين عن ثاراتهم وتوجيههم الى ما يعود بالخير على الاسلام والمسلمين .

٣ — القبائل العربية فى العراق من بنى لخم وتغلب وأباد والنمر وبنى شيبان تهوى نفوسهم الى منابتهم فى شبه الجزيرة .

٤ — تأمين شبه الجزيرة من دسائس الفرس وعدوانهم .

٥ — دلتا النهرين مليئة بألوان الزرع والفاكهة والطير والحيوان ودهاقين الفرس يستولون على غلتها فى حين أن العرب المقيمين هناك لا ينالون الا ما يجود به هؤلاء وهو فى الغالب قليل .

٦ — الانتصار على الفرس خطوة تتلوها خطوات واسعة تعود بالخير على الاسلام والمسلمين .

لقاء المثنى وأبى بكر ...

عندما اشتدت غارات المثنى على أرض السواد لم يستطع العجم أن يسكتوا ازاءها ، ولهذا بدءوا ينتبهون ويقدرون هذا الخطر الكامن وراء هذه الغارات المتتالية للمثنى ، فأعدوا الجيوش ورتبوا القوى وتأهبوا لملاقاته وأوعزوا الى القبائل الكلدية الساكنة عند مصاب الفرات لتتعرض له وتسد جموعه ، ولكن هذه القبائل لم تستجب لهذه الدعوى لأنها قبائل عربية أصلا[1] وأبت عليها عروبتها أن تحمل سلاحها فى وجه اخوة لهم من العرب .

وبعد تعدد غارات المثنى رأى بعمق تفكيره وسلامة ادراكه أن هذه الغارات يجب أن تسهم فيها الحكومة المركزية فى المدينة وذلك فى ضوء ...

١ — ليس من المستطاع لقواته التى تعمل تحت امرته أن تستولى وحدها على مملكة عظيمة مترامية الأطراف كمملكة الفرس التى تدين لها جميع بلاد العراق حتى شواطىء بحر قزوين ، وخاصة أن قواته فى حاجة دائمة الى الامداد بالرجال لتعويض الخسائر .

(١) ذهب العلامة الانجليزى سايس الى أن قبيلة كالدة هى قبيلة من الساميين نزلت عند مصب النهرين وأنها طليعة قبائل متعددة نزحت من شمال بلاد العرب ، ويقول الأب أنستاس مارى أن كلدة هو شيخ عربى أسس دولة كلدان .

٢ — حربه ضد الدولة ليس لها صورة رسمية ، وانما هى جهد فردى يقوم به مع قومه الذين عاونوه وأيدوه .

٣ — خوفه من أن تهزم قواته فتقع مسئولية الهزيمة على عاتقه وحده .

٤ — فى حالة انتصار الفرس عليه قد يشجعهم هذا الانتصار على تتبعه واسترداد نفوذهم فى البحرين وما جاورها.

ولهذا أسرع المثنى الى المدينة حيث التقى بالخليفة أبى بكر الذى كان قد عرف الكثير عنه قبل أن يلقاه (١) .

ونقل المثنى الى أبى بكر صورة واضحة المعـالم عن أرض السواد .. أخبره بتفاصيل غاراته ووقائعه وقدم له وصفا للحالة الداخلية لبلاد الفرس وجعله يقف على أمورها واضطراب حبل دولتها ، وانهيار كل قوة أو منعة فيها .

وما زال المثنى يهون على الخليفة أمر العراق ويغريه ببلاد فارس التى يطلقون عليها اسم جنة الأرض لكثرة غلاتها ووفرة خيراتها .

---

(١) ذكر بعض المؤرخين أن المثنى لم يذهب الى المدينة ولم يقابل أبا بكر ، وانما أمعن فى السير بجيشه فى دلتا الفرات فلقيه هرمز فدارت بينهما معارك ووقائع وصلت أنباؤها الى أبى بكر فسأل عنه ، وعرف أخباره فأصدر أمره الى خالد ليخف اليه ويعينه ، ويؤكد هؤلاء وجهة نظرهم بقولهم ان المثنى كان منتصرا ولم يكن فى حاجة الى مدد ، وان انتصاراته المتتاليـــة شجعت أبا بكر على التفـكير فى غزو العراق فأمر خالد بالذهاب الى هناك ليعزز المثنى ويفتح الحيرة .

ووقف بعض المؤرخين من هذا الخلاف فى الرواية موقفا سلبيا ، ولم يرجحوا رواية على أخرى كالطبرى وابن الأثير .

هذا فوق أن المثنى طلب من الخليفة أن يقوم بتأمين العرب من أهلها وحمايتهم من شرور حكامها ..

وقال المثنى للخليفة « أقرنى على من قبلى من قومى أقاتل من يلينى من أهل فارس وأكفك ناحيتى . »

مشاورات أبى بكر ...

جمع أبو بكر أصحابه الذين اعتاد أن يعرض عليهم أهم الأمور وأخطرها وخاصة تلك الأمور التى ترتبط بتوسع أو فتح ، وعرض عليهم ما جاء من أجله المثنى ، وتداول القوم المشورة ، واستقر الرأى على أن يؤخذ رأى خالد بن الوليد بصفته رجلا عسكريا ذاع صيته فى جميع الأرجاء خبيرا بشئون الحرب والقتال ، وكان خالد فى هذه الأثناء قد فرغ من غزوة عقرباء ، وكان مقيما باليمامة ، فاستدعاه أبو بكر فجاء ، وعرض عليه الأمر فدرسه ثم وافق عليه ، وأيد مطالب المثنى تأييدا بعيدا مطلقا وأشار بضرورة الاسهام الايجابى فى عمليات العراق التى يقوم بها المثنى ومعاونته معاونة فعالة حتى يستطيع أن يفتح أبواب العراق أمام الجيوش الاسلامية .

وأقر أبو بكر رأى خالد ثم أقره الصحابة وأصدر أبو بكر أوامره بتأمير [1] المثنى واستمراره فى عملياته الحربية وكتب له عهدا بذلك .

---

(١) أى جعله أسيرا على الجند .

عاد المثنى الى بلاد الفرس ، وتولى قيادة جيشه وأخذ يعد العـدة للقيـام بالدور الخطير الذى ألقى على عاتقه ، وأحس بالمسئولية الضخمة التى أصبحت فى عنقه .

وفى هذه الأثناء عاود أبو بكر التفكير فى أمر العراق ، ورأى أن يمد المثنى بقوات وامدادات تساعده وتسانده وتشد من أزره ليتحقق فى بلاد الفرس نصر سريع عاجل ، فأصدر أوامره الى خالد بن الوليد [1] بأن يجمع بقية جنده فى اليمامة ، وأن يسير بهم الى العراق ، على أن تكون له القيادة العليا بطبيعة الحال ، وفى ذات الوقت أمر أبو بكر عياض بن غنم بالسـير الى دومة الجندل ، فاذا ما أخضع أهلها المتمردين تحرك شرقا الى الحيرة لمعاونة خالد فى مهمته .

وأوصى أبو بكر خالدا وعياضا ألا يضرّا بفلاحى العراق وأهل السواد حرصا منه — رضى الله عنه — على منابع الثروة ، فالفلاحة هى مصدر حياة الناس ، وتقدمها أساس العمران فى الممالك ، ومن زاوية أخرى فان العرب فى العراق كانوا يعملون فلاحين فى أرضه وينالهم — كما سبق القول — القليل من خيره ، وأما وافر الخير فيذهب الى الدهاقين الفرس الذين كانوا يسومون العرب الخسف والظلم ، ولهذا أمر أبو بكر قواده بألا ينـالوا هؤلاء العـرب الفلاحين بسوء ، وألا يقتلوا أحدا منهم ، ولا يأخـذوا منهم

---

(١) ذكرت بعض المراجع أن أبا بكر أمر خالدا بالمسـير الى العراق فى السنة الثانية عشرة هجرية .

أسرى ، ولا يسيئوا اليهم فهم عرب مثلهم ، يشعرون بالظلم تحت نير فارس فيجب أن يشعروا بزوال هذا الظلم حين يكونوا تحت سيطرة العرب ، وكذلك أمر أبو بكر قواده باستبعاد كل من ارتد فلا يشترك فى حـرب ولا يؤمن جانبه وذلك لضعف ثقته بأهل الردة بعد ما ظهر منهم من حرب المسلمين ، ولعله خشى أن تكون فى قلوب بعضهم ضغن على المسلمين فيبثون روح الفتنة ويفسدون عليهم أمر الفتح (١) .

وأوصى أبو بكر خالدا بألا يجبر أحدا على السير معه بل يأذن لمن شاء من رجاله الرجوع والعودة .

وعندما تحرك خالد كان تحت امـرته عشرة آلاف مقـاتل واستقبله المثنى ومعه ثمانية آلاف وأمده الخليفة بالقعقاع ابن عمرو التميمى .

وعندما استقر خالد فى أرض العراق كان تحت امرته رجال أبطال ميامين باعوا أنفسهم فى سبيل الاسلام وخلصت نيتهم للدين الذى هيأ الله لأهله أسباب النصر ... ومن هؤلاء الرجال :

المثنى بن حارثة .

---

(١) سمح عمر وقت خلافته لكل المسلمين بما فيهم من ارتد بالاشتراك فى القتال وأبلى زعماء الردة مثل طلحة الأسدى وعمرو ابن معدى يكرب والأشـعث بن قيس البلاء الحسـن فى فتوح الشام والعراق وأستشهد منهم كثيرون فى الفتوح .

مذعور بن عدى العجلى : كان قد كتب لأبى بكر يستأذنه فى قتال الفرس ، فأمره أن ينضم الى خالد .

سويد بن قطبه الذهلى : وكان ينتظر وقومه من بكر بن وائل فى البصرة وصول خالد ليكون معه فى القتال .

عاصم بن عمرو

عدى بن حاتم الطائى

معقل بن مقرن المزنى

القعقاع بن عمرو التميمى : وكان خالد قد طلب من أبى بكر المدد فأمده بالقعقاع ، فسئل « أتمده برجل واحد » فقال « لا يهزم جيش فيه مثل هذا » .

المثنى الجندى ...

عندما وصل خالد الى بلاد الفرس كان المثنى على رأس قواته فى معسكر خفان — وهو موضع قريب من الكوفة وفوق القادسية — ونزل خالد بقواته فى محل يدعى النباج ، ثم كتب الى المثنى يطلب منه السير اليه بقواته .

وكجندى يعرف أن الطاعة للقائد واجبة وأن تنفيذ الأوامر هو أول صفات العسكرية الحقة ، تحرك المثنى — عندما تلقى أمر خالد — بكل جنده وضم قواته الى قوات خالد ، وأصبح منذ هذه اللحظة جنديا بسيطا كسائر الجند يعمل تحت امرة خالد بعد أن كان قائدا لجنده ، ولم يضايقه العمل تحت امرة خالد ، ولم يعتره الخور بل ضاعف الهمة وواصل الجهاد ووضع نفسه وسلاحه تحت امرة خالد ينفذ أوامره فى صدق وأمانة واخلاص .

كاظمة (١) ...

وكان أول اشتراك للمثنى فى الحرب تحت قيادة خالد فى المعركة التى دارت بين جيوش المسلمين وجيوش الفرس بقيادة هرمز ، وكان هرمز هذا أميرا ممن تم شرفهم (٢) كما كان من أسوأ أمراء الفرس معاملة للعرب حتى بلغ من حقدهم عليه أن جعلوه مضرب المثل فى الكفر والخبث وكانوا يقولون « أخبث من هرمز » ، « وأكفر من هرمز » ، وكان هرمز يعد نفسه حامى البلاد التى تعد مفتاح فارس ، وكان ينازل العرب فى كل مكان برا وبحرا .

أعاد خالد تنظيم قواته فى أول لقاء ، وقسم الجيش الى ثلاث

---

(١) تسمى أيضا ذات السلاسل لأن هرمز ورجاله كانوا مقيدين ومقرونين بالسلاسل حتى لا يفروا .

(٢) كان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم فى عشائرهم ، فمن تم شرفه فقيمه قلنسوته مائه ألف وتلك كانت قيمة قلنسوة هرمز .

فرق ، ولم يحمل الفرق الثلاث على طريق واحد بل جعل المثنى على رأس فرقة هى مقدمة الجيش ، وجعل عدى بن حاتم وعاصم ابن عمرو على رأس فرقة أخرى تلى فرقة المثنى ، ثم خرج هو بنفسه على رأس الفرقة الثالثة ، وحدد مكان اللقاء والتجمع للفرق الثلاث فى الحفير ، وتقدمت الفرق الثلاث الى أغراضها بفاصل يوم واحد .

ودعا خالد هرمز الى واحدة من ثلاث .. الاسلام أو الجزية أو القتال « أما بعد فأسلم تسلم ،أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية والا فلا تلومن الا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

وعلم خالد أن هرمز قد سبق القوات الاسلامية الى الحفير واحتلها فغير وجهة قواته الى كاظمة ، فلما علم بذلك هرمز أسرع اليها ونزل على الماء بها ، فاضطر خالد أن ينزل بقواته على غير ماء ثم قال لجنده « اعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين فحطموا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء » .

وانتهت المعركة بانتصار المسلمين وقتل هرمز وفر جيشه فأمر خالد المثنى بمطاردة الفارين ، وخالد كقائد عسكرى يدرك قيمة المطاردة بالنسبة للجيش المنتصر ، وأيضا بالنسبة للجيش الفار ، ويعلم أن وقعها على الجيش الفار أليم ، اذ يزلزل كيانه ويحطم معنوياته ، ويفقده الثقة فى نفسه وفى قادته ، ومن أجل هذا رأى خالد أن يقوم بالمطاردة رجل قوى عليم بفنون الحرب وأصولها ليستطيع أن يحقق الغرض من المطاردة ولم يجد فى قادته من يرتفع

الى مستوى القوة والحكمة والعلم بشئون الحرب سوى المثنى ابن حارثة ، فأسند اليه هذا الأمر وهو مطمئن الى تنفيذه بالصورة التى يريدها وبالنتيجة التى يهدف اليها .

حصن المرأة ...

أسرع المثنى يلاحق المنهزمين الفارين فى اتجاه المدائن ومر أثناء المطاردة بحصن تقيم فيه أميرة فارسية أطلق عليه مؤرخو العرب اسم حصن المرأة .

رأى المثنى أن انشغاله بهذا الحصن قد يعطله عن هدفه الأساسى وغرضه الرئيسى ، وهو رجل حرب يعلم أن من أهم مبادئها المحافظة على الغرض ، ولهذا ترك مهمة مواجهة الحصن لأخيه المعنى وأمره بمحاصرة الحصن ، ثم تقدم هو فى طريقة ، فقوبل بحصن آخر كان يقيم به زوج الأميرة ، وكان الحصن يعترض طريقه فهاجمه ، وفضه على من فيه وقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم استمر بعد ذلك فى مطاردته للجيش الفار .

ولما علمت الأميرة بما أصاب زوجها صالحت المعنى ، ثم أعلنت اسلامها وعرضت عليه أن يتزوجها فتزوجها (١) .

المذار ...

استطاع الملك أردشير أن يعد جيشا آخر بعد هزيمة هرمز ولى قيادته قارن بن قريانس ، وهو أمير تم تشريفه ، وتقدم الجيش الجديد الى مكان بين البصرة وواسط يسمى المذار ، وهناك التقى

---

(١) الطبرى .

بفلول الجيش المنهزم فجمعها ، وأعاد تنظيمها وضمها الى قواته ، وقال لأفرادها — بعد أن اتخذ له معسكرا فى هذا المكان — « ان افترقتم لم تجتمعوا بعدها أبدا » ، وكانت القوات الفارة التى ضمت الى قوات قارن بقيادة قباذ وأنوشجان ابنى الملك أردشير .

وبينما المثنى يلاحق القوات الفارة المنهزمة فى كاظمة ، وصلته أنباء الجيش الجديد المتقدم من المدائن ، والذى اتخذ مواقعه فى منطقة المذار ، فقدر موقفه ، ووجد أن قوات عدوه تفوق قواته ، ولكنه فى ذات الوقت أدرك أن عليه دورا كبيرا وهو أن يواجه هذه القوات ويناوشها وأن يشغلها حتى تصل اليه بقية القوات الاسلامية بقيادة خالد ، ولهذا نزل بجنده فى مكان قريب من المذار فى مواجهة أعدائه ثم كتب الى خالد الذى أسرع اليه لملاقاة قوات الفرس ، ووصل خالد فى الوقت المناسب وشد بقواته على الفرس ، وتحول المسلمون الى أسود كاسرة لا تهاب الموت وانما تلقاه باسمة ، ودار قتال عنيف قتل خلاله قارن وقباذ وأنوشجان وأطاحت سيوف المسلمين برءوس الفرس فى كل جانب ، وولت جيوش الفرس الأدبار وقد بلغ عدد قتلاهم ثلاثين ألفا .

معارك أخرى ...

واستمر المثنى فى جهاده الكبير العظيم تحت قيادة خالد ابن الوليد ، فانتقل معه من موقعة الى أخرى ، ومن قتال الى قتال ، لم تضعف روحه ، ولم تهن عزيمته ، وانما ظل متمسكا بمبادئه قويا فى ايمانه عظيما فى قتاله حتى توغل الجيش الاسلامى فى بلاد

الفرس ... فى باتقيا وباروسما والولجة واليس وأمغيشيا والحيرة والانبار وعين التمر وخنافس والحصيد والثنى والبشر والرضاب والفراض ...

القيادة للمثنى ...

لقد أدى المثنى دورا كبيرا خطيرا فى هذه المعارك كلها وكان له فضل فى النتائج التى انتهت اليها حتى ان شاعرا وصف موقفه فى موقعة الانبار فقال ...

وللمثنى بالعـــال [1] معـــركة
شاهـــدها من قبيـــله بشـــر
كتيبـــــة أفزعت بوقعتهـــــا
كســرى وكاد الايوان ينفطـــر

لقد قدر خالد له جهده ، وقدّره أيضا أبو بكر الصديق حتى أنه حينما أمر خالد بن الوليد بالتحرك الى الشام لمساعدة الجيوش الاسلامية التى كانت تواجه جيش الروم فى اليرموك أمر بأن يتولى المثنى قيادة الجيش الاسلامى فى العراق ، وكتب الى خالد « دع العراق وأخلف أهله فيه الذين قدمت عليهم وهم فيه » ، وأبو بكر بذلك يعنى أن يترك قيادة الجيش الاسلامى الى المثنى بن حارثة الشيبانى .

وجاء فى كتاب أبى بكر « امض مخففا فى أهل قوة من أصحابنا الذين قدموا معك العراق من اليمامة وصحبوك من الطريق ،

---

(١) يقصد بالعال : الأنبار .

وقدموا عليك من الحجاز حتى تأتى الشام فتلقى أبا عبيدة ابن الجراح ومن معه من المسلمين » .

وفى رواية أن أبا بكر أمر خالداً بالخروج فى نصف الناس وأن يخلف على النصف الآخر المثنى ، وقال أبو بكر لخالد « لا تأخذ مجدا الا خلفت لهم مجدا ، فاذا فتح الله عليك فارددهم الى العراق وأنت معهم » وأحضر خالد أصحاب رسول الله واستأثر بهم على المثنى ، ثم قسم الجند نصفين ، فقال المثنى « والله لا أقيم الا على انفاذ أمر أبى بكر كله فى استصحاب نصف الصحابة ، وابقاء النصف أو بعض النصف ، فوالله ما أرجو النصر الا بهم ، فكيف تعرينى منهم ؟ » ... وتشدد المثنى بأصحاب رسول الله له معنى ومغزى ، فهو يعرف الصحابة جيدا ، ويعرف عنهم أنهم صابرون فى الحرب محبون للموت فى سبيل الله أقوياء فى الجلاد ، وفهم خالد ما يقصد اليه المثنى فأرضاه وأعاضه من الصحابة أبطالا مجربين ، وقبل المثنى الوضع الذى أراده خالد ، وخرج فى كتيبة من الجند يشيع خالدا وأصحابه الى تخوم الصحراء حتى قراقر ، ووقف المثنى يودع خالدا واستمع المسلمون جميعا الى قول خالد وهو يسلم القيادة الى المثنى « ارجع رحمك الله الى سلطانك غير مقصر ولا وان » .

ولا شك فى أن هذه الكلمات تحمل كل معانى الرضا والطمأنينة والتشجيع والاعجاب والتقدير .

وهذا الوداع الذى شهدته منطقة قراقر يدل دلالة واضحة

على ما بين القائدين العربيين الكبيرين من التآلف والتواد والثقة والاحترام المتبادل .

وعاد المثنى قائدا للجيش العربى الاسلامى فى أرض العراق.

وبدأت منذ هذه اللحظات أروع صفحات المجـد والبطولة للقائد العربى الهمام .

الباب الرابع

المثنى في العراق
معاركه ... مواقعه ... غزواته

ما أن رأينا أميرا بالعراق مضى
مثل المثنى الذى من آل شيبانا
أن المثنى الأمير القرم لا كذب
فى الحرب أشجع من ليث بخفانا

موقعة بابل

المثنى القائد ...

قلنا ان المثنى كان أول من تطلع الى أرض السواد .

وانه بدأ فعلا غاراته وهجماته فى المنطقة ، فلما أحس بالمسئولية الضخمة اتجه الى أبى بكر وعرض عليه أمر فتح العـراق ... واستشار أبو بكر أصحابه فاتفقوا على عرض الأمر على خالد ابن الوليد للوقوف على رأيه بصفته القائد الأول للجيوش الاسلامية . فلما جاء خالد ووضع الأمر موضع التشريح والدراسة والبحث وافق عليه وأيد مطالب المثنى ... ثم استقر الرأى على أن يكون المثنى قائدا للجيش العربى هناك .. ولما اتضحت أهمية العمليات فى هذه المنطقة قرر أبو بكر أن يبعث الى كسرى العراق بسيف الله المسلول ليهد قواه وليزعزع عرشه وليعلى كلمة الله فوق أرض العراق ..

وذهب خالد وخاض المعارك وانتصر فيها كلها وحارب معه المثنى بكل ما كان يتمتع به من روح عربية واخلاص وثقة وأمل ورغبـــة .

ثم رأى أبو بكر أن جيوشه فى الشام فى حاجة الى عبقرية خالد وبطولته فقال قولته المشهورة « والله لأنسين الروم وساوس

الشيطان بخالد بن الوليد » .. وأمر بتحركه من العراق الى الشام.
وترك خالد العراق ، وترك من خلفه المثنى بن حارثة على رأس الجيش ..

تقدير الموقف ...

بعد أن ألقيت مقاليد الأمور الى المثنى ، أقام فى الحيرة وجعلها مركزا لقيادة العمليات ودارا لامارته ومقرا لحركاته فأقام بها يعد أمر المعارك القادمة ويهيىء جنده لها ويجمع أصحابه ورجاله ويوحد صفوفه وأخذ كأى قائد عسكرى يبحث الموقف ، ويدرسه ويقدره ووجد أن عليه واجبين ...

الأول : الدفاع عن البلاد التى فتحها المسلمون بما بقى لديه من قوات بعد ارتحال خالد ومواجهة الفرس الذين سيبدأون فى التحرش به بمجرد علمهم أن خالدا قد سافر .

الثانى : اتمام الرسالة التى بدأها وهى الدعوة الى الاسلام ونشره فى هذه البقاع ، وخاصة أنه هو الذى دفع أبا بكر الى غزو العراق وهو الذى تقدم خالدا والمسلمين جميعا الى فتحه بالسير الى دلتا النهرين .

وتراءى له الموقف معقدا الى حد كبير بالغا غاية الدقة من حيث انه أصبح يواجه عدوين ...

الأول : البدو المقيمين فى جزيرة العراق الذين بطش بهم خالد فأصبحوا خصوما للمسلمين .

الثانى : الفرس الذين تنبهوا الى أن دولتهم مؤذنة بالزوال اذا ظل لهؤلاء العرب الغزاة فى العراق سلطان .

ولا يفوتنا أن نذكر أن خالد بن الوليد كان قد أحس بهذا الموقف قبل مغادرته أرض العراق الى الشام ، ولهذا أمر بأن ترسل النساء والصبيان والضعفاء من الرجال الى المدينة .

جيش الأعـــداء ...

حدث فى أثناء التغيير فى القيادة العـربية أن تعرضت بلاد الفرس لاضطرابات متتالية ، وتولى أمرها ملوك كثيرون ، وكان الفرس يقتلون الملوك الواحد بعد الآخر ، ثم اتفق رأيهم على أن يتولى الأمر شهر زان بن أردشير بن سابور [1] ، فما ان تولى الأمـر حتى كان اجلاء المسلمين عن العراق أول ما استقر عليه عزمه ، ولقد دفعه الى هذا الأمر ظنه أن تغيب خالد عن المعركة سيكون ذا أثر فعال فيفت فى عضد العرب ويوهن قواهم ويضعف عزيمتهم ، ولقد أراد شهر زان أن يستغل الموقف فأعد جيشا من عشرة آلاف مقاتل لمحاربة المثنى ، وعين عليه هرمز جاذويه وأمره بأن يقاتل العرب الى أن يخلص البلاد منهم نهائيا .

وبدأ جيش الفرس فى التحرك متجها الى الحيرة .

التحرك العربى ...

وعلم المثنى بتحرك قوات الفرس فرأى أن يخرج هو الآخر بجنده لملاقاتها .

---

(١) اختلفت الروايات فى اسم كسرى فقيـــل شـــهربازان وشهربازار وشهربراز وشهريران .

وآعاد تنظيم قواته قبل التحرك فجعل أخويه المعنى ومسعود على ميمنته وميسرته ، وتولى هو مكان القيادة فى القلب .

وعبر الجيش العربى الفرات ووصل بقواته الى بقعة عليها دوارس ناشزة تمثل معالم بابل [1] ، وتبعد عن موطن كسرى وعرينه ٥٠ ميلا ، واحتل هناك مكانا مرتفعا .

خطاب الفرس ورد المثنى ...

كان واضحا منذ اللحظة الأولى أن جيش الفرس يفوق جيش المثنى فى عدده وفى عدته ، الا أنه كان من الواضح أن جيش المثنى يفوق جيش الفرس فى ايمانه ومعنوياته ورغبته الكبيرة فى احدى الحسنيين : النصر أو الاستشهاد .

ووصلت الى المثنى رسالة من شهرزان يقول فيها « انى قد بعثت اليك جندا من أهل فارس ، وانما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك الا بهم » .

ويبدو فى هذا الكتاب منتهى الصلف والمكابرة والغرور ، كما دل الكتاب على عدم خبرة كاتبه بفنون الحرب وأساليب القتال

---

(١) يقصد بمعالم بابل الاثار التى شيدها العرب قديما ، وأبدعوا فى صنعها ، حتى أن هيرودوت بالغ فى وصفها وقال انه لا يوجد فى عصرها مدينة تقارن بها ، وقال ان فى كل ناحية من ناحيتى المدينة ما يستحق مزيد الاعجاب ، ففى أحداها بلاط الملك ، وفى الثانية هيكل جسيم للمعبود بعل ، ويحيط بالمدينة سوران ، أحدهما ضمن الآخر ... وقد عظمت بابل حين لقبت بها المملكة وأهلوها ، وفيها سن حمورابى الملك البابلى العربى العظيم شرائعه ووضع قانونه المشهور ... وقد سيطر الفرس عليها وخربوا ربوعها .

فماذا يصنع رعاة الدجاج والخنازير فى ميدان الحرب والقتال ؟ ، وكيف يلتقى هؤلاء بأسد الحرب أبطال النزال والطعن والقتال ؟ ، ان رجال شهرزان عابوا عليه كتابه وأخذوا عليه قوله وقالوا له « جرأت علينا عدونا بالذى كتبت به اليهم ، فاذا كاتبت أحـدا فاستشر » .

وكان من الواضح أن شهرزان كاذب فيما ادعاه فى كتابه فالمثنى لم يفته ما كان ينطوى عليه الكتاب من التلفيق والكذب والباطل ، لأنه كان يعلم تماما أن جيش الفرس يضم الأساورة والمرازبة والبهلوانية [1] .

ورد المثنى على رسالة شهرزان برسالة قال فيها « من المثنى الى شهرزان .. انما أنت أحد رجلين اما باغ فذلك شر لك وخير لنا واما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عنـد الله وفى الناس الملوك ... وأما الذى يدلنا عليه الرأى فانكم انما اضطررتم اليه ، فالحمد لله الذى رد كيدكم الى رعاة الدجاج والخنازير » .

وعندما تلقى الفرس هذا الكتاب البليغ اهتزت قلوبهم خوفا وجزعوا ، واستولى عليهم اليأس ، وأسقط فى يد الملك الذى لم يكن يتوقع أن تكون فى المسلمين هذه القوة بعد انصراف خالد عنهم الى الشام .

---

(١) المرازبة ... جمع مرزبان وهو والى الثغر .
ومرز ... بمعنى الثغر ، وبان بمعنى الحافظ أو المقيم .
البهلوانية ... جمع بهلوان وهو البطل .

الفيل ...

أقبل هرمز بجيشه يتقدمه فيل ضخم يضرب بخرطومه يمنة ويسرة ، يفرق صفوف المسلمين ويخل بنظامها ، ويوقع الرعب فى المقاتلين ، وتجفل منه خيل العرب .

وبدأ القتال ... ودار عنيفا ... واستمر فى عنفه ...

وأدرك المثنى أنه يجب القضاء على هذا الفيل وأن انتصار جيشه رهن بالقضاء عليه .. فدعا قومه من يخرج منهم معه لقتله .. واستجابت له نخبة من الأبطال الذين باعوا حياتهم لشرف أمتهم ومجد دينهم ، وتقدم المثنى ومعه أصحابه الميامين ، وظل يهاجم الفيل حتى استطاع أن يصيب منه مقتلا فهوى بجسمه الى الأرض صريعا ، وكان قتله ايذانا بالهزيمة ، فما أن شاهدت قوات المسلمين الفيل وقد انهار وصرع ، حتى التأمت صفوفهم واشتد عزمهم وراح عنهم خوفهم وقوى اصرارهم وارتفعت روحهم فأخذوا يهاجمون الفرس هجوما عنيفا لا قبل لهم به حتى هزموهم شر هزيمة ، وولى رعاة الدجاج والخنازير الأدبار ولاذوا بالفرار فأمر المثنى بعض رجاله باحتلال معاقل الفرس ، ثم تبع هو والمسلمون ، الفارين يقتلونهم حتى انتهوا بهم الى أبواب المدائن .

أثر الموقعة ...

أولا ... فى جانب الفرس

نزلت أنباء الهزيمة بشهرزان نزول الصاعقة فأصابته الحمى وثقل عليه المرض فمات ...

ويقول الطبرى « انهزم هرمز وبلغت أخباره مسامع

الملك فاغتم لذلك أشد الغم ثم انه مرض ولم يطل عهده حتى مات » .

وبعد موته تعرضت الفرس لهزات داخلية عنيفة اذ كثرت الاختلافات الداخلية ، ولم يجد أهل الفرس من يولونه الملك بعد شهرزان فولوا بوران بنت كسرى ، ولم تدم طويلا فى الملك اذ خلعت وتولى العرش سابور ابن شهرزان ، وهذا قتل بايعاز من آزر ميدخت ابنة كسرى التى تولت العرش مكانه.. ولابنة كسرى هذه قصة.. فقد أراد سابور أن يزوجها وزيره الفرخزاد فغضبت لأنه ليس من بيت الملك ، وقالت لسابور « أتزوجنى عبدى ؟ » ، فرفض أن يستمع اليها فاتفقت مع أحد فتاك العجم ويدعى ساوخش ، فقتله فى ليلة العرس ، ثم انتقل معها الى حيث سابور فقتله وتولت هى الملك ، فطلب حاكم خراسان الزواج منها فرفضت وقتلته ، وعلم بمقتله ابنه وهو القائد الفارسى رستم فغضب ، وأقبل عليها من خراسان ، وهزم فى طريقه اليها جيوشا تابعة لها ، ثم حاصر المدائن ودخلها وقتل آزرميدخت وساوخش .

وما زال الفرس يولون الملك واحدا بعد الآخر ثم يقتلونهم حتى تولاه يزدجرد (١) فولى أمرهم رستم الذى حارب المسلمين فى القادسية وقتل .

(١) يقول المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل أن رستم عين بوران على العرش على أن تملكه عشر حجج ، ثم يكون الملك فى =

ثانيا ... فى جانب العرب

كان انتصار المسلمين ذا وقع عظيم فى البلاد كلها ، فقد صار غربى الفرات كله تحت السيطرة الاسلامية ، وتغنى عبدة بن الطيب السعدى بانتصار المسلمين فقال :

هل حبل خولة بعد البين موصول
أم أنت عنها بعيد الدار مشغول[1]
وللأحبة أيام نذكرها
وللنوى قبل يوم البين تأويل
حلت خويلة فى حى عهدتهم
دون المدائن فيها الديك والفيل
يقارعون رءوس العجم ضاحية
منهم فوارس لا عزل ولا ميل [2]

وتغنى الفرزدق بالمثنى الذى أظهر بسالة تاريخية فى قتله الفيل ، فقال :

= ال كسرى فى الرجال منهم ان وجدوا ، والا ففى النساء ، استوزرت بوران رستم وأطلقت يده فى أمور الدولة ، وجعلته على الجند ، وأمرت أهل فارس أن يسمعوا له ويطيعوا .

(١) خولة ... هى زوج عبدة بن الطيب .
البين ... أى البعد .

(٢) لا عزل ... أى معهم سلاحهم .
لا ميل ... أى غير مائلين عن السروج .

فمنهن بيت الحـــوفزان الذى به
تفلل بكر حـــد نبل المناضـــل [1]
وبيت المثنى عاقر الفيـــل عنـــوة
بيـــابل اذ فى فارس ملك بابـــل

---

(١) كان الفرزدق قد عـــدد فى القصيدة بيوت بكر بن وائل
ويعنى بـ منهن أى من بيوتها .
المناضل ... أى المقارع للأعداء
(ديوان الفرزدق ص ١٠٤)

موقعة النمارق

كان انتصار المثنى فى موقعة بابل فتحا لمجال الغزو أمامه فقرر أن يغزو المدائن ، ولكنه وجد نفسه فى حاجة الى امدادات جديدة يقوى بها جيشه ليستطيع أن يتم فتوحه وأن يؤدى رسالته ، وأن يحرس الحدود الواسعة الأطراف التى أصبح مسئولا عن الأمن فيها ، وأن يصون حياة هذا العدد الضئيل من الرجال الذى يحارب تحت امرته ، ولهذا كتب الى أبى بكر ينبئه بأخبار انتصاراته على الفرس ، ويصور له الحالة التى أصبح عليها ، ويستأذنه فى الاستعانة بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة ، وأوضح له أن هؤلاء يطمعون فى مغانم الغزو ، وأنه يرى فيهم حماسا ونشاطا ورغبة صادقة فى محاربة أهل الفرس .

لقاء أبى بكر ووصيته ...

ولما أبطأ عليه جواب الخليفة عيل صبره ، واشتد قلقه وخشى أن يجمع الفرس له جموعا لا يقدر عليها ، وخطوط مواصلاته بعيدة وهم يحاربون فى أرضهم حيث وسائل الامداد والمعيشة متوفرة كثيرة ، فقرر أن يعالج الأمر بنفسه وأن يتصل بالخليفة اتصالا مباشرا فقرر السفر الى المدينة ليلتقى بالخليفة ، وليقدم له الصورة الواضحة المعالم للحالة فى بلاد الفرس .

وترك الجيش تحت قيادة واحد من فرسانه يدعى بشير ابن الخصاصية[1] وغادر البلاد الى المدينة ، فما أن وصلها حتى فوجىء بما لم يكن فى الحسبان فقد وجد أبا بكر طريح الفراش يقاسى من مرضه الأخير ، ورغم أن أبا بكر كان فى شدة والمرض غالب عليه، فقد رأى أبو بكر أن يستقبل قائده فلا يجوز للمرض أن يحول دون اهتمامه بشئون الدولة ، ولا يجوز له وهو فى أشد حالات التعب أن يتخلى عن مسئوليته كخليفة للمسلمين وكمسئول مسئولية ضخمة عن حياتهم وسياستهم وأحوالهم ، وعندما التقى الخليفة والقائد ، حدثه المثنى فى أمر الحملة والمدد . وأوضح له حقيقة الموقف فى فارس ، ودافع دفاعا مجيدا عن رأيه ، حتى اقتنع الخليفة فبعث فى استدعاء عمر ، وكان قد استخلفه وأوصى الصحابة بمبايعته بعد موته ، فلما جاءه عمر حدثه فى أمر امداد المثنى ، وقال له « اسمع يا عمر ما أقول لك ، ثم اعمل به ، وانى لأرجو أن أموت فى يومى هذا ، فان أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، وان تأخرت الى الليل ، فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا تشغلنكم مصيبة وان عظمت عن أمر دينكم، ووصية ربكم ، وقد رأيتنى متوفى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما صنعت ، ولم يصب الخلق بمثله ، وبالله لو أنى أنِى عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا فاضطرمت المدينة نارا ...

---

(١) هو بشير بن معبد السدوسى .
الخصاصية هى جدته .
بشير ... صحابى .

وان فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد الى العراق فانهم أهله وولاة أمره وحده ، وهم أهل الغداوة بهم والجرأة عليهم ».

وهكذا رأى أبو بكر رأيه فيما عرضه عليه المثنى ، ولم يشأ أن يؤخر وصيته فى أمر العراق خوفا من أن يضل من بعده ، ولهذا رسم سياسة الفتح بعد موته ليعمل خليفته فى حدودها .

ومن عجب أن أبا بكر رأى أنه يجب ألا يشغل موته المسلمين عن أمورهم ، فما موته الا حدث لا يرقى الى مستوى مصلحة المسلمين وأوامر الدين التى تدعو الى الجهاد فى سبيل الله ، ولهذا يجب ألا يؤخر موته المسلمين عن القيام بالدور الكبير الذى ألقى على عاتقهم ، وألا يشغلهم عن اتمام العمليات التى تدور رحاها فى العراق وفى الشام ، وهذا أمر لا يستغرب حدوثه من أبى بكر ، فهو قد عاش فترة عصيبة بعد موت الرسول ، ولم يشغله موت الرسول عن مصلحة المسلمين ، أو عن أمر الدين ، وانما حمل الرسالة بعد موت الرسول مباشرة وسوى الخلافات بين المسلمين ، وجهز الجيوش وحارب الردة ، ثم حرك أتباع محمد من الجزيرة العربية الى الشام والعراق ، فكيف يسمح لنفسه اذن أن يشغل موته المسلمين عن رسالة الاسلام العظيمة ، وعن أمور دينهم وحياتهم ومستقبلهم ، لقد رسم الخطوط العريضة لما يجب أن يتبع بعد موته واستنهض بكلامه الى عمر الهمة والحماس ، ودعا الى اتخاذ الخطوات الايجابية الفعالة السريعة لمعاونة المثنى فى حربه ضد الفرس .

ووعد عمر أبا بكر أن ينفذ ارادته وأن يحقق رغبته .

فلما توفاه الله عمل عمر بوصيته فور الوفاة .

الدعوة الى الخروج ...

وما ان تولى عمر الخلافة حتى أصدر أوامره بأن يشترك من أظهر التوبة من أهل الردة فى حرب فارس ويكون بذلك قد وافق على أمر عارض فيه أبو بكر من قبل ورفض اقراره .

ثم كان أول ما قام به فى صبيحة اليوم الثانى لدفن أبى بكر أن ذهب الى فناء مسجد الرسول ورفع راية الجهاد فاجتمع الناس من كل حدب وصوب حتى كثر عددهم ، فتحدث اليهم فى أمر الخروج الى فارس تنفيذا لتعليمات أبى بكر الصديق ، فلم يستجب له أحد فظل على ما فعله حتى اليوم الرابع ، ورأى المثنى أن الناس تخشى الخروج الى فارس لأنها — كما تبين له — أثقل البلاد عليهم لشدة سلطانهم وقوة شوكتهم ، ولكثرة قهرهم الأمم ، فوقف عندئذ فى الناس خطيبا مهونا الأمر داعيا اياهم الى الاستجابة لمطلب الخليفة ، وقال لهم « أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فقد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد ، وشاطرناهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها ان شاء الله ما بعدها [1] » .

ووقف من بعده الخليفة عمر بن الخطاب وخطب فى الناس

---

(١) تبحبحنا ... أى تمكنا من المقام .
ريف فارس ... أى أرض فارس ذات الزرع والخصب .
شقى السواد ... أى طرف العراق الغربى .

قائلا « أيها الناس ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ، ولا يقوى عليه أهله الا بذلك ، أين الطراء يهاجرون عن موعود الله ، سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها فانه قال (ليظهره على الدين كله) ، والله مظهر دينه معز ناصره مولى أهله مواريث الأمم ... أين عباد الله الصالحون » .

وكان أول منتدب هوأبو عبيد بن مسعود الثقفى الذى وقف وسط الناس يوجه الحديث الى عمر قائلا « يا أمير المؤمنين انا سمعناك وأطعناك وأنا أول من أجاب هذه الدعوة ... أنا وقومى وعشيرتى » .

وأحس المسلمون بعظم المهمة وبخطورتها فاندفعوا يعلنون استجابتهم فوقف من بعد أبى عبيد سعد بن عبيد وسليط بن قيس، ثم تتابع القوم حتى أن أحدهم قال للخليفة « يا أمير المؤمنين انما كان قعودنا عن غزو هؤلاء الفرس الى يومنا هذا شقشقة من شقاشق الشيطان ، وانى قد وهبت نفسى لله ومن أجابنى من بنى عمى ، ومن اتبعنى » .

واستمر التسابق الى الخروج ، واتخذ صورة رائعة جليلة للمشاعر الاسلامية التى تتملك المسلمين حينما يحسون بما ألقته المقادير على أكتافهم من مسئولية وأعباء .

وحينما بلغ عدد الراغبين خمسة آلاف طلب القوم من عمر أن يعين قائدا لهذا المدد على أن يكون أحد كبار الصحابة من المهاجرين أو من الأنصار ، ولكن عمر أبى هذا الشرط ورفضه لأنه يعلم أن الاسلام يسوى بين الناس جميعا عند تولى الوظائف العامة

فلا يتولاها الا الأصلح ، ولا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى ، وأن الاسلام جعل الناس جميعا على قدم المساواة كأسنان المشط ، ولعل عمر قد تذكر فى هذه اللحظات موقف الرسول الكريم حين ولى زيد بن حارثة قيـادة جيش من المسلمين وكان تحت قيادته كبار رجال الاسلام ، ولهذا قال عمر حين رأى الناس يشترطون اسناد القيادة الى واحد من كبار الصحابة « ان من سبق الى الدفع وأجاب الى الدعاء أولى بالرياسة » .

ولهذا أمر باستدعاء أبى عبيد بن مسعود ، فعقد له القيادة وزوده بنصحه ، وطلب منه أن يستشير اخوانه وأصحابه فى شئون الحرب والا ينفرد برأيه ، والا يتعجل الأمور فى الحرب ، وأن يحسن معاملة جنـده من أصحاب رسول الله .. وكان مما نصحه به أن يستشير سليط بن قيس لجرأته وتجربته ، وكان عمر يثق به كثيرا ، ولهذا قال لأبى عبيد [1] ، « انه لم يمنعنى أن أؤمر سليطا الا سرعته فى الحرب ، وفى التسرع الى الحرب ضياع الا عن بيان ، والحرب لا يصلح لها الا الرجل المكيث [2] » .

الموقف فى الحيرة ...

سبق المثنى القوات العربية الى الحيرة ، فقد كان هناك وقت طويل أمام أبى عبيد حتى يعد نفسه ويرتب شئونه وشئون رجاله

---

(١) ذكر البلاذرى أن عمر وجه الكلام الى سليط فقال له « لولا عجلة فيـك لوليتك ولكن الحرب زبون لا يصلح لها الا الرجل المكيث » .

(فتوح البلدان ص ٢٥٩)

(٢) المكيث ... أى الرزين الذى يعرف الفرصة .

وقواته ، ولهذا قال عمر للمثنى «النجاء حتى يقدم عليك أصحابك» .

وعندما وصل المثنى الى الحيرة ، وجد أن الفرس بعد أن استتبت الأمور فيها واستقرت أحوالها بدأت تنشط من جديد فأعدت جيشين يقودهما رستم ، توجه أحدهما الى الحيرة بقيادة جابان ، والآخر الى أطراف ذى قار فى موقع يسمى كسكر بين الفرات ودجلة بقيادة القائد نرسى .

وكان رستم قد قام بنشاط بعيد المدى فى اثارة مشاعر الفرس ضد المسلمين فدعا الدهاقين الى أن يثوروا بالمسلمين وأشعل روح القتال عند أهالى المدن ، وأثار أهالى الرساتيق (١) ليثيروا القلاقل ضد الجيش الاسلامى ولعله بذلك كان يطمع فى أن يقطع خط الرجعة على قوات المثنى ، وأن يصيب خطوط مواصلاته فيشل حركته ويمنع مرونة قواته .

وعلم رستم فيما علم أن المثنى قد وصل الى قواته وحده وأن جيشا آخر ما زال فى الطريق ، ولهذا فكر فى أن ينتهز الفرس الفرصة فيمحقوا قوات المثنى وحدها قبل أن يصل اليه المدد الذى على الطريق ، وبذلك يستطيع أن ينفرد بالمدد ، ويقضى عليه عند وصوله ، وهكذا يكون قد قضى على القوات الاسلامية قبل أن تتاح لها فرصة اللقاء والتجمع لمواجهته .

رستم ...

ورستم الذى تولى قيادة قوات الفرس هو ابن حاكم خراسان ، وهو أحد رجال الحرب ، كان جريئا طموحا يثير طموحه اعجاب

(١) الرساتيق جمع رستاق أى القرية .

الفرس وتعلقهم به ، وأعجب به المؤرخون ، وذكروا أنه كان عالما بالنجوم ، وأنه رأى فيها مآل فارس ، حتى أنه سئل حينما باح بما رآه كيف يتولى أمـر فارس وهو يعلم نهايتها ويرى فيها ما يراه ؟ فأجابهم « الطمع وحب الشرف » .

ولقد أثبتت الأحداث فى مستقبل الأيام صدق ما توقعه رستم فبعد عدة معارك انتهى أمر الفرس فى أرضهم واكتسحت القوات الاسلامية جحافل الفرس وقضت عليها ، واستولت على البـلاد كلها ، ولم يعد يعبد فوق بلاد الفرس سوى الله تبارك وتعالى ، وانطوى الناس جميعا تحت راية الاسلام ، ودخلوا فيه عن اطمئنان وايمان وثقة ، وأصبحت بلاد الفـرس تمثل رقعـة من الدولة الاسلامية المجيدة التى أقامها أتباع محمد بأرواحهم وبدمائهم .

موقف المثنى ...

أحس المثنى بالدور المعنوى الكبير الذى قام به رستم حتى استطاع أن يثير مشاعر أهل العراق وعواطفهم ضد المسلمين ، ووجد أن جنود رستم قد عبئوا معنويا ، وأنه لا قبل لجنـده بملاقاتهم ، والفرق بين الجيشين واضح بين ، ولكنه على الرغم من هذا لم يخش الموقف ، وانما درسه عن عمق وفهم جديرين بعقليته العسكرية الجبارة ، وادراكه السليم للموقف الحربى ومتطلباته ولهذا رأى أنه ليس من الحكمة أن يدخل معركة ، وأن يخوض غمارها دون أن يكمل حشده كما رأى أنه من غير الحكمة أن يتوغل فى بلاد عدوه فيطيل خطـوط مواصلاته بين مواقع

جنده وبين قاعدته التى يعتمد عليها ، أو بين موقعه الذى يحتله وبين المدد الذى هو على الطريق اليه .

وانتهى تفكيره الى أن يكون أكثر حذرا ، فقرر أن ينسحب من الحيرة الى موضع يسمى خافان حتى لا تفاجئه قوات عدوه فتطعنه من الخلف .

وهكذا آثر المثنى أن يبتعد عن وجه عدوه ، وأن يؤخر لقاءه معه حتى يكمل حشده ، ويتم استعداده للمعركة الفاصلة .

ولكن لماذا اختار المثنى خطة الانسحاب من الحيرة ؟

ان المثنى باتخاذه هذه الخطوة يكون قد ضمن أمرين هامين..

الأول : اختياره ميدان المعركة الذى يراه صالحا لأن يخوض فيه معركة النجاح ، فالموقع الذى انسحب اليه يقع على تخوم الصحراء ، والمثنى جندى عربى وجنوده من العرب الذين عاشوا فى الصحراء ، وقضوا حياتهم بين رمالها وخاضوا غمار حروب كثيرة بين أرضها فى جاهليتهم أو فى اسلامهم ، فهم اذن جند مدربون على القتال فى الصحراء يعرفون أسرارها ، ويعرفون الخطط التى تتبع فيها ويجيدون الكر والفر والهجوم والادبار ، فهم اذن يفوقون فى فن حرب الصحراء عدوهم الذى يعيش فى أرض كلها حقول ونخيل ومبان وجداول وأنهار ، أى أن عدوهم هذا لا يستطيع الحرب فى أرض

مكشوفة ، على حين أنهم يجيدون هم هذه الحرب اجادة فائقة .

اذن فلقاء فوق أرض صحراوية مكشوفة يوحى بأن النصر سيكون فى ركابهم .

الثانى : لو فرض ودارت معركة على تخوم الصحراء ، وكان النصر فى هذه المعركة للفرس فان وجود العرب فى الصحراء يمنحهم العمق الاستراتيجى فى الانسحاب الى الوراء فى الصحراء الواسعة المترامية الأطراف فتقل بذلك خسائرهم ، ويستطيعون أن يعيدوا تنظيم قواتهم وأن يتخذوا من الصحراء نقطة ارتكاز وتجمع يشنون منها الغارات لاستعادة ما فقدوه ، هذا فوق أن الطريق الى القيادة العامة فى المدينة يكون مفتوحا أمامهم يستقبلون منه المدد الذى يقوى من عزمهم ويشد أزرهم ، ويجعلهم أكثر قوة وأشد عزيمة ويهيىء لهم فرص التقدم لملاقاة العدو فى جموع غفيرة ، وأعداد هائلة واستعدادات تضمن النصر وتؤكده .

القيادة لأبى عبيد ...

خرج أبو عبيد من المدينة على رأس خمسة آلاف .

وفى الطريق انضم اليه كثيرون فانه كان لا يمر بقوم من العرب الا رغبهم فى الجهاد والغنيمة وحثهم على القتال فى سبيل الله .

وانضم اليه أيضا كل من حسن اسلامه من أهل الردة .
وعندما بلغ حدود العراق كان تحت امرته عشرة آلاف مقاتل.
والتقت قواته بقوات المثنى ... وتولى أبو عبيد القيادة .

ومرة أخرى يعود المثنى الى الصفوف الخلفية ، ويختفى من صفوف القيادة ... ولا يؤثر هــذا فى نفسيته أو معنوياته لأنه صاحب رسالة وكل ما يشغله ويأخذ عليه تفكيره ، هو أن تتحقق هذه الرسالة سواء أكان هو فى مكان القيادة ، أم كان جنــديا بسيطا يعمل تحت قيادة غيره ، والمثنى فى هذا استمد احساساته ومشاعره من الدعوة الالهية الكريمة الى الجهاد والبذل فى سبيل الله وفى سبيل الدين ، تماما كما استمد خالد بن الوليد احساساته ومشاعره حين عزله عمر بن الخطاب خلال معركة اليرموك عن قيادة الجند وعين مكانه أبا عبيــدة بن الجراح قائدا لجيــوش المسلمين فى بر الشام فقد ظل خالد يعمل كجندى بسيط تحت امرة أبى عبيدة طوال فتوح الشام ونسى أنه كان القائد الذى يأتمر الكل بأمره ، وينفذ مشيئته ، ولم يعد يذكر سوى أنه جندى عليه الطاعة والجهاد .

اللقــــاء ...

نظم أبو عبيد قواته وجعل المثنى بن حارثة قائدا على الخيل ثم تقدم الى النمارق (١) ليلتقى هناك بقوات جابان ، والتحم الجانبان فى معركة عنيفة دار القتال خلالها شديدا واستمر فترة

(١) النمارق .. موقع بين الحيرة والقادسية .

طويلة والمسلمون يقاتلون فى قوة وعنف وثقة وأمل ورغبة فى الانتصار ، وكان لهم ما أرادوا ، فانتصروا انتصارا عزيزا ، ووقع جابان أسيرا فى يد رجل عربى تيمى يدعى مطر بن فضة وكان العربى لا يعرف جابان ، وانما يجهل حقيقته فحاول جابان أن يخدع الرجل فوعده بمال وبغلامين وقال له « انكم معشر العرب أهل وفاء فهل لك أن تؤمننى وأعطيك غلامين أمردين خفيفين فى عملك وأعطيك كذا ... ، وكذا ... » وأجزل جابان للرجل الوعد ثم قال له « أدخلنى على أميركم حتى يكون ذلك بمشهد منه » ، فأدخله الرجل على أبى عبيد الذى لم يعرفه أيضا ، وأمنه فشهد أبو عبيد على ما تم بينهما .

وتقول بعض المراجع ان مطرا أمن الرجل ثم أطلق سبيله فأخذه بعض المسلمين الى أبى عبيد وأخبروه بأنه دهقان [1] كبير وأشاروا بقتله ولكنه أجابهم « انى أخاف الله أن أقتله ، وقد أمنه رجل مسلم ، والمسلمون فى التواد والتناصر كالجسد ما لزم بعضهم لزم كلهم » ، فغضب بعض المسلمين وقالوا له « انه الملك ، وانه هو الذى غدر بنا وحاربنا » فقال لهم « وان كان قد غدر فأنا لا أغدر » ، ثم أمر بالأسير فترك .

وان ترك جابان واخلاء سبيله وهو بين يدى أعدائه المنتصرين دليل واضح وبرهان ساطع على نفسية العربى التى هذبها الاسلام

---

(١) جاء فى بعض المراجع أنهم قالوا له « أقتله فانه الأمير » ، فقال « وأن كان الأمير فأنى لا أقتله وقد أمنه رجل من المسلمين .. الى آخر الحديث .

وقومها فجعل المسلمحين يعد يحفظ وعده ، وحين يتعهد يصون عهده ، لا يخون كلمة ، ولا ينقض اتفاقا ، ولا يرجع فى أمر ارتبط به، وانما يفتدى هذا كله بالروح والدم .. فها هو ذا القائد العربى يملك ناصية عدوه الذى غدر بالمسلمين والذى أثار عليهم البلاد ، والذى جاءهم مقاتلا راغبا فى قتلهم ، وفى ايقاع الهزيمة بهم فيأبى القائد العربى وهو المتحكم فى أمر أسيره أن يمسه ويأبى الا أن يفى بوعد قطعه على نفسه أحد جنوده فيخلى سبيل الأسير وهو بذلك يؤكد مدى التزام القائد بما التزم به جنديه ، ويؤكد فى صــورة عملية واضحة أمانة العربى ووفاءه بالوعد ورجولته وشــهامته .

وغنم المسلمون غنائم كثيرة فقسمها أبو عبيد ، ثم بعث الى الخليفة بالأخماس ، ولقد صور المثنى بن حارثة هذا النصر العظيم فى معركة النمارق فى قوله ...

غلبنا عــلى خفان بيضــا مشــيحة
الى النخلات السمر فوق النمارق(١)
وانا لنرجــو أن تجــول خيــولنا
بشاطى الفرات بالسيوف البوارق(٢)

(١) المشيح ... أى المقبل عليك .
(٢) البوارق ... أى اللوامع .

موقعة السقاطية وباروسما

الاعداد للمعركة ..

بلغت أنباء الهزيمة رستم وعرف الفرس ما حل بجابان ، فأمر رستم الجالينوس وهو من صناديد أبطالهم أن يسرع لنصرته ، وأن يلحق نرسى فى كسكر وقرر الجالينوس أن يغذ السير الى مواقع القوات .

وكان المثنى على علم تام ودائم بأخبار الفرس فقد نشر عيونه فى كل مكان تأتيه بأخبار الفرس .. أخبار القوات .. تحركاتها .. اتجاهاتها .. خطتها .. قادتها .. معداتها ..

وجاءته الأنباء أن قوات نرسى فى كسكر ليست كبيرة العدد ولا عظيمة العتاد ، وأن نرسى ينتظر وصول نجدات سريعة اليه تشد من أزره .

وأسرع المثنى يحمل أنباءه هذه وأخباره عن الفرس الى أبى عبيد ويشير عليه بالتحرك السريع وشن الحملة على العدو قبل أن يقوى ساعده ويشتد واستجاب له أبو عبيد وأمر قواته بالتحرك السريع المتصل لمواجهة نرسى فى كسكر .

المعركة ...

وفى مكان يدعى السقاطية [1] التقى أبو عبيد بقوات نرسى وحدها قبل أن تصل اليها قوات الجالينوس .

وكان المثنى على الخيل أيضا .

ودارت المعركة بين الطرفين عنيفة حامية ثبت لها العرب وانهزم الفرس ولاذ قائدهم نرسى بالفرار وترك للمسلمين مغانم كثيرة وخزائن وأموالا وأطعمة ، فاستولى عليها أبو عبيـــد وبعث الى الخليفة بالخمس ، ووزع على جنده المغانم ومن بينها مقـــادير عظيمة من الأطعمة ، ويحكى أن المسلمين وجدوا ضمن ما وجدوه من أطعمة لونا من التمر يدعى الترسيان كان ملوك فارس يحبونه، فاقتسموه بينهم وجعلوا يطعمون منه الفلاحين ، وبعثوا بجزء منه الى الخليفة وكتبوا له « ان الله أطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة يجمعونها وأحببنا أن تروها ولتذكروا انعام الله وأفضاله » .

وبلغ أبا عبيد أن الجالينوس وصل بجنده الى قرية باروسما فحرك قواته الى هناك وتقابل مع الجالينوس واستطاع أن يهزمه هزيمة مرة ، فلم يملك سوى الفرار من أرض المعركة — تماما كما فر من قبل نرسى — حتى بلغ مع الفارين من جنده المدائن .

المطاردة ...

أمر أبو عبيد قواده بالمطاردة وتعقب الأمراء الفارين ، وتقدم قواده والمثنى فى مقدمتهم فاحتلوا سواد العراق ونشروا الرعب

---

(١) موقع قرب كسكر .
ذكرت فى بعض المراجع السقاطين .

فى الناس وأعادوا الى الأذهان ذكرى انتصارات خالد بن الوليد.
وهكذا تم النصر لأبى عبيد وفى ذلك يقول عاصم بن عمرو ..

صبحنا بالبقايس رهـــط كسرى
صبوحا ليس من خمـــر السـواد
صـــبحناهم بكل فتى كمـــى
وأجـرد سـابح من خيـــل عـاد

وجاء قادة الفرس الى المثنى وعرضوا عليه الطاعة ، وطلبوا منه الذمة عن باروسما ونهر جوبر ، وكان على رأس هؤلاء فروخ وفرونداذ فبعث بهما المثنى الى أبى عبيد الذى صالحهما على شيء معلوم .

القائد العربى وجنده ...

حدث أن جاء فروخ وفرنداذ بآنية فيها بعض الأطعمة الفارسية وقدماها الى أبى عبيد وقالا له « هذه كرامة أكرمناك بها وقرى لك » فسألهما « أأكرمتم الجند وقريتموهم مثلى » فأجـاباه « لم يتيسر لنا ونحن فاعلون » ، فأبى أن يتناول شيئاً لم يقدم مثله لجنده فلا حاجة له فيما لا يسعه ويسع جنده ورد اليهـم الآنية دون أن ينال منها شيئا .

وعندما صالح أبو عبيد الاندرزغر فى باروسما جاءه بمثـل ما جاءه به فروخ وفرونداذ فسأل«أأكرمتم الجند بمثله وقريتموهم» فأجابوه « لا » فرده اليهم وقال انه لا حاجة له فيه طالما أن جنده لن ينالوا منه شيئا .

اذن فقد أبى القائد العربى أن ينال شيئا لا يناله جنده .. وهذا

أمر يستحق منا وقفة .. فالقائد العربى صحب قومه من بلادهم .. تركوا أهلهم وأحوالهم ومعيشتهم ، وجاءوا تحت قيادته ليحاربوا من أجل الاسلام .. من أجل الدين .. من أجل العقيدة .. من أجل حياتهم وحياة الناس جميعا .. من أجل مستقبل باسم فاضل مشرق لهم وللانسانية كلها .. وأهرقوا دماءهم ، وبذلوا من ذات أنفسهم، وسمعوا له وأطاعوا ، فكيف اذن ينال شيئا لا ينالونه هم ، وكيف يقدم له شيء فيفوز به دونهم والاسلام قد سوى بينهم فى الجهاد، وجعلهم اخوة متضامنين فى السراء والضراء ، والرسول الكريم قد علم المسلمين الخصال الحميدة والخلق الكريم فلا يستأثر واحد بفيء المسلمين ولا يترفع عن عامة المسلمين ، ولا يسلب مال البلاد التى أحرزها المجاهدون بسيوفهم وأسالوا على جوانبها دماءهم ، والخليفة عمر قد أوصاه أن يرعى جنده وأن يشملهم بالرعاية والعناية .. والقيادة الناجحة لا تبيح للقائد أن يتميز عن جنده حتى لا تتأثر معنوياتهم ، فهم اخوته فى المعركة .. زملاؤه فى القتال .. شركاء له فى الفوز .. يقاسمونه فى الميدان حلو الحياة ومرها .. ويشاركونه خير المعركة وشرها .

وهكذا كان أبو عبيد صورة طيبة لجنده وقدوة صالحة ومثالا عاليا ، قويم مشربه ، مستقيم مذهبه ، يحب المسلمين قدر حبه لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه ولا يسيغ شرابا أو طعاما يحرم منه جنده .

بهذه الأخلاق والخصال والمبادىء والمثل انتصر أبو عبيد وانتصر — فى جميع عصور الاسلام — غيره من قادة المسلمين الذين دخلوا الحروب ، وخاضوا المعارك دون أن يغيب عن ذهنهم أنهم يحملون بجانب سيوفهم أرواحا طاهرة ونفوسا نقية وأنهم أصحاب مثل ومبادىء وضمائر وأخلاق .. على هذه الأسس بدأ الاسلام وبها ذاع وانتشر ومن أجلها فاز وانتصر .

موقعة الجسر

قلنا ان رستم كان قائدا صاحب طموح وكبرياء ..

ولهذا هزته الهزائم المتكررة واندحار قواته واستسلام قادته الواحد بعد الآخر وعز عليه أن تنهزم جيوش فارس العظيمة أمام هؤلاء العرب الأجلاف فجمع خاصته وقال لهم « أى العجم أشد على العرب فيما ترون ؟ » فأجابوه « انه ذو الحاجب [1] بهمن [2] جاذويه » فاستدعى رستم بهمن وكان أشد العجم على العرب وعينه قائدا لجيش جديد عظيم العدد وافر العدة ، وضم اليه الجالينوس وقواته وكان رستم قد عنفه لهروبه وهدده بالموت إن عاد الى ذلك وقال لبهمن « ان عاد لمثل ما فعل فاضرب عنقه » .

راية كسرى ...

وأراد رستم أن يضعف معنويات العرب وأن يقلل ثقتهم فى أنفسهم وأن يزعزع تماسكهم ورباطة جأشهم ، كما أراد فى ذات الوقت أن يرفع معنويات جنده وأن يثير فيهم الرغبة فى القتال وأن يثير حماسهم ..

---

(١) سمى ذو الحاجب لأنه كان يعصب حاجبيه ليرفعهما عن عينيه كبرا .

(٢) سماه أنوشروان بهمن لتبركه به .

من أجل هذا أصدر أوامره بأن ترفع راية كسرى فى مقدمة الجيش .. وكانت راية كسرى هذه من جلود النمر طولها اثنا عشر ذراعا ، وعرضها ثمانى أذرع وكانت تسمى درفش كابيان ، ولا تحمل أمام الجيش الا لأمر عظيم ..

ولهذه الراية قصة جاءت فى أخبار الفرس ، وملخصها أن أحد ملوك الفرس جار على رعيته واسترسلت حكومته فى الظلم الى حد لا يطاق ، فقام من رعيته يوما رجل حداد خامل بين قومه عظيم فى نفسه ، فخرج من حانوته ورفع على عصا طويلة الجلد الذى يربطه الحداد عادة فى وسطه ونادى فى الناس « من لا يطيق الظلم فليتبعنى » ، فتبعه عامة الناس وقتلوا الملك ورجال دولته وأسس هذا الحداد دولة الكسروية فاتخذ ملوكها راية الحداد شعارا لهم ثم جعلوها من جلود النمور وسموها درفش كابيان ، وكانوا لا يخرجونها — كما سبق القول — الا حين الحاجة القصوى .

مواقع القوات ...

اجتمع تحت قيادة بهمن ثمانون ألفا وعشرون فيلا ، وكان معه الجالينوس وسائر أبطال الفرس ، وتقدم بهذه القوة الهائلة الجبارة فنزل بقس الناطف قرب الكوفة على شاطىء الفرات الشرقى .

وكان أبو عبيد فى السقاطية فرحل منها واتصل بالمثنى فى الحيرة ثم تحركت القوتان والتقتا معا واتخذ الجيش العربى

معسكرا على شاطىء الفرات عند المروحة قرب البرج والعاقول على ضفة النهر المقابل للضفة التى يقع فيها معسكر الفرس .

وهكذا استعد الجانبان ولم يكن يفصل بينهما الا النهر .

الخطأ الأكبر ...

بعث بهمن الى أبى عبيد يسأله أن يعبر أحد الطرفين النهر الى الضفة الأخرى « اما أن تعبروا الينا وندعكم والعبور واما أن تدعونا نعبر لكم » .

وجمع أبو عبيد أصحابه وعرض عليهم رسالة بهمن ، فأشار عليه أصحابه بعدم العبور ، وأن يدع الفرس يعبرون اليه ، وكان سليط بن قيس أشد الناس الحاحا بعدم العبور ، ولكن أبا عبيد أخذته العزة ، فأبى قبول ما أشاروا به ورفض الأخذ برأيهم واتباع مشورتهم وقال لهم « لا يكون أجرأ على المـوت منا بل نعبر اليهم » وجزع سليط لهذا الرأى وجزع معه أصحابه ورجاله وناشدوه ألا يعبر وأن يبقى فى مكانه لأن فيه مجال وملجأ ومرجع من فرة الى كرة .. قالوا له « ان العرب لم تلق مثل جنود فارس مذ كانوا وانهم قد حفلوا لنا واستقبلونا من الدهاء والعـدة بما لم يلقنا به أحد ، وقد نزلنا منزلا لنا فيه مجال وملجأ ومرجع من فرة الى كرة » .

ولكنه أصر على رأيه وصمم على ما رآه وقال « لا أفعل ، جبنت والله اذن » ، وحاول أن يسخف رأى سليط ووجوه الناس ، ولكن سليطا رد عليه بقوله « أنا والله أجرأ منك نفسا وقد أشرنا عليك بالرأى فستعلم » .

وكان رأى المثنى أيضا من رأى سليط وفى رأيهما السداد وأضاف المثنى أنه اذا كان لابد من العبور فليتم ذلك مفاجأة ، أى مباغتة للفرس فى احدى الليالى دون أن يعلموا بالعبور ، فتكون السيطرة بذلك فى أرض المعركة للعرب البواسل .. ولكن أبا عبيد ضرب برأى المثنى عرض الحائط وأشاح عن هذا الرأى وأبى أن يقبله وأن ينفذ سوى ما رآه .

وهذا التصرف من جانب أبى عبيد تصرف منحرف لا يجوز لقائد مثله أن يقع فيه ، فالعسكريون فى جميع العصور قد اتفقوا على قيام ما يسمى باسم هيئة أركان الحرب ، وهذه الهيئة تضم خبراء من جميع الوحدات المقاتلة لتقديم الرأى والمشورة للقائد ، فيجتمع هؤلاء الخبراء لبحث الموقف ودراسة العوامل وتقرير الخطة التى ترى الأغلبية أنها الأصلح والأوفق والأحسن .

ومبدأ الشورى مبدأ رئيسى هام له أثره الكبير الخطير فى العمليات الحربية ، والاسلام جعل الشورى أساسا هاما لحياة الناس ، والرسول الكريم فى مواقف كثيرة تنازل عن رأيه واستجاب لآراء غيره .. لم يتمسك برأيه فى موقف أبدا .. وانما جعل الرأى للجماعة ، وكان يحاول دائما أن يستخلص ممن حوله من أصحاب الآراء الطيبة والأفكار الصحيحة ، والنظر البعيد ، والفكرة المفيدة والنظرة الصائبة .. وكان الرسول يرى أن رأى الجماعة مهما كان فهو خير من رأى فرد واحد .. ففى غزوة بدر قال الرسول لأصحابه قبل الخروج للغزوة « أشيروا أيها الناس »

فلما أشاروا بالخروج خرج ، وفيها أيضا أبدى الحباب بن المنذر رأيا أعجب به الرسـول ، وكان ينتقـد المكان الذى نزل فيه المسلمون اذ قال « ان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فننزل ثم نعور ما وراءه من القلب ثم نبنى حوضا فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربوا » ، ونزل الرسول عن رأيه ووافق على رأى الحباب وأمر أن ينفذ .

وهكذا كان الرسول دائما .. وكذلك كان من بعده أبو بكر فعندما أراد أن يسير الجيوش الى العراق والشام جمع أصحابه عمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبى وقاص وأبا عبيدة بن الجراح واستشارهم فى الأمر فاستصوبوا رأيه وقالوا « ما رأيت من الرأى فأمضه ، فانا سامعون لك مطيعون لا نخالف أمرك » ، وقال له عمر « والله ما استبقنا الى شىء من الخير قط الا سبقتنا اليه .. والله قد أردت لقـاءك بهذا الرأى الذى ذكرت فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن ، فقد أصاب الله بك سبل الرشاد .. سرب الخيل اليهم فى أثر الخيل ، وأبعث الرجال تتبعها الرجال والجنود تتبعها الجنود ، فان الله عز وجل ناصر دينه ومقر الاسلام وأهله ومنجز ما وعد رسوله » .

اذن فأبو عبيد قد أخطأ خطأ كبيرا حين تجاهل رأى أصحابه الذين وصاه عمر بن الخطاب أن يستمع اليهم وأن يشاورهم فى الأمر وأن يشركهم فى الرأى وأن يقيم لآرائهم وزنها .

ونحن نعجب كيف نسى أبو عبيد قول عمر له « انك تقوم

على أرض المكر والخديعة والخيانة ، تقوم على قوم قد جرءوا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه » .

القتال ...

تمسك أبو عبيد برأيه .. ورأى المسلمون أن يســمعوا له ويطيعوا .. وكان عددهم عشرة آلاف .. وبدءوا العبور .. وكان المكان الذى تركه لهم الفرس وراء الجسر ضيقا على كثرتهم .. كان الفرس ينوون شيئا خطيرا فهم كما وصفهم عمر قوم غدارون واتخذوا من الغدر وسيلة لتحقيق مأربهم فشاءوا أن يدخلوا فى معركة حاسمة أعدوا لها العدة ، وتأهبوا فيها للقاء العرب لقاء تكون فيه خاتمتهم ونهايتهم .

وحين كان العرب يعبرون النهر لم يمهلهم بهمن بل أمر جنده أن يحملوا عليهم .. وكان جيشه — كما سبق القول — به عدد كبير من الفيلة عليها جلاجل .. وكانت هذه الفيلة فى المقــدمة .. وما أن بدأ الهجوم على قوات المسلمين حتى تقدمت الفيلة وعلا رنين جلاجلها فأجفلت الخيل وخافت وفرت ، ولم يثبت الا القليل على كره ، ورأى أبو عبيد أن صفوفه توشك أن تختل فترجل وترجل جنده وتقدم الجميع صوب جيش الفرس ، وبدأ القتال .

وكانت الفيلة كما قلنا فى مقدمة المهاجمين ، فما كانت تتقدم الى جماعة الا وتدفعهم فيضطربون ويفزعون ، ثم يفرون ، ورأى أبو عبيد الاضطراب الكبير الذى شمل صفوف رجاله فناداهم أن يقطعوا بطن هوادج الفيلة وأن يقلبوا عنها أهلها ، ثم يقتلونهم

واستجاب له رجـاله ، وهاجموا الفيلة وقطعوا بطن الهوادج ، ولم يتركوا فيلا الا قلبوا رحله وقتلوا أصحابه .

وطالت فترة القتال واستمر سجالا بين الفريقين ساعات طويلة من النهـار ، تارة يتقدم المسلمون وينتصرون ، وتارة ينهزمون ، فيتقدم عليهم الفرس.

مقتل أبى عبيد ...

وبينما الحرب على أشدها ، وبينما المقاتلون يتقاتلون فى عنف ، كل يريد أن يلحق الهزيمة بالآخـر كان أبو عبيد على رأس قومه ينظر الى ميدان المعركة وكله رغبة فى النصر ، وأسعده أن يرى رجاله يقاتلون فى شدة وعنف وبطولة ، وأسعده أن يجد الفرس وهم يسقطون من فوق ظهور الفيلة فلا تجد هذه من يقودها .

وبينما كان ينتقل من مكان الى مكان يشجع جنده ويقوى عزائمهم ويدعوهم للصبر فى القتال ، وقع بصره على فيل أبيض كبير على ظهره قبة من الديباج الأحمر يضرب بخرطومه يمنة ويسرة فيشتت المسلمين ويوقع فى صفوفهم ونفوسهم الاضطراب والخوف ، وأيقن أبو عبيـد أن قتل هـذا الفيل سيرفع روح المسلمين ويضعف روح أعدائهم فعزم على قتله ، وأحس أصحابه بخطورة ما عزم عليه فقالوا له « انا نخاف عليك » فقال « ان ربى ينصرنى ولكن أخبرونى هل لهذا الفيل من مقتل ؟ » ، فقالوا له « اذا قطع خرطومه فهو يموت » فقال « انى حامل على هـذا الفيل ومن حوله من الفرس » فقالوا له « دع عنك هذا الفيل

ولك فى غيره سعة » فقال « يا معشر الناس انى لحامل على هذا المخلوق فانظروا ان قتلته وهزمت من حوله فأنا أميركم ، وان قتلت فأخى الحكم أميركم ، فان قتل فولدى وهب أميركم ، فان قتل فولدى مالك ، فان قتل فولدى جبر ، فأبو محجن فالمثنى » [1] .

وتقدم أبو عبيد الى الفيل وحاوره وداوره ، ثم ضرب خرطومه بسيفه ضربة قوية فقطعه وهو يرتجز ..

يالك من ذى أربع ما أكبرك   يالك فى يوم الوغى ما أنكرك
انى لعال بالحسام مشفرك   وهالك وفى الهلاك لى درك

وأهاجت الضربة الفيل فاتجه نحو أبى عبيد ثم ضربه برجله وألقاه على الأرض ووقف فوقه وأزهق روحه [2] ، فأسرع رجل من رجال أبى عبيد وقاتل الفيل حتى تنحى عنه ثم جر جثته الى المسلمين ، وعاد الرجل وكله رغبة فى أن ينتقم من الفيل فيقتله ولكن الفيل فعل معه ما فعله مع أبى عبيد فلحق به الرجل [3] .

---

(١) أن تعيين أبى عبيد للقادة بعد وفاته يذكرنا بموقف مشابه للرسول الكريم حين بعث بجيش لمحاربة الروم فى مؤتة فقد ولى الرسول زيد بن حارثة القيادة وأمر بأن يتولاها من بعده اذا قتل جعفر بن أبى طالب ، فان قتل فيتولى القيادة من بعده عبد الله ابن رواحه فان قتل اختار المسلمون من بينهم من يتولى قيادتهم وهكذا كان الرسول الكريم أسوة حسنة للمسلمين جميعا .

(٢) قيل فى بعض الروايات ان أبا عبيد قطع خرطوم الفيل بسيفه ، ثم فرق من حوله ولكن تعثر ببعض القتلى فوقع فخبطه الفيل وبرك عليه وقتله .

(٣) ذكر البلاذرى أن هذا الرجل هو أخوه الحكم . ومراجع كثيرة لم تذكر اسمه .

الكارثة ...

كان أبو عبيد قد أوصى قبل موته -- كما أشرنا — بأن يتولى أخوه الحكم القيادة من بعده ولكن الحكم قتل فأخذ الراية من بعده وهب ، وتقدم الى المعركة منشدا ..

لا خير فى هلا ولا فى ليت   من طلب الموت فهذا الموت
ليس لأمر الله فيك فوت   قد سطع النقع ومات الصوت

وقتل وهب فتقدم أخوه مالك وحمل اللواء واشتبك مع القوم وقتل الكثيرين من الأعداء ثم قتل وهو يردد ..

قد علمت واضحة الترائب   مبأسة بالثغر والحواجب
أنى غداة الروع والتشاغب   أشجع من ذى لبدة مواثب
قتال أقران مخوف الجانب

وقتل فى القتال كثيرون من بنى ثقيف وهى قبيلة أبى عبيد .

وكادت الهزيمة تلحق بالمسلمين وأحس بذلك رجل من ثقيف يدعى عبد الله بن مرثد الثقفى ، فلما رأى الهزيمة جزع وأراد أن يوقف المسلمين الذين اندفعوا هاربين ناحية الجسر ، كما أراد أن يعيد اليهم ثقتهم بأنفسهم فبادر الى الجسر وقطعه وهو يصيح فيهم «أيها الناس موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا ؟[1]».

---

(١) يذكرنا هذا الموقف بموقف طارق بن زياد فى مستقبل ايام المسلمين حين كلف بفتح بلاد الأندلس ورأى ما عليه أعداؤه من القوة والكثرة فى العتاد ، وكان قد عبر بقواته الى ارض الأندلس فأمر بحرق الأسطول حتى يمنع المسلمين من التفكير فى العودة وقال لهم قوله المأثور « العدو من أمامكم ، والبحر من خلفكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر » .

وفى هذه اللحظات ضغط الفرس على المسلمين فانسحب هؤلاء ناحية الجسر وسيوف الفرس تأخذهم من ورائهم ، فلما وجد المسلمون الجسر مقطوعا جزعوا وتواثب كثيرون منهم الى الفرات .. منهم من لم يصبر على الماء فغرق ، ومنهم من نجح فى اجتياز النهر سباحة ، واستطاع البعض أن يفر بالخيل وسط الفرات ، وهلك يومئذ من المسلمين أربعة آلاف ما بين قتيل وغريق ، وهرب ألفان وبقى ثلاثة آلاف .

وقتل فى هذه المعركة من أبطال المسلمين سليط بن قيس .

وقتل أيضا أبو مخنف أبو زيد الأنصارى وهو أحد جامعى القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قيادة المثنى وبطولته ...

ومرت بالمسلمين ساعات حرج شديدة وكان الموقف عصيبا .. وكان لابد من اجراء سريع يحمى المسلمين ويحفظهم .. ومن كان لهذا الموقف غير المثنى بن حارثة بطل بنى شيبان وفارسها فى موقف تطيش فيه العقول وساعة تهلع فيها القلوب .

لقد رأى المثنى ما لحق بالعرب من نكبات وما هم فيه من شدة فتناول اللواء وتولى القيادة .

وفى سرعة مذهلة قدر المثنى موقفه ووضع خطة لانسحاب قواته من المعركة دون خسائر وكانت خطته تقوم على الأسس التالية ...

١ — شد الجسر الذى قطعه عبد الله الثقفى ، واعادته الى مكانه حتى يسمح للقوات باستخدامه فى العبور .

٢ — تشكيل قوة ضاربة تقوم بحماية المسلمين ومهاجمة الفرس وتعطيلهم عن متابعة المسلمين أثناء العبور .
٣ — اعادة تنظيم صفوف المسلمين والسماح لهم بعبور الجسر بترتيب وانتظام .
٤ — عبور القوة الضاربة فى النهاية على أن تتولى هذه القوة مهمة منع الفرس من العبور خلف القوات الاسلامية .
٥ — الانسحاب الى الحيرة لاعادة تنظيم القوات من جديد استعدادا لمعارك أخرى قادمة .

ووضع المثنى خطته موضع التنفيذ فأمر بأن يشد الجسر ونادى عروة بن مسعود وقال له « انطلق الى الجسر فقف عليه وحل بين العجم وبينه » ، ثم أمر بتشكيل جماعة من الفرسان وضعها تحت قيادته وأخذ يضرب بها فى وجوه الفرس وهو يصيح فى الناس « يا معشر العرب أنا دونكم فاعبروا على هيئتكم ولا تدهشوا ولا تفرقوا أنفسكم » ، وجعل يقاتل من ورائهم ويحمى ظهورهم على حين اتجهت القوات العربية الى تنظيم صفوفها وترتيب عبورها للجسر الى الضفة الغربية للفرات .

وبينما المثنى يقاوم هجمات الفرس ويوقفها ويضعف موجاتها جاءته طعنة رمح غاصت لها حلقات درعه فى جنبه وجرح جرحا بليغا ، ولكنه خلال القتال العنيف تناسى هذا الجرح ولم يهتم بالألم الذى ألم به وظل يناضل فى شجاعة وبطولة حتى عبر المسلمون جميعا الجسر ، ثم عبره هو فى النهاية وظل بعد عبوره

يقاوم الفرس ويمنعهم من العبور خلف المسلمين ، ولم يزحزحه عن هدفه وتنفيذ خطته هذا الجرح البالغ الذى أصابه .

وهكذا أنقذ المثنى ببطولته النادرة الجيش العربى من مخالب الفرس وحرص على أن يمنع الدم العربى من أن يسفكه الفرس .

وما ان نجحت القوات العربية فى عبور النهر — حتى أمر المثنى بالانسحاب فورا الى الحيرة ، ثم تابع انحداره الى الجنوب حتى أليس ومنعت ظروف خاصة قوات ذى الحاجب من متابعته فقد بلغه أن خلافا خطيرا قد وقع بين الفرس ، وأنهم قد انقسموا فرقتين احداهما تؤيد رستم وتناصره والأخرى مع الفيرزان تناصب رستم العداء ، ولهذا رأى ذو الحاجب أن يعود الى المدائن ، وأن يترك خلفه جابان ومردنشاه فى كثير من الجند وأمرهما بمطاردة المثنى فتبعاه أملا فى القضاء عليه .

بطولة نصرانى ...

ولا يفوتنا أن نذكر موقفا لأبى زبيد الطائى وكان نصرانيا[1] فقد كان قادما الى الحيرة فى بعض شئونه ورأى ما أصاب العرب فتحركت فيه دماؤه العربية ومشاعره القومية وهاجت فيه قوميته فعز عليه أن ينهزم قومه ، وأن يكتب النصر لقوم يختلفون عنه لغة ودينا وتاريخا وقومية ومسكنا ودما ، فانحاز الى جانب المثنى يقاتل مع العرب قتالا جبارا ، ولقد شجع موقفه هذا قوما من

(١) أسمه بالكامل حرصلة بن المنذر الطائى ويكنى أبا زبيد وهو شاعر نصرانى عمر طويلا ومات فى خلافة عثمان بن عفان وهو على نصرانيته .

نصارى النمر ونصارى بنى تغلب فخفوا لمعاونة المثنى بعد هذه المعركة فى معركة البويب ، وكان لهم دور كبير فيها .

القضاء على المطاردين ...

عندما وصل المثنى الى أليس أبلغه أهلها نبأ الخلاف الكبير الذى نشأ بين الفرس فنظم صفوفه فى سرعة وجمع رجاله ورتب قواته وانضم اليه عدد كبير من أهالى أليس وتحرك منها لمقابلة القوات التى جاءت وراءه لمطاردته ، وعندما التقى بها دار قتال عنيف واستطاع المثنى أن يوقع بهذه القوات الهزيمة واستطاع أيضا أن يأسر القائدين الفارسيين جابان وماردانشاه ، ثم أمر فضربت أعناقهما (١) .

عمر وانباء الهزيمة ...

كتب المثنى الى عمر بن الخطاب ينبئه بما حدث للمسلمين فى غزوة الجسر ، وذكرت بعض المصادر أن عبد الله بن زيد وكان قد شهد الجسر كان أول من قدم الى المدينة من المسلمين ، بعث به المثنى فجد السير فى الفلوات ، ونهب الأرض نهبا على راحلته حتى وصل المدينة ودخل المسجد حيث كان الخليفة عمر بن الخطاب فأنشد ونفسه تهتز من الألم والحزن وهو يكاد يبكى ..

---

(١) سبقت الاشارة الى أن جابان هـذا وقع أسيرا فى أيدى المسلمين فى موقعة النمارق وأنه اســتأمن آسره فأمنه ثم غدر ورجع يقاتل المسلمين ويخفر ذمتهم فلما وقع أسيرا فى أيديهم كان لابد من قتله .

نعيت الى أهـــل المدينـــة فتيـــة

عـــلى مثلهم تبكى النساء الكواعب

نعيت الى الأنصـــــار فتايتها التى

بها كانت الأحيـــــاء طرا تحـــارب

وكان عمر حتى وصول عبد الله فى لهفة من أمر مقاتلة العرب حتى أنه كان يخرج الى ضواحى المدينة كل يوم يتنسم أخبـــار القتال من القادمين من العراق وكان يعود الى المدينة حزينا قلقا كلما فشل فى الحصول على أخبار القتال الدائر وعندما دخل عليه عبد الله ، وأخذ ينشد شعره قاطعه وسأله « ما عندك يا عبد الله ؟ ، أخبرنى بأمر الجيش » ، فألقى عليه الخبر وقال « يا أمير المؤمنين أنعى اليك أبا عبيد وأولاده فلان وفلان وفلان ، وأنعى اليك .. » فسأله الخليفة « فالمثنى ؟ » فقال « تركته جريحا » ، وتلقى عمر الخبر ساكنا دون أن يبدو عليه الجزع (١) .

وعاد الى المدينة كثير من هؤلاء الذين فروا من المعـــركة ودخلوها منكسى الرؤوس خزيا وعارا .

ونزل بعض منهم البوادى خشية أن يلقوا أهلهم فيعيروهم .

ورأى عمر حال هؤلاء وهؤلاء فرق لهم ورحمهم وجعل يدفع عنهم برم الناس بهم وسخطهم عليهم ، وظل يقول « اللهم كل مسلم فى حل منى ، أنا فئة كل مسلم من لقى العدو ففظع بشىء

---

(١) ذكرت بعض المراجع أن عمر بكى وأن الناس من حـــوله ضجوا بالبكاء فى جنبات المسجد .

من أمره فأنا له فئة ، يا معشر المسلمين لا تجزعوا أنا فئتكم وانما انحزتم الى ، يرحم الله أبا عبيد لو كان انحاز الى لكنت له فئة » .

وسمع عمر أن معاذ القارىء أحد بنى النجار وهو ممن فروا الى الجسر كان يبكى كلما قرأ قوله تعالى « ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » (١) ، فكان يقول له « لا تبك ، أنا فئتك وانما انحزت الى » .

وهكذا خفف عمر روع الناس ودفع جزعهم وكان بالمؤمنين رحيما عطوفا بارا .

الجسر ومؤتة ..

وقعت غزوة مؤتة فى عهد الرسول الكريم فى السنة الثامنة للهجرة .

ووقعت موقعة الجسر فى عهد عمر بن الخطاب فى السنة الثالثة عشرة للهجرة .

وبين الموقعتين تشابه كبير عجيب نوضحه فى النقاط الآتية ...

١ — قابل الجيش الاسلامى فى الموقعتين عدوا يفوقه عددا وعدة .

٢ — نظمت قيادة المسلمين فى الموقعتين مسألة تولى القيادة فى حالة استشهاد القائد العام .

٣ — بعد استشهاد القادة فى مؤتة تولى خالد بن الوليد

---

(١) سورة الانفال ١٦ .

القيادة وبعد استشهاد القادة فى الجسر تولى المثنى القيادة . ولولا فعال خالد والمثنى لظلت مؤتة والجسر نقطتى عار فى جبين المســلمين لانسحابهم وفرارهم وهزيمتهم .

٤ — كانت الخطة التى وضعها خالد والمثنى فى الموقعتين هى الانسحاب من أرض المعركة بأقل خسائر .

٥ — كانت خطة الانسحاب فى الموقعتين تقوم على أساس تشكيل قوة ضاربة تحمى ظهر القوات المنسحبة وتمنع العدو من متابعة المنسحبين .

٦ — قوبل الناس بعد الموقعتين باستياء شــديد من جانب المسلمين فى المدينة ، وخفف الرسول من أثر الهزيمة عند مقاتلى مؤتة ، وخفف عمر من أثرها عند مقاتلى الجسر ، ففى مؤتة كان الناس يحثون التراب على الجيش ويقولون « يا فرار .. يا فرار .. فررتم فى سبيل الله » ، وكان المقــاتلون العائدون يتوارون ولا يحضرون الصلاة مع المسلمين خشية أن يسمعوا هذا القول فكان الرسول يقول عنهم « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار ان شاء الله » .

موقعة البويب

الحشد العربى ...

بعث المثنى عقب هزيمة الجسر الى الخليفة عمر بن الخطاب يطلب منه أن يمده بعون سريع ومدد عاجل ولم ينتظر المثنى المدد فهو يعرف أن مجىء الجند من المدينة يقتضى زمنا قد يواثبــه الفرس فيه .

وكان لابد له من مواجهة الموقف بما عنده من جند ، وبما لديه من طاقات حتى يواجه النكبة بما عرف عنه من دقة القائد الصبور المحنك .

وأول خطوة اتخذها المثنى فى هذا المجال هى أنه بعث فيمن يليه من قبائل العرب فجاءته وفود عظيمة وتوافدت عليه جموع ضخمة بينهم نصارى بنى النمر الذين رأوا أن يقاتلوا مع قومهم ، وكان على رأسهم أنس بن هلال النمرى ، كما جاءه عدد غفير من نصارى تغلب ، وعلى رأسهم عبد الله بن كليب الثعلبى المعروف بمردى الفهر ، وهكذا اجتمعت وفود النصارى مع اخوانهم العرب ليشتركوا معا فى معركة واحدة ضد عدو واحد للعرب ، رغبة فى اعلاء كلمة القومية وانتصار العرب مسلمين كانوا أو نصارى على أعدائهم .

وكانت الخطوة التالية للمثنى هى أنه نقل معسكره من أليس

الى مرج السباخ بين القادسية وخفان ليكون بذلك قريبا من تخوم العرب فيستطيع أن يلجأ اليهم اذا غلبه الفرس وأن يجد عندهم المدد اذا تم له النصر ..

وفى ذات الوقت كان عمر بن الخطاب يفكر فى أمر القـوات المرابطة فى العراق .. كان يبحث أمر امدادها بحثا عميقا وسريعا حتى تستطيع هـذه القـوات أن تواجه الموقف الدقيق الذى يحيط بها ..

وكان العرب حتى هذه اللحظة يتوافدون على المدينة استجابة لدعوة عمر للخروج ولكنهم كانوا يتهيبون الخروج الى العراق ويفضلون الخروج الى بلاد الشام وبذل عمر جهدا كبيرا حتى استطاع أن يقنع الناس بالتوجه الى العراق بدلا من الشام ، وحدث أن اجتمع بنو بجيلة [1] فقال عمر لجرير بن عبد الله البجلى « أخرج حتى تلحق بالمثنى » ، فقال له جرير « بل الشام فان أسلافنا فيها » فقال له عمر « بل العراق فان الشام فى كفاية » وعرض عمر على جرير وقومه الربع من خمس ما يفىء الله على

---

(١) كان بنو بجيلة متفرقين مشتتين فى قبائل العرب ، وطلب جـرير من أبى بكر فى خلافته أن يجمع بنى بجيلة فرده أبو بكر وقال له « ترى شغلنا وما نحن فيه بغوث المسلمين ممن بازائهم من الأسدين فارس والروم ثم أنت تكلفنى التشاغل بما لا يغنى عما هو أرضى لله ورسوله دعنى وسر نحو خالـد بن الوليد حتى أنظر ما يحـكم الله فى هذين الوجهين » . ولما قضى أبو بكر وتولى عمر الخلافة من بعده أعاد جرير طلبه فكتب عمر الى عماله فجمعوا بنى بجيلة فى صعيد واحد .

المسلمين يضاف الى نصيبهم من الفيء[1] فقبل جرير وولاه عمر قيادة قومه وكانت عدتهم سبعمائة فارس .

وتبعتهم جموع كثيرة كانت مترددة أيضا اذ كانت تفضل الخروج الى الشام دون العراق فاجتمع بهم عمر وقال لهم « ذلك أمر قد كفيتموه فاستقبلوا جهاد قوم قد حووا فنون العيش لعل الله أن يورثكم قسطكم من ذلك فتعيشوا مع من عاش من الناس » فقال غالب بن عبد الله ، وعرفجة بن هرثمة مخاطبين قومهما « يا عشيرتاه أجيبوا أمير المؤمنين الى ما يرى وأمعنوا له » ، فأجابوا وخرجوا مع الخارجين من بنى بجيلة .

وخرجت معهم أيضا جموع الفارين من غزوة الجسر ، فقد طلبوا أن يعودوا من جديد الى الميدان ليزيلوا عن أنفسهم وصمة الهزيمة فى الجسر ..

وخرج أيضا بنو الأزد وعليهم عرفجة بن هرثمة ، وبنو كنانة وعليهم غالب بن عبد الله ، وبنو حنظلة وعليهم ربعى ، وبنو ضبة وعليهم عصمة بن عبد الله الضبى ، وعدد كبير ممن ظهرت توبتهم من أهل الردة [2] ، وخلق كثير من مختلف القبائل ، وصحب الخارجون معهم نساءهم وأبناءهم .

---

(١) حدث داوود بن أبى هند قال : اخبرنى الشعبى أن عمر وجه جرير بن عبد الله الى الكوفة بعد قتل أبى عبيد أول من وجه وقال : هل لك فى العراق وأنفلك الثلث بعد الخمس ، قال : نعم .

(٢) كتب عمر الى أهل الردة من بنى عبد القيس وغيرها ممن لم يكن يسمح لهم بالجهاد أن يخرجوا الى العراق فسارت جموع كثيرة منهم .

والتقت هذه الجموع كلها مع قوات المثنى الذى ما ان علم بتجمعات الفرس وتحركاتهم اليه حتى بعث الى جرير بن عبد الله والى غيره من الأمراء قائلا « انا جاءنا أمر لم نستطع معـه المقام حتى تقدموا علينا فعجلوا اللحاق بنا وموعدكم البويب [1] .

موقف الفرس ...

بلغت الفرس أنباء التجمعات الاسلامية وترامت اليهم أخبار الامداد التى تسير تباعا الى العراق وهالتهم هذه الجموع التى أصبحت فى الجانب الاسلامى وأحسوا بخطورتها فعقد رستم اجتماعا مع الفيرزان واتفقا على تقسيم السلطة بينهما وجمعا معا جندا عظيما كثيفا جعلا عليه القائد مهران بن مهرنبداذ الهمذانى وكلفاه بأن يتقدم بقواته الى مواقع المسلمين ، وأمداه بعدد من الفيلة ، وجدير بالذكر أن الملكة بوران وافقت على رأى الاثنين وباركته .

ويهمنا أن نذكر أن مهران الهمذانى قائد الفرس الجديد كان طموحا حريصا على أن يحرز ضد العرب نصرا ينسى الفرس النصر الذى أحرزه ذو الحاجب فى الجسر والذى كانوا يعيشون فى ذكراه وهو بذلك كان يريد أن يقفز الى مكان الصدارة بين قادة

---

(١) هو الموضع الذى بنيت فيه الكوفة بعدئذ .

الفرس وأن يسجل لنفسه صفحات بيضاء خالدة تفـوق تلك الصفحات التى كتبها لنفسه ذو الحاجب .

وتقدم مهران بقواته وجموعه التى بلغ عددها اثنى عشر ألفا حتى نزل بازاء المثنى من وراء الفرات فى أرض تدعى بسوس قرب الكوفة ، وما ان علم المثنى بنزوله فى هذا الموقع حتى قال « أكد مهران وهلك ونزل منزلا هو البسوس » .

الاعداد للمعركة ..

عندما أصبح العرب والفرس وجها لوجه لا يفصل بينهما سوى نهر الفرات بعث مهران الى المثنى يقول « اما أن تعبروا الينـا واما أن نعبر اليكم » وتنبه المسلمون فى هذه المرة الى خطورة العبور وعادت الى ذاكرتهم معركة الجسر حين أبى أبو عبيـد الا أن يعبر الى الفرس ليؤكد شجاعته وقوته ، وأدرك المسلمون أن عبورهم كان من عوامل الهزيمة المرة التى وقعت بهم ، ولهذا فعندما بعث اليهم مهران بمثل ما بعث به من قبل ذو الحاجب كان ردهم واضحا صريحا « أعبروا الينا » .

ووافق مهران على أن يعبر بقواته ..

وعبرت قواته فى ثلاث صفوف مع كل صف فيل ، وكان لها عند عبورها صوت وضوضاء فقال المثنى لجنده « أن هذا الذى تسمعون فشل فالزموا الصمت وأتمروا همسا » وأعد المثنى قواته فجعل على مجنبتيه بشير بن الخصاصية وبسر بن أبى رهم(١)

(١) فى بعض المراجع ذكر بشر .

وعلى مجردته (أى الخيـــل) أخاه المعنى ، وعلى الرجل (أى المشاة) أخاه مسعود ، وعلى الطلائع (أى المقدمة) النسير ، وعلى الردء أى (الاحتياط والعون) مذعورا ، وبقى هو فى القلب من جيشه .

وبعد أن تم الاعداد المادى للمعركة أخذ المثنى يعـــد رجاله معنويا فكان يتعهد الصفوف ويعد لها للمعركة ، وحدث أن رأى أحد رجاله يتقدم صفه مندفعا نحو الفرس فقرعه بالرمح وقال له « لا أبالك ! الزم موقفك فاذا أتاك قرنك فأغنه عن صـــاحبك ولا تستقتل » .

وقد كان المثنى يتعهد صفوف المسلمين ويمر بينهم عـــلى فرسه الشموس (١) ويحضهم (٢) فيقول لهم « أنى لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم قبلكم والله ما يسرنى اليوم لنفسى شىء الا وهو يسرنى لعامتكم » فيجيبونه بمثل ذلك .

وظل المثنى يذكر جنوده بالحروب والوقائع الماضية والغزوات السالفة ، ويعرفهم بمواقع الشجعان ومصارع الفرسان ، وما وعد الله للشهداء المجاهدين من ثواب فى دار النعيم ، وبالرغم من أنه كان جريحا فانه كان يمر بالقوات باذلا الجهد غير آبه بحياته ولا عابىء بجراحه ينشط الهمم ويقوى العزائم ويشد نفوس أهل الحرب ويحرض المؤمنين على القتال .

---

(١) دعى الشموس للين عريكته وطهـــاراته ، وكان لا يركبه الا اذا قاتل ، فاذا فرغ من القتال ودعه .

(٢) أى يحثهم .

وكان المثنى صاحب منزلة طيبة عند رجاله فقد كانوا يحبونه ويحترمونه ويبجلون فيه قوته وبطولته وشرفه وعلو منزلته .

القتـــال ...

كان وقت بدء المعركة فى شهر رمضان ، فأمر المثنى جيشه بالافطار ليقووا على عدوهم وحتى لا يؤثر الصيام على قدراتهم فى القتال ، فنادى المسلمين « أيها الناس أنكم صوام والصوم مرقة ومضعفة ، وأنى أرى من الرأى أن تفطروا فتقووا بالطعام على عدوكم » ، ورأى النـــاس جميعا رأيه فأجـابوه الى ما طلب وأفطروا .

حدد المثنى ساعة الصفر مع رجاله واتفق معهم على أن تكون عندما يكبر للمرة الرابعة « أنى مكبر ثلاثا فتهيأوا ثم أحملوا مع الرابعة » ، وعندما حان ميعاد الهجوم كبر المثنى وكبر من بعده المسلمون وأدرك الفرس أن العرب على وشك الهجوم فقرروا أن تكون المبادأة فى جانبهم ، ولهذا رأوا أن يبدءوا هم بالهجوم ، وما أن صاح المثنى للمرة الرابعة « الله أكبر » ، حتى عاجلهـــم الفرس وهاجموا صفوف المسلمين وخالطوهم والتحم القتال .

ولم ينس المثنى واجبه كقائد خلال المعركة فقد كان يشرفه على سيرها وتطوراتها ويراقب صفوف المسلمين ويمر بينهم ويثير حماسهم ، وينظم ما اختل من نظامهم ، فكان اذا ما رأى خللا فى احدى الجبهات يرسل لأهل هذه الجبهة رجلا من عنـــده يقول لهم عن لسانه « ان الأمير يقرئكم السلام ويقول لكم لا تفضحوا

المسلمين اليوم » فيقولون « نعم » [١] ، ويعتدلون ، وكان المثنى اذا نظر موطن ضعف من الفرس قابلا للعطب وجـه اليه ضربة قاضـية .

وطال الاشتباك وازداد عنفا ورأى المثنى أن يضرب ضربة قاصمة فنظر الى نفر من التغلبيين نصارى وفيهم جلاب خيل قدموا مع أنس بن هلال النمرى وقال لأنس « يا أنس انك امرؤ عربى ، وان لم تكن على ديننا فاذا رأيتنى قد حملت على مهران فاحمل معى » ، فأجابه أنس الى ذلك وقال المثنى مثل ذلك أيضا لأبى مردى الفهر فأجابه اليه وحمل المثنى على الفرس وحمل معه أنس بن هلال ومردى الفهر وهاجموا مهران ودخل المثنى فى ميمنته[٢] فاضطربت صفوف الأعاجم والتقى خلال هذا الاضطراب الذى سيطر على الفرس فى أرض المعركة غلام نصرانى من تغلب بمهران فأثارته العصبية فقتله ، ثم استوى على فرسه وهو يقول :

أنا الغـــلام التغلبى أنا قتلت مهـــران [٣]

وعلم الفرس بمقتل قائدهم مهران فتضعضعوا وانهزموا وأدرك المثنى أن الفرس سيذهبون الى الجسر للعبور الى الضفة الأخرى للنهر هربا من هجمات المسلمين فأسرع الى هناك وقطعه ومنع

---

(١) ذكرت بعض المراجع أنه رأى خللا فى صفوف بنى عجل فبعث اليهم من قال قوله الذى ذكرناه .

(٢) قالت بعض المراجع أنه اندفع بفرسه الشموس ورمحه بين أذنيها وقصد مهران حتى أزاله ودخل ميمنته .

(٣) فى رواية أخرى ...

أنا الغلام التغلبى ... انا قتلت المرزبان

ذلك مرورهم من فوقه (١) والسيوف تأخذهم من كل جانب والمسلمون يحيطون بهم والمثنى وسطهم يدعوهم للقتال ويحميهم ويقول لهم « عاداتكم من أمثالكم انصروا الله ينصركم » ، وقد بلغ حماس المسلمين ، واستطاعوا أن يحرزوا نصرا عظيما فى هذه المعركة كما استطاعوا أن يمحوا ذكرى الهزيمة المرة التى لحقت بهم من قبل فى الجسر .

وحدث عند اشتداد القتال أن جرح مسعود أخو المثنى فتضعضع من معه فقال وهو يتلوى من ألم الضربة « يا معشر بكر بن وائل ارفعوا راياتكم رفعكم الله ولا يهولنكم مصرعى » ، وكان قبل أن يصاب قد قال لهم « ان رأيتمونا أصبنا فلا تدعوا ما أنتم فيه فان الجيش ينكشف ثم ينصرف .. الزموا مصافكم واغنوا غناء من يليكم » .

ولما مات مسعود وبلغ المثنى قتل أخيه صاح فى الناس « يا معشر المسلمين لا يرعكم مصرع أخى فان مصارع خياركم هكذا » ، ووقعت كلماته موقعا حسنا فى قلوب المقاتلين وشدت من معنوياتهم وحرضتهم على عدوهم فحملوا حملة رجل واحد

(١) حدث أن الفرس الذين ارتدوا عن الجسر أخذوا يقتلون من المسلمين ويستميتون يريدون الثأر منهم فمات كثير من المسلمين ، فأغضب ذلك المثنى وندم لقطعه الجسر ولمنعه الفرس من العبور وقال لقومه فى ذلك « لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتى اياهم الى الجسرحتى أحرجتهم فأنىغير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بى أيها الناس ، فأنهـا كانت منى زلة لا ينبغى احراج أحد الا من يقوى على امتناع » .

وصدقوا الله فى القتال حتى سمى يوم البويب يوم الاعشار لأنهم أحصوا مائة رجل من العرب قتل كل واحد منهم عشرة من الفرس فى المعركة وقيل أن عدد القتلى من الفرس بلغ مائة ألف ، وبقيت جثثهم صرعى طريحة فى الميدان حتى بليت وصارت عظاما ثم بقيت دهرا طويلا لم تدفن الا بعد بناء الكوفة ثم عفا عليهم التراب أزمان الفتنة وقيل ان أهل تلك الناحية كانوا يأتون البويب فيرون فيما بين موضع أسكون وبنى سليم عظاما بيضا تلولا تلوح من هامهم وأوصالهم يعثر بها [1] ، واستشهد فى هذه المعركة من المسلمين خالد بن هلال ومسعود بن حارثة أخو المثنى وغيرهم من أبطال المسلمين فصلى عليهم المثنى وقال « انه ليهون على وجدى أن شهدوا البويب أقدموا وصبروا ، ولم يجزعوا ولم ينكلوا » .

بعد المعركة ...

بعد أن فر الفرس من المعركة انتدب المثنى جرير بن عبد الله البجلى لعبور الفرات ولتتبع الفارين وانتدب معه من شهدوا واقعة الجسر ، لأنهم كانوا أشد الناس بلاء فى هذه المعركة لاستيائهم من الفرار فى تلك الموقعة فغنم هؤلاء مغانم كثيرة وعادوا الى مواقعهم .

وبعد أن انتهى المثنى من هذه الغزوة فرق جنده فى السواد وأخذ يستخضع البلاد التى عصت من قبل وكانت له وقائع كثيرة

(١) تجارب الأمم لابن مسكويه ج ١ ص ٣٤٤ .

مع العرب ظفر منها المسلمون بما شاءوا من متاع ومال وبلغت غاراتهم شرقا الى قرب مدائن فارس وشمالا الى الجزيرة فأوقعوا الرعب فى قلوب الأعداء ، واضطرب أمر الفرس لذلك واختل وبعث القواد والرؤساء من المسلمين الى المثنى « ان الله سلم ووجه لنا ما رأيت ، وليس دون القوم شيء فتأذن لنا فى الاقدام » ، فأذن لهم المثنى فانطلقوا فى السواد حتى بلغوا ساباط وجيوش الفرس تفر أمامهم فرار النعام ، وانطلق المثنى بدوره فغزا الخنافس والأنبار وغنم منها الكثير ثم بلغ المسلمون دجلة وأغاروا على قرية بغداد وتكريت ..

وأخيرا استقر المثنى فى الحيرة بعد ان استتب له الأمر وفى هذا يقول الطبرى « لما أهلك الله مهران استمكن المسلمون من الغارة على السواد فيما بينهم وبين دجلة فمخروها لا يخافون كيدا ولا يلقون فيها مانعا » .

منطق البطل ..

بعد أن انتهت معركة البويب اجتمع المسلمون بعد فراغهم منها مغتبطين يتسامرون فقال المثنى « قاتلت العرب والعجم فى الجاهلية والاسلام ، والله لمائة من العجم فى الجاهلية كانوا أشد علىّ من ألف من العرب ولمائة من العرب اليوم أشد علىّ من ألف من العجم .. ان الله أذهب بأسهم ووهن كيدهم فلا يروعنكم زهاء ترونه ولا سواد ولا قسّى فج ولا نبال طوال فانهم اذا أعجلوا عنها أو فقدوها كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت » .

شهد الناس للمثنى بالبراعة والشجاعة والقيـادة والبسالة والحنكة والقدرة ، وتغنى بهذه الصفات كلها الشعراء ومجدوا أفعاله ، وعظموه فيما نظموه ، ومن ذلك ما أنشده عروة بن زيد الخيل [1] ...

هاجت لعروة دار الحى أحـــزانا
واستبدلت بعد عبـد القيس همدانا
وقد أرانا بهـا والشمل مجتمـع
اذ بالنخيلة [2] قتلى جنـد مهرانا
أيام سـار المثنى بالجنـود لهم
فقتل القوم من رجـل وركبـانا
سـما لأجنـاد مهـران وشـيعته
حتى أبادهم مثنى ووحـــدانا
ما ان رأينا أميرا بالعـراق مضى
مثـل المثنى الذى من آل شـيبانا
ان المثنى الأمـير القـرم لا كذب
فى الحرب أشجع من ليث بخفـانا

---

(١) هو عروة بن زيد الخيل الطائى صحابى مشهور شهد مع أبيه فى الجاهلية بعض الحروب وعاش الى خلافة الامام على وشهد معه صفين .

(٢) مكان قرب البويب .

النساء فى المعركة ..

قلنا ان المثنى أصاب فى البويب مغانم كثيرة .. غنما ودقيقا وبقرا .. فبعث بها الى عيالات من قدم من المدينة وقد خلفوهن بالقوادس وعلى تخوم شبه الجزيرة وبالحيرة .

وكان دليل من ذهب بنصيب العيالات بالقوادس عمرو ابن عبد المسيح بن بقيلة فلما رأت النسوة اقبال الخيل عليهن تصايحن وحسبنها غارة عليهن فقمن ومعهن الصبيان بالحجارة والعمد ، فانشرح صدر عمرو لهذا التصرف من جانب النسوة وقال « هكذا ينبغى لنساء هذا الجيش » .

واستأمن الرجال النساء وبشروهن بالفتح وقدموا لهن ما حملوه اليهن وقالوا « هذا أول المغنم » .

وكان النسير على الخيل التى أتتهم فأقام فى خيله حامية لهم .

ولنا هنا وقفة فلو لم يكن لجيش المسلمين ثقة بشجاعة نسائهم وامكان دفعهن العدو المفاجىء لما تركوهن فى الفلاة بلا حامية وتقدموا هم لحرب الفرس .. وموقف النساء موقف بطولى تاريخى .. فنساء المسلمين كن يقاسمن الرجال فى ميدان الحرب ويساعدن قدر استطاعتهن ، ومن أهم ما كن يقمن به من أعمال ...

١ — يضمدن الجراح ويمرضن المرضى ويعالجن الجرحى .

٢ — يساعدن على رفع الروح المعنوية للمقاتلين ويشجعن المحاربين بالزغاريد والأناشيد .

٣ — يقمن بوظائف الشئون الادارية .. يحضرن الماء ويقدمن الطعام .

٤ — يثرن حمية الرجال للدفاع عن الأعراض وللغيرة على الحـــرم .

وبرغم هذا فقد تطور دورهن فى المعركة وخرج عن هــذه الحدود .. أصبحن يحملن السلاح ويخضن المعركة ويحاربن بجانب الرجال ويقاسمن المحاربين شرف الجهاد والاستشهاد .

ولم يكن حجاب المرأة المسلمة مانعا لها من مخالطة الرجال فقد كن يتميزن بالعفة وسلامة الأخلاق وطهارة النفس وحسن التربية وغيرها من الصفات التى كانت تقوم مقام الحجاب تماما ؛ ولهذا خرجت المرأة المسلمة من بيتها تصاحب رجلها فى جهــاده ونضاله وتعاونه معاونة صادقة خالصة لوجه الله والدين ووقفت بجانبه تشد من أزره وتساعده قدر استطاعتها وتسهل له سبل النصر وتمهد له طريق الفوز ... وقد أشــار الى ذلك ادوارد جيبون فى قوله « ان النســاء اللاتى تعودن الضرب بالسيف والطعن بالرمح والرمى بالنبل هن اللاتى اذا وقعت احداهن فى الأسر تكون قادرة على حفظ عفتها ودينها من أى انسان .. » .

ولنساء المسلمين تاريخ طويل مجيد فى ميادين القتال فقد ذكر الطبرى وابن الأثير الدور الكبير الذى قامت به أروى بنت الحارث ابن كلدة [1] عند فتح ميسان وأشار ادوارد جيبون فى كتابه

---

(١) سار المغيرة الى أهل ميسان وعلمت بمسيرة أروى بنت الحارث بن كلدة طبيب العرب المشــهور فعرضت على نســاء المسلمين أن يلحقن بالمسلمين فيكن لهم عونا وعقــدت لواء من خمارها واتخذ النساء من خمورهن رايات وخرجن يردن المسلمين =

« تاريخ الامبراطورية الشرقية » الى شجاعة النساء المسلمات التى أظهرنها فى حصار دمشق .

وتاريخ الحروب الاسلامية حافل ببطولة النساء المسلمات اللاتى حملن السلاح وخضن المعارك وشاركن الرجال وأتين فى الميدان بأعظم الأعمال شأنهن فى ذلك شأن أعاظم الرجال .

= فانتهين اليهم وهم يخوضون المعركة فلمـــا رأى العدو رايات مقبلة ظن أن مددا أتى المســـلمين ففروا من ميدان المعركة وتبعهم المسلمون وطاردوهم وقتلوا منهم عددا كبيرا .

الباب الخامس

غارات المثنى

خنافس ... بغداد ... صفين

صبحنا بالخنافس جمـع بكر
وحيا من قضاعة غـير ميـل
نسفنا سوقهم والخيـل رود
من التطواف والشر البخيـل

الخنــــافس

اعادة تنظيم القوات ...

قلنا ان المثنى بعد انتصاره العظيم فى موقعة البويب بعث بجنده يحتلون النقط العسكرية الهامة التى يستطيع أن يرتكز عليها فى أية عملية مقبلة ، ثم فرق جيشه فى السواد وأمر جنــده باخضاع جميع العرب القاطنين فى السواد لسلطة المسلمين وأخذت فرقه تستخضع البلاد التى عصت من قبل .

أرسل جرير بن عبــد الله البجلى الى منطقة ميسان وهى منطقة واسعة كثيرة القرى والنخل .

وأرسل هلال بن علفة الى دستميسان وهى منطقة مجاورة لمنطقة ميسان وتقع ضمن حدودها مدينة البصرة ومدينة الأبلة .

وأرســل تعزيزات لمواقعــه ومراكــزه العســكرية ونقطة الاستراتيجية بقيادة عصمة بن عبد الله الضبى ، وعرفجة بن هرثمة البارقى ، والكلح الضبى وهو من فرسان العرب وكان المثنى قد أسند اليه حماية الجسر .

وكلف المثنى قواته الخفيفة الحــركة (الخيالة) بالقيــام بعمليات استطلاع بعيدة المدى بقصد جمع الأخبار عن الفرس .. مواقعهم .. مرافقهــم .. قواعدهم .. ذخــيرتهم .. المــيرة .. استعداداتهم .. حالتهم الداخلية .. وبناء على المعلومات التى كانت

تصل اليه كان ينظم غاراته المفاجئة المباغتة ويخرج من هـذه الغارات بمغانم كثيرة فوق تثبيته لأقدام جيشه فى المناطق التى كان يقوم بالاغارة عليها .

سوق الخنافس ..

ترك المثنى بشير بن الخصاصية بالحيرة ، وتوجه الى أليس وهى قرية من قرى الأنبار ، وهناك جاءه رجلان أحدهما أنبارى والآخر حيرى ، ودله الأنبارى على سوق الخنافس ، ودله الحيرى على سوق بغداد .

وبحث المثنى الموقف ، ودرس العرضين اللذين قدمهما الأنبارى والحيرى فرأى أن سوق الخنافس أقرب اليه من سوق بغداد ، وأنه من السهل عليه أن يصل الى هذه السوق فى فترة وجيزة وبسرعة مما يحقق المفاجأة .

وسوق الخنافس هى سوق يتوافد اليها تجار كثيرون من جميع أنحاء السواد والعراق ..

وقرر المثنى أن يهاجم السوق وانتظر موعده فلما قرب يومه أعد العدة للاغارة عليها .. وفى يوم السوق فاجأ المثنى الموجودين بها واستولى على ما بها ثم عاد الى مركز رياسته وهو ينشد ..

صبحنا بالخنافس جمع بكر   وحيا من قضاعة غير ميل
بفتيان الوغى من كل حى   تبارى فى الحوادث كل جيل
نسفنا سوقهم والخيل رود   من التطواف والشر البخيل

غارات أخرى ...

وبعد أن انتهى المثنى من غاراته على سوق الخنافس ، شن غارات أخرى على الأنبار وبادوريا [1] ، وقطربل [2] ، وغنم المثنى من هذه الغارات مغانم كثيرة حتى أن كثيرا من شعراء العـرب تغنوا بهذه الغارات ، ومنهم من قال ...

وللمثنى بالعـــال معركة ... شـاهدها من قبيـلة بشر
كتيبة أفزعت بوقعتهـــا ... كسرى وكاد الايوان ينفطـر
وشجع المسلمون اذ حذروا ... وفى ضروب التجـارب الحذر
سهل نهـج السبيل فأقتفروا ... آثاره والأمــور تقتفر [3]

سوق بغداد ...

كانت سوق بغداد سوقا كبيرة تقام كل سنة ، فيأتي اليهـا التجار من داخل أراضي العراق ومن أرض السواد ومن مختلف البلاد والنواحي وتجتمع بها أموال كثيرة لا حصر لها حتى أن بعض المراجع أجمعت على أن أموال السوق تقدر بأموال بيت المـال .

وقد يتبادر الى الذهن أن المثنى قد أراد بهذه الغـارات الاستيلاء على الأموال لنفسه ، ولكن الواقع أنه أراد أن يأخذ

---

(١) ذكرت فى بعض المراجع بادرويا .
وذكرت ياقوت الحموى أنها تقع فى الجانب الغربى من بغداد ضمن منطقة نهر عيسى بن علي ، وتصل بعض مباني بغداد الى طرفها.
(٢) هي قرية تقع بين بغداد وعطبرة .
(٣) أي تقفى .

المسلمون هـذه الأموال وهى أموال أعدائهم فيضربون بذلك عصفورين بحجر واحد ، يحرمون أعداءهم من المال الذى هـو الأساس الأول فى اعداد الجيوش وتسليحها ويستفيدون هم بهذا المال فى الاعداد لمحاربة أعدائهم والقضاء عليهم .

وقرر المثنى أن تكون غارته على سوق بغداد مفاجأة لهؤلاء الذين يتوافدون عليه حتى تكون غارته ذات فائدة كبيرة ، فخرج من مكان قرب البويب يطلق عليه اسم النخيلة ، وكان معه أدلاء من أهل الحيرة يدلونه على الطريق ، فوصل فى الليل الى الأنبار ، وكان عليها رجل فارسى يدعى شفروخ هو مرزبانها فبعث اليـه المثنى يطلب منه أن يأتى اليه ، وكان الرجل قد سمع عن المثنى وبطولته فى الحرب وشدته فى القتال ، فخاف أن يذهب اليه ، الا أن المثنى أعاد دعوته وأمنه فجاء اليه .

وفوجىء المثنى وهو يعبر النهر بالجسر مقطوعا ، وقامت بذلك أمامه مشـكلة كبيرة اذ كيف يجتاز النهر ليصل الى بغداد ؟ ولم يكن أمامه من سبيل سوى أن يساعده المرزبان شفروخ فى الوصول الى غايته وتحقيق أمنيته ، ولم يشأ المثنى أن يعرف الناس حقيقة اتجاهه ، فأخفى خطواته التالية ، ولم يشر فى أى حديث له الى أنه ينوى مهاجمة بغداد ، واجتمع بالمرزبان وقال له « انى أريد أن أغير على المدائن وأريد أن ترسل معى الأدلاء وتعقد لى الجسر لأعبر عليه الفرات الى المدائن » .

واقتنع مرزبان الأنبار بما قاله المثنى فجمع له الأدلاء وأمر لهم بعلف وطعام وعقد لهم الجسر فعبروا .

وتقدم القوم على الطريق وعلم المثنى أنه قد أصبح على بعد أربعة فراسخ أو خمسة من بغـداد اذ سأل الدليل « كم بيننا وبين بغداد ؟ » فأجابه « أربعة أو خمسة فراسخ ، وقد بقى عليك ليــل » .

وكان لابد للمثنى من المحافظة على غرضه وهو سوق بغداد فلما علم أنه قد أصبح قريبا منها وضع خطة التحرك اليها ، وهو كما أشرنا كان يضع خطته على أساس المفاجأة التامة ، ولهـذا أمر أصحابه بالنزول ، وأقام معسكرا على الطريق ، ثم عين حرسا من بعض رجاله يتناوب حماية المعسكر ليلا وسمح لباقى قواته بالراحة والنوم .

وضمانا للسرية ومحافظة على تحقيق المفاجأة ، عين بعض رجاله من الفرسان ليقوموا بأعمال الدوريات حول معسكره ، والى مسافة بعيدة منه ، وأمرهم بالقاء القبض على كل فرد يقترب من المعسكر أو يحوم حـوله أو يشك فيه وبذلك يكون قد اتخذ الخطوات الايجابية الفعالة لمنع أخباره عن أهل الســوق وهو بذلك أيضا يكون قد قطع كل سبيل الى وصول أنبائه الى هنـاك .

وفى آخر الليل أنهض المثنى رجاله وأمرهم بالاستعداد وسمح لهم بتناول طعامهم وبالوضوء وباعداد الخيل فيعلفونها ويسقونها حتى تكون هى الأخرى على اســتعداد تام للمهمة الكبيرة التى تنتظرهم فى سوق بغداد ، واستيقظ الناس ، وعلفوا الخيل وجمعوا السلاح ثم حزموا خيلهم .

ولما تم الاستعداد للتحرك أمر قواته بالتحرك ليلا قبل طلوع الفجر .. أى أن المثنى بدأ زحفه على سوق بغداد قبل أول ضوء على حد تعبير العسكريين اليوم .

وتقدمت القوات نحو بغداد ووصلت قبل بزوغ الشمس ، وبدأت هجومها ووضعت السيوف فى الأهالى وكان للمفاجأة أثر كبير فارتاع الناس واضطربوا وفروا تاركين أموالهم وتجارتهم غنيمة فى أيدى رجال المثنى .

وقدر المثنى موقفه فى سرعة فأصدر أوامره الى الجند بحمل الذهب والفضة والحرير وما كان خفيفا وزنه غاليا ثمنه .

وتحقق الفوز الذى كان ينشده المثنى فى سوق بغداد .

وبدأت قواته تعود أدراجها حتى أصبحت قريبة من الأنبار فنزلت بنهر السيلحين ، وعسكرت هناك .

وبينما المثنى يمر بقواته سمع همسا بين القوم يقول « ما أسرع القوم فى طلبنا ؟ » وتنبه وهو القائد المحنك الى المعنى الذى يختفى وراء هذا الهمس ، وأدرك خطورة القلق الذى تسرب الى قلوب رجاله ، وأحس أنهم قد بدءوا يخافون ويتزعزعون ، وكان لابد من أن يعمل شيئا يعيد به معنوياتهم ويشد من عزائمهم ويثير حماسهم ، فدعا اليه الجند وتحدث اليهم فقال « أيها النـــاس احمدوا الله وتناجوا بالبر والتقوى ولا تناجوا بالاثم والعدوان .. انظروا فى الأمور وقدروها ثم تكلموا ، انه لم يبلغ النذير مدينتهم بعد ، ولو بلغهم لحال الرعب بينهم وبين طلبكم .. ان للغارات روعات تنتشر عليها يوما الى الليل ولو طلبكم المحامون من رأى العين

ما أدركوكم وأنتم على الجياد العراب وهم على المقاريف (١) البطاء حتى تنتهــوا الى عسكركم وجماعتكم ، ولو أدركوكم لقاتلتهم لاثنتين .. التمــاس الأجر ورجاء النصر ، فثقوا بالله وأحسنوا الظن فقد نصركم الله عليهم فى مواطن كثيرة وهم أكثر منكم وأعز » .

هذه الخطبة توضح لنا اتجاها هاما فى حياة المثنى العسكرية وتشير الى صفات ومميزات يتميز بها عن غيره من قادة أعدائه فبدراسة هذه الخطبة نجد أن المثنى ..

١ — يتجه بمشاعره واحساساته الى الله ، وهــذا الاتجاه يصور لنا مدى ايمانه بربه وبرسوله وبكتابه وهــو ينقل هذه المشاعر والاحساسات الى جنده ويدعوهم الى ذكر الله والى حمده ، كما يدعوهم الى الثقــة الكاملة فى الله لأنه أيدهم بنصره فى معارك كثيرة كانوا هم فيها أقل عددا وأقل عدة .

٢ — يدعو جنــده الى عدم الاندفاع وراء الشائعات ، ويطلب منهم أن يتريثوا ويتبينوا ويقدروا الأمــور حتى لا يكون تسرعهم من عوامل فشلهم وهو بدعوته هذه يصور لهم خطورة الاشاعات وخطورة الحديث الخافت الذى يرمى الى الهدم لا الى البناء .

---

(١) جمع مقرف أى الخيل غير الأصيلة .

٣ — يصور لجنده حالة عدوهم وقد انتشر الرعب والفزع بينهم ويؤكد أن العدو قد أصبح فى حالة ذعر لا تسمح له بأن يسعى الى طلبهم وهو بذلك يحدث جنده عن معنويات العدو ويؤكد لهم أن انحطاط هذه المعنويات تضعف الرغبة فى القتال وتفل العزيمة وتقلل الحماس وتهن القوى ، وهذا هو الحال لعدوهم بعد أن انتصروا عليه انتصارات ساحقة وبعد أن أوقعوا به هزائم متتالية فهو أصبح فى حالة لا تسمح له بطلبهم .

٤ — يثير فى جنده الثقة بالنفس وبالسلاح ، فهو يقول لهم ان خيل العرب تفوق خيل الأعداء لأنها أصيلة نشأت على التربية العربية التى تتولاها بالتدريب والتعليم فتكر وتفر فى براعة وفى فن يفوق فن الفرس فى هذا المجال ، هذا فوق أن جياد الفرس ضعيفة بطيئة فى جريها لا يعتمد عليها فى الوصول الى الأهداف بالسرعة المطلوبة .

٥ — يثير فى جنده الهمة والشجاعة والحماس ، ويؤكد لهم أن لقاء العدو بهم لن يمس مبادئهم وشجاعتهم وقوتهم لأنهم يقاتلون فى سبيل أمرين وهم ينشدون فى قتالهم احدى الحسنيين ، فاما نصر ساحق عظيم واما استشهاد عزيز كريم ، والعربى المسلم حين يسمع حديث النصر، أو حديث الاستشهاد ينسى كل شىء له ، ويبعد عنه

الخوف ويهجره اليأس ويعيش حيــاته قوى النفس عظيم الهمة ، وهو مدرك أن الله تبارك وتعالى سيصدق معه وعده ويحقق له النصر الأكيد .

وعاد الى جنود المثنى بعد استماعهم الى خطبة قائدهم وبعد أن فهموا معناها ومرماها .. هدوؤهم وثباتهم فقد كانت كلماته بردا وسلاما عليهم فلفظوا الأفكار التى كانت قد سيطرت عليهم وبدءوا يعيشون من جديد فى ذكرى انتصاراتهم وفى الأمل الكبير الذى يداعب خيالهم بسحق الفرس وازالة دولتهم ورفع راية الاسلام فوق بلادهم .

تقدمت قوات المثنى الى الأنبار حيث استقبلها حاكمها استقبالا حسنا ثم عاد المثنى بعد ذلك بقواته الى مركز رياسته فى النخيلة .

صفين ...

بعث المثنى فرات بن حيان وعتبة بن النهاس للاغارة على أحياء من تغلب والنمر فى صفين .

وعندما علم أهل صفين عبروا الفرات وتحصنوا فى الجــزيرة ورأى المثنى أن يلحق بقواته وأن يكون على رأسها ولكنه تعرض لمشكلة ادارية هامة ولولا أنه رجل حرب لما استطاع أن يحــل المشكلة وأن يجتاز الأزمة وأن يتغلب على ما تعرض له من أخطار .

فبينما المثنى ورجاله يجتازون منطقة صحراوية لا تملك امداده بزاد أو طعام نفد كل ما يحمله من زاد وتجسمت أمامه مشــكلة ادارية خطيرة .. اذ كيف يقوى جنده على المسير وكيف تقوى خيله

على التحرك ولا زاد عنده ولا ماء ، ولا سبيل أمامه الى تموينها وامدادها بما يلزمها ؟ .

ماذا اذن يفعل المثنى ؟ ..

اتجه الى رواحله فجمع منها ما يمكنه الاستغناء عنه ؛ ثم عاش هو ورجاله على لحومها وأخفافها وبذل جهدا كبيرا حتى يمكن هذه الرواحل أن تكفى احتياجاتهم أطول فترة ممكنة .

هذه المشكلة واجهت من قبل خالد بن الوليد حين تحرك من العراق الى الشام ، وكان الطريق شاقا وحذره منه الأدلاء حتى أن رافع بن عمير قال له « انك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال ، والله ان الراكب المفرد ليخافها على نفسه وما يسلكها الا مغرور ، انها لخمس ليال جياد لا يصاب فيها ماء » وقال خالد لجنده وقد أحسوا بخطورة المرحلة القادمة « لا يختلفن هديكم ولا يضعفن يقينكم واعلموا أن المعونة تأتى على قدر النية والأجر على قدر الحسبة ، وأن المسلم لا ينبغى له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة الله » ، وكان خالد خلال تحركه اذا نزل منزلا اقتط أربعا من الجزور وأخذ ما فى أكراشها فيسقى الخيل ثم يشرب الناس واستطاع خالد أن يعبر الطريق بما فيه من مخاطر وعقبات .

وكذلك فعل المثنى .. وبينما هو يجتاز هذه المحنة جاءه فضل الله ومعونته اذ مرت به قافلة من أهل مدينة دبا [1] ، ومدينة حوران [2]

(١) دبا مدينة قديمة مشهورة بعمان وكان فيها سوق للعرب .

(٢) منطقة من أعمال دمشق ذات زرع كثير .

فأمر بمهاجمتها ، وأسر رجاله ثلاثة من بنى تغلب وقتلوا باقى أفراد القافلة ثم وضعوا أيديهم على ما فى القافلة من خير وطعام .

الاغارة على تغلب ..

لم تكد هذه المحنة تمر وتنقضى حتى تعرض المثنى لمحنة أخرى .. فقد ضل طريقه وكان الوقت ظهرا والحرارة على أشدها ، وكان لابد من تصرف سريع عاجل والا ضاعت الحملة كلها ، وتنبه المثنى الى وجود الأسرى معه فاتجه اليهم وطلب منهم أن يكونوا أدلاءه ، وأن يقودوا رجاله الى الطريق الصحيح ، ورأى منهم مكرا ودهاء فهددهم بالقتل ان لم يستجيبوا اليه ، فاستجاب اليه أحدهم وطلب منه أن يؤمنه على أهله وماله وقال له « أدلكم على حى من تغلب غدوت من عندهم اليوم » ، وأمنه المثنى وسار معه حتى وصل مع بداية الليل الى مواقع جلس فيها أصحابها مطمئنين ومن حولهم الماء والرواحل فأمر المثنى رجاله بالقيام بهجوم عاجل سريع عليهم وفوجىء القوم بالهجوم وسقط فى أيديهم ، ولم يعد أمامهم سوى التسليم وغنم المثنى منهم غنائم كثيرة .

تكريت ...

علم المثنى أن جماعة من تغلب تتجمع على دجلة مع قوم من تكريت ، فقرر القضاء عليهم . وأعد عدته وجهز قواته ، فجعل حذيفة ابن محصن على المقدمة ، والنعمان بن عوف ومطر الشيبانى على مجنبتيه ، وتقدمت قواته الى القوم وأدركتهم عند تكريت ، ورأى

المثنى أن يشارك جنده فى المعركة فأسرع يلحق بهم ووصلهم قبل الاشتباك وشاركهم فى القتال ، وبدأ معهم الهجوم فأصاب القوم ووضع أيديه على غنائم كثيرة حتى قيل ان الرجل الواحد أصاب خمسا من السبى وخمس المال .

وبعد أن انتهت هذه الغارة عاد المثنى بقواته الى الانبار .

نتائج هذه الغارات ...

كانت لهذه الغارات نتائج هامة بالنسبة للمسلمين وبالنسبة للفرس ، وأولى هذه النتائج أن المنطقة كلها قد أصبحت تحت سلطان المسلمين وفى أيديهم فقد اتسع نطاق الأرض التى يسيطر عليها المسلمون وأصبحت جموعهم قريبة من مواقع الفرس فى انتظار اللحظات الحاسمة التى سيتقرر فيها مصير الفرس والتى ستؤدى بحكمهم الى الزوال والانهيار .

وكان الفرس ينظرون الى هذا التوسع بخوف وقلق واضطراب ، فقد أحسوا بعد هزائمهم المتكررة بأن حياتهم قد قاربت النهاية وان سلطانهم فى طريقه الى الزوال وان النصر العربى يعلو يوما بعد يوم وان استقرار العرب فوق أرضهم قد أصبح أمرا منتهيا مؤكدا وان ما رآه القائد رستم من نهاية دولة الفرس قد أصبح وشيك الوقوع .

ولقد خيل للفرس أن هؤلاء الغزاة من العرب سيدخلون عليهم عاصمة بلادهم ويفضون كل حصونهم ومسالحهم ويخضعون أبناء كسرى لسلطانهم حتى أنهم صاروا يرددون « فما بعد بغداد وساباط وتكريت الا المدائن » .

ومن نتائج هذه الغارات أن المسلمين عاشوا هذه الفترة فى عمل متواصل دون ركود حتى لا يغرهم النصر الذى أحرزوه فيقعدوا عن طلبه ، وكان المثنى حكيما حين أراد أن يشغل جنده بهذه الغارات حتى يحين الوقت الذى يخوضون فيه المعارك الحاسمة ضد الفرس ، ولولا أن المثنى استطاع أن يقضى على اضطرابهم وقلقهم بعد الغارة على سوق بغداد لاستفحل الأمر ولاهتزت معنوياتهم ولأضعف ذلك روح القتال عندهم ، ولا شك فى أن هذه الغارات قد جددت عندهم الرغبة فى القتال كما أن انتصاراتهم المتكررة فى هذه الغارات قد أحيت عندهم الأمل فى القضاء نهائيا على دولة الفرس ، ولعل هذه الغارات تكون من العوامل الكبيرة التى سهلت أمر انتصارهم فى القادسية لأنها تكون قد حشدت عندهم الطاقات والامكانيات والدوافع والرغبة فى الحصول على النصر وتحقيق أهداف الخليفة فى أرض العراق .

ومن نتائج هذه الغارات أن المسلمين غنموا مغانم كثيرة خسرها الجانب الآخر ، فقد انتقلت ثروة فارس الى أيدى العرب ، وبعث القائد العربى الى المدينة بنصيب بيت المال من هذه المغانم حتى امتلأت بها جوانب المسجد واضطر الخليفة عمر الى اقامة حراسة عليها كلف بها اثنين من المسلمين الأشداء هما عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الأرقم .. فقد بعث المثنى الى المدينة بما لا يكاد يقع تحت حصر ، فلما وقع عليه نظر الخليفة رأى شيئا لم تر عيناه

مثله من الجواهر واللؤلؤ والذهب والفضة ما يقوم به أود المسلمين ، ويعين المعدمين منهم على أمور دينهم .

ولم ينس المثنى المقاتلين فمنحهم حقهم من المغانم عدا السبى والأنعام ، ونال كل منهم نصيبا عادلا كبيرا من الخز والحرير واللؤلؤ والذهب والفضة والجواهر .. ولقد قيل انهم فى سوق بغداد ملأوا أيديهم بالبيضاء والصفراء أى بالفضة والذهب .

وصور بشر بن أبى رهم الهجينى — وهو واحد من فرسان المثنى المشهورين — هذه المغانم فى قصيدة له بعث بها الى عمر بن الخطاب قال فيها (١) :

وعند أمير المؤمنين نوافل   وعند المثنى فضة وحرير

تولية يزدجرد ...

لم يلبث الفرس حين زال عنهم روع البويب ان عادوا يفكرون فيما يوشك أن يصير اليه أمرهم اذا ظلوا فيما هم فيه من فرقة وانقسام وقد جال بخاطرهم أن هؤلاء العرب الغازين سيدخلون عليهم عاصمة ملكهم وخاصة أنهم ما زالوا يطاردونهم

(١) قيل ان بشرا بعث بقصيدته الى عمر يشكو سعد ابن أبى وقاص ، لأن سعدا قسم الخراج فبقيت منه بقية فرقها على قراء القرآن ، وكانوا سبعه ثم كتب الى عمر أنهم صاروا سبعين فأمره عمر بأن يفرقها فى أهل البلاد والنكاية فى العدو ، فلم يدخل بشر ضمنهم فكتب الى الخليفة يعتب على سعد ويذكر حسن بلائه وما كان يحوزه مع المثنى ، فلما قرأ عمر القصيدة امر سعدا أن يلحقه فى أهل البلاد وأن يقدمه ففعل .

فى كل مكان ويترسمون آثارهم ، ويغيرون على أحيائهم ويهدمون حصونهم ويتوغلون فى بلادهم .

ورأى الفرس أن الأمر سيفلت من أيديهم ، وان مستقبلهم مهدد وان وجودهم فى خطر وان كيانهم يهتز اهتزازا عنيفا ينذر بقرب نهايتهم ولهذا قرروا أن تحشد قواتهم وأن تتحد كلمتهم حتى يستطيعوا مواجهة الأعداء وطردهم من أرضهم .

وقد كان الخلاف على أشده فى الفرس وانقسم الناس الى حزبين يتنازعان السلطان على رأس أحدهما رستم وعلى الآخر الفيرزان ، ومن وراء كل منهما توجد طائفة من المؤيدين تنافس الطائفة الأخرى .. وكان لابد من تصرف حاسم ينهى الخلاف ويوحد الكلمة ويعيد للصفوف نظامها فاجتمع أهل الفرس بالقائدين رستم والفيرزان ، وتحدثوا اليهما فى صراحة ووضوح « فما بعد بغداد وساباط وتكريت الا المدائن .. والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت ونشفين نفوسنا منكما » .. وتشاور الرجلان واستكتبا بوران كتابا الى نساء كسرى وسراريه ، فجاءوا بهن وعرفوا منهن أنه لم يبق ذكر من ذرية كسرى الا يزدجرد[1] بن شهريار بن كسرى وهو ابن احدى وعشرين سنة ، فاجتمعوا عليه وولوه القيادة وجعلوه على عرش أجداده وتساندوا فى معاونته ، وتبارى الرؤساء فى طاعته ومعونته ، واطمأنت فارس

---

(١) كانت أمه قد أخفته عند أخواله حين قتل شيرى جميع الذكور فى ذرية أبيه .

وأخذت تعد العدة للثأر لكرامتها وشرفها ، ولطرد المثنى الى أطراف الصحراء أو القائه فى الفرات .

خطة المثنى ...

لم تخف على المثنى مفاوضات الفرس فى ديوان ملكهم ومحاولتهم جمع الكلمة وحشد القوى لمنازلته .

ولم يخف عليه أيضا أن أهل السواد لن يلبثوا حين تسير جيوش الفرس اليه أن يثوروا عليه ويهاجموا قواته .

وجمع المثنى قادة جيشه واخوته ، وعرض عليهم الأمر وتداول معهم وتشاور وبدا لهم أن الجيش الاسلامى فى حاجة الى مدد سريع عاجل يستطيع به أن ينظم صفوفه وأن يواجه عدوه ...

واستقر الرأى على أمرين ...

الأول — مخاطبة الخليفة وعرض الأمر عليه فى صراحة ، وتوضيح الخطر المحدق بهم وما يتوقعونه من ثورة وطلب العون السريع العاجل .

الثانى — الانسحاب من مواقع المسلمين الى تخوم شبه الجزيرة ، وخاصة أن أهل السواد قد نقضوا ما بينهم وبين المسلمين وكفروا بالعهد .

وبعث المثنى بخطابه الى الخليفة عمر بن الخطاب .

ثم أمر قواته بالانسحاب ، فانسحبت الى ذى قار واحتلت موقعا يمتد من الجل (١) ، وشراف (٢) ، الى غضى (٣) ، وأعد

(١) موضع بالبادية على امتداد القادسية .
(٢) تقع جنوب الكوفة بثلاثة أميال (٣) جبل البصرة .

مسالح ونقطا عسكرية وأقام خطوطا للدفاع ، وتميز موقعه الجديد بأن المسالح كانت تنظر بعضها الى بعض وتعاون بعضها البعض .

جيش سعد ...

لما وصل كتاب المثنى الى عمر وعرف منه حقيقة الموقف قال « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب » ، وكتب الى المثنى يعلنه موافقته على الخروج الى تخوم العراق والتفرق فى المياه التى تلى العجم وطلب منه أن يستمد أهل النجدة حتى لا يبغته الفرس وهو فى غير عدد وعدة .

وأمر عمر بعد ذلك بتجهيز جيش يسير الى العراق ، وبعث الى عماله يقول « لا تدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى الا انتخبتموه ثم وجهتموه الىّ .. والعجل العجل » ، فلما اجتمع لديه بضعة آلاف من الجند خرج بهم حتى نزل على ماء يدعى صرار وعسكر به ، ثم رأى أن يسير هو على رأس الجيش ، الا أن أصحابه طلبوا أن يعين على الجيش رجلا من أصحاب رسول الله ، وأن يبقى هو فى المدينة وقالوا له « فان كان الذى يشتهى من الفتح فذلك ما يريد ويريدون والا ندب جندا آخر يغيظ به العدو حتى يجىء نصر الله » . وقال له عبد الرحمن ابن عوف « أقم وابعث جندا فقد رأيت قضاء الله لك فى جنودك قبل وبعد فانه ان يهزم جيشك فليس كهزيمتك وانك ان تقتل أو تهزم خشيت أن لا يكبر المسلمون ، والا يشهدوا أن لا اله الا الله أبدا » .

واستجاب عمر لدعوة أصحابه واستشارهم فى الرجل الذى يتولى قيادة الجيش فقالوا له « الأسد فى براثنه ! سعد بن مالك ابن وهب ! [1] ، وكان سعد فى نجد فاستدعاه عمر وولاه حرب العراق وأوصاه قائلا « يا سعد ، سعد بنى وهيب لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله فان الله عز وجل لا يمحو السيىء بالسيىء ، ولكنه يمحو السيىء بالحسن ! وليس بين الله وأحد نسب الا بطاعته فالناس شريفهم ووضيعهم فى دين الله سواء يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه وعليك بالصبر » .

---

(١) سعد بن أبى وقاص من بنى زهرة أخوال النبى ولد بمكه وعاش بهـــا وكان من أسبق قريش الِى الاسلام اذ أسلم وهو ابن سبع عشرة سنه وقال فى ذلك « رأيت فى المنام قبل أن أسلم بثلاث كأنى فى ظلمة بحر لا أبصر شيئا اذ أضاء لى قمر فاتبعتـــه فكأنى أنظر الى من سبقنى الى ذلك القمر فأنظر الى زيد بن حارثة والى على بن أبى طالب والى أبى بكر وكأنى أسألهم متى انتهيتم الى ها هنا ؟ قالوا الساعة !! وبلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الاسلام مستخفيا فلقيته فى شعب جياد وقد صلى العصر فأسلمت فما تقدمنى أحد الا هؤلاء » وقال أيضا « ما أســلم رجل قبلى الا رجــل أسلم فى اليوم الذى أســلمت فيه وقد أتى على يوم وانى لثلث الاسلام » ، وكان سعد ذا نعمة ومال يرتدى الخز ويلبس فى يده خاتما من ذهب ، وكان فارِسا شجاعا مقداما من الرماة شهد بدرا وأحدا والخندق والحـــديبية وخيبر وفتح مكة وهو الذى قضى على دولة الفرس فى القادسية والمدائن .

نهاية المثنى ...

كان المثنى مريضا طريح الفراش يشكو من اصابته فى واقعة الجسر واشتد عليه المرض وأحس بدنو منيته ، فاستخلف على الجند بشير بن الخصاصية ورحل الى قومه فى شراف حيث لم يطل مقامه فمات ، وصاحب أخوه المعنى امرأته سلمى وسار بها حتى أدرك سعدا بشراف وأبلغه وفاة المثنى ، وقص عليه نبأ قابوس وبنى بكر بن وائل ، وكان المثنى قد بعثه اليهم حين علم أن البلاط الفارسى يسعى سعيا متواصلا لاستمالتهم الى جانبه ليضرب بهم خصومه الفاتحين ، ثم قرأ عليه وصية المثنى وهى أن يلازم العرب مراكزهم على حدود الصحراء ، وأن لا يقاتلوا أعداءهم فى عقر دارهم وأن يقاتلوهم على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب ، وأدنى مدرة من أرض العجم ، فأمامهم البادية فانها تحميهم وتقى ظهورهم والفرس لا يستطيعون التوغل فيها كما أن البادية تمكنهم من أن يعودوا لمهاجمة خصمهم .

ولما سمع سعد وصية المثنى حزن لموته وترحم عليه وأوصى المعنى بأهل بيته خيرا ، ثم خطب لنفسه سلمى أرملة المثنى ، وتزوج وبنى بها ، وكان الغرض من هذا الزواج كما هى عادة العرب تكريم المتوفى وتكريم أرملته حتى تظل فى مثل عزها وكرامتها فى حياة زوجها الأول ، وقد عاشت سلمى مع سعد وهى تتذكر زوجها البطل المثنى ، وتعيش على ذكراه فى خلال معارك المسلمين ضد الفرس ، وكان لها فى موقعة القادسية دور سبق الاشارة اليه فى باب سابق .

الباب السادس

المثنى القائد

« ان الرجل الذى يتولى ادارة المعركة لابد له أن يكون ذا موهبة خاصة هى القدرة على القيادة » .

قامت الدولة الاسلامية أول ما قامت فى مكة والمدينة ، ثم فى أنحاء الجزيرة العربية ، وامتد ظلها بعد ذلك فى ربوع الأرض فشملت بلادا بعيدة ودولا عظيمة وامبراطوريات كانت قائمة ، ثم زالت وأصبحت تمثل جانبا فى الرقعة الاسلامية . وهذا التوسع الكبير الذى امتد من بلاد العراق شرقا الى المغرب الافريقى مهدت له دوافع وعوامل وأسباب ..

وتأتى فى المرتبة الأولى من هذه الدوافع والأسباب والعوامل المبادىء الانسانية العظيمة التى جاء بها الاسلام ودعا الى التمسك بها وجعلها أساسا لحياة الناس .. لقد ناقش الناس هذه المبادىء وأحسوا بضرورتها فى حياتهم ، فأقبلوا عليها وقد آمنوا بها وتجاوبت مشاعرهم واحساساتهم بها وتفاعلت عواطفهم معها واستجاب الناس فى جميع البلاد التى دخلت فى الاسلام والتى أصبحت ضمن حدود الدولة الاسلامية الى كل دعوة وجهت اليهم للايمان بالاسلام والدخول فيه ..

ولا شك فى أن العدالة والمساواة واقرار الحريات ورفض الظلم كانت من أهم هذه المبادىء .. فبلاد الفرس مثلا كان أهلها يعيشون فى حالة اجتماعية منفرة .. ضرائب كثيرة لا عدل فى توزيعها ولا رحمة فى جمعها .. ومظالم متعددة لا سبيل الى صدها .. وطبقات متفاوتة تستعبد بعضها البعض الآخر وتتميز عنها بميزات لا حدود لها .. وعاش الناس فى نفور من هذه الحياة

الاجتماعية ، وكانوا يتطلعون الى المستقبل ، آملين أن يحدث تغيير فى حياتهم .. وسمعوا بالاسلام وبمبادئه وبمثله وبعدالته فتفتحت قلوبهم وعقولهم وتنبهت مشاعرهم واحساساتهم وعاشوا ينتظرون رحمة الله فتأتيهم الدعوة من الجزيرة ليتخلصوا من حياتهم التى يعيشونها ويدخلوا فى الدين الجديد ينعمون فى ظله بالأمان والاطمئنان وهكذا كان الحال فى بلاد الشام حيث كانت تقوم دولة الروم . وهكذا كان الحال أيضا فى مصر وبلاد شمال أفريقيا ، واستجابت هذه البقاع كلها لمبادىء الاسلام الخالدة وآمنت بها ، وكانت هذه الاستجابة من العوامل الكبيرة التى ساعدت على الفتوح الاسلامية لأن هذه الاستجابة زلزلت كيان الجبهة الداخلية للأعداء .

وكان فى مقدمة هذه العوامل الدور الكبير الذى قام به الخليفتان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما ... فعندما تولى أبو بكر الخلافة واجه مشكلة خطيرة الا وهى الفتنة التى تعرض لها الاسلام بعد وفاة الرسول حين ارتد كثير من المسلمين عن الاسلام ويشهد التاريخ أن بقاء كيان الدولة الاسلامية سليما متماسكا فى هذه الفترة يرجع الى جهد أبى بكر وصدق عزيمته ... ثم رأى أبو بكر أن يشغل المسلمين عن العودة الى اثارة القلاقل فى داخل الجزيرة فوجههم الى بلاد الشام ، ثم استجاب لدعوة المثنى فوجه جيوشه الى بلاد العراق .

ولا ينكر فضل الخليفة عمر بن الخطاب ، فقد مات أبو بكر خلال المعارك الكبيرة فى أرض الشام وتولى هو أمر المسلمين ،

وألقيت على عاتقه مسئولية العمل من أجل الحفاظ على المكاسب الكبيرة التى أحرزها الاسلام . وأدى عمر واجبه وقام بالمسئولية خير قيـــام واليه يرجع الفضل كل الفضـــل فى امداد الجيوش الاسلامية بالمدد والعتاد كلما تطلب الأمر امدادهم مما جعل هذه الجيوش على استعداد تام وقدرات متواصلة وامكانيات وطاقات تمكنها من أن تحقق رسالة الاسلام .

وسجلت — القيادات الناجحة — التى أسندت اليها عمليات الفتح والتى قدمت مثلا عظيما فى فن القيادة وفى فن الحرب والقتال ورسمت الخطوط العريضة لنظم الحرب وتكتيكاتها ، ووضعت رغم بداءة السلاح وبداءة الفن الحـــربى مخططات المعركة — صفحات مشرقة فى التاريخ الحربى رغم أن كثيرا من الكتاب والمؤرخين تناسوها تحت ظروف متعمدة بقصد انزال الستار عن ناحية هامة فى حياة المسلمين ولا يختلف اثنان فى أن الرســـول الكريم كان نبراسا لقادة الاسلام فوضع لهم الأسس ، ورسم لهم الوسائل وحدد لهم الطرق فساروا على الدرب وتفننوا فى فن القتال حتى بزغت أسماؤهم وعظمت سيرتهم واحتلوا مكانا مرموقا فى التاريخ .. فالمتتبع لحياتهم فى المعركة يرى فى وضوح ويلمس فى جلاء مقدرتهم وفنهم وعبقريتهم حتى أنهم أصبحوا يمثلون مدرسة عسكرية قائمة بذاتهـــا ، وحتى أن كثيرا من المدارس العسكرية المتقدمة أخذت عنهم فن الحرب وأسسه ونظمه ووسائله والتاريخ الحربى يؤكد هذه الحقيقة التى حاول أعداء الاسلام وأعداء العروبة طمسها واخفاءها رغبة فى القاء الضوء على كفاءات

العروبة طمسها واخفاءها رغبة فى القاء الضوء على كفاءات ظهرت بينهم فأرادوا أن يجعلوها نبراسا للعسكريين وأن يرجعوا الفضل فى تطوير نظم الحرب اليهم دون أصحابه الحقيقيين . والحديث عن القيادات الناجحة فى الاسلام يحتاج الى مؤلفات كثيرة وقد تناولها كثيرون فى مؤلفاتهم كما تناولناها فى بعض مؤلفاتنا بالشرح والتفصيل .

والمثنى بن حارثة الشيبانى واحد من القادة العرب العسكريين كانت له جولات واسعة المدى فى مجال الحرب والقتال ، وكان له باع طويل فى المجال العسكرى ، وكتب لنفسه صفحات خالدة وسجل مواقف بطولية ، واستطاع أن يرقى سلم المجد الحربى فى سنوات قليلة وأن يحتل مكان الصدارة بين القادة العسكريين ، وأن يبرز اسمه كمحارب فذ وكقائد كفء فى الميدان وأن يحرز انتصارات تاريخية برغم أنه كان يقابل بجيوش قليلة العدد والعدة جيوشا تفوقها فى الأفراد والسلاح تقف من ورائها أمم ذات مجد وحضارة وقدرات .

لقد قال مارشال فوش « ان الجيش الذى يريد أن يفوز بالنصر لابد أن تتوفر لديه عوامل من الدرجة الأولى أهمها عامل القيادة » و « وان الرجل الذى يتولى ادارة المعركة لابد أن يكون ذا موهبة خاصة هى القدرة على القيادة » والمثنى حين وصل الى مرتبة القيادة العظيمة لم يكن قد ولد قائدا ، وانما هيأته الظروف المحيطة به ، وساعدته ، وأثارت صفات القيادة الكامنة فى نفسه فصار عظيما لقد أتقن المثنى مهنته اتقانا تاما ، اذ أنه تعلم فن

الحرب من البيئة التى عاش فيها ، وشهد وهو حــدث قصص الحروب التى خاضها أهله وعشيرته وقومه ، وسمع عن القتال العنيف الذى كانت قبيلته طرفا فيه ، وهكذا نشأ مشبعا بفكرة الحرب مشدودا الى الميدان بعقله ، وفكره وأعصابه حتى اذا ما دخل المعارك وخاض غمارها استطاع أن يثبت وجوده وأن يؤكد عبقريته وأن يقفز باســمه الى مكانة سامية بين القــادة أجمعين .

ونحن فى حديثنا القــادم سنتناول المثنى القائد بالحديث من زاويتين ..

الأولى — فن القيادة ومميزاتها وسماتها وشخصية القائد .

الثانية — مبادىء الحرب وأصولها فى حروب المثنى .

المثنى وفن القيادة

المثنى والقيادة ..

ان الفن الحربى مع تطوره وتطور الأسلحة وتطور وسائل القتال يرتبط ارتباطا وثيقا بالقائد الذى يتولى قيادة الجيش .. والقيادة الناجحة لا غنى عنها فى أى حرب ناجحة فهى من عوامل الدرجة الأولى التى يرجع اليها النصر فى أية معركة .

والقيادة فن لا يمكن مشاهدته ولكن يمكن التعرف عليه بآثاره ونتائجه ، وأن تعبئة آلاف الجنود ليست بالمهمة الرئيسية فى تجهيز الجيوش ، ولكن المهم هو وجود القائد الكفء فعلى قدر كفاءته تكون كفاءة رجاله .. وتاريخ الحروب يؤكد أن القائد الجيد هو الذى يحرز النصر .. والمقصود بجودة القائد وبكفاءته ما تكون عليه روحه ومشاعره وتجاربه وصلاته بالجند وكيفما يكون القائد تكون جنوده ، فان القوات تتأثر الى حد كبير بالقائد وبسلوكه وبالمثل التى يقدمها لهم ... ولقد تولى المثنى ابن حارثة قيادة الجيش العربى الاسلامى فى حربه ضد بلاد الفرس وكان أول قائد عربى يتجه الى هذه البلاد ويوجه نظر الخليفة أبى بكر اليها ، ثم يمهد أمامه سبل ارسال الجيوش حتى اذا ما قضى أبو بكر اتجه بآماله ورغباته الى الخليفة عمر ، وظل يحبب اليه مهمة اتمام الغزو فاستجاب له وتم فى عهده غزو العراق .

ولقد نجح المثنى كقــائد واستطاع أن يحتــل مكانة مرموقة بين القادة ومرد ذلك أنه كانت تتوافر لديه صفات القيادة ومواهب القائد وعناصر الشخصية ... ونحن من دراستنا للصفات والمواهب التى تميز بها العسكريون فى مختلف العصور نجد أن هناك شبه اجماع على صفات معينة لابد أن تتوافر فى القائد .. منها الايمان والثقة والارادة والمثابرة والاهتمام بالجند ومواجهة الحقــائق والقدرة والشخصية والشجاعة والارادة الصحيحة وسعة الحيلة وانكار الذات وبعد النظر ، ولقد أجمع الرواة وكذلك المؤرخون على أن المثنى كان شجاعا مقداما يتصف بما اجتمع عليه الرأى ، وان المعارك الدموية التى خاضها وقذف بنفسه فى أوارها ونتائج تلك المعارك الفاصلة وما صارت اليه من النصر الحاسم لتؤيد أقوالهم وتؤكد صدقها .

ومن ألزم ما يجب توافــره لدى القــائد الشخصية القوية وليس من السهل تعريفها تعريفا علميا كاملا فالبعض يقول انها مجموعة صفات جسمية وعقلية وخلقية يتصف بها الانسان ... والشخصية هى صــفة نسبية وقوى متنوعة تختلف فى نوعها وقدرتها باختلاف الأشخاص ولا تعرف الا بآثارها ومظاهــرها وللشخصية مظاهر متعددة مثل .. الخلق والثقة بالنفس والاعتماد عليها وقوة الارادة والتصميم والقدرة والجاذبية ، ونحن حين ندرس شخصية المثنى نجد أن عناصر الشخصية قد توافرت عنده وتعددت حتى جعلت منه قائدا يتميز عن غيره من القادة بالشخصية القيادية القوية .

هذا فوق أن القادة العظماء الذين خلدهم التاريخ لم يولدوا كذلك ولكنهم خلقوا هـذه العظمة ، لأنهم اكتسبوا مهنتهم وأتقنوها ، ولا يستطيع فرد أن ينكر أن البيئة التى نشأ فيها المثنى كانت ذات أثر كبير عليه ، مما أدى الى ابراز صفات القيادة ومواهبها .. فهو قد شب بين بنى شيبان وهؤلاء كانوا بين العرب مثلا فى القوة والعزة والأنفة والاباء والشمم فغرسوا فى نفس ابنهم التصلب بالعقيدة والجود بالنفس والصدق فى العزيمة ، والتفنن فى ضروب الفروسية والاستماتة فى الحرب ، والفراسة فى تعبئة الجيوش... وهذه البيئة التىعاش فيها المثنى خاضت غمار معارك كثيرة شهدها وعاشها فأكسبته الكفاءة والمقدرة والخبرة بأساليب الحرب ودراسة النفسيات العسكرية مما دفعه الى أن يرمى بسهم المسلمين مملكة الأكاسرة ويقاتل الفرس ويثبت دعائم الاسلام فى ربوع السواد والعراق .

اذن ما هى الصفات والمواهب ومظاهر الشخصية التى جعلت من المثنى قائدا ممتازا له فى تاريخ الحروب سجل مشرف مشرق .

ان الباحث عن سر النجاح الكبير الذى أحرزه المثنى يجد أنه يكمن فى مدى **ايمانه العميق** ، فمما لا شك فيه أن قوة الايمان هى التى تدفع الى النصر والمتتبع لتاريخ الحروب يلمس أن النصر كان حليف من هم أقوى ايمانا وأثبت عقيدة .

ولقد دخل الايمان قلب المثنى وملأ نفسه منذ سمع بدعوة الرسول الكريم حين خرج ومعه على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق ليعرض بنفسه على قبائل العرب دعوته ، فقد نزل الرسول

وصـــاحباه بمجلس عليه السكينة والوقار يضم كبـــار رجال بنى شيبان ومن بينهم المثنى بن حارثة وتحدث اليهم الرســـول الكريم فقال « أدعوكم الى شهادة أن لا اله الا الله ، وحـــده لا شريك له وأنى رسول الله ، وأن تؤوونى وتنصرونى حتى أؤدى عن الله الذى أمرنى به ، فان قريشا قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغنى الحميد » ، واستمع القوم الى الرسول الكريم وهو يتلو بعض آيات القرآن واستمع اليها معهم المثنى وتجاوبت نفسه مع الدين الجديد وتفهم فى عمق رسالته ، ووقع القرآن فى نفسه موقعا حسنا ، ووجـــد أن كلمة الحق تدوى فى أرجائه ، فاتجه بجـــوارحه ومشاعره وأحاسيسه الى الرسول تلتقط أذناه كل كلمة حتى اذا ما انتهى الرسول من عرضه قال له المثنى « قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا آخا قريش وأعجبنى ما تكلمت به » . وتمر الأيام واذا بالمثنى يجد دين محمد فى اتساع ورجاله فى كثرة وقريش والقبائل الأخرى تنهزم أمامه مرة وراء الأخرى وتعجز عن صـــد الدين الجديد فيقع الاسلام فى قلبه ويستجيب له ويؤمن به ايمانا عميقا يمنعه حين يرتد قومه من أن يرتد وانما يظل على دينه وينضم الى جيوش المسلمين التى جاءت تحارب المرتدين فى البحـــرين بقيادة العلاء بن الحضرمى ويعاونه معاونة صادقة فى القضاء على المرتدين ثم لا يقف عند هذه الحدود وانما يسير على رأس جيش ينشره على طول ساحل البحر ويتلقى المنهزمين ويصدهم ويفتك بهم حتى تمتد انتصاراته على طول خليج البصرة حتى هجروا

الأراضى الشمالية والقطيف وحتى تبــلغ قواته دلتا الفرات . وهكذا دفعه الايمان القوى الذى كان راسخا فى صدره الى اعلاء كلمة الله وانتصار الشريعة السمحاء، كما دفع بتفكيره ناحية أرض السواد فتقدم اليها مغيرا عليها يعرض الاسلام على أهلها ويحطم قواعد العرش الفارسى ويهد ملكهم ويزلزل كيانهم ويقضى عليهم.. والايمان هو الذى جعله يلقى الرعب فى قلوب أهل السواد فتنهار معنوياتهم وتضعف قواهم ويستسلمون حين يشتد اللقاء ويعنف القتال وهو الذى جعله ينتقل الى الخليفة فى المدينة يعرض عليه صورة لوقائعه ويرغبه فى غزو العراق ويهون عليه أمرها ويغريه ببلاد الفرس ، فلما استجاب له وسير اليه خالد بن الوليد رضخ تحت تأثير ايمانه لأوامر أبى بكر فعمل تحت امرة خالد — وقد كان قائدا للجيش قبل مجيئه — كجندى بسيط متواضع وهو الذى جعله يواجه جيوش هرمز فى قوة وصبر بقواته الضئيلة بعد أن خاطب كسرى بقوله « انما أنت أحد رجلين ، اما باغ فذلك شر لك وخير لنا واما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند الله وفى الناس الملوك » . وهو الذى جعل يقاتل جيشا يفوقه عددا وعدة فى بابل وفى غيرها من المعارك فينتصر انتصارا ساحا وينقل آية المجد من أبطال الفيل الى أبطال الخيل والجمال . وهو الذى جعله يتجه الى عمر بن الخطاب يطلب منه أن يتمم رسالة أبى بكر ويخاطب الناس الذين كانوا يخشون الخروج الى العراق « لقد

تبجبجنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها ما شاء الله ما بعدها » .

وهو الذى جعله يرضـــخ مرة أخرى لرغبة الخليفة فيعتزل القيادة ويعمل جنديا بسيطا متواضعا تحت امرة أبى عبيد ولولا وفاته لرضخ تحت تأثير ايمانه لامرة ســعد بن أبى وقاص دون أن يكون لذلك أدنى أثر فى نفسه فهو قد وهب نفسه وحيـاته للجهـاد فى سبيل الله تحت تأثير ايمانه العميق بالدين الجديد هذا الايمان الذى ذهب به فى التضحية والايثار مذهبا لم تعرفه الحياة لغيره من الأبطال والذى سما به عن الحياة فما كان يكترث لشىء فيها أو ييأس على فائت منها . وهو الذى جعله يعيش حياته متجها الى الله يستمد منه العون والقوة فى جميع مواقعه ومعاركه وغاراته وكان مبدؤه الذى عاش عليه حياته هو تلك الكلمات التى قالها لجنده فى مناسبات مختلفة « ثقوا بالله وأحسنوا به الظن » و « عاداتكم فى أمثالكم انصروا الله ينصركم » و « يا أيها الناس احمــدوا الله وتناجوا بالبر والتقوى ولا تناجوا بالاثم والعدوان » .

أن الثقة بالنفس والاعتماد عليها من أهــم عناصر تكوين شخصية القائد ، فمتى وجدت الثقة بالنفس أصبح من الســهل الاعتماد عليها فى كل عمل ممكن والثقة تتولد نتيجة للعلم والمعرفة والمقدرة . والمثنى بن حارثة حين فكر فى القيام بغاراته المتعددة على بلاد السواد كان واثقا بنفسه مقتنعا بأنه سوف ينتصر فى هذه العمليات التى حمل نفسه عبء القيام بها ، ولعل ثقته جاءت

تتيجة للدراسات الكبيرة المتعددة التى قام بها عن أهل السواد وأحوالهم وعرف منها أنهم يعيشون حياة اجتماعية منحلة منفرة ، وأنهم يسعون الى حياة أفضل من تلك التى يعيشونها . لقد درس المثنى حياة أهل السواد دراسة عميقة مستندا فى ذلك على الخبرة الشخصية الصحيحة .

وثمة سبب آخر دفع بالثقة الى نفس المثنى فهو قد سمع بما وعد الله به المؤمنين على يد رسوله الأعظم حين صرح لهم صلوات الله عليه فى غزوة بدر بأن لاحت له أنوار قصور الحيرة ومدائن كسرى وقصور الروم بشارة له من الله بأنها ستفتح على يد أصحابه وستأخذ بهدايته .

ولا شك فى أن ثقة المثنى بنفسه هى التى جعلته يتجه الى أبى بكر يدعوه الى غزو العراق والى امداده بالجند حتى يستطيع أن يواجه الفرس وأن يقضى عليهم ، ثم هى التى جعلته يواصل السعى لدى عمر حتى أقنعه بارسال أبى عبيد الى العراق ليتمم الرسالة التى بدأت فى عهد أبى بكر ، ثم هى التى جعلته يسعى من جديد لاقناع عمر بارسال جيش لمواجهة الفرس بعد أن تجمعت كلمتهم واتحدت طوائفهم وذهب خلافهم واتفقوا على محاربة المسلمين والقضاء عليهم وطردهم خارج ديارهم أو اغراقهم فى الفرات .

ومما لا يختلف فيه اثنان ان الناس يثقون بمن يثق فى نفسه ، ولهذا كان واضحا أن جند المثنى قد وضعوا ثقتهم الكبيرة به ، وليس أدل على صحة ذلك من أنهم حاربوا معه وبجانبه ولازموه

فى معاركه المختلفة وغاراته المتعددة وشـاركوه متاعب المعركة وجهدها وقاسموه حلوها ومرها .

ان قوة الارادة من العوامل الهامة للنصر فى المعركة .. فالقائد صاحب الارادة القوية هو الذى يستطيع أن يسيّر أمور المعركة ويحركها حسب رغبته وهو الذى يستطيع أن يخوض المعـركة بثقة وأمل وعـزم وتصميم ، وهو الذى يستطيع أن يخرج منها منتصرا قويا .

والمثنى كان كما يبـدو من تاريخه قوى الارادة وحيـاته العسكرية كلها أدلة واضحة على قوة ارادته ، فهو حين درس أحوال العـرب الذين كانوا يقيمون بالسـواد على حـدود بلاد الفرس وحين أحس أنهم يعيشون حيـاة مذلة وهوان رأى أن يحارب الفرس وأن ينقـذ هؤلاء مما هم فيه فشن غاراته المتعددة على دهشتا باذ أردشير والأبلة والحيرة ، وألقى الرعب فى قلوب ساكنيها وشجع القبائل العربية على النفور والتمرد وحمل السلاح ضد الفرس . والمثنى حين استمر فى هجومه على أرض السواد ومواجهته للأعداء فى المواقع المختلفة المتوالية كان يؤكد قوة ارادته وتصميمه القاطع على الوصـول الى هدفه وتحقيق ما يجيش فى صدره من آمال وأحلام ... والمثنى حين تناسى اصابته البالغة فى موقعة الجسر وظل يقاتل ويؤدى دوره فى المعركة انما كان يقدم المثل والدليل على قوة ارادته وعلى رغبته وتصميمه على الاستمرار فى المعركة رغم كل الظروف حتى الحصول على النصر .

ومما لا يختلف فيه اثنان أن الجند دائما ينظرون الى القائد

ويتمثلون به ويعملون كما يعمل ويعيشون حياتهم كما يعيش ، فهو مثلهم ورائدهم فى كل حركة وفى كل عمـل وفى كل تصرف ، والجنود عادة يصوغون أنفسهم فى القالب الذى يصـوغه لهم القائد اذا نال هذا القائد احترامهم وتقديرهم ... والمثنى كان دون شك قدوة طيبة لجنـده بدليل أنهم قدروا فيه رجولته وخلقه وشخصيته ومظهره ومقدرته ، وبدليل أنهم كانوا فخورين به الى حد الزهو لأنهم شاطروه مجده فى ميادين القتال وقاسموه انتصاراته وحملوا معه عبء الهزيمة حين هزم المسلمون فى موقعة الجسر . وكان المثنى لا يكتفى بوضع الخطط وانما كان يشارك فى تنفيذها شأنه فى ذلك شأن أقل جندى ، فما من معركة خاضها رجاله الا وكان هو فى المقدمة وعلى رأس الجيش .. انه حين بعث فرات بن حيان وعتبة بن النهاس للاغارة على أحياء تغلب والنمر بصفين ، لم يهدأ بالا لأنه لم يشترك معهما فى الاغارة ، ولم يلبث أن امتطى صهوة فرسه ولحق بهما بعد أن خلف على الناس عمر بن أبى سلمى الهجينى وكان المثنى اذا ما وضع يده على المغانم والمكاسب يقوم بتوزيع نصيب الجند عليهم لا يحتفظ لنفسه بشىء ولا يحرم جنده من حقهم فيها وكان كأى قائد ناجح يقدر رجاله ويعطيهم حقهم ويمنحهم الفرصة لاظهار مواهبهم فهو حين كلف بمطاردة هرمز اعترض طريقه حصن المرأة ورأى أن الاستيلاء على هذا الحصن قد يعطله عن هدفه الرئيسى بعض الوقت ، فأسند أمر حصار الحصن الى أخيه المعنى وتقدم هو الى هدفه .. وهو حين أراد أن يخرج الى المدينة لمقابلة أبى بكر خلف

على الجند بشير بن الخصاصية وهو كذلك فى موقعة البويب يستعين ببشر بن أبى رهم والنسير ومذعور ، وهو حين أحس بدنو أجله ترك مقاليد الأمور فى الجيش لبشير بن الخصاصية ليتولى شئون الجيش حتى يصل القائد الجديد سعد ابن أبى وقاص . ولم يكن المثنى ليحجم فى الوقت الذى يكون فيه التقدم واجبا ، فهو مثلا فى بابل حين وجد صفوف جنده تضطرب وتختل نتيجة لوجود فيل كبير فى جيش عدوه قرر قتل هذا الفيل ، ولكن من الذى يجسر على مواجهة هذا الحيوان الضخم الذى يثير منظره الرعب فى نفوس العرب .. وكيف يمكن قتل هذا الحيوان وتخليص العرب من شروره ؟ ، ان المثنى أحس بالمهمة الخطيرة فأبى أن يسندها الى واحد من رجاله ، وقرر أن يقوم هو بها ليكون قدوة ومثلا فى الاقدام والشجاعة فتقدم نحو الفيل وأخذ يحاوره وهو ينهال عليه طعنا بالرمح حتى أصابه فى مقتل ، وأنقذ المسلمين من عدو كان يفرق جموعهم ويشتت صفوفهم . وتظهر قدوة المثنى مرة أخرى فى موقعة الجسر حين رأى ما عليه المسلمون من غم وهم بسبب قطع الجسر فأسرع الى عروة بن مسعود يأمره بأن يشد الجسر ، وأن يمنع ما بينه وما بين العجم ، ثم تولى هو مهمة مهاجمة الفرس ومعه جماعة من الفرسان ، وكان يصيح فى الناس « يا معشر العرب أنا دونكم فاعبروا على هيئتكم ولا تفرقوا أنفسكم » . كما أثبت المثنى أنه قدوة طيبة فى تنفيذ الأوامر والسمع والطاعة حين جاءه وهو القائد المنتصر أمر الخليفة بأن يترك مقاليد القيادة لأبى عبيد فقبل ونفذه

دون ضيق أو تبرم أو ملل ، فهو يعرف أنه جنــدى يؤدى رسالة ألقيت على عاتقه وعلى عاتق زملائه المسلمين ، وأنه يجب أن يقوم كل فرد بواجبه سواء كان فى مرتبة القيادة أو فى صفوف الجند .

وكان المثنى يتميز بصفة انسانية كبيرة فقد كان يعمل فى صمت ايمانا منه بأن العمل فى صمت هو سبيل النجاح ، ومن هنا ظهرت حقيقته للناس فقدروا كفاءته واعترفوا بشخصيته ومقدرته ..

فالمثنى الذى انتصر فى جميع معاركه لم تمتلىء نفسه بالغرور، ولم يتظاهر بالتكلف أو التصنع ولم يتعال على جنده ، وانما عاش معهم كواحد منهم حتى أحس جنده بأنه رجل صادق الحس حسن البصيرة جيد التقدير يحكم على الأمور بفهم لا يأخذ بالمظاهر والقشور يضبط نفسه ولا تثيره الصغائر ولا تفقــده الكبائر الصواب .

كان المثنى محرر النفس من **التعاظم والكبرياء والغطرسة والمظاهر الكاذبة** وكان يبدو أمام الناس على حقيقته فلا يلبس غير ثوبه ولا يبدو فى مظهر ليس له ، ولا يدعى القول ولا يعطى لنفسه من التصوير ما لا يستحق . ولعل أعظم دليل وأسطع برهان على تواضعه ما حدث بعد انتصاره العظيم فى موقعة البويب ، اذ اجتمع مع جنده يتجاذبون الحديث ويتسامرون وهم مغتبطون بالانتصار ، وتذكر المثنى وهو فى جلسته هذه بعض الجنــد المسلمين الذين قتلوا عنــد الجسر حين قطعه ليمنع الفرس من اجتياز النهر فاستماتوا وقتــلوا كثيرا من المسلمين فقال المثنى

لرجاله « لقد عجزت عجزه » ، ثم يقول « فانى غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بى فانها كانت منى زلة » .. قائد يعترف لجنـــده فى مثل هذه الصراحة بأنه قد أخطأ ، ثم يدعوهم الى عدم الاقتداء به ، ثم يعدهم ألا يعود الى هذا الخطأ مرة أخرى .. ان هذا القائد بهذا التصرف يؤكد تواضعه ومعرفته قدر نفسه ، ووصوله الى مرتبة من التواضع لا يدانيه فيها أحد .. انه قد ندم على ما فعل ثم جمع جنده ولم يخجل من أن يتحدث أمامهم عن خطئه وأن يوضحه لهم حتى يستفيدوا منه فلا يقعوا هم فيه .

وانظر الى تواضعه الذى تتجلى فيه روح المساواة بأجـلى مظاهرها فهو فى موقعة البويب يمر بين الصفوف يحادث جنده ويشجعهم ويحثهم على القتال ويقول لكل منهم « والله ما يسرنى اليوم لنفسى شىء الا وهو يسرنى لعامتكم » .

اتفق القادة على أن أية معركة تستلزم من القائد قبـــل أن يخوضها تقدير موقفه وموقف أعدائه ، بناء على هـــذا التقدير يضع الخطة التى يواجه بها عدوه وتقدير الموقف من العمليات الشاقة التى تحتاج الى جهد ووضوح ومقدرة وفهم ، والقـــائد الكفء هو الذى يستطيع أن يقدر الموقف تقديرا صائبا سليما . ولقد تميز المثنى القائد بحسن تقديره للموقف تقديرا يؤهله لأن يدخل المعركة مطمئنا الى نتيجتها .. فهو فى بابل يرى أن وجود الفيل خطر على قواته ، وفى موقعة الجسر وجد أن قطع الجسر مضيعة لجنده ، فيقدر الموقف بسرعة ويقرر قتل الفيل لأن فى قتله

رفعا لمعنويات جنده ويقرر شد الجسر لأن فى شـــده اســعافا للمسلمين المتقهقرين .

كما أنه حين وصلته الأخبار عن الفرس بعد موقعة النمارق ، ويعلم أن القائد نرسى موجود بقواته فى كسكر فى انتظار وصول المدد اليه بقيادة الجالينوس فيقــدر الموقف بسرعة ويرى أنه يجب الاسراع بمقابلة نرسى ومقاتلته والقضاء عليه قبل أن تصله الامدادات فتزيد من قوته وتقوى جبهته فتصمد أمام المسلمين وتحتاج الى جهد أكبر للقضاء عليها ويشير بذلك على أبى عبيد قائد الجيش .. وبهذا التقدير الصائب للموقف انتصر المسلمون فى السقاطية ثم فى باروسما .

وفى موقعة الجسر ثبت أن المثنى استطاع أن يقدر الموقف تقديرا صائبا سليما حينما عرض الفرس على أبى عبيد أن يعبروا اليه النهر أو يدعهم يعبرون اليه ، فقد كان المثنى يرى أن يعبر الفرس النهر دون العرب وعرض هذا الرأى على أبى عبيد فضرب به عرض الحائط ، وصمم على أن يعبر المسلمون وأمر جنــده بالعبور فترتب على ذلك أن حلت بالمسلمين مصيبة كبيرة وهزيمة مروعة ونهاية مرة لما كان يخفيه الفــرس من المكيدة والغــدر للمسلمين اذ هاجموهم خلال عبورهم النهر وأوقعوا بهم الهزيمة وأصابوهم اصابات عنيفة .

ولقد ترك المثنى عندما أحس بدنو أجله رسالته لسعد ابن أبى وقاص تؤكد فراسته وصدقه وحسن تقديره للموقف فهو يدعو سعدا الى أن يلازم بجنده مراكزهم على حدود الصحراء حتى

تحمى الصحراء ظهورهم فى حالة انتصار العدو عليهم ولتكون لهم قاعدة يهاجمون منها عدوهم اذا هزم أمامهم والمثنى وهو يترك هذه الوصية يعرف تماما أن الفرس لا يجيدون حرب الصحراء ، كما أن العرب لا يجيدون القتال فى داخل المدن وهو بذلك يهيىء للعرب الميدان المناسب للمعركة حيث تستطيع طبيعتهم أن تنتصر.

كان المثنى من القادة العظماء الذين انقطع نظيرهم ، وقد تفرد بخلال لم تتوفر فىغيره .. كالمقدرة .. والكفاءة .. والخبرة بأساليب الحرب ، ومن أهم ما يتميز به الاقدام .. وقد دفعه الاقدام الى أن يوسع نطاق الفتح وأن يستثمر الفوز بدحر الأعداء ، ويرمى بسهم المسلمين مملكة الأكاسرة ويقضى على هذا الملك الطويل العريض ، وما زال المثنى يقاتل الفرس ويستخضع الخارجين من أهل العراق ويثبت دعائم الاسلام حتى أصبحت بلاد الفرس جزءا من الأمة العربية تمثل قطاعا هاما من قطاعاتها .

ومن عجب أنه لم يخض غمار الحرب ليبلغ وطرا أو يقضى لبانة فى نفسه فقد كان همه الأول بل الأكبر نصرة المسلمين واعلاء كلمة العرب ، وان حياته الطويلة فى ميدان الحرب منذ بدأ غاراته الى أن استعان بالخليفة أبى بكر ثم بالخليفة عمر الى أن انتقل الى جوار ربه تؤكد اقدامه الذى فاق به أقرانه فمنذ أحس بواجبه ناحية الاسلام وهو يجاهد فى سبيله حتى أصيب فى الجسر اصابة كانت السبب المباشر فى موته .

ولا يفوتنا أن نذكر أن المثنى كان قائدا قوميا يؤمن بقوميته

ويتفانى فى سبيلها ، فقضى حياته مجاهدا فى سبيل نصرة العرب منكرا ذاته من أجل مصالح قومه . وكانت قوميته من أكبر معنوياته فهى التى مهدت له سبيل الحصول على الزعامة بين قومه فغدا زعيما عظيما احتل مكانة مرموقة فى تاريخ العرب . وهى التى دعت كثيرا من القبائل النصرانية التى يجرى فى عروقها الدم العربى لتنضم اليه وتحتمل الأخطار وتحارب تحت لوائه وتلقى الموت تحت رايته فداء لقوميتهم التى كانت تغلى مراجلها فى صدر المثنى ... ففى موقعة الجسر مثلا انضم حرصلة بن المنذر الطائى المكنى بأبى زيد الشاعر النصرانى الى قوات المسلمين ليحارب معهم الفرس أعداء العرب وقد عز عليه أن ينخذل قومه وينتصر عليهم من يختلفون عنهم لغة وتاريخا وقومية ومسكنا ودما .

والمثنى بدافع من قوميته خاطب أنس بن هلال النمرى « يا أنس انك امرؤ عربى ، وان لم تكن على ديننا فاذا رأيتنى قد حملت على مهران فاحمل معى » . وخاطب أيضا ابن مردى الفهر ونصارى بنى تغلب ليجمع القومية العربية جميعا ضد أعدائها الفرس .. واستطاع هؤلاء الذين جمعهم المثنى تحت راية القومية العربية أن يحرزوا نصرا عظيما فى البويب فأزالوا من الأذهان الهزيمة المرة التى منى بها العرب فى الجسر .

وفوق ذلك كله عرف عن المثنى أنه كان ذا همة قعساء ، **وعزيمة ماضية .. وارادة صلبة .. ونشاط مستمر .. ورباطة جأش .. وثبات قلب .. وبعد نظر وأنه كان يقظا .. حسن المظهر .. شجاعا .. حازما غيورا على عمله .. قوى التأثير فى جنده ..**

مرحا .. نزيها حكيما .. عادلا .. منكرا لذاته .. انه كان علـى درجة من **الذكاء** تمكنه من أن يتغلب على ما يواجهه من مشكلاته كتلك المشكلات التى اعترضته حين كان يغير على سوق بغداد وصفين . وانه كان يؤمن **بالولاء** .. وكان يشارك جنده مشاعرهم وأحاسيسهم .. وأفراحهم وأتراحهـم .. وكان يتجنب العنـاية بمصالحه وراحته على حساب الآخرين .. وكان يثير الحماس فى نفوس جنده ويدفعهم الى التعلق بالنصر مهما كانت ظـروف المعركة .. وانه كان **متفائلا** يفكر فى النجاح لا فى الفشل .. ينظر الى الأشياء بعين الأمل لا بعين اليأس والقنوط يفكر فى النصر دون الهزيمة وفى المبادأة بالهجوم دون الدفاع كما أن عاطفته لم تؤثر فى تصرفاته أو أفعاله وانما كان يزن الأمور ويقدر الأشياء ويؤمن بالعـدل والمساواة ولم يفقد سيطرته عـلى مشاعره وعواطفه ولم يأخذ الأمور بالمظاهر ، وانما كان يتعمق فى حقائقها ويبحث عن أصولها .

المثنى فى ميدان المعركة

مبادىء الحرب وأصولها

للحرب أصول ومبادىء يجب أن يضعها القائد أمام ناظريه قبل أن يخوض غمار المعركة ، وهذه الأصول والمبادىء لا تتأثر باختلاف السلاح أو أرض المعركة أو طبيعة المحاربين ، وقد اتفق الكتاب العسكريون على أن هذه المبادىء والأصول ثابتة لا تتغير وانها تراعى فى كل الحروب ، وان الطرف الذى يهتم بها ويدخل المعركة على أساسها يضمن النصر الى جانبه وان مخالفة هـذه المبادىء والأصول أو الجهل بها قد يؤدى الى وقوع الهزيمة . وهذا الاجماع ينطبق على حروب المثنى . فحروبه برغم بداءة السلاح قد قامت أساسا على هذه الاصول والمبادىء ، وقد يكون هذا مستغربا ولكن الواقع والحقيقة يؤكدان أن المثنى برغم أنه لم يدرس هذه الأصول والمبادىء فى مدرسة أو كلية عسكرية كما يحدث فى التاريخ الحديث كان ملما بها لأن احساسه كقائد دفعه الى الدخول فى المعارك معتمدا عليها ، ولهذا يؤكد التاريخ أن المثنى نجح كقائد لأنه استطاع أن يخوض غمار معارك ضخمة وكبيرة ضد عدو يفوقه فى العدد والعدة والاستعداد ، واستطاع أن يفوز فى هذه المعارك وأن يعقد لنفسه لواء النصر وأن يوقع الهزيمة بأعدائه .. وان انتصاره فى هذه المعارك يرجع أصلا الى

تمسكه واتباعه مبادىء الحرب وأصولها كما سنوضحه فى السطور التاليـــة .

كان المثنى يهتم بجمع المعلومات عن عدوه قبل أن يلاقيه فى ميدان المعركة ، وجمع المعلومات يسمى **بالاستكشـاف** وكان يعنى الحصول على كل ما فى الاستطاعة من معلومات عن العدو ... عن أحواله وظروفه وعدد قواته . وسلاحه .. ثم عن الأرض التى ستدور عليها المعركة والاستكشاف كان معروفا عند العرب باسم الاستطلاع ، وكانت جماعات الاستكشاف تسمى فى عهدهــم العيون وكانت دراسة أحوال الفرس هى أول ما خطر ببال المثنى حين فكر فى القيام بغاراته ضدهم ، ولهذا نجده يســعى الى الحصول على معلومات عن أحوالهم وعلى معلومات عن العرب الذين يعيشون فى أرض السواد وعلى معلومات عن العلاقات القائمة بين الفرس والعرب . وتوفرت عنده معلومات كثيرة وضعها موضع الدراسة العميقة مستندا فى دراستها على الخبرة الشخصية.. فماذا تبين له من هذه المعلومات :

ان العجم يعيشون فى اضطراب دائم ، والبيت المالك عندهم فى نزاع مستمر . وبأنهم يسيمون العرب الأذى والظلم .

وان العرب يتعرضون لغارات العجم الذين يستغلون ملوك الحيرة الخاضعين لسلطانهم وان قلوبهم نافرة من ظلم العجم . وانهم على استعداد نفسى ومعنوى للتمرد وحمل السلاح فى وجه العجــم .

وكانت هــذه المعلومات كافية لكى يجمع المثنى جمــوعه

ويتجهز لدخول معارك متتالية ضد الفرس وهو متأكد أن جبهتهم مضطربة وأن أحوالهم سيئة ، وأن ظروفهم تمهد له طريق النصر والفـوز .

وفى موقعة السقاطية تجمعت لدى المثنى معلومات تفيد بأن الجالينوس فى طريقه الى كسكر لمعاونة نرسى الذى يتواجد هناك على رأس قوات قليلة العدد ويترقب وصول النجدة اليه فى قلق واضطراب وخوف من أن تدهمه قوة العرب قبل وصول النجدة .. وبهذه المعلومات رأى المثنى الا تضيع منه فرصة القضاء على نرسى قبل وصول الجالينوس ، وهاجمت قواته نرسى وانتصرت عليه ولاذ نرسى بالفرار وأصبحت القوات العربية جاهزة لملاقاة الجالينوس وحده وكانت كفة النصر قد رجحت لها منذ أول لقاء معه ، ففر من المعركة فى باروسيا .

وما أن انتهت معركة البويب حتى أطلق المثنى قواته الخفيفة الحركة (الخيالة) لتقوم باستطلاعات بعيدة المدى وحدد لها مهمتها وطلب منها أن تأتيه بمعلومات عن قواعد الفرس التى يتمونون منها ومراكزهم التى يستندون اليها والأسواق الغاصة بالذخيرة والميرة .

والتقى المثنى فى أليس برجلين أحدهما من الأنبار والآخر من الحيرة فاجتمع بهما وسألهما ودلّه الانبارى على سوق الخنافس والحيرى على سوق بغداد ، ثم كانت غاراته على سوق الخنافس وبغداد نتيجة مباشرة للمعلومات التى حصل عليها من الرجلين .

ولقد استفاد المثنى من أسرى بنى تغلب الذين وقعوا فى يده فى أثناء تقدمه الى صفين ، فحين ضل طريقه ، وكاد رجاله يهلكون طلب من الأسرى أن يدلوه على الطريق ، وأمن أحدهم على أهله وماله فدله على حى تغلب حيث وضع سيفه فيهم بعد ذلك وغنم مغانم كثيرة .

وبجانب الاستكشاف يبرز عنصر **الحشد** وهو من أشهر مبادىء الحرب له تأثير سريع وتنائج فعالة وهو يعنى جمع القوات على قدر الاستطاعة على أن تعمل بكل ما لديها من طاقات ، والتاريخ حافل بأمثلة الحشد الكثيرة ، والأطراف التى تدخل المعركة بقوات كثيفة يكون النصر فى أغلب الأحوال فى جانبها اذا توفرت بجانب الحشد عوامل أخرى كالروح المعنوية وحسن التنظيم والاعداد ، وكفاءة القيادة ، وكفاءة الخطة .

ولم يغب عن بال المثنى أهمية هذا المبدأ ، فالواضح أنه كان فى جميع معاركه يسعى الى حشد أكبر قوة ضاربة تحت قيادته . وحين قرر القيام بالغارات المتعددة على أرض السواد ، حرص على أن تتوافر لديه قوة عددية كبيرة بلغت ثمانية آلاف من قومه وهو عدد لا يستهان به فى وقته . وحين لجأ الى أبى بكر يطلب منه العون ، وحين لجأ الى عمر يطلب منه العون أيضا كان يهدف الى تجميع قوة كبيرة تحت قيادته ليخوض بها معاركه .. أى أنه كان يحرص دائما أن تكون قواته أكثر عددا من قوات عدوه .

ويلاحظ أنه حين أراد خالد أن يسير من العراق الى الشام جعل ضمن رجاله معظم الصحابة ، وكان المثنى يرى أن وجود

بعضهم ضمن محاربيه يكون ذا أثر كبير على معنويات جنده ، ولهذا تمسك بأن يبقى بعضهم معه فقال لخالد « والله لا أقيم الا على انفاذ أمر أبى بكر فى استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف ، وبالله ما أرجو النصر الا بهم فأنى تعرينى منهم ؟ » ، ولما كان خالد على علم تام بأهمية الحشد المعنوى فقد وافق على مراضاة المثنى وأعطاه ما أراد .

وخطبة المثنى فى المدينة عندما اجتمع عمر بالناس يدعوهم الى الخروج الى العراق دليل على اهتمامه الكبير بالحشد وادراكه لأهميته حتى أن أبا عبيد بن مسعود الثقفى وسعد بن عبد الله الأنصارى استجابا للدعوة عندما استمعا الى خطبة المثنى التى بدأها بقوله « أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه » ، واستجاب له من بعدهما خمسة آلاف عربى تطوعوا للجهاد فى العراق .

وأدرك الخليفة عمر أهمية الحشد وأثره بالنسبة للدور الكبير الذى تقوم به القوات العربية فى فارس ، فدعا قبل معركة البويب — حين أبلغه المثنى أن حشوده قليلة وأن موقفه حرج — الى الخروج الى العراق وجمع أبناء بنى بجيلة وكانوا متفرقين فى القبائل ووعدهم بأن يكون لهم ربع ما غلبوا عليه كما رغب عمر جماعة من الأزد وجماعة أخرى من بنى كنانة كانوا يريدون غزو الشام فى التوجه الى العراق .

وتكررت معاونة الخليفة عمر لقوات المثنى بارسال الامدادات لها حين أرسل اليه المثنى يبلغه اتحاد كلمة الفرس وحشدهم

القوات الضخمة وقلة عدد جنوده واستعداد أهل السواد للثورة عليه وحاجته الملحة الى قوات كثيفة تعاونه وتشد من أزره ، وبذل عمر جهدا كبيرا حتى أنه جهز جيشا ضخما ، وأراد أن يسير على رأسه الى العراق لولا أن عارضه فى ذلك الصحابة فولى سعد ابن أبى وقاص قيادته .

ودعوة المثنى لنصارى بنى تغلب والنمر تعنى أنه كان يسعى الى توافر أكبر عدد ممكن واعداد أعظم طاقة لمواجهة الفرس فى موقعة البويب .

واستخدم المثنى فى حروبه عنصر **المفاجأة** يطلق عليه بعض الكتاب العسكريين اسم المباغتة .. ومعناه أن تظهر القوات فى ميدان المعركة فجأة دون الشعور باقترابها مما يؤدى الى حدوث ارتباك ورعب فى صفوف الأعداء فيضطرون الى القتال فى ظروف لا تمكنهم من جمع قواتهم ومواردهم حسبما يتطلب الموقف .

والمفاجأة ذات تأثير معنوى كبير فان وقوعها يدخل الخوف فى نفوس العدو ، ومتى تملكه الخوف أصبح ضعيف الارادة غير قادر على المقاومة أو الصمود .

عندما استعد العلاء بن الحضرمى لمحاربة المرتدين من أهل البحرين انضم اليه المثنى وفاجأ القوم وهم يعاقرون الخمر وقد أصبحوا لاهين عن أنفسهم فأوقع بهم وهزمهم هزيمة منكرة .

ونجاح غارات المثنى على طول ساحل البحر وفى هجر والقطيف حتى وصوله الى دلتا الفرات يرجع أساسا الى مفاجأته لسكان

تلك المناطق فنظام الحرب الذى استخدمه هو الاغارة وهذه تقوم أصلا على المفاجأة والا فقدت أهم مقوماتها .

ومقتل الفيل فى بابل كان مفاجأة للطرفين المحاربين .. كان مفاجأة للعرب فأحسوا أن عقبة كؤودا انزاحت من أمامهم وان مشكلة خطيرة تواجههم انتهت فهاجموا أعداءهم فى قوة وبأس وانتصروا عليهم انتصارا عظيما جرى على لسان أحد شعرائهم فقال ...

يقارعون رءوس العجـم ضـاحية
منهم فوارس لا عـزل ولا ميـل

وكان مفاجأة للفرس لأنهم كانوا يعتمدون على الفيل اعتمادا كبيرا فى تفريق صفوف العرب واثارة الرعب بينهم فلما قتل ضاع الهدف من وراء استخدامه وأصبح عليهم مقابلة العرب وجهـا لوجه .

ومهاجمة نرسى فى باروسما وهو فى معسكره ينتظر وصول المدد ومهاجمة الجالينوس وحده فى السقاطية حققت نصرا كبيرا يرجع الفضل الأول فيه الى مفاجأتهما وهما على غير اسـتعداد لخوض المعركة .

ولقد حرص المثنى خلال تقدمه للهجوم على سوق بغداد على تحقيق المفاجأة ، ولهذا أخفى خبر سيره الى هناك وقال لمرزبان الانبار « انى أريد أن أعبر الى المدائن » ، فأرسل معه الادلاء وعقد له الجسر ليعبر عليه الفرات ، فلما أصبح على مسيرة أربعة فراسخ من بغداد أمر قواته بالمبيت وكلف فرسانه بالقبض على

كل من يعثر عليه حتى لا تصل أخباره الى أهل السوق ، ثم كانت غارته على سوق بغداد ونجاحها .

وغارة المثنى على صفين تعطى صورة لأهمية المفاجأة عنده وقد تمت الغارة والناس جلوس فى أفنية بيوتهم هادئين مطمئنين لا علم لهم بتحركه اليهم .. لقد أخذ الناس على غرة فسلموا وقدموا الأموال وعاد المثنى من هذه الغارة موفور الغنائم .

ولعل من أخطر الأعباء التى تقع على عاتق القائد فى الميدان **ضمان الأمن والسلامة لقواته**، ولذا فالقائد الكفء يضع همه فى وسائل توفير الأمن والسلامة ... والمثنى كان منذ بدأ قتاله يحرص على سلامة قواته وأمنها ونجده فى غالبية مواقعه يتخذ الخطوات الكفيلة بضمان السلامة والأمن .

فعندما تولى رستم قيادة قوات الفرس أعد جيشين ، وجه أحدهما الى الحيرة والآخر الى ذى قار وكتب الى دهاقى السواد أن يثوروا بالمسلمين ودس فى كل رستاق رجلا يثور بأهله وكان يهدف بذلك الى احاطة جيش المثنى ومهاجمته من الخلف لقطع خط الرجعة عليه ولقطع خطوط مواصلاته مع الجيش العربى الذى يقوده أبو عبيد .. وفهم المثنى خطط رستم فما كان غافلا عما يرسمه ويخططه فضم مسالحه وانسحب عن طريق الصحراء حتى نزل بخفان وظل بها حتى جاءه أبو عبيد بجيشه .. وهو بانسحابه يضع سلامة قواته وأمنها فى المقام الأول ، فقد كان وضعها الأول خطيرا بالنسبة لها .. لو أن الفرصة سنحت لرستم بمهاجمتها .. وهو بانسحابه يكون قد تجنب اطالة خطوط

مواصلاته مع قاعدته التى يعتمد أساسا عليها وتجنب اطالة المسافة بينه وبين المدد الذى كان فى الطريق اليه وهو بابتعاده عن ملاقاة عدوه كان يسعى الى اكمال حشــده حتى يستطيع أن يخوض المعركة فى عدد يتناسب مع عدد عدوه .

وخلال القتال العنيف فى موقعة الجسر شاهد المثنى ما لحق بقومه من النكبات فتناول اللواء وأمر عروة بن مسعود بشد الجسر « انطلق الى الجسر فقف عليه وحل بين العجم وبينه » واصلاح الجسر وشده ووقوف عروة عليه يحول بينه وبين العجم ومهاجمة المثنى للفرس ومعه جماعة من الفرسان خففت حــدة الهجوم الفارسى على القوات العربية التى حلت بها هزيمة مرة ومكنت العرب من عبور الجسر .. وهذه الاجراءات كلها كانت تهدف الى انقاذ العرب من القتل بسيوف الفرس أو من الغرق فى الفرات .. وهذا يعنى أن المثنى بهذه الاجراءات كان ينشــد سلامة العرب وأمنهم .

وقبل البويب كانت قوات الفرس تتقدم ولها صوت وضوضاء وتنبه المثنى الى خطورة ذلك على الجيش المتقدم ، فهو يؤمن بالمفاجأة ويؤمن بسلامة قواته ولهذا يعمل جاهدا على ألا تقع قواته فى الخطأ الذى وقع فيه أعداؤه فيصدر أوامره لجنــده « الزموا الصمت » .

وما أن فرغ المثنى من البويب حتى أسرع بارســال قواته لاخضاع البلاد التى حولها حتى تستقر قواته وتأمن فى مواقعها فبعث جريرا الى نيسان وهلالا الى دستميسان وعــزز مواقعه

العسكرية بعصمه الضبى والكلح الضبى وعرفجة بن هرثمة ، وبهذا التعزيز لمواقع قواته يكون قد اتخذ خطوات ايجابية فعالة لضمان أمن قواته وسلامتها .

وفى خلال تقدمه الى سوق بغداد حرص على أن تبقى جنده فى مأمن حين أمرها بالمبيت فعين الدوريات لتحرس المعسكر ليلا وأمر أفرادها بالانتباه واليقظة .

وكان العرب يؤمنون بأهمية **الحصار** الذى يطلق عليه فى حروب العصر الحديث التطويق والحصار هو وسيلة سريعة سهلة للقضاء على العدو ، فتطويق العدو وحصاره من شأنه آن يجبره على التسليم لأن القوة المحاصرة تحس أنها قد أصبحت فى وضع ذليل لا يمكنها من العمل .

وأدرك المثنى أهميـة الحصار وعرف قيمته وبالرغم من أنه لم يستخدمه كثيرا فى معاركه لأن ظروف هذه المعارك لم تسمح بذلك وكان أول استخدامه للحصار أثناء مطاردته لقوات الفرس بعد الانتصار عليها فى الحفير فقد وجه المثنى خـلال مطاردته بحصن المرأة فأمر بحصاره وعين أخاه المعنى قائدا لقوة الحصار ، ثم تابع تقدمه فقوبل بحصن الرجل فحاصره وظل على حصـاره حتى فتحه عنوة وغنم ما فيه ، ولقد ظل حصن المرأة محاصرا فترة طويلة فلما علمت المرأة — كما روى الطبرى — بسقوط حصن الرجل استسلمت .

وبعـد موقعة الجسر خرج جابان ومعـه مردانشاه لملاقاة ذى الحاجب والانضمام اليه ضد المسلمين فلما علم بذلك المثنى

استخلف على الناس عاصم بن عمر التميمى والقعقاع وخرج يريد القائدين ليمنعهما من الاتصال بذى الحاجب وعند أليس الصغرى التقى بهما فأمر بحصارهما وبعد أن تم الحصار لم يجد القائدان بدا من التسليم فأسرهما المثنى .

ومن ألزم واجبات القيادة أن يحرص القائد على توفير **شئون الاعاشة** خلال المعارك والجيش الذى لا تتوفر له هـذه الشئون يكون فى وضع حرج لا يستطيع أن يواصل الحرب ولهذا أثر عن نابليون قوله « ان الجيوش تسير على بطونها » .

ولقد بذل المثنى جهده لكى يوفر لجنده ما هم فى حاجة اليه حتى يستطيعوا مواجهة عدوهم فى قوة وجلد ، وموقعة البويب تشهد له بذلك فالموقعة وقعت فى رمضان وكان الجنود صائمين وأدرك المثنى أن الصوم قد يقلل القدرة على القتال والصـمود فأمر جيشه بالافطار حتى يقوى على عدوه .

ومما لا شك فيه أن غارات المثنى المتعددة على سوق الخنافس وسوق بغداد وصفين وتكريت كانت تهدف الى وضع اليد على المغانم الكثيرة التى تشتهر بها هذه المناطق .. هذه المغانم كانت توزع على الجنود فيأخذون نصيبهم العادل منها .

وقبل الغارة على سوق بغداد طلب المثنى من المرزبان أن يقدم لجنده العلف والطعام فقدمه لهم وقبل أن يبدأ رجـال المثنى الهجوم قال لهم « أيها الناس أطعموا وتوضأوا وتهيأوا » ، فعلف الناس خيولهم وتناولوا طعامهم وأصبحوا فى حالة نفسية طيبة مهيئين لشن الغارة .

ومن الشائع فى تاريخ الحروب أن الجيش الذى ينتصر على عدوه يسعى الى تأكيد هذا النصر بالقضاء قضاء مبرما على قوات عدوه ولهذا يهتم القادة باصدار الأوامر عقب انتهاء المعركة بمطاردة العدو واللحاق به حتى لا تسنح أمامه فرصة اعادة تنظيم قواته والعودة من جديد للقتال فيكون شوكة فى جنب الجيش المنتصر يجب ازالتها بعملية أخرى .

والجيش المنهزم الذى يفر من أرض المعركة يكون عادة فى حالة معنوية سيئة ، فاللحاق به ومطاردته تؤديان الى انهياره انهيارا تاما فلا يستطيع بعدها تنظيم نفسه أو العودة الى القتال .

ومن هنا برزت قيمة المطاردة وأحس المثنى بأهميتها فاستغلها استغلالا بعيدا فى حروبه .

فحين هرب جنود هرمز من الحفير بعد انهزامهم بها لاحقهم المثنى وطاردهم واستولى خلال مطاردته لهم على حصنى المرأة والرجل . وحين هرب الفرس من بابل بعد انهزامهم تبعهم المثنى الى المدائن وصار يقتلهم فى الطريق .

وحين علم المثنى بخروج جابان ومرادنشاه للانضمام لذى الحاجب خرج وراءهما وظل يلاحقهما حتى أسرهما .

ولعل القارىء يلمس خلال هذه الدراسة لحروب المثنى ان المتعمق فى دراسة حروب المثنى يلمس حقيقة هامة وهى أنه كان يعتمد فى حروبه على **الكيف دون الكم** أى يعتمد على امكانيات الرجال وقدراتهم ومشاعرهم ومعنوياتهم دون الاعتماد على عددهم أو كثرتهم .. ومن عجب أن الاعتماد على الكيف فى

الحرب أصبح الأساس الأول لكل المعارك والحروب ، فقد أهمل العسكريون نظرية الكم لأنهم وجدوا أن الكثرة العددية لا تضمن النصر وان السلاح فى يد ضعيفة لا قيمة له وان القلب الخالى من الايمان لا يصمد فى معركة ، وان النفس الضعيفة الخائفة لا تجسر على طول المقام فى الميدان .

ولقد آمن المثنى بنظرية الكيف — برغم تقدم عصره — ايمانا بعيد المدى وكان بذلك سباقا ، فقد أدرك أن القدرة على القتال ومواجهة الأعداء تتوقف على ما فى الرجال من بسالة وحماس وجلد ومثابرة وعزم ونظام واحترام وهمة وارادة وتضحية وانكار للذات ودراية ومعرفة وخبرة وكفاءة .

ولقد اهتم المثنى اهتماما بالغا بنفسية رجاله حتى أصبحوا قادرين على مواجهة الأحداث بما فيها من مخاطر قادرين على خوض المعارك والعيش فى أهوالها دون أن تهتز أيديهم وهى تحمل سيوفهم أو ترتعد قلوبهم وهم يتعرضون لمفاجآت المعركة وما أكثرها .

ان قوات المثنى كانت على درجة عالية من المعنويات .. روحها متوثبة .. راغبة فى القتال .. مشتاقة اليه .. مقدمة عليه .. ولعل هذا هو سر النجاح الكبير الذى أحرزته قواته فى غالبية معاركها فقد كان يداعبهم وهم يقاتلون أحد أملين عظيمين .. نصر حاسم يحفظ للاسلام والمسلمين الهيبة والتقدير أو موت واستشهاد فى سبيل الله والدين .. يقول المثنى لرجاله حين سمعهم يرددون فى خوف

واضطراب وقلق « ما أسرع القوم فى طلبنا » ، « لو أدركوكم لقاتلتهم لاثنتين .. التماس الأجر ورجاء النصر » .

ان المثنى يقول للمسلمين « لا يعظمن عليكم هـذا الوجه (يقصد الفرس) فقد تبجبجنا ريف فارس وغلبناهم على شقى السواد وشاطرناهم واجترأ من قبلنا ولها ان شاء الله ما بعدها » . فتثير كلماته مشـاعر الناس فيقوم أحدهم ويقول « انما كان قعودنا عن غزو هؤلاء الفرس الى يومنا هذا شقشقة من شقاشق الشيطان ، وانى قد وهبت نفسى لله » . وتلتهب حماسة النـاس وترتفع روحهم فيتقـدمون للتطـوع حتى يبلغ عددهم خمسة آلاف .

والمثنى فى البويب يبعث الى بنى عجل — وقد رأى خللا فى فى صفوفهم — قائلا « ان الأمير يقرئكم السلام ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم » فتثور حميتهم وتزداد حماستهم ويقـولون فى صوت كالرعد « نعم » ، ويقتل مسعود أخو المثنى خلال القتال فلا يهز موته قلب أخيه ، وانما يستمر فى قيادة المعركة وهـو يخاطب الناس « يا معشر المسلمين لا يرعكم مصرع أخى ، فان مصارع خياركم هكذا » ، وما أبلغ هذه الكلمة فى موقف حرب عصيب ، وما أوقع تأثيرها فى قلوب المقاتلين ، وكم شدت معنوياتهم وحرضتهم على عدوهم .

وها هو ذا المثنى فى مقدمة جنده يدعو لهم بالنصر ويرسل اليهم من يشجعهم ويحميهم ويقول لهم « عاداتكم فى أمثالكم انصروا الله ينصركم » .

وفى موقف الشدة يتجه المثنى الى ربه الذى وعد المؤمنين النصر فيذكر جنده بوعد الله ويخاطب ايمانهم قائلا « ثقوا بالله واحسنوا به الظن فقد نصركم فى مواطن كثيرة وهم أكثر منكم وأعز » ، و « أيها الناس احمدوا الله وتناجوا بالبر والتقــوى ولا تناجوا بالاثم والعدوان وانظروا فى الأمور وقدروها ثم تكلموا » .

ختـــام

أما بعد ...

فهذا هو كتابى عن المثنى بن حارثة وغاية ما أرجو أن أكون قد وفقت فى اعداده ليظهر بصورة تتناسب مع شخصية المثنى كرجل دين وحرب وكمجاهد من المجاهدين الأبطال الذين خدموا الدين بهمة تذكر فتشكر ، وخدموا الحرب بقدر جليل لا ينكر .

ويشهد الله اننى قد بذلت غاية ما وسعته طاقتى وما قدر عليه جهدى رغبة فى أن أقدم للمكتبة العربية وللباحثين والدارسين ورجال الحرب بحثا مفيدا .

والله الموفق الى سبيل الرشاد وخير العباد .

محمد فرج

المراجــــع

(رتبت المراجع هنا حسب الحروف الأبجدية)

أشهر مشاهير الاسلام فى الحرب والسياسة رفيق العظــــم

الاستيعاب .. .. ابن عبــــد البر

البيــان والتبيين .. .. الجاحـــــظ

الســيرة العمرية .. .. ابن الجـــوزى

الصـــديق أبو بكر .. .. محمــــد حسين هيكل

العبقرية العســـكرية فى غزوات الرســـول .. محمــــد فــرج

العرب قبل الاســـلام .. .. جرجى زيـــدان

الفـــاروق عمر .. .. محمــــد حسين هيكل

الفتوحات الاســــلامية .. .. أحمد بن دحــلان

بلوغ الارب .. .. الآلوسى

تاريخ الأمم والملوك .. .. الطبرى

تاريخ الأمة العربية .. .. محمــد أســـعد أطلس

تاريخ العرب القــدامى .. .. محمد فخر الدين

تــاريخ الــكامل .. .. ابن الأثير

تــاريخ اليعقــوبى .. .. أحمــد بن يعقوب

تجارب الأمم .. .. ابن مسكويه

جبابرة حرب .. .. محمد فرج

خالد بن الوليد .. .. صادق عرجون

خلفاء محمد .. .. عمر أبى النصر

رسائل نادى المثنى .. .. عبد الستار فرغولى

سيف الله خالد .. .. محمد فرج

سيرة ابن هشام .. .. ابن هشام

فتوح الاسلام .. .. الواقدى

فتوح البلدان .. .. البلاذرى

مروج الذهب ومعادن الجوهر .. .. .. المسعودى

معجم البلدان .. .. ياقوت الحموى

فهرس

الباب الأول

بيئـــة المثنى

صفحة

الباب الثانى

بنو شيبان بين الاسلام والردة

الباب الثالث

ارض السواد والحيرة

صفحة

صفحة

الباب الخامس

غارات المثنى

صفحة

البـــاب الســـادس

المثنى القـــائد

صفحة

للمؤلف

كتب فى التاريخ :

جبابرة حرب .... الناشر دار الفكر العربى

محمد المحارب ...... (الطبعة الأولى والثالثة) الناشر دار الفكر العربى

(الطبعة الثانية) الناشر شركة التوزيع المصرية

العبقرية العسكرية فى غزوات الرسول ...... الناشر دار الفكر العربى

سيف الله خالد .... الناشر دار الفكر العربى

عمرو بن العاص .... الناشر دار الفكر العربى

السلام والحرب فى الاسلام .... الناشر دار الفكر العربى

أحاديث فى الحرب .... الناشر سلسلة اخترنا للجندى

السلام فى الاسلام .... الناشر سلسلة دراسات اسلامية

المثنى بن حارثة الشيبانى .... الناشر سلسلة أعلام العرب

كتب فى السياسة :

نهاية الطاغية .... الناشر دار النداء

قصة الجلاء ...... (الطبعة الأولى) الناشر ادارة الثقافة بالجيش بتكليف خاص

(الطبعة الثانية) الناشر دار الفكر العربى

الاشاعات ...... الكتاب الفائز فى المسابقة الثقافية بين ضباط الجيش الناشر ادارة الشئون العامة والتوجيه المعنوى

النضال الشعبى فى سوريا .... الناشر سلسلة كتب قومية

العدوان الثلاثى ...... (الكتاب الفائز فى مسابقة مصلحة الاستعلامات) الناشر سلسلة كتب قومية

النضال الشعبى ضد الحملة الفرنسـية ...... الناشر سلسلة كتب ثقافية

الثورة المصرية وأثرها فى سـياسة الشرق الأوسط الناشر ادارة الشـئون العـامة والتوجيه المعنوى

التطورالسياسى فى الهند والصين .... الناشر سلسلة كتب سياسية

النضال الشعبى ضد حملة فريزر .... الناشر سلسلة كتب قومية

القوات المسلحة فى ضوء الميثاق .... الناشر سلسلة اخترنا للجندى

يمنيـات .... الناشر سلسلة اخترنا للجندى

على الطريق الى وحدة الهدف .... الناشر دار الفكر العربى

كتب فى القصة :

هذه هى الحياة .... الناشر دار النشر الحديثة

قلوب محطمـة .... الناشر دار الفكر العربى

بطولة فـدائية .... الناشر دار الفكر العربى

الناس سواسية .... الناشر دار الفكر العربى

أعلام العرب

الكتاب القادم

مُظَفَّرُ الدِّين كُوكُبُورِي
أمير إربل

تأليف

عبد القادر أحمد طليمات

يصدر في ٧ أغسطس ١٩٦٤

يطلب من
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"
الثمن ٥ قروش

مطبعة مصر

أعلام العرب

٣٢

مظفر الدين كوكبوري
أمير إربل

تأليف
عبد القادر أحمد طليمات

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

أعلام العرب

٣٢

مظفر الدين كوكبوري

أمير اربل

تأليف

عبد القادر أحمد طليمات

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مقدمة

هل مظفر الدين كوكبورى عربى الجنس والدم حتى نعده من العرب فننشر سيرته فى سلسلة أعلام العرب ؟

أو هو تركمانى الجنس والدم كما يدل عليه بعض اسمه ، فيقتضى ذلك اخراجه من زمرة العرب ، فلا ننشر سيرته فى سلسلة أعلام العرب ؟

وقبل الاجابة عن هـذا السؤال ، نسأل ، هل يشترط فى الرجـل أن يكون عربى الجنس والـدم لكى يكون عربيا ، أم لا يشترط ذلك ما دام أنه يحوز المقومات التى تجعله يساوى العربى ويقف معه جنبا الى جنب فى كثير مما هو عند العربى ؟

وقبل الاجابة عن السؤالين : أريد أن أوضح سبب اثارة السؤال عن عروبة مظفر الدين ، وذلك لأن هناك من اعترض على نشر سيرة الظاهر بيبرس فى سلسلة أعلام العـرب ، لأن الظاهر بيبرس — فى عرف المعترضين — جركسى الأصل ولم يكن عربيا ، فأردت هنا أن أحدد من هو العربى لا برأيى ، وانما برأى النبى العربى محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام . فقـد خطب عليه السلام فى المسلمين خطبة جامعة ، حدد فيها من هو العربى ، فقال :

« يا أيها الناس ، ان الرب واحد ، والدين واحد ، والأب

واحد ، ومن أسرع به عمله لم يبطىء به نسبه ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ، ومن دخل فى هـذا الدين فهو من العرب » [1] .

وما دمنا قد ذكرنا تعريف النبى العربى ، للعربى ، نرى من اللازم أن نذكر مناسبة هذا التعريف وسببه ، ليكون أقوى فى الاقناع وأثبت فى الذهن .

فقد روى أن الصحابى الجليل سعد بن أبى وقاص ، دخل المسجد ليصلى فى عهد الرسول ، فوجد فيه سلمان الفارسى ، وصهيب الرومى ، وبلال الحبشى ، وسالم الفارسى مولى أبى حذيفة مجتمعين فى حلقة يتحدثون ، فدخل سعد فى الصلاة ، وبينما هو فى صلاته ، سمع أعرابيا يقول لهـم ساخرا : تحلقتم يا معشر العلجة[2] كأنكم من الأوس والخزرج[3] ، فهال سعد ما سمع من الأعرابى فعجل فى صلاته حتى اذا انتهى منها أسرع الى الأعرابى وأخذ بتلابيبه وهو يعنفه ويقول له : ياعدو نفسه ، تقول هذا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم !! ثم سحبه وذهب به الى النبى فأخبره بما قاله للصحابه ، فعظم ذلك على النبى ، فجمع المسلمين وخطبهم الخطبة التى ذكرناها [4] .

---

(١) القرب فى محبة العرب ، ص ٢٧ .

(٢) العلج ، هو الكافر من العجم أو الروم .

(٣) يريد أن يعيرهم بأنهم من غير العرب حتى يجلسوا فى حلقة كما يجلس العرب . والأوس والخزرج قبيلتان عربيتان .

(٤) القرب فى محبة العرب ، ص ٢٧ .

فليس العربى اذن من هو من أرومة عربية وحسب ، وانما العربى أيضا كل من اعتنق الاسلام وهو دين العرب ، وكل من اتخذ اللغة العربية لغة له وهى لغة العرب ، وأن كل من عمل على الحفاظ على الاسلام ، وعلى أمجاد الاســلام ، وعلى أرض الاسلام ، فهو من العرب .

فالظاهر بيبرس كان يملك كل هذه الحيثيات ، فهو اذن من العرب . فهو اسلامى العقيدة ، عربى اللسان ، وقد جاهد حق الجهاد فى سبيل الاسلام وأمجاد الاسلام وأرض الاسلام ، ويشهد له تاريخه المجيد بذلك .

ومظفر الدين كوكبورى ، صاحب هذه الترجمة ، كان يملك كل هذه الحيثيات أيضا ، كما سنرى من سيرته .

فهو مسلم العقيدة ، ولد مسلما ومات مسلما .

واتخذ اللغة العربية لغة له ، فكان يحسنها قراءة وكتابة وحديثا .

وشارك فى الدفاع عن دين الاسلام وأمجاد الاسلام وأرض الاسلام باشتراكه فى الحروب الصليبية .

وفضلا عن هذا ، فقد حكم بلاده حكما اسلاميا ، فرعى حق الله فى رعيته فأحسن ســياستها ، وعــدل فى حكمها ، واهتم بمصالحها ، ولم يأل جهدا فى اسعادها ، فاهتم بالفقير ، ورعى المسكين ، واحتضن الضعيف ، وأخذ بيد المظلوم ، وضرب على يد الظالم ، وهو الحكم الصحيح الذى ينادى به الاسلام ، ويدعو اليه نبى المسلمين .

وبعد . فلماذا اخترت مظفر الدين كوكبورى موضوعا لهذا الكتاب ؟

والجواب عن ذلك ، أن مظفر الدين قد جذبنى اليه بعدة عوامل :

فهو كحاكم ، لمست فيه الحاكم المستنير الذى لم تشغله الحروب والاضطرابات السائدة فى عصره ، عن الاهتمام بمصالح امارته « اربل » ، فحول المدينة المغمورة — قبل أن يحكمها — الى وحدة سياسية أدلت بدلوها فى الأحداث الجارية ، وجعل لها كيانا سياسيا قائما بنفسه .

ووجدته قد جعل من المدينة المهملة طيلة تاريخها الاسلامى وما قبله بقليل ، مدينة عامرة زاخرة بالعمران والزراعة والتجارة ، حتى نالت اعجاب كل من رآها فى عصره ، وحتى جذبت اليها كثيرا من السكان المجاورين لها فأقاموا بها ، أو قضوا بها وقتا طويلا .

ووجدته قد اهتم بمجتمعه اهتماما بالغا حد الروعة ، وتنبه الى ما فيه من أمراض صحية واجتماعية ، فأقبل على علاجها اقبال الرجل المتسع الأفق ، فأنشأ مستشفى للمرضى ، وملاجىء للعميان والأرامل واليتامى الصغار واللقطاء ، وخصص لهذه المنشآت الانسانية الأموال الضخمة . كذلك اهتم بنشر التعليم فبنى مدرسة ، واحتضن المدرسين والعلماء وأكرمهم وأبرهم ، فلازموه وأضفوا على مجتمعه مسحة جميلة من الثقافة الدينية والأدبية .

وأعجبني منه كانسان ، ما كان يتحلى به من الشعور الرقيق والعواطف الكريمة ، والانسانية الراقية ؛ فقد كان يرعى نزلاء الملاجئ ويتفقدهم بنفسه ، ويسألهم عما ينقصهم فيستكمله ، وعما يزعجهم فيزيله ، فكان هذا الشعور الانساني الكريم ما هزني منه واستثار اعجابي كما سيستثير اعجاب وتقدير قارئ سيرته . بالاضافة الى أنواع البر المالي الذي كان يمطره على الفقراء والمحتاجين دون أن يسألوه الحافا ، في المناسبات الدينية وغيرها ، فكان بره متواصلا على مدار السنين التي عاشها حاكما على شعبه . ثم تعدت انسانيته الى أبعد من هذا ، حيث أنشأ في « اربل » دارا للضيافة ، يستضيف بها كل عابر سبيل يمر بمدينته ، فيريح نفسه ودابته في هذه الدار — بلا مقابل — ما شاء له أن يستريح ، ثم يواصل بعد ذلك سفره مشكورا بعد أن يتزود — بلا مقابل أيضا — بما يكفيه أثناء سفره حتى يصل الى المكان الذي يقصده .

يضاف الى ذلك ، حياته الخاصة والعامة ، ففي شقيها كان يحيا حياة البساطة ، بل هي حياة أقرب الى التصوف منها الى أية حياة أخرى ، فلم يكن يهتم بمظاهر الملك والامارة ، وما كان يقيم في قصر فاخر أو في دار مرفهة ، وانما كانت اقامته اما في قلعة المدينة أو في دار من دور الصوفية ، وقد حببت اليه ثقافته الدينية هذه الحياة المبسطة الرضية ، وكانت أحلى أوقاته وأعذبها ، هي تلك التي يقضيها مع العلماء من فقهاء ومحدثين

وصوفية ، أو تلك التى يقضيها على صهوة جواده يخوض غمار المعارك ضد الصليبيين بالشام .

وبعد كل هذا ، قد أعجبنى من مظفر الدين دوره الكبير الذى أداه مع صلاح الدين فى حركة الجهاد المضنى ضد الصليبيين — وقد كان الصليبيون مشكلة الساعة بالنسبة للعالم الاسلامى كله فى ذلك الوقت — فساهم فى الانتصارات الصلاحية الكبيرة على الصيلبيين .

واذا كان هذا الكتاب مخصصا للحديث عن مظفر الدين ، فانه يتحدث أيضا عن أسرته : والده وأخيه ، ذلك أنه لا يستساغ الحديث عن مظفر الدين دون التعريف بأسرته ، خاصة وأن والده كان أول من حكم مدينة « اربل » ، ثم حكمها أخوه زين الدين يوسف ، ثم حكمها هو من بعده . فضلا عن أن والده وأخاه شاركا فى أحداث العصر ، فكان لوالده دور كبير فى ظهور دولة كبيرة هى دولة بنى زنكى فى الموصل والشام ومصر . فمن الضرورى اذن ، أن نفرد فصلا خاصا عن والد مظفر الدين وأخيه ، وما أدياه لعصرهما من خدمات .

وأرجو بعد هذا ، أن أكون قد وفقت فى تقديم ما يفيد .

وعلى الله قصد السبيل .

عبد القادر أحمد طليمات

مصر الجديدة فى { رجب ١٣٨٣ / نوفمبر ١٩٦٣ }

الفصل الأول

مولد إمارة

كان الكيان السياسى للعالم الاسلامى فى القـرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) قائما على وحدات اقليمية كبيرة وعلى وحدات مدينية صغيرة . وأبرز ما نراه من هذه الوحدات الاقليمية والمدينيـة هو ما يقع غرب بغداد مركز الخلافة : فى العراق ، والجزيرة ، والشام [1] . أما ما يقع شرق بغداد : فى فارس ، وخراسان وغيرهما : فان الوحدات الاقليمية كانت هى الغالبة . وهذا هو المظهر الواضح لتفكك الدولة الاسـلامية الكبرى الى دول ودويلات متعددة .

وقد بدأ تفكك وحدة العالم الاسلامى منذ العصر العباسى الثانى ، حيث ظهر الولاة المتغلبون بسبب ضعف الخلفاء ، فأنشأوا الدول الاقليمية الكبرى ، أو ما نسميه اليوم حكم الأسرات ، فكان كل اقليم تحكمه أسرة متغلبة لا يربطها بالخلافة الا الولاء الدينى ، أما علاقة الأسر بعضها ببعض فهى علاقة التنافس والتقاتل من أجل التوسع والامتلاك .

---

(١) المقصود بالشام هنا ، سوريا ولبنان وفلسطين .

ويحدد المؤرخ المعاصر ابن مسكويه ، سنة ٣٢٤ ، بأنها السنة التى بلغ فيها التفكك أقصاه ، فقد كانت البصرة فى يد ابن رائق ، وخوزستان فى يد البريدى ، وفارس فى يد عماد الدين بن بويه ، وكرمان فى يد أبى على محمد بن الياس ، والرى وأصبهان والجبل يتنازع عليها كل من ركن الدولة بن بويه ووشمكير ، وخراسان وما وراء النهر فى يد نصر بن أحمد السامانى ، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم ، والموصل ودياربكر ومضر وربيعة فى يد بنى حمدان ، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج الأخشيد ، والبحرين واليمامة فى يد أبى طاهر القرمطى ، والمغرب وافريقية فى يد الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله ، والأندلس فى يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموى (١) .

وظل الوضع هكذا حتى ظهرت الأسرة السلجوقية سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) ، فأخذت على عاتقها حكم المشرق الاسلامى نيابة عن الخلفاء العباسيين ، فاستطاعت أن تخضع معظم الأقاليم المشرقية (٢) الى سلطانها ، وبذلك عادت وحدة هذا الجزء من العالم الاسلامى الى ما كانت عليه الى حد ما ، وبخاصة فى عهد السلطان ملكشاه أعظم سلاطين بنى سجلوق (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ = ١٠٤٢ — ١٠٩٢ م) ، ولكن ما أن مات ملكشاه حتى عادت الوحدة الى التفكك من جديد ، ولكن بصورة أوسع ، ففضلا عن عودة الدول الاقليمية — أو دول

(١) تجارب الأمم : ج ٥/ص ٣٥٣ .
(٢) المقصود بالمشرق هنا ، مايقع شرق البحر المتوسط .

الأسر — مرة أخرى فانه ظهرت الى جانبها دول المدن فى داخل الدول الاقليمية ، أى أن الكثير من هذه الأقاليم تفتتت الى وحدات سياسية صغيرة ، يحكم كل وحدة أمير ، حكما مستقلا .

وكان نظام الاقطاع العسكرى الذى عممه السلاجقة ابان حكمهم هو السبب فى ظهور دويلات المدن ، فقد اتبع السلاجقة نظام الاقطاع ، لكى يقوم الاقطاع مقام العطاء والمرتبات التى كانت تدفع لولاة الأقاليم ولقواد الجند .

وكان لهذا النظام امتيازات كبيرة للمقطع ، أهمها أنه كان له حق حكم الولاية أو الاقليم حكما داخليا مستقلا ، وله تبعا لذلك أن يقطع مدن الولاية لقواد جنده وكبار موظفيها عوضا عن دفع مرتبات لهم . فلما مات السلطان ملكشاه ، كان على الأقاليم ولاة اقطاعيون ، فانتهز معظم الولاة فرصة النزاعات الأسرية بين خلفاء ملكشاه على السلطنة والملك ، فاستقل كل وال بولايته ، وقطع صلته بالسلطة المركزية العليا ، ولا يدين بالطاعة الا للخليفة ، وهى طاعة دينية نظرا لمركز الخليفة الدينى ، حتى اذا ما انتصف القرن السادس ، كان العالم الاسلامى مشرقه ومغربه عبارة عن ولايات اقليمية ومدينية .

وليس أدل على ذلك من ظهور مدينة اربل المغمورة ، كوحدة سياسية مستقلة فى أواخر القرن السادس الهجرى ، وكان ظهورها عن طريق اقطاع اقليمى هو اقليم الموصل ، فقد كانت قبل ظهورها كوحدة سياسية قائمة بنفسها ، مجرد مدينة مغمورة من ضمن اقليم الموصل ، فأقطعها أمير الاقليم عماد الدين زنكى لقائده

زين الدين على بن بكتكين فى سنة ٥٢٦ هـ (١١٣١ م) ، فتحولت المدينة بذلك الى امارة صغيرة لها حكم ذاتى داخلى فقط ، يدين أميرها لأمير الموصل ، الا أنه أصبح للمدينة كيان سياسى يختلف عن كيانها السابق ، فأصبحت تسهم فى الأحداث الجارية ، بعد وفاة زين الدين على ، وولاية ابنه زين الدين يوسف عليها ، ففى عهده قامت حروب المنافسة بين صلاح الدين الأيوبى وبين بنى زنكى بعد وفاة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى سنة ٥٦٩ (١١٧٣ م) ، فرأى زين الدين يوسف أن من مصلحته ومصلحة امارته أن يحول تبعيته من الموصل الى صلاح الدين ، وان كان هذا التحول لم يغير من وضعه شيئا ، فقد ظل فى مركز التابع لصلاح الدين ، مقيدا بسياسته لا يحيد عنها ، الا أنه أثّر فى ميزان القوى بين الخصمين المتنافسين ، حيث أضعف قوة الموصل ، بينما زاد من قوة خصمها . ثم لما توفى زين الدين يوسف وخلفه أخوه مظفر الدين — وكانت امارته عليها عن طريق صلاح الدين بصفته السيد الأول للمدينة — استمر مظفر الدين على ولائه لصلاح الدين ، غير أن دور المدينة فى عهد مظفر الدين كان أخطر وأهم ، بسبب اسهام مظفر الدين فى الحروب الصليبية مع صلاح الدين اسهاما كبيرا .

ثم تغير وضع المدينة تماما بعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ، بحيث تحولت من وحدة سياسية تابعة الى وحدة سياسية مستقلة استقلالا كاملا فى سياستها الداخلية والخارجية على السواء يتصرف صاحبها مظفر الدين بوحى من مصالحه

ومصالح مدينته ، وقد ساعده عـلى هذا التحول تفكك دولة صلاح الدين الموحدة بعد وفاته ، بسبب ما حدث بين أبناء الأسرة الأيوبية خلفاء صلاح الدين من التنازع والحروب من أجـل السلطنة والملك — كما حـدث بين أبنـاء الأسرة السلجوقية بعد وفاة السلطان ملكشاه ، وكما حدث بين أسرة بنى زنكى بعد وفاة نور الدين محمود — فاستقل كل أيوبى بمدينته التى كان يقوم على حكمها أيام صلاح الدين ، وبذلك تفككت الدولة الأيوبية وتحولت الى دويلات مدينية ، فاقليم الشام — مثلا — بعد أن كان موحد الأجزاء والادارة على عهد صلاح الدين ، تفكك بعد وفاته الى دويلات مدينية ، ففى دمشق حاكم ، وفى حلب حاكم آخر ، وفى حمص حاكم ثالث ، وفى الجزيرة حاكم رابع ، ففقد الاقليم بذلك وحدته ، واذا عرفنا أن مصر كان لها حاكمها الأيوبى الخاص بها ، تبين لنا مدى تفكك الدولة الأيوبية الموحدة ، علاوة على ما ترتب على هذا التفكك من نتائج ، فقد كان كل حاكم لا يعمل الا بما فيه مصلحته الخاصة ومصلحة مدينته ، دون العمل للمصلحة العامة للاقليم كله ، فضـلا عن حروب المنافسة التى كانت تحدث بينهم .

فانتهز مظفر الدين فرصة النزاع الأسرى الأيوبى فاستقل بمدينته وحولها الى امارة . ثم اتخذ لنفسه لقب الملك المعظم .

وعلى ذلك ، فان امارة اربل ولدت فى عصر ، أصدق وصف له ، هو « عصر الغلبة » ، فقد كان صاحب كل وحدة سياسية كبيرة أو صغيرة يجد فى نفسه المقدرة الحربية على التوسع على

حساب جيرانه لا يتوانى فى شن الحرب على المستضعفين منهم ، وقد حاول مظفر الدين نفسه أن يجارى عصره فى التوسع عن طريق الغلبة مرتين ، ولكنه فشل فى كليهما . فأما المرة الأولى فحين كان أميرا على حران (كما سيأتى فى الفصل الثالث) فحاول أن يستولى على مدينة حلب فى سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) ولكنه فشل لضعف قوته فى ذلك الوقت وعــدم مواتاة الظروف له وأما المرة الثانية ، فقد كانت بعد أن أصبح أميراً على اربل ، وفشل فيها أيضا ، ولكن فشله فى هذه المرة — على ما يبدو — لم يكن عن ضعف فيه ، وانما كان مرجعه وازع خلقى .

كذلك تعرض مظفر الدين لأطماع الغير فى امارته ، فقد طمع فيها بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وطمع فيها الأشرف موسى صاحب دمشق ، كذلك طمع فيها جلال الدين خوارزم شاه ، وأخــيرا طمع فيها التتار ، ولكنه استطاع أن ينقذ امارته من براثنهم جميعا ، بالحرب أحيــانا ، وبمعاهدات الصداقة أحيانا أخرى . وسوف نتعرض لكل هذا بالتفصيل فيما يلى من الكتاب .

الفصل الثانى
أسرة مُظَفَّر الدين كوكُبُورى

نشأ مظفر الدين فى أسرة تركمانية الجنس تتكون من أبيه زين الدين على بن بكتكين بن محمد وأخيه الأصغر زين الدين يوسف . وقد شاهد مظفر الدين من أمجاد أبيه ما كان له أثره فى حياته العامة والخاصة ، فقد بلغ والده من المجد والسؤدد مكانة عالية . حتى أصبح محط أنظار أهل عصره فى المنطقة التى كان يعيش فى محيطها ، وهى الموصل والجزيرة واربل .

ويحدثنا المؤرخون : بأن زين الدين عليا ، كان فى مبدا أمره مملوكا من مماليك قسيم الدولة آقسنقر الحاجب أمير حلب ، ولكن جاء الوقت الذى أصبح فيه هذا المملوك سيدا خطيرا من سادات مدينة الموصل ، يخطب ملوكها وده ، ويعتمدون عليه فى ادارة مملكتهم وقيادة جيوشهم .

وقسيم الدولة آقسنقر ، الذى كان زين الدين من مماليكه ، كان أحد كبار قواد السلطان ملكشاه السلجوقى ومن أخص أصحابه ، وفى سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) استولى السلطان ملكشاه على مدينة حلب وكانت تابعة للخلافة الفاطمية فى مصر ، وكان

قسيم الدولة يرافق السلطان فى مسيره الى حلب ، فأقطعه ملكشاه المدينة وأعمالها ليقوم على حكمها ، فتحول قسيم الدولة بذلك من قائد فى جيش الى حاكم مدينة عظيمة كمدينة حلب وما يتبعها من مدن وقرى ، فانتقل اليها قسيم الدولة بأسرته وجنده وغلمانه — ومنهم زين الدين على — واستقر بها (١) .

ولا نعرف على وجه التحديد كيف ومتى دخل على بن بكتكين فى مِلك قسيم الدولة . ولذلك نرجح — فيما يختص بكيفية دخوله فى خدمته — أن ذلك حدث اما عن طريق الأسر فى احدى غزواته الحربية ، واما عن طريق الشراء . أما متى دخل فى مِلك قسيم الدولة ، فان من الصعوبة بمكان تحديد السنة ، وانما الذى نرجحه أن عمر زين الدين كان فى سنة ٤٧٩ نحو ست عشرة سنة ، اعتماداً على ما يذكره المؤرخون بأنه توفى سنة ٥٦٣ وله من العمر نحو مائة عـام (٢) ، فيكون مولده اذن حـوالى سنة ٤٦٣ ، فاذا عرفنا أن قسيم الدولة انتقل الى حلب بغلمانه وأهله فى سنة ٤٧٩ ، فبعملية حسابية بسيطة بين سنتى مولد علىّ وانتقال قسيم الدولة الى حلب ، نجد أن عمره كان نحو ست عشرة سنة .

ويبدو أن زين الدين عليا ، كان له من الميزات ما حببه الى سيده ، فقربه اليه ، وأضفى عليه الكثير من العناية والرعاية ، مما جعل زين الدين يحفظ له فضله فى شخص ابنه عماد الدين

---

(١) التاريخ الباهر ، ص/٤/٦ .
(٢) وفيات الأعيان ، جـ/٣/ص/٢٧٠ .

زنكى ، فقد لزم علىّ ، عماد الدين بعد مقتل والده ولم يفارقه حتى وفاته ، أى وفاة عماد الدين .

ظل علىّ — وقد اتخذ لنفسه فيما بعد لقب زين الدين — فى خدمة قسيم الدولة حتى مقتله فى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) فى حرب منافسة بينه وبين تاج الدولة تتش صاحب دمشق [١] .

وأصبح عماد الدين — وكان له من العمر نحو عشر سنين — وحيدا ليس له من يأخذ بيـــده أو يقوم على شئونه من أفراد أسرته ، غير أنه كان لوالده بعض الأصدقاء المخلصين ، فاحتضنه واحد بعد واحد ، هو وغلمان أبيه ومنهم زين الدين ، حتى اذا اشتد عوده ، اختار القتال مهنة له فالتحق بجيوش أمراء الموصل ، وكان يلازمه صاحبه ورفيقه على — الذى اختار القتال أيضا مهنة له — فكانا يتلازمان ولا يفارق أحدهما الآخر ، فأخذت الصداقة تتوثق بينهما كلما امتد بهما العمر .

وقد حارب كل من عماد الدين وزين الدين ، وهما فى خدمة أمراء الموصل ، فى عشرات المعارك ، سواء تلك التى كانت تدور فى حروب المنافسة بين أمراء الموصل وبين جيرانهم الأمـــراء المسلمين ، أو تلك التى كانت تقـــوم بينهم وبين الصليبيين فى الشام ، فتمرس كل منهما فى القتال ، وأصبحا من رجال الحرب المشهورين فى عصرهما .

ولكن حين بلغ عماد الدين الأربعين من عمـــره ، وذلك فى

---

(١) التاريخ الباهر ، ص/١٥ .

سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) ضاق ذرعا بعمله كمحارب يحركه أمير الموصل الذى يعمل فى خدمته كيف يشاء ومتى شاء ، فلا يملك لنفسه حرية التصرف والعمل ، وانما يتنقل من ميدان قتال الى ميدان آخر بحسب ما تقتضيه مصالح صاحب الموصل وظروف الأحداث . فهو آنا يقاتل فى الجزيرة ، ومرة فى الشام ، وأخرى فى العراق ، ونفس عماد الدين الطموحة ترفض الاذعان لأمير يتحكم فيه وفى ارادته ، فهو يريد أن يتحرر من كل هذا ، ولكن كيف السبيل الى هذا التحرر ؟ وفى ساعة ضيق كان يجلس مع بعض خلصائه فى الجيش ، ومنهم صاحبه زين الدين على ، فصارح عماد الدين أصحابه بما يثور فى نفسه ، قال : قد ضجرنا مما نحن فيه ، كل يوم قد يملك البلاد (أى الموصل) أمير ونؤمر بالتصرف على اختياره وارادته ، ثم تارة هو بالعراق : وتارة بالموصل ، وتارة ببلاد الجزيرة ، وتارة بالشام ، فبم تشيرون أن أصنع ؟ فسكت أصحابه لا يحيرون جوابا ما عدا زين الدين ، فانه أجابه : يا مولانا ، التركمان تقول فى أمثالها : اذا أراد الانسان أن يضع على رأسه حجرا فليكن من جبل كبير ، ونحن اذا كان لابد أن نخدم الناس ، فلأن نخدم السلطان أولى . ونصيحة زين الدين علىّ هذه ، تدل بوضوح على أنه كان أيضا ذا نفس طموحة كصاحبه عماد الدين ، وأن عوامل الضيق كانت تثور فى نفسه كما كانت تثور عند صاحبه ، وأنه عزوف عن الصغائر ، ولعل ملازمة الرجلين كل منهما للآخر سببها هذا التجاوب بينهما ، فكل منهما ذو نفس كبيرة وآمال واسعة ، ولذلك نرى عماد الدين

يتقبل اقتراح صاحبه بارتياح ، ثم وضع الاقتراح موضع التنفيذ ، فترك خدمة قسيم الدولة آقسنقر البرسقى أمير الموصل ، واتجه مع صاحبه الى السلطان محمود بن ملكشاه السلجوقى سلطان العراق — وكان بهمذان — وعرض عليه الدخول فى خدمته ، فرحب به السلطان محمود لسابق معرفته بوالده وخدمته للأسرة السلجوقية على عهد أبيه ملكشاه ، بالاضافة الى ما سمعه عن شجاعة عماد الدين نفسه ، وبطولته فى حروبه ضد الصليبيين بالشام ، فألحقه فى جيشه وزوجه أرملة أحد كبار قواده ، ثم أقطعه مدينتى البصرة وواسـط ، فسار الى واسط وفى رفقته زين الدين على . ولما رأى السلطان شجاعة عماد الدين ومهارته الحربية فى الحروب التى خاضها معه ضد الخليفة العباسى ولاه شحنكية [1] بغداد . وفى سـنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) انتقـل عماد الدين من أمير صغير لولايتين صغيرتين الى أمير كبير على امارة من كبريات الامارات الاسلامية ، وهى امارة الموصل .

فقد كانت الموصل حتى سنة ٥٢٠ هـ تحت حكم قسـيم الدولة آقسنقر البرسقى ، وكانت الموصل فى ذلك الوقت تتزعم حركة المقاومة الاسلامية للغزو الصليبى بالشام ، وقد حدث أن قتل البرسقى فى تلك السنة غدرا [2] ، فخلفه ابنه عز الدين مسعود ، ولكن بدلا من أن يوجه مسعود مجهوده الحربى ضد

---

(١) الشحنة : لفظ فارسى ، معناه : محافظ المدينة ، أو نائب الملك أو رئيس البوليس والمعنى الأول هو المقصود هنا .

(٢) الكامل ، ج/٨/ص/٣٢٠ .

الصليبيين كما كان يفعل أبوه ، فانه وجهه ضـد مدينة دمشق الاسلامية طمعا فى الاستيلاء عليها [1] ، فخرج بجيش الموصل اليها ، ومرّ وهو فى طريقه الى دمشق على مدينة الرحبة فحاصرها واستولى عليها ، ثم أخذ يتجهز لكى يواصل مسيره الى دمشق ، الا أنه مرض مرضا شـديدا توفى به على الاثر ، فأقام نائب مسعود بالموصل ، ابنا قاصرا لمسعود أميراً عليها [2] .

ولما كانت الموصـل تقـع تحت حكم السـلطان محمـود السلجوقى ، كان لابد لنائب الموصل من أن يحصل على موافقة السلطان على احلال الطفل مكان أبيه فى الامارة ، ومن ثم أرسل رسـولين الى السلطان للحصول على هذه الموافقة ، فلما علم عماد الدين وهو ببغداد بذلك ، اتصل بالرسولين بواسطة بعض أصدقائه يعرض عليهما أن يتولى هو امرة الموصل فى مقـابل اعطائهما اقطاعات فى الموصـل اذا تمت ولايتـه عليها ، فأجابه الرسولان الى ذلك ، وقد دفعهما الى الاجابة أيضا كراهتهما لنائب الموصل وتخوفهما منه . ولما اجتمعا بالسلطان نجحا فى اقناعه بتولية عمـاد الدين امرة الموصل بدلا من ابن مسعود القاصر ، متذرعين بدقة موقف الموصل بالنسبة لخطورة الصليبيين، وأن زعامة الموصل لحركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين تتطلب أن يولى عليها رجل ذو خبرة وكفاءة حربية ممتازة ، وأن عماد الدين

---

(١) طمع مسعود بدمشق هو أحد الأمثلة ل « عصر الغلبه » الذى ذكرناه فى الفصل السابق .

(٢) الكامل ، جـ ٨/ص/٣٢٤ .

هو خير من يتولى امرة الموصل ، فاقتنع السلطان بحجتهما ، وولى عماد الدين أميرا عليها ، فسار عماد الدين اليها ، وفى رفقته صاحبه زين الدين على [1] .

وما أن استقر عماد الدين فى الموصل ، حتى كافأ صاحبه زين الدين مكافأة طيبة ، بأن جعله من كبار قواد جيشه ، وقربه منه حتى أصبح من أقرب الناس اليه ، اذ بفضل مشورته المباركة بدخوله فى خدمة السلطان محمود ، وصل الى ما وصل اليه من مكانة رفيعة بعد أن كان قائدا أجيرا فى خدمة أمراء الموصل .

ومنذ أن عين زين الدين قائدا كبيرا فى جيش عماد الدين أصبحت حياته كلها حياة حرب وكفاح فى ميادين القتال ، أسوة بحياة صاحبه عماد الدين .

فقد كان عماد الدين ذا نفس طموحة وآمال واسعة ، وكان طموحه يمتد الى انشاء دولة كبيرة تحمل اسمه واسم أبنائه من بعده ، أسوة بالأسر الاسلامية الحاكمة العديدة فى دولة الخلافة ، ففى الشام أسرة بنى طغدكين ومقرها دمشق ، وقد كان طغدكين — مثله — قائدا فى جيش صاحبها تاج الدولة تتش السلجوقى ، ثم استطاع بمواهبه أن يبرز وأن ينشىء له مكانة ممتازة بدمشق ، فلما مات تاج الدولة ومن بعده ابنه دقاق ، نصّب نفسه حاكما على المدينة وما يتبعها من مدن ، ونال موافقة كل من الخليفة والسلطان على ذلك ، ثم أورث الحكم لأبنائه

(١) الكامل ، ج ٨/ص/٣٢٤ .

من بعده ، فلماذا لا يكون عماد الدين مثل طغدكين وينشيء دولة تحمل اسمه واسم أبنائه ؟ يضاف الى ذلك الخطر الصليبي الجاثم فى قلب العالم الاسلامى ، أعنى الشام ، وعماد الدين يعد نفسه — كمسلم — مسئولا عن ازاحة هذا الخطر ، ومن ثم قرر أن يكرس حياته لجهاد الصليبيين حتى يطهر أرض الاسلام منهم ، ولكنه فى الوقت نفسه ، يعلم أنه لا يمكن تحقيق ذلك الا بوجود قوة كبيرة موحدة يستطيع بها مواجهة الصليبيين ، وقوة الموصل وحدها لا تكفى لانجاز هذه المهمة ، وتحالفه مع القوى الاسلامية المجاورة له فى منطقة الجزيرة والشام لا تجدى نفعا ، فقد جرت محاولات سابقة لمثل هذا التحالف وباءت كلها بالفشل ، وسبب ذلك ما كانت عليه الجزيرة والشام من تفكك وانحلال ، بالاضافة الى روح المنافسة الطاغية التى كانت تسود أمراء المنطقة ، فكل أمير طامع فيما يملكه جاره يحاول جاهدا الاستيلاء على بلاده ، فكان الحسد المستحكم بينهم ، يحول بينهم وبين تكوين حلف جدّى يقوم أساسا على الثقــة المتبــادلة فيما بينهم جميعا ، وعماد الدين يعلم هذا جيدا حين كان يعمل فى جيوش الموصل ، وحين كان يحارب فى صفوف الجيوش المتحالفة ، فهو خبير بها ، لذلك وجد أن الطريق الأمثل لتكوين قوة كبيرة متحدة لمحاربة الصليبيين ، هو جمع الامارات العديدة المبعثرة فى منطقة الجزيرة تحت حكمه ، فيضع قواتها المحاربة تحت قيادته ، ويضمن فى الوقت نفسه موردا ثابتا لزيادة أعداد جيشه بما يجنده من أبناء الامارات ، وكذلك يضمن موارد تموينية ثابتة لجيوشــه من

زراعاتها ، وهكذا ساعدت الظروف الصليبية عماد الدين ومهدت له الفرصة لتحقيق مشروعه فى بناء دولة تحمل اسمه .

وعلى ذلك ، كان على عماد الدين أن يحارب فى جبهتين ، الجبهة الاسلامية فى الجزيرة والشام لتكوين دولته ، والجبهة الصليبية فى الجزيرة والشام أيضا لتطهير البلاد منهم .

وقد ألقى عماد الدين عبء انشاء الدولة فى قسمها الجزرى على عاتق زين الدين ، فقد كان زين الدين هو قائد الجيوش التى قامت بعملية توحيد امارات الجزيرة ، ففتح بنفسه واشترك مع عماد الدين فى فتح كثير من هذه البلاد ، كبلاد الأكراد الهكارية وقلاعها ، وبلاد الأكراد الحميدية وقلاعها (١) .

كذلك اشترك زين الدين فى حروب عماد الدين ضد الخلفاء العباسيين وضد السلاطين السلاجقة ، فقد كانت علاقة عماد الدين بهم جميعا تحددها مصالحه الخاصة والعامة ، فهو أحيانا مطيع للخلفاء ينتصر لهم ضد السلاجقة ، وأحيانا أخرى معاند لهم ينتصر للسلاطين ضدهم ، أو هو ينتهز فرصة حدوث خلاف بين الخليفة والسلطان فيعمل لحسابه الخاص ؛ من ذلك موقفه من الملك مسعود السلجوقى ، فقد انتهز فرصة النزاع بين الملك وبين الخليفة المسترشد بالله على السلطنة فى سنة ٥٢٦ هـ ، فزحف على مدينة اربل — وهى من أملاك الملك مسعود — وحاصرها للاستيلاء عليها ، فلم يستطع الملك مسعود الدفاع عنها ، فساوم

(١) التاريخ الباهر ، ص/١٣٥ .

عماد الدين عليها ، واتفق معه على تسليمها له فى مقابل أن يعاونه عسكريا ضد الخليفة لكى يتولى سلطنة العراق ، فقبل عماد الدين ذلك ، واشترك معه فى حرب الخليفة ، وتسلم مدينة اربل وضمها الى ممتلكاته ، ثم أقطعها لزين الدين على (١) ، فسلمها زين الدين لنائب له ليقوم على حكمها وادارة شئونها ، وفى سنة ٥٤٩ ، سلمها لمملوكه مجاهد الدين قايماز ليحكمها نيابة عنه .

واشترك زين الدين أيضا مع عماد الدين فى تطهير اقليم الجزيرة من الصليبيين ، فقد كان لهؤلاء الغزاة فى هذا الاقليم مدينة الرها ، وكانت هذه المدينة أول مدينة اسلامية حولهـا الصليبيون الى امارة صليبية ، وأقاموها فى بلاد الاسلام فى أول غزوتهم سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) ، وظلت المدينة فى يدهم حتى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) بالاضافة الى ما احتلوه من البـلاد المجاورة لها ، وقد صبر عليهم عماد الدين حتى استكمل قوته ، ووثق من نفسه بأنه أصبح من القوة بحيث يستطيع انتزاعها منهم ، فعزم على استردادها فى تلك السنة ، فجرد عليها جيوشه ، وكان هو الذى يقود المعركة بنفسه ، ويعاونه فيها كبار قواده ومنهم زين الدين على . وأرى أنه لا بأس من ايراد وصـف للمعركة بقلم مؤرخ معاصر لها هو ابن القلانسى ليقف القارىء على المجهودات الضخمة التى كان يبذلها المسلمون لاسـترداد البـلاد من الصليبيين ، والصراع العنيف الذى كان يدور بين الفريقين فى المعارك ذات الأثر الفعال . قال ابن القلانسى فى أخبار سنة ٥٣٩ هـ

---

(١) مفرج الكروب ، جـ ١ / ص ٩٧ .

ان عماد الدين « فتح مدينة الرها بالسيف ، مع ما هى عليه من القوة والحصانة والامتناع على قاصديها ، والحماية على طالبيها » ثم يقول ، ان عماد الدين استدعى جميع التركمان فى الجزيرة ، « فوصل اليه منهم الخلق الكثير والجم الغفير ، بحيث أحاطوا بها (أى بالرها) من جميع الجهات ، وحالوا بينها وبين ما يصل اليها من الميرة والأقوات ، وأن الطـائر لا يكاد يقرب منها خوفا على نفسه من صوائب سهام منازليها ، ويقظة المضيقين عليها ، ونصب على أسوارها المجانيق [1] ترمى عليها دائما والمحـاربة لأهلها ، وشرع الخراسانيون والحلبيون العارفون بمواضـع النقوب ، فنقبوا فى عدة مواضع عرفوا أمرها ، وتيقنوا نفعها وضرها ، وما زالوا على هذه الحال فى الايغال فى النقب ، والتمادى فى بطن الأرض ، الى أن وصلوا الى تحت أساس أبراج السور ، فعلقوه بالأخشاب المحكمة والآلات المنتخبة ، وفرغوا من ذلك ولم يبق غير اطلاق النار فيها ، فاستأذنوا عماد الدين أتابك فى ذلك فأذن لهم بعد أن دخل فى النقب وشاهد حاله ، واستعظم كونه وهاله ، فلما أطلقت النار فى تعليق النقوب ، تمكنت من أخشابها وأبادتها ، فوقع السور فى الحال ، وهجم المسلمون على البلد ؛

---

(١) جمع منجنيق : وهو آلة حربية تستعمل لهدم أسـوار المدينة المحاصرة • ويصفه القلقشندى فى كتابه (صبح الأعشى ، ج ٢/ص ١٤٤) بأنه «آلة خشب ، له دفتان قائمتان بينهما سهم طويل ، رأسه ثقيل وذنبه خفيف تجعل كفة المنجنيق التى يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه، فما أصاب شيئا الا أهلكه» •

بعد أن قتل من الجهتين الخلق الكثير على الهدم »[1] . وهكذا سقطت امارة الرها ، أول حصن حصين أقامه الصليبيون فى أرض الاسلام ، وتحقق ما كان يتوقعه عماد الدين من سقوطها ، فان المدن المغتصبة فى اقليم الجزيرة ما لبثت أن سقطت فى يده الواحدة تلو الأخرى ، حتى أنه لم يبق صليبى واحد فى أرض الجزيرة .

ثم انتقل زين الدين من ميدان الحرب — مؤقتا — ليدخل ميدان العمل الادارى ، وذلك أن مدينة ألبيرة — وهى من بلاد الجزيرة — كان معظم سكانها من الأرمن ، وكان الأرمن ضالعين مع الصليبيين ضد المسلمين ، فلما انتهى عماد الدين من أمر الرها وغيرها ، عطف على مدينة ألبيرة ليفتحها ويدخلها تحت حكمه . وبينما كان يحاصرها بجيشه ، جاءه نبأ مقتل نصير الدين جقر نائبه فى الموصل ، فجزع عماد الدين بادىء ذى بدء لفقده رجلا فذا من رجاله ، كان يعتمد عليه ويأمنه على الموصل حين يتركها لفترة من الزمن تطول أو تقصر ، ولكنه لم يلبث أن هدأ روعه حين تذكر أن معه رجلا لا يقل عن نصير الدين مقـدرة وكفاءة ، هو صاحبه زين الدين على ، وكان زين الدين مـع عماد الدين على حصار ألبيرة ، فأعفاه عماد الدين من القتـال وأرسله على جناح السرعة ليحل محل نصير الدين فى نيـابة الموصل ويضبط أمورها ، فسار زين الدين اليها وشغل منصب نصير الدين ، فأخذ الناس يتساءلون عن سياسة زين الدين وكيف تكون ، هـل هى سياسة القسـوة والعنف التى كان يتبعها

(١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ .

قصير الدين ، أم أنه سيكون أشد قسوة منه وعنفا بحكم مهنته كمقاتل ، ولكن زين الدين خيب ظن المتشائمين ، حيث ساس الناس سياسة أرضت الجميع ، فقد اتبع سياسة العدل واللين ، فحمده الناس وشكروا له حسن معاملته لهم (١) .

وفى سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) قتل عماد الدين زنكى وهو يحاصر قلعة جعبر ، وكان زين الدين نائبا عنه فى الموصل ، وكادت أن تحدث مأساة يفقد بسببها أبناء عماد الدين دولة أبيهم ، لولا أن تدخل كبار رجال الدولة : زين الدين على ، وجمال الدين محمد ، وصلاح الدين الياغيسانى ، فعملوا على حفظ الدولة لأبناء عماد الدين .

وقبل أن نذكر دور زين الدين على فى الدولة الزنكية الجديدة ، نريد أن نذكر ماذا كان نصيب زين الدين من عماد الدين مكافأة له على جهوده الكبيرة التى بذلها من أجله ، والجواب على ذلك أن عماد الدين كافأ صاحبه ورفيقه مكافأة جليلة ، حيث أقطعه كثيرا من المدن والقلاع مثل مدن الأكراد الهكارية والحميدية وقلاعها ، كذلك أقطعه مدينة اربل ، فأصبح زين الدين بذلك من الأمراء الكبار ، فكان لمتانة مركزه أثر كبير فى ازدياد نفوذه فى الموصل بعد عماد الدين .

ونعود الى زين الدين بعد مقتل عماد الدين ، فقد ذكرنا أن عماد الدين قتل وهو محاصر قلعة جعبر ، وكاد مقتله أن يخرج الدولة من أيدى أبنائه ، وذلك أنه كان مع عماد الدين على

---

(١) التاريخ الباهر ، ص ٧٢ .

حصار جعبر الملك ألب أرسلان بن السلطان محمود السلجوقى ، فحدثته نفسه بأن يحل محل عماد الدين فى الدولة ، فأخذ يجمع حوله بعض قواد عماد الدين ويرغبهم بالعطاء والأموال حتى اجتمعوا عليه ، ولكن جمال الدين محمدا وزير عماد الدين وصلاح الدين الياغيسانى أحد قواده — وكانا مع عماد الدين على الحصار — استطاعا أن يمكرا بالملك ، فتظاهرا له بالطاعة ، وأقنعاه بالمسير معهما الى الموصل كملك عليها ، فسار معهما الى حيث لقى مصيره دون أن يحس به أحد .

وكان زين الدين قد أسرع بمجرد أن سمع بخبر مقتل عماد الدين ، فأرسل الى سيف الدين غازى بن عماد الدين — وكان بمدينة شهرزور — من أخبره بمقتل والده ويدعوه الى الموصل على جناح السرعة ليجلسه مكان أبيه ، فسار سيف الدين من شهرزور الى الموصل فدخلها واستقر بها [1] ، وهكذا حافظ زين الدين على استمرار الدولة التى كان هو سبب وجودها .

وبمقتل عماد الدين انقسمت دولته قسمين : القسم الغربى ويشمل الموصل والجزيرة وقد اختص به سيف الدين غازى ، والقسم الشرقى ويشمل حلب وما يتبعها من مدن الشام ، وقد اختص به نور الدين محمود — أخو سيف الدين .

وقد عرف سيف الدين غازى لزين الدين فضله فى حفظ الموصل للبيت الزنكى ، فأقطعه مدينة شهرزور الى جانب ما بيده

---

(١) التاريخ الباهر ، ص ٨٥ .

من البلاد ، فزادت بذلك اقطاعات زين الدين وعظمت قوته ، كذلك فوض سيف الدين اليه أمور الدولة كلها بالاشتراك مع وزيره جمال الدين محمد بن على الأصفهانى .

وكان سيف الدين يقدر مواهب زين الدين الحربية ، فقد سمع كثيرا عن شجاعته وبطولته وجرأته فى القتال أثناء أن كان يحارب مع أبيه ، فولاه امرة جيش الموصل ، أى قائدا عاما له [1] ، وبذلك اطمأن سيف الدين الى أنه سلم قياده الى رجل كفء ، يجمع بين الاخلاص والمقدرة الحربية .

واشترك زين الدين مع سيف الدين فى حروبه ، فان عماد الدين كان قد استولى من بنى أرتق أمراء دياربكر على بعض بلادهم ، مثل : دارا ، ونصيبين وغيرهما ، فلما قتل عماد الدين ، استرد بنو أرتق بعض هذه البلاد ، فعندما استقر سيف الدين فى الموصل ، خرج بجيشه وعلى رأسه قائده زين الدين ، وحارب الأراتقة ، واستعاد منهم ما استردوه من البلاد [2] .

ولم يطل العهد بسيف الدين غازى ، فقد توفى بعد نحو ثلاث سنوات من ملكه ، أى فى سنة ٥٤٤ هـ [3] (١١٤٩ م) .

ولما توفى سيف الدين ، لم يكن هناك من يخلفه على الملك من ذريته ، وكان قبل موته قد أوصى بملكه الى أخيه قطب الدين

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٢٤ .
(٢) التاريخ الباهر ، ص ٩٠ .
(٣) التاريخ الباهر ، ص ٩٢ .

مودود ، كذلك أوصى بأن يكون زين الدين المستشار الخاص له ، لما لزين الدين من الخبرة والتجارب الطويلة ، فضلا عما يمتاز به من الاخلاص للبيت الزنكى والوفاء له ، وأوصى أيضا بأن يظل جمال الدين وزيرا له ، فجمع زين الدين وجمال الدين — بعد وفاة سيف الدين — الأمـراء والكبراء وقواد الجيش وحلّفاهم على الولاء لقطب الدين والطاعة له ، فلما تم ذلك كله ، عيّن قطب الدين ، زين الدين نائبا عنه فى بلاده كلها ، وعيّن جمال الدين وزيرا له [1] .

ظل زين الدين أميرا على جيش الموصل الى جانب مباشرته أمور الدولة ، فكان لذلك أكبر رجل فى الدولة بعد قطب الدين ، فقد « تمكن زين الدين فى دولة قطب الدين تمكنا عظيما » [2] و « كان هو الحاكم فى الدولة » [3] ، فكان لا يبرم أمـر الا بموافقته ، ومع ذلك لم يكن قطب الدين برما بقوة زين الدين ، ثقة منه بأنه يعمل لما فيه مصلحته ومصلحة دولته ، لذلك كان يكافئه بزيادة اقطاعه كلما استدعى الأمر ذلك .

واتبع قطب الدين سياسة والده عماد الدين مع الخليفة العباسى والسلاطين السلاجقة فى الخلافات التى كانت تنشب بينهم ، هذه السياسة التى كانت تكيفها مصالح الدولة والفائدة التى تعود عليه من ورائها .

---

(١) التاريخ الباهر ، ص ١١٣ ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٧.
(٢) التاريخ الباهر ، ص ٨٢ .
(٣) الكامل ، جـ ٩/ص ٩٧ .

ففى سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) ، اضطربت العلاقة بين الخليفة لأمر الله وبين الملك محمد بن السلطان محمود السلجوقى بسبب السلطنة أدت الى الحرب ، فلجأ الملك محمد الى قطب الدين مودود يطلب منه معونة عسكرية ، فأمده قطب الدين بجيش على رأسه زين الدين .

فقد طلب الملك السلجوقى محمد بن السلطان محمود صاحب اقليم الجبل : الرى وهمذان وغيرهما ، من الخليفة أن يخطب له بالسلطنة فى بغداد ، فرفض الخليفة طلبه وخطب لعمه — عم الملك محمد — سليمان شاه ، واتفق الخليفة مع سليمان شاه على حرب الملك محمد وأمده بالمال والرجال ، فخرج سليمان شاه بالجيش الى قتال ابن أخيه ، وأرسل الى ملكشاه — أخى الملك محمد — لينضم اليه فاستجاب له ، فلما علم الملك محمد بذلك ، أرسل الى قطب الدين مودود والى زين الدين علىّ يطلب منهما مساعدته ، وبذل لهما بذولا سخية فى مقابل ذلك ، فاستجابا اليه ، وخرج زين الدين بجيش الموصل الى همذان لينضم الى الملك محمد ، ثم نزل على مدينة شهرزور لاراحة الجيش ، وبينما هو مقيم بها ، جاءته الأخبار بأن القتال قد نشب بين الملك محمد وسليمان شاه ، وأن الهزيمة قد حلت بسليمان شاه وأنه فى طريقه الى بغداد عن طريق شهرزور ، فرابط له زين الدين فى الطريق وقبض عليه وعاد به الى الموصل واعتقله بها ، وأرسل الى الملك محمد يبشره بنبأ القبض على سليمان شاه ، ويعده « المعاضدة له

على كل ما يريده منه والمساعدة له»[1] . وهكذا نرى أن قطب الدين وزين الدين قد وقفا الى جانب الملك محمد السلجوقى ضد الخليفة ، واذا كان ظاهر الخبر يشير الى أن القتال كان بين ملكين سلجوقيين ، الا أن الحقيقة ، أن القتال كان بين الخليفة وبين الملك السلجوقى محمد ، لأن الخليفة كان يساند سليمان شاه ، حيث أمده بالمال والرجال ، بل ان هناك خبرا يقول ، ان الخليفة خرج بنفسه حتى مدينة حلوان [2] تشجيعا لسليمان شاه .

وقد أثار تصرف الخليفة ، الملك محمدا ، لرفضه أولا الخطبة له ببغداد وتفضيله عمه سليمان شاه عليه ، ثم تحريضه سليمان شاه على حربه وقتاله ، فسار بجيشه الى بغداد لحصارها ومقاتلة الخليفة ، وأرسل الى قطب الدين وزين الدين مرة أخرى لكى يمداه بالجند ، فسار زين الدين الى بغداد يقود جيش الموصل وانضم الى الملك محمد ، فدار القتال عندئذ بين الجيوش المتحالفة وبين جيش الخليفة ، وكان نصيب زين الدين من القتال كبيرا ، وبينما كانت المعركة حامية الوطيس ، فتر زين الدين عن القتال فجأة وتخلى عن الملك محمد ، الأمر الذى أدى الى اضعافه وأخر انتصاره على الخليفة مما أطمع أعداؤه به ، فاستولوا على همذان ، فلما سمع الملك محمد بذلك عاد اليها لاستردادها ، وبذلك فشلت حملته على بغداد . أما سبب فتور زين الدين عن

---

(١) الكامل ، ج ٩ / ص ٤٨ .

(٢) حلوان : مدينة فى آخر حدود سواد العراق مما يلى جبال بغداد (معجم البلدان ، ج ٣ / ص ٣٢٢) .

القتال ، فان الخليفة كان يراسله سرا ويستميله اليه ، فاستجاب له زين الدين [1] ، ولم يذكر المؤرخون الثمن الذى قبضه زين الدين من الخليفة فى مقابل تخليه عن نصرة الملك محمد ، وان كان من المؤكد ، أنه لم يتخل عنه الا فى مقابل عوض ، قبضه مقدما أو وعد به .

وكاد زين الدين أن يصبح قائداً لجيش سلطان سلجوقى ، هو سليمان شاه نفسه الذى كان قد قبض عليه زين الدين ، ذلك أن الملك محمدا — ابن أخى سليمان شاه — توفى سنة ٥٥٤ ، فأرسل المسئولون فى حكومة الملك محمد فى همذان الى قطب الدين مودود يطلبون منه أن يرسل اليهم سليمان شاه ليولوه سلطانا مكان الملك محمد ، فاتفق قطب الدين مع سليمان شاه ، على أن يكون سليمان شاه سلطانا ، وأن يكون قطب الدين أتابكه ، أى المدبر لشئون سلطنته ، وأن يكون جمال الدين — وزير قطب الدين — وزيرا لسليمان شاه ، أما زين الدين على فيكون قائدا عاما لجيش السلطنة . وبعد أن تم الاتفاق بين قطب الدين وسليمان شاه على ذلك ، جهز قطب الدين جيشا بقيادة زين الدين لمرافقة سليمان شاه الى همذان مقر سلطنته ، فلما قاربوا بلاد الجبل ، أقبلت عساكرها لاستقبال سليمان شاه ، حتى تجمع لديه جيش ضخم ، فخافهم زين الدين على نفسه ، لأنه رأى من تسلطهم على سليمان شاه « واطراحهم الأدب معه

(١) الكامل ، ج ٩ / ص ٥١ ، التاريخ الباهر ، ص ١١٤ .

ما أوجب الخوف منهم » ، فترك سليمان شاه وعاد بجيشه الى الموصل ، ففشل المشروع لهذا السبب [1] .

وكما كان زين الدين على موضع ثقة ملوك الموصل الذين كان يعمل فى خدمتهم ، فانه كان أيضا موضع ثقة نور الدين محمود صاحب الشام ، بحيث أقطعه نور الدين مدينة حران — وهى من أملاكه — لحمايتها ثقة منه به . فقد مرض نور الدين فى سنة ٥٥٤ مرضا شديدا فى حلب حتى أرجف بموته ، وكان أخوه نصر الدين أمير أميران فى مدينة حران ، وكان نور الدين قد أقطعها له ، فلما بلغ نصر الدين مرض أخيه وتوقع موته طمع فى أن يحل محله فى الحكم ، فسار من حران الى حلب للاستيلاء عليها ، ولما دخلها أغرى بعض قواد جيش أخيه وكبار رجال الدولة فيها بالانضمام اليه ، ولكن لما أخذ نور الدين يتقدم الى الشفاء ، ندم نصر الدين على ما أقدم عليه ، وتنبه الى خطئه الذى اقترفه فى حق أخيه ، فرحل عن حلب الى حران ، وكان قد بلغ نور الدين ما فعل أخوه ، فغضب منه وعزم على تأديبه بأخذ حران منه ، فلما أن تماثل للشفاء ، خرج بجيشه من حلب الى حران وحاصرها ، فلما اشتد الحصار على نصر الدين وعرف عجزه عن المقاومة فر من المدينة ، فاستولى نور الدين عليها . ويبدو أن نور الدين استعان بجيش الموصل وبقائده زين الدين على ، حيث سلم نور الدين المدينة لزين الدين ليقوم على

(١) التاريخ الباهر ، ص ١١٤ .

حكمها [1] . وبذلك زادت اقطاعات زين الدين فازدادت لذلك قوته .

ولما كان نور الدين قد انفرد بحكم البلاد التى كانت لأبيه فى الشام ، فانه قد وقع عليه وحده عبء مقاتلة الصليبيين ومواصلة عملية استرداد البلاد منهم التى بدأها أبوه عماد الدين ، وكان عماد الدين قد استطاع أن يسترد كثيرا من البلاد منهم ، فكان على نور الدين أن يواصل عملية الاسترداد هذه من ناحية ، وأن يعمل على الاحتفاظ على ما بيده من البلاد من خطرهم من ناحية أخرى .

غير أنه كان هناك تعاون بين الأخوين نور الدين وقطب الدين، وقد اشترك قطب الدين بنفسه وبجيشه مع أخيه فى بعض المعارك الهامة ضد الصليبيين ، وكان لزين الدين دوره فى هذه المعارك بحكم قيادته العامة لجيش الموصل .

من ذلك ما حدث فى سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٣ م) ، فقد عزم نور الدين على فتح مدينة حارم [2] ، وكانت بيد الصليبيين ، وسبب ذلك أنه فى تلك السنة قامت فتنة فى مصر بين وزيرها شاور ومنافس له على منصب الوزارة يقال له ضرغام ، وقد تمكن ضرغام من اقصاء شاور عن منصبه ، فهرب شاور الى الشام ولجأ الى نور الدين محمود يطلب مساعدته على اعادته الى

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٨ ، الكامل ، ج ٩/ص ٦٧ .

(٢) حارم : مدينة تقع غرب حلب قرب أنطاكية، وهى من أمنع الحصون وأحصنها (التاريخ الباهر ، ص ١٠٩) .

منصبه ، وبذل له فى سبيل هذا المسعى بذولا سخية ، وذلك بأن تعهد له أن يعطيه ثلث ايراد مصر ، وأن يعطى جنده ثلثا آخر علاوة على ما ينفقه عليهم أثناء اقامتهم فى مصر من النفقات وحلف له على ذلك ، فرأى نور الدين أن يستجيب له ، فجرد جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه الذى استطاع أن يتغلب على ضرغام وأن يعيد شاور الى منصبه ، ولكن ما ان استقر شاور فى الوزارة وضمن حياته بموت ضرغام ، حتى حنث فى يمينه لنور الدين وأبى تنفيذ ما وعد به ، بل انه فعل أكثر من هذا ، فقد أمر أسد الدين بمغادرة مصر فورا والعودة الى الشام بجنده ، فغضب أسد الدين على شاور ، وعزم على ارغامه على تنفيذ ما تعهد به بالقوة ، فلما رأى شاور الجد من أسد الدين ، ثم رأى أنه لا يستطيع مقاومته ، لجأ الى الصليبيين يستنجد بهم ، فأرسل اليهم واستدعاهم من الشام لكى يساعدوه على اخراج أسد الدين من مصر ، وكان هذا الاستدعاءفرصة طيبة للصليبيين ، فقد كانوا يتحرقون شوقا للاستيلاء على مصر ، وحاولوا ذلك مرارا ، ولكنهم فشلوا فى كل محاولة قاموا بها ، فحين استدعاهم شاور لمساعدته ، طمعوا فى تثبيت أقدامهم فيها بحجة حماية شاور ، فساروا اليها فى جيش لجب ، واشتبكوا مع أسد الدين — يظاهرهم شاور وجيشه — فى معارك عديدة ، انتهت بما يشبه الهزيمة لأسد الدين ، وان كانت انتهت أيضا بتحطيم أمل الصليبيين فى بقائهم فى مصر ، فقد انتهت الحرب بالاتفاق

بين أسد الدين وبين الصليبيين على أن يرحلوا جميعا عن مصر ، ويعود كل منهم الى بلاده [1] .

وكان نور الدين قد علم — وأسد الدين لايزال بمصر — بما حدث من شاور من غدر ومن استدعائه الصليبيين من الشام لحرب أسد الدين : فعزم على ازعاج الحملة الصليبية التى سارت الى مصر ، وذلك بالاغارة على البلاد التى بأيديهم بالشام ، فتضطر الحملة — أو بعضها — الى العودة الى الشام للدفاع عن بلادها ، وبذلك يخف ضغطهم على أسد الدين .

واختار نور الدين ميدان المعركة اختيارا موفقا ، اختار مدينة حارم ليوجه اليهم ضربته منها ، لما لها عند الصليبيين من مكانة دينية مقدسة .

وكان نور الدين يعلم أنه مقدم على عمل خطير لا يستطيع أن يقوم به وحده ، لأنه يعلم أن الصليبيين جميعا لن يتركوه يستولى على حارم وانما سوف يقاتلونه قتالا مريرا ، لذلك لجأ الى أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل والى الأمراء المسلمين فى الجزيرة يدعوهم الى الاشتراك معه فى هذه الحرب ، فاستجاب له أخوه وسار اليه بجيش الموصل وعلى رأسه زين الدين على كذلك استجاب له الأمراء المسلمون ، فساروا اليه بجيوشهم ، فتجمع لدى نور الدين من هذه الجيوش جيش يصفه ابن الأثير المؤرخ لعظمته بأنهم « كانوا جيش الطواويس ، وكل منهم فى

---

(١) التاريخ الباهر ، ص ١١٩ .

ببيض الحديد وألوان التشاهير يختال ويميس » [1] ، فسار نور الدين بجيش الطواويس هـذا الى حـارم ، ونزل عليها وحاصرها .

أما الصليبيون ، فقد تحقق ما توقعه نور الدين منهم ، فقد حشدوا كل من يصلح للقتال من محارب وغير محارب ، حتى رجال الدين أشركوهم معهم فى المعركة ، يقودهم كبار قوادهم وأمرائهم . ويصف ابن الأثير استعداد الصليبيين وتكتلهم للدفاع عن حارم بقوله : « وجـاءوا فى حدهم وحـديدهم ، وعدهم وعديدهم ، وقضهم وقضيضهم ، وملوكهم وفرسانهم ، وأساقفتهم ورهبانهم ، قد حشدوا حتى أرباب الصوامع ، ولم يشعروا أنهم رزق الذئاب والخوامع [2] ، وأقبلوا اليه رجالا وعلى كل ضامر ، فى كل قرن مساور وبطل مهاصر ، قد ألف النزال ، واعتـاد اقتناص الأبطال ، فهم لكثرتهم من كل حدب ينسلون ، فارتاع لكثرتهم المسلمون ، وكان مقدم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية ، والقمص [3] صاحب طرابلس وأعمالها ، وابن جوسلين — وهو

---

(١) التاريخ الباهر ، ص ١٢٣ .

(٢) الخوامع : جمع خامع ، وهى الضبع .

(٣) القمص : تعريب حرفى للفظة اللاتينية Comes أى الأمير . ومعناها الأصلى فى اللاتينيه « الرفيق » لأنه فى بادىء الأمر يرافق الملك فى حروبه وتنقـلاته . ولفظة Comes اللاتينية هى التى حورت فى اللغة الفرنسية الى Comte . واعتادت المراجع العربية أن تعربها الى : كد ، وكند ، وقند . (التاريخ الباهر ، ص ٤١ / حاشية ٤) .

من مشاهير الفرنج وأبطالها — والدوك — وهو رئيس الروم ومقدمها — وجمعوا من الراجل ما لا يقع عليه الاحصاء ، قد ملأوا الأرض وحجبوا بقسطلهم السماء » .

ثم تقابل الفريقان ، المسلمون والصليبيون ، وجها لوجه ، ودارت بينهم معركة من أشد المعارك هولا ، صبر فيها الخصسان صبرا عجيبا ، وظهر من الخصمين من البطولة ما يدعو الى الاعجاب ، وكان دور زين الدين فيها دورا له خطره وأثره .

يصف ابن الأثير المعركة الخالدة فى تاريخ معارك الحروب الصليبية ، فيقول : « فلما تقاربوا اصطفوا للقتال ، وتهيأوا للنزال ، وتدانت الخطى ، وكشف الغطا ، وبدأ الفرنج (الصليبيون) بالحملة على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين ، فبددوا نظامهم ، وزلزلوا أقدامهم ، وولوهم الأدبار ، وركنوا الى الفرار ، فتبعهم الفرنج ، وكانت تلك الفرة من الميمنة عن اتفاق ورأى دبروه ، ومكر بالعدو مكروه ، وهو أن يبعدوهم عن راجلهم ، فيميل عليهم من يبقى من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ، ويرغموا منهم الأنوف ، فاذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين ، لم يلقوا راجلا يلجأون اليه ، ولا وزرا [1] يعتمدون عليه ، ويعود المنهزمون فى آثارهم ، يكسعون أدبارهم ، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم ، فيعجل لهم بوارهم وحتفهم » . وجازت الحيلة على الفرسان الصليبيين ، اذ أنهم

---

(١) : ألوزر : بفتحتين، الملجأ. وأصله الجبل.(مختار الصحاح).

ما كادوا يرون ميمنة المسلمين تترك الميدان هاربة ، حتى لحقوا بهم لكى يبيدوهم ، فخلا الميدان منهم ، وأصبح المشاة الصليبيون وحدهم فى الميدان ، وهنا جاء دور زين الدين لحسم المعركة ، واستئصال مشاة الصليبيين استئصالا تاما ، فما أن رأى زين الدين الفرسان الصليبيين يطاردون المسلمين المنهزمين ؛ حتى عطف على رجالتهم بجيش الموصل ، فانحطوا عليهم بالسلاح يطيحون منهم الأعناق ، ويأسرون منهم من لم يستطع الفرار ، وبذلك زال خطرهم عن المسلمين .

ثم تنبه الفرسان الصليبيون الى أنهم تركوا مشاتهم من غير حماية ، فخافوا عليهم من الفناء ، وهم لا يدرون ما حل بهم ، فعادوا اليهم ليحموهم من المسلمين ، ولكنهم وجدوا أن أمرهم قد انتهى الى ما بين قتيل وجريح وأسير ، فكانت المفاجأة المذهلة لهم ، فأسقط فى أيديهم ، ثم فاجأتهم المفاجأة المذهلة الثانية ، وذلك أنه حين رأى المسلمون المنهزمون أن الفرسان الصليبيين قد كفوا عن مطاردتهم وعادوا الى ميدان القتال لأجل مشاتهم ، كروا عليهم من ورائهم ، فأصبح الصليبيون فى الوسط بين شقى الرحا ، فكان القتل من أمامهم ومن خلفهم ، وسدّ المسلمون عليهم المنافذ ، فأخذوا يتهاوون تحت سلاح المسلمين بين قتيل وجريح . ويصف ابن الأثير هذه المرحلة النهائية من المعركة ، فيقول :

« وكان الأمر على ما دبر ، والحال على ما قدر ، فان الفرنج لما تبعوا المنهزمين ، عطف زين الدين فى عسكر الموصل على

راجلهم فأفناهم قتلا وأسرا ، وعادت خيالتهم ولم يمعنوا فى الطلب خوفا على راجلهم من العطب ، فصادفوا راجلهم على الصعيد معفرين ، وبدمائهم مضرجين ، فسقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، وخضعت رقابهم وذلوا ، فلما رجعوا عطف حينئذ المنهزمون أعنتهم ، وعاودوا كرتهم بعد فرتهم ، فبقى العدو فى الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كل جانب ، وحمى الوطيس ، وباشر الحرب المرءوس والرئيس ، وقاتل الفرنج قتال من يرجو باقدامه النجاة ، وحاربوا حرب من أيس من الحياة ، واشتد الزحام ، وعظم اللزام ، وبطل العامل [1] وعمل الحسام ، وانقضت العساكر الاسلامية عليهم انقضاض الصقور على بغاث الطيور ، فمزقوهم بددا ، وجعلوهم قددا ، وألقى الفرنج بأيديهم الى الأسار ، وعجزوا عن الهزيمة [2] والفرار ، فأكثروا فيهم القتل ، وأوردوهم مناهل الفناء والهلك ، فزادت القتلى على عشرة آلاف ، وأما الأسرى فلم يحصوا كثرة » [3] .

فكانت هذه الوقعة أشر وقعة نزلت بالصليبيين ، ففضلا عن الألوف من جنودهم الذين سقطوا قتلى وجرحى وأسرى ، فان المسلمين أسروا جميع قوادهم وأمرائهم ، ثم سار نور الدين بعد هذا الانتصار الرائع الى المدينة فملكها فى ٢١ رمضان [4] ،

---

(١) هو عامل الرمح مما يلى السنان ، وهو دون الثعلب .

(٢) أى الارتداد .

(٣) التاريخ الباهر ، ص ١٢٥ .

(٤) التاريخ الباهر ، ص ١٢٥ .

وبذلك عادت المدينة الى أصحابها المسلمين . ويقال ان سبب قبول الصليبيين الذين كانوا فى مصر الصلح مع أسـد الدين وعودتهم الى بلادهم ، هو ما بلغهم من حصار نور الدين حارم ، فأرادوا العودة لكى ينقذوا مدينتهم من السقوط فى يده ، ولكن حين وصلوا الى الشام ، وجدوا أن المدينة قد خرجت من أيديهم الى الأبد . ولما انتهى أمر حارم ، عاد قطب الدين وجيشه الى الموصل رافعين لواء النصر ، بعد أن أدوا واجبهم أداء كريما .

أمضى زين الدين على حياته كلها فى خدمة بنى زنكى منذ أن دخـل فى ملك قسـيم الدولة والد عمـاد الدين زنكى حتى سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ م) ، تقلبت به الأحوال من مملوك الى أن أصبح السيد الأول فى الدولة بعد ملكها، بل لقد بلغ مبلغ ملوكها من القوة ، فقد كان له من الاقطاعات المدن الكبيرة ذات المساحات الواسعة والثراء ، مثل : اربل ، وشهرزور ، وتكريت ، وسنجار ، وحران ، كذلك كان له من القلاع الحصينة ، مثل : قلاع الأكراد الهكارية والحميدية بديار بكر وغيرها (١) ، فكان له فى كل مدينة وقلعة نائب ينوب عنه فى حكمها ويدين له نوابه بالولاء والطاعة ، كذلك كان لكل مدينة وقلعة جيشها الخاص بها ، ولها أيضا دواوينها وموظفوها ، ولها مصادرها المالية ، فكان زين الدين فى الواقع ملكا غير متوج ، ولو داخل زين الدين الطمع بالانفصال عن الموصل وتكوين دولة تحمل اسمه لحقق أطماعه فى سهولة ويسر ، فقد كانت الامكانيات من أموال وجيش

---

(١) التاريخ الباهر ، ص ١٣٥ .

متوفرة لديه ، ولكن وفاءه للبيت الزنكى الذى نشأ فيه ، منعه من الاقدام على هذا التصرف الخطير والاضرار بهم .

وكانت سنة ٥٦٣ ، نهاية حياة زين الدين من الدنيا ، فقد أصابه العمى والصمم بعد أن بلغ نحو المائة من عمره كما يجمع على ذلك المؤرخون ، فعجز عن الاستمرار فى العمل ، ومن ثم قرر الاعتكاف فى بيته ، ولكن ليس فى الموصل وانما فى اربل ، حيث فيها أسرته وأولاده وأمواله ، ويوم أن عقد العزم على ذلك ، تنازل عن جميع اقطاعاته لقطب الدين مودود صاحب الموصل ، ما عدا مدينة اربل التى قرر أن يجعلها دار اقامته [١] . وقد تنازل عن اقطاعاته كلها لأنه لم يكن له من الأبناء من يصلح لحكم هذه الاقطاعات ، فانه لم يكن له سوى ولدين أكبرهما ، وهو مظفر الدين كوكبورى كان يبلغ من العمر أربع عشرة سنة ، وهو سن يعجز فيه صاحبه عن حكم هذه الاقطاعات الكثيرة ، وقدّر زين الدين أنه لو تركها لولديه ، فسوف ينتهز نوابه فرصة موته ، فيستقل كل منهم بما فى يده وينفصل عن الموصل ، فقد سبق أن قلنا أن ذلك العصر وما قبله وما بعده كان الشعار فيه « الحكم للغالب » ، وقد تحقق ظنه فى نوابه فى حياته، فانه حين عزم على التنازل عن اقطاعاته لصاحب الموصل أرسل الى نائبين له فى تكريت وشهرزور فى تسليم المدينتين اليه فرفضا ، وقال له نائب تكريت : أن المولى أتابك (أى صاحب الموصل) لا يقيم بتكريت ولابد له من نائب فيها ، وأنا أكون ذلك النائب

(١) التاريخ الباهر ، ص ١٣٥ .

فليس له مثلى ، فما أمكن ارغامه على تسليمها بالقوة خوفا من أن يسلمها للخليفة ، وحذا حذوه نائب شهرزور ، فأبقى نائبا فيها [1] .

وانتقل زين الدين من الموصل الى اربل ليستريح بقية عمره فى هدوء وراحة ، ولكن لم تطل به الأيام ، حيث توفى فى شهر ذى الحجة من نفس السنة ، سنة ٥٦٣ [2] .

وقبل أن نترك زين الدين عليا لنتحدث عن ابنه زين الدين يوسف ، نذكر بعض ما امتاز به الرجل من أخلاق طيبة وصفات ممتازة ، فقد انعكست أخلاقه وصفاته على ابنه مظفر الدين ، فكان مظفر الدين صورة طبق الأصل من أبيه فى سجاياه .

كان زين الدين رجل حرب وقتال ، شجاعا لا يخاف من قتال ولا يتهيب من معركة ، وتاريخه الحربى يشهد له بذلك ، وكان لانغماسه فى الحياة العسكرية مستعدا لتلبية نداء الحرب أينما كان ، ولذلك قضى معظم حياته وهو لابس لباس الحرب الخشن ، ويشد على وسطه ما يحتاج اليه الجندى فى ميدان القتال ، من : سكين ، ودرفش[3] ومطرقة ، ومسلة ، وخيوط ، ودسترك [4] .

وكان « خيرا ، عادلا ، حسن السيرة ، جوادا ، محافظا على

---

(١) التاريخ الباهر ، ص ١٣٥ .

(٢) التاريخ الباهر ، ص ١٣٥ .

(٣) درفش : كلمه فارسية ، معناها : مخراز . (المعجم فى اللغة الفارسية) .

(٤) دسترك : كلمة فارسية معناها ، منشار : (المعجم فى اللغة الفارسية) .

حسن العهد وأداء الأمانة ، قليل الغدر بل عديمه ، وكان اذا وعد بشيء لابد له من أن يفعله وان كان فعله خطيرا » [1] .

وكان كريما ، معطاء ، محسنا ، يبر الفقــراء ويجزل لهم العطاء ، فكان يتصدق بحيث لا يبقى فى خزائنه شيئا من المال برغم كثرة ايراداته من اقطاعه [2] .

ويروى أسامة بن منقذ خبرا عن انسانية زين الدين فيقول : « حدثنى القائد الحاج أبو على فى شهر رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة بحصن كيفا ، قال : كنت بالموصل جالسا فى دكان محمد بن على بن محمد بن مامة ، فاجتاز بنا رجل فقاعى ضخم غليظ الساقين ، فدعاه محمد ، وقال : يا عبد ، علىّ ، بالله حدث فلانا (يعنى أبا على) حديثك . قال : أنا رجل أبيع الفقاع [3] كما ترى ، فبتُّ ليلة أربعاء وأنا صحيح ، فانتبهت وقد انحل وسطى فلا أقدر على الحركة ، ويبست رجلاى ودقّتا حتى بقيت الجلد والعظم ، فكنت أزحف الى وراء لأن رجلى ما كانت تتبعنى ولا كان فيها حركة بالجملة ، فقعدت فى طريق زين الدين على كجك رحمه الله ، فأمر بحملى الى داره فحُملت ، وأحضر الأطباء ، وقال : أريد أن تداووا هذا ، فقالوا : نعم ، نداويه ان شاء الله . ثم أخذوا مسمارا فأحموه ثم كووا به رجلى فما حسست به ، فقالوا لزين الدين : ما نقدر على دواء هذا ولا فيه حيلة ، فوهب

---

(١) التاريخ الباهر ، ص ١٣٥ .
(٢) التاريخ الباهر ، ص ١٣٥ .
(٣) الفقاع ، شراب يصنع من الشعير .

لى دينارين وحمارا ، فبقى الحمار عندى نحوا من شهر ومات ، فعدت فعدت فى طريقه ، فوهب لى حمارا آخر ، فمات ؛ فوهب لى حمارا ثالثا ، فمات ؛ فعدت الى سؤاله ، فقال لواحد من أصحابه : اخرج بهذا فارمه فى الخندق ، فقلت له : بالله ارمنى على وركى ، فانى ما أحس فيها بما يكون . فقال : ما أرميك الا على رأسك ؛ فاذا رسول زين الدين — رحمه الله — قد جاءنى فردنى اليـه — وكان الذى قاله من رميى مزاحـا ، فلما أحضرونى بين يديه أعطانى أربعة دنانير وحمارا ، فبقيت على ما أنا عليه ، الى ليلة رأيت فيما يرى النائم ، كأن رجلا وقف علىَّ ، وقال : قم . فقلت : من أنت ؟ قال : أنا على بن أبى طالب ، فقمت وقفت ، فأنبهت امرأتى ، وقلت : ويحك ! قد أبصرت كذا وكذا ، فقالت : ها أنت قائم . فمشيت على رجلى وزال ما كان بى ورجعت كما ترانى . فمضيت الى عند زين الدين الأمير عـلى كوجك — رحمه الله — فقصصت عليه منامى ، ورآنى وقد زال ما رآه بى فأعطانى عشرة دنانير » [1] .

وكان زين الدين مفرط الذكاء ، رقيق الاحساس والشعور ، وكان من رقة احساسه أنه كان يتظاهر بالغفلة لئلا يحرج أحدا . يذكر ابن الأثير عنه : « وكان حاله من أعجب الأحوال ، اذ بينما يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلته ، حتى يبدو منه ما يدل على افراط الذكاء وغلبة الدهاء » . ثم يذكر الحادثة التالية :

---

(١) الاعتبار ، ص ١٥٧ .

جاءه نفر من جنده وبيده ذنب فرس ، وقال له ، ان فرسه قد نفق ، فأمر له زين الدين بفرس غيره ، ثم جاءه آخر ومعه نفس الذنب وقال له ، ان فرسه قد نفق ، فأمر له بفرس غيره ، ثم جاءه ثالث ورابع حتى جاء اثنا عشر جنديا ومع كل جندى نفس الذنب وكل منهم يدعى أن فرسه نفق ، ثم جاءه جندى وبيده الذنب وادعى أن فرسه نفق وهنا نفد صبر الرجل فقال للجندى : أما تستحيون منى كما أستحى منكم ، قد أحضر هذا الذنب عندى اثنا عشر رجلا وأنا أتغافل لئلا يخجل أحدكم ، أتظنون أنى لا أعرفه ؟ بلى والله ، انما أردت أن يصلكم عطائى بغير مَنٍّ ولا تكدير فلم تتركونى . ثم أمر له بفرس (١) .

وكان زين الدين نزاعا الى الاصلاح ، واذا كان أثره الاصلاحى غير معروف فى مدينة اربل وغيرها من اقطاعاته ، الا أن أثره فى الموصل واضح فى الناحية الزراعية . فقد كانت الطرق الزراعية تقطعها الأنهار والمجارى المائية ، فعمل على ربط هذه الطرق بانشاء الجسور عليها ، فتيسر بذلك نقل المحاصيل الزراعية فى سهولة ونفقات قليلة ، كذلك بنى القناطر على الأنهار لخزن المياه أيام التحاريق ، فتيسر بذلك رى الأراضى ريا دائما (٢) .

وقد شارك زين الدين ملوك الموصل فى نشر العلم بها ، فبنى عدة مدارس فى الموصل ، أشهرها المدرسة التى سميت باسمه

---

(١) التاريخ الباهر ، ص ١٣٥ .
(٢) مرآة الزمان ، جـ ٨/ص ٢٧٣ .

وهى المدرسة الزينية ، وأوقف عليها وعلى غيرها الأوقاف الكثيرة ، كذلك بنى جامعا فى الموصل [1] .

زين الدين يوسف :

وهو الأخ الأصغر لمظفر الدين ، وقد أهمل المؤرخون وأصحاب التراجم التأريخ له والترجمة لحياته ترجمة مفصلة ، حتى أنهم أهملوا تاريخ مولده ونشأته . وكل ما نعرفه عنه أنه كان قاصرا حين توفى أبوه ، حيث يذكر المؤرخون ، أن أخاه الأكبر مظفر الدين كان يبلغ من العمر أربعة عشر عاما حين توفى أبوهما فى سنة ٥٦٣ ، كذلك أغفلوا أخباره فى اربل التى كان أميرها وحاكمها بعد والده نحو ست عشرة سنة ، ولا ندرى سببا لذلك ، الا أنه لم يكن له من المآثر ما يستحق التسجيل ، أو أن تكون سيرة أبيه وأخيه مظفر الدين قد طغتا على سيرته ، وكل ما ذكروه عنه هو بعض صفاته وسجاياه ، فقالوا : انه كان أميرا كبيرا ، شجاعا ، مقداما ، مدبرا ، أريحيا ، كريما ، سخيا [2] ، فان هذه الصفات والسجايا هى نفس صفات وسجايا والده ، وهى أيضا نفس الصفات والسجايا التى كان يتحلى بها أخوه مظفر الدين ، مما يدل على طيب عنصر هذه الأسرة وأصالتها .

وطبقا لتقاليد الوراثة ، ورث مظفر الدين حكم اربل بعد

---

(١) وفيات الأعيان ، جـ ٣/ص ٢٧٠ ، مرآة الزمان ، جـ ٨ / ص ٢٧٣ ، الموصل فى العهد الاتابكى ، ص ١٣٧ .

(٢) الروضتين ، جـ ٢/ص ١٦٤ ، مفرج الكروب ، جـ ٢ / ص ٣٣٩ ، النجوم الزاهرة ، جـ ٦/ص ١١٢ .

وفاة أبيه ، ولكن مظفر الدين لم يكن هو الذى يحكم بنفسه ، وانما كان الذى يقوم بالحكم وادارة شئون الامارة وقيادة الجيش وصيه مجاهد الدين قايماز النائب على اربل منذ أن تسلمها من صاحبها زين الدين على ، وذلك لصغر سن مظفر الدين ، فظل مظفر الدين بضع سنين أميرا ، ثم خلعه مجاهد الدين عن الامارة لخلاف حدث بينهما ، وولى عليها أخاه زين الدين يوسف ، وذلك حوالى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) ، فلجأ مظفر الدين الى سيف الدين غازى (الثانى) بن قطب الدين مودود صاحب الموصل ، فأقطعه سيف الدين مدينة حران فأقام بها ، وسوف نتعرض لموضوع عزل مظفر الدين بالتفصيل فى الفصل الثالث من الكتاب .

استقر زين الدين يوسف اذن أميرا على اربل ، ولكن لم يكن له من الامارة الا اسمها ، فقد كان الأمر كله لمجاهد الدين ، بيده الحل والعقد وقيادة الجيش ، أو على حد تعبير المؤرخ ابن الأثير ، « وكان البلد لولد زين الدين — أى ليوسف بن زين الدين على — اسما لا معنى تحته ، ولمجاهد الدين صورة ومعنى » (١) . الأمر الذى لم يرض به زين الدين يوسف بعد أن شب عن الطوق وتعدى مرحلة الوصاية ، وأحسب أن الخلاف وقع بين يوسف ومجاهد الدين كما وقع بين مظفر الدين ومجاهد الدين ، الا أن زين الدين لم يستطع التحرر من مجاهد الدين والتخلص من

---

(١) التاريخ الباهر ، ص ١٧٧ .

قبضته الا بعد أن ترك مجـاهد الدين اربل ، والتحق بخدمة سيف الدين غازى الثانى صاحب الموصل سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥م) ، وذلك حين استدعاه سيف الدين ليعاونه فى الحـرب ضـد صلاح الدين الأيوبى ، عندئذ لم يستعد يوسف سلطته فقط ، وانما أخرج تبعيته لصاحب الموصل ، وانتمى الى صلاح الدين ودخل فى طاعته .

وبيان ذلك ، أن صلاح الدين كان نائبا لنور الدين محمود ابن عمـاد الدين زنكى على مصر ، فلما توفى نـور الدين فى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) لم يخلف سوى ولد صغير يبلغ من العمر أحد عشر عاما ، هو الصالح اسماعيل ، فنشب صراع بين الرجال المسئولين فى حكومة نور الدين فى كل من دمشق وحلب على الوصاية على الصالح اسماعيل ، كل فريق يدعى أحقيته بالوصاية عليه ، وأحقيته فى ادارة شئون الدولة ، كذلك انتهز سيف الدين غازى (الثانى) فرصة وفاة عمه نور الدين فاستولى على الموصل وبعض بلاد الجزيرة التابعة لها [1] ، وبذلك انشقت الدولة على نفسها .

وكان صلاح الدين الأيوبى فى ذلك الوقت فى مصر ، فانتهز فرصـة هـذا الانشقاق ، وأدخـل نفسه طرفا فى النـزاع بحجة أنه المسئول عن سلامة دولة الصالح اسماعيل وحفظها بصفته النائب عنه على أكبر أقاليم الدولة وأعظمها ، وهو اقليم

(١) التاريخ الباهر ، ص ١٧٥ .

مصر ، فهو لهذه الصفة ، مسئول عن الدفاع عن الدولة ، وعلى حماية حقوق الصالح اسماعيل الحاكم الشرعى للدولة .

وقد ساعدت الظروف صلاح الدين على أن يصبح الرجل الأول فى الدولة ثم وارثها فيما بعد . وذلك أنه عندما تأزمت الأمور بين الرجال المسئولين فى كل من دمشق وحلب ومال الميزان الى جانب رجال حلب باتفاقهم مع سيف الدين غازى ضـــد رجال دمشق ، خاف هؤلاء من أن يتغلب عليهم منافسوهم فى حلب ويخرجوهم من دمشق ، فراسلوا عندئذ صلاح الدين يعرضون عليه تسليم دمشق اليه فى مقابل أن يخصهم بالمناصب الكبيرة فيها ، ومن ثم خرج صلاح الدين من مصر وسار الى دمشق ودخلها فى آخر شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٠ هـ .

غير أن صلاح الدين كان فى حقيقة الأمر يهدف الى احلال نفسه محل نور الدين محمود فى الملك ، ذلك أنه ما كاد يستقر فى دمشق حتى أخذ يستولى عـــلى بلاد الشـــام التابعة لدولة نور الدين ، بعضها بالحرب وبعضها بالاتفاق مع نوابها ، وذلك بدخولهم فى طاعته وحكم البلاد التى بأيديهم باسمه ، وكان أهم ما يحرص عليه صلاح الدين هو الاســـتيلاء على مدينة حلب — العاصـــمة الثانية للشـــام — فسار اليها فى نفس الســـنة — سنة ٥٧٠ — وحاصرها ، وأنشب مع جيشها القتال ، ولكنه لم يستطع فتحها ، فعاد عنها وفى عزمه الاستيلاء عليها حين تواتيه الفرصة .

وكان لظهور صلاح الدين المفاجىء بهذه القوة أثر كبير عند

سيف الدين صاحب الموصل ، خاصة عندما ظهرت مطامع صلاح الدين فى حلب ومحاولته الاستيلاء عليها ، فعزم على الحيلولة بينه وبين سقوطها فى يده ، لأن سقوطها فى يده يشكل خطرا كبيرا على الموصل ذاتها ويهددها تهديدا مباشرا ، فان نجاح صلاح الدين فى الاستيلاء على حلب سوف يشجعه على الطمع فى الموصل ، فما أن انتهى الى هذه النتيجة حتى قرر اعلان الحرب على صلاح الدين ، ولكنه كان يحس فى نفسه العجز فى مقاومة صلاح الدين وحده ، وأن همته تقصر عن مجابهته ، وتنقصه أيضا مقدرة الحاكم الادارى وشجاعة القائد المحارب ، ولذلك فهو يفتقر الى رجل يجمع بين هاتين الميزتين لكى يقف الى جانبه فى خصومته مع صلاح الدين ، وكان ما يطلبه يتوفر فى مجاهد الدين قايماز الوصى على امارة اربل ، فأرسل اليه واستدعاه الى الموصل ، استنادا الى أن مدينة اربل تعتبر من الناحية القانونية من أملاك الموصل ، وأن أميرها وموظفيها من أتباعه ومواليه ، فلبى مجاهد الدين أمر سيف الدين وغادر مدينة اربل ، وفى تقديره أنه سيوالى حكمها من الموصل ، وأن يوسف لن يجرؤ على التعدى على حقوقه كوصى والخروج عليه ، ولكن يوسف خيب تقديره ، فانتهز فرصة بعده عن اربل فرفع يده عن حكمها ، وباشر أمورها بنفسه .

غير أن هناك اختلافا عند المؤرخين فى السنة التى تحرر فيها زين الدين من قبضة مجاهد الدين . وهذا الاختلاف يتمثل فى خبرين ، أما أحدهما فيذكر أنه لما سار صلاح الدين الى حلب

— فى المرة الثانية — سنة ٥٧١ هـ للاستيلاء عليها ، سار اليه زين الدين يوسف بجيش اربل ، متضامنا معه ضد حلب والموصل، فرحب به صلاح الدين وولاه ميسرة جيشه . واذا صحت هذه الرواية فمعنى ذلك ، أن الأخوين زين الدين ومظفر الدين قاتل كل منهما الآخر ، لأنه عندما علم سيف الدين غازى بمسير صلاح الدين الى حلب ، سار بجيش الموصل ومعه مظفر الدين بجند حران اليها ليساعد ابن عمه الصالح اسماعيل فى الدفاع عنها ، ولما اصطفت الجيوش للقتال ، كان مظفر الدين يقود ميمنة جيش سيف الدين ، ومعنى هذا أنه كان عليه أن يقاتل ميسرة جيش صلاح الدين التى يقودها أخوه زين الدين ، وحين تحركت الجيوش للقتال تصادمت ميسرة جيش صلاح الدين مع ميمنة جيش الموصل ، ودار بينهما قتال عنيف ، كادت فيه ميمنة جيش الموصل « تطحن ميسرة صلاح الدين طحنا » ، أى أن مظفر الدين كاد يورد أخاه مورد الهلاك ، لولا أن تدخل صلاح الدين بنفسه فى المعركة ، فأنقذ ميسرة جيشه من الفناء ، ولم يستطع صلاح الدين الظفر بحلب هذه المرة أيضا ، فعقد الصلح مع سيف الدين والصالح اسماعيل ورحل عنها (١) . فاذا صح خبر اشتراك زين الدين يوسف فى هذه الحرب ، فانه لا يعنى فقط تحرر زين الدين من سيطرة مجاهد الدين ، وانما يعنى شيئا أخطر من هذا ، انه يعنى أيضا انفصال زين الدين عن الموصل ،

---

(١) مرآة الزمان ، جـ ٨/ص ٣٣٤ ، سيرة صلاح الدين الأيوبى، ص ٤١ .

وهذا أمر شديد الخطورة عليها ، لأنه سوف يزيد من قـوة صلاح الدين ، عدوها اللدود .

أما الخبر الآخر ، ويقول به ابن الأثير ، ان زين الدين انفصل عن الموصل فى سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) وذلك فى خبره الذى ذكره عن أثر قبض عز الدين مسـعود صاحب الموصـل على مجاهد الدين وحبسه ، حيث يقول ، انه فى تلك السنة ، قبض عز الدين عـلى مجاهد الدين وصـادره ، « وكان تحت حكم مجاهد الدين حينئذ اربل وأعمالها ، ومعه فيها زين الدين يوسف (فى الأصل : زين الدين على) وهو صبى صغير ليس له من الحكم شىء ، والحكم والعسكر الى مجاهد الدين .. » فلما قبض عز الدين على مجـاهد الدين « امتنع صاحب اربل عن طاعة عز الدين واستبد » أى استبد باربل ، ثم أرسل زين الدين الى صلاح الدين بالطاعة له والدخول فى خدمته [١] . ونحن نختلف مع ابن الأثير فى تقدير عمر زين الدين ، لأن زين الدين قد تجاوز فى تلك السنة العشرين من عمره ، ثم انه كيف يستطيع صبى صغير أن يضـاد من هو أكبر منه قوة ومكانة وهـو صاحب الموصل . غير أن ابن الأثير يذكر خبرا آخر يستفاد منه أن انفصال زين الدين عن الموصل كان قبل سنة ٥٧٩ ، وذلك فى خبره الذى ذكره عن مفاوضات الصـلح التى دارت فى تلك السـنة بين صلاح الدين وعز الدين مسعود ، وكان الواسطة بينهما مندوبا

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٦٣ .

من الخليفة ، فقد ذكر ابن الأثير ان المفاوضات فشلت بسبب اربل والجزيرة ، فقد أصر صاحب الموصل ، أن يكونا معه ، وأصر صلاح الدين بدوره أن يترك لأصحابها الخيار فى الجهة التى يريدون الانتماء اليها ، ثم أصر على أن يكونوا معه (١) . فهذا الخبر يشير بصراحة الى أن انفصال زين الدين عن الموصل كان قبل سنة ٥٧٩ ، أما متى كان ذلك على التحديد ، فهذا الذى لا نستطيع تحديده .

غير أنه من الثابت أن زين الدين كان فى سنة ٥٨٠ (١١٨٤م) منفصلا عن الموصل وداخلا فى طاعة صلاح الدين ومنتميا اليه رسميا ، ونحن نعلل تصرف زين الدين هذا بأحد سببين أو بكليهما . فأما السبب الأول ، فلعل زين الدين رأى أن صلاح الدين قد بلغ حدا كبيرا من القوة فى تلك السنة ، حيث استولى على ما كان لبيت بنى زنكى من البلاد بالشام ومنها حلب ذاتها — وقد استولى عليها فى سنة ٥٧٩ — وكذلك استولى على مالهم باقليم الجزيرة ، ثم هو ما زال طامعا بالموصل نفسها ، فلذلك قدر زين الدين انه اذا استولى صلاح الدين على الموصل سوف يمتد طمعه الى اربل أيضا ، فاذا هاجمها ، فلن يستطيع مقاومته والدفاع عن مدينته طويلا ، فاذا ما استولى عليها صلاح الدين بالقوة ، فسوف يقصيه عنها ، أما اذا انتمى اليه ودخل فى طاعته واعتبر نفسه تابعا له ويحكم اربل باسمه ، فانه يضمن بذلك بقاء المدينة

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٦٤ .

فى يده ، لذلك آثر زين الدين السلامة وحفظ بلده عليه ، فأرسل الى صلاح الدين يعلن انتماءه اليه ودخوله فى طاعته .

وأما السبب الآخر ، فلعله كان بسبب تهديد صلاح الدين للأمراء الصغار ودعوتهم الى الدخول فى طاعته لكى يوحد قوة المسلمين جميعا ضد عدوهم الصليبى ، وهدد من يمتنع عن الاجابة اليه بغزوه وطرده من ملكه ، يؤكد هذا ما ذكره العماد الأصفهانى بأن صلاح الدين « كاتب الملوك بالوفود للاتفاق ، فمن جاء مستسلما سلمت بلاده ، على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه فى جهاد الكفار »[1] ، ويؤكده أيضا ما جاء فى المنشور التالى الذى أذاعه على جميع الأمراء الصغار سواء المستقلين منهم ، أو الذين ينتمون الى الموصل ، فقد جاء فى المنشور :

« ان الله لما مكّن لنا فى الأرض ، ووفقنا فى اعزاز الحق واظهاره لأداء الفرض ، رأينا أن نقدم فرض الجهاد فى سبيل الله فنوضح سبيله ، ونقبل على اعلاء الدين وننصر قبيله ، وندعو أولياء الله من بلاد الاسلام الى غزو أعدائه ، ونجمع كلمتهم فى رفع كلمته العليا فى أرضه ، على استنزال نصره من سمائه ، فمن ساعدنا على أداء هذه الفريضة ، واقتناء هذه الفضيلة ، يحظى من عوارفنا الجزيلة بحسن الصنيعة ونجح الوسيلة ، ومن أخلد الى الأرض واتبع هواه ، وأعرض عن حق دينه بالاقبال على باطل دنياه ، فان تاب ورجع قبلناه ، وان أصر على غوايته

---

(١) الروضتين ، ج ٢/ص ٣٢ .

أزلنا يده وعزلنــاه » [1] . ومن هذا نرى أن الخــوف من صلاح الدين قد يكون أحد البواعث التى دفعت زين الدين الى الدخول فى طاعته .

وبانتماء زين الدين يوسف الى صلاح الدين ، تغير وضعه ووضع اربل من ناحية التبعية ، فقد أصبحت اربل من أملاك صلاح الدين لا من أملاك الموصل ، وأصبحت المدينة اقطاعا من صــلاح الدين لزين الدين ، وبالتالى أصــبح زين الدين تابعا لصلاح الدين ، ملزما بتنفيذ شروط التبعية التى كان يدين بها لصاحب الموصل ، أى أن زين الدين أصبح عــدوا لأعــداء صلاح الدين ، وان كانوا ملوك الموصل أنفسهم .

لم يرض عز الدين مسعود صاحب الموصل بطبيعة الحال عن نقل زين الدين تبعيته الى عدوه صلاح الدين ، وفى الوقت نفسه شعر مسعود بأن خطر صلاح الدين يزداد قوة واقترابا منه ، فعزم على استرداد اربل على أى وجه من الوجوه ، فهو قد علم بخطئه فى قبضه على مجاهد الدين واعتقاله ، فمنذ أن اعتقــله وأموره قد ساءت الى حد كبير ، فأطلقه من الاعتقال وأرســله الى شمس الدين البهلوان صاحب همذان وبلاد الجبل ، والى أخيه قزل أرسلان صاحب أذربيجان يطلب معونتهما ، فسار مجاهد الدين الى قزل أرسلان أولا ، وأبلغه رســالة عز الدين مسعود ، فاستجاب له قزل ووعده بالانتصار له بجيشه ، ثم منعه

---

(١) مفرج الكروب ، جـ ٢/ص ١٦٣ .

من المسير الى أخيه لئلا يشاركه فيما يحصل عليه من المغانم من صاحب الموصل فى مقابل معونته له ، وجهز قزل أرسلان فى الحال جيشا وسيره مع مجاهد الدين الى الموصل ، وفى أثناء عودة مجاهد الدين مع الجيش عزم على الاستيلاء على اربل ، فلما قاربها بجيش قزل ، أفسد الجيش قراها فسادا شديدا ، وخربوها ونهبوها وسبوا من نسائها ، وحاول مجاهد الدين منعهم من الافساد ليستولى على المدينة سليمة من غير تخريب ، ولكنه لم يستطع السيطرة عليهم ، فلما علم زين الدين بهذه الغارة المفاجئة على بلاده ، جمع جيشه وخرج به لرد عادية المعتدين ، وكان الجند المغير قد توزعوا جماعات فى قرى اربل ونواحيها ، كل جماعة منهم تفسد فى قرية وناحية ، فانتهز زين الدين فرصة تشتتهم ، فأطلق رجاله عليهم ، فأخذوا يتصيدونهم من كل مكان ، وتصدى هو لأكبر جماعاتهم فهزمها هزيمة منكرة ، فتركت الميدان هاربة ، فتبعها من نجا من الجند ، تاركين وراءهم أسلحتهم وذخائرهم ودوابهم وأموالهم ، فاستولى عليها زين الدين ، وعاد مجاهد الدين الى الموصل ، بعد أن فشل فى الاستيلاء على المدينة [1] . ولكن زين الدين لم يغتر بهذا الانتصار ، وانما نبهته هذه الغارة الى خطر جديد يتهدده ، فقد أصبح مهددا من الغرب من صاحب الموصل ومن الشرق بحليفه قزل أرسلان ،

---

(١) الكامل ، ج ٩/ص ١٦٥ .

فأرسل الى صلاح الدين ينبئه بما كان من صاحب الموصل ومن حليفه صاحب أذربيجان(١) .

لم يرض صلاح الدين بطبيعة الحال عن اعتداء صاحب الموصل على ولى من أوليائه . وكان صلاح الدين يتلمس المعاذير للاستيلاء على الموصل ، فانتهز فرصة اعتداء مسعود على اربل وشكوى زين الدين منه ، فعزم على الاستيلاء عليها لتعديه على أحد المنتمين اليه ، بالاضافة الى أن مظفر الدين كوكبورى كان دائم التحريض له على الاستيلاء عليها ، ووعده الانضمام اليه ضد الموصل ، فسار صلاح الدين اليها بجيش ضخم وضرب عليها الحصار فانضم اليه زين الدين بجيش اربل ، فعجز عز الدين مسعود ومجاهد الدين قايماز عن الدفاع عنها ومنع سقوطها فى يده ، فاضطر مسعود الى الاستسلام وعقد الصلح مع صلاح الدين ، وكان صلحا قاسيا ، أصبح مسعود بموجب شروطه تابعا لصلاح الدين ، مثله فى ذلك مثل زين الدين يوسف ، فقد نصت شروط الصلح على أن يخطب مسعود لصلاح الدين على منابره ، وأن يضرب اسمه على السكة (٢) ، وأن يتنازل لصلاح الدين عن شهروزور وأعمالها وولاية القرابلى وجميع ما يقع ما وراء نهر دجلة من البلاد التابعة للموصل ، وأن يمده بالعون العسكرى كلما طلب منه ذلك (٣) . ولما تسلم صلاح الدين

---

(١) سيرة صلاح الدين الأيوبى ، ص ٥٤ ، مفرج الكروب ، جـ ٢/ص ١٦٤ .

(٢) أى على النقود .

(٣) الكامل ، جـ ٩/ص ١٧٠ .

البلاد التى تنازل له عنها مسعود ، سلمها صلاح الدين الى زين الدين ، فاتسعت بذلك امارته اتساعا كبيرا ، وأصبحت فى مصاف الدويلات التى يطلق على أصحابها لقب الملك وان كان لم يؤثر أن زين الدين تلقب به ، وانما الذى تلقب به أخوه مظفر الدين ، فكان لقبه الملك المعظم . وبدخول مسعود فى طاعة صلاح الدين ، اطمأن زين الدين يوسف على نفسه وعلى امارته من أن يغير عليه مسعود فى يوم من الأيام ، الا باذن من صلاح الدين .

وأدلى زين الدين دلوه فى الحروب الصليبية ، ولكن دوره فيها حسب ما جاء عند المؤرخين كان دورا قصيرا ، فانهم لم يذكروا الا اشتراكه فى معركة عكا سنة ٥٨٦ (١١٩٠ م) ، فلقصر دوره ، ولصلته بأخيه مظفر الدين فى هذه المعركة ، نرجىء الكلام عنه الى الفصل السادس ، الخاص بدور مظفر الدين فى هذه الحروب .

غير أننا نذكر هنا ، أن زين الدين توفى فى معسكره فى عكا فى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٥٨٦ (١) ، فخلفه أخوه مظفر الدين على اربل .

---

(١) سيرة صلاح الدين الأيوبى ، ص ١٢٩ .

الفصل الثالث

نشأة مُظَفَّر الدين

اسمه ولقبه :

لسبب نجهله لم يُعن من اهتم بمظفر الدين من المؤرخين وأصحاب التراجم بذكر اسمه العربى أسوة بأبيه زين الدين على وأخيه زين الدين يوسف الذى يحمل كل منهما اسما عربيا ، وانما اكتفوا جميعا — وكأنهم كانوا على اتفاق على ذلك — بذكر لقبه العربى وهو مظفر الدين وصفة الشجاعة التى اشتهر بها باللغة التركية وهى كوكبورى ، ومعناها « الذئب الأزرق » . والتسمية الكاملة لمظفر الدين التى ذكرها معاصره المؤرخ ابن خلكان ، وهى : أبو سعيد كوكبورى بن أبى الحسن على بن بكتكين بن محمد الملقب بالملك المعظم مظفر الدين [1] .

مولده :

وقد ولد مظفر الدين فى ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من شهر المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة من الهجرة (١٣ أبريل

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٠ .

سنة ١١٥٤ م) بقلعة الموصل ، حيث كان يعمل والده فى خدمة ملوكها [١] .

نشأته وتعليمه :

نشأ مظفر الدين فى كنف والده وتحت رعايته ، وقد اختار له والده ، مملوكه مجاهد الدين قايماز للاشراف على تربيته وتعليمه ، وكان مجاهد الدين خليقا بأن يقوم بمهمة المؤدب والمربى ، لأنه هو نفسه كان مملوكا لزين الدين علىّ ، فعلمه زين الدين ورباه ، وأحسن تربيته وتعليمه ، كذلك علمه الفروسية وفن القتال ثم أعتقه من الرق ، فجمع مجاهد الدين بين نشأة العرب فى الخلق والثقافة ، ونشأة الترك فى الحرب والقتال ، ولذلك نجح فى غرس حب العلم فى مظفر الدين ، حيث تشهد له ثقافته بأنه تثقف ثقافة عربية خالصة تتبين فى طلاقة لسانه فى العربية ، وفى فهمه لمايقرأ بلغة العرب ، كذلك غرس فيه حب الفروسية ، فان معاركه فى ميادين القتال تشهد له بالجرأة والبطولة .

ظل مجاهد الدين يشرف على تربية مظفر الدين وتعليمه حتى سنة ٥٦٣ هـ ، أى حتى سنة وفاة والده ، وكان مظفر الدين يبلغ من العمر أربع عشرة سنة ، أما ما بعد هذه السنة حتى سنة ٥٦٩ ، فلا نعلم مدى اشراف مجاهد الدين عليه ، فقد كان مظفر الدين فى هذه الفترة أميرا على اربل ، ثم حدث خلاف بينه وبين

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٦ .

مجاهد الدين فعمل مجاهد الدين على خلعه من الامارة واخراجه من اربل فسار مظفر الدين منها وأقام فى حران . ومعنى هـذا أن مظفر الدين أخذ يكون نفسه بنفسه ثقافيا وعسكريا ، لأن ما عرف عنه بعد أن عاد الى امرة اربل ، من اهتمامه بالعلماء من فقهاء ومحدثين وحضور مجالسهم واحاطته بالتاريخ يشهد له بمواصلة الدراسة والتحصيل بعد خلعه عن الامارة ، وأن اهتمامه كان منصبا على العلوم الدينية ، كالفقه والحديث .

وقد أثرت ثقافته الدينية على حياته الخاصة والعامة ، فقـد كان يعيش عيشة بسيطة ليس فيها من مظاهر الملك شيئا ، بل كانت حياته أقرب الى حياة المتصوفة منها الى حياة أمير وحاكم ، حتى ذاع صيته فى البلاد المجاورة له ، فكان موضع احترام وتقدير جيرانه ، كما كان مقصد العلماء ، فكان يرحب بكل وافد عليه منهم ، ويلازمه ويبره بالأموال .

زواجه :

وقد تزوج مظفر الدين ، ولكن لا نعرف عـدد زوجاته ، كذلك لا نعرف ما اذا كان له سرارى أو جوارى ، فقـد كانت التقاليد المتبعة عند الولاة والأثرياء أن يكون لأحدهم أكثر من زوجة وأكثر من سرية أو جارية . أما مظفر الدين ، فلم تذكر المصادر التى بين أيدينا الا زيجة واحدة له . أما زوجته فهى ربيعة خاتون أخت صلاح الدين الأيوبى ، ولم يذكروا دواعى هذه الزيجة الا أن يكون صلاح الدين قد أعجب بمظفر الدين وشجاعته فى

الحروب التى اشترك معه فيها ضد الصليبيين . وكانت ربيعة خاتون زوجة لسعد الدين مسعود بن معين الدين أنر ، فتوفى سعد الدين سنة ٥٨١ ، فزوجها صلاح الدين بعد وفاة زوجها من مظفر الدين [1] .

ويبدو أن ربيعة خاتون كانت محبة لزوجها مظفـر الدين عطوفة عليه ، يروى سبط ابن الجوزى ، أن مظفر الدين كان يلبس الخشن من الثياب ، وكان جسمه رقيقا — ولعل ذلك كان فى أخريات أيامه أو كان مريضا — فقالت له زوجته : لو لبست ألين من هذا ، فان بدنك ما يحتمل الخشن ؟ فقال لها : أيهما أصلح وأكثر أجرا ، أن ألبس ثوبا بعشرة دراهم أو ألبس ثوبا بخمسة دراهم وأتصدق بخمسة على فقير أو مسكين ؟ [2] فهذا الخبر يشير الى حقيقتين ، الأولى ، أن ربيعة كانت أمينة حفيظة عـلى زوجها بارة به حتى أنها خشيت على جسد زوجها من خشونة الملبس . والحقيقة الثانية ، أن مظفر الدين وزوجته كانا متجاوبين تجاوبا تاما فى الحياة والتفكير ، فان الأخبار متواترة ومتفقة على أن ربيعة كانت مثال السيدة الصالحة التقية التى تتجه بكل قلبها وجوارحها الى الله . وظلت ربيعة مع زوجها حتى توفى ، فانتقلت بعد وفاته الى دمشق وماتت بها فى شهر شعبان سنة ٦٤٣ ، أى بعد وفاة زوجها بثلاث عشرة سنة ، وقد جاوزت من العمـر الثمانين ، وهى تقارب فى عمرها زوجها الذى توفى عن واحد

(١) مفرج الكروب ، ج ٢/لوحة ٢٨٨ – ب (مخطوط) .
(٢) مرآة الزمان ، ج ٨/ص ٦٨٢ .

وثمانين سنة ، ودفنت فى المدرسة التى بنتها للفقهاء الحنابلة بسفح قاسيون[1] .

أولاده :

وقد أنجب مظفر الدين — كما يذكر المؤرخون — ابنتين من زوجته ربيعة خاتون[2] ، ولم يذكروا أنه أنجب ذكورا ، الا أن ابن خلكان يكنيه بأبى سعيد ، ومن هنا يأتى التساؤل ، هل كان لمظفر الدين ولد اسمه سعيد ثم توفى ؟ هذا ما لا يمكن الجزم به ، غير أنه من المقطوع به بأنه توفى ولم يكن له ولد ذكر ، وذلك لأنه فى أخريات سنواته ، أوصى بأن تؤول اربل الى الخليفة العباسى بعد وفاته ، ولا يمكن أن يتصرف مظفر الدين هذا التصرف الا لعدم وجود وريث له يرث امارته .

وقد زوج مظفر الدين ابنتيه من ابنى نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل سنة ٦٠٦ هـ ، هما عز الدين مسعود الذى خلف أباه على حكم الموصل وتلقب بالملك القاهر ، وعماد الدين زنكى ، وقد سبب هذا الزواج لمظفر الدين صداعا سياسيا حادا ، سوف نعرض له فيما يلى من الكتاب .

أخلاقه وسجاياه :

وكان مظفر الدين يتحلى بأطيب الخلق وأكرم السجايا ، وقد أجمع المؤرخون وأصحاب التراجم على مدحه والاشادة به ، يقول

(١) وفيات الأعيان ، جـ ٣/ص ٢٧٧ .
(٢) مفرج الكروب ، جـ ٢/لوحة ٢٨٨ — ب (مخطوط) .

معاصره ابن خلكان بأن مظفر الدين « كان كريم الأخلاق ، كثير التواضع ، حسن العقيدة ، سليم الباطن ، شديد الميل الى أهل السنة والجماعة » [١] .

وكان يميل الى حيـاة البساطة والزهد ، عزوفا عن البذخ والاسراف ، بل كان يؤثر الفقراء والمحتاجين على نفسه ، فكان يحرم نفسه من طيبات الحياة من مأكل وملبس ومسكن ، ليوفر للمحتاجين من أبناء شعبه المال يبذله لهم عن طيب خاطر . يروى عن زوجته ربيعة خاتون — أخت صلاح الدين الأيوبى — أنها قالت : كان قميصه لا يساوى خمسة دراهم فعاتبته فى ذلك ، فقال لها : لبسى ثوبا بخمسة دراهم وأتصدق بالباقى ، خير من أن ألبس ثوبا مثمنا وأدع الفقير المسكين [٢] . وقد استمر مظفر الدين يلبس الخشن والرخيص من الثياب حتى كبر سنه ورق جلده ووهن منه العظم لا يستبدلها بأرق منها .

وكان مظفر الدين محبا لفعل الخير والتصدق على الفقراء ، يقول ابن خلكان : « وأما سيرته ، فلقد كان له فى فعل الخيرات غرائب لم يسمع أن أحدا فعل فى ذلك ما فعله ، لم يكن فى الدنيا شىء أحب اليه من الصدقة »[٣] . ويقول سبط ابن الجوزى ، « وكان كثير الصدقات ، غزير البر والصلات » [٤] .

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٥

(٢) البداية والنهاية ، ج ١٣/ص ١٣٧ .

(٣) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٢

(٤) مرآة الزمان ، ج ٨/ص ٦٨٠ .

وكان لفرط حبه للصلحاء والصالحات ، أنه كان يحب أن يشركهم معه فى كل طعام يستطيبه . يقول ابن خلكان : « وكان — رحمه الله — متى أكل شيئا واستطابه لا يختص به ، بل كان اذا أكل من زبدية لقمة طيبة ، قال لبعض مَنْ بين يديه من أجناده : احمل هذا الى الشيخ فلان أو فلانة ممن هم عنده مشهورون بالصلاح ، وكذلك يعمل فى الحلوى والفاكهة وغير ذلك من المطاعم والمشارب والكساء »(١) .

وكان مظفر الدين شجاعا جريئا مقداما ، يقول عنه ابن واصل ، « وكان مظفر الدين ملكا جليلا شجاعا مقداما ، ذا همة عالية وبأس شديد » (٢) . وأحسب أنه لفرط جرأته واقدامه اشتهر بالذئب الأزرق . كذلك كان محاربا ممتازا ومقاتلا بطلا ، يقول عنه ابن خلكان : « ولم يزل — رحمه الله تعالى — مؤيدا فى مواقفه ومصافاته مع كثرتها ، ولم ينقل أنه انكسر فى مصاف قط »(٣) .

وكان الى جانب شجاعته وبسالته ، رقيق الشعور مرهف الحس ، ويبدو منه هذا الشعور الانسانى الكريم فى رعايته للأرامل واللقطاء وتفقده أحوالهم بنفسه (٤) .

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٦ .
(٢) ابن واصل ، ج ٢/لوحة ٢٨٩ (مخطوط) .
(٣) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٦ .
(٤) انظر الفصل السابع .

الفصل الرابع

مُظفَّرُ الدين فى حَرّان

ذكرنا فى الفصل الثانى ، فى حديثنا عن أسرة مظفر الدين ، أن مظفر الدين ولى امارة اربل بعد وفاة والده مباشرة ، وأنه كان قاصرا ، لذلك كان يحكم تحت وصاية مجاهد الدين قايماز الذى كان نائبا عن والده زين الدين على بن بكتكين ، وذكرنا أيضا أن مجاهد الدين أقصى مظفر الدين عن الامارة بسبب خلاف حدث بينهما ، وولى عليها أخاه الأصغر زين الدين يوسف ، ونفصل فى هذاالفصل ما أجملناه فى الفصل السابق .

توفى زين الدين على — والد مظفر الدين — فى سنة ٥٦٣ كما سبق أن ذكرنا ، وكان مظفر الدين يبلغ من العمر أربعة عشر سنة ، فهو بحكم هذه السن يعتبر قاصرا عن الحكم والادارة ، وقد جرت التقاليد فى مثل هذه الظروف ، أن يكون النائب هو الوصى على الحاكم الجديد ، ومن ثم ، وطبقا لهذا التقليد ، أصبح مجاهد الدين وصيا على مظفر الدين ، فكان بحكم هذه الوصاية هو القائم بالحكم والادارة وقيادة الجيش ، أما مظفر الدين فلم يكن له سوىاسم الملك ومظاهره .

وقد اعتقد مجاهد الدين ، أن مظفر الدين سوف يضع حق تربيته له موضع الاعتبار — كما يقول ابن الأثير [1] — فيظل تحت وصايته لا يعارضه فى ادارة شئون الامارة ، ولكنه خاب فيما أمله منه ، فان الخلاف لم يلبث أن نشب بينهما ، فأقصاه مجاهد الدين عن الامارة ، بما له من قوة ونفوذ ، وولى أخاه زين الدين يوسف مكانه .

ولما عزم مجاهد الدين على اقصاء مظفر الدين عن ملكه ، لم يستعمل معه القوة أو العنف ، فلكى يجد مبررا شرعيا لاقصائه أمام الخليفة العباسى ، جمع من يثق بهم من رجاله : وأمرهم بأن يكتبوا محضرا بأن مظفر الدين غير أهل للملك ، ثم أرسل المحضر الى ديوان الخليفة فى بغداد مع رسول وزوده بالتعليمات بأن يعزز محضر العزل برسالة شفوية ، ويطلب من المسئولين الموافقة على عزله واقامة أخيه زين الدين يوسف مكانه ، فأجابوا طلبه ، عندئذ اعتقل مجاهد الدين ، مظفر الدين وأقام أخاه مكانه . ولما استقر الأمر له وليوسف ، أطلق سراح مظفر الدين وأخرجه من اربل ، فسار مظفر الدين الى بغداد يشكر للمسئولين فيها اعتداء مجاهد الدين على حقه الشرعى ولكنهم لم يستمعوا اليه ، فاتجه نحو الموصل لعله يجد من صاحبها سيف الدين غازى (الثانى) استجابة له فيعاونه على اعادته الى امارته ، ولكن سيف الدين لم يحقق له رغبته ، وانما عوضه عن اربل ، بأن

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٩٧

ألحقه فى خدمته ، وأقطعه مدينة حران ، فانتقل مظفر الدين اليها وأقام بها [1] .

وقد أهمل المؤرخون تحديد السنة التى حدث فيها اقصاء مظفر الدين عن امارته ، كذلك أهملوا ذكر سبب الخلاف .

وقد حاولنا تحديد السنة التى أقصى فيها مظفر الدين ، فتبين لنا أن ذلك كان بين شهر ذى القعدة سنة ٥٦٩ (١١٧٣ م) وشهر شوال سنة ٥٧١ (١١٧٥ م) ؛ ذلك لأن قطب الدين مودود كان أميرا على الموصل حتى شهر ذى الحجة سنة ٥٦٥ (١١٦٩ م) ، فلما مات خلفه ابنه سيف الدين غازى (الثانى) ولكنه لم يستمتع بالحكم المستقل طويلا ، حيث استولى عمه نور الدين محمود على الموصل منه فى جمادى الأولى سنة ٥٦٦ ، وأصبح سيف الدين نائبا لعمه فى الموصل ولكنه كان محدد السلطة ، لأن نور الدين كان يخشى غدر سيف الدين به ، فعين على قلعة الموصل نائبا من قبله يقال له سعد الدين كمشتكين ، وكان الرأى الأول والأخير فى ادارة شئون الموصل لسعد الدين هذا ، فقد أمر نور الدين ، سيف الدين « بأن لا ينفرد عنه (عن سعد الدين) بقليل من الأمور ولا بكثير » [2] وظل سيف الدين تابعا لعمه نور الدين حتى وفاة نور الدين فى شوال سنة ٥٦٩ ، وعندئذ استقل بالموصل استقلالا تاما ، فلو أن التجاء مظفر الدين الى سيف الدين كان قبل شهر شوال سنة ٥٦٩ ، لما استطاع سيف الدين أن يفعل له

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧١ .
(٢) الكامل ، ج ٩/ص ١١٠ .

شيئا ، لأنه لا يملك التصرف فى الموصل وبالتالى لا يملك اقطاع أحد شيئا من ممتلكاتها . أما شهر شوال سنة ٥٧١ ، فهو الشهر الذى نجد فيه مجاهد الدين فى مدينة الموصل ، حيث التحق بخدمة صاحبها سيف الدين غازى (الثانى) باستدعاء منه (١) .

واذا كان المؤرخون لم يذكروا أيضا سبب الخلاف الذى حدث بين مظفر الدين ومجاهد الدين ، فاننا نرجح أنه كان خلافا على أحقية كل من مظفر الدين ومجاهد الدين فى الحكم وفى أيهما تكون له الكلمة العليا فى تصريف شئون الامارة وادارتها ، وبمعنى أوضح ان مظفر الدين أراد أن يسترجع حقه فى حكم الامارة بعد أن أصبح أهلا للحكم ، الأمر الذى أغضب مجاهد الدين وأثاره ، فعمل على اقصائه عن الملك ، واقامة أخيه الأصغر يوسف مكانه ، لكى يجد المبرر لجمع السلطة كلها فى يده ، ويظل هو الحاكم الفعلى للامارة . نستنتج هذا على ضوء ما عرفناه عن مجاهد الدين أثناء دراستنا لمظفر الدين وأسرته وبالشخصيات التى اتصلت بهم ، فقد تبين لنا أن مجاهد الدين كان حريصا على أن يؤثر نفسه بالسلطة كلها لا ينازعه فيها أحد ، سواء حين كان يحكم اربل باسم صاحبها زين الدين على ، أو حين دخل فى خدمة ملوك الموصل فيما بعد .

فقد كان مجاهد الدين هو المنفرد فى حكم اربل لا يشاركه فى الحكم شريك منذ أن سلمه زين الدين على المدينة ليحكمها بالنيابة عنه أثناء أن كان يقيم هو بالموصل ، فاعتاد مجاهد الدين

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٣٦ .

على الحكم المنفرد واستمرأه ، ومن ثم تأصلت فيه نزعة السيادة والتسلط ، فلما رأى أن مظفر الدين يريد أن يسلبه سلطانه انزعج ولم يطق هذا التحدى منه فأخذ يكيد له ليتخلص منه حتى أقصاه عن الامارة وأقام أخاه الأصغر يوسف مكانه ، ليضمن بذلك بقاء السلطة فى يده والنفوذ عليه وعلى الامارة ، وقد نجح مجاهد الدين فى الحجر على يوسف نجاحا كبيرا ، حتى أن المؤرخ ابن الأثير يقول عن مكانة كل من مجاهد الدين ويوسف فى احدى المناسبات : « وكان البلد (اربل) لولد زين الدين اسما لا معنى تحته ، ولمجاهد الدين صورة ومعنى » [1] .

أما فى غير اربل ، فان مجاهد الدين استبد بملوك الموصل أنفسهم حين ألحقوه فى خدمتهم ، فقد اشتهر عن مجاهد الدين بأنه رجل حرب وادارة ، وأنه يمتاز فى هذين المجالين امتيازا كبيرا . وكان سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود ملك الموصل يعرف هذا عن مجاهد الدين حق المعرفة ، فعزم على الحاقه بخدمته حين تأزمت الأمور بينه وبين صلاح الدين الأيوبى الطامع فى بلاده ، وعرف فى نفسه العجز عن الوقوف وحده ضده ، فاستدعى مجاهد الدين من اربل فى سنة ٥٧١ ليستعين به وعينه فى آخطر الوظائف الحربية ، وهى وظيفة مستحفظ (محافظ) قلعة الموصل ، لأن حفظ المدينة من السقوط فى يد المغير متعلق بقوة القلعة وكفاءة محافظها الحربية ، وما أن تسلم

(١) التاريخ الباهر ، ص ١٧٧ .

مجاهد الدين وظيفته حتى أخذ يفرض شخصيته على سيف الدين نفسه ، حتى أنه أرغمه على القبض على وزيره جلال الدين ابن على واعتقاله لخلاف حدث بينهما [1] ، ولعل سببه أن سيف الدين كان قد عهد الى الوزير بمهمة تدبير شئون الدولة وادارتها ، فكان الوزير لذلك أقرب الى سيف الدين من مجاهد الدين ، فلم يرق هذا لمجاهد الدين وكره أن يلمع اسم من الأسماء دون اسمه ، فعمل على ازاحة الوزير من طريقه . وما زال مجاهد الدين يتدخل فى شئون الدولة ويفرض نفسه على صاحبها ، حتى أصبح فى سنة ٥٧٦ ، هو المدبر الوحيد لدولة سيف الدين والحاكم على جميع نوابه فى البلاد التابعة للموصل[2].

أما فى عهد عز الدين مسعود ، الذى خلف أخاه سيف الدين على الموصل ، فقد بلغ مجاهد الدين من قوة النفوذ والسلطان ما فاق نفوذه وسلطانه على عز الدين ، فيذكر المؤرخ ابن الأثير ، أن عماد زنكى صاحب مدينة سنجار طلب من أخيه عز الدين مدينة حلب فى مقابل أن يتنازل له عن مدينة سنجار ، فرفض عز الدين طلب أخيه ، ولكن مجاهد الدين أرغم عز الدين على تسليم حلب الى أخيه ، « فلم يمكن عز الدين مخالفته لتمكنه فى الدولة وكثرة عساكره » ، ثم يذكر ابن الأثير سبب هذا التصرف من مجاهد الدين ، « أن الذى حمل مجاهد الدين على ذلك خوفه من عز الدين لأنه عظم فى نفسه وكثر معه

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٤٤ .
(٢) الكامل ، جـ ٩/ص ١٥٠

العسكر » بالاضافة الى أن أمراء حلب كانوا « لا يلتفتون الى مجاهد الدين ، ولا يسلكون معه من الأدب ما يفعله عسكر الموصل »[1] ، فواضح من هذا أن مجاهد الدين أراد أن يظل صاحب الموصل ضعيفا ليظل هو متمكنا منه ومن الدولة ، وأنه كان مغرما بالتعظيم والتفخيم ، بحيث أنه لما رأى أن قواد جيش حلب لا يضعونه فى المكانة التى ترتضيها نفسه المتعاظمة والتى يضعه فيها قواد جيش الموصل ، كره حلب وأكره صاحبها على التنازل عنها لأخيه . ويقارن ابن الأثير بين نفوذ مجاهد الدين ونفوذ عز الدين ، فيقول : ان « مجاهد الدين على الحقيقة هو الملك ، والاسم لعز الدين »[2]. والواقع أن مجاهد الدين بلغ من القوة والسيطرة فى عهد عز الدين الى حد أنه حين عزم عز الدين على التخلص منه بعد أن بلغ منه الضيق غايته ، لم يتمكن من القبض عليه الا بحيلة دبرها له خوفا من قوته ، فادعى المرض ، فلما جاءه مجاهد الدين ليعوده ، قبض عليه عز الدين واعتقله وصادر أمواله[3] . ينضاف الى ذلك ، أن نواب عز الدين على بلاده ، كانوا يطيعونه خوفا من مجاهد الدين لا خوفا منه ، فلما قبض عليه عصاه نوابه واستقلوا بولاياتهم عنه ، فاضطر عز الدين الى اطلاق سراحه ، وان كان قد حد من نفوذه بعد ذلك ليحد من طغيانه[4] .

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٥٤ .
(٢) الكامل ، جـ ٩/ص ١٦٣ .
(٣) الكامل ، جـ ٩/ص ١٦٣ .
(٤) الكامل ، جـ ٩/ص ١٦٣ .

فهذه الأخبار تشير بوضوح ، الى أن مجاهد الدين كان نزاعا الى الانفرادية فى الحكم والاستبداد به ، ويؤيد أيضا استنتاجنا بأن مجاهد الدين أقصى مظفر الدين عن امارته ، لأن مظفر الدين كان يريد أن يقف فى طريقه وأن يحد من سلطانه ، وهو الشيء الذى لم يتعوده ولم يرض به .

ثم نعود الى مظفر الدين لنقول ، انه بقبوله الاقطاع من سيف الدين واقامته فى حران ، أصبح تابعا من أتباعه ، تسرى عليه شروط التبعية الاقطاعية ، فعليه أن يبادر الى خدمة سيف الدين كلما طلب منه سيف الدين ذلك ، وأن يمده بالجند أو يحارب معه بنفسه كلما استدعاه للاشتراك معه فى الحرب ، كما حدث فى سنة ٥٧١ ، حين اشتبك سيف الدين مع صلاح الدين فى حرب عند مدينة حلب ، فاشترك فيها مظفر الدين وكان يقود فيها ميمنة جيش الموصل بينما كان أخوه زين الدين يقود ميسرة جيش صلاح الدين ، وهى المعركة التى ذكرناها فى الفصل الثانى .

ولكن وان كان مظفر الدين خرج من سيطرة مجاهد الدين فى اربل ، الا أنه وقع تحت سيطرته مرة أخرى فى سنة ٥٧١ حين دخل مجاهد الدين فى خدمة سيف الدين غازى صاحب الموصل فى تلك السنة ، مع فارق كبير بين مركز مظفر الدين عندما كان فى اربل ومركزه فى حران . فقد كان مظفر الدين فى اربل أميرا وكان مجاهد الدين موظفا من موظفى الامارة ، ولما كان مجاهد الدين يدير شئون اربل كان يعرف موضعه من مظفر الدين ويعترف

فيما بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس ، بأنه مجرد عامل من عمال مظفر الدين أى يعترف بسيادته عليه ، ولكن حين أصبح مظفر الدين تابعا لصاحب الموصل ، والتحق مجاهد الدين فى خدمة صاحب الموصل أيضا ، أصبح مظفر الدين تحت نفوذ مجاهد الدين أى أن مجاهد الدين أصبح هو السيد على مظفر الدين ، لأن صاحب الموصل فوض لمجاهد الدين أمور دولته كلها : فأصبح نواب صاحب الموصل ومقطعيه على البلاد تحت اشراف مجاهد الدين مباشرة ، الأمر الذى أزعج مظفر الدين ؛ ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا لقصر يده ، وقلة حيلته .

وعلى كل حال ، لا نعرف على الحقيقة كيف كانت العلاقة بين مظفر الدين ومجاهد الدين فى وضعهما الجديد فيما بين سنتى ٥٧١ و ٥٧٧ ، لأن مظفر الدين يختفى عن مسرح الحوادث ، أو على الأصح يخفيه المؤرخون فلم يذكروا عنه شيئا ، حتى اذا كانت سنة ٥٧٧ ، عاد الى الظهور والمشاركة فى الأحداث .

ففى سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) ، مرض الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب المرض الذى مات به فى نفس السنة ؛ وكان الصالح اسماعيل قد أوصى أثناء مرضه بأن تؤول حلب بعد وفاته الى ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل ، فلما مات اسماعيل ، أسرع عز الدين وأرسل مظفر الدين الى حلب خوفا من أن يسبقه اليها صلاح الدين الأيوبى ويستولى عليها ، وأرسل معه من يحلف له أمراء حلب وقواد جيشها بالطاعة له ، فدخلها مظفر الدين فى الثالث من شهر

شعبان من السنة ، ثم لحقه عز الدين مسعود ومعه ابنه وفى صحبته مجاهد الدين قايماز ، ودخلها فى العشرين من نفس الشهر(١)، ثم عين مسعود ، مظفر الدين واليا على حلب ، ورئيسا لديوانها(٢) .

ولكن عز الدين مسعودا كره الاقامة فى حلب ، لأن أمراءها وقواد جيشها تغالوا فى مطالبهم منه بزيادة اقطاعاتهم وطلب الأموال ، وأكثروا من الادلال عليه لموافقتهم على امتلاكه مدينتهم ، بالاضافة الى أن بعده عن الموصل يعرضها للسقوط فى يد صلاح الدين الطامع فيها ، فقد ينتهز صلاح الدين فرصة غيابه عنها فيسرع اليها ويستولى عليها ، ومن ثم عزم على الرحيل عن حلب الى الموصل فأبقى بها ولده نور الدين محمودا — وهو طفل صغير ، وردّ أمره الى والى القلعة شهاب الدين اسحاق ، وسلّم البلد والجيش الى مظفر الدين (٣) .

وارسال عز الدين مسعود ، مظفر الدين ليحفظ له حلب ، ثم تسليمه المدينة والجيش اليه ، له دلالته على أن مظفر الدين كان موضع ثقة عز الدين ، بحيث استأمنه على المدينة ، واطمأن الى أنه فوض أمرها الى رجل مؤتمن ، ولكن سوف نرى أن

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٩٧ .
(٢) زبدة الحلب ، جـ ٢/لوحة ١٩٢ (مخطوط) .
(٣) زبدة الحلب ، جـ ٢/لوحة ٢٠٠ (مخطوط) .

مظفر الدين يحاول أن يستولى على حلب لنفسه ، فلماذا أقدم على ذلك ؟

هنـــاك روايتان مختلفتان يمكن أن نستنتج منهما أو من احداهما سبب اقدام مظفر الدين على الاستيلاء عـــلى حلب : فأما الرواية الأولى — ويقول بها ابن الأثير مؤرخ العصر — أن عماد الدين زنكى صاحب مدينة سنجار طمع فى مدينة حلب ووجد أنها أصلح له من مدينـــة سنجار ، فعرض عـــلى أخيه عز الدين مسعود أن يتبادلا المدينتين ، فيتنازل له عماد الدين عن سنجار ، فى مقابل أن يتنازل له عز الدين عن حلب ، فرفض عز الدين عرض أخيه ، ولكن عماد الدين أصر على أخذ حلب ، فاضطر عز الدين الى المبادلة تحت ضغط عاملين لم يستطع لهما دفعا . فأما أولهما ، فان عماد الدين هدّد أخاه بالانتماء الى صلاح الدين الأيوبى وتسليم مدينة سنجار اليه اذا هو رفض تسليمه حلب . وأما ثانيهما ، فان مجاهد الدين وقف الى جانب عماد الدين وأيد طلبه ، فأخذ يلح على عز الدين فى التنازل عن حلب لأخيه ، فنزل عز الدين على رأيه لخوفه منه للأسباب التى ذكرناها من قبل ، ثم تم الاتفاق بين الأخوين على المبادلة [1] .

أما غـــير ابن الأثير ، كابن واصل [2] ، وابن شداد [3] ، وابن أبى طى [4] ، وابن العديم مؤرخ حلب ، فيذكرون أن

(١) الكامل ، ج ٩/ص ١٥٤

(٢) مفرج الكروب ، ج ٢/ص ١٠٩ .

(٣) سيرة صلاح الدين الأيوبى ، ص ٤٥ .

(٤) الروضتين ، ج ٢/ص ٣٠ .

التبادل تم بين الأخوين عن رضا وبدون ضغط من أحد ، بل ان ابن العديم يذكر أن الذى اقترح التبادل هو عز الدين مسعود حيث يقول — ابن العديم — انه بعد أن غادر عز الدين مسعود مدينة حلب ، سار الى مدينة الرقة وأقام بها فصل الربيع ، « وراسل أخاه عماد الدين فى المقايضة بسنجار ليتوفر على حفظ بلاده ويضم بعضها الى بعض ، ولعلمه أنه يحتاج الى الاقامة بالشام لتعلق أطماع الملك الناصر (صلاح الدين) بحلب ، وقدم عليه أخوه ، واستقرت المقايضة على ذلك »[1] .

على كل حال ، وأيا كان سبب المقايضة والدافع لها ، يمكن القول ، بأن الدافع الذى دفع مظفر الدين على الاستيلاء على حلب ، هو خوفه من خروج حلب من يده حين علم بالمفاوضات الدائرة بين الأخوين ، وأن النية متجهة الى تسليم المدينة الى عماد الدين ، فقد قدر مظفر الدين أنه لو تسلم عماد الدين المدينة ، فان عماد الدين سوف يقصيه عنها ويستعين فى حكمها برجاله وخواصه ، فلذلك عزم على الاستيلاء عليها قبل أن يتم الاتفاق بين الأخوين فيضعهما أمام الأمر الواقع ، دون النظر الى عز الدين مسعود سيده الاقطاعى ، والذى يدين له بالطاعة والولاء .

وأما ابن أبى طى ، وهو أيضا مؤرخ معاصر ، فانه يقول ، أن مظفر الدين أقدم على محاولة الاستيلاء على حلب قبل أن

---

(١) زبدة الحلب ، ج ٢/لوحة ٢٠٠ (مخطوط) .

تبرز المفاوضات الى الوجود ، وانما أقدم مظفر الدين على ذلك بعد رحيل عز الدين مسعود عنها ، فلما بلغ عز الدين محاولة مظفر الدين قرر أن يسلم المدينة الى أخيه عماد الدين لعلمه بأنه لن يتمكن من الاشراف عليها لبعدها عن الموصل . ونص خبر ابن أبي طي : « في أول السنة (سنة ٥٧٨) أراد مظفر الدين ابن زين الدين — وكان اليه شحنكية حلب — الاستيلاء على قلعة حلب بأن يهاجمها فلم يتمكن وظهر أمره . وبعد هذه الوقعة اجتمع الأخوان عز الدين وعماد الدين على « الرقة » وتحالفا على بساط واحد ، وسلم عماد الدين ما كان بيده من سنجار وغيرها الى عز الدين ، وسلم عز الدين اليه حلب .. »[١] ، فبحسب رواية ابن أبي طي ، أن فكرة التبادل نبتت عند الأخوين بسبب محاولة مظفر الدين الاستئثار بحلب ، فآثر الأخوان ، أن يتسلمها عماد الدين ليقيم بها اقامة دائمة ويحفظها لبيتهما .

وكيفما كان الأمر ، فان مظفر الدين أقدم على الاستيلاء على قلعة المدينة ليضمن بقاءالمدينة في يده وليستطيع الدفاع عنها اذا أعلن عز الدين الحرب عليه ، لأن من بيده القلعة يستطيع أن يسيطر على المدينة بأكملها ، لأن القلعة هي في الواقع الحصن الحصين للمدينة ، وأما ربض المدينة ، أي سهلها ، فانه عرضة للاغارة عليه في أي وقت ، ومع ذلك لن يستفيد المغير من السهل ما دامت القلعـة ليست في يده ، وأن حاميتها ستواصل قتاله ، لذلك أقدم مظفر الدين على الاستيلاء على قلعة حلب بالرغم من

(١) الروضتين ، ج ٢/ص ٣٠ .

وجود المدينة فى يده . وكانت القلعة تقع فى وسط المدينة على تل مستدير الشكل ، وحولها خندق عميق يصعب اجتيازه أو تخطيه ، وانما يصل القلعة بالخارج قنطرة متحركة ترفع وتخفض عند اللزوم ، وترابط فيها قوة مسلحة مهيأة ومستعدة للقتال فى أى وقت ، لذلك حين عزم مظفر الدين على الاستيلاء على القلعة لم يحاول أن يستولى عليها بالقوة لأن هذا فوق استطاعته ، ولذلك لجأ الى الحيلة والخداع . فقرر أن يصعدالىالقلعةبنفر قليل من الجند لئلا يثير شكوك والى القلعة ، وعندما يدخلها برجاله يقبض على الوالى ويعتقله أو يقتله ، فتخضع الحامية له وتصبح القلعة عندئذ فى قبضته ، ولن يستطيع عز الدين أو غيره بعد ذلك اخراجه منها ، وبذلك تصفى له البلد كلها ، ويصبح هو سيدها وأميرها .

ويصف مؤرخ حلب ابن العديم ، حيلة مظفر الدين التى اتبعها للاستيلاء على القلعة ، فيقول ، ان مظفر الدين ، اتفق مع جماعة من جند حلب على الاستيلاء على القلعة ، فلبسوا الزرد تحت ثيابهم ، وحمل كل واحد منهم سيفا ، وساروا جميعا اليها ، فلما وصلوا القنطرة وقفوا عندها ، وأرسل مظفر الدين الى والى القلعة يقول له : انى وصلنى كتاب من أتابك عز الدين وأمرنى أن أطلع فى جماعة اليك . ولكن الوالى شك فى مظفر الدين عندما رأى ما معه من الرجال ، فأرسل اليه بأله يسمح له بدخول القلعة وحده دون ما معه من الرجال ، فأسقط فى يد مظفر الدين وعرف أن حيلته قد انكشفت فأحجم

عن الدخول وعاد مع رجاله من حيث أتوا . عند ذلك تأكد شك والى القلعة فى نوايا مظفر الدين ، فأرسل الى عز الدين مسعود وأخبره بما كان من مظفر الدين ، فلما علم مظفر الدين بأن عز الدين عرف أمره خاف منه ، فأرسل اليه ينفى عن نفسه سوء النية فى مسيره الى القلعة ، ويعتذر بأنه انما لجأ اليها لكى يحتمى بها من الاسماعيلية (ويقال لهم أيضا الباطنية) الذين هددوه بالقتل [1] .

ولم يشأ عز الدين أن يستعمل العنف مع مظفر الدين لما علم بما حدث منه ، فقد خاف عز الدين أن يلجأ مظفر الدين الى صلاح الدين — عدو عز الدين اللدود — وينضم اليه فتدخل حلب ضمن دولته ، وانما أسرع بالاتفاق مع أخيه عماد الدين وتنازل له عن المدينة ، فسار اليها عماد الدين ، فلما علم مظفر الدين بمسيره اليها ، خرج منها وعاد الى مدينته حران ، بعد أن وضع اسفينا فى العلاقة بينه وبين عز الدين ومجاهد الدين ، وبعد أن بذر بذور العداوة بينه وبينهما ، ولذلك أحس بحرج مركزه ، وقدر — وقد أصاب فى تقديره — أن عز الدين ومجاهد الدين لن يغفرا له عمله ، وأنهما سوف يتحينان الفرص للايقاع به ، ولذلك أسرع بالعمل لانقاذ نفسه ، فلم يجد بدا من أن ينفصل عن الموصل ويحتمى بصلاح الدين — الخصم العنيف للموصل — وأن ينضم اليه .

واذا كان مظفر الدين التجأ الى صلاح الدين وانضم اليه

(١) زبدة الحلب ، ج ٢/لوحة ٢٠٠ (مخطوط) .

خوفا من عز الدين ومجاهد الدين ، فان هناك سببا آخر وجيها دفعه الى ذلك ، وهو الانتقام من مجاهد الدين بصفته الحاكم الفعلى لدولة الموصل ، بسبب اقصائه عن امارة اربل ، فأراد أن يثأر منه بانضمامه الى عدو الموصل ، صلاح الدين الذى يعتبر فى نفس الوقت عدوا شخصيا لمجاهد الدين .

ولم يكتف مظفر الدين بالانضمام الى صلاح الدين ، وانما أخذ يحرضه ويدفعه الى الاغارات على الموصل وملحقاتها والاستيلاء عليها ، ويعده النصرة والاشتراك معه فى الحروب التى يثيرها ضد صاحب الموصل ، حتى استجاب له صلاح الدين .

ففى سنة ٥٧٨ ، كان صلاح الدين يحاصر مدينة بيروت للاستيلاء عليها من الصليبيين ، فأرسل مظفر الدين اليه « انه معه ، ومحب لدولته ، ووعده النصرة له اذا عبر الفرات ، ويطمعه فى البلاد (بلاد بنى زنكى فى الجزيرة والموصل) ويحثه على الوصول اليها ، فسار صلاح الدين عن بيروت ، ورسل مظفر الدين تترى اليه بحثه على المجىء ، فجدّ صلاح الدين فى السير اليها » (١) . ويورد العماد الأصفهانى بأسلوبه المسجوع نص تحريض مظفر الدين لصلاح الدين على الاستيلاء على بلاد عز الدين ، ومنها الموصل ، فيقول : وقال مظفر الدين للسلطان ، أى لصلاح الدين : « ما زلت شوقا اليك فى « حران » حران ، والى الرى من ورد خدمتك ظمآن ، وهى لك مبذولة ، وبأوليائك من أهل الدين والدنيا مأهولة ، و « الرها » لا يعسر أمرها ،

(١) الكامل ، ج ٩/ ١٥٦ .

و « الرقة » لرقك وبعض حقـــك ، و « الخـــابور » فى انتظار خبرك ، و « دارا » دارك ، و « نصيبين » نصيبك ، وملك « الموصل » موصلك الى الملك ، وما هذا أوان الونا ..»[1]

وقد ذكر العماد فى نصه هذا ، بلاد الزنكيين فى الجـزيرة التى حرض مظفر الدين ، صلاح الدين للاستيلاء عليها ، وهى : حران ، والرها ، :والرقة ، والخابور ، ودارا ، ونصيبين فضلا عن الموصل .

ولما تكرر الحاح مظفر الدين على صلاح الدين بفتح بلاد الزنكيين ، واطمأن صلاح الدين الى مساندة مظفر الدين له ، سار عن بيروت الى الجزيرة ، فلما عبر نهر الفرات اجتمع به مظفـر الدين وانتمى اليه ودخـــل فى طاعته ، وبذلك انقلب مظفر الدين عدوا للموصل ، ثم بدأ صلاح الدين يستولى على مدن الجزيرة التى تدخل فى ملك بنى زنكى وغيرهم من أمراء الجزيرة ، ومظفر الدين يحارب الى جانبه وفى صفوف جيشه ، ولما استولى صلاح الدين على مدينة الرها أقطعها الى مظفر الدين الى جانب ما بيده من مدينة حران ، فازدادت بذلك اقطاعاته ، وارتفعت تبعا لذلك مكانته . وبعد أن استولى صلاح الدين على : الرقة ، والخابور ، ونصيبين ، استشار أصحابه فى أى البــلاد يبدأ فى الاستيلاء عليها من بلاد بنى زنكى الكبرى ، هل يبدأ بالموصل ، أو بسنجار ، أو بجزيرة ابن عمر ، فاختلفت الآراء فى ذلك : الا أن مظفر الدين أخــذ يقنع صلاح الدين بضرورة البدء بالموصل وأخذ يهون عليه فتحها ، لأن فى تقديره أن صاحبيها

(١) الروضتين ، ج ٢/ص ٣٠ .

عز الدين ومجاهد الدين قايماز فى حالة من الضعف بحيث لن يستطيعا الصمود لقتاله ، وانهما سوف يفران أو يستسلمان بمجرد ضرب الحصار على الموصل ، أو حتى بمجرد أن يسمعا بمسير الجيوش اليها ، وأيد ناصر الدين محمود بن شيركوه — ابن عم صلاح الدين — رأى مظفر الدين ، فانه كان قد تم اتفاق سابق بين صلاح الدين وناصر الدين ، على أنه اذا استولى صلاح الدين على الموصل أن يقطعها لناصر الدين فى مقابل مبلغ من المال يدفعه له سنويا ، فلما رأى صلاح الدين حماس مظفر الدين وناصر الدين لفتح الموصل ، سار اليها وفى رفقته مظفر الدين وحاصرها ، ولكنها استعصت عليه لحصانتها ومناعتها فعاد عنها [1] .

غير أن العلاقة ساءت بين صلاح الدين ومظفر الدين فى سنة ٥٨١ ، بحيث أقدم صلاح الدين على القبض عليه واعتقاله برغم الحماس الذى كان يبديه مظفر الدين للانتصار له ضد بنى زنكى ، ومع ذلك فان صلاح الدين لم يتوان فى اعتقاله عدة شهور لشك داخله فيه . ذلك أن مظفر الدين ما زال ناقما على صاحب الموصل وعلى مجاهد الدين ، ويود بجدع الأنف أن يزيل دولة الموصل من الوجود ، فمنذ أن فشل صلاح الدين فى حملته على الموصل سنة ٥٧٨ ، ومظفر الدين دائم التحريض له لمعاودة الكرة مرة ومرات لامتلاكها . وفى سنة ٥٨١ ، أرسل مظفر الدين الى صلاح الدين رسالة على يد رسول له يحرضه

(١) الروضتين ، جـ ٢/ص ٣٠ .

فيها على اعادة المحاولة للاستيلاء على الموصل ، فأبلغ الرسول صلاح الدين رسالة مظفر الدين ، وأضاف الرسول أن مظفر الدين يتعهد لصلاح الدين بالقيام بما يحتاج اليه من النفقات والأزواد لهولجيشه متى عبر الفرات ، وأنه مستعد أيضا ، أن يدفع له خمسين ألف دينار حين يصل الى حران ، فتحمس صلاح الدين عند ذلك لفتح الموصل وبخاصة وأن شكوى زين الدين يوسف كانت قد وصلته عن تعدى مجاهد الدين على بلاده ، فجهز جيشه وخرج به من دمشق يريد الموصل وهو مطمئن الى وعود مظفر الدين ، ولكنه حين وصل حران ، لم يجد من مظفر الدين شيئا مما وعد به على لسان رسوله ، فداخلته الريبة فيه وشك فى نواياه ، واعتقد أنه مال مع صاحب الموصل فهو يغرر به ، وانتهز أعداء مظفر الدين فرصة شك صلاح الدين فيه ، فأخذوا يوقعون به عنده ، حتى أوغروا صدره عليه ، كل هذا ومظفر الدين يحلف لصلاح الدين أنه ما زال قائما على العهد ، مواليا له ، معاديا للموصل وصاحبها ، أما ما التزمه رسوله له ، فانه لم يكن بأمره ولا يعلم عنه شيئا ، ولكن صلاح الدين لم يقتنع ، فقبض عليه واعتقله حتى تتبين له حقيقة أمره . وقد أشار بعض المقربين من صلاح الدين عليه بقتله ، ولكنه لم يفعل ، خيفة أن ينحرف عنه الموالون له من أمراء الجزيرة ، لأنهم يعلمون الخدمات التى أداها مظفر الدين لصلاح الدين فى استيلائه على ما استولى عليه من بلاد الجزيرة ، غير أن صلاح الدين لم يطل اعتقال مظفر الدين ، اذ سرعان ما أظهرت الأيام صدق ولاء مظفر الدين له ، فأطلق

مراحه وأرضاه رضاء جميلا ، وخلع عليه وطيب قلبه « وأعاده الى قانونه فى الاكرام والاحترام »[1] .

وسار صلاح الدين بجيشه من حران الى الموصل لحصارها ، وفى ركابه مظفر الدين وأخيه زين الدين يوسف ، فضرب صلاح الدين الحصار على المدينة ، ونزل مظفر الدين وأخوه بمعسكرهما فى الجانب الشرقى من الموصل مع بعض القواد الآخرين ، ولكن صلاح الدين لم يستطع فتح المدينة برغم القتال الشديد عليها ، فعزم على الرحيل عنها ، فقد جد ما جعله يتحول عنها مؤقتا[2] .

فقد حدث أن توفى شاه أرمن بن سكمان صاحب ولاية « خلاط » وصلاح الدين على حصار الموصل ، ولم يخلف صاحب خلاط من يرث حكم الولاية ، فطمع فيها شمس الدين محمد ابن ايلدكز صاحب بلاد همذان ، وعزم على الاستيلاء عليها ؛ فلما بلغ المسئولين فى خلاط ما اعتزمه شمس الدين ، أرسلوا الى صلاح الدين يستنجدون به ويعرضون عليه تسليم البلاد اليه ، ويلحون عليه فى الاسراع قبل أن يسبقه شمس الدين ، عندئذ عزم صلاح الدين على الرحيل عن الموصل ، وسار بجيشه الى خلاط ، وأرسل مظفر الدين وناصر الدين محمد بن شيركوه على رأس جماعة من الجيش ، وأمرهما أن يسيرا اليها من أقرب الطرق ليسبقا شمس الدين ؛ ولكن حين اقتربا من خلاط ، منعهما

---

(١) الكامل ، ج ٩/ص ١٦٧ .
(٢) سيرة صلاح الدين الأيوبى ، ص ٥٤ .

المسئولون فيها من تخطى حدودها ، وطلبوا منهما الاقامة فى مكان يقال له « قرن » ، فى الوقت الذى كان شمس الدين قد اقترب من المدينة أيضا ، فلما وجد أن جيش صلاح الدين قد سبقه اليها ، ضرب معسكره بعيدا عنها ، ولم يقربها .

وكان المسئولون فى خلاط فى حقيقة الأمر ، قد راسلوا صلاح الدين خديعة منهم ومكرا ، وذلك لكى يرهبوا شمس الدين بن ايلدكز ويضعوا أمامه منافسا قويا له هو صلاح الدين ، لأنهم يعلمون سلفا ، أنهم لن يستطيعوا الوقوف أمامه فى القتال ، وأن بلادهم لا شك واقعة فى يده مهما دافعوا عنها وقاتلوا دونها ، فوجدوا أن خير ما يعملونه فى هذه الحالة ، هو أن يتفقوا معه بشروط لا تجحفهم ، ولن يتأتى لهم ذلك ، الا اذا وضعوا أمامه صلاح الدين ، وهو منافس خطير له ، وقد نجحت خطتهم ، فان شمس الدين سرعان ما اتفق معهم على شروط ارتضوها ، ومن ثم أعلنوا طاعتهم له دون صلاح الدين ، فاضطر صلاح الدين الى العودة عن خلاط بعد مفاوضات جرت بينه وبين شمس الدين لم يذكر المؤرخون كنهها (١) .

ويبدو أن فشل صلاح الدين فى خلاط قوى عزمه على فتح الموصل بأى ثمن ، ويبدو أيضا — لحسن حظه — أن عز الدين مسعود يئس من الاحتفاظ بمدينته وهو يرى صلاح الدين مصرا على الاستيلاء عليها ، فما ان رأى أن صلاح الدين قد عاد اليها

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٦٧ .

لمحاصرتها حتى عقد معه صلحا أصبح بموجب شروطه تابعا من أتباعه [1] ، وبذلك فقدت الموصل كيانها كدولة مستقلة ، الأمر الذى طابت له نفس مظفر الدين وهدأت له ثائرته ، فقد شفى غليله من خصمه مجاهد الدين قايماز الذى أقصاه عن امارته بغير وجه حق .

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٧٠ .

الفصل الخامس

مُظفر الدين أمير اربل

ذكرنا فى الفصل الثانى فى حديثنا عن زين الدين يوسف أنه توفى سنة ٥٨٦ على أثر مرض وهو فى معسكر صلاح الدين فى عكا ، ويذكر المؤرخون أن أخاه مظفر الدين كان يقوم علـــى خدمته أثناء مرضه . فلما مات زين الدين ، طلب مظفر الدين من صلاح الدين أن يوليه امارة اربل وما لأخيه من البلاد ، على أن يتنازل له عما بيــده من البلاد فى الجزيرة : حران ، والرها ، وسمسياط ، وأن يدفع له خمسين ألف دينار كل عام ، فأجاب صـــلاح الدين سؤاله ، وأصدر منشـــورا بولايته على اربل وما يتبعها من البلاد ، وأذاع المنشور فى كافة البلاد الاسلامية ، ليعلم المجاورون لاربل أن مظفر الدين هو من أمرائه ، وأن اربل ما زالت جزءا من دولته ، وأرسل صلاح الدين نسخة من المنشور الى عز الدين مسعود صاحب الموصل ليحيط به خبرا ، ولا يبعد أن عز الدين طلب اربل من صـــلاح الدين عنــدما علم بوفاة زين الدين ، ولكن صلاح الدين رفض اجابته الى ما طلب ، ومما جاء فى المنشور :

« لا شك احاطة العلم بانتقال زين الدين الى جوار الله ومقر

رحمته ، مجاهدا فى سبيله ، شاكرا لنعمته ، وهو من السعداء الذين أنزل الله فيهم ، (ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) [1] ، فما أفجع القلوب بمصابه ، وما أنكى فى النفوس أفول شبابه . ولقد كانت الهمة متوفرة على تربيته واعلاء درجته ، ولكن الله تعالى استأثر به قبل ظهور حسن الآثار فى ايثاره ، وبلى بدره التمّ بسراره ، وأصبح فى ضمير البلى من أسراره . وهذه اربل من انعام البيت الكريم الأتابكى على البيت الزينى مذ سبعين عاما ، لم يحلوا لعقد انعامهم بها نظاما ، ولم يزيدوا أحكامه الا احكاما وابراما : وما رأى أن يخرج هذا الموضوع منهم ، وأن يصدف به عنهم . والأمير الأجل مظفر الدين كبير البيت وحاميه ، والمقـدم فى الولاية بمقتضى وصية أبيه ، وقد أنهض ليسد مسد أخيه » [2] وما أن صدر المنشور حتى سار مظفر الدين الى اربل ، ودخلها فى ذى الحجة سنة ٥٨٦ [3] .

وقد أشيع أن مظفر الدين قتل أخاه بالسم وهو يمرضه ، وأنه أظهر الفرح بموته ، والذى يحكى هذه الرواية وينفرد بها سبط ابن الجوزى ، حيث يقول عن وفاة زين الدين فى ترجمته له : « .. وكان عنده أخوه يمرضه ، فيقال انه سقاه سما فمات ، وظهرت على مظفر الدين أمارات ذلك ، فانه لم يكترث بموته

---

(١) سورة النساء : آية : ٩٩ .
(٢) الروضتين ، ج ٢/ص ١٦٤ .
(٣) مرآة الزمان ، ج ٨/ص ٤٠٦ .

ولا تأسف عليه » [1] . ويؤيد عدم اكتراث مظفر الدين بموت أخيه مؤرخ معاصر وله صلة وثيقة بمظفر الدين وأخيه ، هو العماد الأصفهانى ، ولكنه لم يتهم مظفر الدين بقتله أخيه بالسم ، ولا ذكرها كاشاعة ، ولو كانت هذه الواقعة صحيحة لما أهمل ذكرها ، يقول العماد فى معرض كلامه عن وفاة زين الدين : « .. وبكرنا الى مظفر الدين لنعزيه فى أخيه ، وظننا به الحزن فقلنا نعظه ونسليه ، فاذا هو فى شغل شاغل عن العزاء ، مهتم بالاحتياط على ما خلفه أخوه وتركه من الأشياع والأشياء ، وهو جالس فى مخيم أخيه المتوفى ، وقد أشرف على حفظه وأوفى ، وقد قبض على جماعة من أمرائه واعتقلهم ، وعجل عليهم وما أغفلهم ، منهم صارم الدين بن بلداجى متولى (قلعة) خفتيذ ، وكذلك كل حاضر له حصن ، ليحصل له من طاعته أمن » [2] . وكذلك لم يذكر هذا الاتهام معاصر آخر للحادث وهو ابن الأثير الجزرى ، ونحن اذا أردنا أن نقف موقف المحايدين من اتهام مظفر الدين بدس السم لأخيه ، فلا ننفيه ولا نؤيده ، وانما نقف حياله صامتين .

واذا أردنا أن نؤيده فيمكننا ذلك ، لأن أمثال هذه الجريمة تكررت فى الأسر الحاكمة ، فكثيرا ما قتل الأخ أخاه ، والوالد ولده ، والابن والده من أجل الملك والسلطان .

أما اذا أردنا أن ننفى الاتهام فيمكننا أيضا نفيه بأدلة يمكن

---

(١) الروضتين ، ج ٢/ص ١٦٤ .
(٢) الكامل ، ج ٩/ص ٣٢٠ .

وضعها موضع الاعتبار ، وأولها صيغة الشك التى بدأ بها سبط ابن الجوزى خبره ، وهى لفظة : « فيقال » ؛ ومنها ما هو معروف عن تدين مظفر الدين فنزعته الدينية تزعه عن أن يقترف مثل هذه الجريمة البشعة ؛ ومنها أيضا أن مظفر الدين لو أراد قتل أخيه لقتله حين رافقه مع صلاح الدين فى حرب الموصل سنة ٥٨١ ، فقد كان فى استطاعة مظفر الدين حينذاك أن يطلق عليه سهما أو نبلا فيرديه قتيلا من حيث لا يراه أحد فى زحمة القتال ، ولما انتظر عليه هذه السنين الخمس .

ونحن نميل الى تكذيب هذه الشائعة التى ألصقت التهمة بمظفر الدين والتى تستند على أنه هو الذى كان يقوم على خدمة أخيه وتمريضه ، ففى رأينا أن وجود مظفر الدين مع أخيه لا يعنى أنه قتله ، وانما نعتبر أن موته كان نتيجة مرض مستعص وفى مكان لا يتيسر فيه العلاج الكافى ، وهو ميدان الحرب ؛ كذلك نميل الى أن الشائعة خرجت من أفواه بعض الحاسدين لمظفر الدين ومن أعدائه ، حيث استغلوا ما هو معروف عن عزل مظفر الدين عن امارة اربل وولاية أخيه عليها وأثر هذا على مظفر الدين ، فسبب القطيعة بينه وبين أخيه .

ولكى نتعرف على موقف مظفر الدين وفهم تصرفاته على وجهها الصحيح ، لفند هذه التصرفات لنتمكن من الحكم له أو عليه حكما صحيحا .

وتصرفات مظفر الدين كما وردت فى خبر سبط ابن الجوزى وغيره من المؤرخين :

عدم اكتراثه بوفاة أخيه .
وانشغاله بالاحتيـاط على ما فى معسكر أخيه من الأشياء .
وقبضه على جماعة من أمراء أخيه ، ومنهم صـارم الدين ابن بلداجى متولى قلعة خفتيذ .

فاذا أردنا الحق ، فيجب علينا أن ننصف الرجل الذى أصبح فى ذمة التاريخ ، وذلك بأن نوضح أسباب هذه التصرفات التى نعجب لقصور فهم المؤرخين المعاصرين لطابع عصرهم الواضح .

ففيما يختص بعدم اكتراث مظفر الدين بموت أخيه ، فاننا نرجىء الكلام عليه حتى تنتهى من توضيح التصرفين الثـانى والثالث .

وأما فيما يختص بانشغاله بالاحتياط على ما فى معسكر أخيه من الأشياء فان مرجع ذلك ، أن الذى يحدث فى مثل هـذه المناسبة — والمعاصرون يعلمون هذا — أن رجال الجيش والغلمان ينتهزون فرصة موت ملكهم أو أميرهم أو قائدهم فى ميـادين القتال ، فيعتبرون كل ما يملك سيدهم حقا لهم مباحا لهم سلبه ونهبه حتى لا يبقون على شىء منه ، فأراد مظفر الدين أن ينقذ أموال أخيه وذخائره لكى يستفيد بها هو ، بدلا من أن يأكلها النهابون من الجند والغلمان ، وليس من شك فى أن تصرفه هذا ، ليس فيه ما يعيبه أو يشينه .

وأما قبضه على كبار رجال دولة أخيه ونوابه على القـلاع والحصون ممن كانوا معه ، فانه احتياط لابد أن يقـدم عليه مظفر الدين ، وذلك خشية أن تحدث أحدهم نفسه بالاستقلال

بقلعته أو بحصنه ، أو خشية أن ينضم أحدهم الى صاحب الموصل — عدوه الألد — وفى هذا أو ذاك ما فيه اضعاف له ، فقبض عليهم حتى يضمن ولاءهم له بتحليفهم على طاعته حسب العرف الجارى فى ذلك الوقت ثم يطلقهم بعد أن يأمنهم على نفسه ، وقد ذكر العماد الأصفهانى نفسه أن ما فعله مظفر الدين من قبضه على صارم الدين — ولعله كان أقوى أتباع أخيه يوسف — وعلى كل من له حصن هو « ليحصل له من طاعته أمن » أى ليضمن طاعتهم له .

فاذا ما عرفنا أسباب اهتمام مظفر الدين بالمحافظة على ما فى معسكر أخيه من أموال وعتاد وبقبضه على بعض أمراء أخيه ، عرفنا لماذا لم يبد عليه الاكتراث بوفاة أخيه ومع ذلك ، فان تصرفه هذا لا يعتبر عدم اكتراث ، وانما هو اشتغال عنه بالاهتمام بحفظ حقوقه قبل أن تضيع . هذا فى الوقت الذى لا ننكر فيه أن مظفر الدين كان يتطلع دائما الى امارته التى أقصى عنها ظلما وعدوانا من مجاهد الدين ، وأنها كثيرا ما كانت ترد على خاطره بحيث كان يقول لخلصائه ، انه اذا عاد الى أمارته ، فانه سوف يقسم مغلها (أى ايرادها) ثلاثة أقسام ، قسم ينفقه على أوجه البر فيها ، وقسم لنفقاته الخاصة ، وقسم للتسليح للدفاع عن المدينة اذا أغار عليها مغير .

وقد تحققت مخاوف مظفر الدين من المؤامرات ضده ، فانه ما كاد يصل خبر وفاة أخيه الى اربل حتى أرسل بعض سكانها الى مجاهد الدين — وهو بالموصل — يستدعونه لتسليم البلد

اليه لهـواهم فيه — ولحسن سـيرته السابقة فيهم ، فرفض مجاهد الدين الاستجابة لهم ، كذلك لم يشجعه عز الدين مسعود على ذلك بسبب الظروف المحيطة بهما ؛ فأما مسعود فانه ابتعد عن أمور اربل خوفا من صلاح الدين من أن يعتبره معتديا على ولاية تحت حمايته ونفوذه ، وأما مجاهد الدين ، فاننا ذكرنا من قبل ، أن عز الدين مسعود كان قد قبض على مجاهد الدين واعتقله ثم أطلقه من الاعتقال وأعاده الى وظيفته ، غير أنه لم يفرده بهذا المنصب ولم يطلق يده فى العمل كما كان الحال قبل القبض عليه ، وانما جعل معه انسانا يراقب أعماله وتصرفاته ، ولكن الرقيب اشتد فى رقابته حتى أنه كان يشاركه فى الحكم ، ويحل عليه ما يعقد من أمور ، فكان مجاهد الدين يغتاظ من ذلك أشد الغيظ ، ولكنه لا يستطيع الحـد من تدخل الرقيب ، لضعف مكانته عند صاحب الموصل ، لذلك حين استدعى الى أربل رفض الدعوة ، وحين سأله بعض خواصه عن سبب رفضه ، أجـابه بمرارة : لا أفعل لئلا يحكم فيها فلان (أى الرقيب) ويكف يدى عنها (١) .

وكان رفض عز الدين مسعود ومجاهد الدين الاسـتجابة لدعوة اربل خطأ كبيرا حيث ذاق ملوك الموصل بعد ذلك مرارة نتيجته بعد أن استقر مظفر الدين فيها ، فقد كان مظفر الدين العدو الألد للموصل ، حيث يقول المؤرخ ابن الأثير المعاصر

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٢١٠ .

للحوادث ، ان مظفر الدين « بقى غصة فى حلق البيت الأتابكى (الزنكى) لا يقدرون على اساغته » [1] وقد كان الأمر كذلك كما سنبين ذلك بعد .

وترك مظفر الدين عكا وسـار الى اربل ليتسلمها ويثبت أقدامه فيها ، وظل بها حتى استدعاه صلاح الدين ليواصل معه حـرب الصليبيين ، فظل مظفر الدين معه حتى وفاته (وفاة صلاح الدين — فى سنة ٥٨٩) ثم عـاد الى اربل ليدخل فى اشكالات عديدة مع ملوك الموصل وحلفائهم من الأيوبيين ، خلفاء صلاح الدين .

ذلك أن مدينة اربل كانت فى الأصل تابعة للموصل — كما سبق أن ذكرنا — منذ أن استولى عليها عماد الدين زنكى من الملك مسعود بن محمد السلجوقى ، واذا كان عماد الدين قد أقطعها لزين الدين على ، فان هذا الاقطاع ليس معناه أن المدينة خرجت عن ملكه ، وأن مقطعها حـرّ التصرف يعطى ولاءه لمن يشاء أو أن يستقل بها استقلالا كاملا ، وانما معناه ، ان المدينة ما زالت من بلاد دولة الموصل ، وأن مقطعها ملزم بالانتماء الى ملوكها واحدا بعد الآخر ، فاذا ما استقل بها ، أو حـول ولاءه لغير ملك الموصل ، يعتبر خارجا على الدولة ، ومن حق صاحب الدولة حينئذ قتاله واسترداد البلد منه واقطاعها لغيره . فمظفر الدين ، ومن قبله أخـوه زين الدين يوسف قد حولا

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٢٢٨ .

ولاءهما الى صلاح الدين ، فأصبحا بذلك من الخوارج على صاحب الموصل ، وأصبح من حقه اذن اخضاعهما ، ولكن ملوك الموصل لم يستطيعوا التحرش بهما لوجود صلاح الدين ، ولأنهم هم أنفسهم كانوا خاضعين لصلاح الدين . فلما مات صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) استعاد كل من صاحب الموصل ومظفر الدين استقلاله ، وأصبح كل منهما حر التصرف فى دولته ، لذلك كان مظفر الدين يخشى ازدياد قوة صاحب الموصل ، لئلا يعمل على استرداد اربل وشهرزور التى كانت هى أيضا من أملاك الموصل والتى تنازل عنها مسعود لصلاح الدين سنة ٥٨١ بموجب شروط الصلح التى عقدت بينهما ثم أقطعها صلاح الدين لزين الدين يوسف ، لذلك وقف مظفر الدين موقف العداء من أصحاب الموصل وعمل على الحد من توسعهم لئلا تزداد قوتهم فيصبحون خطرا عليه ، وأول موقف عدائى لمظفر الدين من ملوك الموصل ، كان مع عز الدين مسعود عقب وفاة صلاح الدين مباشرة ، فقد أراد عز الدين مسعود أن ينتهز فرصة وفاة صلاح الدين فيعمل على استرداد ما أخذه صلاح الدين من بلاده بالجزيرة ، فأشار عليه مجاهد الدين بأن يكاتب ملوك الأطراف — ومنهم مظفر الدين — ويستميلهم الى جانبه لكى يمدوه بالقوات اللازمة له لقتال خلفاء صلاح الدين ، أو ليضمن على الأقل وقوفهم على الحياد أثناء اشتباكه مع الأيوبيين فى القتال ، قبل الاقدام على مثل هذه المغامرة الخطيرة ، لأنه وان كان صلاح الدين قد مات ، الا أن خلفاءه سيدافع كل منهم

عما بيـــده ، ولعلهم يتحالفون ضـــده فتجتمع قوة لا يستطيع محاربتها ، فلما كاتب عز الدين مسعود ملوك الأطراف ، جاءته اجاباتهم برفض طلبه ، فقد خافوا على أنفسهم منه اذا عاد الى قوته ، وكان فى مقدمة الرافضين مظفر الدين فانه خشى أن يسترد منه اربل وشهرزور وقلاعها متى عاد الى قوته ، وبذلك فشل مشروع عز الدين مسعود [1] . ثم تعددت المواقف العدائية بين مظفر الدين والموصل ، ويبدو لنا أنه كان هنـــاك صراع بين مظفـــر الدين وملوك الموصل أشـــد وأكثر حوادث مما ذكره ابن الأثير مؤرخ الموصل والبيت الزنكى ، لأننا نحس بأن أخباره عن اربل والموصل مهزوزة وفيها كثير من الضغط والاختصار ، بحيث نجد فترة طويلة من سنة ٥٨٩ (١١٩٣ م) حتى سنة ٦٠٠ (١٢٠٣ م) لم يذكر خلالها أى أخبار عن مظفر الدين وملوك الموصل ، فلما كانت سنة ٦٠٠ ، ظهر مظفر الدين مرة أخـــرى كعدو أيضا للموصل .

وبيان ذلك ، أن الخـــلاف كان مستمرا بين أبنـــاء البيت الزنكى ، وبخاصة بين نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل وبين عمه قطب الدين محمد صاحب مدينة سنجار ، غير أنهما اصطلحا فى تلك السنة ، فأزعج هذا الصلح الملك العادل الأيوبى ، الذى كان يحكم فى ذلك الوقت مصر ، ودمشق ، وبلاد الجزيرة ، لأن اتفاقهما معناه خلق قوة كبيرة موحدة تستطيع تهديد ماله فى الجزيرة من بلاد ، فعزم على فصم عرى هذا الصلح ، فأرسل الى

(١) الكامل ، ج ٩/ص٢٦٤

قطب الدين محمد يستميله اليه ، فغدر قطب الدين بابن أخيه واستجاب للملك العادل وخطب له فى بلاده ، الأمر الذى استعظمه نور الدين أرسلان شاه ، فان اتفاقهما يهدده تهديدا خطيرا ، ومن ثم خرج بجيشه وسار الى نصيبين — وهى لعمه قطب الدين محمد — لينتقم منه بالاستيلاء عليها ، فضرب عليها الحصار ، وظل يقاتلها حتى أشرف على أخذها ، ولكن حدث ما اضطره الى رفع الحصار عنها والعودة الى الموصل ، ذلك أن مظفر الدين انتهز فرصة غياب نور الدين عن الموصل ، وانشغاله بقتال عمه فى نصيبين ، فخرج بجيشه من اربل وأغار على مدينة نينوى التابعة للموصل ، فخربها ونهبها وأحرق غلاتها ، وكادت تبلغ غارته الموصل ذاتها ، فأسرع نائب نور الدين على الموصل وأرسل ينذر نور الدين بالخطر فترك نور الدين نصيبين وقتالها ، وأسرع بالعودة الى الموصل خشية أن يستولى مظفر الدين عليها ، ولما عاد اليها ، كان فى عزمه أن يزحف على مدينة اربل ويخربها انتقاما من مظفر الدين لاغارته على أعمال الموصل ، ولكنه لما وجد أن مظفر الدين قد عاد الى بلاده لما علم بعودته من نصيبين ظل فى الموصل لم يحرك ساكنا (١) . فكان دور مظفر الدين فى هذا الحادث أنه عرقل مساعى ملك الموصل فى انهاء نزاع بينه وبين خصمه ، كذلك حال دون اتساع مملكة الموصل . وخبر اعتداء مظفر الدين على الموصل بعد عشر سنوات يدعو الى التساؤل عن سبب اختفاء الأخبار عن مظفر الدين وملوك الموصل

(١) الكامل : جـ ٩ ص ٣٠١ ، مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٤٥ .

طيلة هذه المـدة ، ونحن نرجح أنه حدثت أحداث فيما بينهم لم يذكرها ابن الأثير ، ودليل هذا ، الخبر الذى ذكره ابن الأثير فى سنة ٦٠٠ والذى ذكرناه آنفا . وسبب ترديدنا للمؤرخ ابن الأثير بالذات ، لأنه هو مؤرخ الزنكيين من ناحية ، ولأنه المؤرخ الوحيد الذى اهتم بتدوين أخبار هذه الفترة وحوادثها .

وبعد هذا الحادث بسنوات ، وفى سنة ٦٠٦ (١٢٠٩ م) بالذات ، اضطرت الحوادث مظفر الدين الى مهادنة نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل ، بل الى الانتصار له ضد الملك العادل الأيوبى ، ففى سنة ٦٠٥ عقدت مصاهرة بين نور الدين وبين الملك العادل فقد زوج العادل ابنه من ابنة نور الدين ، فحسّن بعض أمراء نور الدين له أن يتفق مـع الملك العـادل ضد عمه قطب الدين محمد صاحب سنجار وضـد معز الدين محمود بن سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر ، وذلك بأن يقتسما بلادهما فيما بينهما ، فأرسل نور الدين الى الملك العادل يعرض عليه هذا الاقتراح ، على أن يكون لنور الدين جزيرة ابن عمر ، وأن يكون للعـادل بلاد قطب الدين ، وهى منطقة الخـابور ونصيبين وسنجار ، فرحب الملك العادل بهذا الاقتراح واغتبط له ، لأن هذا المشروع سوف يمهد له السبيل للاستيلاء عـلى الموصل ذاتها ، مطمح أنظار البيت الأيوبى منذ أيام صلاح الدين الأولى ؛ فسار بجيشه من دمشق الى الجزيرة لينفذ المشروع المقترح ، وقصد بلاد قطب الدين ، فاستولى أولا على منطقة الخابور كلها ، ثم استولى بعدها على مدينة نصيبين ، ففرغ بذلك لمدينة سنجار ،

أهم بلاد قطب الدين ، فســار اليهــا لحصارها ، وكله أمل فى الاستيلاء عليها ، ولكنه ما ان ضرب الحصار عليها ، حتى وجد منها ما خيب أمله ، فقد وجد الدفاع عنها قويا ، وأن جيشها مصمم على قتاله والصمود له ؛ غير أنه لم ييأس من فتحها ، فظل محاصرا لها نحو سبعة شهور ، الأمر الذى أزعج قطب الدين وأيأسه من مواصلة الدفاع عن المدينة ، فقد خاف أن يضعف جنده عن مواصلة القتال بعد هذا الجهد الكبير الذى بذلوه فى الدفاع عن المدينة ، وعندئذ تسقط المدينة فى يد الملك العادل فيفقدها الى الأبد ، فراودته نفسه على عقد الصلح مع العادل ؛ وتسليم البلد اليه فى مقابل بلدة أخرى يأخذها منه عوضا عن بلده ، فاستشار فى ذلك مملوكه أحمد بن يرنقش ، وكان مملوكه شجاعا قوى القلب ثابت الجنان فرده عن عزمه ، ونصحه بالثبات فى المقاومة ، لعل الملك العادل ييأس من فتحها بعد هذا الحصار الطويل فيرحل عنها ، فترك قطب الدين فكرة تسليم المدينة الى العادل ، ولكنه أخذ فى الوقت نفسه يبحث عن وسيلة تخرجه من المأزق الذى وضعه فيه الملك العادل ، حتى وجدها عند مظفر الدين كوكبورى صاحب اربل .

فقــد كان قطب الدين عــلى علم بالصلة الوثيقة التى بين مظفر الدين والملك العادل ، هذه الصلة التى انعقدت بالمصاهرة أولا ، وذلك من زواج مظفر الدين بربيعة خاتون أخت الملك العادل ، ولخدمات أداها له مظفر الدين ثانيا ، وللصداقة التى بينهما من ناحية ثالثة ، لهذا كله ، قدر قطب الدين أن شفاعة

مظفر الدين عند العادل مقبونة لا يداخلها الشك ، واعتمـادا على هذا التقدير ، أرسل قطب الدين ولده عماد الدين شاهنشاه الى مظفر الدين برسالة ، يطلب منه فيها أن يكون الواسطة بينه وبين العادل ، وأن يشفع له عنده بالرحيل عن مدينته وابقائها عليه .

ولم يخيب مظفر الدين رجاء قطب الدين ، وعزم على التدخل فى الصلح بين الخصمين ؛ ولكن لماذا قبل مظفر الدين أن يتدخل فى النزاع بين قطب الدين والملك العادل ؟ هل كان ذلك محبة لقطب الدين وغيرة عليه ؟ أم أن هناك سببا آخر دفع مظفر الدين الى هذا التدخل ؟ نحن نرجح أن عامل الخوف من الملك العادل وازدياد قوته فى منطقة الجزيرة هو الذى دفع مظفر الدين الى التدخل بين الخصمين والحيلولة بين الملك العادل وبين استيلائه على سنجار . ولعل مظفر الدين تخوف من الملك العادل منذ أن اتفق معه نور الدين أرسـلان شاه ؛ لأن فى هذا الاتفاق قوة لنور الدين ، وسوف تشجعه هذه القوة الجديدة — قوة تحالفه مع العادل — على محاربته واستخلاص مدينة اربل منه اعتمادا على مساعدة الملك العادل له ، فكان من مصلحة مظفر الدين اذن أن ينقض الاتفاق بين نور الدين والملك العادل ؛ كذلك كان من مصلحته أن لا يستولى العادل على سنجار ، خوفا من أن يمتد طمعه بعدها الى اربل فيعمل على أخذها منه برغم ما بينهما من علاقات طيبة ، لأنه يعلم أنه يعيش فى « عصر الغلبة » وتقاليد عصره لا تقيم وزنا لمثل هذه العلاقات أمام المصالح الخاصة .

وعلى كل حال فان الخطر على اربل محقق : سواء من نور الدين أو من الملك العادل ، فلابد أن يطمع أحدهما بها ويسانده الآخر ، لذلك أقدم على التدخل فى عملية الصلح بين قطب الدين والعادل بارتياح كبير عندما طلب منه قطب الدين ذلك .

وكان تدخل مظفر الدين محكا اختبر به مظفر الدين ، الملك العادل ومبلغ احترامه للعلاقات الطيبة التى تربط بينهما ، وقد كانت نتيجة هذا الاختبار ، تأكيد مخاوف مظفر الدين منه . فقد أرسل مظفر الدين وزيره برسالة الى الملك العادل يشفع فيها لقطب الدين ، ويطلب منه رفع الحصار عن سنجار وتركها لصاحبها ، فكان رد الملك العادل الرفض التام لشفاعته ، وأضاف أمام الوزير ، أنه لا يبالى بمظفر الدين بعد أن اتفق مع نور الدين ، وهكذا كشف الملك العادل عن حقيقة مكانة مظفر الدين عنده ، كما تبين لمظفر الدين أن العادل ، فضلا عن تنكره لعلاقات المودة التى بينهما ، فانه لن يتورع عن الطمع فى اربل ان عاجلا أو آجلا ، ومن ثم اعتبر مظفر الدين ، الملك العادل عدوا له تجب محاربته ، وأخذ يعد جيشه لنجدة سنجار ، وأرسل الى قطب الدين يقوى من عزيمته ، ويطلب منه الثبات على المقاومة ، فانه سوف ينجده بعسكره .

ثم حدث مالم يكن فى الحسبان بالنسبة للعادل ولمظفر الدين ، ذلك أن نور الدين أرسلان شاه قرر نقض الاتفاق الذى عقده مع الملك العادل ، وسبب ذلك ، أنه بعد أن استولى العادل على منطقة الخابور ونصيبين ، تنبه نور الدين الى الخطأ الذى وقع

فيه عن جهالة وحمق ، وهو أنه باتفاقه مع العادل ، قد وضع عنقه بين فكى الأسد ، حيث تذكر طمع الأيوبيين فى مدينة الموصل منذ أيام صلاح الدين ورغبتهم الشديدة فى الاستيلاء عليها ، وقد تنبه نور الدين الى الخطر المحدق به حين رأى الملك العادل يحاصر سنجار التى لا تبعد عن مدينته أكثر من مسير يومين ، فدب الخوف فى قلبه من غدر العادل به ، بأن يطمع فى الاستيلاء على الموصل حين ينجح فى الاستيلاء على سنجار ، لذلك لم يجد نور الدين بداً من أن ينقض اتفاقه مع العادل ، وأن يمنع سقوط سنجار فى يده ، ومن ثم أخذ يعد جيشا ليرسله الى سنجار نجدة لها .

وبلغ مظفر الدين نقض نور الدين الاتفاق بينه وبين العادل وعزمه على نجدة سنجار فاغتبط لذلك ، وبادر بارسال وزيره الى نور الدين ، يخبره بأنه قرر مساعدة قطب الدين عسكريا ، ويعرض عليه المحالفة ضد العادل ومنعه بالقوة من الاستيلاء على سنجار ، وأنه متفق معه ضد عدوهما المشترك ، فوصل الوزير الى نور الدين ليلا وأبلغه الرسالة ، فتقبلها نور الدين بفرح وارتياح ، فقد جاءه العون من عدو له جمعت بينهما خصومة مشتركة للملك العادل ، فأبلغ الوزير موافقته على اقتراح مظفر الدين ، وحلف أمام الوزير — طبقا لتقاليد ذلك العصر — بالوفاء لمظفر الدين ، فعاد الوزير الى مظفر الدين وأبلغه ترحيب نور الدين باقتراحه وأنه أكد موافقته باليمين الذى حلفه أمامه .

أخذ مظفر الدين عندئذ يعد جيشه ويجهزه بآلات الحرب ، حتى اذا اطمأن الى قوته خرج بالجيش الى الموصل ليرافق جيشها

الى سنجار ، وما أن علم نور الدين بمسير مظفر الدين اليه ، حتى أخذ يستعد لاستقباله من حدود مدينته تكريما له وتعظيما لشأنه، ولما وصل مظفر الدين ، استقبله نور الدين استقبالا حافلا ، ودعاه للاقامة فى قلعة الموصل ، بينما أقام نور الدين فى معسكر جيشه خارج القلعة ، وذلك لكى يثبت لمظفر الدين شدة ثقته به ، وتأكيدا منـه برغبتـه فى ازالة ما بينهما من خلافات سابقة ، والدخول فى علاقة جديدة تقوم على الاتفاق والائتلاف (١) .

ولم يكتف مظفر الدين بتعضيد قطب الدين ونور الدين ضد الملك العادل ، وانما أراد أن يزيد فى النكاية بالعادل ، وذلك بأن يكوّن حلفا كبيرا من أعداء العادل وغيرهم ، فاتفق مـع نور الدين على ضم الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبى صاحب حلب اليهما ، فقد كان العداء مستحكما بين الظاهر غازى وبين عمه العادل فى ذلك الوقت ، وأن يضم اليهما أيضا كيخسرو ابن قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ، وأخاه مغيث الدين طغرل شاه صاحب أرزن الروم فاستجاب هؤلاء اليهما ، وأبدوا استعدادهم لسحق عدوهم المشترك ، وأخذ كل منهم يعد جيشه لمعركة فاصلة بينهم وبين العادل .

واتفق الحلفاء فيما بينهم ، على أن يسلكوا الطريق السلمى أولا لاقناع العادل بالصلح مع قطب الدين والرحيل عن سنجار ، فان استجاب للصلح كفوا جميعا شر الحرب وضحاياها ، وحفظوا

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٠١ .

على صاحب سنجار مدينته ، أمّا اذا رفض ، استعدوا عليه الخليفة لكى يأمره بالرحيل عن سنجار ، وكف عاديته عن صاحبها ، فاذا رفض وساطة الخليفة أيضا أعذروا فيه ، وأرغموه على الرحيل عن سنجار بالقوة .

وأخذت الرسل تتردد بين الحلفاء وبين العادل ، والعادل يماطل فى الرد ويطاول على أمل الاستيلاء على المدينة قبل انتهاء المفاوضات ، ولما وجد الحلفاء أن العادل يماطلهم ويطاولهم وتأكد لهم أنه غير مستعد للرحيل عن سنجار ، أرسلوا الى الخليفة يشكون اليه اعتداء العادل على قطب الدين ، ويطلبون منه أن يتدخّل بما له من نفوذ روحى فيأمر العادل بالرحيل عن سنجار فاستجاب الخليفة لما طلبوا ، وأرسل رسولين من أكبر رجاله ، هما هبة الله بن المبارك بن الضحاك الاستدار (١) ، والأمير آق باش ، وهو كبير خواص مماليك الخليفة .

وسار الرسولان من بغداد الى الموصل أولا ، واجتمعا بالحلفاء واستعرضا معهم أسباب الخلاف بين العادل وقطب الدين ، ثم سارا الى سنجار وتقابلا مع الملك العادل وأبلغاه أمر الخليفة بوجوب الصلح مع قطب الدين وعدم التعرض لسنجار ، فاستجاب لهما العادل وأبدى استعداده لعقد الصلح مع قطب الدين وحلفائه ، وترك سنجار ، ولكنه اشترط أن تظل البلاد التى استولى عليها من قطب الدين فى يده ، وهى منطقة

---

(١) الاستدار : لفظ فارسي معناه : الشخص الذى يتولى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه . (صبح الأعشى ، ج ٥/ص ٤٥٧) .

الخابور ونصيبين . فلما تم الصلح على ذلك ، انفرط عقد الخلفاء وعاد كل منهم الى بلاده[1] . وهكذا حطم مظفر الدين قوة جديدة كادت تظهر وتصبح خطرا عليه ، فحال دون استيلاء الملك العادل على سنجار ، كذلك فصم عرى الحلف بين الملك العادل وبين نور الدين صاحب الموصل .

والواقع أن الملك العادل لم يقبل الصلح استجابة لوساطة الخليفة ، لأنه لم يكن لدى الخليفة قوة عسكرية يرغم بها الملك العادل على احترام وساطته ، وانما اضطر العادل الى قبول الصلح اضطرارا لعدة أسباب ، منها : اصرار الحلفاء على موقفهم منه ومنعه من الاستيلاء على سنجار ، ومنها — على ما يبدو — أن الحلفاء استطاعوا أن يضموا أسد الدين شيركوه الى جانبهم — وأسد الدين هو ابن عم العادل وكان حاضرا معه فى الحصار — وذلك أن العادل كان قد عهد اليه مهمة قطع التموين عن المدينة ، من الجهة التى يحاصرها ، ولكن أسد الدين كان يتغاضى عن دخول التموين اليها من الخارج ، فقد كان يرى الأغنام والأقوات وغير ذلك مما يحتاج اليه المحاصرون تدخل الى المدينة ولا يمنعها ؛ ومنها أيضا ، أن جيش العادل بدأ يتذمر ويفتر عن القتال بسبب ما ناله من التعب [2] فأقلقت هذه العوامل الملك العادل وأيأسته من فتح المدينة ، ولذلك يمكن القول بأن العادل كان يريد فعلا عقد الصلح حتى قبل وصول رسل الخليفة ،

---

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٣٠١ .
(٢) الكامل ، ج ٩/ص ٣٠٢ .

ولكنه لم يفعل ذلك كراهة شماتة أعدائه به ، وخشية أن يظهر ضعفه لهم فيطمعون فيه ، فلما جاءته الرسل بوساطة الخليفة أسرع بعقد الصلح متظاهرا بالطاعة للخليفة ، والاحترام لوساطته .

وقد أسفرت العلاقة الجديدة بين مظفر الدين ونور الدين أرسلان شاه عن مصاهرة عقدت بين الرجلين ، فحين كان مظفر الدين مع نور الدين بالموصل ، زوج مظفر الدين ابنتيه — من زوجته ربيعة خاتون أخت صلاح الدين والعادل — بولدين لنور الدين هما : عز الدين مسعود الذى خلف أباه على الموصل سنة ٦٠٧ (١٢١٠ م) ، وتلقب بالملك القاهر والآخر عماد الدين زنكى [١] وقد أدخلت هذه المصاهرة مظفر الدين فى مشكلة مع الموصل بشكل آخر ، بعد وفاة الملك القاهر سنة ٦١٥ (١٢١٨ م) . ذلك أن نور الدين أرسلان شاه توفى سنة ٦٠٧ ، وكان قد أوصى قبل وفاته بأن يخلفه ابنه عز الدين مسعود من بعده ، أما ابنه الآخر عماد الدين زنكى ، فقد أعطاه بعض القلاع ، منها قلعتى العقر وشوش ، المجاورتين للموصل ، كذلك أوصى بأن يقوم بدر الدين لؤلؤ — وهو أكبر مماليكه — على تدبير شئون الموصل باسم ولده عز الدين مسعود[٢] فلما خلف عز الدين مسعود أباه على الموصل ، عقدت بينه وبين مظفر الدين محالفات وعهود ، تعهد فيها كل من الطرفين بأن لا يعتدى

---

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٣٠١ ، مفرج الكروب، ج ٢/ص ١٩٥ .
(٢) الكامل ، ج ٩/ص ٣٠٤ .

أحدهما على بلاد الآخر ، ويبدو أن هذه المحالفات والعهـود قد احترمها كل من الجانبين طيلة حكم عز الدين مسعود الذى توفى سنة ٦١٥ .

ظل بدر الدين لؤلؤ يحكم الموصل باسم صاحبها عز الدين مسعود الذى تلقب بالملك القاهر وكان بدر الدين طيلة هـذه السنوات هو الحاكم الفعلى للدولة لا ينازعه فيها منازع ، ولكن لما توفى الملك القاهر بدأت المشاكل بين اربل والموصل ، أى بين مظفر الدين وبدر الدين لؤلؤ ، ذلك أن الملك القاهر خلف ولدين صغيرين قاصرين ، هما نور الدين أرسلانشاه ، والناصر محمود ، وكان عماد الدين زنكى — أخو الملك القاهر — يحدث نفسه بأن يملك بعد أخيه بصفته كبير البيت الزنكى ، ولكن بدر الدين لؤلؤ خيب ظنه ، حيث أجلس نور الدين أرسلان شاه مكان أبيه فى الملك ، وأرسل الى الخليفة العباسى الناصر لدين الله يطلب منه التقليد والتشريف لنور الدين ، كذلك أرسل الى الملوك وأمراء الأطراف المجاورين للموصل وغيرهم ممن كان بينهم وبين الملك القاهر محالفات وعهود — ومنهم مظفر الدين — يطلب منهم تجديدها لنور الدين على القاعدة التى كانت بينهم وبين أبيه ، كذلك حلّف قواد الجند والجيش وكبار رجال الدولة على طاعته (١) وبذلك اطمأن بدر الدين على أن المُلك من الناحيـة الفعلية له ، ومن الناحية الاسمية لنور الدين .

واذا كان مظفر الدين حلف لبدر الدين باحترام المحالفـات

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٣٢٠ .

والعهود التى كانت مبرمة بينه وبين الملك القاهر بعدم التعرض للموصل وأعمالها ، الا أن الحوادث أثبتت أنه لم يكن مستعدا لاحترامها ، أو أن الظروف أجبرته على عدم احترامها انتصارا لزوج ابنته عماد الدين زنكى ، فقد كان عماد الدين يرى أنه أحق من ابن أخيه القاصر بملك الموصل طبقا للتقاليد الأسرية التى تنص على أن تكون وراثة الملك لأرشد أبناء الأسرة ، فاذا ضاع منه الملك ، فلا أقل من أن يكون هو الوصى على ابن أخيه ، ولكن بدر الدين لم يتقيد بالتقاليد الأسرية اعتمادا على أن هذه التقاليد قد أهمل العمل بها فى كثير من الأسرات ومنذ عهد طويل ، فجعل الملك لنور الدين أرسلان شاه بن الملك القاهر ، وفرض نفسه وصيا على الملك الصغير ليظل هو الحاكم الفعلى للبلاد ، الأمر الذى أغضب عماد الدين فقرر أن ينال حقه بالسيف .

وبدأ عماد الدين فى الكيد لبدر الدين ، فانتهز فرصة تلاحق المرض بابن أخيه نور الدين واعتكافه عن الناس ، فأشاع أن نور الدين قد مات ، وأرسل الى حامية قلعة العمادية التابعة للموصل ، يقول : ان ابن أخى قد توفى ، ويريد بدر الدين أن يملك البلاد ، وأنا أحق بملك آبائى وأجدادى ، فأرسلت اليه حامية القلعة تستدعيه لتسلم له القلعة ، فسار عماد الدين اليها وتسلمها فى ١٨ رمضان سنة ٦١٥ ، وقبض على نائب الموصل بها وعلى من معه (١) .

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٣٢٠ .

ومنـــذ ذاك بدأ العـــداء بين بدر الدين من ناحية ، وبين عماد الدين ومظفر الدين من ناحية أخرى ؛ ذلك أن بدر الدين لم يقف مكتوف اليدين ازاء استيلاء عماد الدين على القلعة ، وانما أسرع بجيشه اليها ليستردها ، فضرب عليها الحصار ، ولكنه عجز عن قتالها لأن الزمن كان شتاء والبرد شديدا والثلج يغطى الأرض ، فأقام عليها جيشه يحاصرها حتى ينتهى فصـــل الشتاء ، وعاد هو الى الموصل ، فلما بلغ مظفر الدين خبر حصار بدر الدين لزوج ابنته عماد الدين بالقلعة عزم على نصرته ، وأخذ يعد جيشه لقتال بدر الدين ورفع الحصار عن القلعة .

وصلت أخبار استعداد مظفر الدين الى بدر الدين ، فأرسل اليه يذكره بالأيمان التى حلفها والعهـــود التى تعهد بها ، ومن جملتها أنه لا يتعرض الى شىء من أعمال الموصل ، ومنها قلاع الهكارية والزوزان بالذات ، وأنه متى تعرض لها أحد من الناس ، كائنـــا من كان ، منعه بنفســـه وعساكره ، وأعان نور الدين وبدر الدين على منعه ، وطالبه بدر الدين بالوفاء بهذا الحلف وهذه العهود ، ولكن مظفر الدين أصمّ أذنيه ، وأصر عـــلى الانتصار لعماد الدين ، فأرسل بدر الدين اليه — مرة أخرى — يسأله الوقوف على الحياد فى خـــلافه مع عماد الدين ، ولكن مظفـــر الدين أبى عليه هذا أيضا ، بل خرج بجيشه من اربل ، ورابط بالقرب من القلعة ، حيث لم يستطع الوصول اليها ، بسبب حصار عسكر بدر الدين لها ، فانتظر الى أن ينشب القتال بينهم

وبين عمـــاد الدين ، فيفاجئهم هو من وراء فيضعهم بين شقى الرحى .

ولما طال على عسكر بدر الدين الانتظـــار وهم يحاصرون القلعة ، استعجل أحد قواد الجيش القتال ، بالرغم من أنه كان ينقصه العلم بالحرب والخبرة بفن القتال ، غير أنه كان شجاعا مقداما ، وكان قريب العهد بالتحاقه بجيش الموصل ، فأراد أن يقوم بعمل حربى كبير ليتقدم به عند بدر الدين فيرفع من مرتبته ، فأخذ الجند الذين تحت امرته ، وتقدم بهم الى القلعة تحت جنح الظلام لينشب القتال مع حاميتها ، فلما رأى بقية الجيش تقدمه ، خافوا عليه وعلى من معه الهلاك ، فلحقوا به وساروا على غير ترتيب لضيق المسالك الى القلعة ، فلما رأى عماد الدين مقدمة الجيش تتقدم نحوهم ، خرج اليهم بجيشه ، وفرّق جنده فى الشعاب ، وانقضوا عليهم من كل مكان فهزموهم هزيمة منكرة فر المغيرون على أثرها ، ثم انهزم الجيش كله وارتد على أعقابه ثم عاد الى الموصل ، وذلك قبل أن يتدخل مظفر الدين فى القتال ، وبذلك خلصت القلعة من الحصار ، ولما عاد جيش الموصل ، راســل عماد الدين باقى قلاع الهكارية والزوزان — وكلها تابعة للموصل — ودعاهم الى طاعته ، فاستجابوا له وسلموها اليه ، فقبض على نواب بدر الدين ، وأقام فيها نوابه (١) .

كان لسقوط القلاع التابعة للموصل فى يد عماد الدين أثر بالغ عند بدر الدين ، وقدّر بدر الدين أن عماد الدين — يظاهره

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٢٠ .

مظفر الدين ، أصبح من القوة بحيث يشكل خطرا كبيرا على الموصل ، وأنه لن يلبث أن يطمع فى الاستيلاء عليها ، وشعر بدر الدين فى الوقت نفسه بضعفه عن ردع عماد الدين ومظفر الدين بمفرده ، فقرر أن يلتجىء الى سند قوى يستعين به ضدهما ، وان كان هذا الالتجاء سوف يضعه موضع المتبوع من التابع ، ولكنه فضل هذا الوضع على ضياع الموصل منه ، ووجد بدر الدين هذا السند فى الملك الأشرف موسى الأيوبى ، الذى يملك كثيرا من بلاد الجزيرة وخلاط ، فأرسل اليه يعرض عليه الانتماء اليه والدخول فى طاعته لكى يحميه من مظفر الدين وزوج ابنته عماد الدين ، فأجابه الأشرف بالقبول والارتياح ، لأن دخوله فى طاعته قوة له ، يستعين به عند الحاجة بعد استقرار أمور الموصل وابعاد الخطر عنها ، كذلك كان من مصلحة الملك الأشرف أن لا تظهر قوة جديدة فى منطقة الجزيرة وما حولها فتهدد أملاكه بالخطر ، ولذلك وعد بدر الدين بمساعدته ومعاضدته والمحاربة دونه لاستعادة ما أخذ منه من القلاع ، ومنذ ذاك اعتبر مظفر الدين ، الملك الأشرف عدوا له ، لانتصاره لبدر الدين الذى يبغضه لتحكمه فى حفيديه ولدى الملك القاهر ، وسوف نرى أن مظفر الدين سيقف ضد الأشرف موسى الى النهاية .

وبانتماء بدر الدين الى الأشرف، موسى ، أصبح الأشرف ملزما بالدفاع عن تابعه ، ويبدو أن بدر الدين كان قد لجأ الى الأشرف موسى قبل أن ينتمى اليه ليكون واسطة بينه وبين

مظفر الدين لعقد الصلح بينهما وأن الأشرف نجح فى ذلك ، وان كان المؤرخون أغفلوا هذا الخبر ، لأن الأشرف أرسل الى مظفر الدين — بعد أن انتمى بدر الدين اليه ودخل فى طاعته — يلومه لانتصاره لعماد الدين وتشجيعه اياه على اعتدائه على أملاك الموصل ، ويقول له مهددا : « ان هذه القاعدة قد تقررت بيننا جميعا بحضور رسلك ، وأننا نكون على الناكث الى أن يرجع الى الحق ، ولابد من اعادة ما أخذ من بلد الموصل لندوم على اليمين التى استقرت بيننا (١) ، فان امتنعت وأصررت على معاضدة زنكى ونصرته ، فأنا أجىء بنفسى وعساكرى وأقصد بلادك وغيرها ، وأسترد ما أخذتموه وأعيده الى أصحابه ، والمصلحة أنك توافق وتعود الى الحق ، لنجعل شغلنا جمع العساكر وقصد الديار المصرية واجلاء الفرنج عنها قبل أن يعظم خطبهم ويستطير شرهم (٢) .

وكان الملك الأشرف يعتقد أن تهديده سوف يحدث أثره عند مظفر الدين ، ولكن مظفر الدين فى الواقع لم يرهبه التهديد ، كذلك أصم أذنيه عن النصيحة وأصرّ على مناصرة عماد الدين ضد بدر الدين لاقصائه عن الموصل ، لعلمه أن الأشرف لن يستطيع تنفيذ تهديده لمشغوليته بالصليبيين وخوفه على بلاده منهم ، فقد كان الصليبيون فى ذلك الوقت (سنة ٦١٥) فى أشد

---

(١) لم يذكر المرجع الذى ننقل عنه متى تقررت القاعدة ، كذلك لم يذكره غيره من المراجع .

(٢) الكامل ، ج ٩/ص ٣٢١ .

قوتهم ، وكانت اغاراتهم على الشام مستمرة ، حتى أنهم بلغوا من اشتداد القوة بحيث عزموا على فتح مصر ، فساروا الى دمياط واستولوا عليها ، فأرسل الأشرف الى أخيه الملك الكامل صاحب مصر معظم جيشه نجدة لجيش مصر ، فضلا عن أنه كان مشغولا بمراقبة الصليبيين بالشام ، خوفا من اغاراتهم المفاجئة على البلاد التى بيد المسلمين . فلما رأى الملك الأشرف اصرار مظفر الدين على موقفه ، أخذ يستعدى عليه أمراء الأطراف ويستميلهم الى جانبه ، ومن الذين راسلهم الملك الأشرف ، ناصر الدين محمود الأرتقى صاحب حصن كيفا وآمد ، ولكن ناصر الدين أبى الاستجابة له ، وانما انضم الى مظفر الدين وأخذ يغير على بعض البلاد التى للأشرف وينهبها ، وكذلك انضم الى مظفر الدين ، صاحب ماردين الأرتقى واتفقوا جميعا ضد الأشرف ، وسبب انضمام هذين الأرتقيين الى مظفر الدين ، هو العداوة المتأصلة بين البيت الأرتقى والبيت الأيوبى منذ أيام صلاح الدين ، فقد كان صلاح الدين قد استولى على كثير من بلادهم ، وأرغم بعض أمراء الأسرة على الدخول فى طاعته ، فلما رأى الأشرف ازدياد قوة مظفر الدين خاف على بدر الدين منه ولكنه لم يستطع أن يفعل له شيئا للظروف المحيطة به ، غير أنه أرسل اليه فرقة من جيشه رابطت فى مدينة نصيبين القريبة من الموصل ، ليستعين بها بدر الدين اذا دهمه خطر من مظفر الدين [1] .

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٢١ .

ولم يكتف عماد الدين زنكى بتحريض نواب بدر الدين على القلاع لخلع طاعتهم له وتسليم القلاع اليه ، وانما طمع فى الموصل نفسها ، فانه ما كاد جيش بدر الدين يعود الى الموصل من العمادية مهزوما ، حتى قويت نفسه ، فترك العمادية وسار الى قلعة العقر المجاورة للموصل — وهى له — ليتسلط منها على أعمال الموصل ، وأمدّه مظفر الدين بطائفة كبيرة من الجند ، فأخذ عماد الدين يشن الغارات على حدود المدينة ليختبر قوتها ، ثم يعود الى القلعة يحتمى بها ، فلما رأى بدر الدين ذلك ، أرسل جزءا من جيشه ليرد عماد الدين عن حدود الموصل . وكان الأمر الذى أصدره بدر الدين للجيش أن يقيم على حدودها ليمنع غارات عماد الدين عنها ، ولكن قواد الجيش عزموا على قتال عماد الدين فى قلعته دون اذن من بدر الدين ، فساقوا الجيش اليها ليلا وصبحوا القلعة صباح اليوم التالى ، فدار قتال شديد بين الفريقين ، صبر الفريقان فيه صبرا عجيبا ، وكانت نهايته انتصار جيش بدر الدين وهزيمة عماد الدين ، فترك القلعة وسار بجيشه الى اربل لكى يحتمى بوالد زوجته ، فعاد جيش الموصل ورابط على حدود المدينة ، كذلك حضرت رسل الخليفة الناصر لدين الله ورسل الملك الأشرف وجددوا الصلح بين مظفر الدين وعماد الدين من ناحية وبين بدر الدين لؤلؤ[1] من ناحية أخرى .

وفى نفس السنة التى تم فيها الصلح (سنة٦١٥) توفى نور

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٣٢١ .

الدين أرسلان شاه صاحب الموصل ، فرتب بدر الدين فى الملك بعده ، أخـاه ناصر الدين محمـودا ، وكان له من العمر ثلاث سـنين [1] . وبـوفاة نور الدين تجـددت همـة مظفر الدين وعماد الدين للاستيلاء على الموصل ، فان ناصر الدين طفل ليس له من الأمر شيء فى حكم الموصـل ، وأن بدر الدين هو كل شيء ، فتجاهل كل من مظفر الدين وعماد الدين الصلح الذى عقد بينهما وبين بدر الدين والأشرف موسى وأخذا يعملان على اقصاء بدر الدين عن الموصل ، فجمعا الجند وتجهزا للحركة ، ثم أرسلا بعض العسكر الى حـدود الموصل ، فأغاروا عليها وأعملوا يد السلب والنهب والافساد فيها.

وكان بدر الدين فى قلة من العسكر ، وسببه أنه لما أرسل الملك الأشرف معظم جيشه الى أخيه الملك الكامل نجدة له على الصليبيين فى دمياط كما ذكرنا ، استدعى الأشرف معظم جيش الموصل اليه ليسد الفراغ الذى أوجده مسير جيشه الى دمياط ، فأصبح بدر الدين فى قلة من الجنـد ، فلما رأى بدر الدين تحرش مظفر الدين وعماد الدين به ، وافساد جندهما بأطراف الموصل ، وأنه لن يستطيع حماية مدينته بما عنده من الجند ، استدعى جند الملك الأشرف المرابط فى نصيبين ، والذين كان الأشرف قد أرسلهم اليها ليكونوا تحت طلب بدر الدين حين يشاء .

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٢١ .

وكان قائد جند الأشرف يدعى عز الدين أيبك ، وكان عدد الجند الذين معه قليلا لن يسدوا مسدّ جند بدر الدين الذين أرسلهم الى الشام ، وكان أيبك عجولا للقتال ، فما ان وصل بجنده الى بدر الدين حتى عزم على عبور نهر دجلة والمسير الى اربل مباشرة لقتال مظفر الدين وعماد الدين ، فمنعه بدر الدين من ذلك — وكان بدر الدين أكثر خبرة من أيبك بالفن الحربى وبالمنطقة التى يقاتلون عليها — وطلب منه أن يستريح ويريح جنده أولا من مشقة الطريق ، فأذعن أيبك كارها ، وأقام بجنده بظاهر الموصل بضعة أيام ، ألح بعدها على بدر الدين بالاسراع بالمسير الى اربل ، فوافقه بدر الدين كارها لئلا يلاحظ الجند خلافه فى الرأى مع أيبك فتقوم فتنة بينهم ، وعبروا جميعا نهر دجلة وأقاموا على بعد فرسخين من الموصل شرقى النهر ، فلما علم مظفر الدين بخبر عزمهم المسير اليه ، خرج بعسكره وسار اليهم ومعه عماد الدين ، وعبر نهر الزاب ليلتقى ببدر الدين وجيشه قبل أن يفاجئه بدر الدين ، وأخذ كل من مظفر الدين وبدر الدين يعبىء جيشه ويرتبه للمعركة ، فجعل مظفر الدين على ميسرة جيشه عماد الدين زنكى ، وعلى الميمنة أحد قواده بينما قاد هو قلب الجيش ، وأما بدر الدين فجعل عز الدين أيبك على الجاليشية [1] ، وجعل على الميسرة أحد كبار قواده ، الا أن بدر الدين كان ضعيف السيطرة على جند الملك الأشرف ، الأمر الذى أدى الى هزيمته فى المعركة ، فقد أصر أيبك على المسير

(١) الجاليش : لفظ تركى معناه : طليعة الجيش .

الى معسكر مظفر الدين ليلا برغم محاولات بدر الدين فى اقناعه بتأجيل المسير الى الصباح لوعورة الطريق وخطورته ، ولكن أيبك أبى الانتظار وتحرك بعساكره ، فاضطر بدر الدين الى المسير معه ، ولما نشب القتال ، هزمت ميمنة جيش بدر الدين ميسرة جيش مظفر الدين ، وهزمت ميمنة جيش مظفر الدين ميسرة جيش بدر الدين ، ولما التحم القلبان ، وكان بدر الدين يقود قلب جيشه ، هزم مظفر الدين ، بدر الدين الذى لم يستطع الثبات أمام خصمه ، ففر هاربا الى الموصل ، وصعد الى القلعة ليحتمى بها ، ومظفر الدين يطارده حتى نزل على نينوى بالقرب من الموصل ، وأقام بها ثلاثة أيام ، فلما علم أن بدر الدين يجمع جنده من جديد ليعبر اليه ، رحل عن نينوى ، وعبر نهر الزاب وأقام على ضفته ليرى ما يكون من أمره ، ولكن بدر الدين بدلا من أن يأتيه بجيشه للقتال ، أرسل له رسلا يعرضون عليه الصلح ، على أن يحتفظ كل منهم بما فى يده من البلاد ، فوافق مظفر الدين على الصلح ، وتقررت بينهما العهود ، وحلف كل منهما للآخر على الوفاء بها (١) .

ولكن الصلح لم يستمر بين مظفر الدين وبدر الدين طويلا ، فانه سرعان ما نقض ، فان حامية قلعة كواشى — وهى من أحصن قلاع الموصل وأمنعها — لما رأت أن حامية قلعة العمادية قد سلمت القلعة الى عماد الدين ، حذت هى أيضا حذوها ، فقبضت على نائب بدر الدين وعماله بها ، وأرسلت الى عمـاد الدين

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٢٢ ، ابن العبرى ، ص٤٠٥/٤٠٦ .

تدعوه لاستلام القلعة ، فسار عماد الدين اليها وتسلمها ، فأرسل بدر الدين الى مظفر الدين يحتج عليه فيما فعل عماد الدين ، ويذكره بالصلح والعهود التى قطعها على نفسه والأيمان التى حلفها بالأمس ، وطلب منه اعادة قلعة كواشى ، ولكن مظفر الدين رفض طلبه ، عندئذ أرسل بدر الدين الى الملك الأشرف — وكان بحلب — يستنجده ، فسار اليه الأشرف وعبر نهر الفرات الى حران ، ولكن حدث للأشرف ما اضطره الى التمهل فى مسيره الى الموصـــل .

ذلك ، أنه لما علم مظفر الدين باستنجاد بدر الدين بالملك الأشرف ، أخذ يعمل على عرقلة أمور الأشرف ليعوقه عن نجدة بدر الدين ، فأخذ يراسل نواب الأشرف على بلاده ويحرضهم على الخروج عن طاعته ، كذلك راسل الملوك المجاورين للملك الأشرف وأصحاب الأطراف ، يثير فيهم الخوف من الملك الأشرف، على اعتبار أنه اذا فرغ من مشاكله فانه سوف يطمع فى بلادهم ويقاتلهم عليها ، فاستجاب له : عز الدين كيكاوس صاحب بلاد الروم وكذلك صاحب آمد وحصن كيفا ، وناصر الدين أرتق ابن ايلغازى صاحب ماردين ، واتفقوا جميعا على أن يجعـــلوا كيكاوس زعيما للحلف وخطبوا له فى بلادهم .

ولم يكتف مظفر الدين باثارة الملوك والأمراء عـــلى الملك الأشرف وانما عمل على جلب بعض قواده الى صفه ، وقد نجح فى ضم أحمد بن على المشطوب وعز الدين محمد بن بدر الحميدى وغيرهما اليه ، ففارقوا الملك الأشرف ونزلوا بدنيسر بالقرب من

ماردين ليجتمعوا مع صاحب آمد ويمنعوا الأشرف من مواصلة السير الى الموصل لمساعدة بدر الدين .

ولكن قدر لهذا الحلف الكبير أن يفشل ، وأن ينجو كل من الملك الأشرف وبدر الدين من خطره المحقق . ذلك أن كيكاوس صاحب بلاد الروم سار الى ملطية وهى من بلاد الملك الأشرف للاستيلاء عليها ، وفى ظنه أن الأشرف سيسرع اليها لنجدتها ، وبذلك يتحول عن نجدة بدر الدين ، فتتهيأ الفرصة لمظفر الدين للاستيلاء على الموصل ، ولكن المشروع لم يتم ، فقد كان كيكاوس مريضا بالسل ، فاشتد به المرض وهو على حصار ملطية ، فاضطر الى رفع الحصار عنها والعودة الى بلاده ، ثم ما لبث أن مات ، فخلفه أخوه كيقباذ فاتبع كيقباذ سياسة تخالف سياسة أخيه ، فقد رأى أن من مصلحته أن تكون العلاقة بينه وبين الملك الأشرف علاقة طيبة ، فعقد معه الصلح ، وتأكد هذا الصلح بعقد مصاهرة بينهما (١) .

فكان هذا أول وهن أصاب الحلف ، ثم لما اجتمع باقى الحلفاء فى دنيسر ، غدر صاحب آمد بحلفائه وانضم الى الأشرف ، فضعفت بذلك قوة الحلفاء ثم انحل أمر الحلف كله بعودة قواد الأشرف الذين انضموا الى الحلف اليه ، ما عدا ابن المشطوب ، فانه ظل على عهده فسار من دنيسر الى نصيبين ليسير منها الى اربل لينضم الى مظفر الدين ، فخرج اليه صاحب نصيبين فيمن عنده من الجند ليقبض عليه فدار بينهما القتال ، فانهزم

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٢٢ ـ ٣٢٨ .

ابن المشطوب وتفرق عنه معظم جنده فواصل سيره الى اربل ، ولكن لما اجتاز بمدينة سنجار ، سيّر اليه صاحبها فروخ شاه بن عماد الدين زنكى بن مودود عسكرا ، فدار بينهم وبين ابن المشطوب قتال فهزموه وقبضوا عليه وحملوه الى سنجار ، وكان فروخ شاه متحالفا مع الأشرف وبدر الدين ، فلما اجتمع ابن المشطوب بفروخ شاه ، أغراه ابن المشطوب بالخروج على الأشرف وبدر الدين والانضمام الى مظفر الدين فأجابه الى ذلك ، فجمع ابن المشطوب بعض الجند المرتزقة وكوّن منهم جيشا وأخذ يغير به على منطقة البقعاء ، وهى من أملاك الموصل ، ونهبوا منها عدة قرى وعادوا الى سنجار ، فلما رأى بدر الدين افساد ابن المشطوب وعسكره ، سير اليه عسكرا فقاتلوه فانهزم وفر الى تل يعفر ، وهى لصاحب سنجار ، واحتمى بها ، فلحقه جند الموصل وحاصروه بها ، ثم خرج بدر الدين بجيش الموصل اليها ، وأخذ يقاتله حتى هزمه وقبض عليه واستولى على المدينة ، ثم عاد الى الموصل ومعه أسيره ، فسلمه الى الملك الأشرف ، فحبسه الأشرف بمدينة حران ، وظل فى الحبس الى أن توفى فى سنة ٦١٩ (١) .

وأمّا الملك الأشرف ، فانه لما أطاعه ناصر الدين أرتق صاحب حصن كيفا وآمد ، وانحل عقد حلف مظفر الدين ، عزم على المسير الى الموصل فى زيارة لصاحبها ، وأثناء أن كان فى طريقه

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٣٢٣ .

اليها ، استولى على مدينة ماردين فصالحه صاحبها صلحا أرضاه ، ثم سار من ماردين الى نصيبين يريد الموصل ، فبينما هو فى الطريق ، أتته رسل فروخ شاه صاحب سنجار يحبذ له تسليم سنجار اليه فى مقابل أن يعوضه عنها بمدينة الرقة ، وقد دفعت فروخ شاه عدة أسباب لتسليم سنجار الى الملك الأشرف ، منها : سقوط تل يعفر فى يد بدر الدين حليف الأشرف ، ومنها اتفاقه السابق مع ابن المشطوب ضد الأشرف ، يضاف الى ذلك أن بعض كبار رجال دولته خوفوه من وصول الأشرف الى الموصل ، وعللوا وصوله اليها بأنه تمهيد للاستيلاء على سنجار ذاتها ، فرأى فروخ شاه أن خير ما يفعله هو أن يسلمها الى الأشرف بدون قتال ، وأن يأخذ مدينة الرقة عوضا عنها ، وكان هـذا العرض مما يرحب به الملك الأشرف أجمل ترحيب نظرا لموقع سنجار وأهميتها فى منطقة الجزيرة ، فسرعان ما تم بينهما تبادل المدينتين (١)

وقد أزعج استيلاء الأشرف على سنجار مظفر الدين ازعاجا شديدا ، فقد علم مظفر الدين أنه لن يقوى على الوقوف فى وجه الأشرف ، لأنه أصبح سيد الجزيرة كلها فلذلك فضل أن يعقد معه الصلح اتقاء لخطره . فما ان وصل الأشرف الى الموصل — وقد استقبله بدر الدين استقبالا حافلا — حتى أرسل مظفر الدين رسله اليه يعرض عليه الصلح ، وأبدى استعداده لرد جميع القلاع التى استولى عليها عماد الدين لبدر الدين ما عدا قلعة

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٢٤ .

العمادية ، فقد أصر مظفر الدين على أن تبقى لعماد الدين ، وقال مظفر الدين للأشرف لكى يحمسه بقبول الصلح : ان من المصلحة قبول هذا الصلح لتزول الفتن ، ويقع الاشتغال بجهاد الفرنج[1] .

ولكن الأشرف كان يطمع فى الاستيلاء على اربل ذاتها ، فقد أخذ يمد فى مفاوضات الصلح حتى استمرت شهرين ، ثم ظهرت حقيقة نواياه ، فقد خرج من الموصل يريد اربل ، فوصل الى قرية السلامية بالقرب من نهر الزاب ، وكان مظفر الدين قد ضرب معسكره على شاطئه من ناحية اربل ، وكأنه كان يتوقع مفاجأة من الأشرف ، ولكنه لم يتعجل بقتاله ، وانما آثر دفع خطـره بالطريق السلمى ، فعاود ارسال رسله اليه لاقناعه بعقد الصلح فقبل الأشرف الصلح هذه المرة ، وانما قبله تحت ظروف قاهرة ، فان جيشه بدأ يتذمر لطول انتظارهم ، ثم ان ناصر الدين أرتق صاحب آمد — وكان فى صحبته — أخذ ميله الى مظفر الدين يظهر بوضوح ، فخشى الملك الأشرف من ثورة الجيش عليه ، ومن غدر ناصر الدين به ، فاستجاب لما دعاه اليه مظفر الدين وقبل الاقتراح الذى عرضه بتسليم القلاع الى بدر الدين ما عدا قلعة العمادية ، ولكنه اشترط أن يأخذ عماد الدين زنكى رهينة عنـده ، وأن يضع يده عـلى قلعتى العقر وشوش — وهما لعماد الدين — حتى يتم تسليم القلاع الى بدر الدين ، فسار عماد الدين الى الأشرف ، ووضع نفسه رهينة عنده ، ثم أصدر أوامره الى نوابه فى القلاع يأمرهم بتسليم ما فى أيديهم الى نواب

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٢٤ .

الملك الأشرف ، ولكن حاميات القلاع رفضت تنفيذ أوامر عماد الدين ، ما عدا قلعة « جل صورا » فانها وحدها التى أطاعت وسلمها نائبها الى نائب الملك الأشرف ، الأمر الذى أزعج عماد الدين ، فقد طال اعتقاله وانتهى الأجل المضروب لتسليم القلاع ، فلجأ عندئذ الى شهاب الدين غازى — أخى الملك الأشرف — ليكون واسطة بينه وبين أخيه لاطلاق سراحه ، فاستجاب الملك الأشرف لوساطة أخيه ، فأطلق سراح عماد الدين ، وسحب نوابه من قلعتى العقر وشوش ، وأعادهما اليه وأعفاه من تسليم القلاع الى بدر الدين (١) .

ولابد من كلمة هنا عن عماد الدين ، فالواقع أن عماد الدين كان ينقصه الكثير من مميزات الحاكم ومميزات المحارب معا ، فانه كان — كما يبدو — فاتر الهمة ، ضعيف العزيمة ، فتخبط فى أعماله وتصرفاته ، فقد كان يريد أن يستولى على الموصل وملحقاتها ، وأن يرث ملك أسرته ، ولكنه لم يرسم لنفسه خطة يسير على نهجها لتحقيق هدفه ، ولم يعد نفسه لمعارك حاسمة بينه وبين بدر الدين ، وانما كان يشتبك معه فى مناوشات لا توصله الى هدفه برغم تأييد مظفر الدين له ومساندته ، وأحسب أنه ورط مظفر الدين بسوء تصرفه ، ولعله لو سلم قياده الى مظفر الدين وأبدى من الحماس والرغبة الصادقة بطرد بدر الدين من الموصل ، لنجح الاثنان فى اقصاء بدر الدين عن الموصل والاستئثار بها دونه . كذلك كان تفكير عماد الدين

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٢٤ .

الادارى محدودا ، حتى أنه لم يحسن حكم قلاعه حكما يرضى نوابه فيها لكى يخلصوا له ، فقد كان يبخل عليهم بالمال والعطاء ، بخلاف بدر الدين الذى كان يبرهم ويرغبهم بالعطاء والهبات حين كانت القلاع فى يده ، لذلك نجد أهل قلاع الهكارية والزوزان يتشوقون لحكم بدر الدين من جديد ، فأخذوا يراسلونه ليسلموا اليه القلاع فسار بدر الدين اليها وتسلمها [1] وبذلك خرجت من يد عماد الدين الذى كافح من أجلها .

وبسبب سياسة عماد الدين العوجاء ، ضاعت منه أيضا قلعة شوش وانتقلت الى بدر الدين فى سنة ٦١٩ (١٢٢٢ م) ، فقد كان عماد الدين قد سار فى تلك السنة الى أذربيجان فى زيارة لصاحبها أوزبك بن البهلوان ، فضيفه أوزبك وأقطعه بعض الاقطاعات فى بلاده ، فأطال عماد الدين اقامته هناك ، فسار بدر الدين الى القلعة وحاصرها ، وما زال يقاتلها حتى سقطت فى يده [2] .

ويبدو أنه حدث فتور بين مظفر الدين وعماد الدين ، ولهذا نرى أن مظفر الدين لم يتحرك للدفاع عن أملاك زوج ابنته ، وانما ترك القلعة تسقط فى يد بدر الدين .

ولم يطل أمد الصلح بين مظفر الدين والملك الأشرف ، فقد تغيرت الظروف فى سنة ٦٢١ (١٢٢٤ م) ، بالنسبة للأشرف ، وذلك حين دب الخلاف بينه وبين أخويه شهاب الدين غازى

---

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٣٢٤ .
(٢) الكامل ، ج ٩/ص ٣٤٩ .

والمعظم عيسى صاحب دمشق ، فان الأشرف كان قد ولى أخاه شهاب الدين ولاية عهده من بعده ، ثم أقطعه بعض بلاده ، مثل : خلاط وأرمينية وغيرها . ولكن شهاب الدين طمع فى هذه البلاد لنفسه ، فأعلن استقلاله بها ، واتفق مع أخيه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ضد أخيهما الأشرف ، وكان الملك المعظم يعرف لمظفر الدين صاحب اربل قدره ، ويعلم أن فى انضمامه اليهما قوة وسندا ، فأرسل اليه ابنه الناصر داود فى رسالة يعرض عليه فيها الانضمام اليهما ضد أخيهما الأشرف ، فاستجاب له مظفر الدين لما فيه من المصلحة له باضعاف الأشرف ، فلما وجد المعظم الاستجابة من مظفر الدين ، سار بجيشه الى بلاد الأشرف بالجزيرة ليستولى عليها حتى وصل « داريا » ، فلما علم الملك الأشرف بذلك ، أرسل الى أخيه الملك الكامل ، صاحب مصر ، يستنجده على أخويه وحليفهما [١] .

وكان الأخوة الثلاثة ، الملك الكامل والملك المعظم ، والملك الأشرف ، على خلاف مستمر فيما بينهم على تقسيم دولة أبيهم العادل ، فكانت مصر للكامل ، ودمشق للمعظم ، والجزيرة للأشرف ، ومع ذلك فان كلا منهم كان غير راض بنصيبه ، فالكامل طامع بدمشق ويريد أن تكون له الزعامة على اخوته جميعا وأن يكون هو الحاكم على الجميع ، والمعظم طامع بمصر ويريد أن يكون هو المرجع اليه ، والأشرف غير قانع بما فى يده من البلاد

---

(١) مفرج الكروب ، جـ ٢/لوحة ٢٢٤ (مخطوط) .

فهو يريد أن يحكم على ما فى أيدى أبناء عمومته من بلاد الشام ، كحلب وحمص وحماه وغيرها ، ولكن الظروف كانت تضطر الملك الكامل والأشرف الى الاتفاق ضد أخيهما المظفر لقوته ، وان كان اتفاقهما على دخن ، لذلك أسرع الكامل الى نجدة أخيه الأشرف ، فأرسل الى أخيه المعظم يأمره بعدم التعرض لبلاد أخيهما الأشرف والعودة الى دمشق ، ثم هدده بالمسير الى دمشق والاستيلاء عليها ان هو أصر على الاستمرار فى التعدى على أملاك أخيه ، فخاف المعظم أن ينفذ الكامل وعيده ، فعاد الى دمشق (1) .

وأمّا الأشرف فانه سار بجيشه الى خلاط ليستردها من أخيه شهاب الدين غازى ، ولم يجد الأشرف كثير مقاومة فى استردادها ، فقد فتر أهلها عن قتاله لأنه كان أحب اليهم من أخيه غازى ، ولما رأى غازى أنه أضعف من أن يناوىء أخاه ، اصطلح معه(2) .

وأما مظفر الدين ، فانه خرج بجيشه الى الموصل وحاصرها ، وذلك قبل أن تصل حوادث الاخوة الأيوبيين الى نهايتها التى ذكرناها . وكان فى تقدير مظفر الدين ، أن الملك الأشرف حين يعلم بخبر محاصرته الموصل ، يرحل عن خلاط ، أثناء حصاره لها لينجد بدر الدين فيخرج أخوه شهاب الدين غازى فى طلبه ، فيقع الأشرف بين أخيه وبين مظفر الدين فيهزمانه ، ثم يصل الملك المعظم بجيشه الى الموصل فيعمل الجميع على أخذها .

---

(1) الكامل ، ج ٩/ص ٣٥٤ .
(2) الكامل ، ج ٩/ص ٣٥٣ .

ولكن اختلف تقدير مظفر الدين منذ نزوله على الموصل ، فقد كان يحسب أن الموصل لن تستطيع المقاومة طويلا لما تعانيه من المجاعة ولقلة ما بها من الجند ، ولكن ما ان وصل اليها حتى وجد أن بدر الدين قد أحكم الدفاع عنها ، فجهزها بالجند المسلح وبآلات الدفاع المضادة لآلات الحصار ، فظل عليها مظفر الدين عشرة أيام دون أن ينال منها غرضا ، فلما بلغه ما كان من أمر المعظم وتوقفه عن المسير الى الموصل بسبب تهديد أخيه الكامل له ، وما كان أيضا من استرداد الأشرف مدينة خلاط وصلحه مع أخيه غازى ، اضطر الى رفع الحصار عن الموصل ، وعاد عنها ، وعبر نهر الزاب وأقام على ضفته ينتظر ما تأتى به الأيام من أحداث[1] ولكن لم يثبط هذا الفشل همة المعظم عيسى ومظفر الدين ، وانما ظلا يتحينان الفرص للايقاع بالملك الأشرف والملك الكامل ، وقد واتتهما الفرصة عندما ظهر جلال الدين خوارزم شاه (وسوف نتحدث عنه فيما بعد) على المسرح السياسى بالقرب من المنطقة التى نتحدث عنها . ففى نفس السنة ، سنة ٦٢١ ، وصل جلال الدين الى أذربيجان واستولى عليها ، فأصبح قريبا من بلاد الأشرف ، فأرسل الملك المعظم رسولا منه الى جلال الدين يعرض عليه عقد محالفة بينهما ضد أخويه الأشرف والكامل ، فاستجاب له جلال الدين ، ثم أرسل المعظم الى مظفر الدين يعرفه بالمحالفة التى عقدها مع جلال الدين ، فأرسل مظفر الدين وعقد هو

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٥٤ .

الآخر حلفا معه ، وهكذا اجتمعت ثلاث قوى كبيرة ، لو تم اجتماعها ، لكان فيها الخطر كل الخطر على الملك الأشرف والملك الكامل معا [1] غير أن انشغال جلال الدين بحروبه ضد الخارجين عليه من نوابه على بلاده حال بين الحلفاء وبين التعدى على أملاك الأشرف .

ثم مضى نحو سنتين ، كان مظفر الدين فيهما فى شبه هدنة مع بدر الدين ، فلما كانت سنة ٦٢٣ ، أعلن بدر الدين وفاة ناصر الدين محمود — الحفيد الثانى لمظفر الدين — واستقلاله بالموصل ، وحصوله على موافقة الخليفة بذلك ، عندئذ تحرك مظفر الدين للاستيلاء على الموصل ، فقد راجت شائعة بأن بدر الدين قتل ناصر الدين ليخلو له الجو ، فأخذ يعمل على احياء الحلف الذى بينه وبين جلال الدين والملك المعظم ، ثم عمل على تقوية الحلف بضم صاحب آمد ، وناصر الدين أرتق صاحب ماردين اليه ، واتفقوا جميعا على أن يقصد مظفر الدين الموصل ويضرب عليها الحصار ، ويقصد جلال الدين مدينة خلاط — وهى للملك الأشرف — ويقصد المعظم عيسى حمص وحماه ، ليشغلوا أصحاب هذه البلاد فلا يستطيع أحدهم أن ينجد الآخر ، فقد كان بدر الدين صاحب الموصل ، والأشرف موسى صاحب الجزيرة وخلاط ، وأصحاب حمص وحماة يدا واحدة يجمعهم حلف ضد المعظم عيسى ومظفر الدين ، ولكن حدث ما فصم عرى حلف

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٦٧ ، مفرج الكروب ، جـ ٢/لوحة ٢٣٩ (مخطوط) .

مظفر الدين وجلال الدين والمعظم عيسى ، ذلك أن نائب جلال الدين على « كرمان » عصى عليه ليستقل بالاقليم دونه ، فسار جلال الدين اليه ليرده الى الطاعة ، فضعف بمسيره أمر الحلفاء ، غير أن مظفر الدين سار بجيشه الى الموصل وحاصرها ، كذلك خرج المعظم الى حمص وحماة وحاصرهما ، الا أن الملك الأشرف لم يقف مكتوف اليدين ، فسار بجيشه الى الموصل لينجد بدر الدين ، ومرّ فى طريقه على ماردين فحاصرها وخربها ، عندئذ خاف المعظم أن يستولى الأشرف عليها ، فأرسل اليه يقترح أن يترك ماردين على أن يرحل هو عن حمص وحماه ، وأن يرسل الى مظفر الدين بالرحيل عن الموصل ، فقبل الأشرف ما عرضه عليه المعظم ، ورحل عن ماردين ، فرحل المعظم عن حمص وحماه ، ورحل مظفر الدين عن الموصل وعاد الى اربل ، بعد أن خربت أعمال الموصل وأعمال ماردين بسبب ما وقع فيهما من قتال (١)

وفى سنة ٦٢٧ (١٢٢٩ م) ، عظم شأن الملك الكامل وازدادت قوته وقويت شوكته ، فقد أصبح صاحب مصر والشام معاً ، فعزم على فتح البلاد الشرقية ، أى بلاد الجزيرة والاستيلاء عليها ، فخرج بجيشه من دمشق وعبر نهر الفرات وأقام بالرقة ، فخافه ملوك وأمراء المنطقة ، فأرسلوا اليه يخطبون وده ، ويدخلون فى طاعته فلما رأى مظفر الدين ذلك ، وجد أنّ من مصلحته أن

(١) الكامل ، جـ ٩/ص٣٦٧ .

يعقد مع الملك الكامل معاهدة صداقة وحسن جوار ، فأرسل رسله اليه ، فعقدت المعاهدة بينهما [1] ، وكانت هذه المعاهدة ، ختام الصراع بين مظفر الدين وبين بدر الدين صاحب الموصل وكذلك بينه وبين الأيوبيين .

وقد تعرض مظفر الدين لخطرين كبيرين كادا أن يطيحا بامارته ، هما خطر جلال الدين خوارزم شاه ، وخطر التتار .

ففى سنة ٦١٥ (١٢١٨ م) ، خرج التتار من بلادهم فى الصين لغزو العالم الاسلامى بقيادة جنكيزخان ، وكانت الدولة الخوارزمية هى صاحبة الصولة فى مشرق العالم الاسلامى المتاخم لحدود الصين ، الا أنها كانت محاطة بأعداء كثيرين هم الملوك والأمراء المسلمون الذين استولت الدولة على ممالكهم واماراتهم ، فلما فاجأها التتار بزحفهم السريع ، لم تجد الدولة من يقف الى جانبها ضد الغزاة ، كذلك لم تستطع حماية ممتلكاتها الواسعة بمفردها ، فاكتسح التتار ما أمامهم من أقاليم ومدن ، وأخذ جلال الدين خوارزم شاه يفر من أمامهم حتى وصل الى أذربيجان واتخذها قاعدة لصد الزحف التترى .

وكانت حروب جلال الدين ضد الغزاة التتار مائعة ، فهو ينتصر أحيانا وينهزم أحايين ، وفى سنة ٦٢٢ (١٢٢٥ م) ، شعر جلال الدين فى نفسه بشىء من القوة ، وفى الوقت نفسه كف التتار عنه الى حين ، فانتهز الفرصة ، واستأنف عملياته الحربية ،

---

(١) السلوك ، ج ١/ص ٢٣٦ .

ولكن بدلا من أن يوجهها الى أعدائه التتار فيستخلص منهم ما استولوا عليه من بلاد دولته ، وجهها الى الامارات الاسلامية ، فأغار على دقوقا واستولى عليها ثم على البوازيج وهى لصاحب الموصل ، فخشى مظفر الدين على بلاده من جلال الدين فأرسل رسله يعرض عليه الدخول فى طاعته ، فاستجاب جلال الدين له ، عندئذ سار مظفر الدين اليه ، وقرر معه قواعد الصلح والانتماء اليـه .

ولما علم الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بوصول جلال الدين الى البوازيج ، أرسل اليه وعقد معه محالفة ضد أخويه الملك الكامل والملك الأشرف واشترك فيها مظفر الدين ، وهى المحالفة التى تحدثنا عنها من قبل .

غير أن جلال الدين عاود التفكير فى الاستيلاء على اربل سنة ٦٢٨ (١٢٣٠ م) ، ولكن مظفر الدين استطاع أن يثنيه عن عزمه ، فجدد معه الصلح [١] ثم زال خطر جلال الدين عنـه نهائيا ، فقد قتل فى سنة ٦٢٨ أو ٦٢٩ ، على خلاف فى ذلك [٢] .

مظفر الدين والتتار

أما خطر التتار على اربل فكان أشـد وأقوى من خطر جلال الدين خوارزم شاه . فقد ذكرنا أنهم ظلوا يزحفـون ويكتسحون قوات جـلال الدين ، حتى اذا كانت سـنة ٦١٧ (١٢٢٠ م) ، وصلوا الى مراغة واحتلوها ثم ساروا نحو اربل ،

---

(١) مرآة الزمان ، جـ ٨/ص ٦٦٩ .
(٢) مرآة الزمان ، جـ ٨/ص ٦٦٩/٦٧٠ .

فأسرع مظفر الدين يطلب النجدة من عـدوه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، فلم يتوان بدر الدين فى الاستجابة له وأسرع بارسال نجدة عسكرية له خوفا على الموصل نفسها ، فقد وصلت أخبارالزحف التترى اليها ، فاضطرب أهلها اضطرابا شديدا ، يقول ابن الأثير مؤرخ العصر ، وكان مقيما فى الموصل فى ذلك الوقت : « ووصل الخبر الينا بالموصل فخفنا ، حتى أن بعض الناس همّ بالجلاء خوفا من السيف » ، ثم خرج بدر الدين بباقى جيشه الى حدود بلاده التى يحتمل أن يدخل التتار منها (١) .

ولما وصلت نجدة الموصل الى مظفر الدين ، خرج الجيش كله الى أطراف ولايته لحمايتها وليتلقى التتار عند زحفهم نحو المدينة ، وكانت ولاية مظفر الدين تقع فى منطقة جبلية وعرة المسالك ، وكلها مضايق يعسر على الجيش الكبير المرور فيها ، ولا يقدر أن يجوزها الا الفارس بعد الفارس ، فوزع مظفر الدين جيشه فى هذه المضايق ليكبسوا العـدو حين يزحف الى المدينة ، ولكن لسبب لم يوضحه المؤرخون ، توقف التتار عن التقدم نحو اربل

ولما علم الخليفة الناصر لدين الله ببغداد بوصول التتار الى مراغة ، وأنهم على عزم المسير نحو اربل القريبة من بغداد ، قدّر أن التتار لن يستطيعوا التوغل فى ولايتها لصعوبة مسالكها وطرقها ، فتحدثهم أنفسهم عندئذ أن يطرقوا العراق ويغيروا على بغداد ، ومن ثم أرسل الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ،

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٣٧ .

والى مظفر الدين يأمرهما بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوقا ليمنعوا التتار عن بغداد اذا حدثتهم أنفسهم بالاغارة عليها ، كذلك أرسل الى الملك الأشرف موسى الأيوبي ، يأمره بالحضور بنفسه وعساكره لدفع التتار عن بغداد ، فاعتذر الأشرف الى الخليفة ، بأنه يجهز معظم جيشه ليرسله الى أخيه الملك الكامل بمصر ، حيث يدور القتال بينه وبين الصليبيين الذين استولوا على دمياط ، وأما ما عنده من الجند فانه يحتفظ بهم احفظ الشام من الصليبيين المقيمين بها ، أو ارسالهم الى أخيه اذا تأزمت به الأمور .

وأما بدر الدين ، فانه أرسل الى مظفر الدين جـزءا من جيشه ، وظل هو بالموصل للدفاع عنها اذا دهمها العدو .

فلما وصل عسكر الموصل الى مظفر الدين ، خـرج بهم وبجيشه ، ونزل دقوقا ، منتظرا جند الخليفة .

فلما علم الخليفة بوصول مظفر الدين الى دقوقا ، أرسـل اليه أكبر أمرائه بالعراق ، وهو قشتمر ، ومعه غيره من الأمراء فى نحو ثمانمائة فارس كدفعة أولى من جيش كبير ينوى الخليفة تجميعه .

وانتظر مظفر الدين وصول باقى عسكر الخليفة حتى يقدم على حرب التتار ، ولكن الخليفة ، لم يرسل له سوى الثمانمائة فارس ، فوجد أنه لا يستطيع مواجهة التتار بجيشه الذى يفوقه جيش التتار كثيرا فى العدد والعتاد ، فأحجم عن التحرش بهم خوفا على الجند من أن يبيدهم العدو . ويحكى مظفر الدين خبره مع الخليفة ، فيقول « لما أرسل الىّ الخليفة فى معنى التتار

قلت له : ان العدو قوى وليس لى من العسكر ما ألقاه به ، فان اجتمع معى عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد ، فأمرنى بالمسير ووعدنى بوصول العسكر ، فلما سرت ، لم يحضر عندى غير عدد لم يبلغوا ثمانمائة طواشى ، فأقمت وما رأيت المخاطرة بنفسى وبالمسلمين » [1] .

ولكن على كل حال ، قد أفاد خروج مظفر الدين بجيشه الصغير الى دقوقا فائدة كبيرة ، ذلك أن التتار حين سمعوا باجتماع العسكر الاسلامى فى دقوقا ، ظنوا أن العسكر سوف يهاجمهم ، فتقهقروا وأقاموا بعيدا ، ولما وجد مظفر الدين أن التتار لم يحركوا ساكنا ، وأن الخليفة لم يرسل له ما وعده به من الجند ، عاد بجيشه الى اربل ، وعاد عسكر بدر الدين الى الموصل [2] .

غير أن التتار عادوا الى اربل فى سنة ٦٢٨ . ففى شهر ذى الحجة من تلك السنة زحف التتار من أذربيجان الى اربل ، وأخذوا وهم فى طريقهم اليها ينهبون ويخربون ويقتلون كل من يصادفهم من رجال ونساء وأطفال ، حتى تعذر على المعاصرين احصاء عددهم ، ثم وصلوا الى ولاية اربل ، فنهبوا قراها ، وقتلوا كل من ظفروا به من أهلها ، واقترفوا من الفظائع ما يشيب لها الوليد .

ولما علم مظفر الدين بهذه الغارة المفاجئة ، أرسل الى

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٣٧ .
(٢) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٣٧ .

بدر الدين لؤلؤ ينذره بالخطر المحقق هذه المرة ، ويحثه على ارسال نجدة عسكرية قبل أن يتوغل التتار فى الولاية ثم ما بعدها الى الموصل ، فأسرع بدر الدين بارسال جزء كبير من جيشه ، فلما وصل جيش الموصل الى مظفر الدين خرج به وبجيشه لقتالهم ، ولكنه لم يجد أحدا من التتار ، فقد اكتفوا بنهب القرى وسلب أهلها ، ثم عادوا من حيث أتوا [1] .

وينفرد ابن الفوطى بذكر الخبر التالى فى سنة ٦٢٩ ، حيث يقول ، انه فى هذه السنة وردت الأخبار الى بغداد بانتشار عسكر المغول فى بلاد أذربيجان ، وتطرقهم الى ما يقاربها من البلاد والقرى حتى بلغوا شهرزور ، فخشى الخليفة المستنصر بالله أن يغيروا على بغداد ، فأخذ يستعد للدفاع عنها ، وأرسل الى سائر البلاد يأمرها بجمع الجيوش لمواجهة الخطر عن بغداد .

ثم أرسل مظفر الدين الى الخليفة يطلب انجاده بالعسكر لصد الزحف التترى ، فأمر الخليفة بعض جنده بالمسير الى مظفر الدين وعلى رأسهم جمال الدين قشتمر الناصرى ومعه من الأمراء شمس الدين قيران ، وعلاء الدين ايلدكز ، وبهاء الدين أرغش ، وفلك الدين زعيم البيات ، فساروا قاصدين مظفر الدين ، والتقوا به فى موضع قريب من قلعة الكرخيتا .

وكادت أن تحدث مأساة بين جند الخليفة وبين جند مظفر الدين ، فقد تشاجر جندى من جند الخليفة مع بيطرى فى جيش

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٨٥ .

مظفر الدين ، فانتصر كل فريق لصاحبه ودار بينهم القتال ، فأخذت مظفر الدين الحمية لجنده ، فركب بسلاحه وأخذ يحرضهم على قتال جند الخليفة ، ولما بلغ قشتمر ما حدث ، أسرع الى مظفر الدين فلاطفه ، ثم لامه وقبّح له فعله ، فهدأ مظفر الدين وأمر جنده بالكف عن القتال ، وكذلك أمر قشتمر جنده بالقاء السلاح فسكنت الفتنة .

ثم اتفق قواد جيش الخليفة ومظفر الدين على المسير الى مدينة شهرزور ، فقد بلغهم أن التتر وصلوا سامبان — أو سامين — وهى من قرى همذان ، وحاصروها وصاحبها خاصبك ، فأرسل قشتمر طليعة من الجند اليها ، ثم رحل الجيش الى موضع يعرف بالأكراد .

وقبض بعض جند الخليفة على ثلاثة نفر وامرأة من المغول وأحضروهم الى قشتمر ، فسألهم قشتمر عن أخبار المغول ، فذكروا له أنهم تركوهم فى مراغة ، فعرض قشتمر عليهم الاسلام فأسلموا ، فضمهم اليه .

ثم سار الجيش حتى عبر الدربند ، فوصل اليهم ايلدكز مخبراً أنهم صادفوا يزكا (طليعة) من المغول على غرة ، فجرت بينه وبينهم مناوشة كان النصر فيها للمغول لكثرتهم ولمعرفتهم بالأرض التى يحاربون عليها ، فقتلوا مقدم الطلائع وجماعة من العسكر ، فعند ذلك جدّ الجيش فى السير حتى وصلوا شهرزور ونزلوا فى قرية يقال لها « موغان » غربى شهرزور ،

ولكن لم يمكنهم المقام بها لعدم وجود الماء العذب فيها ، فمات فى هذه القرية عدد كبير من الجند لهذا السبب .

ويبدو أن مظفر الدين وجد أن ما يقومون به من المخاطرة هو العبث بعينه فان عددهم قليل ومؤونتهم قليلة ، وعدوهم يفوقهم عددا وعدة ، فعزم على العودة الى اربل ، ولكنه لم يصرح برغبته هذه لقواد جيش الخليفة لئلا يمنعوه من العودة ، فادعى المرض وأتقن التظاهر بالاعياء ، بحيث لما جاءه قشتمر ليعوده ، اعتقد بأنه مريض حقا فأشفق عليه ، ولكى لا يثير مظفر الدين أية شبهة لرحيله ، طلب من قشتمر أن يسيّر معه ابنه شرف الدين عليا ليكون معه فى اربل ، فاذا مات يتسلم علىّ البلد ، وطلب منه أيضا أن يسيّر معه الأمير سعد الدين حسن بن الحاجب ليسلم اليه والى علىّ قلعة خفتيذ ، فأجابه قشتمر الى ذلك ، فتوجه مظفر الدين الى بلده ، وسار قشتمر الى قلعة الكرخينا .

ولما وصل مظفر الدين الى اربل ، أقام شرف الدين على وسعد الدين حسن عنده أياما ، ثم أمرهما مظفر الدين بعد ذلك بمغادرة اربل فانه فى أتم عافية ، وان ادعاءه المرض حيلة منه ليعود الى بلاده ، فعادا الى الكرخينا ، وأخبرا قشتمر بما كان من مظفر الدين .

وأما قشتمر ، فانه وجد أن معظم الجند الذين معه قد تركوه ، ولم يبق معه الا جنده الذين جاء بهم من بغداد وبعض الجند المتطوعين ، ووجد كذلك ، أن المغول قد أصبحوا قريبين منه ، حتى انهم نهبوا خيام أميرين من أمرائه ، فاتفق مع من معه

من القواد على الانسحاب ليلا دون ضجة أو جلبة — لئلا يثيروا انتباه العدو فيطاردهم — الى مكان يقال له « شهركرد » حيث المجال فيه أصلح للقتال لاتساع الأرض ، عندئذ فارقه الجند المتطوعون وعاد كل منهم الى بلاده ، فأصبح قشتمر فى قوة ضئيلة ، فأرسل الى بغداد يشرح للمسئولين فيها حرج مركزه وانصراف الجند عنه ، فأذنوا له بالعودة بجنده الى بغداد ، فعاد [1] . ولم يعد التتار الى الاغارة على اربل الا بعد وفاة مظفر الدين .

مظفر الدين ومحاولته التوسعية

وقد حاول مظفر الدين أن يجرب حظه فى التوسع على حساب جيرانه أسوة بأمراء عصره ، فقد سبق أن وصفنا عصر مظفر الدين بأنه « عصر الغلبة » ، وأن الحكم فيه كان للذى يملك من القوة والامكانيات أكثر مما يملك غيره من الحكام . ولكن فى الحقيقة أن مظفر الدين لم ينغمس فى هذه الحروب الى ذقنه ولم يحاول أن يجرب حظه فى توسيع رقعة امارته على حساب جيرانه الا مرة واحدة — بحسب ما وجدنا عند المؤرخين — ومع ذلك ، فان محاولته هذه لم تكن بدافع من نفسه ، وانما كانت بتأثير دعوة تلقاها من الخارج فاستجاب لها ، ومع ذلك لم ينجح فى محاولته ، وكانت هذه المحاولة فى سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م) .

---

(١) الحوادث الجامعة ، ص ٢٧ .

أما حروبه ضد الموصل أيام ملوكها ، فقد كان الغرض منها حماية امارته من طمعهم فيها ، وأما حروبه ضد بدر الدين لؤلؤ فكانت حروب وراثة ، غرضه منها ، حفظ حقوق حفيديه وزوج ابنته عماد الدين زنكى فى ملك الموصل . أما محاولته التوسعية فى سنة ٦٠٢ ، فقد كان سببها ، أن أبا بكر بن البهلوان صاحب أذربيجان كان مضرب المثل للحاكم السيىء ، فقد كان مدمن خمر لا يفيق منها لا ليلا ولا نهارا ، كما يقول المؤرخ ابن الأثير ، مهملا أحوال مملكته ورعيته حتى طمع فيه جيرانه ، فأخذ كل منهم يقتطع جزءا من مملكته ، حتى أن مملوكه ايتغمش — وكان نائبه على بعض بلاده — استبد بما فى يده من البلاد واستقل بها دونه ، وهو سادر فى لهوه وخمره . .

وكان علاء الدين قراسنقر صاحب مراغة [1] من المجاورين لأبى بكر بن البهلوان وأحد الطامعين بمملكته ، فانتهز فرصة اهمال أبى بكر لشئون بلاده ، واستولى على قلعة من قلاعه الحصينة ، ثم شجعه هذا الاستيلاء على أن يستحوذ على مملكته كلها ، ولكنه قدر أنه لن يستطيع تحقيق هذا الغرض بمفرده ، فأخذ يبحث له عن حليف يعاونه فى الحرب ، فوجد ضالته فى مظفر الدين فاستجاب له . واذا كان ابن الأثير — الذى تنقل عنه هذا الخبر — لم يذكر نصيب مظفر الدين من الغنيمة اذا

(١) مدينة في اقليم اذربيجان ، وهى مدينة نزهة جدا ، وخصبة كثيرة البساتين والرساتيق والزروع .

نجح المشروع ، الا أنه من الممكن القول ، بأن نصيبه لم يكن أقل من نصيب علاء الدين من بلاد أبى بكر .

على كل حال ، خرج مظفر الدين من اربل بجيشه الى مراغة وانضم الى صاحبها علاء الدين ، ثم خرج الاثنان بجيوشهما الى « تبريز » من بلاد أبى بكر للاستيلاء عليها ، فلما علم أبو بكر بذلك ، استبد به الخوف لعجزه عن محاربتهما ، فأرسل الى مملوكه ايتغمش يستعين به ويطلب منه مساعدته على رد عدوان المغيرين عن المدينة ، فلبى مملوكه طلبه ، وسار اليه بعسكره ، ثم أرسل الى مظفر الدين رسالة فيها لوم وعتاب وتهديد ، وهذه الرسالة تبين لنا مكانة مظفر الدين خارج اربل ، وما كان يحمله الناس له من اعجاب وتقدير لسيرته الطيبة ، قال أيتغمش لمظفر الدين فى رسالته : « اننا كنا نسمع عنك أنك تحب أهل العلم والخير وتحسن اليهم ، فكنا نعتقد فيك الخير والدين ، فلما كان الآن ظهر لنا ضد ذلك لقصدك بلاد الاسلام وقتال المسلمين ونهب أموالهم واثارة الفتنة ، فاذا كنت كذلك فما لك عقل ، تجىء الينا وأنت صاحب قرية ونحن لنا من باب خراسان الى خلاط والى اربل ، وأحسب أنك هزمت هذا (يعنى أبا بكر) ، أما تعلم أن له مماليك أنا أحدهم ، ولو أخذ من كل قرية شحنة ، أو من كل مدينة عشرة رجال ، لاجتمع له أضعاف عسكرك ، فالمصلحة أنك ترجع الى بلدك ، وانما أقول لك هذا ابقاء عليك » ونلاحظ هنا أن ايتغمش يعيب على مظفر الدين ما فعله هو نفسه من اغتصاب بلاد سيده واستبداده بها .

وعلى كل حال ، فان ايتغمش أتبع رسالته بالتحرك الى تبريز بجيشه ، فلما وصلت رسالة ايتغمش الى مظفر الدين وبلغه مسيره الى تبريز لنجدتها ، قرر أن ينقض اتفاقه مع علاء الدين وأن يعود الى اربل ، بالرغم من الحاح علاء الدين عليه بالبقاء ، وبالرغم من أنه أبدى استعداده بأن يلقى اليه قيادة الجيوش كلها فيكون هو صاحب الأمر والنهى فيها ، وبالرغم أيضا من أنه أكد له أن الكثير من أمراء أبى بكر راسلوه وأبدوا له استعدادهم للانضمام اليه بعساكرهم ، برغم كل هذا ، فان مظفر الدين رفض الاستمرار فى الاتفاق مع علاء الدين وفضل العودة الى اربل [1] .

ويعزو ابن الأثير ، أن عودة مظفر الدين الى اربل سببها خوفه من ايتغمش ، ولكن فى رأينا ، أن هناك سببا آخر دفع مظفر الدين الى نقض اتفاقه مع علاء الدين ، وهو حرصه على سمعته الطيبة التى يعرفها الناس عنه من التجريح ، ففضل الابقاء على تقدير الناس له من أن يمتلك بلادا يزيد بهارقعة امارته .

ومرة آخرى يشترك مظفر الدين فى أحـداث عصره ، ولكن اشتراكه فى هذه المرة كان لحساب الخليفة وبدعوة منه لا لحسابه، وكان ذلك فى سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) .

ففى سنة ٦٠٨ هـ ، عصى قائد — يقال له منكلى — سيده ايتغمش صاحب بلاد الجبل ، وايتغمش هذا هو الذى كانمملوكا

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٢٨٢ .

لأبى بكر البهلوان صاحب أذربيجان الذى ذكرناه من قبل وقلنا انه استبد بالبلاد التى كان يحكمها نيابة عن أبى بكر ، فحارب منكلى ، ايتغمش واستولى على بلاده ، ففر ايتغمش ولجأ الى الخليفة الناصر لدين الله مستنصرا به ، فأنجده الخليفة بالجند والسلاح والمال ، فخرج ايتغمش لاسترداد بلاده ، ولكنه وقع أسيرا فى قبضة بعض رجال منكلى ، فقتله منكلى وصفت له البلاد ، فأرسل الخليفة الى منكلى ينكر عليه تعديه على ايتغمش وقتله واستصفاء بلاده ، ويأمره برد البلاد اليه ، (أى الى الخليفة) ، واستمرت المراسلات بين الخليفة وبين منكلى حتى سنة ٦١٢ ، دون أن تنتهى الى شيء ، فيما عدا اصرار منكلى على موقفه واحتفاظه بالبلاد لنفسه ، عندئذ عزم الخليفة على حربه واسترداد البلاد منه ، ولكن الخليفة لا يستطيع الصبر على حربه بمفرده ، فاتفق مع أوزبك بن البهلوان صاحب بلاد أذربيجان ومع جلال الدين زعيم طائفة الاسماعيلية على أن ينضموا اليه لقتال منكلى ، مقابل تقسيم بلاده فيما بينهم فى حالة ما اذا انتصروا عليه . فلما أن استقرت القواعد بينهم ، أخذ الخليفة يجهز جيشه ، ثم أرسل الى مظفر الدين كوكبورى يأمره بالحضور بعساكره للاشتراك معهم فى الحرب ، وأن يكون هو القائد العام للحملة كلها ، كذلك أرسل الى أصحاب الموصل والجزيرة وحلب يأمرهم بامداد مظفر الدين بالجند ، فلبى الجميع أمر الخليفة ، وأرسل كل منهم ما استطاع أن يرسله

من جند الى مظفر الدين ، فلما اجتمع الجند عنده ، سار بالجيش كله الى همذان ، حيث سبقه اليها جيش الخليفة وحلفاؤه فاجتمع بهم ، وتسلم قيادة الجيوش كلها ، فلما رأى منكلى هـذه القوات الضخمة المجتمعة على حربه ، لم يجرؤ على مواجهتها ، فأمر قواته بأن ينقهقروا الى الجبال والتحصن بها ، واعتلى هو جبلا قريبا من مدينة « كرج » ، فوزع مظفر الدين الجيوش لحصار منكلى وعساكره ، وخصص لكل قائد منطقة وألقى عليه مسئوليتها ، وخص نفسه بحصار منكلى ، واستمر الحصـار عشرة أيام ، ومظفر الدين لا يستطيع الصعود الى منكلى والاشتباك معه فى قتال ، وكذلك منكلى لا يجرؤ على النزول اليه وقتاله ، الأمر الذى أدى الى نقص الميرة والأقوات عند مظفر الدين ، وابتدأت الجيوش تتذمر حتى هم مظفر الدين برفع الحصار ، وكذلك كانت الحال بالنسبة لمنكلى وقواته ، فان جنده حـل بهم الضيق من الحصار ، عندئذ أراد منكلى أن يجرب حظه بالاشتباك مع بعض قواد مظفر الدين ، فنزل من الجبل ببعض جيشه من الجهة التى كان يحاصرها أوزبك ، فاشتبك معه فى قتال فلم يصمد له أوزبك وانهزم منه ، فاكتفى منكلى بذلك مطمئنا الى قوته وضـعف القوات المحاصرة له ، وعاد الى مكانه من الجبل برجاله وقد قرر أن يثير مع الجيوش المحاصرة معركة مكشوفة فى اليوم التالى . فلما كان اليوم التالى ، اصطفت العساكر جميعها للحرب ، ودار قتال لم يستطع منكلى له صبرا ، فارتد على أعقابه منهزما الى

الجبل يعتصم به ، ثم تخيل أنه لن يستطيع مواصلة القتال والتغلب على خصومه ، مع أن هزيمته لم تكن كبيرة ، ولذلك آثر الفرار تحت جنح الظلام ، فاستولى عندئذ جند الخليفة على بلاده ، وقسمت بين الحلفاء حسب الاتفاق ، ثم عاد مظفـــر الدين الى اربل ، ولا نعلم ماذا كان نصيبه من الغنيمة ، حيث لم يتعرض المؤرخون لذلك [1] .

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٠٥/٣٠٩ .

الفصل السادس

مظفر الدين والحروب الصليبية

كان أخطر حادث عاصره مظفر الدين واستقبل به شبابه — وكان فى نفس الوقت يشغل المسلمين جميعا — هو الحروب الصليبية التى كانت تدور رحاها فى بلاد الشام بين المسلمين والصليبيين ، وقد وعاها مظفر الدين وعيا تاما منذ أن أقام فى حران بعد اخراجه من اربل وكان عمره فى ذلك الوقت نحو احدى وعشرين سنة ، ولكنه لم يدخل مضمارها ويشترك فى حروبها الا بعد أن بلغ من العمر نحو الثلاثين سنة ، أى فى سنة ٥٨٠ هـ . وذلك لأن حران كما سبق أن ذكرنا ، كانت تابعة لامارة الموصل، وكان أمراء الموصل قد كفوا شر الصليبيين منذ أن أجلاهم عماد الدين زنكى عن الجزيرة فى سنة ٥٣٩ بعد استيلائه على مدينة الرها وتصفية المراكز الصليبية المحيطة بها . ولما أقام مظفر الدين فى حران منذ سنة ٥٦٩ أو ٥٧٠ ، حتى سنة ٥٧٨ ، كان أمراء الموصل فى هذه الفترة مشغولين بمشاكلهم الداخلية من ناحية ، وكانوا يرفضون التعاون مع صلاح الدين فى حروبه ضد الصليبيين من ناحية أخرى للنزاع الذى نشب فيما بينهم وبينه

بسبب منافسته لهم على بلادهم ، وتبعا لذلك كان الأمراء المنتمون اليهم يقفون موقف العداء منه أيضا ، ولذلك لم يتعاونوا معه فى الحرب ، ومنهم بطبيعة الحال مظفر الدين لأنه كان مقيدا بعجلة سياستهم .

ولكن بعد أن انفصل مظفر الدين عن الموصل ودخل فى طاعة صلاح الدين وحكمه ، انفتح له المجال الصليبى ، وأصبح من العاملين مع صلاح الدين فى الجهاد ، وكان دوره فيه أكبر وأخطر من دور أبيه وأخيه ، فقد ظل يخوض المعارك مع صلاح الدين حتى وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ (١١٩٢ م) . واذا كان المؤرخون لم يذكروا اسمه صراحة الا فى بعض المعارك الهامة ، الا أننا نرجح ترجيحاً يكاد أن يصل حد اليقين ، أنه اشترك فعلا فى معظم المعارك التى دارت بين صلاح الدين والصليبيين . وسبب ترجيحنا أن المؤرخين كثيرا ما يذكرون أن صلاح الدين كان يستدعى « عساكر الشرق » كلما عزم على القيام بحرب طويلة أو اثارة معارك هامة ليشتركوا معه فى القتال ، والمؤرخون يعنون بالشرق اقليم الموصل والجزيرة التى تقع فيه حران والرها اللتان يملكهما مظفر الدين .

وأول خبر عن اشتراك مظفر الدين فى الحروب الصليبية بصفة عامة ومع صلاح الدين بصفة خاصة ، كان فى سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) . ففى تلك السنة ، عزم صلاح الدين على فتح حصن الكرك من الصليبيين لوقوعه على طريق دمشق — مصر البرى ، وكان صاحب الحصن « أرناط » الصليبى كثيرا ما يتعرض للقوافل

التجارية وغير التجارية التى تتنقل بين البلدين وينهبها ، مما عطل طريق المواصلات بينهما ، فقرر صلاح الدين الاستيلاء على الحصن وتأمين الطريق من خطره .

وكان صلاح الدين يعلم حصانة الحصن ومناعته من ناحية ، كذلك كان يعلم شدة حرص الصليبيين على الاحتفاظ به وعدم سقوطه فى يده من ناحية أخرى ، لذلك قدر صلاح الدين أن الصليبيين سوف يتكتلون للدفاع عن الحصن حين يحاصره ، ولذلك أخذ يستدعى الأمراء المسلمين فى الشام والجزيرة لكى يشتركوا معه فى فتحه ، حتى أنه أرسل الى مصر يستدعى بعض جيشها للاشتراك معه فى عملية الفتح .

وجاء مظفر الدين بجيشه الى صلاح الدين مع من جاء من الأمراء ، فخرج صلاح الدين بالجيش من دمشق وتجمعت الجيوش كلها عند الحصن ، فضرب صلاح الدين الحصار عليه ، وكان من اليسير على صلاح الدين الاستيلاء على ربض الحصن ، وأما الحصن نفسه فكان من المناعة بمكان ، حيث يفصل بينه وبين الربض خندق عميق يبلغ نحو ستين ذراعا ، فأمر صلاح الدين الجند بطمه بكل ما يجدونه من تراب وأحجار وغيرها ، فلما أخذ الجند يقتربون من الخندق ، انهالت عليهم سهام حامية الحصن ، وقذفتهم المناجيق بالأحجار فارتدوا على أعقابهم نجاة بأنفسهم ، فأمر صلاح الدين بعمل سقائف من الخشب واللبن لتحمى الجند عند اقترابهم من الخندق ، ولكن لم تؤد السقائف الغرض

المطلوب ، بالرغم من أن مجانيق صلاح الدين كانت دائمة الرمى على حامية الحصن .

ولما طال أمر الحصار على الصليبيين ، أرسلوا الى ملك بيت المقدس والى الأمراء الصليبيين يطلبون انجادهم ، فأسرعوا اليهم فارسهم وراجلهم ، فلما علم صلاح الدين بذلك ، رحل عن الحصن ليلاقى النجدات الصليبية فى الطريق ليحاربهم وليحول بينهم وبين الوصول الى الحصن ، ثم يعود بعد أن يهزمهم اليه . فعلم صلاح الدين أن النجدات الصليبية قد عسكرت بمكان يقال له « الواله » فعسكر هو بالقرب منهم ولم يستطع الدنو منهم لخشونة الأرض وصعوبة المسالك اليهم وضيقها ، ولم يجرؤ الصليبيون بدورهم أن يقتربوا منه ويشتبكوا معه فى قتال ، فأقام صلاح الدين أياما ينتظر خروجهم اليه ، فلما طال بصلاح الدين الانتظار أراد أن يخرجهم بمكيدة ، فتراجع عنهم بضعة فراسخ لكى يلحقوا به ، وترك فى معسكره من يخبره بخروجهم ، ولكن الصليبيين فهموا مكر صلاح الدين فلم يتبعوه ، وظلوا فى مكانهم الى المساء فغافلوا عيون صلاح الدين وتسللوا تحت جنح الظلام الى الحصن ، فلما علم صلاح الدين بذلك ، تأكد له استحالة الاستيلاء عليه بعد وصول النجدات اليه ، فأجل فتحه الى فرصة أخرى ، ثم اتجه الى نابلس ، فأغار عليها وخرّبها وأحرقها ، ثم سار منها الى سبسطية فخربها أيضا ، وكان بها بعض الأسرى المسلمين فاستنقذهم منها ، ثم سار منها الى جنين فنهبها وأخربها ، ثم عاد الى دمشق ، وسمح

للجيوش المساعدة له أن يعود كل منها الى بلده ، فعاد مظفر الدين بجنده الى حران بعد أن أدى دوره فى هذه الحروب[1] .

ثم انشغل صلاح الدين فى سنتى ٥٨١ و ٥٨٢ ، بمشاكله مع صاحب الموصل ، كذلك انشغل بتوزيع بلاده بين أفراد أسرته ليقوموا على حكمها نيابة عنه ، حتى اذا كانت سنة ٥٨٣ ، عزم صلاح الدين على التفرغ للصليبيين واسترداد بيت المقــدس وغيره منهم .

وكان صلاح الدين يعلم خطورة ما هو مقــدم عليه ، فان الصليبيين لن يتركوه يستولى على بيت المقدس مهما كلفهم الأمر ، وأنهم سوف يدافعون عنه دفاع المستميت ، وسوف يعبئون قواهم جميعا للدفاع عنه ، لذلك أخذ يستدعى الأمراء بجيوشهم من جديد لكى يشاركوه فى عملية الفتح .

وخرج صلاح الدين بجيش دمشق فى أواخر السنة ، ونزل فى مكان يقال له « رأس الماء » ، ثم ترك معظم الجيش مع ابنه الملك الأفضل علىّ ، وسار هو الى حصن الكرك مرة أخرى ، فقد بلغه أن صاحبه « أرناط » على عزم التعرض لقافلة الحجاج القادمة الى دمشق وأنه بعد أن ينتهى من أخذ الحجاج ونهبهم ، سيقف فى طريق العسكر المصرى القادم الى صلاح الدين من مصر ليمنعهم من الوصول اليه ، فسار صلاح الدين ونزل على بصرى المجاورة للحصن ، فلما رأى أرناط ذلك ، قبع فى حصنه ولم

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٦٥ ، سيرة صلاح الدين ، ص ٥٢؛ مرآة الزمان ، جـ ٨/ص ٣٨٢ .

يجرؤ على الخروج منـــه ، حتى مرت القافلة بســلام ودخلت دمشق (١) .

وحين كان صلاح الدين فى « بصرى » أخـذت الجيوش الاسلامية تصل بأمرائها تباعا الى الملك الأفضل فى « رأس الماء »، وكان مظفر الدين ممن لبى نداء صلاح الدين ، فوصل بجيشه مع من وصل ، وكان الملك الأفضل يبلغ والده تتابع وصــول الجيوش اليه ، فأرسل صلاح الدين اليه يأمره بارسال جيش من عنده الى مدينة عكا للاغارة عليها واستطلاع أمرها واختبار قوتها تمهيدا لفتحها ، فسيَّر الأفضل ، مظفر الدين وعضَّــده بالقائدين الكبيرين : قايماز النجمى ودلدرم الياقوتى ، فساروا ليلا تحت جنح الظلام ونزلوا على « صفورية » — وهى من أعمال عكا — فى الصباح .

وما ان علم الصليبيون المقيمون فى عكا بوصول المسلمين الى مشارف المدينة ، حتى خرجوا اليهم ، لردهم عنها وكان أكثرهم من فرسان الداوية والاسبتارية ، وهؤلاء الداوية والاسبتارية أقوى المحاربين الصليبيين وأصبرهم على القتال ، فالتقوا وجها لوجه مع مظفر الدين وجنده ، ودارت بين الفريقين معركة « تشيب لها المفارق السود » على حد تعبير المؤرخ ابن الأثير ، وما زال المسلمون والصليبيون فى كر وفر ، وضرب وطعن ، حتى تفوق المسلمون على عدوهم ، وأنزلوا بهم هزيمة منكرة ، فضلا عن أنهم جندلوا عددا من قوادهم ، فسقطوا صرعى بين أيديهم ، ولم تكن

---

(١) الكامل ، ج ٩/ص ١٧٥ .

فرحة المسلمين بالنصر ، بقدر فرحهم لقتل زعماء الداوية والاسبتارية ، فقد كان فرسانهم « جمرة الفرنج » ، وطالما وجد المسلمون منهم النكاية والجهد . ثم عاد مظفر الدين برجاله الى معسكره فى « رأس الماء » يرفع مع رجاله راية النصر[1] .

ثم عاد صلاح الدين الى « رأس الماء » بعد أن وصلت قافلة الحجاج الى دمشق بسلام ، فأخذ يستعد لمعركة حطين ، المعركة الخالدة على التاريخ ، والتى حشد لها صلاح الدين ثمانين ألفا من المقاتلة المسلمين بين فارس وراجل ومتطوعة ، وكان لمظفر الدين دوره الهام فيها ، فقد ولاه صلاح الدين فيها قيادة الجيوش الشرقية ، أى جيوش الموصل والجزيرة .

ولما اطمأن صلاح الدين على حسن استعداده للمعركة ، أمر الجيوش بالتحرك الى طبرية ، فتحركت بمعداتها وأثقالها وآلات الحصار ، ونزلت على ساحل البحيرة ، وأخذ صلاح الدين يستعد لمنازلة طبرية ذاتها وفتحها .

وتقدم صلاح الدين الى مدينة طبرية ، وساق أمامه آلات الحصار الهدامة ، ووزع صلاح الدين آلات الحصار حول أسوار المدينة ، وأخذ يضرب بها الأسوار والحامية ، بينما أخذ النقابون المسلمون ينقبون أسوارها حتى خربوها ، فلما رأى الصليبيون أنهم يكادون أن يؤخذوا بأيدى المسلمين ، خرجوا من المدينة ليخوضوا مع المسلمين معركة مكشوفة ، فاجتمعوا فى مكان يقال له « لوبية » فملك المسلمون عليهم موارد الماء ، فوجد

(١) الكامل ج ٩/ص ١٧٥/١٧٦ .

الصليبيون لذلك العطش الشديد ، فقد كان الزمان صيفا شديد الحر ، ولم يتمكنوا من الوصول الى الماء ، فهموا بالعودة الى المدينة بعد أن فقدوا الأمل فى الحصول على الماء ، ولكنهم خافوا أن يأخذ المسلمون أقفيتهم ، فظلوا فى مكانهم لا يتحركون الى اليوم التالى .

وفى اليوم التالى ، كان صلاح الدين قد عبأ جيشه تعبئة الحرب ، ثم أمر الجيش بالبدء فى القتال ، فتقدم الجند نحو العدو ، وتقدم العدو نحوهم ، والتقوا وجها لوجه ، ودارت معركة طاحنة اشتد فيها القتال ، وصبر الفريقان ، وكانت نبال المسلمين تطلق على الصليبيين كأنها الجراد ، فكان يسقط بسببها من الصليبيين المئات .

وهجمت جماعة كبيرة من الصليبيين على جيش يقوده تقى الدين عمر — ابن أخى صلاح الدين — وكان الهجوم عنيفا ، بحيث كاد الصليبيون يطحنونه وجيشه طحنا ، وهنا برز مظفر الدين ليؤدى دوره فى المعركة ، ففحص المنطقة التى يقاتل عليها تقى الدين ، فاذا المنطقة تحيط بها الحشائش ، واذا الريح فى مواجهة الصليبيين تسفح وجوههم ، فخطرت له فكرة رائعة ، فلو أنه أطلق النار فى هذه الحشائش ، فان الريح سوف تحمل الى وجوه الصليبيين الدخان واللهب والحرارة ، فتشل حركتهم عن القتال ، وتحل بهم الهزيمة المؤكدة ، ووضع الفكرة موضع التنفيذ ، فأشعل النار فى الحشائش ، وكانت الريح شديدة ، « فحملت حر النار والدخان اليهم ، فاجتمع عليهم العطش ، وحر الزمان ، وحر النار والدخان ،

وحر القتال » ، فوقع الاضطراب فى صفوف الصليبيين وشلت حركتهم فحلت بهم الهزيمة ، فر على اثرها القمص صاحب طبرية الى مدينة صور يحتمى بها .

وكاد الصليبيون جميعا يستسلمون بعد أن رأوا فرار صاحب طبرية ، بعد هزيمته الشائنة ، ولكنهم علموا أنهم مقتولون اذا ما استسلموا ، فدفعهم الخوف من القتل الى مواصلة القتال والاستبسال فيه ، « فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين — على كثرتهم — عن مواقفهم لولا لطف الله بهم » ، ذلك أن الصليبيين كلما حملوا حملة يرجعون منها وقد سقط منهم العدد العديد قتلى ، حتى ضعفوا ودخلهم الوهن ، ولاح عليهم الخذلان وعدم القدرة على مواصلة القتال ، « فأحاط بهم المسلمون احاطة الدائرة بقطرها » ، وأخذوا يعملون فيهم السيف كيف شاءوا ، ويأسرون منهم المئات من الفرسان والمشاة فى سهولة ويسر ، واستولوا منهم على صليب الصلبوت — وهو صليبهم الأعظم — فقد كان لفقده أكبر الأثر فى اضعاف همتهم وخمود حماستهم .

واستطاع ملك بيت المقدس أن يفر فى جمع كثير من الصليبيين الى تل حطين ، وأراد من نجا من الصليبيين أن ينصبوا خيامهم على التل ويحموا أنفسهم ، الا أن المسلمين لحقوا بهم وأخذوا يرمونهم بالنشاب من أسفل التل حتى أعجزوهم عن نصب خيامهم سوى خيمة الملك ، وظل المسلمون يقاتلونهم والصليبيون ينحدرون من أعلى التل ويحملون على المسلمين حملات عنيفة ،

ولكن حملاتهم كانت تذهب هباء ، فقد كانوا يحملون على المسلمين وهم مئات ، فيعودون الى التل وهم عشرات ، وما زالوا يكررون هذه الحملات فتنقص أعدادهم حتى تأكد لهم فشل حملاتهم ، ففر عندئذ من استطاع الفرار ، حتى أنه لم يبق مع الملك سوى مائة وخمسين فارسا من أشجع فرسانهم ، وقد ظنوا أنهم يستطيعون الصمود فى وجه المسلمين وقتالهم ، ولكن العطش كان قد أحرق حلوقهم حتى أنهم لا يستطيعون الحركة ، فنزلوا عن خيولهم وجلسوا على الأرض ، معلنين استسلامهم للمسلمين ، فلما رأى المسلمون ذلك ، اندفعوا نحو التل ، فألقوا خيمة الملك وقبضوا عليه وعلى من معه من الفرسان ، ونزلوا بهم الى معسكرهم .

وكان انتصار المسلمين فى هذه المعركة انتصارا رائعا وانتصارا مزدوجا ، فقد فنيت فيها قوة كبيرة من جيش العدو ، وأسر كل من اشترك من عظماء الصليبيين وأمرائهم : ملك بيت المقدس ، والبرنس أرناط صاحب الكرك ، وصاحب جبيل ، وابن هنفرى ، ورئيس الداوية . وكثر فى الصليبيين القتل والأسر ، « فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم (أى المسلمين) أسروا واحدا ، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحدا »[1] . أما الانتصار الآخر ، فهو ما تبع هذه المعركة من وهن للصليبيين وضعفهم ، فقد فتح الانتصار الطريق للمسلمين الى البلاد الساحلية التى للصليبيين ، ففتحوا : طبرية ، وعكا ، ومجدل يابا ، وقيسارية ، والناصرة ،

(١) الكامل ، ج ٩/ص ١٧٨ .

وحيفا ، وصفورية ، والشقيف ، ويافا ، وعسقلان ، أى جميع البلاد الساحلية القريبة والمحيطة ببيت المقدس — مملكة الصليبيين العتيدة — فضرب صلاح الدين ضربته الكبرى على بيت المقدس ، فاستولى عليه ، فكانت النكبة التى ولول منها الصليبيون فى الشام والمسيحيون فى أوربا على السواء ، فجردوا على صلاح الدين الحملة الصليبية الثالثة .

فانه بعد أن فرغ صلاح الدين من عسقلان ، سار عنها الى بيت المقدس ، وكان فيه من عظماء الصليبيين : البطرك ، وصاحب الرملة ، وبه أيضا من نجا من فرسانهم من معركة حطين ، فلما علموا أن صلاح الدين على عزم فتحه ، أعدوا ما استطاعوا من معدات الحرب ، وحشدوا ما أمكنهم أن يحشدوا من المقاتلة ، وتكتل عدد عظيم من الصليبيين داخل بيت المقدس للدفاع عنه ، « وكلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذونه منهم ، ويرى أن بذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه »(١) . وانتشر المقاتلة الصليبيون على أسوار المدينة يرمون المسلمين بمجانيقهم ، ولكن مجانيق المسلمين كانت أقوى وأشد ، فكانت تكيل لهم الصاع صاعين ، فكان القتال « أشد قتال رآه أحد من الناس ، كل واحد من الفريقين يرى ذلك دينا وحتما واجبا ، فلا يحتاج فيه الى باعث سلطانى ، بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ، ويزجرون (عن القتال)

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٨٢ .

ولا ينزجرون »[1] . ولكن كفة المسلمين كانت هى الراجحة ، فقد استطاعت مجانيقهم أن تشل حركة مجانيق الصليبيين ، وأن ترغم مقاتلة الأسوار على الفرار ، بل ترغم الصليبيين على عرض الصلح والاستسلام ، فرضى صلاح الدين بالصلح معهم ، فأمنهم على أرواحهم وأموالهم ، وخيرهم بين الاقامة فى بيت المقدس أو الرحيل عنه ، فأقام به من أراد المقام ، ورحل عنه من أراد الرحيل[2] ، ومن ثم ارتفعت الأعلام الاسلامية على أسوار المدينة تعلن رجوع المدينة الى أصحابها المسلمين ، بعد أن خرجت من أيديهم نحو قرن من الزمان .

أخذ صلاح الدين بعد ذلك فى تصفية الساحل الشامى من الصليبيين ، ومظفر الدين يرافقه فى كل حملة ويشترك معه فى كل معركة . وكان الصليبيون يعتمدون فى حفظ ما بأيديهم من البلاد على كل من عكا وبيت المقدس ، فلما سقطت عكا وسقط بيت المقدس فى يد صلاح الدين ، أصبح من اليسير عليه تصفية القسم الشمالى من الساحل ، فسار بجيشه يريد ثغر جبلة ، وجعل قيادة ميسرة جيشه الى مظفر الدين .

ومرّ صلاح الدين وهو فى طريقه الى جبلة بمدينة أنطرطوس ، وأنطرطوس مدينة حصينة راكبة على البحر ، ولها برجان عظيمان عن يمين وعن شمال ، كالقلعتين يدفعان عنها عادية المغير ، فأنزل

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٨٢ .
(٢) الكامل ، جـ ٩/ص ١٨٣ .

صلاح الدين كل من ميمنة الجيش وميسرته على البرجين ، ورابط هو ببقية الجيش أمام المدينة .

وبدأ القتال بين المسلمين وبين حامية المدينة ، ولكن لم يلبث المسلمون أن تغلبوا على الحامية واعتلوا أسوار المدينة ونشروا أعلامهم عليها ، ففرت الحامية الى البرجين وانضموا الى من فيهما من المقاتلة ، وثبتوا جميعا للمقاومة .

وكان يقع على عاتق مظفر الدين فتح أحد البرجين ، فظل يقاتل من به من الصليبيين دون هوادة ، ويدك أركانه بآلات الحصار حتى هدمه عن آخره ، فاستسلم بعض من كان فيه من المقاتلة ، وفر بعضهم الآخر الى البرج الآخر ، فازدادت حاميته قوة ، الا أن القائد المباشر لقتاله استطاع أن يقتحمه أيضا بعد قتال مرير (١) ، فخلصت المدينة بذلك للمسلمين وعادت اليهم كما كانت سيرتها الأولى .

وبعد أن تم فتح انطرطوس ، واصل صلاح الدين السير بجيشه الى جبلة ففتحها ، وفتح اللاذقية ، وصهيون وبلادا كثيرة غيرها .

غير أن الصليبيين لم يقفوا مكتوفى الأيدى ولم يسكتوا على خروج عكا من أيديهم ، فقد حرمهم خروجها من أيديهم من ميناء عظيم ، تصلهم عن طريقه الامدادات من مقاتلة وسلاح من الغرب ، فضلا عن أنه ميناء تجارى هام ، ومن ثم عزموا على استرداد

---

(١) سيرة صلاح الدين ، ص ٧٠ ، النجوم الزاهرة ، ج ٦/ ص ٣٩ .

المدينة فى سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) مهما كلفهم الأمر ، ولما تمكث فى أيدى المسلمين غير سنتين .

وأخذ الصليبيون يعبئون قواتهم ويعدون أنفسهم لمعـركة الاسترداد ، حتى تهيأوا لها واستعدوا لها الاستعداد الكامل ، وبينما كان صلاح الدين يفتح بلادهم فى الشمال ، كانت جيوشهم فى طريقها الى عكا لاستردادها ، حتى وصلوها وضربوا عليها الحصـار .

ولما علم صلاح الدين بما عزم عليه الصليبيون من استرداد عكا ، أرسل يستدعى الأمراء الذين لم يشتركوا معه فى المعارك السابقة ، فلبوا نداءه سراعا ، ولكن ما أن وصلوا اليه ، حتى كان الصليبيون قد ضربوا الحصار على المدينة قبل أن يتمكن صلاح الدين من الوصول اليها لدفع عاديتهم عنها . وكان ممن قدم على صلاح الدين ، زين الدين يوسف — أخو مظفر الدين — فجاء بجيشه من اربل ، وان كان قد تأخر وصوله الى سنة ٥٨٦. ويصف ابن شداد — المرافق لصلاح الدين — جيش زين الدين واستقبال صلاح الدين لزين الدين بقوله : « وقدم زين الدين بعسكر حسن وتجمل جميل ، فاحترمه السلطان وأكرمه ، وأنزله فى خيمته وأكرم ضيافته ، وأمر بضرب خيمته الى جانب خيمة أخيه مظفر الدين »(١) .

قلنا ان الصليبيين كانوا أسبق من صلاح الدين فى النزول على عكا ، فضربوا عليها الحصار ، ونصبوا حول أسوارها آلات

---

(١) سيرة صلاح الدين ، ص ٩٨/١٠٦ .

التدمـير من مناجيق وعرادات [1] ودبابات [2] وكباش [3] ، وحاصروها حصارا مستحكما ، وضايقوها مضايقة عظيمة وسدوا عليها المنافذ فمنعوا الدخول اليها والخروج منها ، فأصبحت حامية المدينة ، تعتمد على امكانياتها المحلية فى الدفاع عن المدينة وعن أنفسهم .

ولما وصل صلاح الدين بجيشه الى عكا ، ووجد أن الصليبيين محاصرين لها ، ضرب معسكره وراءهم ، وكان من المنتظر أن يقضى على الصليبيين فى أسرع من رد الطرف لانحصارهم بين حامية المدينة من أمام وبين جيش صلاح الدين من وراء ، ولكن الذى حدث ، أن الصليبيين صمدوا للقتال مدة سنتين كاملتين ، انتهى الأمر بعدهما بهزيمة المسلمين بصلح عقدوه مع الصليبيين ، كان من شروطه أن تنازل صلاح الدين عن كثير من البلاد التى استولى عليها للصليبيين .

---

(١) سبق أن وصفنا المنجنيق . والعرادة تشبه المنجنيق ، الا أنها أصغر منه ، والجمع عرادات .

(٢) الدبابة : آلة عظيمة ، يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم، ملبسة بصفائح الحديد ، ولها من تحتها عجل تحرك به من داخل ، وفيها المقاتلة . والدبابة الكبيرة تتكون من أربع طبقات : الطبقة الأولى من الخشب ، والثانية من الرصاص ، والثالثة من الحديد ، والرابعة من النحاس ، فهى تعلو على السور المراد مهاجمته ، وكان يركب فيها المقاتلة . أما طريقة تدمير الدبابة فهو حرقها بالنار . (سيرة صلاح الدين ، ص ١٢٦ ، ١٤٩) .

(٣) الكباش : جمع كبش . وهو رأس من حديد يكون فى مقدمة الدبابة المعدة لهدم الأسوار ، ينطح به السور بشدة عظيمة فيهدمه بتكرار النطح (سيرة صلاح الدين ، ص ١٢٦) .

ولا نريد التأريخ هنا لمعركة عكا من حيث هى ، وانما نتعرض لها لاشتراك مظفر الدين وأخيه زين الدين فى معاركها ، الا أننا نقول ، انه دارت خلال هاتين السنتين عشرات المعارك بين صلاح الدين والصليبيين تختلف فى شدتها وعنفها ، ونحن نذكر هنا معركتين ، ذُكر فى كل معركة منهما دور أحد الأخوين ، مظفر الدين وزين الدين ، ولكى نعطى القارىء صورة واضحة عن الجهود التى كان يبذلها المسلمون فى صراعهم ضد الصليبيين ، ولكى نعطى كذلك وصفا لطرق القتال بين المسلمين والصليبيين فى ذلك الوقت .

فأما المعركة الأولى ، فكانت عقب نزول الصليبيين على عكا مباشرة ، واشترك فيها مظفر الدين ، وكان مكانه من الجيش فى ميسرته . ونحن نترك لشاهد عيان حضر المعركة بنفسه : هو بهاء الدين بن شداد ، مؤرخ صلاح الدين ، ليصف لنا المعركة كما شاهدها بنفسه وبأسلوبه ، حيث يقول تحت عنوان :

(ذكر المصاف الأعظم على عكا)

« لما كان يوم الأربعاء الحادى والعشرون (من شعبان سنة ٥٨٥) تحركت عساكر الافرنج حركة لم تكن لهم بمثلها عادة، فخرج فارسهم وراجلهم ، وكبيرهم وصغيرهم ، فاصطفوا خارج خيمهم قلبا وميمنة وميسرة ، وفى القلب الملك ، وبين يديه الانجيل محمولا مستورا بثوب أطلس مغطى ، يمسكه أربعة أنفس بأربعة أطراف ، وهم يسيرون بين يدى الملك . وامتدت الميمنة فى مقابلة الميسرة التى لعسكر الاسلام من أولها الى آخرها ، وكذلك ميسرة

العدو فى مقابلة ميمنتنا الى آخرها ، وملكوا رءوس التلال ، وكان طرف ميمنتهم الى النهر ، وطرف ميسرتهم الى البحر .

« وأما العسكر الاسلامى المنصور ، فان السلطان (صلاح الدين) أمر الجاليش أن نادى فى الناس : يا للاسلام وعساكر الموحدين ؛ فركب الناس (أى الجند) وقد باعوا أنفسهم بالجنة ، ووقفوا بين أيدى خيامهم ، وامتدت الميمنة الى البحر ، والميسرة الى النهر كذلك .

« وكان (صلاح الدين) رحمه الله ، قد أنزل الناس (أى الجند) فى الخيم ميمنة وميسرة وقلبا تعبئة الحرب ، حتى اذا وقعت الصيحة لا يحتاجون الى تجديد ترتيب ، وكان هو فى القلب ، وفى ميمنة القلب ولده الملك الأفضل ، ثم عسكر المواصلة (عسكر الموصل) يقدمهم ظهير الدين بن البلنكرى ، ثم عسكر ديار بكر فى خدمة قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن (حصن كيفا) ، ثم حسام الدين بن لاجين صاحب نابلس ، ثم الطواشى قايماز النجمى ، وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة ، وكان طرفها الملك المظفر تقى الدين عمر (صاحب حلب) بجحفله وعساكره ، وهو مطل على البحر ؛ وأما أوائل الميسرة ، فكان مما يلى القلب : سيف الدين علىّ المشطوب ، وعلى بن أحمد من كبار ملوك الأكراد ومقدميهم ، والأمير مجلى وجماعة المهرانية والهكارية ، ومجاهد الدين يرنقش مقدم عسكر سنجار ، ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحافله وعسكره ؛ وأواخر الميسرة كبار المماليك الأسدية (نسبة الى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين)

كسيف الدين يازكج ، ورسلان بغا ، وجماعة الأسـدية الذين يضرب بهم المثل ، ومقدم القلب عيسى (الهكارى) وجَمْعِه .

« هذا والسلطان يطوف على الأطلاب [1] بنفسه ، يحثهم على القتال ، ويدعوهم الى النزال ، ويرغبهم فى نصر دين الله .

« ولم يزل القوم (أى الصليبيون) يتقدمون ، والمسلمون يقدمون ، حتى علا النهار ومضى منه أربع ساعات ، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين ، فأخرج لهم الملك المظفر الجاليش ، وجرى بينهم قلبات كثيرة ، وتكاثروا على الملك المظفر — وكان فى طرف الميمنة على البحر — فتراجع عنهم شيئا اطماعا لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضا ؛ فلما رأى السلطان ذلك ، ظن بهم ضعفا وأمده بأطلاب[1] عدة من القلب حتى قوى جانبه ، وتراجعت ميسرة العدو واجتمعت على تل مشرف على البحر .

« ولما رأى (الصليبيون) الذين فى مقابلة القلب ، ضـعف القلب ، ومن خرج منه من الأطلاب ، داخلهم الطمع ، وتحركوا نحو ميمنة القلب ، وحملوا حملة الرجل الواحد ، راجلهم وفارسهم .

« ولقد رأيت الرجّالة (رجالة الصليبيين) تسير سير الخيالة ، وهم يسبقون حينا ، وجاءت الحملة على الديار بكرية — كما شاء الله تعالى — وكان بهم غرة عن الحرب ، فتحركوا بين يدى العدو وانكسروا كسرة عظيمة ، وسرى الأمر حتى انكسر معظم

---

(١) الأطلاب : جمع طلب ، فرقه من الفرسان عددها خمسمائة فارس . (مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٦٩٥) .

الميمنة ، واتبع العدو المنهزمين الى «تل العياضية» ، فانهم استداروا حول التل ، وصعدت طائفة من العدو الى خيمة السلطان فقتلوا طست دار[1] كان هناك ؛ وفى ذلك اليوم استشهد اسماعيل المكبس وابن رواحة ، رحمهما الله .

« وأما الميسرة ، فانها ثبتت لأن الحملة لم تصادفها .

« وأما السلطان ، فأخذ يطوف على الأطلاب فينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ، ويحثهم على الجهاد ، وينادى فيهم : يا للاسلام . ولم يبق معه الا خمسة أنفس ، وهو يطوف على الأطلاب ويخرق الصفوف ، ويأوى تحت التل الذى كان عليه الخيام .

« وأما المنهزمون من العسكر ، فانه بلغت هزيمتهم الى « الفخوانة » — قاطع جسر طبرية — ، وأمّ منهم قوم محروسة دمشق . وأما المتبعون لهم (أى الصليبيين) فانهم اتبعوهم الى العياضية ، فلما رأوهم قد صعدوا الى الجبل رجعوا عنهم ، وجاؤا عائدين الى عسكرهم ، فلقيهم جماعة من الغلمان [2] والخربندية[3]

---

(١) طستدار : لقب فارسى مركب من لفظين ، أحدهما طست: وهو اناء يغسل فيه ، والثانى دار : ومعناه ممسك (صبح الأعشى ، ج ٥/ص ٤٦٩) والمقصود هنا ، الخادم الذى يقوم على غسل يدى السلطان .

(٢) الغلمان : مفرده غلام . وقد أطلق هذا اللفظ على من يقوم بخدمة الخيل . (السلوك ، ج ١/ص ٤٤٠/حاشية ٣) .

(٣) الخربندية : مفردة خربنده . وهو لفظ فارسى معناه : مكارى . (المعجم فى اللغة الفارسية) .

والساسة منهزمين على بغال الحمل ، فقتلوا منهم جماعة ، فان السوق كان عظيما ولهم سلاح .

« وأما الذين صعدوا الى الخيام السلطانية ، فانهم لم يمسوا منها شيئا أصلا ، سوى أنهم قتلوا من ذكرنا ، وهم ثلاثة نفر ، رأوا ميسرة الاسلام ثابتة ، فعلموا أن الكسرة لا تتم ، فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم .

« وأما السلطان ، فانه كان واقفا تحت التل ومعه نفر يسير ، وهو يجمع الناس ليعودوا الى الحملة على العدو ، فلما رأوا الفرنج نازلين من التل ، أرادوا لقاءهم ، فأمرهم بالصبر الى أن ولوا ظهورهم ، واشتدوا يطلبون أصحابهم ، فصاح فى الناس (أى فى الجند) فحملوا عليهم فطرحوا منهم جماعة ، فاشتد الطمع فيهم ، وتكاثر الناس وراءهم فى عدد كثير ، ظنوا أن من حمل منهم قد قتل ، وأنهم انما نجا منهم هذا النفر فقط ، وأن الهزيمة قد عادت عليهم ، فاشتدوا فى الهرب والهزيمة ، وتحركت الميسرة عليهم ، وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة ، وتجمعت الرجال وتداعت ، وتراجع الناس من كل جانب ، وكذب الله الشيطان ، ونصر الايمان ، وظل الناس فى قتل وطرح وضرب وجرح ، الى أن وصل المنهزمون السالمون الى معسكرهم ، فهجم عليهم فى الخيام ، فخرج منهم أطلاب كانوا قد أعدوها خشية من مثل هذا الأمر مستريحة ، فردوا المسلمين ، وكان التعب قد أخذ من الناس (أى الجند) والعرق قد ألجمهم ، فرجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون فى القتلى ودمائهم الى خيامهم فرحين مسرورين .

« وعاد السلطان فى ذلك اليوم الى خيمته فرحا مسرورا ، وجلسوا فى خيمته يتداركون من فقد من الغلمان ، وكان مقدار من فقد من الغلمان المجهولين مائة وخمسين نفرا ، ومن المعروفين، استشهد : ظهير الدين أخو الفقيه عيسى . ولقد رأيته وهو جالس يضحك والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ويقول : هذا يوم الهناء لا يوم العزاء ، وكان هو قد وقع عن فرسه وركبه ، فرأيته وقد قتل عليه جماعة من أقاربه ؛ وقتل فى ذلك اليوم الأمير مجلى . هذا الذى قتل من المسلمين .

« وأما من العدو المخذول ، فحزر قتلاهم بسبعة آلاف نفر ، ورأيتهم وقد حملوهم الى شاطىء النهر ليلقــوا فيه ، فحزرتهم يزيدون عن سبعة آلاف ... »[1] . هذا أهم ما ذكره ابن شداد عن أولى المعارك الكبرى التى دارت بين المسلمين والصليبيين ، وكان لمظفر الدين نصيبه فيها .

أما المعركة الأخرى التى اشترك فيها زين الدين ، أخو مظفر الدين ، فقد كانت فى سنة ٥٨٦ ، وقبل وفاته بقليل . وتترك المؤرخ ابن الأثير يصفها بقلمه وأسلوبه ، حيث يقول تحت عنوان :

(ذكر احراق الابراج ووقعة الأسطول)

« كان الفرنج فى مدة مقامهم على عكا ، قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جدا ؛ طول كل برج منها خمس طبقات ، كل طبقة مملوءة من المقاتلة ، وقد جمع أخشابها من الجزائر ، فان

---

(١) سيرة صلاح الدين ، ص ٩٢ وما بعدها ؛ مفرج الكروب، ج ٢/ص ٢٩٢ وما بعدها .

مثل هذه الأبراج العظيمة لا يصلح لها من الخشب الا القليل النادر ، وغشوها بالجلود والخل والطين والأدوية (أى المواد الكيميائية) التى تمنع النار من احراقها ، وأصلحوا الطرق لها ، وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات ، وزحفوا بها فى العشرين من ربيع الأول ، فأشرفت على السور ، وقاتل من بها من عليه ، فانكشفوا وشرعوا فى طم خندقها ، فأشرف البلد على أن يملك عنوة وقهرا ، فأرسل أهله الى صلاح الدين انسانا سبح فى البحر، فأعلمه ما هم فيه من الضيق ، وما قد أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم ، فركب هو وعساكره ، وتقدموا الى الفرنج وقاتلهم من جميع جهاتهم قتالا عظيما دائما ليشغلهم عن مكاثرة البلد ، فافترق الفرنج فرقتين ، فرقة تقاتل صلاح الدين ، وفرقة تقاتل أهل عكا ، الا أن الأمر قد خف عمّن بالبلد ، ودام القتال ثمانية أيام متتابعة آخرها الثامن والعشرون من الشهر ، وسئم الفريقان القتال ، وملوّا منه لملازمته ليلا ونهارا ، والمسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الأبراج ، فانهم لم يتركوا حيلة الا عملوها فلم يفد ذلك ولم يغن عنهم شيئا ، وتابعوا رمى النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها ، فأيقنوا بالبوار والهلاك ، فأتاهم الله بنصر من عنده ، وأذن فى احراق الأبراج .

« وكان سبب ذلك ، أن انسانا من أهل دمشق كان مولعا بجمع آلات النفاطين وتحصيل عقاقير تقوى عمل النار ، فكان من يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه ، وهو يقول : هذه حالة لم أباشرها بنفسى ، وانما أشتهى معرفتها . وكان بعكا لأمر يريده الله،

فلما رأى الأبراج قد نصبت على عكا ، شرع فى عمل ما يعرفه من الأدوية المقوية للنار بحيث لا يمنعها شىء من الطين والخل وغيرهما، فلما فرغ منها ، حضر عند الأمير قراقوش — وهو المتولى الأمور بعكا والحاكم فيها — وقال له أن يأمر المنجنيقى أن يرمى فى المنجنيق المحاذى لبرج من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه ؛ وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله ، فازداد غيظا بقوله وحرد عليه ، وقال له : قد بالغ أهل هذه الصناعة فى الرمى بالنفط وغيره فلم يفلحوا . فقال له من حضر : لعل الله تعالى قد جعل الفرج على يد هذا ، ولا يضرنا أن نوافقه على قوله : فأجابه الى ذلك وأمر المنجنيقى بامتثال أمره ، فرمى عدة قدور نفطا وأدوية ليس فيها نار ، فكان الفرنج اذا رأوا القدر لا يحرق شيئا يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج ، حتى اذا علم أن الذى ألقاه قد تمكن من البرج ، ألقى قدرا مملوءة وجعل فيها النار ، فاشتعل البرج ، وألقى قدرا ثانية وثالثة فاضطرمت النار فى نواحى البرج ، وأعجزت من فى طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص فاحترق هو ومن فيه ؛ وكان فيه من الزرديات والسلاح شىء كثير ؛ وكان طمع الفرنج بما رأوا أن القدور الأولى لا تعمل يحملهم على الطمأنينة وترك السعى فى الخلاص حتى عجل الله لهم النار فى الدنيا قبل الآخرة .

« فلما احترق البرج الأول ، انتقل الى الثانى — وقد هرب من فيه لخوفهم — فأحرقه ، وكذلك الثالث ؛ وكان يوما مشهودا لم ير الناس مثله ، والمسلمون ينظرون ويفرحون ، وقد أسفرت

وجوههم بعد الكآبة فرحا بالنصر وخلاص المسلمين من القتل ، لأنهم ليس فيهم أحد الا وله فى البلد امّا نسيب واما صديق .

« وحمل ذلك الرجل الى صلاح الدين ، فبذل له الأموال الجزيلة والاقطاع الكثيرة فلم يقبل منه الحبة الفرد ، وقال : انما عملته لله تعالى ، ولا أريد الجزاء الا منه .

« وسيّرت الكتب الى البلاد بالبشائر ، وأرسل يطلب العساكر الشرقية ، فأول من أتاه عماد الدين مودود بن زنكى — وهو صاحب سنجار وديار الجزيرة — ، ثم أتاه علاء الدين ولد عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى ، سيّره أبوه مقدما على عسكره ، وهو صاحب الموصل ؛ ثم وصل زين الدين يوسف صاحب اربل ؛ وكان كل منهم اذا وصل ، يتقدم الى الفرنج بعسكره وينضم اليهم غيرهم ويقاتلونهم ، ثم ينزلون»[1] .

أما موقعة الأسطول ، فاننا نغفل أمرها هنا ، فانها موقعة أخرى ، لم يشترك مظفر الدين أو زين الدين فيها .

وفى شهر شعبان أى فى الشهر الرابع من وصول زين الدين يوسف الى عكا ، مرض زين الدين ومات كما سبق أن ذكرنا ، فآلت اربل بعده الى أخيه مظفر الدين بتقليد من صلاح الدين .

وبولاية مظفر الدين على اربل ، توقف نشاطه فى الميدان الصليبى وقتا ما ، فانه بعد أن توفى زين الدين ، ترك مظفر الدين عكا وسار الى اربل ليتسلمها ، وكان مسيره اليها فى شهر ذى الحجة من السنة (سنة ٥٨٦) ؛ فظل مظفر الدين فى اربل

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٢٠٥ .

يدبر أمورها ويقرر قواعدها ، ويرعى مصالح الناس فيها ، حتى جد في الميدان الصليبي ما اضطر صلاح الدين الى استدعائه بجنده ليعاود الاشتراك في معركة عكا من جديد ، اذ قذفت أوربا بحملتها الصليبية الثالثة بقيادة ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا لاستعادة بيت المقدس الذى استرده صلاح الدين من الصليبيين فى سنة ٥٨٣ ، فتكاثرت القوى على صلاح الدين ، فقد اجتمع عليه ريتشارد بحملته وكذلك الصليبيون المقيمون بالشام ، ومعركة عكا لم تنته بعد ، فأخذ صلاح الدين يستنجد بالملوك والأمراء المسلمين الذين لم يشتركوا معه فى حروبه ، ويرسل لهم الرسائل يعرض لهم فيها حرج موقفه وضغط الصليبيين عليه ، ويحثهم على الاسراع بالحضور اليه ليعاونوه على دفع الخطر الصليبى الجديد عن عكا ، وكان مما كتبه صلاح الدين الى مظفر الدين فى سنة ٥٨٧ ، الكتاب التالى يشرح له فيه ما هو عليه من الضيق ، وما عليه الصليبيون من القوة وشدة البأس ، حتى دب الخوف فى قلوب كثير من مقاتلة عكا فآثروا الفرار ، الأمر الذى زاد من خوف من بقى فى المدينة فعرضوا الصلح على الصليبيين ، فاشتط الصليبيون فى الشروط ، فتراجع المسلمون عن التسليم ، وصمدوا للدفاع والمقاومة . كتب صلاح الدين الى مظفر الدين يقول:

« قد سبقت مكاتبتنا اليه[1] بشرح الأحوال وما نحن عليه من

---

(١) الخطاب موجه الى مظفر الدين . ولم يذكر المرجع الذى نقل عنه هذا الكتاب ولا غيره من المراجع ، الكتاب السابق الذى أرسله صلاح الدين الى مظفر الدين .

رجاء النصر الذى هو متعلق الآمال ، وأن ملوك الفرنج وجموعهم قد وصلوا ونازلوا الثغر واحتلوا ، والآن فان منجنيقاتهم هدته بكثرة الضرب ، وكثرت ثلم السور فى مواضع النقب ، وعظم الخطب واشتدت الحرب ، وأشفى البلد وأشرف ، واشتفى العدو بما فيه وأسرف ، ولما لج العدو فى الزحف ، واستسهل فى التطرق الى البلد طريق الحتف ، ركبنا فى العسكر اليه ، وهجمنا عليه ، لكن بسوره وخندقه محتم ، والى مطمعه البعيد من أمره مرتم ؛ ولما عاين أصحابنا بالبلد ما عليه من الخطر ، وأنهم قد أشفوا على الغرر ، فر من جماعة الأمراء من قل بالله وثوقه ، وأعمى قلبه فجوره وقسوته ، ولقد خانوا المسلمين فى ثغرهم ، وباؤا بوبال غدرهم ، وما قوى طمع العدو فى البلد الا هربهم ، وما أرهب قلوب الباقين من مقاتلته الا رهبهم ، والمقيمون من أصحابنا الكرام ، استحلوا من الحمام ، وأجمعوا أنهم لا يسلمون حتى يقتلوا من الأعداء أضعاف أعدادهم ، وأنهم يبذلون فى صون ثغرهم غاية اجتهادهم ، وكانوا قد تحدثوا مع الفرنج فى التسليم فاشتطوا واشترطوا ، فصبروا بعد ذلك وصابروا ، ومدوا أيديهم فى القوم وبسطوا ، فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من النقوب ، والله تعالى يسهل ما هم فيه من الكروب . ونحن — وان كنا للقوم مضايقين ، وبهم محدقين ، وعلى جموعهم من الجوانب متفرقين — فانهم يقاتلوننا من وراء جدار ، ويعلمون أنهم ان خرجوا الينا فى تبار ، والهجوم على جمعهم مستصعب ممتنع ، والعسكر على مركزهم متألف مجتمع ،

ولله قدر لا يرد ، وقضاء لا يصد ، وسر لا يشارك فى علمه ، وأمر لا يغالب فى حكمه ، وعلى الله قصد السبيل ، وتنجح التأميل ، وتدقيق ألطافه فى دفع الخطب الجليل ، وما توفيقنا الا بالله ، عليه توكلنا وهو نعم الوكيل »[1] .

وكان من المفروض أن يسرع مظفر الدين الى صلاح الدين ليواصل معه عمليات الدفاع عن عكا ، ولكن — لأمر ما — ظل فى اربل ، ولعله كان هناك ما اضطره الى البقاء فى امارته ، كأن يكون مشغولا بتأمين حدود امارته ، أو أن يكون هناك بعض المشاكل قد اعترضته ، ولذلك نرى صلاح الدين يرسل له كتابا آخر يستعجله فيه الحضور اليه ، فقد سقطت عكا فى يد العدو بعد الكفاح الطويل والدفاع المستميت ضد هجمات العدو الهائلة ، فقد كان سقوطها بفعل خيانة بعض النقابين الذين مع حامية المدينة ؛ كتب صلاح الدين الى مظفر الدين :

« قد علم ما دهم المسلمين من العدو الكافر ، والطاغية الحاشد الحاشر ، وأنه ورد فى البحر بكل من للكفر فى البلاد والجزائر ، وما قصده الا بيضة الاسلام وحوزته ، وأن الله تعالى هو الذى تكفل بذلة أعدائه وعزته ، ولا شك أنه عرف ما تم منه على عكاء بعد ذبّنا عنها فى هاتين السنتين ، والمضايقة للفرنج ممن بعكاء ومنا بين الحصارين ، وأنهم كلما دبروا أمرا دمرناه ، وكلما حققوا كيدا أبطلناه ، وكلما قدموا منجنيقا أخرناه وعطلناه ، وكلما ركبّوا برجا أحرقناه ، وكلما كثّفوا حجابا خرقناه ، وكلما أوقدوا

---

(١) الفتح القسى ، ص ٢٧٩ .

نارا للحرب أطفأها الله ، حتى لم يبق لمكرهم مكر ، ولا لكيدهم مجال ، ولم يتسق فى هذه المدة لهم حال ، وقتل منهم فى عـدة دفعات زهاء خمسين ألف مقاتل ، من فارس وراجل ، ولا نشك فى استيعابهم بالردى ، وأن حزب الضلال قد أفناه حزب الهدى ، وحسبنا أنهم بائدون ، فاذا هم زائدون ، وظننا أنهم هالكون ، فاذا هم فى نهج القتال سالكون ، وهم حطب نار الحرب ، وطعم الطعن والضرب ، وكم بذلوا أرواحهم على حب المقبرة ، وحصلوا تحت العجز لزعمهم أنهم يأتون بما فوق المقدرة . ولما دخلت هذه السنة ، أشفقنا على من فى عكا من الأصحاب والأجناد ، وقلنا هؤلاء قد بذلوا فى الجهاد ما كان فى وسعهم من الاجتهاد ، ورأينا أن نجدد للبلد البدل ، وأن نسد ونسدد بما نستأنفه الخلة والخلل، وكان فيه أكثر من عشرة آلاف رجل ، من كل ذمر مشيح[1] وكمى بطل ، فخرج هؤلاء ولم يدخل اليه مثل تلك العدة ، ولم يكن أيضا من دخل بذلك الجد وبتلك الشدة ، فان البحر قبل استكمالها منع راكبه ، وحمى جانبه ، ووصل العدو وعجل مراكبه ، فاكتفى البلد بمن فيه وما فيه كفاية ، واتكل على الله الذى عصمته من كل واقعة وقاية ، وجاءت ملوك الفرنج خلاف كل عام ، فى جد واعتزام ، وجد واهتمام ، وجمع لهام[2] ، ونار تعجلها العدو من جهنمة[3] وضرام ، وغرام بالواقعة وعرام ، واحتداد للحـادثة

(١) ذمرمشيح : الذمر ، اللوم والحض معا. (لسان العرب).
(٢) اللهام : الجيش الكثير وكأنه يلتهم كل شيء . (لسان العرب) .
(٣) جهنمة : الجهنام ، القعر البعيد . (لسان العرب) .

واحتدام ، ورأس واقدام ، وناس وأقوام ، وحشد ملأت بها سفنها ، وأخلت منها مدنها ، ووصل ملكا افرنسيس (فرنسا) وانكتير (انجلترا) وقد أحكما التدبير ، وأجلبا بخيلهما ورجلهما ، وأناخا بكلكلهما ، وبركا بثقلهما ، وزحفا بجهدهما وجهلهما ، ووافوا بكل برج وثيق ، وكل منجنيق كنيق[1] . وكل آلة هائلة ، ودبابة للبلايا حاملة ، ونصبوا ثلاثة عشر منجنيقا على موضع واحد ، وأهبطوا حجارات السور بكل حجر صاعد ، وباشروا الباشورة بالهدم ، والخندق بالصم ، والسور بالنقب والثلم ، وخرج من نقابي البلد من ارتد عن الدين ، وأعان نقابي الملاعين ، حتى وقعت أبدان السور وأبراجه ، وتبادر الى الثلم أعلام الكفر وأعلاجه ، وأصحابنا مع ذلك ثابتون ، ناكبون كابتون ، قد سدوا تلك الثغر بنفوسهم ، وجعلوا حجارات الفرنج وجراحاتها مغافر رءوسهم ، وكشفوا وجوههم لقبل السهام ، وتلفعوا من وقع بيضها بحمر اللثام ، ترشف شفاه الشفار دماءهم ، وتشكر ملائكة السماء سماحهم بالمهج وسخاءهم ، كلما انتظموا مع العدو انتثر ، وكلما نهضوا لتلقيه عثر ، وكلما طلع اليهم ردوه بضربهم ، وكلما اجتمع به فرقوه بطعنهم وضربهم ، وهم يواقعون ويواقحون ، ويكافحون ويلافحون ، وكل قد وقف في موقف الكرام وسل نصله ، وأثبت في مستنقع الموت رجله ، وودع للجنة في لقاء أهل النار أهله ، فخانهم بعض الأمراء الجبناء ، وأخذ للحياة بترك

(١) النيق : أرفع موضع فى الجبل ، والجمع ، نياق .(لسان العرب) .

الحياء ، وفرّ من البلاء الى البلاء ، وحسب النجاة فى النجاء ، وهرب فى بركوس[1] قد أعده لذلك اليوم ، وآثر على جراح السيف جراح السب واللوم ، واستصحب أمثاله واستتبع ، وأبعد فى فراره وأبدع ، وأضعف بضعف قلبه قلوب الباقين ، وأطمع أفاعى الكفر فى نهش الرقين ؛ على أن الأصحاب ، ما آذنوا بالأصحاب ، ولم يقابلوا الضراب بالاضراب ، وما زالوا يواصلون بالقواطع ، ولا يرتاعون للروائع ، ولا يريمون مقام المقامع ، ويطالبون من الأرواح بالودائع ، حتى انتقل القتال من السور الى الدور ، ومن القوارع الى الشوارع ، ودخل العدو المدينة على سلم بالحرب شبيهة ، وأمن أخوف وأخطر من كريهة وقطيعة فظيعة ، كل منّة لها غير مستطيعة ، ولولا ما اتفق بعد قضاء الله من الأسباب الموهنة ، لم تكن عكاء بالممكنة للعدو ولا المذعنة ، وان ذهبت المدينة فالدين لم يذهب ، وان عطبت فالاسلام لم يعطب ، وان ملكت واحتلت فما اختل الملك ، وان سلكت ووهنت فما وهى السلك ، وانما نبه الله بها العزائم الراقدة ، وأجرى مياه الهمم الراكدة ، وبعث الحميات الناعسة ، وحرك النخوات المتنافسة ، وكما أظهر عجزنا عن قدرته وقدره ، سيظهر عزنا بنصرته وظفره ، ونحن الى الآن كما كنا محدقون بخنادقهم ، آخذون بمخانقهم ، نوسعهم بالردى فى مضايقهم ، ونجذبهم فى كل يوم الى مصارعهم،

---

(١) البركوس : مركب صغير يستعمل فى الاغارة على السفن الكبيرة فى البحر . (سيرة صلاح الدين ، ص ١٤٠/١٤١/١٤٤).

ونكدر بعلق نجيعهم صفو مشاربهم ومشارعهم [1] ، فما خرج منهم من دخــل ، وما انقطـع الا من وصــل ، وما أصــحر الا من ندبه عريسه وعرسه ، وما برز الا من واراه من بطــون الخوامع رمسه ، فهم مقيمون لا يريمون مخيمهم ، ولا يرومون أن يهجروا مجثمهم ، وما أنسوا بمرابض المضارب الا لنفرتهم من مضارب القواضب [2] ، وهم مع ذلك يرجفون تارة بالخروج الى المصــاف ، وآونة بالنهوض الى بعض الأطراف ، وفى كلا القصدين ان شاء الله دمارهم المعجل ، وبوارهم المؤمل ، فانا نعترضهم أين واجهوا ، ونواجههم أين اعترضوا ، ونعثرهم أين نهضوا ، ونثيرهم للموت أين ربضوا ، وربما غرتهم عكاء فطمحوا وطمعوا ، واتفقوا على المصاف واجتمعوا ، ووقعوا على نار الحرب وقوع الفراش ، وتعوضوا مصارع أمثالهم والثرى لهم وثير الفراش ، فان برز العدو فالمنون له بارزة ، والعزائم له مناجزة ، والعساكر الاسلامية اليه وعليه زاحفة حافزة ، والمجلس [3] أولى من ينتخى ويحتمى ، والى هذا المرام من قهر الكفر يرتمى وينتمى ، ويصل بجمعه اللهام الملتهم ، وبجمره الملتهب المضطرم ، وبمجره

---

(١) المشارع : المواضع التى ينحدر الماء منها . والمشرعة ، مورد الشاربة التى يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون . (لسان العرب) .

(٢) القواضب : القضيب من الســيف ، اللطيف الدقيق . (لسان العرب)

(٣) المجلس : لفظ يقصد به تعظيم المخاطب ، وهو هنا يعنى مظفر الدين (انظر عن معنى اللفظ وأصله وتطور استعماله ، صبح الأعشى ، جـ ٥/ص ٤٩٦)

المحتد المحتدم ، وبفيلقه الفالق ، ترائك العدا السافك السابك، فى نار الوغى سبائك الظبا ، الحاص الحاصد بحدود الشفار سنابل الطلى ، وهو لا شك ينهض ويستنهض من وراءه ، ويستدعى من اذا ناداه أجابه وجاءه »[1] .

ومرة أخرى يتقاعس مظفر الدين عن تلبية نداء صلاح الدين، فأرسل اليه رسالة ثالثة يحثه فيها على سرعة الحضور اليه ، فانه بعد أن سقطت عكا فى أيدى الصليبيين استفحل خطرهم ، فقد بعث سقوطها فى أيديهم الحماس لاسترداد جميع البلاد التى كانت لهم وأخذها منهم ، بل انهم تطلعوا الى أكثر من هذا ، انهم على عزم الاستيلاء على ما لم يكن لهم من البلاد . قال صلاح الدين لمظفر الدين فى رسالته له :

« ولما فرغ العدو من شغل عكاء حسب أن كل بيضاء شحمة، وأن كل سواد فحمة ، فرحل على صوب حيفا واقعا فى حيفه ، باحثا عن حتفه بظلفه ، زاعما أنه على قصد عسقلان خذله الله وخيبه فى قصده وزعمه ، وهو حاصل منا على صدره ورغمه ؛ وكان رحيلهم مستهل شعبان وملك انكتير (انجلترا) قائدهم الى البوار ، ووافد أهل النار الى النار ، ولقيناهم من بواترنا بواتر التبار ، وقد رحلنا فى عراضهم لاعتراضهم ، وتعثيرهم فى طريق انتهاضهم ، ولقوا يوم رحيلهم من اليزكية [2] كل نكاية فيهم شديدة ، وكل روعة لهم مبيدة ، فانهم قطعوا ساقة العدو عن

(١) الفتح القسى ، ص ٢٨٧ – ٢٩٠ .
(٢) اليزك : لفظ فارسى معناه : الطلائع .

اللحاق بمقدمته ، وفلوا عن الحدة فى الحركة حد عزمته ، وقتلوا خيلا وخيالة ، وفوارس ورجالة ، وقدروا وتمكنوا ، وجرحوا فأثخنوا ، ونهبوا وسلبوا ، وأخذوا رءوسا قطعوها ، ووقدوا نفوسا قلعوها ، وغنموا أقمشة وأسلحة ، وحصلوا من اللاحقين بهم قوادم وأجنحة ، ونزلوا على نهر حيفا وقد تم عليهم الحيف ، وتحكم فى فلهم السيف ، فأقاموا الى هذه الغاية لمداواة جريحهم ومواراة طريحهم ، واراحة طليحهم [1] ، واثارة ماركد من ريحهم ، وقد رحلنا وسبقناهم الى طريقهم ، عازمين على تبديدهم وتفريقهم ، وتشتيتهم أيدى سبا وتمزيقهم ، فقد تمكنت بتأييد الله الأيدى من سبيهم وقتلهم ، والله يجمع شملنا لتفريق شملهم ، وما يجدده الله لنا بعد هذا اليوم من غبطة ، ولأعدائنا من عبطه ، الا ونبادر ببشراه الى المجلس لتقوى فى نصرتنا عزيمته ، وتشيم بارق التوفيق فى مواقفنا شيمته ، وتروض مواحل الآمال مع أوان الديمة[2] الربيعية ديمته ، ويغلو فى سوق رواجه من الدين ما ظن أنه رخصت قيمته ، وكيف لا يأخذ ذلك الكريم بثأر الاسلام وقد سبيت من عكاء كريمته ، واذا تأمل عرف أن الخطب عظيم ، وما لدفعه الا العظيم ، والهم مقيم وما لرفعه الا بأسه المقعد المقيم ، وسيقتضى دين هذا الدين الفريم [3] الزعيم » [4] .

---

(١) الطليح : الطلح ، الاعياء والسقوط (لسان العرب) .

(٢) الديمة : المطر الذى ليس فيه رعد ولا برق . ويقال ، انه المطر الدائم . (لسان العرب) .

(٣) الفريم : المفرم من الحياض ، المملوء بالماء . (لسان العرب).

(٤) الفتح القسى : ص ٢٩٧ — ٢٩٨ .

وهنا لم يجد مظفر الدين بدا من أن يترك ولايته ، ويغذ السير مجدا بجيشه الى صلاح الدين ، فان الموقف أصبح من الخطر بمكان ، وان بلاد الشام يكاد أن يلتهمها الصليبيون من جديد ، فقد انتابتهم حمى من الحماس بحيث أصبحوا يهددون الشام كله ، فالواجب يقتضيه اذن ، أن يهمل كل شيء الا أمر الجهاد ، فجمع جيشه وأعده للقتال ، ثم خرج به من اربل الى صلاح الدين وانضم اليه ، واشترك معه فى جميع المعارك التى خاضها مع العدو ، حتى تم الصلح بين صلاح الدين وريتشارد ملك انجلترا فى شهر شعبان سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) . واذا كانت أخبار المعارك لا تشير صراحة الى اسم مظفر الدين ، الا أنه من المؤكد أنه اشترك فيها ، بدليل قول ابن شداد ، انه بعد أن تم الصلح ، سمح صلاح الدين للجيوش المساعدة له بالعودة الى بلادها ، فكان أول من عاد الى بلاده من الجيوش جيش اربل ، فانه عاد فى مستهل شهر رمضان من السنة [١] .

وكانت عودة مظفر الدين الى بلاده آخر عهده بالحروب الصليبية ، فان صلاح الدين قد مات فى شهر صفر سنة ٥٨٩ ، فخلفه أولاده واخوته وأبناء أسرته ، فكانوا أقل حماسة من صلاح الدين فى جهاد الصليبيين ، فقد جرفتهم المنازعات الأسرية من أجل الملك والزعامة ، فلم يجد مظفر الدين مجالا للجهاد ، ومن ناحية آخرى ، دخل مظفر الدين فى مشاكل مع الموصل ومع الأيوبيين ، وهى المشاكل التى عرضنا تفاصيلها فى الفصل السابق.

---

(١) سيرة صلاح الدين ، ص ٢٣٩ .

الفصل السابع
مآثر مظفر الدين

ذكرنا فيما سبق ، أن العالم الاسلامى فقد وحدته السياسية والادارية منذ العصر العباسي الثانى أى منذ أوائل القرن الثالث ، فأصبح عبارة عن وحدات اقليمية كبيرة لكل اقليم حكومته وسياسته وادارته . وذكرنا أيضا أن هذه الوحدات الاقليمية تفككت بدورها الى دويلات مدينية منذ وفاة السلطان ملكشاه السلجوقى فى أواخر القرن الخامس ، وان دل هذا التفكك على شيء فانما يدل على اضطراب سياسى كبير ، وهذا الاضطراب السياسى هو الذى يميز تاريخنا العربى ، وبالتالى هو وحده الذى يحظى باهتمام المهتمين بالدراسات الاسلامية العربية ، باعتباره شرا مستطيرا أصاب العالم الاسلامى حتى أودى به ، مهملين الى حد كبير دراسة الجوانب الأخرى من تاريخنا ، كالجوانب الاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية ، كأن ليس فى تاريخنا على طوله ، الا الجانب السياسى وحده .

ذلك أنه بالرغم من هذا التجزيء السياسى ، وفوضى الحروب التى كان يثيرها الحكام فيما بينهم من أجل الغلبة وتوسيع رقعة

وحداتهم على حساب بعضهم البعض ، نجد هؤلاء الحكام أنفسهم يهتمون اهتماما يبلغ حد الروعة بمجتمعاتهم ، ويقدمون أجل الخدمات لشعوبهم ، هذه الخدمات التى تتمثل فى الانشاء والتعمير ، واقامة المدارس ، وبناء المستشفيات والملاجىء ، ونشر العلم وتشجيع العلماء ، والاهتمام بالزراعة والتجارة والصناعة ، كل حاكم يقدم خدماته لشعبه بحسب فهمه لمهمته كحاكم ، وبحسب امكانيات دويلته ، وهذه حقيقة يسجلها الواقع التاريخى ، ولكن هذه الحقيقة ضائعة فى كتب القدماء بين خضم الأحداث السياسية والحربية التى اهتموا بتسجيلها أكثر مما اهتموا بغيرها ؛ ومع ذلك ، فانه من الممكن بشىء من الجهد ، استخلاص مادة طيبة عن الجوانب الأخرى من تاريخنا من بين أخبار السياسة والحروب .

ومظفر الدين كوكبورى ، صاحب هذه السيرة ، واحد من هؤلاء الحكام الذين انغمسوا الى حد كبير — كما رأينا فى الفصل السابق — فى السياسة والحروب ، ومع ذلك لم يهمل الشعب الذى كان يحكمه ، وانما تعرف على احتياجات الشعب فقدمها له ، ولم يهمل احتياجات مجتمعه ، فاهتم بالانشاء والتعمير ، كما اهتم بنشر العلم ، كذلك اهتم بالناحية الصحية ، فأنشأ مستشفى — أو كما كانت تسمى فى ذلك العصر بيمارستانا — جعلها دورا وملاجىء للمرضى والأيتام واللقطاء والأرامل ورصد لهم الأموال الضخمة ، ومد يد المعونة لكل فقير ومحتاج ، بل تعدى بره الى المسلمين عامة ، فبنى دارا للضيافة فى اربل ، وفتح أبوابها لكل وافد الى مدينته أو عابر سبيل ، يقيم فيها ما شاء له

أن يقيم يتناول فيها طعامه وشرابه بلا مقابل ، حتى كان عصره أبهى عصور مدينة أربل وأزهاها .

ولم يكن مظفر الدين وحده من بين الحكام الصغار الذى قام بهذه المآثر ، وانما كان هناك غيره كثيرون ، يستحق كل منهم أن يؤلف له كتابا منفردا فى هذه الناحية ، ونحن نذكر هنا — على سبيل المثال — قرينا لمظفر الدين قدم من الخدمات الاجتماعية لشعبه يقرب مما قدمه مظفر الدين ، هو بدر بن حسنويه الكردى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) ، وكان حاكما على اقليم الجبل ، فقد رصد هذا الرجل الأموال الطائلة ووضعها لخدمة شعبه والتفريج عن ذوى الحاجة منهم . من ذلك أنه كان يوزع فى كل أسبوع ، عشرين ألف درهم على الفقراء والأرامل .

وعشرين ألف درهم كل شهر لتكفين الموتى من الفقراء .

وثلاثة آلاف دينار فى كل سنة ، يدفعها الى الحدادين والحذائين لاصلاح أحذية من يفدون على بلاده واصلاح نعال دوابهم **بلا مقابل** .

وكان يرسل كل سنة مائة ألف دينار الى فقراء الحرمين الشريفين : مكة والمدينة .

وعمّر من المساجد والخانات ما ينيف على ألف مسجد وخان .

وكان اذا مرّ فى طريقه وأسفاره بمكان فيه عين ماء أقام عنده قرية .

هذا فضلا عما كان يصرفه ويرتبه من الجرايات والنفقات

والصدقات والبر والصلات على مختلف طبقاتهم ومشاربهم [١] .

فمن سير الحكام ، سواء كانوا خلفاء ، أو سلاطين ، أو ملوكا ، أو أمراء ، يستطيع الباحث أن يستخرج منها مادة طيبة لجميع الجوانب الانسانية والعمرانية والعلمية وغيرها من الجوانب وابرازها ، فتخفف الى حد كبير ، الظلام الدامس الذى يرين على تاريخنا السياسى .

وقد تضافرت عدة عوامل على تكوين مظفر الدين تكوينا طيبا كحاكم مستنير عرف احتياجات بلده وشعبه فنفذها ، وأهم هذه العوامل ، ثلاثة :

أولا : ثقافته الدينية .

ثانيا : سيرة والده .

ثالثا : ما شاهده بنفسه من مظاهر الحضارة فى الموصل وحلب ودمشق .

وفيما يختص بالعامل الأول ، وهو ثقافته الدينية ، فان مظفر الدين — كما سبق أن ذكرنا أثناء حديثنا عن نشأته — نال قسطا من التعليم الأولى تحت اشراف مجاهد الدين قايماز ، وأنه استمر فى التحصيل بعد أن أصبح أميرا على اربل بعد وفاة والده ، كذلك استمر فى التحصيل بعد عزله من الامارة واستقراره فى حران ، وقد استنتجنا مواصلة تحصيله للعلم مما عرف عنه بعد عودته الى الامارة على اربل من اهتمامه بمجالسة العلماء والفقهاء والمحدثين ، وبما ذكره عنه ابن خلكان من أنه « كان يميل الى

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١١/ص ٣٥٣ .

علم التاريخ وأن على خاطره شيء منه »[1] . ومعنى هذا أن مظفر الدين نشأ نشأة دينية فى اطارها العام ، وهـذه النشأة جعلت مظفر الدين يفهم حقيقة مهمته كحاكم ، وفهم أن الحاكم ليس مجرد رجل متسلط يُخضع الناس لحكمه ثم يستغلهم لمصالحه الخاصة ومنافعه الذاتية ، وانما يجب أن يكون الحاكم كما أمر الله ورسوله أن يكون ، أن يكون خادما أمينا لمن يحكمهم ، يرعى شئونهم ، ويحكم بينهم بالعدل ، وييسر لهم سبل المعيشة الحرة الكريمة ، وقد تأثر مظفر الدين فى هذا المفهوم الواضح بالقرآن الكريم والحديث الشريف اللذين يحضان الحاكم على الرفق بالرعية ورعاية مصالحهم ، واجراء العدل بينهم .

وأما فيما يختص بالعامل الثانى ، وهو سيرة والده ، فان مظفر الدين لاشك قد تأثر بالسيرة الطيبة التى تركها والده . فقد عرفنا من حديثنا عن والد مظفر الدين أنه فضلا عن أنه كان رجل حرب وقتال ، كان أيضا رجل سياسة وادارة ، وأن سيرته بين الناس — وبخاصة فى الموصل — كانت طيبة عطـرة . كذلك ذكرنا خدماته التى قدمها لشعب الموصل ، كاعتنائه بالزراعة باقامتـه الجسور والقناطر على الأنهار ومجارى الماء ، ومساهمته فى نشر العلم بانشائه عدة مدارس وجوامع وربط وخانقاهات[2] . فليس

(١) وفيات الأعيان ج ٣/ص ٢٧٥ .

(٢) خانقاهات : جمع خانقاه ، وهو لفظ فارسى معناه : البيت. ثم خصص اللفظ للمكان الذى يقيم فيه الصوفيه للعبادة . (السلوك، ج ١/ص ١٨٢/حاشية ٤ — تحقيق الدكتور زيادة) .

من شك فى أن مظفر الدين كان يتردد على الموصل باستمرار حين كان مقيما فى حران ، فشاهد بنفسه آثار والده فأعجب بها ، وليس من شك أيضا فى أنه كان يسمع أهل الموصل وهم يتحدثون عن أبيه بالاطراء والحمد لحسن سيرته فيهم . وما من شك كذلك، فى أنه اجتمع بالعلماء والفقهاء الذين كانت لهم صلة بوالده ، وعرف منهم ما كان يقدمه لهم من تكريم وتقدير أدبى ومادى، أقول، ليس من شك فى أن سيرة أبيه كما عرفها مظفر الدين ، كان لها الأثر الكبير فى اعداده للحكم الصالح .

وأما العامل الثالث ، وهو ما شاهده من مظاهر الحضارة فى الموصل والشام ، فالأمر المقطوع به أن مظفر الدين كان يتنقل بين الموصل وعواصم الشام وحلب ودمشق . وقد قلنا فيما سبق أن مظفر الدين تأثر بما خلفه والده من آثار وبما سمعه من سيرته الطيبة فى الموصل ، واذا كان مظفر الدين قد انعكست عليه أعمال والده وسيرته ، فقد انعكست عليه أيضا مظاهر الحضارة الشاملة فى الموصل نتيجة تضافر ملوكها وأثريائها وكبـار موظفيها فى الخدمات التى أدوها للمدينة ولأهلها ، كذلك شاهد دور العلم من مدارس ومساجد يتحلق فيها الأساتذة والمدرسون من فقهاء ومحدثين ولغويين يلقون دروسهم على طلبة العلم . وليس من شك أيضا فى أن مظفر الدين كان يرتاد المجالس العلمية والأدبية التى كانت تعقد فى قصور ودور المثقفين من علماء وفقهاء ومحدثين وأدباء ، فيحضر مساجلاتهم ومناظراتهم ، فمن المعقول اذن ، القول

بأن مظفر الدين تأثر بما رآه بنفسه فى الموصل ، فوجهه هذا التأثير الوجهة الصالحة .

وما يقال عن أثر الموصل فى مظفر الدين يقال أيضا عن أثر حلب ودمشق فيه . فقد كانت حلب ودمشق يحكمهما الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى حتى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) . وكان نور الدين رجل حرب وقتال وفى نفس الوقت كان حاكما سياسيا مستنيرا ، وكان أيضا ذا ثقافة دينية عميقة ، فكان يجالس العلماء والفقهاء والمحدثين ، وكان يهتم بالحديث بصفة خاصة حتى أنه بنى أول دار للحديث فى دمشق ويقال انها أول دار حديث بنيت فى الاسلام . وكان نور الدين مهتما أيضا بنشر العلم بين أفراد شعبه حتى أنه اهتم بالأطفال الأيتام فأنشأ لهم المكاتب ليتلقوا فيما علومهم الأولى ، كما أنشأ المدارس لطلاب العلم فى كل من دمشق وحلب ، كذلك اهتم نور الدين بالجوانب الأخرى ، كالزراعة ، والتجارة وغيرها ، بالاضافة الى ما كان يبر به فقراء شعبه فكان لا يضن عليهم بالمال . فكان مظفر الدين حين يتنقل بين العاصمتين حلب ودمشق — بعد أن التحق بخدمة صلاح الدين — يرى آثار نور الدين الانشائية ويسمع من الناس ما كان عليه من حسن السيرة وعدالة الحكم فتهزه هزا وتحرك عواطفه وتلقنه الدروس النافعة فى حالة ما اذا عاد حاكما على بلاده.

ثم عاصر مظفر الدين ، صلاح الدين الأيوبى وعمل معه واتصل به عن قرب ، ولمس بنفسه عدالة حكمه ، وحسن معاملته

للناس ، وبره بالفقراء ورعايته لهم ، وتشجيعه العلماء وتقريبهم اليـه .

بكل هذا تأثر مظفر الدين عقلا وروحا ، فخلقت منه هذه المؤثرات حاكما مستنيرا مصلحا ، يعرف احتياجات شعبه بعد أن عاد الى امارته ، فلم يضن عليهم بها ؛ وها نحن بسبيل تبيان مآثر مظفر الدين التى يتحدث عنها التاريخ الاجتماعى العربى لمدينة اربل .

وقبل أن نتحدث عن الخدمات التى أداها مظفر الدين لمدينته اربل وسكانها فى الانشاء والتعمير ، نذكر نبذة عن جغرافية اربل وتاريخها القديم .

فمدينة اربل قديمة قدم التاريخ ، واسمها القديم يرد فى دائرة المعارف البريطانية « أربلا » bela ، وانها اتخذت هذا الاسم عن معركة حدثت سنة ٣٣١ قبل الميلاد بين الاسـكندر الأكبر وداريوس كودومانوس (١) .

وأما فى دائرة المعارف الاسلامية ، فان اسمها القديم — كما هو مذكور فى النقوش البابلية الأشورية المكتوبة بالخط المسمارى — هو « أربيلو » ؛ أما اسمها فى النقوش الفارسية القـديمة المكتوبة بالخط المسمارى أيضا ، فهو « أربيرا » ؛ وتتفق الدائرة مع دائرة المعارف البريطانية ، فى أن اسمها « أربلا » منذ أن حدثت وقعة الاسكندر الأكبر (٢) .

(١) Encyclopaedie Briiannica. Vol ، II, p. 223.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : اربل .

أما فى العصر الاسلامى ، فهى معروفة باسم « اربل » ، وقد وردت عند الجغرافيين والمؤرخين المسلمين بهذا الاسم والنطق . فقد جاء اسم المدينة فى معجم البلدان لياقوت ، مشكولا هكذا : إِرْبِلْ، ثم يضبط الاسم بالحروف فيقول : بالكسر ، ثم السكون، وباء موحدة مكسورة ، ولام .

وقد جرت عادة المؤرخين والجغرافيين المسلمين فى الحرص على ارجاع تسمية الأماكن والأشياء الى أصول وأسباب ، لذلك نرى ياقوتا يعرض رأى كل من الجغرافيين الأصمعى والفراء فى سبب تسمية المدينة بهذا الاسم . فأما الأصمعى فانه يقول : اذا كان الاسم عربيا ، فهو مشتق من الربل ، وهو ضرب من الشجر اذا برد الزمان عليه وأدبر الصيف تفطّر بورق أخضر من غير مطر، يقال : تربلت الأرض ، أى لا يزال بهاربل ، وعلى هذا فيجوز أن تكون « اربل » مشتقة من ذلك . وأما الفراء فانه يقول : الريبال، النبات الكثير الملتف الطويل ، فيجوز أن تكون هذه الأرض ، اتفق فيها فى بعض الأعوام من الخصب وسعة النبت ما دعاهم الى تسميتها بذلك ، ثم استمر ، كما فعلوا بأسماء الشهور ، فانهم سموا كل شهر بما اتفق فيه فى فصله من حــر أو برد ، فسقط (صقيع) جمادى فى شدة البرد وجمود المياه ، والربيعان فى أيام الصيف ، وصفر حيث صفرت الأرض من الخيرات ، وكان تسميتها لذلك فى أزمنة متباعدة ولم يكن فى عام واحد ، ولو كان فى عام واحد ، كان من المحال أن يجىء جمادى — وهم يريدون به جمود

الماء وشدة البرد — بعد الربيع ، ثم تغيرت الأزمنة ولزمها ذلك الاسم [1] .

أما المؤرخون القدامى ، فقد ذكروها أيضا بهذا الاسم « اربل » ، ذكرها ابن الأثير فى كتابه « الكامل فى التاريخ » وابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية فى التاريخ » ، وابن خلدون فى تاريخه وغيرهم . وينطقها أهل العراق اليوم ، « اربيل » .

ويقوم اقليم اربل على هضبة صناعية خصبة شبه مستوية ، بينما تقوم مدينة اربل ذاتها على تل مرتفع واسع فى الهضبة[2] .

وتقع الهضبة بين نهرى الزاب الصغير والكبير ، وهما نهران فى الطريق الممتد من الموصل الى بغداد ، حيث ملتقى الطريقين الآتيين من المرتفعات الايرانية [3] .

وتتوسط اربل كلا من مدينتى الموصل وبغداد ، ولكنها الى الموصل أقرب ، فهى تقع فى الجنوب الشرقى منها ، وبينها وبين الموصل حسب التقدير العربى القديم مسيرة يومين ، أو ما يساوى ٨٠ كيلو مترا من مقاييسنا اليوم ، وبينها وبين بغداد مسيرة سبعة أيام للقوافل [4] .

ويحد مدينة اربل من الشمال جبل الأكراد ، ومن غربيها جبل « دميرداغ » ويبلغ ارتفاعه ١٦٠٠ قدم ، ومن الشرق والشمال

---

(١) معجم البلدان ، مادة اربل .
(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : اربل .
(٣) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : اربل .
(٤) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : اربل .

الشرقى « درددوان داغ » ، ومن الجنوب « زرجزوان داغ » ، ومن الجنوب الغربى سهل « شمملك » المنخفض الذى يمتد الى نهر الزاب الكبير [1] . فعلى ذلك كان اقليم اربل قديما عبارة عن حوض خصيب تأتيه المياه من الجبال الأربع المحيطة به ، ويستتبع ذلك وجود مياه كثيرة وأشجار وزروع ، وهـذا ما يؤيد قول الفراء ، ثم ان هذا الحوض ليس مقفلا بهذه الجبال ، لأنها تنخفض فى بعض الجهات ، فاستخدمت هذه الانخفاضات كممرات الى اربل ، ومن هنا لابد أن تكون المدينة بحكم موقعها وخصبها ملتقى لطرق كثيرة ، وأهمها السهل الذى يجعل المرور بينها وبين الموصل أكثر تيسيرا .

ولهذا كانت مدينة اربل ملتقى لعدة طرق للقوافل ، فهى محطة تجارية هامة ، فطريق القوافل القديم بدأ فى بغداد مارا بكركوك ، ومن « ألتن كوپرو » الى اربل فالموصل ، وهى أقرب الطرق بين بغداد والموصل ، وكان نفس هذا الطريق فيما مضى يربط بابل بمدينة نينوى مارا باربل ، ويتفرع من اربل طريقـان يتجهان نحو الشرق والشمال ، ويخترقان ممرات جبلية وعرة ، وينتهيان الى أذربيجان ، ويمر الأول براوندوز فى الشمال الشرقى ، والآخر بسنجق خوى فى الشرق [2] .

وكانت اربل فى العصر الذى نتحدث فيـه عنها ، أى عصر مظفر الدين أو ما قبله ، كانت من الناحية الزراعية أقل خصبا مما

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : أربل .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : اربل .

كانت فى القديم ، فان الأشجار فيها منعــدمة فهى محرومة من البساتين ، ولذلك تجلب فواكهها من البلاد المجاورة لها ؛ الا أن أرضها صالحة لزراعة الحنطة ، وتنجح فيها زراعة القطن ويغزل فى المدينة ، ولقد امتدح الجغرافى الفارسى حمد الله مستوفى القطن الذى يزرع فيها فى مصنفه الجغرافى « نزهة القلوب » ، وهو — أى الكتاب — باللغة الفارسية ، وتعتمد الزراعة فى الرى على المياه الجوفية ، وذلك لأنه لا يوجد فى اربل نهر يجرى طول العام ، وانما الماء يأتيها عن طريق الأمطار فى الشتاء فقط ، فينساب فى السهل عدة نهيرات تملأ القنوات ، ثم تجف النهيرات بعد ذلك (١) .

* * *

وترجع أهمية اربل فى تاريخها القديم — كما جاء فى دائرة المعارف الاسلامية — الى أنها كانت فى عصر الأكمينيين (٢) مقر معبد مشهور للاله عشتروت ، وكان هذا المعبد بمثـابة الكعبة الدينية لبلاد أشور ، وبمثابة مدينة « دلفى » بالنسبة لبــلاد اليونان الوثنية ؛ على أنها اشتهرت كذلك آنئذ بأنها كانت ملتقى طرق القوافل ، ولم تنفرد دون مدن أشور المشهورة كلها ببقائها وبقاء اسمها محفوظا على مر العصور الى الآن ، الا بفضل موقعها الممتاز الذى جعلها مركزا لطرق القوافل .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة أربل ؛ معجم البلدان ، مادة اربل .

(٢) بدأ حكم الاكمينيين فى سنة ٥٥٣ ق.م. (ايران ماضيها وحاضرها ، ص ٢٩) .

ومدينة اربل ، التى تقع بين نهرى الزاب ، هى منذ القدم قصبة هذا الاقليم الذى يحده من الشمال والجنوب هذان النهران . وكان هذا الاقليم يسمى قديما باسم العاصمة ، فكان يقال له « أربليتس » Arbilitis ، أى اقليم اربل ، ثم أطلق عليه فى العصر العربى اسم اقليم الزابين . وأصل هذه التسمية هى « أديابين » Adiabene (بالدال المهملة التى انقلبت الى زاى معجمة) وهو نفس الاقليم الذى سماه الجغرافيون العرب ، أرض اربل .

وفى النصف الأخير من القرن الثانى قبل الميلاد ، قامت هناك مملكة صغيرة استطاعت أن تحتفظ باستغلالها طيلة حكم الاشكانيين[1] ، كما أنه حكمها ابان حكم الساسانيين [2] حكام استطاعوا أن يستقلوا بحكمها فى فترات متفاوتة ، منهم « قروغ » الذى اتخذ حصن « ملقى » القريب من اربل مقرا له ، والذى مات شهيدا عام ٣٥٨ م ، ابان حكم سابور الثانى [3] بسبب اعتناقه المسيحية [4] .

* * *

---

(١) ويعرفون أيضا بالبارثيين ، وقد حكموا من سنة ٢٤٨ ق٠م الى سنة ٢١١ م ٠ (ايران ماضيها وحاضرها ، ص ٣٨) ٠

(٢) امتد حكمهم من سنة ٢١١ م حتى سنه ٦٣٦ م (ايران ماضيها وحاضرها ، ص ٤١) ٠

(٣) اعتلى عرش فارس فى سنة ٣١٠ م، واستمر حكمه ٦٩ سنة. (ايران ماضيها وحاضرها ، ص ٤٢) ٠

(٤) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : أربل ٠

وقد دخلت اربل فى المسيحية منذ العصر المسيحى الأول ، ثم أصبحت مركزا لحركة تنصير اقليم أديابين والأقاليم المجاورة له ، فقد أسست بها أسقفية منذ عصر متقدم ، ولم تشمل هذه الأسقفية أول الأمر الا الاقليم المحصور بين الزابين ، ومن ثم أطلق عليه أهل الشام أسقفية (حِـدْيَـبْ) أو أسقفية اربل أو « حَزّة » (وهى قرية قرب الموصل) باعتبار أن هاتين المدينتين هما مقر الأسقفية[1].

وفى بداية القرن الخامس الميلادى ، صارت اربل بطريركية ترجع اليها أشور الحقيقية بأكملها ، ولم تنفصل عن هذه البطريركية أسقفية نينوى أو أشور الا فى عهد متأخر ، لتصير بدورها أسقفية مستقلة [2].

* * *

ثم دخلت اربل تحت الحكم الاسلامى منذ أن فتح المسلمون العراق وفارس فى فتوحاتهم الأولى ، وظلت على اسلاميتها وعروبتها الى اليوم .

* * *

وسكان هضبة اقليم اربل كلهم أكراد ، تنتشر قراهم على سطح الهضبة ، وقد استعربوا منذ أن اتخذوا الاسلام دينا واتصلوا بالعرب ، وسكان اربل ذاتها أكثرهم من الأكراد من قبيلتى الهذبانية والحكمية بالذات ، وكانت هاتان القبيلتان

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة اربل .
(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة اربل .

تتنازعان السيادة على المدينة منذ القرن العاشر الميلادى[1] (القرن الرابع الهجرى) .

ويمتاز الأكراد بصفة عامة بأنهم رجال حرب وأحلاس قتال ، ظهر منهم أبطال خدموا الاسلام خدمات جلى فى ميادين الحرب وغيرها ، وما تزال سيرة صلاح الدين الأيوبى ، الكردى الأصل ، المستعرب ، يرددها الناس الى يومنا هذا .

وليس من شك فى أن مظفر الدين اصطنع جيشه الذى حارب به الصليبيين من هؤلاء الأكراد .

غير أن الأكراد يتصفون بكثرة الشغب على الحكام ، أو على السلطان كما يقول مسعر بن مهلهل الأديب ، حيث ينقل ياقوت عنه عند تعريفه بمدينة شهر زور ، أن أهلها « عصاة قد استطعموا الخلاف واستعذبوا العصيان » ، وكان مسعر يسبق ياقوت فى الزمن ، ولذلك يقول ياقوت : « هذا آخر كلام مسعر وليس الآن على ما ذكر وانما نذكر هذا ليعرف تقلب الزمان بأهله وما يصنع الحدثان فى ادارة حوادثه ونقله ، فان هذه البلاد اليوم فى طاعة مظفر الدين كوكبورى بن على صاحب اربل على أحسن طاعة » [2] ..

* * *

ومن آثار اربل الاسلامية القديمة ، مسجد يطلق عليه اسم مسجد « الكف » ، وقد أطلق هذا الاسم لوجود حجر فيه عليه

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة اربل .
(٢) معجم البلدان : مادة ، شهرزور .

كف انسان ، ويقال ان هذا الكف هو كف الخليفة الرابع على بن أبى طالب ، ولكن هذا التعليل باطل ، حيث توجد مساجد كثيرة فى العراق وفارس على أحجارها مثل هذا الكف [1] . ومع ذلك ، فان المساجد التى تتبارك بالكف ليست كلها شيعية ، لأن مسجد الكف القريب من بغداد ، كان مسجدا سنيا ، أنشىء لكى يضارع مسجد براثا الشيعى .

* * *

ثم دخلت اربل تحت حكم أسرة بنى بكتكين : زين الدين على — رأس الأسرة — وزين الدين يوسف ، ومظفر الدين كوكبورى ، فماذا حدث للمدينة بعد أن دخلت فى حكمهم ؟

أما أيام زين الدين على ، فليس هناك ما يشير الى أن له أثراً فى الانشاء والتعمير فى المدينة ، ولعل يده لم تمتد بالاصلاح فيها بسبب بعده عنها وقضاء حياته كلها فى مدينة الموصل حيث كان يقوم على خدمة ملوكها كما ذكرنا — ولذلك كان نشاطه الاصلاحى فى مدينة الموصل ذاتها ، وقد ذكرنا ذلك عندما تحدثنا عنه فى الفصل الثانى من الكتاب .

كذلك ليس هناك ما يدل على أن لزين الدين يوسف ، الذى خلف والده على امارة المدينة ، أى أثر فى الانشاء والتعمير فى المدينة .

أما مظفر الدين ، فقد كانت له اليد الطولى فى هذا المضمار ، وقد سجل له المؤرخون ما قام به من تعمير اربل وزيادة العمران

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة اربل .

بها حتى نال اعجاب المعاصرين له وغير المعاصرين ، بحيث يقول القائلون بأن اربل وصلت الى أوج عظمتها حوالى عام ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) ، وأن الانشاءات التى أقامها مظفر الدين على التل الذى تقوم عليه المدينة والقلعة أثارت اعجاب الجوابين ، فقد جعل التل من الفخامة بحيث كان الانسان يراه وهو على بعد ساعات منه ، أما القلعة فكانت لا تقل فخامة وعظمة عن قلعتى حمص وحلب المشهورتين ، وان كانت تفوقهما كثيرا فى الضخامة (١) .

فقد ذكرنا أن المدينة تقع على تل مرتفع فسيح فى الهضبة ، وكان الحكام السابقون لاربل لا يهتمون الا بالجزء الأعلى من التل حيث تقع فيه القلعة والدور والأسواق والجامع ، أى أنه كان هو الجزء المعمور من التل كله ، أما الجزء الأسفل ، وهو سفح التل فقد كان مهملا لا يعيره حكام اربل أى التفات فلما كان مظفر الدين ، اهتم بهذا الجزء الأسفل اهتماما كبيرا ، واعتنى بتعميره اعتناء جميلا ، تتيجة لما اعترى المدينة من نشاط اجتماعى قام به مظفر الدين ، فازدادعدد سكانها بمن وفد اليها من الناس من البلاد المجاورة لها بعد أن أصبحت الحياة طيبة فيها ، لما عرف عن حسن سياسة مظفر الدين وعدالة حكمه وتشجيعه للعلماء ، فأقيمت فى السفح المنازل والأسواق والقيساريات لنزول التجار الغرباء فيها ، حتى أصبح هذا الجزء مركزا لحركة تجارية كبيرة ، ثم أخذت حركة الانشاء والتعمير تمتد وتتسع حتى تخطت الأسوار القديمة للمدينة بمسافات واسعة طولا وعرضا ،

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : آربل .

فغدت المدينة أهم مدينة فى الاقليم ، ومن ثم أخذ كثير من سكان البلاد المجاورة لها يفدون اليها ويقيمون بها (١) .

وقد زار ياقوت صاحب كتاب معجم البلدان ، والمعاصر لمظفر الدين مدينة اربل فوصف ربض قلعتها — وهو الجزء الذى عمره مظفر الدين — بقوله : « وفى ربض هذه القلعة فى عصرنا ، مدينة كبيرة عريضة طويلة ، قام بعمارتها وبناء سورها وعمارة أسواقها وقيساريتها الأمير مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين كجك على ، فأقام بها وقامت بمقامه ، وصار له هيبة ، وقاوم الملوك ، ونابذهم بشهامة وكثرة تجربة حتى هابوه ، فانخفظت بذلك أطرافه ، وقصدها الغرباء وقطنها كثير منهم حتى صارت مصرا كبيرا من الأمصار (٢) » .

وأنشأ مظفر الدين فى اربل مسجدا كبيرا ، له منارة رائعة يبلغ ارتفاعها ٥٠٣ أقدام ، أما محيطها فانه يبلغ ٤٨ قدما ، وقد نقش على مآذنها اسم مظفر الدين (٣) .

مجتمع مظفر الدين :

عرفنا مما سبق ، أن مظفر الدين نشأ نشأة دينية ، وقلنا أن نشأته الدينية أهلته فى حياته العامة لأن يكون حاكما صالحا .

وقد أثرت نشأته الدينية أيضا فى حياته الخاصة ، فكان بعيدا كل البعد عن مظاهر الامارة والملك التى أظهر مظاهرهما ، الملبس

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : اربل .
(٢) معجم البلدان ، مادة : اربل .
(٣) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : اربل .

الفاخر ، والمطعم الشهى ، والمسكن الفخم ، والمواكب الزاخرة بالكبرياء والعظمة . بل ان معيشته كانت أقرب الى معيشة الزهاد والمتصوفين . فقد كانت أطيب أوقاته ، هى تلك التى يقضيها بين المتصوفين فى حلقات الذكر ، وكان كثيرا ما يشترك معهم فى أذكارهم حتى يأخذه الوجد فيتمايل كما يتمايلون ويهتز كما يهتزون ، منتشيا من انشاد المنشدين وصوت المزامير وضرب الدفوف ، وكان كثيرا ما يهدى المنشد الذى يطرب من صوته وانشاده بعض ملابسه مكافأة له ، يضاف الى ذلك ، اهتمامه الشديد وولعه ولعا كبيرا بالنبى عليه الصلاة والسلام ، بحيث كان يحتفل بمولده عليه السلام احتفالا بلغت روعته وعظمته مسامع المسلمين المجاورين لاربل القريبين منهم والبعيدين ، فكانوا يفدون الى اربل زرافات ووحدانا لمشاهدة هذا الاحتفال العظيم.

وكان مظفر الدين يحترم العلماء والفقهاء والمحدثين ويكرمهم ويكثر الجلوس معهم ، ويجزل لهم العطاء .

وكان من الطبيعى وحال مظفر الدين على ما وصفنا أن يمنع المنكرات من أن تجد طريقها فى بلاده سرا أو علانية ، فحرم دخول المنكر فى بلاده ، وكان يعاقب من يقترفه .

فاذا كان مظفر الدين على هذا الخلق الطيب والسجايا المستحبة، فليس من شك فى أن شعبه قد تأثر به وسار على خطاه فى الصلاح والتقوى ، فقد قيل : ان الناس على دين ملوكهم ، فاذا كان الملك صالحا صلحت رعيته خاصتها وعامتها ، وبالتالى يصلح المجتمع كله واذا كان فاسدا انكبت رعيته على الفساد مقتفين أثره فيفسد

المجتمع كله ، ولذلك فانه من المستطاع القول بأن مجتمع مظفر الدين كان مجتمعا سليما من الفساد الى حد كبير ، قائما على مبادىء أخلاقية ممتازة وسجايا حميدة .

يضاف الى هذا كله ، حسن سياسة مظفر الدين ، وتجنبه الاثقال على شعبه ، بل تيسيره على الناس معيشتهم وبره بهم ، فكان شعبه يعيش عيشة رغدة ، كل انسان مطمئن على عرضه وماله ودمه .

وكان مظفر الدين اشتراكيا بكل ما فى الاشتراكية من معنى، وقد استفاد مجتمعه من اشتراكيته فائدة كبيرة ، ذلك أنه وضع أموال الدولة وماله الخاص فى خدمة شعبه ولم يضن بها عليه . قال مظفر الدين لبعض خواصه : لما أخذت اربل ، آليت على نفسى أن أقسم مغلها (ايرادها) ثلاثة أقسام : قسم أنفقه فى أبواب البر ، وقسم للجند وما يخصنى ، وقسم أدخره لعدو يقصدنى . وبذلك يكون قد عدل فى هذه القسمة . وقد عدل فى انفاق القسم الأول عدلا تاما ، فكان ينفقه فى أبواب البر حقا كما سنعرف ذلك بعد قليل ؛ وعدل فى القسم الثالث ، فكان ينفقه فى الدفاع عن بلاده اذا طرقها مغير ، وعدل فى الشطر الأول من القسم الثانى ، فكان يعطى الجند حقوقهم أى مرتباتهم كاملة ، ولكنه لم يعدل فى الشطر الثانى من القسم الثانى فانه حاف به على نفسه ، اذ أن الذى كان ينفقه على نفسه منه قليل ، وأما الكثير فانه كان ينفقه على أبواب البر مع القسم الأول ، لأنه وجد أن القسم الذى خصصه لأبواب البر لا يكفى لاسعاد شعبه ، ودليل هذا ما يروى

عن زوجته ربيعة خاتون ، أنها قالت ، ان مظفر الدين كان يلبس ثوبا يساوى خمسة دراهم من خام ، فقالت له : لو لبست ألين من هذا ، فان بدنك ما يحتمل الخشن . فقال لها : أيهما أصلح وأكثر أجرا ، أن ألبس ثوبا بعشرة دراهم أو ألبس ثوبا بخمسة دراهم وأتصدق بخمسة على فقير أو مسكين[1] ؟ ؛ وما يذكره عنه أيضا معاصره ابن خلكان بأنه « كان له فى فعل الخيرات غرائب لم يسمع أن أحدا فعل فى ذلك ما فعله ، لم يكن فى الدنيا شىء أحب اليه من الصدقة [2] » . ويقول عنه معاصره الآخر سبط ابن الجوزى : « وكان كثير الصدقات ، غزير البر والصلات [3] » . أما معاصره الثالث ، ياقوت الحموى ، فانه يقول عنه « كان مفضل على الفقراء : كثير الصدقات على الغرباء [4] » .

فمن أنواع البر التى كان يضفيها على الفقراء والمحتاجين من أبناء شعبه ، توزيعه الخبز عليهم كل يوم ، يقول معاصره ابن خلكان : « وكان له كل يوم قناطير مقنطرة من الخبز يفرقها على المحاويج فى عدة مواضع من البلد ، يجتمع فى كل موضع خلق كثير ، يفرق عليهم فى أول النهار [5] » .

ومنها أيضا توزيعه الأكسية ، فكان يعطى لكل فقير كسوة شتوية وأخرى صيفية فى كل سنة ، وكان ينتهز فرصة عودته

(١) مرآة الزمان ، ج ٨/ص٦٨٢ .
(٢) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٢ .
(٣) مرآة الزمان ، ج ٨/ص ٦٨٠ .
(٤) معجم البلدان ، مادة : اربل .
(٥) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٢ .

من غزوة أو من سفرة أو من رحلة صيد ، حيث كان الفقراء يجتمعون حول داره لاستقباله وتهنئته بسلامة العودة ، فكان يكسو كل واحد منهم ومع الكسوة مبلغ من المال حسب حالة الشخص من الفقراء [١] .

وكان مظفر الدين يتخذ من المناسبات الدينية سبلا لبر شعبه وتخفيف ضيق المعيشة على الفقراء والمحتاجين وذوى العسرة ، كما يتخذها سبلا للترفيه عن الناس ، من ذلك احتفاله بالمولد النبوى الشريف ، فقد كان الاحتفال بمولد النبى عليه الصلاة والسلام من أهم المناسبات عنده وأحبها الى قلبه ، فقد كان حبه للنبى صلى الله عليه وسلم يملأ عليه نفسه ، ولذلك كان يحتفل بمولده كل سنة احتفالا عظيما ، ينفق فيه الأموال الطائلة حتى تصل الى كل يد ، فكان هذا الاحتفال يعتبر أعظم مواسم مدينة اربل ، حيث يستمتع فيه الشعب بكل أنواع الاستمتاع الدنيوى البرىء من مأكل ومشرب وملبس ، وترويح عن النفس بالاستماع الى الموسيقى والأغانى ، ومشاهدة الصور المتحركة (خيال الظل) الى جانب الاستمتاع الدينى ، حيث تعقد حلقات للاستماع الى سيرة النبى الكريم ، وحلقات القراء يرتلون آى الذكر الحكيم ويجودون ، وكذلك حلقات الوعاظ ، والى جانب هذه وتلك ، حلقات الذكر ، حيث يقوم الذاكرون بطريقتهم الصوفية فى حلقات يذكرون الله بطريقتهم الخاصة ، تحت انشاد المنشدين ، وألحان الزامرين وضاربى الدفوف .

---

(١) وفيات الأعيان : ج ٣/ص ٢٧٢ .

وقد انتشرت أخبار عظمة احتفال مظفر الدين بالمولد النبوى فى البلاد المجاورة لاربل ، سواء القريبة منها والبعيدة ، فكان المسلمون يفدون اليها للاستمتاع بهذا الاحتفال ، فكان يفد اليها الناس على اختلاف طبقاتهم ، الفقهاء والمحدثون والأدباء والشعراء والتجار ، حتى الفقراء كانوا يفدون اليها مع الوافدين ، لينالوا من بر مظفر الدين ، فكانت المدينة تمتلىء بالناس ، وتضيق بمن فيها طيلة أيام الاحتفال .

ومما كان يزيد من روعة الاحتفال وابتهاج الشعب ، أن مظفر الدين كان يشترك معهم فى جميع مظاهر الاحتفال الدنيوية والدينية فى بساطة ودون تكلف كأنه واحد منهم ، فكان يقف مع الشعب فى كل مكان يشاهد الألعاب وأنواع التسلية ، ويشترك مع المتصوفة والمتعبدين فى حلقات الذكر ، ويجلس فى الحلقات يستمع الى قصة السيرة وتلاوة القرآن الكريم .

وقد وصف المؤرخ ابن خلكان ، احتفال مظفر الدين بالمولد وصفا موجزا ، ولكن يتبين من هذا الايجاز روعة الاحتفال وعظمته ، فكيف تكون حقيقته لو أن ابن خلكان وصفه وصفاً كاملا؟

يقول ابن خلكان ان الاستعداد للاحتفال يبدأ من شهر المحرم من كل سنة حيث يصدر مظفر الدين أمره بالبدء بنصب قبته الخاصة ، ثم يأخذ الأمراء والأعيان فى اقامة قبابهم ، كل أمير وعين من الأعيان يقيم له قبة خاصة به يقيمها على نفقته ، فيصل عدد القباب التى تقام الى أكثر من عشرين قبة ، تمتد على طول الطريق من باب قلعة المدينة حتى باب الخانقاه المجاور للميدان .

وتصنع القباب من الخشب ، وهى قباب ضخمة عالية ، حيث تحتوى كل قبة على أربع أو خمس طبقات . ويستمر نصبها حتى أوائل شهر صفر ، حتى اذا انتهوا من نصبها ، يبدأون بتزيينها بالأقمشة الفاخرة ذات الألوان الجميلة المختلفة ، حتى اذا انتهوا من ذلك ، تبدأ فرق الملاهى تحتل أماكنها فى القباب ، فتتخذ كل فرقة مجلسها فى طبقة من طبقات القبـة ؛ فتشغل فرقة المغنين — أو جوقة المغنين كما كانوا يسمونها فى ذلك العهد — احدى الطبقات ، وتشغل طبقة أخرى ، فرقة أصحاب (خيال الظل) ، وتشغل طبقة ثالثة فرقة الموسيقيين ، وتشـغل طبقة رابعة فرقة الملاعبين ، أى أن كل طبقة من طباق القبة تشغلها فرقة تختلف عن غيرها ، حتى تشمل القبة كل أنواع الملاهى والمسليات ، وتتكرر الفرق فى القباب كلها ، وبذلك يتيسر للناس فرص كثيرة لمشاهدة أكثر من فرقة لنوع واحد من الملاهى فى كل قبة .

وما أن تستقر كل فرقة فى طبقتها فى القبة ، حتى يبدأ الناس بالاستمتاع بالاحتفال ، فيشغى المكان بالمتفرجين من أهل اربل وغيرها ممن وفد من البلاد المجاورة لها .

وكان مظفر الدين يشارك الناس أفراحهم ويختلط بهم ؛ فكان ينزل كل يوم بعد صلاة العصر الى مكان الاحتفال ويتنقل بين القباب ، ويقف عند كل قبة ، فيسمع الغناء والموسيقى ، ويشاهد أرباب الخيال وما يعرضونه من الصور والمشاهد ، ويظل يتنقل من قبة الى أخرى حتى يأتى عليها كلها ، وذلك ارضاء للأمراء والأعيان أصحاب القباب ، وترضية لمن فيها من أرباب الملاهى ،

وليشعر الشعب أنه يشاركهم فرحهم فى هذه المناسبة الكريمة ، فاذا ما انتهى من المرور على القباب ، يتجه الى الخانقاه ، حيث يكون المتصوفون مستعدين لاقامة حلقات الذكر التى كان مظفر الدين شغوفا بها شغفا كبيرا ، فيشترك معهم فى حلقاتهم ، وعندما كان ينتشى ، كان يرقص ويتواجد ويتمايل معهم . ويظـل فى الخانقاه حتى يؤدى صلاة الصبح ، ثم يخـرج بعـد الصلاة الى الصيد — وهى رياضته المفضلة — فما يزال يتصـيد الى ما قبل الظهر ، ثم يعود الى القلعة . وكان يسير على هذا البرنامج كل يوم الى أن تحين ليلة المولد .

ويستمر الناس فى الفرجة والاستمتاع بالاحتفال منذ شهر صفر الى ما قبل ليلة المولد بيومين ، وعندئذ تجمع الابل والأبقار والأغنام المعدة للذبح لاطعام الناس ، وهى أعداد ضخمة ، ثم تخرج من حظائرها الى الميدان لذبحها فى استعراض كبير ، حيث تزفها الطبول والموسيقى والأغانى ، وحولهـا الجزارون حتى يؤتى بها الى المكان المعد لذبحها ، حيث يكون الاستعداد لنحرها مهيأ ، وما أن تصل الى الميدان حتى يشمر الجزارون عن سواعدهم ويشرعون فى نحرها ، ويكون الطباخون مستعدين بقـدورهم وأوانيهم لتلقى اللحوم لطبخها مع ألوان مختلفة من الأطعمة ، وكذلك الشواءون لشى اللحوم والطيور .

ويستمر الذبح والطهو طيلة اليومين ، حتى اذا كانت ليلة المولد ، يصلى مظفر الدين صلاة المغرب فى القلعة ، ثم ينزل فى

موكب كبير الى الخانقاه ، يحيط به حملة الشموع من أمام ومن وراء ، وعن يمينه وعن شماله ، ويتوسط حملة الشموع ، بغلان أو أربعة بغال ، على ظهر كل بغل شمعة ضخمة من شموع المواكب، مربوطة على ظهر البغل ومن ورائها رجل يسندها ؛ ويظل مظفر الدين سائرا فى موكبه حتى يصل الى الخانقاه ، فيمكث فيها ليشترك فى حلقات الذكر ، ثم يعود بعد ذلك الى القلعة .

فاذا كان صبيحة يوم المولد أنزلت الخِلع (هدايا من الملابس) التى أعدها مظفر الدين للاهداء من القلعة الى الخانقاه على أيدى رجال من الصوفية ، على يد كل شخص منهم بقجة ، ويسيرون فى صف طويل ، كل واحد منهم وراء الآخر حتى يصلوا الى الخانقاه . ثم ينزل مظفر الدين بعد ذلك من القلعة الى الخانقاه ، حيث يكون أعيان الدولة والرؤساء مجتمعين ، وحيث يكون كرسى الوعظ قد نصب فيها . وينصب أيضا لمظفر الدين برج من خشب له شبابيك تطل على الميدان ، ويوضع له فيه كرسى ليجلس عليه ويرى منه الناس واستعراض الجيش .

والميدان رقعة من الأرض غاية فى الاتساع ، يكون معدا للاحتفال بالمولد احتفالا عسكريا ، حيث يجتمع الجيش بموسيقاه وطبوله ، ويبدأ استعراض الجيش على نغمات الموسيقى طول النهار .

ويتنقل مظفر الدين فى البرج بين الشبابيك فيجلس آنا فى الناحية التى فيها الجيش ليشاهد استعراضه ، ويجلس آنا فى

الناحية الأخرى ليرى الناس وهم مجتمعون فى حلقات حول الوعاظ .

وفى أثناء استعراض الجيش ، يوزع مظفر الدين هداياه على الحاضرين من الأعيان ورؤساء الدولة وقواد الجيش ، وعلى ذوى المكانة من الضيوف الوافدين من البلاد الأخرى ، وكذلك على الفقهاء والمحدثين والأدباء والشعراء والوعاظ والقراء .

حتى اذا انتهى عرض الجيش ، يكون مظفر الدين قد انتهى من الاهداء على جميع من عنده ، وفى الوقت نفسه يكون قد أعد سماطين كبيرين عظيمين ، أحدهما للعامة من أهل اربل والوافدين عليها من عامة الناس ومتوسطى الحال ، ويكون هذا السماط فى الميدان ، ويبدأ من الخانقاه وينتهى عند القلعة ، والسماط الآخر فى الخانقاه لمن عنده من ذوى المكانة من الضيوف وكبار رجال دولته .

أما سماط العامة ، « ففيه من الطعام والخبز شيء كثير لا يحد ولا يوصف » كما يقول ابن خلكان . وأما سبط ابن الجوزى ، فانه يقدم لنا أسماء بعض الأطعمة التى يشتمل عليها السماط رواية عن شاهد عيان ، فيقول : « وحكى لى من حضر بعض السنين فقال : عددت على السماط مائة قرش قشلميش [1] ، وخمسة آلاف رأس مشوى ، وعشرة آلاف دجاجة ، ومائة ألف

(١) هكذا بالمرجع الذى نقلنا عنه ، ولعله نوع من الطعام ولم نقف على كنهه .

زبدية[1] ، وثلاثين ألف صحن حلوى [2] » فيجتمع الناس على السماط فيأكل من شاء أن يأكل ، ويحمل من الطعام من شاء أن يحمل .

أما السماط الآخر ، فانه يحتوى على نفس أطعمة السماط الأول ، فيتحلق حوله الأعيان وكبار رجال الدولة وأعيان الضيوف الوافدين ، ويتناولون الطعام حتى ينتهوا منه .

ولا ينسى مظفر الدين — وهو فى غمرة هذا الاحتفال — من لم يحضر الاحتفال أو السماط لسبب من الأسباب ، فكان يأمر بحمل طعامه الى داره ، لينال من بركة المناسبة ما نال غيره ، وليشترك جميع من فى بلده فى فرحة الموسم .

ويستمر الأمر كذلك الى ما بعد صلاة العصر ، ثم يبقى مظفر الدين فى الخانقاه ، حيث تقام حلقات الذكر (وباصطلاح ذلك العصر : السماعات) حتى الصباح ، وبشروق الشمس تنتهى الاحتفالات بالمولد ، فيعود أهل اربل الى حياتهم العادية ، ويستعد الضيوف الى العودة كل الى بلده ، وحتى هؤلاء الضيوف لا ينساهم مظفر الدين فقد كان يدفع لكل فقير منهم نفقات عودته تيسيرا له [3] .

---

(١) الزبدية ، اناء توضع فيه الأطعمة . ففى ذيل مرآة الزمان (ج ٢/ص ٣٠١) فى ترجمة الأمير لاچين بن عبد الله المتوفى سنة ٦٦٢ ، أنه كان على سماطه : مائة زبديه عادلية (نسبة للملك العادل الأيوبى) كبار فى كل زبدية منها خروف صحيح رضيع ، وقريب ثلاثمائة زبدية دون تلك ، فى كل زبدية ثلاثة طيور دجاج .

(٢) مرآة الزمان ، ج ٨/ص ٦٨٠ .

(٣) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٣ ؛ مرآة الزمان ، ج ٨/ص ٦٨٠ .

وكان مظفر الدين يحس بما يعانيه حجاج اربل من مشقة الطريق الى الحرمين مكة والمدينة فكان يعمل على تهيئة أسباب الراحة لهم فى الطريق ، فكان يسير مع الحجاج سبيلا من الماء ، ويسير معهم مندوبا من عنده ، مزودا بكل ما يحتاج اليه الحاج فى الطريق (١) .

هذه بعض أنواع البر التى كان يقدمها مظفر الدين الى شعبه وهو بر عام يناله كل من يريده ويرغب فيه ، الا أن هناك فئات من الناس كان مظفر الدين يرى أنهم فى حاجة الى بر خاص ورعاية خاصة ، هم المرضى ، والأرامل ، والأيتام : واللقطاء ، والعميان ، فأنشأ لهم المصحات والملاجىء ، ولم يبخل عليهم فى الانفاق وأضفى عليهم من انسانيته وعطفه ما كان ينسيهم آلامهم وتعاستهم ، الأمر الذى يذكرنا بعصر الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى (٨٦— ٩٦ هـ) ، الذى كان يهتم بما اهتم به مظفر الدين فى القرن السابع الهجرى ، أى بعد ستة قرون .

دار الزمنى :

والزمنى هم المرضى بالجذام ، فجمع مظفر الدين المصابين بهذا المرض الخبيث وبنى لهم دارا يقيمون فيها ، وزودها بكل ما يحتاج اليه المريض من طعام وشراب وكساء وعلاج ، ثم جعل لكل مريض خادما خاصا به يقوم على رعايته وخدمته (٢) .

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٣ .
(٢) مرآة الزمان ، ج ٨/ص ٦٨١ .

دار العميان :

واهتم مظفر الدين بمكفوفى البصر من أبناء اربل وغيرها من بلاده ، فان أمثال هؤلاء المنكوبين تسد فى وجوههم أبواب الرزق لعجزهم عن العمل ، فلم يتركهم مظفر الدين يتخبطون فى حياتهم أو يبذلون ماء وجوههم ويهدرون انسانيتهم بسؤال الناس ، فأعفاهم مظفر الدين من هذا كله ، وبنى لهم دارا يقيمون فيها ، وجهزها بكل ما يحتاجون اليه من مأكل ومشرب وملبس ، وخصص لكل واحد منهم أيضا خادما يقوم على شأنه وخدمته[1].

واذا كان مظفر الدين قد قام بما يجب عليه كحاكم ازاء هؤلاء المنكوبين من الناحية المادية ، فانه لم يكتف بهذا ، وانما أمدهم بانسانيته وعطفه ما أنساهم بلواهم ، يزورهم يوم الاثنين والخميس من كل أسبوع ، فيدخل على كل واحد منهم ، ويسأله عن حاله ، ويباسطه ويمزح معه حتى يمر عليهم جميعا ، ثم يهب لهم ما تجود به يده من مال ، علاوة على ما هو مقرر لهم ، فكان النزلاء يجدون من هذا العطف الانسانى ما يثلج صدورهم ويجبر قلوبهم [2] .

دار الأيتام :

واهتم مظفر الدين بالأطفال الأيتام ، بنات وبنين ، من الذين فقدوا آباءهم وأمهاتهم ومن لا عائل لهم ، وحفظهم من خطر

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص٢٧٢ ، مرآة الزمان ، ج ٨ / ص ٦٨٢ .

(٢) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٢ .

التشرد ومفاسده ، فبنى لهم ملجـأ جمعهم فيه ، وزوده بكل ما يحتاجون اليه من مقومات الحياة ، كما عيّن فيه المشرفات على تربيتهـم .

ولم يقف مظفر الدين عند جمع الأيتام واليتيمات بين جدران أربعة ، وانما كانت انسانيته أوسع من ذلك وأكبر ، فقد كان يزورهم بين الحين والحين فى فترات متقاربة ويضفى عليهم من عطفه وأبوته وبخاصة اليتيمات ، فكان حين يزورهن ، كان يجلس معهن ، ويقعد اليتيمة على فخذه ويداعبها ، ويسألها عما اذا كان لها مطلب أو حاجة ، فيقول لها : ايش تريدين تأكلين ؛ ايش تريدين تكتسين ؟ فكان يلبى طلبها ويأمر بتنفيذه مهما طلبت . وكانت اليتيمة اذا بلغت سن الزواج ، كان يختار لها الزوج الذى يناسبها ويزوجها منه ، وينفق على حفلة زواجها من ماله [١] . أما الأيتام الذكور ، فالغالب أن مظفر الدين كان ييسر لمن يكبر منهم العمل ، ويقدم لهم المساعدات لاستقبال حياتهم الجديدة .

دار اللقطاء :

وفى اربل — كما فى غيرها من بلاد الدنيا — أطفال يولدون سفاحا ، نتيجة نزوة طائشة بين ذكر وأنثى ، ويكون مصـيرهم القذف فى الطرقات والأماكن الخربة فتكون نهايتهم الموت المحتم، فكانت انسانية مظفر الدين أكبر من أن تترك هؤلاء الأبرياء الذين يتخلى عنهم أبواهم فيلقونهم الى حتفهم دون ذنب أو جريرة ،

(١) مرآة الزمان جـ ٨/ص ٦٨١ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٣/ ص ٢٧٢ .

فبنى لهم ملجأ زوده بالمرضعات ، فكان كل لقيط يعثر عليه ، يحمل الى هذا الملجأ ، فيسلم الى احدى المرضعات لتقوم على ارضاعه وتربيته [1] . وبهذا العمل الانسانى الجليل ، حفظ مظفر الدين أرواحا كان مصيرها الهلاك والموت .

دار الأرامل :

وامتدت عناية مظفر الدين الى الأرامل الفقيرات ، اللاتى يتوفى عنهن أزواجهن وليس لهن من يعولهن من أقارب ، فبنى لهن دارا يأوين اليها ، وأعدها بكل ما يحتجن اليه من مأكل ومشرب وملبس ، وكان يتعهدهن بنفسه ، فيزورهن ويسألهن عما يحتجن اليه ، فكان يأمر بتلبية رغباتهن واستكمال ما ينقصهن [2] .

أما نفقات مظفر الدين على هذه الدور فكانت مائتى ألف دينار سنويا ، على ما يرويه سبط بن الجوزى ، المعاصر لمظفر الدين [3] .

***

وكان لمظفر الدين أنواع أخرى من البر ينفقها على غير أهل بلاده ، من ذلك ، بناؤه دار الضيافة فى اربل ، خصها لمن يفد الى اربل سواء للتجارة أو لمصلحة من المصالح ، أو للمسافرين الذين يعبرون اربل وهم فى طريقهم الى البلاد التى يقصدونها ، فكان مظفر الدين يلمس ما يناله المسافر من تعب الطريق ومشقته ،

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣ ص ٢٧٢ .
(٢) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٧٢ .
(٣) مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٦٨١ .

كذلك كان يعلم ما يتحمله التاجر من عناء حين يقصد بلده للتجارة، فأشفق على هؤلاء جميعا ، وعمل على التخفيف عنهم وتيسير سبل اقامتهم فى بلده والترويح عن أنفسهم ، فبنى لهم دارا سماها دار الضيافة ، زودها بكل ما يحتاج اليه الضيف فى اقامته من مأكل ومشرب وأماكن للنوم ، وألحق بالدار المطابخ لاعداد الأطعمة والأشربة للضيوف ، وخصص للدار مائة ألف دينار سنويا تنفق لهذا الغرض، فكان كل وافد يقيم فى الدار ما شاء له أن يقيم ، فكان يجد الأمن والطمأنينة على نفسه وماله . ولم يكتف مظفر الدين بهذا ، وانما كان يدفع لكل ضيف فقير يعزم على مغادرة اربل نفقة لسفره ، كل على حسب احتياجاته (1) .

***

كذلك امتد بره الى فقراء المسلمين فى الحرمين الشريفين مكة والمدينة ، فان فقراء هاتين المدينتين العزيزتين على المسلمين جميعا كانوا فى حاجة الى معونة المسلمين لمحل أراضيهم وجدب بلادهم ، فكان الطعام والكساء يأتيان اليهم من مختلف البلاد الاسلامية تقربا من المسلمين الى الله ، فالمسلمون فى بقاع العالم الاسلامى المختلفة ، يكرمون أهل مكة اكراما لبيت الله الحرام ، ويبرون أهل المدينة محبة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لذلك كانت المدينتان المقدستان محل رعاية مظفر الدين وعنايته، فكان يرسل الى فقرائهما كل سنة غذاء وكساء بما قيمته ثلاثون

(1) وفيات الأعيان ، جـ ٣/ص ٢٧٣ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨/ ص ٦٨٣ .

ألف دينار توزع عليهم ، سوى ما كان يبر به من أخنى عليه الدهر بعد عز ونعمة ، فكان هؤلاء يبرهم سرا صونا لماء وجوههم من ذل السؤال ، وضنا بكرامتهم أن تمتهن[1] .

ولمظفر الدين مأثرة أخرى فى مكة والمدينة ، وذلك أن الماء قليل فى المدينتين ، وكان الماء يقل فيهما فى موسم الحج لكثرة الحجاج وحاجتهم اليه ، فلمس مظفر الدين ما يقاسيه أهل المدينتين من مشقة حصولهم على الماء مع مزاحمة الحجاج لهم فى مواسم الحج ، فبنى فى المدينتين خزانات لخزن ماء المطر ، حتى يتوفر لسكانهما الماء على مدار السنة [2] . كذلك كان ينفق عشرة آلاف دينار على السبيل ، وألف دينار برسم اجراء الماء الى البرك بعرفات [3] .

***

وكان الأسرى المسلمون الذين يقعون فى قبضة الصليبيين شغل مظفر الدين الشاغل ، وكان أمرهم يثيره ويزعجه . فقد عاش مظفر الدين — كما سبق أن ذكرنا — فى عصر الحروب الصليبية ، وخاض غمار كثير من معاركها بنفسه ، فكان يرى المسلمين يقعون أسرى فى أيدى الصليبيين بالعشرات والمئات . وكان قبل أن يلى ملك اربل يعجز عن مساعدة الأسرى لضعف حيلته وقلة موارده المالية ، فلما أن ملك اربل ، لم يتوان فى شراء حرية عدد كبير منهم فى كل سنة ، فكان يرسل نوابه الى الصليبيين ، مرتين فى

(١) مرآة الزمان ، ج ٨/ص ٦٨٣ .
(٢) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٣ .
(٣) مرآة الزمان ، ج ٨/ص ٦٨٢ .

السنة لشراء حرية عدد من المسلمين المأسورين عندهم ، وقد أحصى ما كان يدفعه كل سنة من المال ثمنا لحرية اخوانه فى الدين، فبلغ مائة ألف دينار ، أما الأسرى الذين خلصهم من الأسر مدة حكمه فبلغوا ستين ألف أسير ما بين رجل وامرأة . وكان اذا تفد منه المال ، يبيع ما عنده من المجوهرات فى دمشق ويشترى بها حرية الأسارى . وكان نوابه يخيرون الأسير بعد أن يطلق سراحه بين أن يعود الى بلده وأهله ، أو أن يسير معهم الى اربل والاقامة بها ؛ فمن كان يرغب منهم فى العودة الى أهله وبلده ، كانوا يزودونه بالمال اللازم حتى يبلغ مأمنه ، وأما من كان يرغب الاقامة فى اربل ، فكانوا يأخذونه معهم اليها ، فكان مظفر الدين يبر هؤلاء الأسرى برا كريما ، ويقوم لهم بكل ما يحتاجون اليه من مسكن ومطعم وكساء (١) ، فحفظ هؤلاء المسلمين من التشرد والضياع ، فكان منهم من فقد أهله ، ومنهم من فقد ماله ، ومنهم من احتل الصليبيون بلاده .

الجانب الثقافى :

والى جانب هذين الجانبين ، جانب الانشاء والتعمير والجانب الاجتماعى الانسانى ، وهما جانبان عظيمان كما قد رأينا ، كان هناك الجانب الثقافى .

وليس من السهولة تقييم الحركة الثقافية فى اربل قبل عصر مظفر الدين ، وذلك لقلة ما كتب عن اربل قبل عصره ، وانما على

(١) وفيات الأعيان ، جـ ٣/ص ٢٧٣ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨/ص ٦٨٢ .

ضوء التراجم القليلة التى مرت بنا لبعض الشخصيات الاربلية المولد ، يؤكد وجود مدارس فى اربل ، وأن هذه الشخصيات تلقت علومها الأولى فى مدارس اربل ، ثم رحلوا الى العواصم الاسلامية يستزيدون من مناهلها العلمية ، فكان منهم الفقهاء ، والقضاة ، ورجال الافتاء ، والأدباء ، والشعراء .

وقد سار مظفر الدين على سنة من سبقه فى انشاء المدارس، فأنشأ مدرسة باسمه لتدريس الفقهين الشافعى والحنفى ، وكان يدرس فيها أيضا ، التفسير ، والحديث ، والنحو ، فنالت من الشهرة ما فاقت به مدارس اربل كلها بسبب اهتمام مظفر الدين بها وشهرة شيوخها ومدرسيها ؛ فمن الذين درّسوا بها :

محمد بن ابراهيم بن أبى بكر بن خلكان المتوفى سنة ٦١٠ ، وهو والد قاضى القضاة والمؤرخ المعروف ابن خلكان صاحب كتاب « وفيات الأعيان » (١) .

كذلك درس بها أخوه عمر بن ابراهيم ، المتوفى سنة ٦٠٩ ، وهو عم ابن خلكان المؤرخ (٢) .

وبعد وفاة والد ابن خلكان ، درس بها أبو الفضل أحمد بن موسى بن يونس بن منعة ، المتوفى سنة ٦٢٢ ، وقد درس ابن خلكان المؤرخ على ابن منعة هذا ، وكان يحضر دروسه وهو صغير . ويذكر ابن خلكان عن أبى الفضل ، أنه « كان اماما كبيرا

---

(١) وفيات الأعيان ، جـ ١/ص ٩٠ • ترجمة أحمد بن موسى ابن منعه الاربلى •

(٢) طبقات الشافعية ، جـ ٥/ص ١٣٠ •

فاضلا عاقلا حسن السمت جميل المنظر » . وأنه « كان كثير المحفوظات غزير المادة » ، وكان ابن خلكان يعجب بالقائه ، فيقول : « وما سمعت أحدا يلقى الدروس مثله . وظل ابن منعة يلقى الدروس بمدرسة مظفر الدين حتى سنة ٦١٧ ، ثم سار الى الحج ، ولما عاد انتقل الى الموصل (١) .

كذلك درّس بها أبو العباس الخضر بن نصر الأربلي الشافعي المتوفى سنة ٦١٩ ، وكان أبو العباس متفننا فى العلوم ، وله تصانيف حسنة فى التفسير والفقه ، وانتفع بعلمه خلق كثير (٢) .

وعبد اللطيف بن أبى النجيب السهروردى ، ومن تلاميذه الحافظ محمد بن عبد الغنى المعروف بابن نقطة (٣) .

ومحمد بن هبة الله النحوى ، ومن تلاميذه مجد الدين أحمد ابن على بن أبى غالب الأربلى النحوى المعدل ، وقد توفى سنة ٦٥٧(٤) .

وقد تخرج على مدرسة مظفر الدين عدد كبير من أبناء أربل، حصلوا علومهم الأولى فيها ، ثم رحلوا الى العواصم الاسلامية الكبرى يغترفون من ينابيعها العلمية حتى وصلوا الى أكبر المراتب العلمية والأدبية ، نذكر منهم على سبيل المثال :

فمن الفقهاء : أبو القاسم نصر بن عقيل بن نصر الاربلى ،

(١) وفيات الأعيان ، ج ١/ص ٩٠ .
(٢) شذرات الذهب ، ج ١٤/ص ١٣٣ .
(٣) شذرات الذهب ، ج ٥/ص ٨٦ .
(٤) البداية والنهاية ، ج ١٢/ص ٢٨٧ .

المتوفى سنة ٦١٩ . وقد ولد أبو القاسم باربل سنة ٥٣٤ ، وتفقه بها على عمه أبى العباس الخضر ، ثم توجه الى بغداد سنة ٦٠٠ ، ويبدو أنه شغل احدى الوظائف بها ، ولعلها وظيفة التدريس فاستاء منه مظفر الدين — لسبب لم يذكره المرجع[1] — فاستولى على أملاكه . وظل أبو القاسم فى بغداد حتى سنة ٦٠٦ ، ثم غادرها الى الموصل وأقام بها حتى مات .

ومن المفسرين : أبو العباس الخضر بن نصر الاربلى الشافعى، المتوفى سنة ٦١٩ (وقد ذكرناه من قبل)[2] .

ومن المفتين : كمال الدين سلار بن الحسن بن عمر بن سعيد الاربلى ، المتوفى سنة ٦٧٠ ، ويذكره العماد الحنبلى بأنه « مفتى الشام ومفيده » . ويقول عنه الشريف عز الدين ، انه « كان عليه مدار الفتوى بالشام فى وقته ، ولم يكن فى بلاد الشام مثله »[3] .

ومن القراء : أبو الحسن على بن عبد العزيز الاربلى ، ومن تلاميذه الامام شعلة بن محمد شارح الشاطبية ، والمتوفى سنة ٦٥٦[4] .

---

(١) نص المرجع : « ثم توجه الى بغداد سنة ستمائة ، فآذاه بتوليتها مظفر الدين واستولى على أملاكه ... » (شذرات الذهب ، ج ٦/ص ٨٦) ويلاحظ أن هناك عبارة سقطت من النص ، وهى الوظيفة التى وليها أبو القاسم .

(٢) شذرات الذهب ، ج ٥/ص ٨٦ .

(٣) شذرات الذهب ، ج ٥/ص ٣٣١ .

(٤) شذرات الذهب ، ج ٥/ص ٢٦١ .

ومن القضاة : أحمد بن محمد بن ابراهيم بن خلكان ، المتوفى سنة ٦٨١ ، تفقه على والده بمدرسة اربل ، ثم انتقل بعد موت أبيه الى الموصل ، وحضر دروس الامام كمال الدين بن يونس ، ثم انتقل الى حلب وأقام عند الشيخ بهاء الدين أبى المحاسن يوسف ابن شداد وتفقه عليه ، وقرأ النحو على أبى البقاء يعيش بن على النحوى . ثم قدم دمشق واشتغل على ابن الصلاح . ثم انتقل الى القاهرة وناب فى الحكم ، ثم ولى قضاء المحلة ، ثم قضاء الشام . ومن مصنفاته فى التاريخ « وفيات الأعيان » ، وكان أديبا شاعرا (١) .

ومن اللغويين : أبو عبد الله الحسين بن ابراهيم الهذبانى الاربلى اللغوى ، المتوفى سنة ٦٥٦ ، وكان يعرف اللغة ويقرئها ، وكان محدثا أيضا . وكان الملك المعظم عيسى الأيوبى صاحب دمشق ، قد أمر الجمال عبد الله بن الحافظ عبد الغنى أن يرتب مسند الامام أحمد بن حنبل على أبواب الفقه ، فاستعان بجماعة من المحدثين ، منهم الحسين بن ابراهيم (٢) .

ومن النحويين : شمس الدين بن الخباز النحوى ، وهو أبو عبد الله أحمد بن الحسين بن أحمد بن معالى الاربلى ، المتوفى سنة ٦٣٩ ، نشأ باربل وتعلم بها ، ثم انتقل الى الموصل وأقام بها ، وله تصانيف فى الأدب (٣) .

---

(١) طبقات الشافعية ، ج ٥/ص ١٤ .

(٢) شذرات الذهب ، ج ٥/ص ٢٧٤ ، مرآة الزمان ، ج ٨/ ص ٦٤٣ .

(٣) شذرات الذهب ، ج ٥/ص ٢٠٢ .

ومن الأدباء : العلامة مجد الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن عمر الأربلى الحنفى الأديب . ولد باربل سنة ٦٠٢ ونشأ بها ، وتلقى دروسه الأولى على مشايخها ، ثم استكمل دروسه على علماء بغداد ودمشق — ثم اشتغل بالتدريس بالمدرسة القيارية بدمشق — وله ديوان مشهور ، ونظمه رائق مع الجلالة والديانة التـامة (١) .

ومن المؤرخين : المؤرخ المعروف ابن خلكان ، وقد ذكرناه من قبل فى كلامنا عن القضاة .

والى جانب مدرسة مظفر الدين ، كانت هناك المجالس والندوات الدينية والأدبية . وكانت المجالس والندوات الدينية يعقـدها مظفر الدين لتغلب نشأته الدينية عليه . يقول ابن خلكان ، ان مظفر الدين كان شديد الميل الى أهل السنة والجماعة ، لا ينفق عنده من أرباب العلوم سوى الفقهاء والمحدثين ، ومن عداهما لا يعطيه شيئا الا تكلفا ، وكذلك الشعراء لا يقول بهم ولا يعطيهم الا اذا قصدوه ، فما كان يضيع قصدهم ولا يخيب أمل من يطلب بره »(٢) . وكان أحب علم من العلوم الدينية الى مظفر الدين هو « الحديث » ومحبته لأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام تنفق ومحبته للنبى ، ولذلك كان يكثر من مجالسة المحدثين والاستماع اليهم . يذكر سبط ابن الجوزى ، أن مظفر الدين سمع مسند الامام أحمد بن حنبل كله من المحدث حنبل بن عبد الله بن سعادة

---

(١) شذرات الذهب ، ج ٥/ص ٣٥٩ .
(٢) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٦ .

المكبر المتوفى سنة ٦٠٤ (١) ، ولولعه بالحديث أنشأ مدرسة لتدريسه فى مدينة الموصل (٢) ، وان كنا لا ندرى سبب انشائها فى هذه المدينة ولم ينشئها فى اربل ، اللهم الا أن يكون قد رأى أن الاستفادة منها فى الموصل أكبر منها فى اربل لاتساع الموصل وكثرة سكانها والمترددين عليها .

وكان لفرط محبته للنبى ، يحتفل بذكرى مولده عليه الصلاة والسلام كل سنة الاحتفال الذى وصفناه من قبل . وقد حدث أن دخل أبو الخطاب عمر بن الحسين بن دحية مدينة اربل فى سنة ٦٠٤ هـ ، وهو فى طريقه من نيسابور الى خراسان ، وتصادف يوم دخوله اليها أن الاحتفال بالمولد النبوى كان قائما على قدم وساق ، فبهره ما رأى من عظمة الاحتفال وروعته ، فأقام بالمدينة أياما ، ألف خلالها كتابا فى مولد النبى سماه « التنوير فى مولد السراج المنير » وقدمه لمظفر الدين وقرأه عليه بنفسه ، ففرح به مظفر الدين فرحا شديدا ، وأجاز مؤلفه عليه ألف دينار ، وغمره بالهدايا اللطيفة والنفقات الجزيلة (٣) . وأصبح هذا الكتاب شغل مظفر الدين الشاغل ، فكان يكثر من قراءته ويسمعه الى كل ضيف كبير يفد عليه وكان يقرأه عليه بنفسه . يقول ابن خلكان ،

---

(١) مرأة الزمان ، جـ ٨/ص ٥٣٧ ، ترجمة : حنبل بن عبد الله ابن الفرج المكبر .

(٢) الموصل فى العهد الأتابكى ، ص ١٥٤ .

(٣) وفيات الأعيان ، جـ ٣/ص ٢٧٦ .

انه — أى ابن خلكان — سمع الكتاب على مظفر الدين فى ستة مجالس فى جمادى الآخرة سنة ٦٢٦[1] .

وكانت حياة مظفر الدين الخاصة ، كما سبق أن ذكرنا ، أقرب الى حياة التصوف منها الى أية حياة أخرى ، فقد كان يكثر من الاجتماع بالمتصوفين فى المواسم وغير المواسم ، سواء فى الخانقاه أو فى مدرسته التى أنشأها ، فكان يحضر معهم السماعات ، أى حلقات الذكر ، وكان يشترك معهم فى هذه الحلقات ، وكان يتواجد من الانفعال والحماس كما يتواجدون .

كذلك كان يجالس العلماء والفقهاء وكل مشتغل بالعلوم الدينية ، فقد كان فى اربل — فى أيامه — نخبة طيبة من هؤلاء العظماء ، أمثال : محمد بن ابراهيم والد ابن خلكان المؤرخ ، وأخيه عمر بن ابراهيم ، وأبى الفضل أحمد بن موسى بن منعة ، وأبى الخير بدل التبريزى ، والحسن الغنوى ، وشرف الدين الذى كان يشتغل بالحكميات .

واذا كانت الصفة الغالبة لثقافة مظفر الدين ثقافة دينية ، الا أنه كان يميل الى علم التاريخ ، فكان يطالع فيه ويستمع الى رواته . يقول ابن خلكان ، ان مظفر الدين « كان يميل الى علم التاريخ وعلى خاطره شيء منه »[2] . ومعنى هذا أن مظفر الدين كان يشترك فى بعض الندوات الأدبية التى كانت تعقد فى دور الأدباء وكبار رجال الدولة ممن يتذوقون الأدب .

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ١٢٢ .
(٢) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٦ .

وقد كان الى جانب المجالس والندوات الدينية التى كان يعقدها مظفر الدين مع الفقهاء والمحدثين والصوفية ، كانت هناك ندوات أدبية تعقد فى بيوت الأثرياء ورجال الدولة الذين لهم نصيب كبير من العلوم الأدبيــة ، أمثــال : ابن المســتوفى ، ومجد الدين أسعد الشيبانى ، والحاجرى الشاعر ، وغيرهم من الأدباء والشعراء .

وكان ابن المستوفى وهو أبو البركات المبارك بن أبى الفتح أحمد ، آخر وزراء اربل على عهد مظفر الدين ، وكان أديبا كبيرا يتذوق الأدب والشعر وكان محدثا نحويا لغويا عروضيا شاعرا أيضا ، وكان يعقد الندوات الأدبية فيجتمع عنده الأدباء والشعراء والفقهاء . وابن المستوفى اربلى المولد والموطن ، ولد باربل فى منتصف شهر شوال ســنة ٥٦٤ هـ ، وهو من بيت كبير كان فيه جماعة من الرؤساء الأدباء . وتولى والده وعمه صــفى الدين أبو الحسن على بن المبارك منصب الاستيفاء فى اربل ، وكان عمه هذا يتقن اللغتين العربية والفارسية ، فنقــل كتاب « نصيحة الملوك » لحجة الاسلام الغزالى الى اللغة العربية ، وكان الغزالى قد ألف الكتاب باللغــة الفارسية . وقد شــغل ابن المستوفى منصب الاستيفاء فى اربل حتى سنة ٦٢٨ ، ثم عينه مظفر الدين وزيرا له . ويترجم له ابن خلكان ، فيقول : « وكان رئيسا جليل القدر ، كثير التواضع ، واسع الكرم ، لم يصل الى اربل أحد من الفضلاء الا بادر الى زيارته وحمل اليه ما يليق بحاله ويقرب الى قلبه بكل طريق ، وخصوصا أرباب الأدب ، فقد كانت سوقهم

لديه نافقة . وكان جم الفضائل ، عارفا بعدة فنون ، منها : الحديث وعلومه وأسماء رجاله وجميع ما يتعلق به وكان اماما فيه ؛ وكان ماهرا فى فنون الأدب من النحو واللغة والعروض والقوافى وعلم البيان ؛ وأشعار العرب وأخبارها وأيامها ووقائعها وأمثالها ؛ وكان بارعا فى علم الديوان وحسابه وضبط قوانينه على الأوضاع المعتبرة عندهم »(١) .

وجمع ابن المستوفى تاريخا لمدينة اربل فى أربعة مجلدات ، واستعان به ابن خلكان فى تراجمه التى أوردها فى كتابه « وفيات الأعيان »(٢) ، وكتاب ابن المستوفى ليس تاريخا بالمعنى المفهوم ، وانما هو كتاب تراجم ، وهو مع ذلك مفقود .

وكان ابن المستوفى يعقد المجالس العلمية ، ويتحلق حوله المشايخ الواردين على اربل فكان يقرأ عليهم بنفسه ، وكثيرا ما حضر ابن خلكان مجالسه هذه وهو صغير وسمع منه (٣) .

وكان ابن المستوفى شاعرا ، وله ديوان شعر أجاد فيه ، ومن شعره بيتان فضل فيهما البياض على السمرة ، وهما :

لا تخدعنك سمرة غراره
ما الحسن الا للبياض وجنسه

فالرمح يقتل بعضه من غيره
والسيف يقتل كله من نفسه (٤)

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٩٤ .
(٢) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٩٤ .
(٣) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٩٤ .
(٤) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٩٤ .

وقد حدث أن اعتدى شخص على ابن المستوفى وهو عائد الى داره ليلا فوثب عليه وضربه بسكين يريد أن يطعنه فى قلبه ، فتلقى ابن المستوفى الضربة بعضده فجرحته جرحــة متسعة ، فأحضر المزين وخاطها ومرخها (دهنها بمرهم) وقمطها باللفائف ، ثم كتب الى مظفر الدين هذه الأبيات يخبره بما حدث له :

يا أيها الملك الذى سـطواته ... من فعلهــا يتعجب المــريخ
آيات جودك محكم تنزيلهــا ... لا ناسخ فيها ولا منســوخ
أشكو اليك وما بليت بمثلها ... شـنعاء ذكر حديثهــا تاريخ
هى ليلة ولدت فيها وشاهدى ... فيما ادعيت القمط والتمريخ[1]

وحينما وفد الشرف عبد الرحمن بن أبى الحسن بن عيسى البوازيجى الشاعر على اربل فى سنة ٦٢٨ ، وكان ابن المستوفى يوم ذاك وزيرا ، سيّر الى الحسن مثلوما [2] على يد شخص كان فى خدمته يقال له الكمال بن السعار الموصلى ، فجاء الكمال الى الشاعر وقال له : الصاحب (أى ابن المستوفى) يسلم عليك ويقول لك : أنفق الساعة هذا حتى يجهز لك شيئا يصلحك ، فتوهم الشاعر أن يكون الكمال قد قرض القطعة من الدينــار وأن شرف الدين ما سيره الا كاملا ، فأراد استعلام الحال من ابن المستوفى ، فكتب اليه :

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٩٤ .

(٢) المتلوم : عبارة عن دينار تقطع منه قطعة صغيرة ، وقد جرت بهـــذه القطع الصغيرة ويسمونها « القراضة » ، كذلك يتعاملون
بهذه القطع الصغيرة ويسمونها « القراضة » ، كذلك يتعـــاملون
بالدينار المثلوم . (وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٩٤) .

يا أيها المولى الوزير ومن به   فى الجود حقا تضرب الأمثال
أرسلت بدر التم عند كماله   حسنا فوافى العبد وهو هلال
ما غاله النقصان الا أنه   بلغ الكمال ، كذلك الآجال

فأعجب ابن المستوفى بهذا المعنى وحسن الاتفاق ، وأجاز الشاعر وأحسن اليه (١) .

وكان دار ابن المستوفى بمثابة صالون الأدب فى أيامنا هذه ، يجتمع عنده العلماء والأدباء والشعراء يتناظرون ويتساجلون الشعر . وقد حدث أن أهدى مجد الدين أسعد بن ابراهيم رئيس ديوان انشاء مظفر الدين ، ابن المستوفى فى بعض الليالى طبقا فيه تفاح مخضب وسفرجل على يد غلام جميل الصورة ، وكان عند ابن المستوفى جماعة من الشعراء ، منهم عيسى بن سنجر الحاجرى ، فقال كل واحد من الحاضرين فى ذلك شعرا ، فقال الحاجرى :

أهدى لنا المجد تفاحا وأحمره
من خد من حمل التفاح مسترق
وللسفرجل من أعلاه رائحة
يضوع منها لمهديه ثنى عبق
فظلت أعجب من حالين كيف حوى
وصف الغلام ووصف السيد الطبق (٢)

وكان من يعرف ابن المستوفى من الشعراء لا يخاطبه الا بالشعر ، من ذلك ، أن علاء الدين بن صالح الاربلى حاجب مظفر الدين ،

---
(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٩٤ .
(٢) ذيل مرآة الزمان ، ج ١/ص ١١٢ .

كتب الى على بن عثمان السليمانى الاربلى الشاعر ، وكان بدمشق، فى أن يتولى عليّ الاشراف على البيمارستان فى اربل ، فرفض وكتب الى ابن المستوفى :

يا أيهـــا المولى الوزيـــر ذو الرعـــاية والعنـــاية
ان العـــــلاء أضـــلنى بالقـــول عن طـــرق الهـداية
لألى لمارســـــــتانكم وأقـــوم فيـــه بالكفـــاية
وانى لمحتـــــاج اليـــــه متى أجبت الى الولاية (١)

وكان مجد الدين أسعد بن ابراهيم بن حسن بن على الشيبانى النشابى الاربلى من كبار موظفى حكومة مظفر الدين ، فقد كان يتولى كتابة الانشاء له ، وكان مجد الدين أديبا شاعرا .

وكان مولد مجد الدين باربل فى شهر صفر سنة ٥٨٣ ؛ وكان فى أول أمره يشتغل بصناعة النشاب ؛ ولما كبر سافر من اربل وتنقل فى بلاد الجزيرة الفراتية والشامية ثم عاد الى اربل وتولى كتابة الانشاء لمظفر الدين حوالى عام ٦١٥ هـ ، وظل فى منصبه حتى شهر رمضان سنة ٦٢٩ ، فقبض مظفر الدين عليه وحبسه .

وكان مجد الدين يحمل على موظفى حكومة مظفر الدين حملات عنيفة ويهجوهم هجاء لاذعا ، فقد كان مشرف ديوان اربل نصرانيا يقال له يعقوب ، فحبسه مظفر الدين لسبب ما وولى مكانه نصرانيا آخر يقال له المختص ، وغريب من مظفر الدين أن يولى على ديوانه نصرانيا ، الا أن يكون من باب سماحة مظفر الدين وبعده عن التعصب الدينى .

---

(١) ذيل مرآة الزمان ، جـ ٢/ص ٤٨١ .

على كل حال ، لما حبس مظفر الدين ، يعقوب النصرانى وولى مكانه المختص ، هجا مجد الدين كلا من يعقوب والمختص ، فقال :

فرحنا بيعقوب اللعين وحبسه
وقلنا أتانا ما يطيب به القلب
فلما ولى المختص فالشر واحد
اذا ما مضى كلب أتى بعده كلب[١]

وسوف نذكر هجاءه اللاذع للموظفين فى مناسبة أخرى ستأتى فى موضعها .

ويذكر اليونينى[٢] ، أن مظفر الدين صحب معه مجد الدين فى رحلته الى بغداد فى سنة ٦٢٩[٣] ، فلما دخل مظفر الدين ومعه مجد الدين على الخليفة المستنصر بالله ، تقدم المجد بين يدى الخليفة وحياه بقوله :

جلالة هيبة هذا المقام تحير عالم علم الكلام
كأن المناجى به قائما يناجى النبى عليه السلام

ثم قال نثرا : « ولو كشف الغطا لرأينا الملائكة بك حافة ، ووجدنا الروح الأمين يجدد تلاوة الوحى المنزل ، على ابن عم النبى المرسل ، ويقول هذا أكرم الخلفاء وأفضل ، وصلاة الله وسلامه يخصان الأكرم الأفضل » .

---

(١) ذيل مرآة الزمان ، ج ١/ص ١١٧ .
(٢) ذيل مرآة الزمان ، ج ١/ص ١١٧ .
(٣) انظر الفصل الثامن من الكتاب .

ولو جمع الأئمـــة فى مكان

وأنت به لكنت لهــم امــاما

« فالله تعالى يؤيد هذه الدولة الشريفة بنصره ، ويرد كيد عدوها فى نحره » غير أن ابن شاكر الكتبى ، يذكر أن مجد الدين حيا الخليفة بهذه التحية ، فى سفارة له بعثه بها مظفر الدين اليه ، ولم يذكر الكتبى تاريخ هذه السفارة وسببها (١) .

وعلى الجملة ، كان على عهد مظفر الدين حركة ثقافية دينية وأدبية ، لا نستطيع أن نقول انها كانت حركة واسعة ، ولكنها على كل حال وصلت الى مسامع جيرانه من البلاد المجاورة فأثارت اعجاب أهلها ، كذلك أثار اعجابهم سيرة مظفر الدين نفسه ومحبته لأهل العلم . وقد سبق أن ذكرنا أنه لما اتفق مظفر الدين مع عــلاء الدين قراسنقر صاحب مراغة للاستيلاء على بلاد أبى بكر بن البهلوان ، أن أيتغمش مملوك أبى بكر ، عاتب مظفر الدين فى الرسالة التى بعثها اليه ، وقال له فيها : « اننا كنا نسمع عنك انك تحب أهل العلم والخير وتحسن اليهم، فكنا نعتقد فيك الخير والدين .. » ، وهذا دليل على ما كان يتمتع به مظفر الدين من سمعة طيبة ، الأمر الذى دفع كثيرا من الناس الى قصد اربل والاقامة بها اقامة دائمة أو اقامة مؤقتة ، فمن العلماء الذين أقاموا فى اربل اقامة مؤقتــة ، ابن سراقة الشاطبى (٢) . وقد ولد ابن سراقة بمدينة شاطبة من بلاد الأندلس،

(١) فوات الوفيات ، جـ ١/ص ١٧ .

(٢) هو أبو بكر محيى الدين محمد بن محمد بن ابن الحسين .

ثم رحل منها الى مدينة حلب وولى مشيخة دار الحديث البهائية بها ، ثم سار منها الى مصر فتولى دار الحديث الكاملية بها ، وفى سنة ٦٣٦ أو ما قبلها رحل الى بغداد فى طلب الحديث ، وأثناء عودته منها دخل مدينة اربل فى سنة ٦٢٦ وأقام بها مدة ، قرأ أثناءها على المحدث أبى الخير بدل التبريزى . ويقول عنه اليونينى المؤرخ ، انه كان أحد الأئمة المشهورين بغزارة الفضل، وكثرة العلم والجلالة والنبل ، وكان مجبولا على كرم الأخلاق وترك التكلف ورقة الطبع ولين الجانب ، بالاضافة الى أنه كان شاعرا [١] .

ومن الذين أقاموا باربل اقامة دائمة وتوفى بها ، أبو حفص[٢] قاضى خلاط ، وكان أبو حفص فقيها شافعيا ، وعالما أصوليا ، وواعظا ، وشاعرا . وكان حسن الكلام فى الوعظ والتذكير ، وله مصنفات فى علم الأصول ، وكان من محاسن القضاة وظرافهم ، وكان ذا عفاف ونزاهة ودين . ومن شعره :

وقفت وربـع العـــــامرية دائر
ودمعى ووجـــدى سـابق متواتر
وقفت وذكراها تجـــــدد لوعتى
وأبكى كما تبكى الغوادى البواكر

وقد أورد له اليونينى أبياتا كثيرة من هذه القصيدة [٣] .

---

(١) ذيل مرآة الزمان ، ج ٢/ص ٣٠٤ .
(٢) هو اسحاق بن هبة الله بن صديق بن محمود بن صالح .
(٣) ذيل مرآة الزمان ، ج ٢/ص ٤٠١ .

ولم يقتصر مظفر الدين فى بره وفعله للخير على اربل وحدها، وانما تعداها الى الموصل ودمشق .

فأما فى الموصل ، فقد سبق أن ذكرنا أنه بنى فيها دارا لتدريس علم الحديث ، لينتفع بها أكبر عدد من الراغبين فى هذا العلم من طلاب وشيوخ ، وقد اشتهرت هذه الدار باسم « دار الحديث المظفرية » ، نسبة الى منشئها مظفر الدين .

وأما فى دمشق ، فقد بلغه — فى سنة ٥٨٩ — أن رجلا يقال له أبو داود محاسن شرع فى بناء جامع بسفح جبل قاسيون من ماله الخاص ، ولكن بعد أن ارتفع البناء مقدار قامة رجل ، نفد مال الرجل فتوقف العمل فى البناء ، فلما بلغ مظفر الدين ذلك أرسل الى الشيخ أبى عمر شيخ المدرسة الفارسية — وكان هو الذى يشرف على عملية البناء — مالا لاتمام بناء الجامع فأتمه ؛ ثم رأى مظفر الدين أن يسوق الماء الى الجامع من مكان يقال له « برزة » ، تيسيرا على المصلين فى استعماله للوضوء والنظافة ، فأرسل الى أبى عمر ألف دينار لهذا الغرض، ولكن الملك المعظم عيسى الأيوبى — ملك دمشق — اعترض على المشروع ، لأن تنفيذه يستدعى نبش قبور المسلمين ، لأن الطريق الذى ستمتد فيه مواسير الماء كله قبور ، واقترح المعظم أن يشترى الشيخ أبو عمر بغلا وأن يعملوا له مدارا لتزويد الجامع بالماء ، ثم يشترى بما يفضل من المال مكانا يوقفوه على البغل والمدار للانفاق عليهما ، وبذلك لا يؤذى أحد من المسلمين، ففعل الشيخ ما اقترحه الملك المعظم . وقد أوقف مظفر الدين

وقوفا كثيرة على الجامع ، للانفاق منها على صيانته ، وللصرف منها على المدرسين والطلاب ، وما يحتاجه الجامع من خدمات[1]، وقد حمل الجامع اسم مظفر الدين ، فكان يعـرف فى دمشق باسم « الجامع المظفرى »[2] .

***

غير أنه برغم الخدمات الجليلة التى قدمها مظفر الدين لبلده وشعبه ، لم يعدم أن وجد قادحا يهجوه هجاء قبيحا مرا ، هو ياقوت الحموى صاحب كتاب معجم البلدان ، الذى سبق أن أبدى اعجابه به وبالاصلاحات الكبيرة التى أنشأها باربل [3] ، فبرغم هذا الاعجاب يصفه بقوله : « وطباع هذا الأمير مختلفة متضادة ، فانه كثير الظلم ، عسوف بالرعية ، راغب فى أخـذ الأموال من غير وجهها ، وهو مع ذلك مفضل على الفقراء ، كثير الصدقات على الغرباء ، يسير الأمـوال الجمـلة الوافرة يستفك بها الأسارى المسلمين من أيدى الكفار (الصليبيين) ، وفى ذلك يقول الشاعر :

كساعية للخـير من كسب فرجهـا

لها الويل لا تزنى ولا تتصـدق[4]

وينقل ابن واصل فى كتابه « مفرج الكروب » عن ياقوت

(١) مرآة الزمان ، ج ٨/ص ٥١٠ .

(٢) البداية والنهاية ، ج ١٣/ص ١٣٧ .

(٣) انظر ما سبق ، ص ٢١٧ .

(٤) معجم البلدان : مادة أربل .

تجريحه لمظفر الدين ، فيقول : « كان مظفر الدين ملكا جليلا شجاعا مقداما ، ذا همة عالية وبأس شديد ، الا أنه كان فيه ظلم وعسف وانجاح فى استخراج الأموال ، ومع هذا ، فكانت له صدقات دارة ومعروف كثير »[1] .

وعجيب من ياقوت وابن واصل أن يصفا مظفر الدين بالظلم والعسف لمصادرته بعض الناس ، وأن يفوتهما مغزى عمل مظفر الدين وسببه ، خاصة وأنهما قد عاشا فى عصر كانت مصادرة الحكام لطبقة خاصة من الناس تقليدا أخذ حكم القانون لعقاب من يستحق العقاب . والأعجب من ذلك ، أنهما ردا على أنفسهما اتهامهما لمظفر الدين ، فبالرغم من أنهما يصفانه بالظلم والعسف واستخراج الأموال من بعض الناس ، يذكران أوجــه صرفها ، وهى أوجه الخير والبر ، ومعنى هذا أن مظفر الدين لم يستحوذ على الأموال المصادرة لنفسه ، ولم يكتنزها فى خزائنه ، أو ينفقها على ملذاته وشهواته ، وانما كان — كما يقرران — ينفقها على أبواب الخير ، كان ينفقها على الفقراء والمحتاجين ، وشراء حرية الأسارى المسلمين من الصليبيين .

واذا عرفنا أى نوع من الناس كان مظفر الدين يصادر أموالهم ، استطعنا تحديد سبب المصادرة ، فانه كان يصادر أموال المستغلين من موظفيه الذين كانوا يثرون على حساب الشعب عن طريق الرشاوى والسرقة والاعتداء على حقوق الضعفاء ، ولعله كان يصادر أيضا التجار الجشعين الذين كانوا يحتكرون

---

(١) مفرج الكروب ، جـ ٢/لوحة ٢٨٩ (مخطوط) .

احتياجات الشعب من غـذاء وكساء فيضـيقون على النـاس سبل معيشتهم ، فكان مظفر الدين يصادر أموال أمثال هؤلاء الناس ويردها الى الشعب ، أى أنه كان يعيد الى الشعب حقه المسلوب .

وقد قيض الله لمظفر الدين من يدافع عنه من معاصريه وأن يفهم حكمة المصادرة على وجهها الصحيح ، وأعنى به سبط ابن الجوزى المؤرخ المعاصر لمظفر الدين ، فقد فهم هذا المؤرخ معنى مصادرة مظفر الدين أموال بعض الناس ، بل انه يحدد الناس الذين كان يصادرهم ، حيث يقول بعد أن يذكر ما كان ينفقه مظفر الدين على أبواب البر : « قلت : ومع هـذه المناقب فلا يسلم من ألسنة الناس ، ويقولون : هـذا يصادر ديوانه ودواوينه وكتابه (أى موظفيه وعماله) ويستأصلهم ، ولعله اطلع منهم على جنايات (أى خيانات) فرأى أخـذ الأموال وانفاقها فى البر والقربات أولى ، وذكروا أشياء أخر ، من ذا من ألسنة الناس يسلم ؟ اللهم غفرا »[1] .

ويمدنا اليونينى المؤرخ ببعض المعلومات عن سوء تصرف الموظفين واستغلالهم نفوذهم فيما أورده على لسان مجد الدين أسعد بن ابراهيم كاتب ديوان انشاء مظفر الدين ، وهو يعدد مساوئهم :

قد قسـمنا الديوان خمسة أقسـا
م عليهـا لكل قـول دليـل

(١) مرآة الزمان ، ج ٨/ ص ٦٨٣ .

رب حـق فلا يطـاع ومنسـو
ب الى الظـلم قـوله مقبـول
ثم شـخص كأنه الحرف فى النحـ
و فلا فاعـل ولا مفعـول
ومصرّ عـلى التحيف والظـلم
بعيـد عن الصـواب جهـول
وأخـو حاجـة يمشى أحـوا
لا لـديه ان جـاءه البرطيـل
أتراهـم لـم يعلمـوا أن كلا
منهـم عن فعـاله مسئول (١)

وحبس وزير اربل موظفى الديوان لتلاعبهـم فى حساب الدولة ، فقال مجد الدين يهجوهم :

جمـاعة الديوان فى ليـلة شـحط مظلمـة
وقد غـدت أيدى الوز ير منهـم منتقمـة
لا رحـم الله الذى يرحـم قوما ظلمـة

وقال أيضا :

جمـاعة ديواننا أصـبحوا وهم فى العذاب لسوء الحساب
فان يرجـو الوزير الثـواب فقتلهم من جـزيل الثواب(٢)

ومجد الدين هذا ، وان كان قد هجا الموظفين وكشف عن سوئهم ، فانه كان أيضا سيىء السيرة ، ويبدو أنه كان يقترف

---

(١) ذيل مرآة الزمان ، ج ١/ص ١١٦ ·
(٢) ذيل مرآة الزمان ، ج ١/ص ١١٧ ·

من المساوىء ما كان يقترفه الموظفون من استغلال النفوذ ، فضلا عن أنه كان سيء المعاملة لمن يعرفه حتى كرهه النـاس وهجاه بعضهم هجاء قبيحا ، مما جعل مظفر الدين يقدم على القبض عليه وحبسه فى احدى القلاع . يقول اليونينى المؤرخ عن مجد الدين : « وكان مجد الدين من الفضلاء الرؤسـاء والأعيان ، غير أنه كان مذموم المعاملة لأهل بلده ومعارفه ، لا ينصفهم فى الوداد ويتكبر عليهم ، فهجاه غير واحد بأهاجى قبيحة أضربنا عن ذكرها » [1] .

(١) ذيل مرآة الزمان ، ج ١/ص ١٢٤ .

الفصل الثامن

وفاة مظفر الدين

ظل مظفر الدين يحكم مدينة اربل مدة نصف قرن من الزمان حتى جاوز من العمر الثمانين عاما ، خدم فيه امارته وشعبه خدمات جليلة ، وكان أثناء حكمه مثال الحاكم المصلح المستنير الذى كرس حياته وبذل جهده لاسعاد الشعب الذى رضى به حاكما .

حتى اذا كان يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر رمضان سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) فارق مظفر الدين الحياة[١] ، بعد أن اطمأن الى أنه وضع امارته وشعبه فى يد أمينة ، هى يد الخليفة المستنصر بالله العباسى .

ذلك ، أنه لم يقدر لمظفر الدين أن ينجب وريثا لدولته ، كذلك لم يكن هناك من يرثه من أسرته سوى عماد الدين زنكى زوج ابنته ، ولكن مظفر الدين يعلم أنه لا يصلح لحكم اربل وأعمالها ، فآثر أن يورثها للخليفة .

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٦ .

ويبدو أن وراثة اربل من بعـــده كانت تشغله قبل وفاته بسنوات ، وأنه انتهى فى سنة ٦٢٧ الى أن يورثها للخليفة المستنصر وأنه جرت مفاوضات بينه وبين الخليفة انتهت بالاتفاق بينهما ، نستنتج هذا من خبر ذكره المؤرخ ابن الفوطى ، بأن الخليفـــة أرسل الى مظفر الدين فى سنة ٦٢٧ ، رسولين هما : محيى الدين يوسف بن الجوزى ، وسعد الدين حسن بن الحاجب على ، دون أن يذكر ابن الفوطى سبب ارسالهما اليه . ثم يذكر ابن الفوطى أيضا ، أن مظفر الدين سار معهما الى بغداد فى شهر المحرم سنة ٦٢٨ ، ونرجح هنا ، أن مهمة الرسولين كانت لتقرير قواعد الوراثة مع مظفر الدين ، فلما تقررت القواعد بينهم ، سار مظفر الدين الى بغداد بصحبة الرسولين لمقابلة الخليفة ، وابلاغه رسميا ما عزم عليه توريثه مدينة اربل .

ويصف ابن الفوطى مراسيم استقبال بغداد لمظفر الدين ، فيقول : ان مظفر الدين استقبل استقبالا رسميا ، فقد خرج نائب الوزارة فخر الدين أحمد بن مؤيد الدين القمى والأمراء والقضاة والمدرسون وجميع أرباب المناصب الكبيرة ، فاستقبلوه جميعا على بعد فرسخ من بغداد ، ثم سار الموكب حتى وصل سور المدينة ، حيث كان ينتظره الوزير لاستقباله ، فلما تقابل الوزير ومظفر الدين وجها لوجه تعانقا وكل منهما راكب فرسه، وبعد أن تبادلا التحية ترجل كل منهما ليقرأ الوزير على مظفر الدين تحية الخليفة له . قال الوزير : « لما انتهى الى مقار العز

والجلال ، ومعدن الرحمة والكرم والافضال — لا زالت الأبواب الشريفة ملجأ للقاصدين ، والأعتاب المنيفة منهلا للواردين — وصولك يا مظفر الدين ، رسم — أعلى الله المراسم الشريفة وأسماها ، وأنفذ أوامرها فى مشارق الأرض ومغاربها وأمضاها — قصدك وتلقيك ، واحماد مساعيك ، اكراما لك واحتراما لجنابك ، فتقابل ما شملك من الانعام بتقبيل الرغام ، والدعاء الصالح الوافر الاتسام ، المفترض على كافة الأنام ، والله ولى أمير المؤمنين » .

ولما انتهى الوزير من ابلاغ مظفر الدين تحية الخليفة له ، انحنى مظفر الدين وقبل الأرض مرارا (حسب مراسيم ذلك العصر) ردا على تحية الخليفة له ، ثم انتظم الموكب ودخل بغداد ، فلما وصل « باب النوبى » ترجل مظفر الدين ثانية ، وانحنى يقبل الأرض تحية منه للخليفة عن بعد ؛ وهنا ترك الوزير ، مظفر الدين وسار الى دار الوزارة ، لكى يكون فى استقباله هناك .

وأما مظفر الدين ، فانه ركب بعد أن أدى التحية للخليفة ، وسار الى دار الوزارة برفقة أبى الفضل بن الناقد أحد حجاب المناطق بالديوان ، فاستقبله الوزير ابن القمى استقبالا رسميا ، ومكث معه بعض الوقت ، ثم تركه وسار وبصحبته ولده وجميع أرباب الدولة والأمراء الى دار الخلافة ليكونوا فى استقبال مظفر الدين حين يأتى لمقابلة الخليفة .

ويصف ابن الفوطى دخول كبار رجال الدولة الى دار الخلافة على النحو التالى : دخل مؤيد الدين الوزير وابنه وخواصه من الباب القائمى بالمشرعة . وأما الولاة والأمراء فانهم دخلوا من باب عليان وباب الحرم ، ثم انتهى الجميع الى تحت التاج على شاطىء دجلة ، ووقفوا تحت الدار الشاطئية ذات الشبابيك .

أما مظفر الدين ، فان الوزير أرسل اليه الأمير ألب قرا الظاهرى وأحد خدم الخليفة الى دار الوزارة ليكونا فى صحبته الى دار الخلافة ، فسار مظفر الدين معهما فى موكب حتى وصل الى دار الخلافة ، فاستقبله من هناك من رجال الدولة ، ثم اتجهوا جميعا الى الشباك الأوسط ووقفوا أمامه ، فرفعت عندئذ الستارة عن الشباك ، فظهر الخليفة وهو جالس وراءه ، فانحنى الجميع يقبلون الأرض تحية له .

وكان قد نصب تحت الشباك الأوسط كرسى ذو درج ليصعد عليه من يريد أن يرى الخليفة من قرب أو يحادثه ، فلما رفعت الستارة ، صعد الى الكرسى كل من مظفر الدين والوزير وابن الناقد استاذ الدار . فلما رأى مظفر الدين الخليفة ، سلم عليه — حسب المراسيم المتبعة — وذلك بأن أشار بيده الى الشباك ، ثم تلا الآية الكريمة ، (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى) ، فرد الخليفة عليه السلام ، فقبل مظفر الدين الأرض مرارا تحية له ، ثم اتبع الخليفة سلامه بشكر مظفر الدين

على زيارته ، فعاود مظفر الدين الانحناء وتقبيل الأرض ، ثم أسدلت الستارة على الشباك ، اعلانا بانتهاء المقابلة ، فأخـذ مظفر الدين الى حجرة ، حيث تسلم خِلَع (هدايا) الخليفة المعدة لمثل هذه المناسبة ، وكانت الخلعة عبارة عن سيفين وفرس بمركب ذهب . ثم عاد مظفر الدين الى دار الضيافة المعدة لنزوله بنفس الموكب ، وقد رفع وراءه صنجقان مذهبان ، والناس تسير بين يديه حتى وصل دار الضيافة ، وأما حاشيته فقد نزلوا فى عدة دور ، وأما عسكره فقد أقاموا فى مخيم أعد لهم بظاهر المدينـة .

وكان مظفر الدين فى مدة اقامته ببغداد ، موضع حفاوة كبار رجال الدولة فيها ، فأقاموا له عدة مآدب حافلة .

وانتهز مظفر الدين فرصة وجوده فى بغداد ، فزار الأماكن الدينية فيها ، كالربط والخانقاهات ، واجتمع بالصوفية والمنقطعين للعبادة ، فكان كلما زار مكانا من هـذه الأمكنة ، احتفى به وأقيمت له المآدب الفاخرة .

ثم تحدد منتصف شهر المحرم لزيارة مظفر الدين للخليفة للمرة الثانية ، وجرت الزيارة على نفس مراسيم الزيارة الأولى وفى نفس المكان ، ولما ارتقى مظفر الدين الدرج ووقف أمام الخليفة ، خاطبه الخليفة بما طابت به نفسه ، فحيى مظفر الدين الخليفة بتقبيل الأرض ودعا له ، ثم قرأ الآية الكريمة . (يا ليت قومى يعلمون بما غفـر لى ربى وجعلنى من المكرمين) . ثم أسدلت الستارة بانتهاء المقابلة ، فأدخل مظفر الدين مرة أخرى

الى حجرة الخلع ، وأهدى له كوسات (١) وأعلام ، ومنحه الخليفة خمسين ألف دينار نفقة الطـريق له ولحاشيته وعشرة آلاف دينار لجنده . ثم سار مظفر الدين بعد ذلك الى دار الوزارة ، فحضر أفراد حاشيته ، فأنعم عليهم بالخلع والهدايا ، ثم عاد مظفر الدين بعد أيام الى اربل وبصحبته سعد الدين حسين ابن الحاجب عليّ ومحيي الدين يوسف بن الجوزى ليحضرا تحليف مظفر الدين أمراءه وأعيان اربل على طاعة الخليفة وتسليمه المدينة بعد وفاته (٢) . ومعنى هذا أن الاتفاق كان قد تم بين مظفر الدين والخليفة على وراثة اربل ، ويؤكد هذا ما ذكره سبط بن الجوزى ، بأن مظفر الدين عندما قدم بغداد ، كان معه مفاتيح اربل والقلاع ، وذلك لتسليمها الى الخليفة ، اعلانا منه بأن المدينة والقلاع أصبحت للخليفة بعد وفاته(٣) .

ولكن بعد أن توفى مظفر الدين ، حدثت أزمة تسببت عنها أضرار بليغة لمدينة اربل وأهلها ، ذلك أنه كان بقلعة اربل خادمان لمظفر الدين ، فلما اشتد بمظفر الدين المرض ، أرسلا الى كل من الخليفة وعماد الدين زنكى — زوج ابنة مظفر الدين — والملك الصالح نجم الدين أيوب ، بقرب وفاة مظفر الدين ، وأنذرا كلا منهم بأنه « من سبق الينا كانت منتنا عليه » ، الا أن هوى

---

(١) الكوسات : صنوج من نحاس تشبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بايقاع مخصوص. (صبح الأعشى، جـ ٤ /ص١٣/٩).

(٢) الحوادث الجامعة ، ص ١٩ — ٢٣ .

(٣) مرآة الزمان ، جـ ٨/ص ٦٨٠/٦٨١ .

الخادمين كان مع نجم الدين أيوب ، فأخذا يحثانه على الاسراع الى اربل لتسليمها اليه ، ولكن الخليفة كان أسرع من نجم الدين وعماد الدين ، حيث أرسل جيشه للاستيلاء عليها ، ولكن الخادمين رفضا تسليمها اليه ، وأوصدا أبواب المدينة لمنع دخول نائب الخليفة اليها ، فضرب الجيش الحصار عليها ، فدار القتال بينه وبين حامية القلعة ، انتهى بهزيمة الحامية ، واستيلاء الجيش على المدينة ودخولها في ملك الخليفة [1] .

---

(١) الحوادث الجامعة ، ص ٤٤ ، مرآة الزمان، ج ٨/ص ٦٨٣ .

المراجـــع

١ ـ **ابن الأثير** : على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الجزرى .

١ ـ التاريخ الباهر فى الدوله الأتابكية (بالموصـــل) . (تحقيق : عبد القادر أحمد طليمات . نشر دار الكتب الحديثة بالقاهرة ، سنة ١٩٦٣) .

٢ ـ الكامل فى التاريخ . (مطبعة الاستقامة بالقاهرة) .

٢ ـ **ابن خلكان** : أحمد بن محمد بن أبى بكر .

وفيات الأعيان وأبناء الزمان . (تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد . نشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٨) .

٣ ـ **ابن شاكر الكتبى** : محمد بن شاكر بن أحمد الكتبى .

فوات الوفيات . (تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة سنة ١٩٥١) .

٤ ـ **ابن شداد** : يوسف بن رافع بن تميم الأسدى .

سيرة صلاح الدين الأيوبى ، المسماة ، النوادر الســـلطانية والمحاسن اليوسفية . (مطبعة الآداب والمؤيد بمصر . سنة ١٣١٧ هـ) .

٥ ـ **ابن العديم** : عمر بن أحمد بن هبة الله بن جرادة .

زبدة الحلب من تاريخ حلب. (مصور : دار الكتب : ٢١٠٤ تاريخ تيمور) .

٦ ـ **ابن العماد الحنبلى** : أبو الفلاح عبد الحى .

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . (نشر : مكتبة القدسى بالقاهرة سنه ١٣٥٠ هـ) .

٧ ـ **ابن الفوطى** : كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق البغدادى .

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابقة .(المكتبة العربية ، بغداد) .

٨ ـ **ابن القلانسى :** حمزة بن أبى يعلى الأسدى .
ذيل تاريخ دمشق (تحقيق : آمدروز • بيروت سنة ١٩٠٨).
٩ ـ **ابن كثير :** أبو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير القرشى .
البداية والنهاية فى التاريخ . (مطبعة السعادة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م) .
١٠ ـ **ابن مسكويه :** أحمد بن محمد بن يعقوب .
تجـــارب الأمم وتعاقب الهمم (القاهرة ١٣٣٣ هـ = ١٩١٥ م) .
١١ ـ **ابن واصل :** محمد بن سالم •
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب (تحقيق : الدكتور جمال الدين الشيال • سنه ١٩٥٣) • ومصور بدار الكتب برقم : ٥٣١٩ تاريخ) •
١٢ ـ **أبو شامة :** عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسى •
الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية • (مطبعة وادى النيل بمصر – سنة ١٢٨٧ هـ) •
١٣ ـ **أبو المحاسن :** يوسف بن تغرى بردى الآتابكى •
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة • (مطبعة دار الكتب سنة ١٩٣٥) •
١٤ ـ **أسامة بن منقذ •**
كتاب الاعتبار • (نشر فيليب حتى • مطبعة جامعة برنستون. الولايات المتحدة • سنة ١٩٣٠) •
١٥ ـ **دائرة المعارف الاسلامية :** (الترجمة العربية) •
١٦ ـ **ولبر :** دونالد •
ايران ماضيها وحاضرها • (ترجمـــــة الدكتور عبد النعيم حسنين • القاهرة سنه ١٩٥٨) •
١٧ ـ **الديوهجي :** سعيد •
الموصل فى العهد الأتابكى • (مطبعة شفيق • بغـــداد سنة ١٩٥٨) •

١٨ ــ **السبكى :** عبد الوهاب بن تقى الدين .
طبقات الشافعية الكبرى . (المطبعة الحسينية ــ القاهرة ، ١٣٢٤ هـ) .

١٩ ــ **العراقى :** عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن .
القرب فى محبه العرب . (تحقيق : ابراهيم حلمى القادرى . الاسكندرية ١٣٨١ هـ = ١٩٦١ م) .

٢٠ ــ **العماد الأصفهانى :** عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الكاتب .
١ ــ الفتح القسى فى الفتح القدسى . المطبعة الخيرية ١٣٢٢ القاهرة .
٢ ــ خريدة القصر وجريدة العصر . (تحقيق : شكرى فيصل . دمشق ، سنة ١٩٥٩) .

٢١ ــ **القلقشندى :** أبو العباس أحمد .
صبح الأعشى فى صناعة الانشا . (المطبعة الأميرية . القاهرة سنة ١٩١٣ ــ ١٩١٥) .

٢٢ ــ **المقريزى :** تقى الدين أحمد بن على .
السلوك لمعرفة دول الملوك . (تحقيق : الدكتور مصطفى زيادة . مطبعة دار الكتب ١٩٣٤) .

٢٣ ــ **هنداوى :** محمد موسى (الدكتور) .
المعجم فى اللغة الفارسية . (نشر مكتبة مطبعة مصر) .

٢٤ ــ **ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى .**
معجم البلدان . (نشر الخانجى . مطبعة دار السعادة) .

٢٥ ــ **يوسف بن قزاوغلى التركى ، المعروف بسبط ابن الجوزى .**
مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان (طبعة الهند سنة ١٩٥١) .

٢٦ ــ **اليونينى :** قطب الدين موسى بن محمد .
ذيل مرآة الزمان . (طبعة الهند سنة ١٣٧٥ = ١٩٥٥ م) .

٢٧ ــ Encyclopaedia Britannica. vol. II (Ohio, 1907)

فهرس

صفحة

أعلام العرب

الكتاب القادم

رشيد رضا

الإمام المجاهد

بقلم

الدكتور إبراهيم أحمد العدوى

يصدر في ٧ سبتمبر ١٩٦٤

يطلب من

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

الثمن ٥ قروش

مطبعة مصر

